علي الزين

للبحث عن تاريخنا في لبنان

دار الفكر الحديث
للطباعة والنشر

دار الفكر الحديث
للطباعة والنشر
منطقة الصنايع . شارع محيي الدين الخياط
ص . ب : ١١/٨٤١١ بيروت . لبنان
تلفاكس: ٠١/٧٣٦٨٣١

علي الزين

للبحث عن تاريخنا
في لبنان

دار الفكر الحديث
للطباعة والنشر

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

دار الفكر الحديث

منطقة الصنائع - شارع ماري عدي - تلفاكس: ٠١/٧٣٦٨٣١
ص.ب.: ١١/٨٤١١ - رمز: ١١٠٧٢٢٦٠ - بيروت - لبنان

الإهـــداء

الى من كانوا طليعة الشباب العربي فكراً وعقيـدة ونضالاً ، الى النخبة المختارة من أبطال الفداء الذين أرادوا أن يغسلوا عار الهزيمة بدمائهم .

الى اولئك الشهداء الأبرار الذين استبسلوا وضحوا بأجسامهم وأرواحهم وبكل مغريات الدنيا وملذاتها دفاعاً عن ارض الوطن وصوناً لكرامة الأمة وتعبيراً عن حقها في الحياة الحرة الكريمة .

الى هؤلاء الذين عاشوا للمروءات والقيم والاهداف السامية واستشهدوا في سبيلها داخل فلسطين وعلى حدودها من أمثال السادة امين موسى سعد ، محمد عباس اخضر ، واصف شرارة ، فكانوا بذلك مشعلاً وهاجاً لطريق الجهاد ، وقدوة صالحة للجيل الصاعد، ورمزاً حياً للخلود بأسمى معانيه ومشخصاته .

الى ارواح هؤلاء اهدي كتابي هذا وان تضاءلت الهدية بجانب ما قدموه لأمتهم وبلادهم من كريم العطاء ومـــا سطروه بدمئهم من صفحات العظمة والبطولة .

المقدمة

للبحث عن تاريخنا الضائع والمنسي يجب ان نكون منسجمين مع منطق الحياة فلا نتعدى منهج البحث بلداً بلداً وحادثة بعد حادثة او جيلاً بعد جيل حتى اذا بلغنا من ذلك نهاية ما يصبو اليه المحققون جمعنا ما تهيأ لنا من حصيلة الابحاث ثم نسقناه واستخرجنا منه التاريخ العام الشامل لمظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والادبية التي عاشها الآباء والاجداد في العُصر الخوالي .

ذلك بأن التاريخ العام لا بد له من تواريخ خاصة يرتكز عليها ، وبأن البناء الشامخ لا يبتدأ فيه من القمة بل من الأسس البعيدة الاغوار لبنة بعد لبنة او مدماكاً بعد مدماك .

وللبحث عن تاريخنا يجب ان نتحرى المصادر والنصوص والمؤلفات القديمة والحديثة وكل ما يمت الى موضوعنا التاريخي بصلة ، ثم نمعن في الدرس وتجريد الاخبار والروايات والحالات المعبرة من اي عبث ومن أي مغالطة او اغراق في التحامل والتعصب جرياً مع الأهواء والحزازات .

كل هذا لنتلافى ما تشوّه ودثر من أصول تاريخنا او نصل منه الى الحقيقة خالصةً من أي لبس صافية من كل شائبة .

واني بوحي من هذه الاعتبارات والاهداف جمعت ما دار عليه هذا الكتاب من أبحاث بالغة الدقة في الصراحة والنقد الحر ، ثم نسقتها وأعددتها للنشر لا لتكون وحياً منزلا بل لتكون هدفــاً للانتقاد وسبيلاً للباحثين عن الواقع التاريخي وعن مصادره واصوله علماً بأن الحقيقة بنت البحث وبأن التاريخ لا يعرف الرحمة ولا النقمة وانما يتحرى الحقائق ليسجلها بدقــة وأمانة بقطع النظر عن اعتبارها مدحاً او هجاء وعن كونها مسايرة او مخالفة لهوى القراء.

على اني فيما انشره من هذه الابحاث لم احاول ان اصحح كل خطأ في اصولها ومصادرها وان اقوّم كل انحراف في درس التاريخ وكتابته لأن مثل هــذه المحــاولة فوق امكانيات الفرد مهما يكن شأنه ، وانما جل قصدي منها ان اضرب بسهم مع الذين يحاولون ان يستقطبوا الحوادث التاريخية ليمحصوا ويصححوا مــا تخلل رواياتها من خطأ وانحراف او تجاهل للواجب العلمي ؛ ليعيدوا الى التاريخ منطقه الواقعي وصوره الطبيعية بعد ما اوشك ان يتحول الى اساطير وقصص خيالية او الى قصائد مدح وهجاء تضلل القارىء او تغريه وتستغل جهله بماضي قومه وواقع بلاده .

عبث الاساطير في تاريخنا

لا نستطيع أن نجعل من تاريخنا الأصيل قصة موحدة الأهداف منسجمة الصور قريبة الى منطق العقل وعالم الامكان حتى نحرره من فضول الأوهام والأخيلة النابية ومن اصطناع الحوادث والبطولات المموهة ، ثم ننبه لما تجاهله الرواة المغرضون او زيفه وتأوله الكتاب المستهترون .

لهذا كان على المخلصين لتاريخ بلادهم ان يقصروا جهودهم اولا – وقبل كل شيء – على تحرير النصوص من التزوير والدس وتمحيص الحوادث من الأوهام والخرافات ، ونقد الرواة والروايات التي لا تنسجم مع طبيعة الأشياء او مع سياق الحوادث والظروف ، امـــا ان نطمئن لكل راو ولو كان متهماً في اغراضه ومقاصده ونصدق كل رواية ولو كانت مضطربة في منطقهـا وخيالها ونتحاشى من الاعتراض على أي خطأ ولو كان جلياً واضحاً فنجامـل كل من قال أنا ، ونعتبر كل ما نسمعه ونقرأه حقيقة وواقعاً .. فذلك مما ينتهي بنا الى تزييف التاريخ وطمس معالمه وتضليل القراء عما ينشدون من صور الحقيقة والواقع ، او الى تصديق ما يقوله الشاعر العربي :

فما كتب التاريخ في كل ما روت   لقرائهـــا الا حديث ملفق
نظرنا لأمر الحاضرين فرابنـــا   فكيف بأمر الغابرين نصدق

أجل وان من يقرأ - تاريخ جبل عامل - للاستاذ محمد جابر بوحي مما تقدم يلاحظ :

١ - ان المؤلف لم يستوعب تاريخ جبل عامل من جميع وجوهه وجميع عصوره ولم يمحص رواياته ويسلسل حوادثه ويعللها ويربط ما بينها على ما تفرضه النواميس العلمية والمصطلحات التاريخية ، وانما اقتصر على بعض حوادثه وعصوره وعرضها - مشابة بالخيال والعاطفة - على حسب ما تهيأ له أن يعرضها او على ما شاء أن يقصها ويرويها .

٢ - ثم يلاحظ أن المؤلف - كجل المؤرخين العامليين - لا يشير الى المصادر والجهات التي أخذ منها ونقل عنها وخاصة في مواطن الشك والخلاف واذا صادف أن أشار فحيث لا ضرورة او لا قيمة علمية للمصدر الذي أشار اليه .

٣ - وانه سريع التصديق لجل ما يقرأه ويسمعه ويلم به من كتب وروايات في حين أن علم التاريخ يفرض على المؤرخ أن يناقش ويمحص كل ما يقرأه ويلم به من كتب وروايات من حيث صحتها ودقتها وقابليتها للتصديق قبل أن يأخذ بفحواها ومحتواها .

٤ - ان جل المصادر التي ركن اليها مصادر ضعيفة مضطربة لا يجوز للمؤرخ الثبت أن يسترسل في الأخذ منها والاعتماد عليها دون أن يشير الى مكان الضعف منها والى ما يخالف نصوصها من روايات ونصوص .

٥ - انه لم يكن متحفظاً فيما يرويه ويقصه بل تراه يتسامح أحياناً الى درجة المبالغة والغلو في تكبير الحوادث أو تصغيرها وفي إهمال ما لا يجوز اهماله منها أو افتراض ما لا يصح أن يفترض.

٦ - ثم يلاحظ أن في الكتاب المنشور زيادة عما نشره المؤلف في الصحف واختلافاً بيناً عما أطلعنا عليه قبل وفاته .

لهذه الاعتبارات كلها أو بعضها يشك الباحث في أن يكون هذا التاريخ المطبوع قد أخذ بكل ما احتواه عن النسخة الأصلية المكتوبة بخط المؤلف وتوقيعه · ويرتاب في سلامة الكتاب من عبث العابثين بعد وفاة مؤلفه ، كما يشك في بعض ما تضمنه من قصص وروايات وأحكام وتأولات . وأوضح مثل للشك والريب ما ورد في الكتاب عن حكم بني سودون في جبل عامل .

اسطورة بني سودون

إذ لا الباحث ولا المنجم يدري من أين جاءت اسطورة القول بأن بني سودون كانوا حكاماً في جبل عامل في هذه الفترة بين سنة ٨٨٣ و ١٠٤٩ هـ وكذلك .. لا القارىء ولا المنجم يعرف ما هو النص التاريخي الصريح الذي يدل على صحة ذلك ؟ وعلى تقدير أن يصبح حاكماً في دمشق اسمه سودون في سنة ٨٨٣ هـ أو قائداً في مصر يحمل نفس الاسم واللقب في سنة ٩٢٢ هـ[1] فما الذي يوجب ويستلزم أن يكون بعض أقاربه حكاماً في جبل عامل ؟ وخصوصاً عندما يكون سودون الشام وسودون مصر من المماليك المعروفين بقلة النسل أو بأنهم لم يكن لهم أسر وذرية بالمعنى الصحيح، وإنما كانوا جنوداً من نوع خاص ينتسبون (ببنوتهم) لسيدهم الذي اشتراهم وتربوا على خدمته كما ينص على ذلك المؤرخ الشهابي بقوله :

« وابتدأ هذا الأمير المغرور (علي بك الكبير) يمشي طريق أبيه (المملوك) ابراهيم كتخدا قاز ضغله ، ويصنع ما كان يصنعه من قرض إخوته وهلاك زمرته ويجدد اناساً جدداً ويربي مماليك أولاداً ليكونوا الجميع عيلته وخاشيين سطوته ..

---

(١) تاريخ جبل عامل ص ٣٧ - ٣٨ - ٤٠ - ٤١ .

واعلم أن المماليك المتملكين في الأقطار المصرية فهؤلاء ليس هم بنون من نسائهم وان صودف وعاش لهم ولد ذكر فلا يكون ينفع ولا يكون له تملكاً. فلذلك متى قيل فلان ابن فلان فيعني بقوله انه مملوكه . ومتى قيل الغز فالمعنى عن زمرة المماليك[1] .

وكما يستشف من تصوير الرحالة الفرنسي فولني المعاصر للمماليك بما نصه :

« انهم – أي المماليك – غرباء عن بعضهم لا تربطهم العواطف الطبيعية التي تجمع بين سائر الناس . ولما كانوا لا أهل لهم ولا أولاد ، فلا الماضي فعل شيئاً في سبيلهم ولا هم يفعلون شيئاً في سبيل المستقبل ، وتراهم جهلة تعودوا الخرافات بحكم التربية ، والشراسة عن طريق القتل ، والعصيان عن طريق الاضطرابات ، والخيانة عن طريق الدسائس ، واللؤم عن طريق المواربة ، وفساد الآخلاق عن طريق التهتك على أنواعه ، وهم بصورة خاصة مستسلمون لهذا النوع المخزي الذي طالما كان رذيلة اليونان والتتر ، وهي الأمثولة الأولى التي يتلقونها من أسيادهم في السلاح ، ولا يجد المرء تفسيراً لهذا الميل متى عرف أن لهم جميعاً نساء[2] .

أضف الى ذلك أن سودون المصري كما تصوره القصة الاسطورية لم ينسب اليه أحد من ذريته وانما نسبوا الى ابنيه قاسم وذو الفقار فقيل قاسمية وفقارية كما يتضح من تاريخ المماليك من عهد السلطان سليم العثماني حتى عهد محمد علي باشا[3] .

ثم بعد أين هي تلك المخطوطات والأوراق المبعثرة التي افترضها الكاتب وروى

---

(١) لبنان في عهد الامراء الشهابيين للامير حيدر احمد شهاب ص ٧٤ طبعة بيروت سنة ١٩٣٣

(٢) فولني: ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام ص ١٢١ تعريب ادوار البستاني طبع بيروت.

(٣) تاريخ الجبرتي على هامش ابن الأثير مجلد ١) ص ٤٣ – ٤٧ ثم ص ١٤ من كتاب علي بك لمحمد رفعت رمضان .

عنها ما رواه ؟ ومن أين أتته او استحصل عليها ، وكيف لم يعلم بهـا أو يستحصل عليها من كانوا أسبق لبحث تاريخ العامليين وأحرص على تمحيصه ثم أقدر على الوصول لمصادره ووثائقه منه لأن علاقتهم بأهـل العلم والأدب وأصحاب المكتبات القديمة والأسر العريقة كانت أوثق وأكثر من علاقة أي شخص بهم .

واني على كثرة صلتي بكتبة التاريخ العاملي كالشيخ أحمـد رضا والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد عارف الزين ثم بمؤلف (تاريخ جبل عامل) الذي انتحلت باسمه تلك الاوراق المبعـثرة والمخطوطات ووضعت على لسانه قصة بني سودون وما شابهها من روايات .. على كثرة صلتي بهؤلاء جميعاً لم أرَ منهم ولم أسمع في مجالسهم وأحاديثهم وفيما نشروه من أبحاث تاريخية ـ وهم أحياء ـ ما يشعرنا بوجود مثل هـذه المخطوطات والأوراق التي رويت عنها قصة بني سودون وبني مشطاح ؟

ثم ان المؤرخ المتثبت قد لا يطمئن الى المخطوطات المعروفة باسمها وعنوانها الخاص أو بصحة نسبتها إلى مؤلف وناسخ معروف أو بما تضمنته من أبحاث ومواضيع ، قبل أن يتأكد من تجرد صاحبها وسلامة حواسه واعتدال منطقه ومدى صلته بالحوادث وفهمه لها وبعده ـ في عرضهـا ـ عما تزينه المطامع والمخاوف والأغراض الشخصية من أوهام وأخيلة وتواشيح ، وقبل أن يطمئن إلى سلامة متونها وحواشيها من التزوير والدس ، فكيف به لدى المخطوطات والمصادر المغفلة الإسم والعنوان المجهولة النسب كهذه الأوراق المزعومة لسرد قصة بني سودون ومشطاح الغريبة ـ بمحتوياتها ـ عن تاريخ تلك الحقبـة ووقائعهـا المدعومة بالبراهين الدامغة والنصوص الواضحة فيما يجده القارىء ص ١٠٩ من كتاب (مع التاريخ العاملي) ثم ص ٧٨ ـ ٨١ منه .

* * *

ثم من شأن المؤرخين ـ حين يحصلون على مثل تلك المخطوطات والأوراق النادرة ـ أن يحافظوا لدى النشر على سلامة نصوصها وعبائرها ولا يغيروا من ألفاظها وحروفها وغلطاتها ولهجاتها شيئاً .

أما أن تترجم إلى أسلوب عصري وتلخص كما يشاء الراوي والناسخ أن تكون ، ثم تدمج بكلام المؤلف دمجاً .. فذلك مما لا عهد لنا به عند المؤرخ الذي يحترم النواميس العلمية إلا بما يبدو من هذه العبائر والروايات التي جاءت في تاريخ جبل عامل مرتبة على هذا النحو من قول الراوي :

- ١ -

آل سودون

« في بعض المخطوطات التي عثرنا عليها بين مبعثرات أوراق مؤرخي جبل عامل « ان اسرة يطلق عليها اسم « سودون » او ابو سودون حكمت جبل عامل او القسم الجنوبي منه في عهد دولة المماليك المصرية ، وفي تاريخ دولة المماليك المصرية البرجية ان (سودون) كان نائب الشام في سنة ٨٨٣ هـ ـ ١٤٧٨ م من قبل تلك الدولة ، وكانوا يسمون الوالي او الحاكم العام نائباً والولاية نيابة كما سبقت الإشارة ، فلا يبعد ان يكون ذلك النائب قد ولى بعض اقاربه حكومة هذه البلاد وكانت من اعماله » .

- ٢ -

« وإذا سلمنا بصحة روايته ـ اي رواية صاحب العقد المنضد ـ من ان حكومة آل وائل في جبل عامل بدأت منذ عهد الدولة الصلاحية الكردية ، يترجح معنا ان حكومة آل سودون سبقت حكم الوائليين ـ اي آل الصغير ـ ثم سقطت بسقوط الدولة التي تنتمي اليها » .

آل سودون وآل مشطاح

« وهنا رواية رواها مؤرخ عاملي في مخطوطة له تدل ان أسرة سودون بقيت في البلاد بعد زوال حكومة المصريين وحكمت جبل عامل في عهد الترك العثمانيين وكانت تنازع آل علي الصغير الحكم تظاهرها اسرة ثانية تدعى بأسرة مشطاح ، ونص الرواية :

« ان الشيخ حسيناً بن علي الصغير ، وكان هذا في اواخر القرن العاشر للهجرة والسادس عشر للميلاد ، تولى الحكم بعد ابيه ، وكان شديد الوطأة على الشعب سفاكاً للدماء ، شأن اكثر امراء ذلك العهد ، فنفر منه الناس ، وتفرق انصاره من حوله ، وأصبحوا يكيدون له ويدسون الدسائس لخلعه ».

« وحدث خلاف بين الشيخ حسين الصغيري والأمير فخر الدين المعني (ولم يذكر راوي القصة أهو الأول او الثاني) وشدد المعني الخناق على الشيخ حسين لما يعلمه من انفضاض اعوانه عنه ، وكره الشعب له ، ففر الشيخ حسين الى البادية لالتحاقه بقبيلة بني حمه السوالم وهم فخذ من عنزة ، كما مر ، وأقام بينهم بضع سنين ، وقد حاول الرجوع الى منصة الإحكام في جبل عامل بعد انتهاء الخلاف بينه وبين الامير المعني ، فلم يتم له الأمر لتألب اعيان البلاد عليه ، وكرههم لحكومته ، ومناصرتهم للحكومة السودونية .

« ورأى ان الأسرتين اللتين حكمتا البلاد آل سودون وآل مشطاح ،

وكان الحاكم العام من الأولى والمدير من الثانية ، في صولة ومنعة وجند وأنصار ، فأدركه اليأس وفارق البلاد ثانية الى جبال نابلس ، وأقام متنكراً في منازل آل طوقان مروضاً لخيولهم «ميرياخور» وكان حزبه القليل في البلاد يسعى جهده لاستمالة الأعيان اليه ، ووضع العثرات في سبيل حكومة آل سودون ومشطاح ولما حانت الفرصة وبدا جانب الضعف في الحكومة السودونية وقوي حزب الصغيري ، بعث وفداً منه للبحث عن الشيخ حسين في جبال نابلس وشاهدوه بين حشم الزعيم الطوقاني وأتباعه سلموا عليه سلام الأمراء ، ووقفوا بين يديه وقفة الاحترام والتعظيم ، ولما علم الزعيم النابلسي بالأمر استدعاه وخلا به مستوضحاً حقيقة حاله فأخبره بأمره ، فلامه على كتمان امره واكرمه اكراماً وافراً ، وأنزله منزلاً رحباً ، فأقام في ضيافته اياماً ثم جهز له حملة مؤلفة من خمسمائة فارس من أبطال نابلس الشجعان ، فسار بهم قاصداً جبل عامل لمهاجمة آل سودون ، وكان يسير ليلاً ويكمن نهاراً ، ولما وصل الى بنت جبيل ، وكانت قاعدة حكومتهم ، طوق منازلهم بخيوله وقتل رجالهم وهزم جندهم وشتت أنصارهم من آل الشامي وآل مشطاح ، وتم له استلام حكومة البلاد »[1] .

ما يلاحظه الباحثون :

١ – اذا لاحظنا ما جاء في رواية المؤلف الأولى من أن آل سودون حكموا جبل عامل في عهد دولة المماليك المصرية ثم لاحظنا ما جاء في روايته الثانية من أن بني وائل العامليين – ويقصد بيت علي الصغير – حكموا منذ عهد الدولة الصلاحية الكردية ، فان بداية حكم بني سودون في عاملة تكون متأخرة عن بداية حكم بني وائل العامليين لا متقدمة عليها كما يرجح المؤلف

(١) تاريخ جبل عامل ص ٣٧ – ٤٠ .

في الرواية الثانية ، ذلك بأن دولة المماليك المصرية كانت بين سنة ٧٠٠ هـ وسنة ٩٢٢ هـ بينما كانت بداية الدولة الصلاحية الكردية منذ سنة ٥٧١ هـ وكانت نهاية حكم الأيوبيين جميعاً سنة ٦٤٨ هـ .

٢ ـ وأغرب ما في الرواية الثالثة أن يزعم المؤلف أنه ينقلها بنصها مع أن لغتها واسلوبها لا يختلفان عن لغة واسلوب كتاب هذا العصر الحديث وهو اسلوب لا يتفق مع اسلوب ولغة كتاب ذلك العصر وخصوصاً عندما يكونون من العلماء أو من الجهال لأن لغة العلماء في ذلك العصر (المعروف بعصر الانحطاط) لا تعدو أن تكون مسجوعة متقعرة أو معقدة غامضة ، ولغة الجهال حتى اليوم لا تكون الا عامية مبتذلة قلقة الألفاظ والمعاني ، وكلا اللغتين والاسلوبين لا يتفقان مع اسلوب ولغة الرواية العصري الحديث .

٣ ـ ثم ان الذين أرخوا عهد الامير فخر الدين المعني الثاني قد صرحوا بأسماء جل الاسر العاملية الحاكمة يومئذ او جميعها ثم بأسماء بعض المشايخ الاقطاعيين ، فذكروا من اسماء الاسر اسم آل منكر ، وآل شكر ، وآل علي الصغير ، ثم تعرضوا لذكر الحاج علي والحاج ناصر الدين منكر من الكوثرية ، وفرحات داغر من انصار ، والحاج علي شامي من بنت جبيل ، ومع ذلك فانهم بالاجماع لم يسموا أحداً من آل علي الصغير باسمه او لقبه في عهد الامير فخر الدين وانما أشاروا بصراحة تامة الى أن الذي فر من جبل عامل ـ بعد رجوع الامير فخر الدين من اوروبا ـ هو الحاج علي منكر حاكم مقاطعة الشومر وان فراره كان لعند الامير يونس الحرفوش في بعلبك لا الى زعماء آل طوقان في جبل نابلس[1] ثم تبعه معظم الذين تقدم ذكرهم عندما

---

(١) راجع ص ٦٦ و ٧١ من تاريخ الامير فخر الدين المعني للسفدي طبع بيروت ١٩٣٣ .

احرجوا للفرار .

٤ - ثم ان الحاكم في بلاده - كالشيخ حسين بن علي الصغير - حين يهرب من مقر حكمه ويلجأ الى حكام بلاد اخرى لا يتنكر عادة ويتزيا بزي سائس خيل عند من يلجأ اليهم من الحكام ، بل ان لجوءه اليهم - بمظهره الطبيعي كشيخ مقاطعة - أدعى للاهتمام بشأنه وأوجب للعمل على مساعدته ورده الى ما كان عليه ، وإنما يلجأ الى التنكر بزي خادم وسائس من يخاف مغبة جرمه ويقنط من العودة الى ما كان عليه او من يكون ضعيف الرأي او صغير السن لا يدري في غربته كيف يجب أن يعيش ولا يقدر مـــا كان له في بلاده من مكانة وجاه .

٥ - ثم ان لقب (امير ياخور) كان رتبة عسكرية او شرفية تمنح لمن ترضى عنه الدولة العثمانية من القادة والزعماء .. فكيف تمنح - في هذه الاسطورة - من قبل زعيم اقطاعي لرجل مجهول تنكر بزي خادم او سائس ولجأ الى ذلك الزعيم ليعيش عنده بعرق جبينه ؟

٦ - ثم اذا كان فرار الشيخ حسين بن علي الصغير خفية الى جبال نابلس لنقمة الاهالي عليه بسبب ظلمه وجوره.. فكيف تسنى لاعوانه في جبل عامل ان يستميلوا الناس اليه وهم لا يزالون يتصورون عهده المظلم ويتذكرون ما نالهم في ايامه من شدة وضيق ؟ او كيف يعمل اعوانه على اعادته للحكم وهم - بحسب منطوق الرواية - لا يدرون اين هو ولا يعرفون أهو حي او ميت؟

٧ - ثم ان من يمعن النظر في قصة الشيخ حسين هذا يرى فيها من اضطراب الاخيلة وافتعال الصور ما يشبه قصة علي الصغير فيما رواه الحاج محمـد سهيل وشبيب باشا الاسعد .. مما يشعر بأنها محرّفـة عن قصة علي الصغير مع الشكرية ، ويدعو للوقوف من هذه القصص والروايات موقف الباحث عن مدى صدقها وقربها من الواقع التاريخي او مدى بعدها عما يدنيهـا الى الصحة والصدق .

٨ ـ ثم اذا لاحظنا ان المنسوب اليهم هذه القصص والروايات من العامليين كانوا ـ فيما رووه وقصوه ـ متأخرين عن الزمن الذي انتشر فيه تاريخ الأسر اللبنانية واخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق (المطبوع سنة ١٨٥٨) وما أتيح فيه لكل أسرة مترعمة في (لبنان القديم) من ان تتوسع في سَلسَلة نسبها على ما توحي به المنعقات القبلية وان تتمادى في تصوير تاريخها على ما يحلو لها ان يكون ماضي الآباء والاجداد .. اذا لاحظنا كل هذا فقد ينكشف النقاب عن بواعث ما سطره بعض العامليين في تاريخ أنسابهم وبدا لنا أثر المحاكاة والتقليد والاصطناع فيما تشابه من أخيلة وأساليب وأهداف .. ولعل من مظاهر الاضطراب والوضع في رواية الحاج محمد سهيل ـ وهو من المعاصرين للشيخ علي سبيتي والشيخ محمد مغنية وشبيب باشا الاسعد الذين حاولوا مجاراة الشدياق في تأليف الأنساب وما اليها من تاريخ ـ ترديده لذكر مزرعة مشرف (في حادثة سنة ١٠٥٩ هـ) مضافة الى اسم مشرف قبل ان يولد مشرف او قبل ان يبني مزرعته تلك سنة ١١٠٨ هـ على ما تحدده النصوص الأثرية .

٩ ـ ثم اذا لاحظنا من هذه الرواية ، ان حسين بن علي الصغير تولى الحكم في اواخر القرن العاشر للهجرة والسادس عشر للميلاد ، وانه حصل خلاف بينه وبين الامير فخر الدين المعني .. يكون ذلك الخلاف في عهد الامير فخر الدين الثاني المشهور في تاريخ هذه الفترة من الزمن ، لا فخر الدين الاول ، وشك الراوي هنا بكونه فخر الدين الاول او فخر الدين الثاني ـ مع بعد الشقة بين زمن الاول وزمن الثاني ـ ان دل على شيء فانما يدل على مدى الجهل بتاريخ هذه الفترة لان جل تاريخ لبنان فيها يدور حول فخر الدين الثاني .

١٠ ـ واغرب من ذلك ان تشعر من هذه الرواية ومن هذا الشك ان ملحقها بتاريخ جبل عامل لم يلاحظ في شكه ما أعلنه المؤلف وصرح به صفحة ١ و ١٠ من الكتاب إذ قال ما نصه « وأشهر المعنيين فخر الدين الثاني ابن الامير قرقماز تولى حكومة لبنان من سنة ١٠٠٦ هـ ـ ١٥٩٧ م الى سنة ١٠٤٣ هـ ـ ١٦٣٣ م » .

فان هذا القول من المؤلف يشعرنا بأنه كان يعلم بأن فخرالدين المعني الذي « اختلف معه الشيخ حسين الصغير فيما زعموا » هو فخــر الدين الثاني ، ثم يؤكد لنا بأن هذه الرواية مدسوسة في تاريخ جبل عامل ومزورة بغير علم المؤلف ، وإلا فــلو ان هذه الرواية كانت من منقولات المؤلف او من مبتكراته .. لمــا أعلن الشك بكون فخر الدين (الذي اختلف معه الشيخ حسين) هو فخر الدين الاول او فخر الدين الثاني ؟ ولما حصل هذا التناقض بين ما شك به من الرواية وبين ما اعترف به وأعلنه في ص١٠٨من الكتاب.

١١ ـ ثم اذ لاحظنا قوله فيهذه الاسطورة « ولمــا وصل ـ أي الشيخ حسين الصغير ـ الى بنت جبيل وكانت قاعدة حكومتهم ـ أي حكومة آل سودون ـ طوّق منازلهم بخيوله وقتل رجالهم » ثم لاحظنا أن الشيخ حسين الصغير الذي قضى على نفوذ بني سودون بهذه الاسطورة.. كان معاصراً للامير فخر الدين الثاني .. على ما يبدو من كلام الراوي والمؤلف .

ثم لاحظنا مع ذلك ان قرية عيناثا مقر حكرمة آل شكر في عهــد الامير فخر الدين هي وبنت جبيل مقاطعة واحدة .. فكيف يكون حكامها إذن من بني سودون في الوقت الذي ثبت فيه ـ ومن تاريخ الامير فخر الدين ذاته ـ ان حكام تلك المقاطعة ـ مقاطعة بنت جبيل وعيناثا ـ هم فيعهد الامير المذكور من صميم آل شكر القاطنين في قرية عيناثا المجاورة لقريةبنت جبيل ارضاً وحدوداً (١) .

---

(١) راجع ص ٣٩ – ٤٠ من تاريخ الامير فخر الدين لمعني للصفدي طبع بيروت ، ثم تاريخ جبل عامل ص ٤٢ – ٤٤ – ٤٦ .

واذا عرفنا من كل هذا ان تلك الروايات كانت مزورة ومحمولة على التاريخ العاملي ، ثم رجعنا بعد الى هذا الذي لفقها وحملها على تاريخ جبل عامل ، ولاحظنا تعليقه عليها ثم استدلاله على واقع بني سودون وحقيقة حكمهم في هذا الجبل بدا لنا من تكرار الملاحظة والنظر ان الذي لفقها كان يؤمن بفحواها ويطمئن الى ان بني سودون تحكموا في بلادنا وطغوا واستبدوا الى حد اعماهم عن كل ما فطر عليه الانسان العاقل من شيمة ومروءة وعاطفة كما يتضح من قوله « لقد بادت حكومة آل سودون وانقرضت سلالتهم من البلاد ولم يبق لهم ما يذكرون به سوى العين المعروفة « بعين سودون » وقضية فظيعة من آثار ظلمهم تدل على أخلاق وحشية وقسوة طبع اتصفت بها هذه الاسرة الدخيلة تدور على الالسن ويتناقلها الخلف عن السلف [1] .

فقد جعل من اسطورة بني سودون قصة واقعية معادلة بثبوتها ثبوت (عين بوسودون) مع انها لا تعدو ان تكون قصة خرافية محرفة عما اشاعه اخصام آل شكر عن الشكرية تبريراً لما ارتكب في التنكيل بهم من فظائع ولكن تحريفها جاء اكثر فجاجة في خياله وسخافه في اهدافه وتمحلاً في اصطناعه كما يبدو من نص هذا التحريف ، « ذكروا ان جماعة من آل سودون خرجوا الى الصيد والقنص في يوم من ايام حكمهم وصولتهم ؛ فلم يوفقوا لاصطياد شيء ، واجتمعوا عصر ذلك النهار على نبع الحجير وكانت كلابهم ضارية جائعة لم تطعم منذ الصباح ، فشاهدوا امرأة تغسل ثياباً على نبع هناك ومعها طفل لها صغير يلعب بين يديها فأمر آل سودون أتباعهم فأخذوا الغلام وذبحوه على مرأى من امه وأبيه وأطعموا لحمه لكلابهم » .

---

(١) تاريخ جبل عامل ص ٤١ .

وكان أبوه من أهل الفهم ، فلم يجسر على معارضتهم خوفاً على حياته ولكنه رسم الواقعة وصور تلك الفظاعة وكيف عمد آل سودون الى الطفل وقطعوه قطعاً بخناجرهم والقوا بها الى الكلاب ، ورفع الرسم وعريضة من أهل البلاد لنائب السلطان في دمشق فأمر نائب السلطان باهلاكهم وتدمير منازلهم وإجلائهم عن البلاد فلم يبق لهم ذكر سوى في بطون التاريخ [١] .

هذا نص ما يرويه الراوي نترك التعليق عليه للقراء الكرام ونكتفي منهم بالجواب على هذه الأسئلة :

١ ـ هل يجري نبع الحجير في مكان بعيد عن القرى والمطاحن المديدة التي تحيط به من كل جهة كقرية قبريخا وقرية القنطرة ، ومطحنة الشقيف ، ومطحنة العين . ليخشى بنو سودون على كلابهم أن تموت جوعاً قبل أن تصل الى تلك القرى والمطاحن ؟ وما على تلك الكلاب لو ظلت جائعة بقية يومها الى أن تعود مع أصحابها بعد ساعة من الزمن الى حيث يتوفر الطعام للجميع ؟

٢ ـ ومتى كان الصيادون يطعمون كلابهم مما يصطادون ليلجأ بنو سودرن ـ لدى اخفاقهم في الصيد ـ الى اطعام كلابهم من لحوم الابرياء .

ثم هل تبقى الكلاب صالحة للصيد والقنص اذا سمح لها أن تتعود على أكل ما تصطاده ؟

٣ ـ ثم هب أن غابات الحجير ووديانه وسواقيه قد خلت في بعض الأيام من الطيور والوحوش البرية فهل يصح أن تخلو يوماً من قطعان الغنم والماعز والبقر وما الى ذلك من حيوانات صالحة لاطعام الكلاب الجائعة .. ليلجأ بنو سودون ـ لا لشيء سوى أن يطعموا كلابهم ـ الى ذبح الطفل البريء وتقطيع أوصاله وطرحها للكلاب على مرأى ومسمع من أمه وأبيه ؟

---

(١) تاريخ جبل عامل صفحة ٤٢ .

٤ - ثم قد يطمئن الباحث الى أن جبل عامل لم يخل في أي عصر من فقهاء وأدباء وشعراء ماهرين ، أما الى أن يكون التصوير قد عرف وشاع فيه الى هذا الحد الذي أصبح معه الرجال العاديون يجيدونه كما يجيده اليوم ألمع نوابغ عصر النهضة الفنية ، فهذا ما لا يستطيع الباحث معه أن يتصوره ويطمئن اليه بل ليس من الطبيعي أن يكون التصوير بهذا الشكل قد عرف في عاملة لأنه - فضلاً عن حرمته بنظر القادة المسيطرين على الأفكار - كان بعيداً عن ميول الناس ومطامحهم وخصوصاً الناس الفقراء والبائسين أمثال صاحبنا(أبو الطفل الذبيح) ذلك بأن الجهل والفقر والاستبداد بكل معانيه كان يحول بين الناس وبين تقديرهم للفنون الجميلة وأخصها التصوير .

وعليه فهل من المعقول أن يخطر على بال مؤرخينا ورواتنا القدماء مثل هذا الخيال البعيد عن حياة ذلك العصر وعن خواطر بنيه .

أم أنه أقرب الى خيال سخفاء عصرنا القاصرين عن أن يميزوا ويلائموا بين ما يناسب كل عصر من الأخيلة والخواطر والفنون ؟

٥ - ثم ان حادثاً فظيعاً كهذا الحادث يشترك الأهالي مع والي الشام على استنكاره واستئصال الحكام الذين ارتكبوه حتى (لم يبق لهم ذكر سوى في بطون التاريخ) كما تقول الاسطورة كيف يبقى مجهولاً من الرواة والمؤرخين؟ وأين هي بطون التاريخ وكتبه المشهورة التي تعرضت له ؟ فانا الى اليوم لم نر ولم نسمع بشيء منها يشعرنا بما تشير اليه قصة بني سودون وقصة كلابهم المزعومة؟

٦ - ثم لو أن هذه القصة كانت مشهورة بنسبتها الى عهد بني سودون المزعوم في جبل عامل .. هل كان من الممكن أن تشيع بين الأدباء العامليين على أنها من أساطير عهد الشكرية في حكم جبل عامل ، وهل من الطبيعي أن يستغلها أحد شعراء النبطية في مداعبته لبعض الأحفاد من الأسرتين الكريمتين شكر ووائل أو أن يشير اليها بهذه الصورة التهكمية البارعة في استلهام الأساطير؟

شكر ووائل دنيا — مفاخر ليس تنفد
تلقفا الملك ضخماً — أباً يورّث عن جد
سل سفر عامل تسمع — حديث فخر وسؤدد
فحصن تبنين يروي — وعين سودون تشهد؟!
ان المحـــامد وقف — على علاهم مؤبد
فالجهل لولا سناهم — لمـــا توطد وامتد
والفقر لولا غناهم — لمـــا تأزم واشتد؟
والظلم لولا قنــاهم — لما تجهم واربد؟
مآثر لم يطقهـــا — حصر يطول ولا عد
وثروة يتبـــاهى — بها الجنوب ويعتد؟

أثر المنعنات في تاريخنا (*)

.. ولعل أوضح من قصة بني سودون في دنيا الاساطير ، وأدعى منها للشك والريب ، ما يروى – في تاريخ جبل عامل – من قصة المؤتمر الذي انعقد في دمشق سنة ١٨٧٧ واشترك فيه العامليون للنظر في استقلال سوريا وفصلها عن جسم الدولة العثمانية ، وترشيح الامير عبد القادر الجزائري لإمارة سوريا .

الاشتراك في مؤتمر دمشق

قال الراوي : « لما دارت الدائرة على الدولة العثمانية وانتصر الروس عليها في تلك الحرب وكادت القسطنطينية (العاصمة) ان تقع في أيديهم ، فكر بعض الأعيان العرب في مصير سوريا ، فعقدوا مؤتمر دمشق السري للبحث في هذه الشؤون ، وكان يمثل جبل عامل في ذلك المؤتمر العالم الجليل السيد محمد الامين من الاشراف الحسينيين سكان شقراء – جبل عامل – والنبيل الحاج

(*) المقصود بالمنعنات هنا المبالغة في نقل الحوادث التي تروى عن آبائنا وأجدادنا او عن أصدقاء آبائنا وأجدادنا الى حد التغابي عما يتخلل ذلك من تحريف او اصطناع او تماد في الخيال استرسالاً مع العواطف القبلية او استجابة لوحي الأنانية وحب العظمة .

علي عسيران رأس الاسرة العسيرانية المعروفة في صيدا ، والشيخ علي الحر الجبعي ، وشبيب باشا الاسعد الوائلي . وقد أقر المؤتمرون اختيار الامير عبد القادر الجزائري أميراً على سوريا ، ونقل القرار للأمير المغفور له أحمد باشا الصلح ، ثم تطورت سياسة الدول فصدت الروس عن الاستانة وعضدت الدولة العثمانية ، وحالت دون سقوطها ، فتأخر حل المسألة الشرقية ومن ثم طويت صحيفة ذلك المؤتمر .

وكان المفتي العاملي السيد محمد الامين المار ذكره متطرفاً في عروبته مجتهداً بفكرته السياسية ، يحرض العامليين على الثورة ويراسل الامير الجزائري في دمشق بصراحة تامة ويكتب على غلاف رسائله ، دمشق دار الامارة ، وبالقلم العريض . واتصل الخبر بالوالي التركي فنفى السيد الى طرابلس [1] .

ما يلاحظه الباحثون

لاحظ لفظة (المغفور له) وقد خص المؤلف بها أحمد باشا الصلح دون غيره من أعلام المؤتمر ، ودون الامير عبد القادر الجزائري نفسه الذي كان – بنظر الجميع – أعلى منزلة ومقاماً من أي شخصية سورية يومئذ ، او لاحظ الفرق بين قوله (الشيخ علي الحر الجبعي) وقوله (العالم الجليل السيد محمد الامين من سكان شقراء جبل عامل) مع ان كلا الرجلين كانا على مستوى واحد من التقدير والاحترام .

التحيز في الرواية

ألا يجد القارىء في هذا التخصيص وهذا التمييز مظهراً من مظاهر التحيز لا يستساغ من أي مؤرخ – في مثل هذا العرض لأسماء الأعلام – إلا إذا كان المؤرخ من أسرة الصلح او أسرة الأمين المتمسكين بتقاليدهم العائلية الى

---

(١) لاحظ ص ٢٠٨ من تاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر .

حد كبير ، او من أوليائهم المغالين في المجاملة ومراعاة التقاليد المألوفة لأبنائهم.. ذلك مما يشعرنا بأن مصدر هذا الحديث وهذه الرواية هم من خاصة آل الصلح وخاصة آل الامين .

هل انعقد المؤتمر بدون رضا الأمير ؟

ثم اذا صح ان هذا المؤتمر قد انعقد في دشق ، فلماذا لم يكن انعقاده في في دار الامير الجزائري ؟ ولماذا لم يحضره بنفسه او يرسل من أبنائه وذويه النابهين من يمثله ويأتيه بالخبر اليقين ؟ وهل كان انعقاد المؤتمر بدون سابق علمه وإرادته ؟

وعليه فكيف رشحوه في ذلك المؤتمر لامارة سوريا بدون سابق علم منه؟ وكيف قبل بترشيحه على هذا النحو المريب ؟

من يعملون ضد الدولة لا يعتمدون على رجال الدولة ؟

ثم كيف أرسلوا للامير قرارهم السري – الذي يشكل خطراً على كيان الدولة – مع رجل كانت تعتمده الدولة العثمانية في المشاكل والاضطرابات الداخلية كما يبدو من قول المؤلف جابر ص ٥٩ من كتابه « وسعى بعض الاعيان باصلاح ذات البين بين الزعيمين فلم يفلحوا فراجعوا مشير الايالة وعندها أوفد المذكور احمد باشا الصلح فأوقف الحرب وأصلح بين الزعيمين [١].

أو كما يبدو من هذه العبارة الواردة في صك المصالحة بين آل عبد الصمد وآل أبي شقرا «ثم بعد ذلك حضروا جناب الاجلاء الاماجد الفخام حميتلو غرزاده مصطفى أفندي وفتو تلو صلح زاده أحمد أفندي المحترمين متعينين لهذه المأمورية من جانب وكالة مشيرية الايالة مصحوبين في بيو لردي شريف من

---

(١) لاحظ ص ٥٩ من تاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر .

الطرف الاشرف الدفترداري مآلهـــا المنيف اجراء التآلف والصلح فيما بين العائلتين المذكورتين [١] .

ومن يكن موضع ثقة الدولة وتقديرها الى هذا الحد كيف يحرج موقفه ويحمل مسئولية اسرار الثورة على الدولة او التآمر على كيانها بل كيف يقبل منهم بمثل هذا التكليف الخطير ؟؟

لو صح خبر المؤتمر لأعدم اعضاؤه

ثم ان مثل هذا المؤتمر يشترك فيه نخبة من أعيان البلاد ، وفيهم من كان (متطرفاً في عروبته يحرض على الثورة ويراسل الأمير الجزائري في دمشق بصراحة تامة ويكتب على غلاف رسائله دمشق دار الامارة وبالقلم العريض).

هل كان من المعقول أن يخفى –بحقيقته وأهدافه واعضائه– علىجواسيس السلطان عبدالحميد المنتشرين في كل ناحية من أنحاء الشام، أو كان من الممكن أن يعفو عبدالحميد عنهم ؟ وهو الذي نكل بأحرار الترك والعرب وأماتهم قتلاً ونفياً وتعذيباً لا لشيء سوى أنهم كانوا يقولون بالحرية والعدل والمساواة بين جميع عناصر الدولة أو يطالبون بالدستور ومجلس النواب ، حتي أنه أمر بحذف هذه الألفاظ وما شاكلها من الكتب والصحف والقواميس وعاقب بشدة على مخالفتها [٢] واذن فكيف يكون حاله مع من كانوا يدعون للثورة ويعملون على فصل سوريا عن جسم الدولة العثمانية ؟؟

هل كان من المعقول ان تغض حكومة عبد الحميد نظرها عنهم او تكتفي بنفي واحد منهم الى طرابلس الشام كما يذهب الاستاذ جابر ويتبعه الاستاذ حسن الامين – فيما أشرف على تحقيقه من كتاب والده (أعيان الشيعة) اذ

---

(١) ص ١٧٩ ثم ص ٧١ من تاريخ « الحركات في لبنان » للمؤلف من آل ابو شقرا .

(٢) لاحظ ص ١٢٣ ج ٣ منخطط الشامالاستاذ محمد كرد علي ثم ص٨٥ منالسياسةالدولية في الشرق العربي ج ٤ للاستاذ اميل الخوري والدكتور عادل اسماعيل

يقول ما نصه « وحدث خبير أن سبب نفيه – نفي السيد محمد الامين – الى طرابلس أن اجتمع جماعة من عظماء سوريا منهم المترجم وأحمد باشا الصلح وغيرهما، وقرروا انشاء دولة عربية واختاروا لها الامير عبدالقادر الجزائري، وخابروه واجتمعوا به ، وكانت كتب السيد محمد الامين ترد الى دمشق ويكتب في أعلاها « الى دار الامارة » فعلمت بذلك الدولة العثمانية فكان سبب نفيه الى طرابلس » وهذا الخبير ينقل ذلك عن رضا بك الصلح عن أبيه أحمد باشا الذي كان أحد أعضاء المؤتمر[1] .

أخبار ذوي العلاقة لا يعتمد عليها المؤرخون

واذا علمنا بما لا يقبل الجدل ان هذا الخبير الذي يعنيه الاستاذ حسن الامين هو بالذات مؤلف (تاريخ جبل عامل) اذ كان مختصاً بآل الصلح ووكيلاً على أملاكهم في منطقة النبطية وحريصاً على التنويه بأقوالهم وأعمالهم بأي وسيلة وبأي اسلوب .. اتضحت أمامنا مصادر تلك الرواية ، واتيح لنا أن نقدر مستواها العلمي بين النصوص التاريخية .

هذا على تقدير أن تكون القصة مما رواه المؤلف جابر في حياته ولم تكن مما وضعه العابثون في التاريخ على لسانه بعد الوفاة فان الذين نشروا تاريخه لم يعتمدوا – كما أشرنا في مقال سابق – على النسخة الاصلية المكتوبة بخط المؤلف وتوقيعه بل على نسخة ثانية (دونها المحققون) كما شاؤا أن يكون التاريخ ؟[2]

الثورة لا تعتد بأضعف الاعيان شعبية

ثم ان من يحاولون الاستقلال بسوريا وفصلها عن جسم الدولة العثمانية في ايام عبدالحميد لا يعقل منهم – اذا كانوا بعيدي النظر كالامير الجزائري –

---

(١) لاحظ ص ٣٠٠ ج ٤٣ من اعيان الشيعة .

(٢) لاحظ اسطورة بني سودون في تاريخ جبل عامل ص ٥٢٧ من العرفان . « م ٥٢ »

ان يقصروا اعتمادهم على فئة دون فئة من اعيـــان جبل عامل كما يبدو من اسماء المدعوين لذلك المؤتمر المزعوم ، ذلك بأن اعيـــان البلاد جميعاً كانوا يتنافسون ويتكتلون في اتجاهات عائلية وحزبيـــة مختلفة يتعارض بعضها مع بعض تعارضاً يجمد نشاطها الشعبي ويضيع الفرص على الذين يعتمدون على فئة منها دون الاخرى في تحقيق اهدافهم الكبرى ، فكيف بهم اذا كانت الفئة التي اعتمدوها من الاعيان هي بحد ذاتها أضعف نفوذاً وأقل شعبيـــة من سواها وكان في أفرادها من يأخـذون معاشاً من الدولة ؟ وكان فيهم من يحمل جنسية أجنبية ؟ ومن كان صغير السن تابعاً لزعماء عشيرته في السياسة الموالية للدولة .

ثم كيف بهؤلاء الاعيان اذا كانوا وحدهم في ذلك المؤتمر الذي لم يعرف من أعضائه غيرهم وغير صديقهم أحمد باشا الصلح ؟

أهداف المصلحين من العرب

ثم أن قادة العرب المسلمين – في تلك الايام العصيبة – لم يكن فيهم من يفكر باستقـــلال سوريا او في فصل أي قطر عربي عن جسم الدولة العثمانية وتجزئة البلاد الى امارات ودويلات صغيرة يسهل على الدول الاجنبية الطامعة في بلادهم ان يستولوا عليها قطراً بعد قطر .

وانما كانوا يتطلعون الى دستور اصلاحي يساوي بين جميع عناصر الدولة في الحقوق والواجبات المدنية والى أنظمة عادلة تشمل الجميع لدى التطبيق بدون استثناء او تمييز بين تركي وعربي او بين مسلم ومسيحي ، ليشعر الجميع ان هناك رابطة عثمانية تربطهم وتوحد فيما بينهم (١) .

---

(١) لاحظ ص ٢٩ من كتاب « الترك والعرب » للاستاذ توفيق علي برّو ، ثم ص ٤٣٠ – ٤٣٢ منه .

ثم تطورت الافكار والنزعات وخصوصاً بعد ان لمس المسلمون لدى عدد من مفكري الغرب وصحفه وساسته من تنديد بالاسلام وتحفز للإجهاز عليه[1] ما جعلهم تحت وطأة الاحداث – يتحفزون الى إحكام الاواصر بين العثمانية والاسلام والى تحويل النظر نحو الافكار والشعارات التي توحد جميع الشعوب الاسلامية في الاتجاه الذي يحرر بلادهم ، ويعزز نهضتهم ويحشدهم للوقوف صفاً واحداً في وجه الغزو الاوروبي والخطر الاستعماري الذي بات يهدد الشرق بكل ما فيه من شعوب وطوائف ودول[2] .

ومن هنا كانت فكرة (الجامعة الاسلامية) ومن هنا كان اندفاع الإمام الشيخ محمد عبده الى القول « بأن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين »[3] .

التمسك بالجامعة الاسلامية

ثم اذا لاحظنا ان مفكري الغرب وصحفه وساسته ومن كان يدور في فلكهم من الافراد والاحزاب والجماعات السورية . كانوا كلهم يومذاك متهمين في آرائهم ونزعاتهم السياسية والاجتماعية لدى الاوساط الاسلامية وبخاصة الاوساط المحافظة كجبل عامل ، ثم لاحظنا ان فكرة الجامعة الاسلامية التي دعا اليها زعماء الاصلاح في العالم الاسلامي كالسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده انما كانت بمثابة رد فعل لتلك المحاولات والنزعات الغربية التي كانت مبعث الشك والحذر في نفوس المسلمين .

فهل يعقل بعد ذلك ان يتظاهر أعيان جبل عامل كالشيخ علي الحر ،

---

(١) لاحظ ص ٢٦ و ٢٩ من كتاب « الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث » للدكتور عمر دقاق .

(٢) لاحظ ص ١٢٦ من كتاب « يقظة العرب » لجورج انطونيوس ، ثم ص ٢٤ – ٢٥ من « العرب والترك » لتوفيق علي برو .

(٣) لاحظ ص ٢٧ من كتاب « الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث » لعمر دقاق .

والسيد محمد الامين (الثاني) ضد دعوة زعماء الملسين الى الجامعة الاسلامية او يشذو عنهم في تأييد نزعات ممثلي الدول الاستعمارية او في تأييد أي محاولة سياسية تغضب سلطان المسلمين أو تثير نقمة الاسلام ؟ يوم كان للفوارق الدينية أثرها الفعال في سياسة البلاد ؟

أضف الى ذلك ان علماء جبل عامل وأعيانه كانوا في هذه الفترة من الزمن لا يعرفون أي قيمة للفكرة الوطنية والنزعات القومية ، وانما كانوا يشعرون ويتأثرون بروح إسلامية مذهبية متشائمة تحبب لهم الابتعـــاد عن كل حركة سياسية او ثورة تستوجب غضب الدولة وتورطهم فيما تورطوا به ايام أحمد باشا الجزار من مغامرات ومجازفات كادت في نهايتها ان تبيدهم وتستأصلهم قتلاً وجوعاً وتشريداً .

المؤرخون يجهلون اخبار مؤتمر دمشق

ثم لو صح خبر ذلك المؤتمر ، وكان له وجود يومئذ – ولو في الخيال – لأشار اليـــه المؤرخون الذين عاصروا اعضاء المؤتمر المومى اليهم او عاصروا الامير عبد القادر نفسه ، كالدكتور مخائيل مشاقة ، والاستاذ محمد كرد علي ، والعلامة الشيخ محمد علي عز الدين ، والشيخ علي سبيتي ، والشيخ محمد مغنيه ، وشبيب باشا الاسعد ، وغيرهم من العلماء والادباء والاعيان الذين اولعوا بالقصص والحديث عن كل ما لابسوه وشاهدوه وسمعوه في حياتهم .. ومع ذلك لم نسمع عنهم ولم نجـد في آثارهم التاريخية – ولو تلميحاً – الى ما نص عليه المؤلف او ناشروا كتابه ، بل نجد في مقدمة ديوان شبيب باشا الاسعد ما يشعرنا بعكس ما نص عليـه المؤلف وناشروا كتابه[1] . وكذلك نلاحظ فيما تضمنته مخطوطة الوجيه الفاضل الشيخ محمد مغنية ما يدل على ان السيد محمد الامين كان مغرقاً في ولائه لبشوات الدولة العثمانية .

---

(١) لاحظ ص ١١٢ و ١١٤ ثم ص ١٠٢ من مقدمة ديوان شبيب الاسعد .

مصدر المشاريع لفصل سوريا أبلغ دلالة

ثم بعد اذا لاحظنا الحركات والمخططات التي كانت تنزع لفصل سوريا عن جسم الدولة العثمانية .. نراها أقدم عهداً وأبعد تاريخاً من السنة (١٨٧٧!) ، ونرى أن الذين كانوا يعملون على تحقيق هـذا المشروع مغلفاً (بأسماء أعلام الشرق العربي) هم من ساسة الدول الاستعمارية ، ومن كان يدور في فلكهم أو يتأثر بآرائهم أو يعتمد على مساعداتهم من الأفراد، والاحزاب، والجماعات السورية ، كما يبدو من بعض المشاريع التي اقترحها ممثلو اللجنة الدولية لدى انعقادها في بيروت سنة ١٨٦١ لتنظيم سوريا [١] .

او كما يتضح من الوثائق والنصوص التاريخيـــة التي لخصها مؤلفو كتاب (السياسة الدولية في الشرق العربي) بقولهم « ان اضبارات وزارتي الخارجية والدفاع الفرنسيتين وملفات حكومة الجزائر العامة تضم وثائق فيها خطوط صريحة لمشروع سياسي افرنسي واسع وضعته حكومة الامبراطورية الثانية عقب نقل الأمير عبد القادر الجزائري من معتقله الى قصر أمبواز التاريخي في وادي اللوار واجتماعه بنابوليون الثالث يقضي بسلخ سوريا الجغرافية –وكانت يومذاك تشمل سوريا الحالية ولواء الاسكندرن وفلسطين ، والاردن ، ولبنان– عن تركيا واقامة دولة عربية مستقلة فيها يكون هذا الأمير رئيسها » .

« فان فرنسا – والامر يبدو الآن عجيباً جداً – كانت أول من فكر في قيام نظام عربي وعرش عربي في الجزء الآسيوي من البلاد العربية يجلس عليه أمير من صميم العرب ، لا عن رغبة في بعث الامجاد العربية بل لتخلق لها في الشرق الادنى حليفاً (او عميلا) قوياً يؤمن سلامة قناة السويس وتستكمل

---

(١) لاحظ ٢٩٠ – ٢٩٦ ج ٣ من كتاب « السياسة الدولية في الشرق العربي لمؤلفيه عادل اسماعيل وأميـــل الخوري » ، ثم ص ٥٨ – ٥٩ و ص ٣١٨ و ١٢٨ من المحررات السياسية والمفاوضات الدولية ج ٣ تعريب الخازنيين .

به وسائلها الستراتيجية على سواحل المتوسط وطريق الهند ، بالاضافة الى ما ستجده تجارتها وصناعتها في اراضيه من أسواق واسعة » .

« وكان من ممهدات التنفيذ انتقال عدد كبير من الجزائريين بايعاز من الحكام الفرنسيين ، الى سوريا من سنة ١٨٥٧ ، الى سنة ١٨٦٠ الاقامة فيها حول الامير عبد القادر وتحت الحماية الفرنسية ، وقد شجعت حكومة باريس بكل وسائلها هذه الهجرة الجزائرية وتعهدتها بكل الوسائل فأغدقت المال على المهاجرين ، وسهل لهم قناصلها في الشرق أسباب الاقامة والعيش ، وقدمت الخزانة الفرنسية لعبد القادر كل ما شاء من مال وسلاح وعتاد ثم رفعت موازنته السنوية من مائتي الف الى ثلاثمائة الف فرنك ، وكان هذا مبلغاً ضخماً في تلك الآيام ، وفي تقرير لقنصل فرنسا بدمشق الى وزير خارجيته بتاريخ ١٩ حزيران ١٨٦٠ انه : « قدم للأمير ما يمكنه من تسليح الف رجل من رجاله ، ولم يكن المقصود بتسليح هذا العدد من الرجال القضاء على الجيش التركي بل خلق نواة ثورية مسلحة في سوريا » .

ومن ممهدات التنفيذ ايضاً الدعاية الواسعة التي بدأت لمصلحة عبد القادر بعد حرب القرم ومؤتمر باريس (سنة ١٨٥٦) بإرشاد الحكومة الفرنسية وتوجيهها ، وكانت أبرز وسائل هذه الدعاية مجلة أنشأها في باريس الشيخ رشيد الدحداح وسماها (برجيس باريس) ، وكان قناصل فرنسا في لبنان وسوريا يتولون أمر توزيعها على الناس بإيعاز من حكومتهم ، وكانت المهمة الاساسية لهذه النشرة إثارة العرب على الترك ودعوتهم للانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، وقد حاول الولاة والمتصرفون ما استطاعوا منع تسربها بعد ان ذاع صيتها وكثر إقبال الناس عليها في سرهم ، فلم يوفقوا لأن أعدادها كانت ترسل من باريس الى القناصل بالبريد الدبلوماسي » .

وصدرت في باريس في الفترة ذاتها مطبوعات اخرى عن سوريا ومصر والسويس ، وفيها مقالات لرجال الفكر عن مستقبل هذه المنطقة وعما يجب

ان تقوم به فرنسا وعلى رأسهـــا صديق مجرب كالامير عبد القادر ، وكانت فكرة الفصل تفسر وتبرر بأن وحدة الامبراطورية العثمانية اسم لغير مسمى ووهم من الاوهام لأنهـــا قائمة على أساس غير صحيح ، فالعثمانيون اتراك والسوريون عرب وبين الشعبين بون شاسع في الحضارة واللغـــة والتقاليد والاهداف ، وان الوحدة المؤسسة على الاعتبارات الدينية لا تكتب لها الحياة إلا لوقت » .

« ونشر في باريس سنة ١٨٦٠ كتاب لم يذكر اسم واضعه عنوانه (عبد القادر امبراطور البلاد العربية) كان من ألفه الى يائه دعوة صريحـــة لسلخ سوريا عن تركيا واعلان دمشق عاصمة امبراطورية عربية جديدة ، وقيـــل وقتئذ في الاوساط الدبلوماسية ان الخارجية الفرنسية هي التي وضعت الكتاب ونشرته وليس في المحررات السياسية الفرنسية إلا ما يدعم هذا القول ويثبته لان ما في الكتاب ينسجم كل الانسجام مع ما هو وارد في المحررات [1] .

* * *

وبناء على هذه النصوص والادلة التي لا يجوز الشك فيهـــا ، هل يصح او يجوز للقارىء الكريم أن يذهب الى أن أعيان جبل عامل كالشيخ علي الحر ؛ والسيد محمد الأمين (الثاني) كانوا يعملون مع قناصل فرنسا وعملائها ـ يومئذ ـ على فصل سوريا عن جسم الدولة العثمانية ؟ مع ان من يراجع كتاب جواهر الحكم للوجيه الفاضل الشيخ محمد مغنيه معاصر السيد محمد الامين يشعر ان السيد كان من المغالين في الاخلاص للاتراك العثمانيين.

أم يذهب الى الشك بكل ما يروى ويقال عن اشتراكهم في مؤتمر دمشق المزعوم ، والى اتهام كل مؤرخ يحـــاول تبرير ذلك الزعم بالتجني عليهم وعلى التاريخ ؟؟.

---

(١) لاحظ ص ٢٦٧ – ٢٧٠ ج ٣ من كتاب السياسة الدولية في الشرق العربي، للاساتذة اميل الخوري وعادل اسماعيل .

ولعل العنعنات التي ورطت الناشرين لكتب العلامة السيد محسن وكتاب الاستاذ جابر في أن يتمادوا مع الخيال والعاطفة في تصور هذه الاخبار والمزاعم .. هي نفس العنعنات التي ورطت المحقق لكتاب (خطط جبل عامل) في أن يتصور أن السيد علي ابن السيد محمد أمين (الاول) عندما كان بعكا مرهوناً لدى الجزار :

١ – قد اتصل بعبد الله بك بن علي باشا الخزندار وهو مثله في ريعان الشباب .

٢ – وأنه كان يتردد على خزانة كتب عبد الله بك للمطالعة والدرس .

٣ – وأنه كان يدخل مع عبد الله بك الى دار الحريم ؟.

٤ – وأن أم عبد الله بك أحبته لمحبة ولدها اياه ؟؟.

٥ – وأن عبد الله بك قد قرأ عليه (حاشية ملا عبد الله) على تهذيب التفتزاني في المنطق .

٦ – ثم ان السيد علي خرج من عكا بعد وفاه والده بما تكفل به للجزار (١) .

أجل تورط المحقق في تصور كل هذه المزاعم مع ان القرائن والادلةالقاطعة تشير بوضوح الى أن عبد الله بك (الذي أصبح عبد الله باشا فيما بعد) لم يكن مولوداً عندما كان السيد محمد الامين وابنه السيد علي في عكا ؟.

---

(١) راجع ص ١٥ من « خطط جبل عامل » و ص ٥٥ من أعيان الشيعة ج ٤٣ مما حققه الاستاذ حسن الامين نجل المؤلف الكبير .

ذلك بأن السيد محمد امين والد السيد علي ، قد أخذه الجزار الى عكا سنة ١٢٠٥ هـ ، وبأنه قد فر مع أولاده من عكا سنة ١٢١٠ هـ على ما ينص عليه (الركيني) في مخطوطته ، وهو ممن عاصروا تلك الحوادث [١] .

فاذا لاحظنا - قياساً على تاريخ فرار السيد الامين وأولاده من عكا - ان عبد الله باشا لدى تسلمه حكم صيدا وعكا سنة ١٢٣٤ للهجرة أو سنة ١٨١٩ للميلاد كان عمره لا يتجاوز الثانية والعشرين ، وذلك باجماع المؤرخين [٢] .

اذا لاحظنا كل هذه الاعتبارات بدا لنا منها ان جميع تلك المزاعم والافتراضات التي افترضها المحقق المحترم لم يكن لها أساس من الواقع ، لأنه اذا كان عمر عبدالله باشا في سنة ١٢٣٤ هـ لا يتجاوز الثانية والعشرين . . . يكون فرار السيد وخروجه من عكا سنة ١٢١٠ قبل ولادة عبد الله باشا بسنتين ، ويكون الزعم بأن السيد - لدى ارتهانه عند الجزار (من سنة ١٢٠٥ حتى سنة ١٢١٠ للهجرة) قد اتصل بعبدالله باشا ودرسه حاشية ملا عبدالله في علم المنطق زعم لا يتفق مع شيء من الواقع ، وانما يتفق مع العنعنات العائلية التي حسنت للمحقق ان يتجاوز النصوص والأدلة القاطعة الى مدى لم يحسب معه حساباً لواجبات العلم والتاريخ .

---

(١) لاحظ ص ٦٧٨ و ٦٧٩ من مجلة العرفان ج ٧ مجلد ٢٩ .

(٢) لاحظ ص ٣٢ من تاريخ «بشير بين السلطان والعزيز» للدكتور أسد رستم ، ثم ص ٥٤ من «تاريخ لبنان الحديث» الدكتور كمال سليمان الصليبي .

السكوت عن الحق تزكية للباطل

حضرة الاستاذ صاحب مجلة العرفان الغراء ،

تحية واحترام، وبعد فإني لا أعجب لشيء عجبي لصاحبك « ح » الاستاذ حسن الامين كيف تنازل « ومنّ عليّ » بشرف المناظرة والمناقشة » بعد هذه الرسالة التي أتحفني بها عندما أهديته كتابي « مع الأدب العاملي ».

نص الرسالة

أخانا الشيخ علي ، تحيات ما دمت قد أهديتني كتابك يداً بيد فلا بد لي من أن أكلمك وجهاً لوجه ولو على الورق .

لم يتسن لي أن اقرأ من الكتاب إلا بضعة سطور من أحد الأبحاث ، فأدركت شيئاً لم أكن لأتخيله أبداً ، ادركت أنه يوجد في الدنيا من يمكن ان ينطوي على مثل هذا الحقد الأسود ومن يمكن ان يحمل مثل هذا القلب الجحود ، ولكن الذي لم أهتد اليه ولم أدركه هو السر في هذا الحقد والباعث على هذا الجحود والعقوق ، نحن نعلم مثلاً أن نقمتك على الحوماني كان مبعثه أنه أساء اليك حين استدعاك الى مدرسته وعاملك بما لا يتفق مع الكرامة أو على الأقل مع اللياقة فاتخذت من النقد وسيلة للثأر منه [1] .

(١) انما انتقدت أدب الحوماني وشعره وأنا على أتم الصداقة معه كما يعلم جميع اصدقائك وأصدقائه من قراء العرفان لسنة ١٩٣٧ . وان الخلاف بيني وبين الحوماني انما كان خلاف رأي=

ولكننا حتى الآن لم نستطع الاهتداء الى الاساءة التي لحقتك من السيد محسن الامين لتتخذ من النقد وسيلة للثأر منه ،

على أننا نعلم علم اليقين أن السيد محسن الامين شق له اخلاصه وألمعيته طريقه بين الخالدين فغدا فيهم علماً راسخاً سيتحطم ألف رأس مثل رأسك دون أن ينال منــه خدشة بسيطة ، لقد مضى السيد محسن الامين في نفس طريق الطبري وابن الاثير والمسعودي وابن سعد والاصفهاني وكل هذه الزمرة الكريمة وهيهات أن تستطيع انت وكل حاقد جحود عقوق أن ينال منه منالاً .

ان هذا الذي ذكرته واستشهدت بـه وكررته وأعدته يستطيع تلاميذ تلاميذنا ان يفحموك بأجوبته ولكن هيهات أن نناقشك ، لأنك لم تحمل ذرة من الاخلاص في كل ما كتبت ولم يكن دليلك إلا الحقد الاسود والقلب الجحود ، ومن كان كذلك فلن يمن عليه المخلصون بشرف المناظرة والمناقشة ، وما دمت قد اخترت هذه الطريق فلا بأس نحن لها وسترى من هو الخاسر .

حسن الأمين

* * *

ومبدأ لا خلافاً شخصياً ، وشاهدي على ذلك أحرار الفكر من آل شرارة وآل الامين وخاصة الادباء اللامعين من اخوتك .

... وانمــا استدعيت الى مدرسة الاصلاح البيروتية « أواخر سنة ١٩٤٠ ومن قبل جمعية الاصلاح لا من قبل الحوماني كما يعلم الاساتذة أحمد حجازي وحسين شرارة وحسين منصور وعلي منصور وغيرهم من اساتذة المدرسة وأعضاء الجمعية يومئذ .

واذا كان النقد – في رأيك واعتقادك – لا يكون إلا بباعث من الحقد فما رأيك واعتقادك « برسالة التنزيه » وأمثالها من رسائل أبيك وأبحاثه النقدية ؟؟

ثم لو كانت بواعث النقد لدى أحرار الفكر كبواعثه من قبلك لما كان للنقد وزنه وأثره البالغ في « تطور الحياة الفكرية والفنية » وفي صون العلم والتاريخ من كل بدعة وكل خرافة واسطورة يتشبث بها الحالمون بأوهام العظمة والمجد الفارغ ؟؟

ثم أعجب من ذلك أن تختلف ردوده منطقاً وحماسة بعد هذه الرسالة، اذ بينما تراه يقول -- في رده على ما نقلته عن العرفان وعن تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى من خبر مجد الدين اسامة، او عز الدين اسامة[1] حاكم بيروت لسنة ٥٩٣هـ- كان الأليق بالكاتب لو كان من طلاب الحقيقة ان يشكر من ينبهه على أخطائه، فليس في الدنيا من لا يمكن ان يقع في توهم او خطأ ولكن في الدنيا من يكبر عليه الاعتراف بالخطأ[2] اذا به يرجع بعد هذا القول الصريح الى ما عودنا عليه في الرسالة الاولى من بوارق التهويل والتجني كما يبدو للقراء من رده الاخير على ما كتبته عن (مؤتمر دمشق) وقوله « ان من يبلغ به الحقد الى أن ينسب الى الاموات الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم — أن ينسب اليهم التزوير، وان من كانت كل عدتـــه لكتابة التاريخ حقد، وغرور، وسطحية، واجترار، وبذاءة لسان، وتنفج، وجرأة على الحق، لا يستطيع ان يرفع رأسه عندما ترتفع الرؤوس[3] »

* * *

مواضع الشك

وليت شعري ما الذي يقصده الاستاذ بهذه الاقوال والمواقف المتناقضة؟!

أيقصد أن يثنيني عن خططي في بحث التاريخ وتمحيصه ؟؟ وهذا أقرب الى المستحيل منـــه الى الممكن لأنه يقتضيني السكوت عن قول الحق تزكية للباطل !؟

أم يقصد بذلك أن ينزه مـــا حققه (من الكتب) عن الأخطاء التي تزيّف تحقيقه ؟

---

(١) راجع العرفان ص - ٩٥٨ - م . - ٥٧ -

(٢) لاحظ ص ١٠٦ من العرفان م -٥٨- -

(٣) راجع العرفان ص ٢٤٦ - م . - ٥٨ -

وهذا لا يتسنى له إلا اذا ترفع بما حققه عن الاخبار العارية من الصحة مثل خبر « حب أم عبدالله باشا لجده السيد علي » أو خبر « تدريس جده لعبد الله باشا علم المنطق » أو خبر « اشتراك العامليين في مؤتمر دمشق » ، وما الى ذلك من روايات مشوبة .

وإلا اذا تحفظ بما يرويه عن الاسترسال في مثل القول «بأن العلامة السيد علي بن السيد محمد الامين قد توفي سنة ١٢٤٩ هـ شهيداً بالسم ؛ وكان سبب سمّه ان عبدالله باشا (والي عكا) ارسل اليه بالحضور فبعث الجد الى بعض أعيان البلاد وكانوا سبعة أشخاص فاستصحبهم معه الى عكا فعاجله الحساد بالسم لما كان يفعله معه عبدالله باشا من التعظيم ولما كان يظهر له من الغلبة على علماء تلك الديار فوضعوا له السم في قهوة البن فشرب منه هو وأصحابه إلا واحداً منهم فمات كل من شرب ورجع الجد من فوره حين أحسّ بالسم فمات في صور »[1] .

مع العلم القاطع بأن عبد الله باشا كان قبل سنة من هذا التاريخ قد أسره ابراهيم باشا وأزال حكمه عن عكا وفلسطين ؟ ومع العلم بأن السيد لم يكن مرشحاً لأن يكون مفتياً أو قاضياً في عكا وفلسطين او لأن يتولى منصباً كبيراً بها في مكان اولئك العلماء والأعيان الذين سمّوه ولا هو من سكان عكا وفلسطين ليخافوا منه على نفوذهم ومكانتهم فيها ويسمونه درءاً للخطر الذي يهدد سلطانهم ؟

ثم أن هؤلاء الاعيان السبعة الذين صرح بأنهم كانوا مع السيد في عكا وماتوا فيها من السم لم يأتِ على ذكرهم أو ذكر أسمائهم أحد من المؤرخين والادباء الذين عاصروا السيد أو كانوا في عصره كالشيخ علي مروة والشيخ علي زيدان والشيخ علي سبيتي والشيخ عبد الله البلاغي فكيف تجاهلهم الناس

---

(١) لاحظ ص ٧٢ ج ٤٣ من أعيان الشيعة.

وتجاهلوا اسماءهم في مثل هذه الفاجعة لو صح انهم ماتوا في عكا مسمومين جملة مع السيد علي الامين وبسببه ؟؟

وإلا اذا تورع (بما ينشره) عن نشر مثـــل كتاب الشيخ سليمان ظاهر « اسماء قرى جبـــل عامل » وأبحاثه المتسلسلة [١] ضمن كتاب السيد والده (خطط جبل عامل) وبعد ان يتصرف في الكتاب تصرف المنشىء وصاحب التصميم ، فيضيف اليه جملة من اسمـــاء الاطلال والخرائب وأسماء بعض المروج والوديان والعيون وما الى ذلك من التعليقات المقتضية ، كما يضيف الى بعض القرى والمدن العاملية مثل جزين ومشغرا وصيدا والصرفند وصور وميس وعيناثا وجباع اسماء جملة من الفقهاء والمحدثين والنابهين في العلم والأدب ، أو يحذف من الكتاب ما لا ينسجم مع هوى « المحقق » أو يحوّر النصوص والروايات ويصوغها كما يحلو له ان يكون التاريخ ثم لا يتعرض في كل ما نشره من كتاب الشيخ سليمان لاسم المؤلف كمرجع ومصدر ، واذا ما اضطرته المناسبة لذكر اسمه أشار اليه إشارة غامضة بقوله « وفي التعليق على اسماء قرى جبل عامل » دون ان يذكر من هو المعلق ؟ او بقوله « قال صاحب معجم قرى جبل عامل » كأنما اسم المؤلف الصريح كان مجهولاً لدى المحقق والمؤلف للخطط ![٢] .

ولعل أبرز مـــا يلفت النظر في تصفح الكتاب ان ترى أن باعث مؤلف الخطط ومحققه هو نفس الباعث للعلامة ظاهر ، وان الاسلوب نفس الاسلوب والمحتوى نفس المحتوى لا يختلف عنه إلا بما يدعو للشك والريبة من تجاهل او حذف ، أو تحوير ، أو زياده ليست بذات بال بالنسبة لمـــا أثبته وحققه العلامة ظاهر .

ومع هذا كله فان تحقيق المحقق لكتاب (خطط جبل عامل) لايشمرك

---

(١) لاحظ العرفان مجلد ٨ - ثم م .- ٢٩ - ٣٠ منه .

(٢) لاحظ خطط جبل عامل ص ١٩١ - ٢٠٨

بشيء من العناية الصادقة في استئصال ما فيه من مآخذ وأغلاط تزري بقيمته العلميـــة ولا تنسجم مع التقدير والاحترام لمكانة المؤلف الكبير « صاحب الاعيان » وربما زاد المحقق الطين بلة وتورط في أشياء كثيرة لا يبررها المنطق ولا يقرها الواقع ، مثل القول بأن الذي عدد اسماء قرى جبل عامل برسالته للشيخ يوسف البحراني (صاحب الكشكول) كان هاجر من البـلاد العاملية في فتنة الجزار (سنة ١١٩٥ هـ) مع أن الشيخ يوسف البحراني ذاته كان قد توفي قبل فتنة الجزار هذه بتسع سنوات .[١]

ومثل الزعم بأن طول قلعة (دوبيه)١٣٥ متراً وعرضها ٨٠ متراً [٢] مع انها على أي تقدير لا تزيد عن الستين متر طولاً والثلاثين عرضاً !!

ومثل الزعم بأن عين التينة قرية في ساحل صيدا[٣] وبأن جباع الحلاوي من عمـل الشومر[٤] وبأن البيسـارية من اقليم التفاح[٥] وبأن اسكندرونة قرية في بلاد الشقيف ؟ قرب البابلية[٦] .

وبأن اليالوشي قرية قرب بريقع في اقليم التفاح ؟ على ميـــل من الزرارية[٧] .

.. واذا كانت جباع من اقليم الشومر ، والبابلية واسكندرونة من اقليم الشقيف ، والبيسارية وبريقع والزرارية من اقليم التفاح ، على مـا في خطط جبل عامل ، فكيف نميز هذه الاقاليم الثلاثة المتجاورة بعضها من بعض ؟!

---

(١) لاحظ الخطط ص١٩١ ثم أعيان الشيعة ج ٥٢ ص ٧١

(٢) الخطط ص ٢٣٢

(٣) الخطط ص ٢٧٣ .

(٤) الخطط ص ٢١١ .

(٥) الخطط ص ٢٠٧ .

(٦) لاحظ الخطط ص ١٩٥ .

(٧) خطط جبل عامل ص ٢٠٠ .

وأين يقع كل اقليم من مجاوره ؟ بعد هذا التوزيع الذي فرضه المحقق لمواقع تلك القرى الثلاث ؟

وكما أن المحقق قد زعم أشياء مخالفة للواقع فقد تجاهل أيضاً أشياء ماثلة للعيان مثل تجاهله لأطلال (دير قيس) الماثل بين قريتي شوكين وجبشيت ، على ما في نسبة هذا الدير لاسم (قيس) العربي الصريح وعلى ما في بقاء أطلاله لليوم من شواهد ملموسة تنص على أن أهل جبل عامل كانوا عرباً أقحاحاً قبل الفتح الاسلامي لهذه البلاد وما زالوا .

ومثل تجاهله لمقام النبي (شيت) لدى ذكر البلدة المضاف اسمه الى اسمها (جبشيت) ولدى احصائه لمزارات جبل عامل ومقامات الأولياء فيه .

مع أن حضرة المحقق يعرف مقام شيت فيها معرفة عيان وقد شاهده اكثر من مرة وعبث بالخلع المعلقة على الضريح ؟!

ومثل تجاهله للعلامة الشيخ محمود مغنية لدي الحديث عن قرية العباسية موطنه ومثواه الاخير ، ثم لنجله العلامة الشيخ عبد الكريم مغنية لدى الحديث عن قرية معركه ، ثم تجاهله للأدباء والشعراء الأعلام من آل شمس الدين كالشيخ علي مهدي والشيخ محمد حسين الكبير لدى الحديث عن قرية مجدل سلم ، وتجاهله للعلامة الفاضل السيد علي فحص والأديب الكبير السيد محمد علي حوماني ، لدى تعرضه لذكر (حاروف) . ثم للأديب العالم الشيخ أسد الله صفا لدى تعرضه لقرية (زبدين) . مع أنه لم ينس أحداً من العلماء والادباء لدى الحديث عن قرى : مركبا ، ودير سريان ، وقلويه ، وريشا . فهل كان أولئك المرموقون من المحقق أنبه اسماً وأبقى أثراً في دنيا العلم والادب من هؤلاء المنسيين من قبله ؟؟ أم أن هناك شيئاً آخر هو الذي يمحو ويثبت أو يحوّر الاحاديث والروايات لدى التحقيق ؟؟

هذا الى كثير من المآخذ المختلفة التي تغابى عنها المحقق الأمين أو تعمدها

لأمر لا يعرف سره ومداه إلا من يعرف من الاستاذ حسن الأمين، لماذا خف بعد وفاة العلامة الشيخ سليمان ظاهر لاستعارة مخطوطته «أسماء قرى جبل جبل عامل» التي نشرت متسلسلة بهذا العنوان في المجلد الثامن من العرفان ثم بعد النشر والتمحيص سمي المجموع باسم «معجم قرى جبل عامل» لاتحاد الإسمين في المعنى، أو لمشابهة الاسم الاخير لاسم «معجم البلدان».

وبعد فهل يسمح تشويش الكتب بالحذف والزيادة والتحوير بتجريدها من اسم مؤلفها الاول واضافتها الى اسم المحوّر والمشوش ؟؟ كما جرى لكتاب «أسماء قرى جبل عامل» حين جرده المحقق من اسم مؤلفه الشيخ سليمان ظاهر وأضافه الى كتاب (خطط جبل عامل) دون أن يفصح عن اسم مؤلفه الاول ولو كمصدر [1].

---

(١) لاحظ ص ١٩١ - ٣٠٨ من خطط جبل عامل.

التبشير وأثره في تعقيد التاريخ

- ١ -

كان المبشرون - في السياسة وفي الدين وفي أي نحلة يُختلف بها او عليها - كانوا وما زالوا يسخرون التاريخ وينسقون أخباره فيغالون فيها سلباً وايجاباً، او يتجاهلون بعضها ويؤلون البعض الآخر حسب الأغراض والخطط والمذاهب المختلفة ، ومن هنا كثر التعقيد والتلبيس، وكثر الاضطراب والدس في تاريخنا وخصوصاً التاريخ اللبناني وشق على الباحث ان يمحص أخباره ورواياته ، وان يصل منها الى صميم الواقع وان يقنع المتعنتين بحقيقة ما التبس عليهم منه ، وما أشبه حالنا اليوم بحال من سبقونا .

ما أشبه هؤلاء الغلاة من اللبنانيين - باعتقادهم ان العرب كانوا عاجزين عن احتلال لبنان يوم احتلوا سورية [١] - بأولئك الغلاة من العرب يوم كانوا يفاخرون.. الشعوبية « بأن العرب عاشوا في جاهليتهم مجاورين لدولتي الفرس والروم وكلتاهما دوخ البلاد وأسس ملكاً عظيماً وكلتاهما كان له من الجند والعدة والعدد ما لا يحصى كثرة ومع ذلك فلم تجرؤ كلتاهما ان تمس استقلال العرب وان تطأ ديارهم ، بل تملقوهم واستعانوا باللخميين في الحيرة والغساسنة

---

(١) لاحظ ص ٥٤ من الموجز لمؤلفيه رستم والبستاني الطبعة العاشرة ، وص ٩٠ - ٩١ من تاريخ لبنان العام للاستاذ ادمون بليبل الطبعة الخامسة .

في الشام ومنحوهم المـــال ، وقدموا لهم الدياة ليحموهم من غارات عرب الجزيرة عليهم فهم كانوا أحوج الى العرب من حاجة العرب اليهم ؟ » .

وكما لم يشأ أصحاب هذه النزعة من العرب ان يعتقدوا ان زهد الفرس والروم في ارضهم ، وعدم إقدامهم على إخضاعهم منشؤه ان ارض الجزيرة ليس فيها من الخيرات والثروة (الملحوظة يومئذ) ما يطمع ؟ بل اعتقـدوا ان انصراف الروم والفرس عنهم انما كان لشجاعة العرب وإقدامهم وصبرهم ، وان لهم من ارضهم منعة تجعـــل حربهم حرب عصابات لا يستطيع الجيش المنظم ان يجاريهم في أشكال حروبهم ولا ان يقف أمامهم .

فكذلك لم يشأ هؤلاء المتنكرون للعروبة في لبنان ان يخففوا من غلوهم في مثل هذا الاعتقاد على ان هناك فارقاً تاريخياً ملموساً يجعل احدى النزعتين أبعد في التعصب والغلو من الاخرى .. وهو ان شبه جزيرة العرب لم تكن في ضيق الدائرة وقلة السكان ومظاهر الحياة كلبنان ، وانه لم يتسن لأي فاتح من الدول ان يحتل جميع الشواطىء والبلدان المحيطة بشبه الجزيرة .. ليتسنى له ان يطوقها ويحاصرها اقتصادياً الى ان يستسلم اهلها بدون حرب ، كما تسنى للعرب يوم احتلوا جميع السواحل والبـلدان المحيطة بلبنان وتهيأ لهم — لو ارادوا — أن يطوقوه ويحاصروه اقتصادياً الى ان يذعن اهله لإرادتهم ، ثم ان شبه الجزيرة لم يتداوله الفاتحون من قبل او من بعد — كما تداولوا سورية وأرهقوا سكانها — بما يفند كل زعم وكل اعتقاد يعتقدونه من قبيل هذا الاعتقاد الذي يعتقده الدكتور فيليب حتي ويصر عليـه في قوله : « لم يكن خلفاء الرسول في المدينة ليدركوا عن بعد أهمية الجبل الستراتيجية فتركوه لشأنه ، ولكن معاوية القريب من الجبل أدرك هذا ، فكان أول خليفـــة حاول ان يخضع سكان الجبل النصارى ، ولكنه لم يفلح وأعاد الكرة ولم يفلح ايضاً ، كما ان الخلفاء الذين أتوا بعده لم يوفقوا لأخضاع الجبل [١] .

---

(١) لاحظ ص ٢٩٨ من لبنان في التاريخ .

وانما حين نقرأ تاريخ سوريا ولبنان لا نرى في جميع الفاتحين من كلدانيين وآشوريين ، ومصريين ، وفارسيين ، ويونانيين ، ورومانيين ، وغيرهم ، من فكـّر وقدر لدى فتح سورية بأن يحتل منها سوى العواصم والمدن الكبرى ، ولا نعلم ان واحداً منهم اهتم لهذه الجبال والأرياف والقرى الصغيرة او حسب لها أي حساب في حربه وسياسته ، ومع ذلك لم نر في جميع المؤرخين من اتهم اولئك الفاتحين بالعجز عن احتلال لبنان وقراه ، او زعم ان اللبنانين – في معاقلهم ومزارعهم – حاولوا ان يشقوا عصا الطاعة ويتمردوا على الفاتح المغير صوناً لاستقلالهم او اعتزازاً بمنعة جبالهم ؟ كلا بل نرى مؤرخي لبنان أنفسهم يوافقون ضمناً صالح بن يحيى التنوخي في قوله ، وكان الذي يقوى على دمشق (من الفاتحين) يملك على السواحل حسب ما ذكره المؤرخون [١] .

والفاتح العربي لم يشذ عن غيره من الفاتحين بل نراه حـــذا حذوهم في اطمئنانه لاحتلال سورية باحتلال عواصمها ومدنها الساحلية والداخلية فكيف ساغ للمؤرخين أن يتهموا الفاتح العربي وحده بالعجز عن احتـــلال كهوف لبنان ومعابده وأكواخه !! مع العلم بأنه لم يكن به من العمران والسكان يومئذ ما يستحق الاهتمام ، ولا من القوى الحربية ما يوجب الانتباه اليـــه بعد ان تشتتت جيوش البيزنطيين وانجلت عن تخومه وربوعه وأن الباحث الحصيف لا يكاد يتصور أن جبابرة أمية الذين كانوا يسيرون القواد والجيوش العربيـة لفتح الامصار في الهند والسند وما وراء النهر شرقاً ، وفي افريقيـا واسبانيا واوروبا غرباً ، كانوا ينفذون خططهم هذه منذ احتلال الشام الى ان دالت دولتهم فيها ، أو كان يحلو لهم أن يستمروا على عملهم هذا .. وهم يشعرون

---

(١) لاحظ ص ٢٧ من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ، الطبعة الاولى ، وص ٢٥٥ من كتاب لبنان لمجموعة من المؤلفين .

يخطر لبنان الحربي وخطر سكانه -يوم ذلك- على دولتهم ونفوذ سلطانهم ؟!

على أنني لا أكاد أعرف ، أكان للبنان - عند فتح العرب لسورية - كيان وطني أو قومي يحفز القاطنين للمدافعة عنه ؟؟.

وكذلك لا أدري هل استخلص العرب سورية ولبنان من أيدي المواطنين أم استخلصوهما من أيدي البيزنطيين ومخالب المستعمرين ؟!.

التمرد من خارج لبنان لا من داخله ؟

ثم هل قاوم اللبنانيون والمواطنون السوريون الجيش العربي عندما اجتاح البلاد ؟؟ أم كان موقفهم - لدى حرب الروم مع العرب - موقف المتفرج كما يصرح الأب لامنس اليسوعي (ص ١٢ م ٣٠ من مجلة المشرق) في مقاله عن - سورية في زمن الفتح العربي - اذ يقول ما نصه « ان الكتائب الرومية التي انتصر عليها خالد بن الوليد كانت أكثرها مؤلفة من جنود أجانب يحاربون مأجورين ، فكان أهل البلاد يقفون وقفة المتفرج أمام تلك المعارك التي لم يكونوا ليروا في نتيجتها (أولا) إلا ابدال سيد بسيد ودولة بدولة».

وإذن فما الذي سوغ لبعض المستشرقين ومن نهج منهجهم من مؤرخي لبنان أن يظنوا بأن اللبنانيين حاولوا عفواً أن يتمردوا على الفاتح العربي قبل أن تتسرب اليهم الدسائس الرومية [١] أو قبل أن يفكر قسطنطين اللحياني ملك الروم في إرسال قوة حربية مع الجراجمة الى الشام على ما يرويه البلاذري ص ١٦٠ من فتوح البلدان حيث يقول « لما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده ، لتوليته اياه عهده ،

---

(١) لاحظ ص ٢٩٩ من لبنان في التاريخ قول الدكتور فيليب حتي « وفي عام ٦٦٦ ميلادية اتخذت الغزوات البسيطة التي كان الجراجمة يشنونها على سورية شبه حرب اجتياح ، فقد كان قواد من الروم ، وكانت فرق عسكرية من الروم تشد أزرهم . كما كانت قطع من الاسطول تساندهم من البحر » .

واستعداده للشخوص الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت الى لبنان وقد انضمت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك الى أن صالحهم على الف دينار في كل جمعة وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج الى الشام فيغلب عليه ، واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق ، فانه صالحهم على أن يؤدي اليهم مالاً وارتهن منهم رهناء .. وذلك في سنة ٧٠ » .

ثم يؤكد هذا القول من البلاذري مؤلفوا كتاب (لبنان)ص ٢٥٠ بقولهم « وكلام البلاذري ينطبق على ما يرويه مؤرخوا الروم والسريان كتاوفان ومحبوب المنجبي ، وابن العبري ، فانهم يدعون هؤلاء المردة فرقة جندية ارسلها قسطنطين اللحياني الى الشام للمدافعة عنها فاحتلوا لبنان ودوخوا العرب بهجومهم على السواحل الى ان صالح عبد الملك ملك الروم ، فأمر برجوعهم الى مواطنهم السابقة ، وبعد خروج المردة من لبنان الى قيليقيا ضعفت عزائم أهل لبنان في شماله فشرعوا يؤدون الخراج الى خلفاء بني أمية ولبثوا في ظلهم آمنين مطمأنين في جبالهم سائرين على تقاليدهم الملية وعاداتهم القديمة وفرائضهم الدينية »[1] .

من هذين النصين يتجلى للممعنين بهما ان ذلك التمرد المزعوم انما جاء من خارج لبنان لا من داخله ، وفي جو مضطرب يذكي الحمية والجرأة والطمع في قلوب المستضعفين والمحكومين ، ولدى حوادث طارئة تبعث الشك والخوف والحذر في نفوس الاقوياء المسيطرين ، وظروف محرجة تفرض على أي دولة

---

(١) يظهر من تاريخ نزول التنوخيين في الغرب من لبنان ، ومن تاريخ نزول المعنيين في الشوف ، ومن قول الرحالة المقدمي ، ان هذه المواطن من جنوب لبنان لم تكن عامرة بالسكان قبلا وانما كان يسكنها بعض العباد في خصاص من القصب كما يبدو ص ٢٥٤ ، وص ٢٧٢ من لبنان ، او ص ٣٢٤ من تاريخ الامير حيدر طبع مصر ، و ص ٣٠٢ من خطط الشام ج أ . يظهر من هذا كله ان هذه المواطن من الجنوب كانت بعيدة عن الاضطرابات .

من الدول أن تسايرها وتحتاط لعواقبها بمثل ما احتاط به الأمويون ، ولهذا نلاحظ انه عندما اعتدل الجو السياسي، وسكنت الحوادث وتغيرت الظروف، تغير كل وضع قلق في لبنان وانتهى كل تمرد طارىء وعاد اللبنانيون الى سابق عهدهم من التزام الطاعة وتأدية المفروض واحترام الروابط المرعية .

ولا أخال ما بدر من هذه الثورات اللبنانية على الحكومات العربية – في فترة من فترات الاضطراب الداخلي كالفترات التي انتقلت فيها الخلافة من الطالبيين الى الامويين او من بني أمية الى بني مروان ، او من بني مروان الى بني العباس – إلا كثورة غيرهم من القبائل والمناطق السورية في حال مثل هذه الحال ، لا لأنهم امتازوا عن بقية القبائل والمناطق السورية في قوة بأسهم وامتناع جبالهم أو حرصهم على الاستقلال الذي ظل مجهولاً في تاريخهم السياسي وتاريخهم الادبي حتى في عهد الرومان والصليبيين : واذا امتازوا في شيء من ثوراتهم فقد يكون بأن عواملها وبواعثها الرئيسية كانت تأتي من الخارج ومن قبل البيزنطيين غالباً ، بينما كانت عوامل الثورات في غيرهم من السوريين ذاتية تنبعث من جوهم الخاص ومن اعتدادهم بأنفسهم وحقهم في السيادة . [1]

لبنان في كنف العروبة

... كان الايطوريون طائفة من العدنانيين حكمت لبنان طيلة قرن كامل قبل الاحتلال الروماني وعند غزو الرومان العتيد وقفوا وحدهم بثمانية آلاف فارس يجابهون جيوش الامبراطوريه الرومانية دفاعاً عن ثغور لبنان وتخومه.

ومما يعرف عن الايطوريين انهم جيل من العرب يرقى نسبهم الى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل الذي يذكر سفر التكوين (٢٥ : ١٥) بين أبنائه المدعو

---

(١) لاحظ ص ٢٩٩ من لبنان في التاريخ للدكتور فيليب حتي ، ثم ص ٣٣٦ منه ، ثم ص ١٦٧ من تاريخ سوريا للمؤلف نفسه .

ايطور ، وانهم كانوا اتخذوا في لبنان الحصون المنيعة ، كسنان ، وجيفرتا ، وبوروما ، وكانوا وراء أسوارهم أعز من العقاب يهجمون منهـا على النواحي المجاورة مندفعين كالسيل الجحـاف لا يقوى أحد على كسر شوكتهم ، وقد ورد ذكر هؤلاء الايطوريين غير مرة في تاريخ اليونان والرومان ، والكتبة يطنبون في بأسهم وحذقهم برمي السهام (١) .

ويذكر المؤرخ الالماني مومسن « ان الايطوريين استولوا على لبنان الشرقي والغربي ، ونزلوا فينيقية وجعلوا عين جر (عنجر) عاصمتهم الاولى، ثم اتخذوا طرابلس عاصمتهم الاخرى ، وكانوا يطيلون أيدي التعدي على البر والبحر من حصونهم العالية، وكان سكان دمشق يحاولون ان يدفعوا عنهم عادية الايطوريين والبطالـة وذلك بخضوعهم للملوك البعيدين عنهم مثل النبطيين (٢) .

ويذكر الأب هنري لامنس اليسوعي « ان من الدول العربية التي اشتهرت في ذلك الوقت . دولة الايطوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقية وكان هذا الشعب محنكاً في آداب الحرب يحسن الرمي بالنبـــال ، وكان اصله من الجبال الصخرية التي موقعها في شرقي دمشق المعروف اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجاه : (او التي موقعها غربي دمشق المعروفة اليوم بالجولان)، فلم يزل امره يعلو ويقوى حتى تعدى حدود وطنه ؟ فاستولى على جبـــل الشيخ وبقاع العزيز فضرب خيامه واقام له دولة صغرى ؟ جعـــل عين جر (عنجر) كعاصمتها ؟ وما عتم ان تسور قمم لبنان وحصنها بالقلاع ثم هبط الى سواحل الشام واتخذ له دولة ايتورية ثانية اضحت طرابلس مركزها (٣) .

---

(١) لاحظ ص ١٩٦ – ١٩٧ من كتاب لبنان لجماعة من المؤلفين .

(٢) لاحظ ص ٩٥ - ٩٦ من خطط الشام ج ١ ثم ص ٢٠٩ - ٢١٠ من لبنان في التاريخ وص ٢٣١ و ص ٢٧١ . و ص ٣١٧ و ٤١٩ من تاريخ سوريا للدكتور حتي .

(٣) لاحظ ص ٢٢ - ٢٣ من تسريح الابصار في ما يحتويه لبنان من الآثار للأب لامنس اليسوعي .

ثم يقول لامنس في مكان آخر من كتابه « وكان شيخ قبيلة الايطوريين ؟ آنئـــذ يدعى بطليموس ابن مانيوس من اعظم اهل سورية ثروة وقدراً ، وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصلي (جبل حوران والجولان) ويتولى الجبل الشرقي وجهات البقاع الشمالية مع مدينتي بعلبك وكلسيس (عنجر) وكان له عسكر من الفرسان يبلغ عدده (٨٠٠٠ فارس) .

ولما زحف بمبيوس على لبنان وجد طرابلس وما يجاورها من لبنان الشمالي في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن مانيوس ويدعى موينسيوس، فاضطر الرومان لتوطيد دعائم سلطانهم ان يحاربوا هؤلاء الدخلاء [١] حرباً عواناً كانت نتيجتها وبالا على اهل ايطوريه فأسر بمبيوس قائدهم ديونيسيوس وأمر بقطع رأسه ، ثم توغل في لبنان فأخرب حصونهم ، جيغرتا ، وسنان وبوروما ، (الكسروانية) .

وقد حارب بمبيوس كلسيس الايطورية فدمرهـــا ، وكلسيس على الرأي الراجح هي مدينة عين جر ، التي ترى اخربتها في سهل البقاع .

---

(١) لاحظ هنا تحرج لامنس وتحيزه حين يقول عن الشعب الايطوري « تعدى حدودوطنه؟ وأقام له دولة صغرى ؟ وجعل عنجر كعاصمتها ؟ وكان شيخ قبيلة الايطوريين ؟ فاضطر الرومان أن يحاربوا هؤلاء الدخلاء ؟ حرباً عواناً » .

فان الذين يمتد حكمهم من جبل حوران ، الى الجيدور، الى البقاع الغربي والشمالي بما فيه مدن، عنجر ، وبعلبك ، الى كسروان وطرابلس ومـا حولها من مناطق ، والذين يشيدون الحصون والقلاع والمدن، ويكون لديهم من الجنود ثمانية آلاف فارس، يقفون بهم في وجه أعظم دولة تغزو لبنان في عصرهم .

ان من يكونون كذلك لا يصح أن يقال عنهم، انهم قبيلة، أو دولة صغرى بالنسبه لدول ذلك العصر وخصوصاً دول فينيقية، ثم لا يصح ان يعتبروا دخلاء على لبنان ويعتبر المعتدين عليهم من الرومان كأنهم مواطنون أصليون ؟ الا اذا اعتبرنا الفينيقيين ، والكنعانيين من أصل لا يمت الى العرب بصلة ، واعتبرنا روما أقرب الى البقاع والى لبنان من حوران والجولان موطن الايطوريين الأصلي على حد تعبير الأب لامنس .

ولما انتصر الرومـــان على الأيطوريين وفتحوا معاقلهم تقلص ظلهم وباد ذكرهم من التاريخ ولا ريب ان بقاياهم امتزجت بأهل لبنان .

ومما يدل على وجود الايطوريين في لبنان ما وجد في الكتابات اليونانية من (اسماء) الاعلام العربية (المحضة) لا سيما في رأس الشقعة وأنحاء جبيل، وليس الايطوريين القبيلة العربية الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان بل نجد قبائل غيرها توطنت ذلك الجبل لا سيما التنوخيين [1]

أين قوة الايطوريين من قوة الامويين ؟

وبعد فلست ادري أكان العرب في عهد الايطوريين ، اوفر جنداً وأشد بأساً وأكثر هيبة في النفوس من العرب في عهد الامويين والعباسيين ؟ ليستمر سكان جبل لبنان – بعد وقعـــة اليرموك والقادسية – على عصيان كلمتهم ومهاجمة حدودهم : او في التفكير بأن يأخذوا منهم جزية او ضريبةاسبوعية على مهادنتهم ؟

مع اننا نجد المؤرخين على اختلاف ميولهم وعناصرهم يصرحون ويجزمون بأن عرب الايطوريين كانوا مدة حكمهم على لبنـــان -- الشرقي والغربي – يهاجمون البلاد المجاورة لبلادهم ولا يجرؤ احد من داخل البلاد وخارجها على مهاجمتهم ؟

لبنان في عهد المماليك

ثم لا أكاد أعلم أكان العرب في عهد الامويين والعباسيين دون العرب في عهد المماليك سطوة واقتداراً؟ واذن فكيف صح او استمر عجز الامويين عما استطاعه المماليك سنة ١٢٨٣ وسنة ١٣٠٥ ميلاديـــة ، يوم انتهى قادتهم من

---

(١) لاحظ ص ٣٩ – ٤٠ من تسريح الابصار ج ٢ .

جهاد المغول وصد غارات الصليبيين عن بلادهم وتفرغوا لتصفية حساب الكسروانيين والجبليين والجرديين وزجرهم عما حسنه لهم لاجئوا الافرنج من العصيان لاوامر المماليك [١] .

فانظر الى ما يرويه المؤرخون في ذلك ، ولاحظ قول الدكتور فيليب حتي « .. وفي عام ١٢٨٣ توغل جيش السلطان قلاوون الى معاقل الموارنة في اعالي لبنان الشمالي ، الى اهدن وبشري وحدث الجبة وخربها فنزحت جماعات يقدر عددها بالالوف هرباً الى جزيرة قبرص حيث بلغت جالياتهم فيها ثمانين الف نسمة حتى انه في سنة ١٣٤٠ م اقاموا لهم في الجزيرة مطرانية مارونية [٢] .

أو لاحظ قول البطرك اسطفان الدويهي « انه في شهر ايار سنة ١٢٨٣ مسيحية سار (عسكر السلطان قلاوون) الى فتح جبة بشري فصعد شرقي طرابلس في وادي حيرونا وحاصر اهدن حصاراً شديداً وفي نهار الاربعين ملكها بشهر حزيران فنهبوا وقتلوا وسبوا ودكوا للارض القلعة التي بوسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل ، ثم انتقلوا الى بقوفا ، وفتحوها في شهر تموز وقبضوا على اكابرها .. ونهبوا وسبوا ودكوها للارض ، وبعد ما ضربوا بالسيف اهالي حصرون ، وكفر سارون .. توجهوا في الاثنين وعشرين من شهر آب الى الحدث ، فهربوا أهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فيها صهريج للماء فقتلوا الذين لحقوهم وخربوا الحدث وبنوا برجاً قبال المغارة وأبقوا فيه عسكر يكمن عليهم ثم هدموا جميع الاماكن العاصية [٣] .

---

(١) لاحظ ص ١٣٦ من خطط الشام ج ٢ ، حيث يروي المؤلف « ان افرنج الساحل لما اصابتهم الضربة القاضية ، اعتصم بعضهم بأهل جبل لبنان ونزلوا عليهم ، وعاد الآخرون الى بلادهم في المراكب . وقد اثار هذا القسم اللاجيء في نفوس بعض اهل لبنان فكرة العصيان فعصوا » .

(٢) لاحظ ص ٣٩٧ من لبنان في التاريخ .

(٣) لاحظ ص ١٤٦ من تاريخ الازمنة للبطريرك الدويهي طبع بيروت سنة ١٩٥١ .

ثم لاحظ بعد قول صالح بن يحيى التنوخي ، « وتوجه آقوش الافرم من دمشق بسائر الجيوش في اليوم الثاني من محرم سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) وجمع جمعاً كثيراً من الرجال نحو خمسين ألفاً وتوجهوا الى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه سيف الدين اسندمر، نائب طرابلس، وشمس الدين سنقرجاه المنصوري نائب صفد ، وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس ، وكان نسب الى مباطنتهم فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الامر ما ينفي عنه هذه التهمة اللاحقة بـه ، فطلع الى جبل كسروان من أصعب مسالكه ، واجتمعت على أهله العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن سكانها يظنون ان أحداً يطأها ، وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد، واستخدم اسندمر جماعة منهم بجامكيه[١] وأقطع بعضهم أملاكاً من حلقة طرابلس واختفى بعضهم بالبلاد واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم .

وعاد نائب الشام بالعساكر الى دمشق في أربعة صفر من السنة المذكورة ، وجعل الناظر في بلاد بعلبك والجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش فقهر ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من أعيانهم جماعة ثم أعطوا أماناً لمن استقر في غير كسروان[٢] .

فأنت ترى ان صالح بن يحيى – وهو يروى عن المعاصرين لتلك الحوادث – يجعل مجال الواقعة من أعالي طرابلس (طريق اهدن بشري) الى كل جهة من جهات كسروان حتى قاطع بكفيا ، ويجعل مدة الحملة من ٢ محرم الى ٤

(١) المراد بالجامكية الراتب والمعاش .

(٢) ص ٤٩ من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى طبعة ١٩٠٢ ، ثم ص ٢٧ - ٢٨ من الطبعة الجديدة المحققه سنة ١٩٦٧ ، ويلاحظ هنا من جعل جبال كسروان تابعة لحاكم بعلبك ان المراد بكسروان عموم البلاد المشرفة على سواحل طرابلس وبيروت ، أو عموم المناطق التي كان يسكنها الموارنة الذين اشتركوا « مع البطريرك شمعون الثالث » في حملة سنة ١٣٠٢ ميلادية اذا كان السبب واحداً لكلا الحملتين حملة سنة ١٣٠٢ وحملة سنة ١٣٠٥ م.

صفر . ويحصر أهدافها بالكسروانيين والجرديين أي بمواطن الموارنة جميعاً من شمال اهدن الى جنوب بيت مري ، ذلك بان لفظــة كسروان كانت لدي مؤرخينا القدماء تقابل بما يسمى جبل الشوف أو جبل الدروز ، في جنوب كسروان [1] .

وعلى كل فسواء كانت هذه الحملة على كسروان ضد الموارنه او كانت ضدهم وضد غيرهم من الدروز والنصيرية ، والمسلمين أجمع ، ففيها من الأدلة الواضحة ما يبطل كل زعم يذهب اليه القائلون بأن العرب كانوا عاجزين عن احتلال لبنان يوم احتلوا سوريا وتمركزوا بهـا وسخروا برها وبحرها وجميع مرافقها ومقدراتها لغزو العالم فدوخوا الشرق والغرب بمـا فيها من صحاري بعيدة المدى وقلاع محكمة التحصين او جبال شاهقة منيعة الذرى .

أما ما يقال من ان قادة المماليك الذين اجتاحوا لبنان وكسروان هم من الترك لا من العرب لتتم بذلك الحجة ويتصح البرهان ؟؟ فان الذي يبطل مثل هذه الأقوال ويقلل من قيمتها .. كون هؤلاء القادة قد تعربوا مع الزمن بالنشأة ، والبيئة ، والدين ، والسياسة ، وأهداف الملك ، وكون جيشهم الذي اجتاحوا به لبنان وكسروان هو من بعض عرب الشام ، لا من الترك والفرس هذا ومهما يفترض ومهما يكن من أمر قادة العرب في العهود الاموية والعباسية .. فلا يمكن ان يكونوا دون قادة الايطوريين أو قادة المماليك حزماً وإقداماً ، ولا ان تكون الجيوش العربية التي قادها الامويون والعباسية .. دون الجيوش العربية التي قادها الايطوريون والمماليك جرأة وحمية واعتداداً بقوتها وسلطانها .. ليتحاموا لبنـــان وكسروان في عهد الامويين والعباسيين ويجتاحوه في عهد الايطوريين والمماليك ؟؟

---

(١) لاحظ ص ١٢ من تاريخ لبنان الحديث حيث يقول المؤلف « اما عبارة جبل لبنان فكانت تطلق اصلا على المناطق التي كان يسكنها الموارنة في أقصى الشمال ، وهي جبة بشري ، وبلاد البترون ، وجبيل ، وكانت منطقة كسروان التي يسكنها الموارنة أيضاً تعتبر جزءاً من جبل لبنان « حيناً وحيناً منفصلة » وكانت عبارة لبنان يقابلها ما يسمى جبل الدروز أو جبل الشوف ، وهي المنطقة الواقعة جنوب طريق بيروت - دمشق ، ولم يكن لهذه المنطقة الدرزية في بادىء الامر أي علاقة بمناطق الموارنة في الشمال » .

يقول المؤلفان الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد افرام البستاني : « جهّز المماليك سنة ١٣٠٥ حملة شديدة على كسروان ، وهدفهم الشيعة خاصة ، وسيّروا الزحف من دمشق وطرابلس وصفد بجيش تجاوز الخمسين الفاً ، على قول المؤرخين ، فنهبوا وأتلفوا وأحرقوا ، حتى لم يبق في سبيلهم قرى ولا مزارع ؛ فهرب من نجى من اللبنانيين ، أما الأسرى فقتلوا بعضهم وجلوا البعض الآخر الى سورية ، وجندوا من تبقى في جيوشهم [١] » .

ويقول الدكتور كمال سليمان الصليبي : « ان شيعة كسروان أبدوا مقاومة عنيفة استمرت ثلاثة عشرة سنة ، الى ان انهزموا في النهاية وتشتتوا في سنة (١٣٠٥ م) (٧٠٥ هـ) ، ومع مرور السنين أخذ الموارنة النازحون من الشمال يستوطنون هذه المناطق [٢] » .

---

(١) لاحظ ص ٧١ من الموجز الطبعة العاشرة .

(٢) تاريخ لبنان الحديث صفحة ١٦ ، ويلاحظ من اجمال المؤلف لكلمة الشيعة انه لم يميز بين الشيعة الجعفرية وبين غيرهم من الفرق التي انشقت عنهم ، ولعله اشتبه بما يقوله أحمد بن تيمية عن الروافض صفحة ١٧٦ - ١٩٢ من كتاب « العقود الدرية » ، مع انه لو فكر بحقيقة ما يروى عن ابن تيمية في هذا الكتاب ، لرأى انها لا تنطبق على الشيعة الجعفرية بحال من الأحوال =

ولكن فات الدكاترة (رستم والبستاني والصليبي) انه لم يكن لحملة المماليك على الكسروانيين والجبليين سنة ١٣٠٥ من غرض سوى إخضاع الموارنة ومعاقبتهم على ما ارتكبوه في قرية (الدامور) من اشتراكهم مع الافرنج في الاعتداء على الأمراء التنوخيين سنة ١٣٠٢ م (٧٠٢ ﻫ) كما يبدو من قول البطريرك اسطفان الدويهي : « وفي سنة ١٣٠٢ مسيحية نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت ليلة الاربعاء ثامن جمادى الاول فقتل هناك فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي ، وأسروا أخاه شمس الدين عبدالله ،فاشتراه ناصر الدين الحسين بن خضر بثلاثة آلاف دينار صورية، فقدموا (التنوخيين) العروضات الى نائب دمشق الافرم في الجرديين وأهل كسروان [1] » .

فيقول ابن الحريري ان بهذه السنة اجتمعت النواب جمال الدين آقوش الافرم نائب دمشق ، وسيف الدين اسندمر نائب طرابلس ، وشمس الدين سنقر المنصوري ، وجمعوا جيوش الشام الى مقاتلة الجرديين وأهل كسروان ، فاجتمعوا مقدمين الجبال وتوابعهم وأحاطوا بالجيش من كل جهة فهزموه وقتلوا نفراً كثيراً وغنموا بامتعتهم .

ويقول ابن القلاعي ان الوقعة كانت عند مدينة جبيل، وان المقدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين في العدد، وكان المشهورين فيهم خالد مقدم مشمش

=ورأى أن ابن تيمية – لفرط تحامله على الشيعة – لم يميز بين عقائدهم وعقائد غيرهم من الملل حتى غدا يعتبر كل من خالفوا مذهبه ارفاضاً سواء كانوا من الشيعة او من الموارنة او من الدروز او من النصيرية .

وإلا فهل في الشيعة الجعفرية وفي عقائدهم وتقاليدهم ما ينطبق عليه شيء من تلك الاقوال المنسوبة لابن تيمية في كتاب « العقود الدرية » في مناقب أحمد بن تيمية ؟

(١) يذكر ناشر (تاريخ الازمنة) في هامش هذه الرواية ، انها مأخوذة من تاريخ صالح بن يحيى ص ٤٩ ولدى مراجعة هذا التاريخ وجدنا ناشروا الكتاب .. يذكرون هذه الروايه في غير موضعها مما يدل على تلاعب الناشرين في النسخة الاصلية وبتاريخ الحوادث والعلل والاسباب .

وسنان وأخوه سليمان مقدمي ايليج ، وسعادة وسركيس مقدمي لحفـد ، وعنتر مقدم العاقورة ، وبنيامين مقدم حردين ، فجعلوا ألفين مقاتل يكمنوا على نهر الفيدار وألفين غيرهم على نهر المدفون ، ثم انحـدروا بثلاثين الف الى قتال الجيش فوقعوا بحمدان قائد الجيش على الطريق منفرداً فقتلوه وهجموا على الجيش فأهلكوا غالبه وغنموا بأمتعتهم وسلاحهم وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم . وقدمت الأكراد لنجدتهم فوقعوا بيد المكمنين على الفيدار فلم يخلص منهم الا القليل . وقتل من الامارة التنوخيين نجم الدين محمد وأخوه شهاب الدين أحمـد ولدي جمال الدين حجي . وغزت الجردية بلادهم (بلاد الدروز) فأحرقوا منها عين صوفر ، وشملك ، وعين زوينـة ، وبحطوش وغيرها من بلاد الغرب . وقتـل ايضاً من المقدمين بنيامين صاحب حردين فدفنوه عند صاحب الاركان في جبيـل ، ومن شدة حزنهم عليه لا رفعوا سنجق ولا دقوا طبل ولا نفير ، ثم صعدوا الى معـاد ، اقتسموا المكاسب بينهم ، فقصد عنتر الطمع على رفاقه وإذ لم يعتبر ولا ينتصح حرمه البطريرك، ومات في اليوم الثالث [1] .

* * *

ومن قول المؤرخ الكسرواني الخـوري منصور الحتوني « وعلى اثر معركة رهيبة في جبيل سنة ١٣٠٢ م قتل فيها مقدم حردين ودفن عند باب الاركان، اجتمع مقدموا الموارنة في قرية معاد وعددهم ثلاثون تقريباً لاقتسام الغنائم ، فعنتر مقدم الماقورة أغواه الطمع برفاقه ولم يعتبر بنصائح البطريرك (شمعون الثالث الذي توفي سنة ١٣٢٢ م) فرشقه البطريرك بسهـام الحرم فمات في اليوم الثالث »[2].

---

(١) لاحظ ص ١٦٠ - ١٦١ من تاريخ الازمنة .

(٢) لاحظ ص ٤٣ من تاريخ المقاطعة الكسروانية للخوري منصور الحتوني .

ومن قول صالح بن يحيى التنوخي المتوفى سنة ١٤٣٦ م « ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي ، ما رويناه من حوادث سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) وتوجه العساكر الشامية الى جبال كسروان وإبادة أهلها وتمهيدها ، وهي النوبة الثانية في أيام السلطان الناصر محمد بن المنصور « قلاوون » [١] .

* * *

فإذا أضفنا الى هذه الاقوال والروايات .. العلل والأسباب الوجيهة التي يذكرها ابن تيمية لحملة سنة ١٣٠٥ م (في الجواب الصحيح على النصارى) :

١ – من ان الجبليين والكسروانيين هم الذين أمدوا الصليبيين الذين كانوا محاصرين في طرابلس بالذخيرة وساعدوهم على المسلمين .

٢ – وهم الذين باعوا الافرنج جنوداً أسروها من جيوش المسلمين .

٣ – وهم الذين كانوا يستقبلون الافرنج من جزيرة قبرص ويضيفونهم في بيوتهم [٢] .

٤ – وهم الذين لم يكترثوا بنصائح الوفد الذي أرسله آقوش الافرم نائب دمشق ولم يقبلوا الرجوع الى طاعة المماليك ولا الصلح مع الامراء التنوخيين [٣].

---

(١) لاحظ ص ٤٨ من تاريخ بيروت لصالح بن يحي ، ثم لاحظ انه اذا كان الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، قد تولى على مصر والشام من سنة ١٢٩٤ ميلادية الى ١٣٤٠ (٦٩٣هـ الى ٧٤١ هـ) على ما يقوله الاب شيخو اليسوعي في هامش الصفحة ، ثم كانت حملة المماليك سنة ٧٠٥ هـ هي الحملة الثانية في ايام الملك الناصر .. فأين اذن هي الحملة الاولى؟ وهل هي سوى الحملة التي جرت معاركها عند مدينة جبيل سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) بين جيوش المماليك وبين مقدمي المواردة واتباعهم على ما رواه البطريرك الدويهي في الكلام السابق .

(٢) لاحظ ص ١٦ من مجلة المشرق البيروتية مجلد ٤٢ .

(٣) لاحظ ص ١٤ ج ٢ من خطط الشام وص ٤٩ من تاريخ بيروت لصالح بن يحي التنوخي.

بدا لنا من هذا كله ان الطوائف المقصودة بحملة المماليك على الكسروانيين والجبليين سنة ١٣٠٥ هم من غير الشيعة الجعفرية، ذلك بأن من المعلوم لدى جميع المؤرخين ان الذين كانوا يمدون الصليبيين ويساعدونهم على المسلمين في طرابلس [٢] . والذين كانوا يستقبلون الافرنج القادمين من جزيرة قبرص ويضيفونهم في بيوتهم ، والذين باعوا الاسرى من المسلمين للافرنج ، والذين يجري عليهم مفعول (الحرم) الذي أطلقه البطريرك « شمعون الثالث » سنة ١٣٠٢م هم بدون شك الموارنة الذين هرب جلهم الى جزيرة قبرص بعدنكبة كسروان ١٣٠٥ م لا الشيعة الجعفرية ، لأن الشيعة الجعفرية لا يجري عليهم مفعول (الحرم من البطريرك) ولا تسمح لهم تقاليدهم الدينية بأن يبيعوا الاسرى من المسلمين للافرنج ، ولا بأن يساعدوا الفرنج على المسلمين ، ولأن الشيعة لم يكن لهم صلة ما بأهل قبرص ، ولا خصومة مع الامراء التنوخيين، يوم ذلك، ولا تمرد أو عصيان على حكم المماليك، وإلا لكان لشيعة جبل عامل، وشيعة بعلبك النصيب الأوفر من حملة المماليك سنة ١٣٠٥ م على بلادهم لأنها أقرب منالاً اليهم من جبال كسروان وجبة بشري ، ولأن شيعة جبل عامل كانوا مركز الثقل بالنسبة للشيعة الجعفرية في (لبنان الكبير) أو كانوا يمثلون الاكثرية الساحقة منهم ؟

ومع هذا كله لم نر أحداً من جيوش المماليك وحكامهم في دمشق ، وصفد قد تعرض لهم أو لشيعة بعلبك بسوء ، يوم هاجموا الجرديين والجبليين والكسروانيين سنة ١٣٠٥ م مع ان جبل عامل وقراها هي في طريق نائب صفد وجيوشه الى كسروان ؟ وان بعلبك وقراها هي في طريق نائب دمشق وجيوشه الى جبة بشري وجبال كسروان ؟ كما يبدو من صور الخرائط الجغرافية لمناطق لبنان الكبير [٣].

---

(٢) لاحظ ص ٢١ من تاريخ لبنان الحديث للصليبي ، او ص ٣٤٧ و ٢٥٢ و ٣٩٢ من لبنان في التاريخ لحتي .

(٣) لاحظ ص ٢٦٩ من تاريخ لبنان الحديث .

على أن الباحث الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف يذهب (ص ١٥٨ من كتاب الدواني) الى ان النصيرية هم الذين كانوا هدف حملة المماليك سنة ١٣٠٥ مسيحية ، كما يتضح من قوله :

« كان لبنان الشمالي ولا سيما المنيطرة والعاقورة ونواحي البترون يسكنه النصيريون وامتدوا الى كسروان بعد ان كانوا في جبل عكار والضنية فقط ، وسنة ١٣٠٥ ميلادية واقعهم نواب دمشق وطرابلس وصفد ، وطهروا تلك الجبال منهم وأمنت الطريق بعد ذلك لأنهم كانوا يشوشون الراحة » .

بيد ان هذا القول من الاستاذ المعلوف مرجوح بما مر من قول البطريرك اسطفان الدويهي وقول الخوري منصور الحتوني ، وبما ينص عليه الخوري بولس قرالي في جملة من كتبه ككتاب (رجوع النصارى الى كسروان) .

في أي عهد تخلى الشيعة عن المدن الساحلية ؟

لست ادري ما الذي يقصد الدكتور كمال الصليبي من قوله « ان شيعة كسروان أبدوا مقاومة عنيفة استمرت ثلاثة عشرة سنة الى ان انهزموا في النهاية وتشتتوا في سنة ١٣٠٥ م ومع مرور السنين أخذ الموارنة النازحين من الشمال يستوطنون هذه المناطق وبدأ الشيعة تحت الضغط والاضطهاد يختفون تدريجياً من أكثر مدن الساحل حتى لم يبق لهم أغلبية إلا في مدينة صور »[١] .

فهل يقصد من هذا القول أن يشعرنا بأن الشيعة في المدن الساحلية لم ينالهم شيء من الأذى والجور والتشريد إلا بعد حملة المماليك على كسروان سنة ١٣٠٥ م ؟

ام يقصد بذلك أن يتجاهل ما حاق بشيعة المدن الساحلية من قتل ونهب وتشريد يوم تغلب عليها الصليبيون وحولوها الى حصون منيعة تحميهم من غارة الاعداء ، والى مواطن خاصة ينطلقون منها الى حرب المسلمين وتحدي سلطانهم ؟ [٢]

(١) و (٢) التالية - لاحظ ص ٢٨٢ و ٢٨٥ و ٢٩٢ من خطط الشام ج ١ ، ما =

ام يقصد من ذلك ان يشككنا بأن هدم المماليك للمدن الساحلية ما كان الا حذراً وخوفاً من ان يرجع الصليبيون الى قلاعها وحصونها ويعيدوا سيرتهم الاولى من الحرب والتحدي للعرب والمسلمين .. لنقتنع بأن هدمهم لهذه المدن لم يكن له من غاية سوى طرد الشيعة منها ؟ كأن الشيعة هم الذين ساعدوا الصليبيين على احتلال صور ، وصيدا ، وطرابلس ؟ وهم الذين حموهم فيها ؟ وهم الذين كانوا وراء أسوارها يوم تغلب عليها المماليك ودمروها ؟

وبعد فليت الدكتور الصليبي قبل أن يقول (حتى لم يبق لهم (للشيعة) أغلبية إلا في مدينة صور) راجع بعض التواريخ العاملية[1] ليعلم ان مدينة صور – بعد ان استولى عليها الصليبيون – لم يعد اليها الشيعة ويستقروا بها إلا في حدود سنة ١٧٥١ ميلادية حين سكنها الشيخ عباس المحمد حاكم المقاطعة ، ثم ظلت بعد ذلك قرية صغيرة مدة من الزمن كما يتضح من رواية (فولني) في رحلته ورواية غيره من الرحالة الذين جاءوا بعده .[2]

=حاق بشيعة طرابلس من قتل ونهب وسبي وتشريد سنة ٥٠٣ هـ

او لاحظ صفحة ٢٩٤ – ٢٩٥ ج ١ منه ثم صفحة ٥٨ – ٥٩ من تاريخ صيدا لاحمد عارف الزين ما اصاب أهل بيروت وصيدا سنة ٥٠٢ هـ من القتل والحرق والنهب والتشريد .

او لاحظ صفحة ٢٧٩ – ٢٨٠ من رحلة ابن جبير طبعة (١٩٦٤) ما حاق بشيعة صور وحملهم على الرحيل منها بعد استيلاء الصليبيين عليها .

او لاحظ صفحة ٢٥٦ – ٣٥٨ من لبنان في التاريخ لفيليب حتي .

(١) لاحظ صفحة ٢١–٢٢ من العرفان م ٥ ، ثم صفحة ٢٢٥ من العرفان م ٢٧ ج ٦ .

(٢) لاحظ صفحة ٣٥-٣٦ ج٢ من كتاب (سوريا ولبنان وفلسطين) كما صورها « الرحالة فولني » في اواخر القرن الثامن عشر ، تعريب حبيب السيوفي .

عناصر المتاولة كما يراها الاب لامنس

ننقل هذا الفصل بلفظه من مقال للاب لامنس اليسوعي نشرته مجلة المشرق البيروتية (ص ٦٣٣ - ٧٢٢ م ٣٠ السنة ١٩٣٠) بعنوان العناصر الفارسية في لبنان: ثم نشرته هنا بهذا العنوان (عناصر المتاولة في جبل عامل) وأضفت اليه ما ستقرأه من الملاحظات في آخر المقال (١).

هناك مشكل يعترض الباحث في الشعوب اللبنانية ، وهو أصل المتاولة المستوطنين في هذه البلاد ، فإن المستشرقين لا يزالون يتجادلون في اصلهم ومصدرهم تجادلهم في شرح اسمهم واشتقاقه . فيزعم فون اوبنهيم Von Oppenheim انهم من بقايا جماعات القرامطة الأقدمين الذين نزلوا سورية فتركوا احفادهم فيها[١]. اما كازانوفا Pol Casanova فينسبهم الى الاسماعيليين[٢]. وهما رأيان مرجوحان نتأكد ضعفهما اذا ما انتبهنا لما اختص به القرامطة والاسماعيليون من أنهم ينتسبون الى بدع تكتنف معتقداتها الاسرار والغوامض فلا يمكن الوصول اليها إلا بالترقي في درجات متتابعة ، وانهم يقفون في سلسلة أئمتهم عند الامام السابع ، بينا نرى الشيعيين الاماميين ، أو المتاولة ،

---

(١) Von Oppenheim Von Mittelmeer ZumPersiscbeu Golf,I,132,note2.

(٢) Revue d' Egypte, I, 443

يصلون الى الإمام الثاني عشر . ولهذا يدعوهم الناس أيضاً « بالإثني عشرية ».

وقد لاحظ البعض ما يوجد بين معتقدات المتاولة ، ومعتقدات الشيعيين الفرس من الاتفاق التام ، فظنوا ان اصل الشيعيين واحد جارين على اثر الرحالة سيتزن Seetzen الذي جعل المتاولة يأتون من بلاد فارس [1] .

واننا نرى شيئاً من ذلك في كتاب تاريخ الأعيان لطنوس الشدياق فإنه في ترجمته لمشايخ الحمادية يزعم انهم جاؤوا البلاد مع قومهم من ناحية بخارى[2] وكذلك زعم الدكتور لورته Dr. Lortet ، فإنه اكتشف مشابهات مهمة بين المتاولة والأكراد الساكنين مناطق العراق العليا ، فرأى أنه « يمكن التأكيد بجرأة ان المتاولة أكراد أتوا من نواحي الحدود الفارسية في هجرة مهمة قد تكون حدثت في القرن الثالث عشر » [3] .

على اني أخال لورته مستقياً رأيه في هذا الأمر من ارنست رينان ، متوسعاً أكثر من الممكن في فكرة سنحت لمؤلف « البعثة الفينيقية » فذكرها عرضاً . وذلك ان رينان ، في ذكرياته عن بلاد بشارة او الجليل الاعلى ، يؤكد انه صادف «عائلة او عائلتين عرف فيها ذاك العنصر الإيراني (الكردي) المجيد الذي نقله صلاح الدين » [4] . وقد تحققت أنا ايضاً وجود تقليد مشابه لهذا تتداوله بعض الأسر المتوالية الكبيرة في بلاد الجليل . فيكون رينان قد تناوله من هذا المحيط على الغالب . ومما يشير الى هذا الزعم أيضاً نص نشره كريستي [5] Christie وهو باللغة العربية العامية الجارية في بلاد

---

(١) المجلد الاول من رحلته ، صفحة ٢٤٣ .

(٢) طنوس الشدياق : أخبار الأعيان ، بيروت ١٨٥٩ صفحة ١٦٦ .

(٣) Dr. Loriet La Syrie d'aiJourd'hni, p. 116

(٤) Renan, Mission de Phénicie, 633, n. 1

(٥) Cf. ZDPV, XXIV, 69, 109

– وينتج من بعض المعلومات المأخوذة عن مشايخ المتاولة في اللبوة ، ناحية بعلبك ان المتاولة عربيو الأصل ، ما عدا متاولة بلاد بشارة فانهم من أصل كردي .

الجليل العليا . ومقالة نشرها « البشير » بتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩٠٤ ، في وصف مأتم أحد بكوات النبطية ، يقول فيها الكاتب ان البك المذكور من سلالة صلاح الدين (٢) .

وكنت أنا ذاتي قد رأيت هذا الرأي فيما مضى [١] . على انني أقر اليوم انه يظهر مرجوحاً لكونه لا يعتبر الوثائق السابقة عصر الصليبيين ، كنصوص ناصري خسرو [٢] والمقدسي [٣] ، الناتج عنها انه كان من الشيعيين مَن يسكنون إذ ذاك منطقة طرابلس ، وناحية الجليل الشمالية . فضلاً عن أن من ينسبون الى صلاح الدين إسكان المتاولة في سورية ينسون ان القائد الكردي المذكور ، الذي لاشى الخلافة الفاطمية ، ظهر في حياته وأعماله كلها عدو الشيعيين اللدود ومجدد مجد السنة . بيد ان كريستي من غير ان ينسب ادخالهم سورية الى صلاح الدين ، يميل الى الاعتقاد بأن « أصلهم من الشرق » [٤] ، مستنداً الى ما يبدو في كلام متاولة الجليل من آثار اللفظ الفارسي . ولكن هذه الخصائص اللفظية يمكن شرحها على طريق أبسط . وذلك انه لا يخفى أن علماء المتاولة أو مجتهديهم عملوا كثيراً في عهد الدولة الصفوية ، على استدراج الفرس الى المعتقدات الشيعية [٥] . فكان لهم مع تلك البلاد المداخلات الكثيرة .

---

١) راجع Lammens, Sur la frontière nord de la Terre Promise, PP.6 et 40 [extrait de la revue Les Etudes, 20 fevr. et 5 Mars 1899]

٢) اطلب Rolation du Uoyage de Nassiri Khosrau, trade. Scheer Paris 1881 P. 42,47

٣) اطلب جغرافية المقدسي طبعة de GoeJe ١٧٩

٤) راجع ZDPV, XXIV, 109

٥) راجع Strothmoun, St'a [Encyclop. de l'Islam,P. 369] . – وقد ذكر فيها محمداً العاملي الجزيني . نسبة الى جزين وهي القرية المعروفة في لبنان الجنوبي شرقي صيدا ، التي كانت في القرن الثامن للهجرة مركزاً متوالياً مهماً فكان فيها مدرسة أخرجت عدداً من العلماء (راجع في ذلك مجلة المجمع العلمي العربي . سنة ١٩٢٩ ، ص ٢٨٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٥٤) أما اليوم فان سكانها جميعهم من المسيحيين .

ولا يزال علماؤهم حتى اليوم يذهبون من سورية الى العراق وبلاد العجم حيث يكملون علومهم العالية وينالون شهاداتهم من المدارس الشيعية العليـا في تلك البلاد وكذلك لا يندر أن يجري عقود زواجية بين الاسر المتوالية الكبيرة والاسر الفارسية والعراقية وعليـه يكون من السهل أن نشرح آثار اللفظ الفارسي في كلام المتاولة بهذه المواصلات الدائمة (٣) . ولكن ألا يمكن الأخذ بنظرية الاصل الفارسي أو العراقي بأن ننسب المتاولة الى الجماعـات الفارسية التي جلاها معاوية الى لبنان ، كما قدمنا في القسم الاول [١] ؟

لقد خلنا هذا الأمر فيما مضى [٢] إذ تحققنا من وجود الشيعيين في المناطق التي ذكر المقدسي إقامة « الفرس » فيها . ثم ان ناصري خسرو يؤكد أن سكان طرابلس ، كانوا في زمانه ، من الشيعيين [٣] وكذلك يدلنـا التاريخ على انه قبيل ، الحملات الصليبية ، كان أمراء طرابلس من بني عمار يؤمنون بعقائد الإمامية . وحتى القرن الثالث عشر كان المشايخ الحماديـة المتاولة يبسطون حكمهم على منطقة جبيل ، حيث لا يزال أهل شيعتهم يسكنون الى اليوم بعض المناطق الجبلية من ناحية الهرمل. وهناك مدينة بعلبك وضواحيها ولا يزال للمتاولة فيهـا مراكز مهمة . وكذلك نرى جماعات من المتاولة في ضواحي بيروت، حيث كان عددهم كبيراً فيما مضى كما يذكر صالح بن يحيى [٤]، وكما يستند من أنهم على عهد المماليك نالوا اعترافاً رسمياً بإقامتهم في بيروت . أما ما خص منطقة صيدا المعروفة اليوم بجبل عامل(وفي الماضي بجبل عاملة)

---

(١) مجلة المشرق البيروتية السنة الثلاثون ، ص ٦٣٣ .

(٢) راجع تسريح الابصار في مـا يحتوي لبنان من الآثار . الطبعة الاولى ، ٢ : ٤٥ و ٤٦ – وطلب أيضـا : Les Nosairis dans le Liban (extrait de la revue : l'Orient chrétien, VII, 1902), P. 26

(٣) Relation du voyage de Nassiri Khosrau, P. 42.

(٤) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت (طبعة الأب شيخو) الطبعة الاولى ص ٢٣١ .

مع ما يتصل بها ضمن الحدود الفلسطينية ، فإنها كانت منذ عهد المقدسي[1] ولا تزال في عصرنا ، أهم مركز للمتاولة في البلاد السورية .

على أن هناك أسباباً وجيهة تدفعنا اليوم الى التردد في اقرار الرأي الأول، فتمنعنا عن نسبة الشيعيين المنتشرين في سوريا الى الطوارىء الفارسية القديمة التي أقامها معاوية في هذه البلاد . من ذلك انه في زمن معاوية لم تكن الشيعة قد كونت بدعة دينية مستقلة كما نراهـا بعد ذلك . بل كانت حزباً سياسياً يجمع رجال علي وآله من المطالبين بحق الخلافة ضد الأمويين (٤) . ثم ان إنشاء هذا الحزب العلوي وقيادته يعود الى العرب لا الى الفرس كما يزعم بعض المستشرقين . فإن العرب إذ ذاك ، لم يكونوا يعتبرون الفرس حتى المسلمين منهم ، إلا موالي ليس غير ، عليهم أن يسمعوا للعرب فيعملوا بقرراتهم دون أن يتدخلوا بشؤونهم السياسية . يؤيد ذلك اننا إذا ما عرضنا جميع الزعماء والقواد من المدافعين عن « آل البيت » والمتفانين في خدمتهم ، في تلك الحقبة لا نرى إلا العرب الخلص كالمقداد ، والاشتر ، وأبي ذر ، وعمار ، ومن على شاكلتهم ممن يكثر ورود أسمائهم في الأساطير العلوية. أما إذا شئنا أن نضيف اليهم زميلاً فارسياً، مهما كلف الأمر، فإننا لا نرى إلا المدعو سلمان الفارسي[2] وهو عبد معتق لا نعرف عنه شيئاً يستحق الذكر، هذا إن لم يكن قد اخترعه رجال الشيعة من العراقيين . واني لأوافق ؛ في هذا الأمر ، الاستاذ يوسف هوروفيتز Horovitz على حكمه البصير إذ قال: « هل وجد عبد يسمى سلمان دان بالاسلام في المدينة ؟ اننا لا نستطيع أن نبرهن عن ذلك ولكننا لا نرى شيئاً يعاكس هذا الزعم[3] » . ثم لا يخفى ان شعراء الحزب العلوي ، في المئة والخمسين سنة الاولى للاسلام، أمثال كثيّر، والكميت ، والسيد الحميري،

---

١) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ١٧٩ .

٢) راجع Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, P. 293 – 294

٣) Der Islam, XII, 182

كانوا جميعهم من العرب الأقحاح المتعصبين لأصلهم العربي السامي المعاكسين للشعوبية وخاصة للفرس منهم .

ومن المعلوم ان « الحمراء » الذين جلاهم معاوية الى سورية ، كانوا قد اشترطوا قبل اسلامهم [1] ألا يدخلوا في الحروب والمنازعات السياسية بين الأعراب . فكانوا لا يهتمون بهذه الانقسامات الأهلية ، حتى انهم ، قبل تركهم العراق ، لم يميلوا لا الى علي ولا الى اعدائه . وإلا أفنرى معاوية وهو من عرفناه بالدهاء السياسي ، ينقل الالوف من رجال علي ، وكلهم متمرنون على الحروب إذ كانوا سابقاً من العساكر المأجورة ، فيفتح لهم ابواب سورية التي عمل فيها بكل ما أوتيه من مقدرة ادارية ودهاء سياسي حتى وحد النزعات حول الخلافة الاموية وأوجد الاخلاص الفعلي للأسرة المالكة ؟

ولنذكر الآن حادثاً ، يدل إذا ثبت ، عن أنه كان في سورية رجال من « الحمراء » أو الفرس قبل أن جلاهم معاوية اليها . وتفصيل الحادث أنه في السنة ٣٦ للهجرة أثناء الحروب بين معاوية وعلي ، كان في أحد سجون معاوية في سورية عربي متهم بالاشتراك في مقتل الخليفة عثمان ، فكان إذاً من الميل العلوي . فاتفق أن هرب هذا الأسير ، فلحقه أحد حراسه وهو « رجل من الفرس » على قول الكندي [2] . ولما كان على مقربة منه أخذ الاسير يستعطفه مردداً أنه حالف النبي تحت شجرة الحديبية . فما كان من الفارسي إلا أن أجابه بأن الأشجار كثيرة في البرية ، ثم هجم عليه فقتله . فينتج أن هذا الفارسي لم يكن يمت بشيء الى الشيعة ، بل هناك مجال للشك بانتمائه الى الاسلام ، وهو لا يتردد في قتل رجل من أصحاب النبي .

---

(١) البلاذري : الكاتب المذكور ، ١٦٢ و ٢٨٠ و ٣٧٦ .

(٢) الكندي : ولاة مصر (طبعة Guest) ص ١٩ ، السطر الاخير . اما ابن الاثير : أسد الغابة ٣ : ٣١ ، السطر ٣ فذكر : « فارس منهم » .

وفضلاً عن كل ما تقـدم فإن سورية ظلت حتى أواخر القرن الثالث للهجرة تميل الى الأمويين وتبغض الشيعيين كل البغض حتى أن من كان يأتيها من المحدثين كانوا يؤوبون بالخسارة والفشل وبالإهانة أحياناً ، إذا أخـذوا في سرد الاحاديث الشيعية . من ذلك مـا جرى سنة ٩١٥ للنسائي المشهور ، مؤلف السنن، في جامع دمشق، إذ هجم عليه أهل المدينة، وكادوا يقتلونه . وما كان له من ذنب إلا أنه ألف كتاباً في « فضائل علي » ورفض الإشادة بفضائل معاوية [١] في عاصمته القديمة . (٥) وكثيراً ما كانت تبلغ الحماسة من أهل سورية فيتجيشون ويحملون أسلحتهم مستعدين لا لإعادة الخلافـة الى العلويين ، بل لتمهيد السبيل « للسفياني » بطلهم الوطني ، المزمع أن يعيد العرش الاموي ويرجع ذاك العصر الذهبي [٢] .

أما منذ القرن الرابع ، بعد أن جاهرت الشيعة بانفصالها عن السنة ، فإننا نتحقق في سورية وجود عـدد كبير من البدع المنشقة عن الشيعة حتى أشدها تطرفاً كالنصيرية ، والاسماعيلية ، والدروز ، والأمامية ، ولا يمكننا هنا أن نبحث عن أسباب هذه الحركة الشيعية التي تظهر أشبه برد الفعـل . على أننا نرى أنه كان من اللازم أن تسبق هذا العصر فتوافق ، على الأقل ، سقوط الخلافة الاموية ، لو كان في سورية ما يعززهـا من الجماعات الفارسية الناقلين على عهد معاوية . ولما لم يكن شيء من هذا ، وجب ، في نظرنا ، الالتجاء الى غير هذه الاسباب في تعليل وجود الشيعيين في لبنان .

وبينا نحن ننتظر نتيجة أبحاث جديدة ، لا نرى بأساً في الموافقة على ما قاله ايبرس Ebers وكوطه Guthe في الموضوع وهو : « من الممكن أن يكون

---

١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٦٧ – ٢٦٩ .

٢) راجع Lammens, Le Sofiani, heros national des Arades Syriens (Bull Instit français d'orcheol. orientale X X I, 131 - 144)

المتاولة اعتزلوا عن سائر سكان لبنان وانتيلبنان بسبب معتقداتهم الخاصة (٦) وانهم لا يمثلون قطعاً بقايا أمة كبيرة »[١] أما رينان فيقول : « أن لبنان قبر عالم قديم قائم بذاته تلاشى برجاله وأملاكه ... وما المتاولة والعرب ... فيه إلا من عهد حديث (٧) . »[٢] ولا بأس أيضاً في قبول رأي رينان بشرط أن لا نميز بين المتاولة والعرب . فإن جبل عاملة[٣] ، المدعو اليوم جبل عامل ، والقائم بين صيدا وصور حيث مركز المتاولة المهم ، يأتي اسمه من بني عاملة[٤] ، وهم قبيلة من جذام . فيكون أن عقائد الشيعة الامامية أخذت ، بعد القرن الثالث الهجري ؛ تنتشر بين أفراد بني عاملة الذين كانوا يسكنون بلاد الجليل على قول اليعقوبي[٥] . وبكلمة أخرى يجب أن نعد بني عاملة من سلفاء متاولة لبنان .

---

١) Palaestina im Bild und Wort' 11,35.

٢) Renan, Mission de Phénicie 217

٣) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٤ .

٤) راجع Lammens,Califat de Yazid, 273

٥) اليعقوبي : الكتاب المذكور ، ٣٢٧ ، السطر ٢ .

ما يلاحظه الباحثون

قبل المضي في بسط هذه الملاحظات وشرحها أرجوا الانتباه الى أن ما تضمن بحث الأب لامنس من الأرقام الموضوعة ازاء قوسين هو علامة لهوامش الأب لامنس واشاراته . ثم الى أن ما وضع من الأرقام بحرف كبير .. هو علامة لهذه الملاحظات التالية:

القديم والحديث من الطوائف العاملية

(١)

.. إنني لم أنشر هذا الفصل لأميز طائفة عن طائفة في هذا الجبل ، وإنما نشرته لما يبدو للباحث من أن سكان هذه البقعة الواقعة (بين الشوف وفلسطين ووادي التيم) لم يكونوا – في عهد المعنيين ومن تقدمهم من الامراء – إلا من صفوة المتاولة كما يتضح من قول مؤرخي الدروز ص ١٥٠ من تاريخ الحركات في لبنان « لما استوطنت عشائر الدروز في بلاد الشوف واستولت على مقاطعاتها كانت عشائر المتاولة مستوطنة إقليم جزين ومستولية عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان وإقليم التفاح وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاولة » .

أو من قول البحاثة محمد جميل بيهم ص ٥٢ من كتاب الحلقة المفقودة : « وفي خلال النكبة التي أصابت علي باشا جنبلاط عند لقاء السلطان فرّ ولده – ربح جنبلاط – واحتمى بالأمير فخر الدين بن معن صديق أبيه ، فأنزله الأمير (في المختارة) بلبنان ، وهذه القرية وما يليها الى جبل عامل كانت كهذا الجبل آهلة بالطائفة الشيعية » .

وقول العلامة عيسى اسكندر المعلوف ص ١٩٠ من كتاب الدواني « ان الأمير فخر الدين المعني لما حدثت الفتنة (١٦٠٩ م و ١٠١٨ هـ) بين سكان قرية مجدل معوش ، الذين كانوا من طائفته الإسلاميه وأفضى ذلك الى بيعهم

قريتهم وتركها ، اشتراها منهم ولده الأمير علي باثنين وعشرين الف غرش وأسكن فيها النصارى فأقام فيها البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني الماروني وبنى فيها داراً وكنيسة السيدة ، وهذا أول عهد إقليم جزين بالنصارى لأن سكانه كانوا قبل ذلك من المتاولة وغيرهم » .

ولدى التفكير في قول المعلوف (وغيرهم) نرجح بأنه لم يقل هذا القول إلا على اعتبار مجدلمعوش وما حولها من القرى داخلة في إقليم جزين لا في إقليم الشوف كما هو الواقع الجغرافي وكما يتضح من قول البطريرك اسطفان الدويهي ص ٣٠٠ من تاريخ الأزمنة « ومن كثرة المظالم التي كانت صايرة من القشلق [1] ومن الشدياق خاطر ، اضطر – البطريرك مخلوف – أن يتوجه الى ناحية بلاد الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين وعندما حضر على الأمير فخر الدين قبله بكل احترام ، وصدف أن قبل ذلك الزمان وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل معوش ، وكثرت القتلى بين الجانبين حتى انهم اتفقوا على بيع القرية والخروج منها فاشتراها منهم الأمير علي بن الأمير فخر الدين باثني عشر ألف ، ودفعها للنصارى فنزل البطرك في مجدل معوش وعمر له فيها كنيسة ودار ، واستمر فيها حتى قصد زيارة القدس الشريف» .

وإذا ثبت ـ من ذلك ـ أن هذه المقاطعات الثلاث(جزين وجبل الريحان والتفاح) الملابسة لحدود الشوف، كانت برمتها مأهولة بالمتاولة وانه لم يسكنها النصارى حتى عهد الامير فخر الدين وربح جنبلاط . . فما أحرى بقية المقاطعات العاملية بأن تكون كذلك لأن التاريخ ـ على اختلاف ميوله ـ لا يشعرنا بوجود النصاري بين قرى العامليين حتى عهد الامير يوسف شهاب ،

---

(١) المراد هنا من القشلق الضريبة أو جباتها.

وأما بقية الطوائف اللبنانية فإنه حتى اليوم لا يوجد داخل المقاطعات العاملية قرية من الدروز أو من السنة أو اليهود ما عدا يارين وما جاورها من المزارع – الى الشمال الغربي من حدود فلسطين– فإن جلّ سكانها من أهل السنة ، وما خلا برغز في الحدود الشرقية من هذا الجبل فإن جلّ سكانها من الدروز على ما يقال، وما سوى المطلة والمنارة وقدس وما الى هذه من القرى التي انتقلت مؤخراً الى أيدي اليهود بالوسائل المعلومة لدى الجميع .

الجنسية المصطنعة

(٢)

لعل مبعث شك المستشرقين والسواح في عناصر متاولة جبل عامل هو ما يضطرب من أقوال الناس حول نسب العائلتين النابهتين في الأوساط العاملية واللبنانية ، عائلة عسيران ، وعائلة الصعبية .

أما الاولى منهما فمن المعلوم لدى المطلعين على أخبارها منذ مئة وعشرين سنة تقريباً ؛ أنها لم تتجنس بالجنسية الايرانية لشك بأصلها العاملي ، وإنما أقدمت على ذلك طمعاً بما كان ينعم به الأجانب – في المملكة العثمانية – من امتيازات خيرة توفر لهم سبل الراحة والأمن واحترام الحقوق والمصالح والمعتقدات .

---

(١) الركيني ص ٧٣٦ من العرفان م ٢٧ ودواني القطوف .
(٢) ثم أخبار الاعيان طبعة ثانية ص ٢٣٣ .

* * *

وأما العائلة الصعبية فلا أدري من قصة انتمائها الى الاكراد شيئاً سوى ما يروى عن بعض أبنائها وهو أشبه بالأساطير ، وقد يكون انتماء آل صعب الى الأكراد كانتماء آل عسيران الى الفرس إنما كان بدافع المصالح الوقتية لا بدافع الحقيقة والواقع ، وإن من يلاحظ انتقال قادة آل صعب الى صيدا سنة ١٩٢٠ على أثر حوادث الثورة العربية في جبل عامل ضد الافرنسيين، ثم يلاحظ انكار انتسابهم يومئذ الى الشيعة وتصريحهم أمام رجال السلطة الافرنسية وأمام غيرهم من أهل الحل والعقد بما خلاصته « انهم من السنة لا من الشيعة وأنهم من الاكراد لا من العرب » .

ان من يلاحظ فحوى ذلك يشك كثيراً بصحة انتمائهم الى الاكراد ويعتبره مظهراً من مظاهر الخوف والملق لأنهم إذا كانوا في عصر النهضة والحرية قد ساغ لهم أن ينكروا طائفتهم وقومهم تهرباً من أن ينالهم شيء من الضريبة الباهظة التي فرضها الافرنسيون على متاولة جبل عامل (١) فكيف كان حالهم في عهد الطغيان التركي يوم كانت تتوالى الضرائب والنكبات الجسام على (المتاولة) وكان التحامل على العرب عامة وعلى الشيعة منهم خاصة من أظهر مميزات العثمانيين في العسف والجور والتنكيل ؟

وان من يراجع تاريخ الحوادث العاملية لسنة ١١٤٤ ه يرى — من تحالف الشيخ سليمان الصعبي حاكم الشقيف مع الأمير ملحم شهاب والي صيدا

---

(١) والى هذا يرمز شاعر النبطية الاستاذ ابراهيم فران بقوله :

في الغنم هم أصحابه ورعاته ولدى الشدائد هم من الأغيار

وتضامنه معها ضد أبناء طائفته من العامليين ما يقرب ذلك الاحتمال الى عالم الحقيقة والواقع [1] .

ومما يقوي الشك بنسبة الصعبية الى الاكراد : انهم لا ينتمون الى الاكراد العاديين وإنما ينتمون الى صلاح الدين الأيوبي الذي عرف بمقاومته للشيعة :

وعندما نتصور أن بعض أحفاد صلاح الدين ترك دمشق مقر أسرته وطائفته ومقر الجاه والرفاهية والأمل الحلو ، وانتقل الى إحدى المزارع العاملية النائية (كدير عجلون) ليغير لقبه ومذهبه ويعيش عيشة الشظف والقلق والاستسلام للمقادير التي هيأت لبعض أحفادة في نهاية القرن الحادي عشر للهجرة أن يلتزم مقاطعة الشقيف ويشرف على مقدراتها.. عندما نتصور هذا كله .. نرى في هذه الاخبار والتطورات والصدف من الغرابة ما يدعو الى الريب والشك في انسجامها مع الواقع : على ان هذه التطورات والصدف ليست من الحوادث العادية التي يسوغ للمؤرخين أن يستخفوا بها ويهملوا الإشارة الى بعض مظاهرها : فكيف أهملت ولم يتعرض لها أحد منهم لا في دمشق ولا في جبل عامل وغيرها من البلدان السورية ؟ أو ما هو الموجب والحادث الخطير الذي قضى بتبديل لقب العائلة ونسبتها الى الايوبيين ؟ مع أن نسبتها للأيوبيين مبعثاً للفخر وسبباً للاحترام بين النـاس ووسيلة للتعاطف والتواصل والتناصر بين أبناء الأسرة الكبيرة ؟؟ في حين أن النسبة الى صعب لا توجب شيئاً من هذا وقد تدعو الى انكار الصلة وتجاهل الروابط الرحمية، وخاصة ممن يطمئنون الى جاههم وغناهم وصراحة نسبهم وصدقه كآل الأيوبي في دمشق بالنسبة لغيرهم من الاكراد الذين يدعون مثل هـذه النسبة الى صلاح الدين بدون مبرر وبدون موجب سوى استغلالها في بعض المناسبات والمآزق كما استغلها قادة الصعبية في حوادث سنة ١٩٢٠ ، ولعل العائلة الوحيدة بصحة نسبتها الى الفرس هي عائلة بيت العجمي في قريةارنون .

(١) تاريخ الأمير حيدر شهاب ص ٢٩ طبع بيروت وص ٧٦٨ طبع مصر .

(٣)

من الغريب أن يزعم (كريستي) أن في كلام متاولة جبل عامل أثراً من اللفظ الفارسي مع أن لهجات العامليين توشك أن تكون أقرب اللهجات السورية الى الفصحى كما يتضح لكل من يخالطهم من ادباء الفصحى ولكل من يطالع كتاب (رد العامي الى الفصيح) للعلامة رضا ، وتكاد لغة التخاطب عند علمائهم وأدبائهم أن لا تختلف عن الفصحى بشيء اللهم إلا لغة من رحل منهم صغير السن الى النجف وكربلا ثم رجع بعد أن اكتهل الى جبل عامل متأثراً باللهجة العراقية التي تحمل في طياتها جملة من الألفاظ المحرفة عن الفارسية (١) .

متى تشيّع المتاولة ؟

(٤)

إن الميل الى العلويين والتشيع لهم – في جبل عامل – قديم يمت الى عهد معاوية بن أبي سفيان بأقرب الأسباب كما يتضح من قول العالم البحاثة الشيخ أحمد رضا (أن أبا ذر الغفاري وهو المعروف بميله الشديد الى الهاشميين عامة والى علي خاصة وقد كان ممن تخلف مع علي عن البيعة يوم السقيفة على ما رواه أبو الفداء وغيره أنه – لما سيّر منفياً الى الشام بأمر الخليفة عثمان بن عفان لمقالة بلغته عنه – أقام في دمشق مدة يبث دعوته لا يرهب في أمره صولة ولا يخشى قوة ولم يكن نفيه هذا ليلين من شكيمته شيئاً فكان ينشر مذهبه في العلوية وآراءه الاشتراكية من حيث الحظ على عدم استئثار الاغنياء بأموالهم دون الفقراء حتى استجاب له قوم في نفس الشام لا يزالون ثابتي المعتقد في

(١) راجع مقال (اللغة العربية في العراق) للاستاذ صالح الجعفري ص ٥١ من العرفان م١٩ .

التشيع الى اليوم ثم كان يخرج الى الساحل فكان له مقام في قرية الصرفند القريبة من صيدا ومقام آخر في قرية ميس المشرفة على غور الاردن وكلاهما من قرى جبل عامل والمقامان الى الآن معروفان وقد اتخذا مسجدين فكان له حينئذ في هذه الديار من استجاب دعوته وهم كثيرون ، وعرفت العلوية في جبل عامل منذ ذلك الحين ، أما معاوية فقد استغاث بعثمان رضي‌الله عنه من أبي ذر وكتب اليه : ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره برده الى المدينة فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا وطاء ولا غطاء بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، على ما ذكره ابن الأثير في كامله والطبري في تاريخه ، وان كرها ان يذكرا أسباب نفيه ، وما نسباه الى المتذرين من رأي أبي ذر الاشتراكي .. لا يمكن التسليم به ولا بان الأمر الذي احرج معاوية فأخرجه عن حلمه حتى فعل بأبي ذر ما فعل هو رأيه هذا وحده بل هو أمر أهم من هذا وأعظم ، ألا وهو الدعوة الى العلوية التي كانت تقضي على آمال معاوية كلها ويكاد يغص لذكرها بالماء الفرات [1] .

قصة قيس بن مصهر وعمر بن خالد الصيداويين

ثم اذا لاحظنا أن مدينة صيدا واقعة ضمن حدود جبل عامل جغرافياً ، وان جبال عاملة قديماً كانت تنسب الى صيدا كما يتضح من قول اليعقوبي « كبني عاملة في جبال صيدا [2] » .

ثم لاحظنا ان العامليين كانوا في المعسكرات الاسلامية المختلطة ينسبون الى صيدا على ما نعرفه جميعاً في عهد الدولة العثمانية ، فكان يقال للواحد منهم حين ينادى باسمه « فلان بن فلان الصيداوي » .

اذا لاحظنا هذا كله بدى لنا من خلاله ان لقصة أبي ذر الغفاري في

---

(١) العرفان م٢ : ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) لاحظ ص ٣٢٧ سطر ٢ من كتاب البلدان لليعقوبي طبعة دي غويه . ثم ص ٦٣٤ من مجلة المشرق البيروتية مجلد ٣٠ .

تشيّع أهل جبل عامل قصص أخرى تؤكدها وتبررها ، وهي قصة عمْرْ بن خالد الصيداوي من أنصار الحسين الذين استشهدوا في كربلاء [1] .

ثم قصة قيس بن مصهر الصيداوي رسول الحسين الى جماعة من أعيان الكوفة وصاحب الموقف الجريء الحازم في وجه والي الكوفة عبيد الله بن زياد ذلك الموقف الذي أدى به الى القتـــل رمياً من أعلى قصر الامارة في الكوفة [2] .

فإن تشيّع عمر بن خـــالد وقيس بن مصهر الصيداويين واستشهادهما في مقاومة الطغيان الأموي.. يدل دلالة واضحة على قدم التشيّع في منطقةصيدا العاملية ، ثم يقرّب للأذهان ما يقال عن أثر أبي ذر الغفاري في تشيّع أبناء جبل عامل ، إذ لم يكن بين نفي أبي ذر للشام ومقتل الحسين وخالد وقيس في كربلاء سوى أمد قصير .

الاستدلال المغلوط

- ٥ -

هل يصح لعالم الحصيف كلامنس الاستدلال بمثل هذه الملاحظات والحوادث الطائشة مع أن جل المظاهر العامة في دمشق لا يمكن أن تمثل – في كل وقت – جميع النزعات المذهبية – وخاصة نزعات من كانوا يضطرون للتكتم في مذهبهم – وإلا فما زال جمهور العامة في دمشق حتى اليوم يتأثرون بما كان يتأثر به جمهور الدمشقيين في العهد الاموي مع تظاهر خمسة آلاف شيعي بين طبقاتهم المختلفة لهم مميزاتهم ومدارسهم وكتبهم وشعائرهم الخاصة ؟؟ فهل يسوغ لنا أن نجعل من اغراق الدمشقيين اليوم في التحمس القومي للأمويين .. دليـــلا على عدم

(١) لاحظ ص ٤٤٦ ج ٥ من الطبري طبع دار المعارف سنة ١٩٦٣ .

(٢) لاحظ ص ٣٩٤ – ٣٩٥ ثم ص ص ٤٠٥ من الطبري ج ٥ . ثم ص ٥١ – ٥٢ من قصة الطف طبع صيدا .

(٦)

وقريب من هذا الذي أشار اليه أيبرس ، وقوطه ، قول الامير شكيب أرسلان ص ٤٤٩ من العرفان م/٢ « لا جدال في كون الشيعة موجودين في الشام منذ أوائل الفتح الاسلامي ، ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الامر إلا عرضاً وربما لا يذكرونه أصلاً ، ومما يدل على قدمهم وتكتمهم (واعتصامهم بالتقية) كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة ، ويقال إنهم (أي الدروز) قد خرجوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة ، وقع ذلك في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه الطوائف التي خرجت منهم ومنازل الفريقين لم تزل متناوحة مما يستدل به على وحدة الجرثومة فضلاً عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحدة في الاصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف مما يؤكد كون هذه الطوائف كلها راجعة في أصلها الى العرب »[1]

ثم يدحض قول من قال « ان الشيعة بجميع فرقها من الطوائف الدخيلة على لبنان او اللاجئة الى ذراه خوفاً على حريتها وصوناً لعقيدتها » .

فان مثل هذا القول اذا صح فانما يصح على قلة منهم غب الحملات الصليبية وبعد أن دمرت مدنهم الساحلية كطرابلس ، وصيدا ، وصور ، وقضى البرابرة الغزاة على مدارسهم ومعاهدهم ومكاتبهم وآثارهم العلمية والادبية حتى

---

(١) العرفان م ٢ : ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

تجاهلهم المؤرخون لتلك الحقب ، وتجاهلوا قادتهم وعلماءهم وأدباءهم كابن عمار ممدوح المتنبي ، وابن منير الطرابلسي ، وعبد المحسن الصوري، وغضّوا النظر عما قاله الرحالة ناصر خسرو عن حضارة الشيعة في صور وصيدا وطرابلس قبل أن يجتاحها الصليبيون ويدمروها وينهبوا ما لا يحصى ولا يثمّن من كتبها وتحفها وآثارها النفيسة [١] .

اللبنانيون لا يمثلون أمة كاملة

أما قول (قوطه) « أن المتاولة لا يمثلون بقايا أمــة كبيرة » فلا أدري ماذا يقصد به أو بالامة الكبيرة ؟ إذ لا ندري أن اللبنانيين كانوا في وقت من الاوقات يمثلون أمة كاملة فضلاً عن أن يكونوا أمة كبيرة ؟ وتاريخ لبنان القديم والحديث لا يدلنا على شيء سوى أن اللبنانيين كانوا ومــا زالوا جزءاً من الأمم أو الأمة التي عبرته وأقامت فيه : وحسب المتاولة في جبل عامل – فخراً أن يكونوا – بشهادة التاريخ ، جزءاً من الأمة العربية الخالدة

قدم العروبة في لبنان

(٧)

لا أدري كيف غاب عن فكر « رينان » أن العروبة في لبنان الكبير بعيدة في القدم وأنها ما زالت بخصائصها الروحية ترف على ذراه وشواطئه منذ أن استوطنه عرب الفينيقيين الذين عرف العالم حضارتهم وآثارهم فيه : على ما أثبته المؤرخون والأثريون من يونان، وانكليز ، وعرب ، وبرهن عليه الرحالة الفيلسوف أمين الريحاني ص ١٨٩ – ١٩٣ من كتاب ملوك العرب م ٢ الطبعة الثانية ، ثم ص ٤٦٤ من كتاب قلب لبنان :

وكذلك لا أرى كيف ساغ لفيلسوف فرنسا الكبير أن يشك بأن العرب

---

(١) لاحظ ص ٢٨٣ من خطط الشام ج ١ ثم ص ٢٩٢ منه

تغلغلوا في ربوع لبنان منذ القرن الرابع والثـاني قبل الميلاد يوم فاجأهم الاسكندر الكبير في شرقي صور (أو عند قرى جويّا وقانا ، وتبنين [١] ويوم اصطدم بهم في شرقي لبنان [٢] ويوم استطال العرب الايطوريون في شرقه وشماله وأسسوا لهم دولة في عـين عنجر ، وأخرى في طرابلس الشام ، ثم وقفوا لدى الغزو الروماني يدافعون عن كرامة وطنهم العربي بثمانية آلاف من صناديد فرسانهم [٣] .

ثم لا أدري كيف تجاهل حضرته تدفق العرب بعـد الفتح الاسلامي وانسياح القبائل من عدنانية وقحطانية الى سفوح لبنان ومروجه حتى قيل للبقاع .. بقاع كلب نسبة للقبيلة المعروفة بتنصرها واتجاهاتها السياسية في عهد الامويين ، وحتى تسمت جل أراضيه وجباله ووهاده وعدد غير قليـل من قراه وينابيعه وأنهاره بأسماء عربية ناصعة العروبـة . كما انطبعت سياسته وتقاليده بطابع العصبية القيسية واليمنية وأصبح جل اماراته وحكوماته الاقطاعية وقفاً على الاسر العربية العريقـة في انتمائها الى قحطان وعدنـان كالتنوخيين والمعنيين والشهابيين والحرافشة والخازنيين واللمعيين وما الى هؤلاء من الأسر العربية حتى في عهد المماليك وبني عثمان وما الى هؤلاء من طغاة الأتراك الذين كان جل همهم خضد شوكة العرب والغض من قيمتهم في هذه البلاد [٤].

---

(١) لاحظ كلمة الدكتور اسد رستم ص ١٦ من العرفان م (٥٠)
(٢) لاحظ ص ١٩٨ من تاريخ لبنان لفيليب حتي .
(٣) أطلب خطط الشام ص ٩٠ - ٩١ م ١ : ولبنان ١٩٦ ودواني القطوف ص ٥٠ .
(٤) راجع من تاريخ الأمير حيدر طبع مصر حوادث سنة ١٠٧١ و ١٠٧٠ هـ .

يعتبر كل خلاف بين المسلمين من أهل السنة والشيعة خلافاً جانبياً مصدره الاجتهاد في الرأي ما عدا اختلافهم في أمر الخلافة وشروطها وقمة الخلاف في ذلك أن اخواننا من أهل السنة يعتبرون الخلافة مركزاً سياسياً مهمة الخليفة فيه (حراسة الدين وسياسة الدنيا) [١] وهم لذلك لا يشترطون في الخليفة أن يكون معصوماً ، او منصوصاً عليه من الله ورسوله ، ولهذا يسوغ عندهم أن يأتموا بمثل يزيد ومعاوية من الأمويين ، وبمثل السفاح والمقتدر من العباسيين ، في حين أن الشيعة الجعفرية يعتبرون الخلافة مركزاً دينياً اول مهمة للخليفة فيه (بيان الأحكام وحفظ بيضة الاسلام واقامة الحدود وحفظ الشريعة من الزيادة والنقصان) [٢] ولهذا يشترطون أن يكون الخليفة معصوماً وأن يكون منصوصاً عليه من الله ورسوله فلا يسوغ عندهم أن يأتموا بغير المعصومين من أهل بيت النبوة ، ولهذا ظل الشيعة الجعفرية معارضين لدول الخلافة الاسلامية من أموية وعباسية وعثمانية وظلوا عرضة لنقمة هذه الدول

---

(١) لاحظ ص ١٦٦ من مقدمة ابن خلدون الفصل في معنى الخلافة والامامة طبعة عبد الرحمن محمد صاحب المطبعة البهية المصرية بميدان الازهر ثم ص ٣٢٧ – ٣٣٢ من فجر الاسلام الطبعة الرابعة و ص ٢٢٧ – ٢٣٢ من ضحى الاسلام ج ٣ للاستاذ احمد امين الطبعة الثانية .

(٢) لاحظ ص ٢٢٤ من اعيان الشيعة ج ١ للعلامة السيد محسن الامين و ص ٣١ – ٣٦ من كتاب الشيعة في التاريخ لمؤلفه الشيخ محمد حسين الزين .

خلاصة عقائد الشيعة

وخلاصة عقائد المتاولة تتجلى وتتضح في كلام العلامة محمد كرد علي مؤلف خطط الشام وقوله :

« الشيعة لفظ معناه الاتباع والانصار يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، تقول هو شيعة وهي شيعة وهما وهم وهن من الشيعه وجمعه شيع وأشياع ثم صار علماً بالغلبة على أتباع علي بن أبي طالب عليه السلام .

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مثل سلمان الفارسي القائل بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له : ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة ، ولما سئل عن الأربع قال الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج . قيل فما الواحدة التي تركوها قال ولاية علي بن أبي طالب قيل له وانها لمفروضة معهن قال نعم هي مفروضة معهن . ومثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري وخالد بن سعيد بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة وكثير أمثالهم . ومن أرادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم ، عرف هؤلاء باسم شيعة علي ثم غلّب فأطلق فقيل لهم شيعة » .

« والأمر الذي لا خلاف فيه انه لما استقل الامويون بالأمر وناهضوا الهاشميين وأتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على اطلاقه علماً على أتباع آل البيت .

أما ما ذهب اليه بعض الكتاب من أن مذهب التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبهم . ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك علم مبلغ هذا القول من الصواب ، لاحظ الخطط ص ٢٥١ ج ٥ :

« والشيعة في الشام هم (المتاولة) في جبل عامل وفي بعلبك وأعمالها وزمنهم فيه قديم ، لاحظ ص ٢٥٣ من الخطط ج ٥ .

* * *

ثم قوله عن معتقدات الشيعة (المتاولة) .

« والشيعة فرقة من المسلمين ومعتقداتهم اعتقادات المسلمين العامة عينها ولكنهم في الاصول يخالفون أهل السنة بالإمامة ، وهي عندهم رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الاشخاص بحق النيابة عن النبي وهي واجبة عقلاً على الله لأنها لطف وكل لطف واجب عليه تعالى ولذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلاً والاشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً . ويجب عندهم أن يكون الإمام معصوماً وانفرد بهذا الشرط الإمامية والاسماعيلية من الشيعة وأن يكون منصوصاً عليه وأن يكون أفضل أهل زمانه .

وان الأئمة إثنا عشر ، أولهم علي بن أبي طالب المنصوص عليه من الرسول ﷺ وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى عام ٢٦٠ هـ في سر من رأى وهو حي يرزق ولا يعلم الناس مقره وسيظهر في آخر الزمان في مكة المكرمة وقد قال بقولهم هذا فريق من أهل السنة . وأما القول بأنه يخرج من سرداب سر من رأى فلم يقل بـه أحد من الشيعة وان نسبه اليهم من لا يعرف مذهبهم جهلاً بحقيقة الحال. ويخالفون الاشاعرة في بعض صفاته تعالى،

فالاشاعرة تقول في كونه تعالى متكلماً ان الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا شيء من أساليب الكلام وهو قديم . والشيعة والمعتزلة يقولون ان الكلام قائم بالغير يراد من كونه متكلماً فعل الكلام لا ان الكلام قائم به ولذلك فالكلام حادث . والاشاعرة تقول ان أفعاله تعالى لا لغرض وإلا لكان ناقصاً مستكملا بذلك الغرض . وعند الإماميــة ان أفعاله معللة بالعلل والأغراض وإلا لكان عابثــاً والغرض عائد لغيره إما لمنفعة العبد أو لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض .

والاشاعرة تقول ان الافعال كلها واقعة بقدر الله وانه لا فعل للعبد أصلا. وقال بعضهم ان للعبد من ذلك الكسب أي كونه طاعة أو معصية . وقال آخرون ان العبد إذا صمم خلق الله الفعل عقيب التصميم وانــه تعالى فاعل للكل حسناً أو قبيحــاً . والشيعة إمامية أو زيدية يقولون بقدرة العبد واختياره وانه ليس بمجبور على فعله بل له أن يفعل وله أن لا يفعل وان الفعل منسوب اليه نفسه وانه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح. وقالت الإمامية بوجوب اللطف عليه تعالى وهو ما يقرّب من الطاعة ويبعد عن المعصية ولا حظ له في التمكين ولا يبلغ درجة الالجاء .

وقالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشبع مثلا شيء حادث عن الاكل لا انه شيء يحدثه الله عند الاكل . وقالت الاشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى . وقالت الشيعة والمعتزلة باستحالتها مطلقاً . وقالت الاشاعرة في الحسن والقبح بأنهما شرعيان أي انه ليس في العقل ما يدل على الحسن والقبح بل ما حسنه الشرع فهو حسن ومــا قبحه فهو قبيح . وقالت الشيعة الامامية بأن الحسن حسن في نفسه يستحق صاحبه المدح والقبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم ولا يتوقف على حكم الشارع .

ويقولون أن العــدل صفة من صفاتــه تعالى واجبة الثبوت له ، هذه أمهات المسائل الأصولية التي يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالاشاعره وربما

وافقهم في اكثرها غيرهم كالمعتزلة . وأمـا في الفروع فلا تكاد تجد لهم قولاً مخالفاً لا يكون قائلاً به غيرهم من فرق المسلمين اليوم .

نعم انفردوا اليوم بالقول بالمتعة وإن كان أثرها في العرب منهم قليلاً بل أندر من النادر. وهي متعتان : متعة النكاح ومتعة الحج. فالأولى هي الزواج الى أجـل مسمى تحل عقدته بانقضاء الأجل وعلى الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الاجل أن تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجاً غيره حتى تنقضي عدتها، ولا بد فيها من ذكر المهر والأجل ولا توارث بينها وبين الزوج للدليل الخاص إلا مع الاشتراط ولكن الولد منها ولد شرعي لا فرق بينـه وبين اخوته . وأما متعة الحج فهي الطواف الأخير المعروف بطواف النساء، فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتي به .

ومنها في الميراث مسألة العول والتعصيب فهم ينكرون العول . ويقول إمامهم جعفر بن محمد الصادق على ان الذي أحصى رمال عالج يعلم ان المواريث لا تعول ويجرون فيما جاء من ذلك على قاعدة من له الغنم فعليه الغرم .

ولا يقولون بالتعصيب بل يرثه أقرب الناس اليه ، وطبقـات الإرث في النسب ثلاث : الآباء والأبنـاء ، والاخوة والأجداد ، والأخوال والأعمام . فالمتقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها ، فإذا كان ذو فرض أخذ فرضه ورد الباقي على نفس الطبقة لا يتعداها سواء كان المردود عليه ذكراً أو أنثى. فإذا مات الميت عن بنت وأب أخذت البنت النصف والأب السدس بالفرض ورد الباقي عليهما كل بقدر سهمه لأنهما من طبقة واحدة فلو لم يكن له أب بل جد أو أخ كان الرد على البنت لأنها من الطبقة الأولى والجد والأخ من الطبقة الثانية فهي أولى منه بآية وأولو الأرحام . ويقولون بالجمـع بين صلاتي الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء سفراً وحضراً ولكن التفريق أفضل .

وإذا قال القائل لزوجته أنت طالق ثلاثـاً فإن كانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة وإلا كان الطلاق باطلاً. وشرط صحة الطلاق أن تكون

ذري عدل .

وتجتمع الشيعة في أيام عاشوراء فتقيم المآتم على الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة وأول من رثاه أبو باهل الجمحي بقصيدة يقول فيها :

تبيت النشاوى من أمية نوّما وبالطف قتلى ما ينام حميمها

والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب الاغاني أن هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه ، ثم ان بني بويه أيام دولتهم عنوا بها مزيد العناية . ولا تزال الى اليوم تقام في جميع أقطار الشيعة وليست هي من المفروض كما يتوهم بل يستحبونها لأنها تصدر عن ولاء ومحبة وقد تطرف بعض العجم فأبدعوا فيها بدعاً يمقتها الله والناس من ضرب أنفسهم بالمدى وإسالة الدماء على أثوابهم وعمل ما يسمونه (الشبيه) وقد مقته العلماء من الشيعة ولم تذعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة [1] .

زيادة في الايضاح

وزيادة في الايضاح لاحظ قول مؤلف الشيعة في التاريخ « ان أصول الدين عند الشيعة خمسة : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة ، والمعاد، لكن الإمامة وإن اعتبروها من أصول الدين– هي بأصول المذهب أشبه لأن منكر الإمامة عندهم لا يخرج – بذلك – عن ملة الاسلام وإنما يخرج عن المذهب فحسب بعكس بقية الاصول

والشيعة يعتبرون الإمامة منصباً إلهياً كمنصب النبوة إلا أنه دونه في المنزلة والفضل–لأن الإمام نائب عام عن النبي في حفظ الشرع الاسلامي وتسيير المسلمين

(١) لاحظ ص ٢٥١ - ٢٥٦ من خطط الشام ج ٥ .

على طريقه القويم، وفي حفظ وحراسة الاحكام عن الزيادة والنقصان (والنائب دون المنوب عنه) والإمام موضح للمشكل من الآيات والاحاديث ومفسر للمجمل والمتشابه ومميز للناسخ من المنسوخ، وهو ليس بمشرّع يوحى اليه، وإنما هو – كما تقدم – نائب عن المشرع الموحى اليه:

والإمامة – عند الشيعة – لا تكون إلا بنص وتعيين، والمعين لا بد أن يكون معصوماً كالنبي، وأن يكون أفضل الأمة بعد النبي وأشجعها وأتقاها ليتمكن من حفظ الشرع وإقامة الأحكام الدقيقة على طبق ما شرع الشارع الأعظم لا تأخذه في الله لومة لائم ولا تصده عن تنفيذها قرابة قريب أو صداقة صديق أو أنانية ذاتية.

ويؤمن الشيعة بجميع ما في القرآن والسنة الشريفة القطعية. من الجنة والنار، ونعيم البرزخ وعذابه، والميزان والصراط، والأعراف، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وان الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره – الى غير ذلك مما يثبت في الكتاب والسنة من أن الله سبحانه لم يجبر مخلوقاً على طاعة ولا على معصية، وكيف يجبر على الطاعات وهو غني عنها؟ بل كيف يمدح عباده ويثيبهم عليها وهي ليست منهم ولم تكن باختيارهم على ما زعم؟

ثم كيف يعاقب العصاة وقد أجبرهم على المعاصي وأرادها منهم كما زعم الزاعمون؟ وهو القائل في كتابه الكريم «وما الله يريد ظلماً للعباد – وما ربك بظلام للعبيد – قل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» أم كيف يرضى الكفر ويأمر بالفحشاء، وهو القائل «إن الله لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر»؟

حاشا وكلا أن يكون إلهنا ينهي عن الفحشاء ثم يريدها

وكما لا جبر عند الله تعالى كذلك لا تفويض بل الأمر بين بين.

وما ينسب الى بعض منتحلي التشيّع (من ان الله فوض الامور الى الائمة من أهل البيت) تبرأ منه الشيعة ولا تقول به لأنهم لا يرون أئمتهم إلا من عباد الله المخلصين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

وعند الشيعة ان كل من قال او يقول بالتفويض او يحمل لأي مخلوق صفة من صفات الخالق الخاصة به فهو خارج عن ملة الاسلام [1] .

وهنالك أمور كثيرة يعتقد الشيعة وجوبها ويفعلونها منذ تكونوا الى اليوم، اليك أهمها وهي خمسة : الصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله ، وهي المعبر عنها – عندهم – بفروع الدين . أما الصوم فهو عندهم أربعة أقسام : واجب ومستحب وحرام ومكروه، ولا يجب الصوم المفروض في شهر رمضان حتى يشاهدوا هلاله أو يثبت بالشهادة او بالشياع . فمن الخطأ الفادح ما في دائرة المعارف الانكليزية « من أن الشيعة يوجبون الصوم بالعدد ، ويجوزون الافطار بالعدد ولا يشترطون رؤية الهلال » .

وأما « الصلاة » فقسمان : واجب ، ومستحب ويعبر عنه بالنوافل ، وقد تعرض الحرمة والكراهة على الصلاة من حيث المكان واللباس .

و « الحج » قسمان أيضاً : واجب ومستحب ، وقد يحرم اذا ظن المرء تلف نفسه او عرضه او ماله في الطريق او غيره ، ولا يجوز الحج الى غير مكة المكرمة ولا غنى لهم عن بيت الله الحرام كما افترى عليهم الرحالة المصري (ص ٢٠٠) من جولته في ربوع الشرق الادنى ، ولا يتم حجهم الى مكة إلا بتأدية المناسك على الوجه الكامل في بيت الله الحرام ، وفي المواقيت ومنى وعرفه والمشعر .

---

(١) ملخص عن كتاب (شرح التجريد) للعلامة الحلي المتوفي ٧٢٨ و(مختصر تاريخ الشيعة للشيخ عارف الزين) و (اصل الشيعة واصولها للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء) و (انقاذ البشر) للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ .

و « الزكاة » قسمان : واجب في ثلاثة أنواع (١) الانعـــام الثلاثة (٢) والغلات الاربع الحنطة والشعير والتمر والزبيب (٣) والنقـــدين من الذهب والفضة ، ومستحب في غير هذه الانواع .

و « الجهاد » واجب في سبيل الله وحماية بيضة الاسلام : وجهاد النفس الامارة من أعظم الجهاد وأعودها نفعـاً للفرد وللمجتمع البشري وهو داخل ضمن الجهاد في سبيل الله بلا ريب ، لأن من جاهد نفسه ووطنها على فعـــل الخيرات والابتعـــاد عن الشرور والمعاصي كان عمله أنفع من سل الحسام في حرب المشركين : وهل أشرك المشركون إلا من إهمال هـذا الجهاد للنفس ؟ وتغليب الهوى على العقل ؟

ويلي هذه الفروع في الأهمية فرض الخمس « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى الخ » ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» ولهما كما لغيرهما من الأحكام شروط كثيرة وبحوث دقيقة مبسوطة في الكتب الاجتهادية لفقه الشيعة وهي مطبوعة منتشرة في بلادهم وغيرها فليطلبها من يريد الاطلاع والكتابة عنهم بعلم وانصاف [١] .

---

(١) لاحظ ص ٣١-٣٦ من كتاب الشيعة في التاريخ لمؤلفه الشيخ محمد حسين الزين ، طبعة صيدا سنة ١٩٣٨ م .

مصادر تاريخ المتاولة

يوشك تاريخنا السياسي قبل عهد فخر الدين المعني أن يكون أشد غموضاً وتوغلاً في الأساطير من تاريخ طسم وجديس ، وانه من عهد فخر الدين حتى اليوم يكاد أن يخلو من تصوير الاخطاء والعثرات السياسية على وجهها الصحيح ومن ذكر المعارضين ووجهات نظرهم في السياسة التي كانت تتحداهم ويتحدونها في بعض الأحيان ، دع عنك هذا الاقتضاب وهذا التشويش فيما وصلنا من وثائق وأخبار وملاحظات .

أترى أن جبل عامل وحكامه العامليين ـ قبلاً ـ كانوا تابعين لغيرهم من الحكام والمقاطعاب ، ليس له ولا لهم شأن يذكر في سياسة البلاد وأحداثها الجسام ؟؟

أم ان سجلاته التاريخية تلاشت فيما تلاشى من الكتب والمكتبات أثناء الغارات الصليبية وما تلاها في عهد المماليك أو شاكلها في عهد المعنيين والشهابيين واحمد باشا الجزار مع أنه لم يفقد شيء من شعر العامليين في مدح الزعماء الذين كانوا هدفاً لانتقام الجزار وموضعاً لتنكيل الطغاة من الحكام كشعر آل يحي وآل زين الدين . ولا شيء من مؤلفات علمائنا الكبار في الفقه والاصول والحديث كاللمعة والمعالم والوسائل وما اليها من المؤلفات .

أم من الجائز أن يكون الذين يملكون شيئاً من النصوص التاريخية ما انفكوا خائفين من مغبة نشرها ؟ او حريصين على احتكار ما يختصون بمعرفته منها ؟ او ضنينين بكشف اوراقهم على من يحاول تحرير التاريخ من الأساطير وكتاباته بروح علمية ؟؟

أو من الجائز أن يكون علماؤنا وادباؤنا ومؤلفونا قد تهاونوا بهذه الناحية الشائكة من تاريخ جبلهم مع انك تجد أن أبرع الآثار العلمية والأدبية التي شعّ منها اسم هذا الجبل في سائر الأقطار إنما ازهرت ونمت وتحدرت الينا من هذه القرون السابقة لعهد الشهابيين في لبنان ؟؟

.. أو أن يكون المتغلّبون والظلمة قد حالوا ـ بتعاليهم واستبدادهم وتمويههم على الناس ـ دون معرفة الحوادث او الفتن التي وقعت في البلاد ؛ ودون تحرّي أسبابها وتدوين حقائقها .

أم ترى أن أبطال السياسة الاقطاعية في هذا العهد قد جرى كل منهم على طمس الأخبار التي تمس مفاخره من قريب أو بعيد أو تعزز دعوى أخصامه ومنافسيه أو تتصادم مع أغراضه وأحلامه الشخصية في هذه الناحية الحساسة التي تضطرب لها النفوس وتستعر الأنانيات وتتمادى الأحقاد في عملها الهدام ؟؟ لا أدري إذ ليس في تاريخنا سؤال او جواب او اشارة تنم عن هذا كله او بعضه ؟

وإذا جاز لنا أن نتوسع في الاحتمال أكثر من ذلك فإن الشك قد يغلو بنا ويذهب كل مذهب في السؤال عما بقي وعما ضاع من نصوص التاريخ . وفي الاستفهام عن مصدر هذا الباقي او عن حقيقته ومدى صدقه ودلالته .

فلننظر الآن فيما يرجع اليه الباحثون من مصادر عاملية او فيما يعتمدونه من الكتب والأقوال .. وهي تكاد أن تنحصر فيما يلي :

١

إنّ الرأي العـــام في كل مجتمع – ولو كان الأعم الأغلب من أفراده علمـــاء – تسيطر عليـــه روح السذاجـــة والبله وتشيع فيـــه الأقوال الكاذبة كما تشيع فيه الأقوال الصادقة وربمـــا كانت الكلمات الموهـــة والاحاديث الملفقة أشد توغلاً في النفوس واكثر انسجاماً مع داعي الهوى من الحقائق المرة ، لما يكون فيها من دقة وغرابة او طرافة صاغها وابدعها خيال الرواة والقصاص على خير ما يتمناه المعجبون والناقمون والطامعون في أحلام اليقظة ولولا هذا لما أثرت محطات الاذاعة وصحف الدعـــاية وتصريحات القادة أثرها السيء في تضليل الرأي العام الاوروبي ايام الحرب الكونية او في تضليل الرأي العام العربي في محنة فلسطين ومأساتها الدامية .

فكيف بهذا الرأي العام إذا كان أفراده من الغفلة والغرور بحيث يروج فيهم مثل هذه الاقوال والروايات التي يرويها الناس الى يومنا هذا .

كقولهم بأن آل شكر – في أيام حكمهم – مروا بعين (بوسودون) فانتهرت احدى الغسالات بعض كلاب الصيد فغضبوا لذلك وتركوا كلابهم تأكل طفلها وتمزقه أمام عينيها !

وقولهم : إن بعض مقدمي جزين ركب فرساً جموحاً وأطلق له العنان في قرية جرجوع فانطلق به الفرس بين اشجار التين حتى خيف على المقدم من جراء ذلك فما كان منه إلا ان قبض على فرع من الشجرة فلم يستطع الفرس بعد ان يتحرك بينما كان في منتهى السرعة والنشاط ، ولم ينزل عنه المقـــدم حتى مات تحته من شدة الضغط ! ولم يكن الفرس له فاعتـــذر لصاحبه بأنه فرس هجين لا ينبغي أن يقتنى !

. . .

وقولهم : بأن جيش العامليين في عهد ناصيف وظاهر العمر كان يبلغ زهاء العشرة آلاف فارس من الابطال المجربين !

مع أن فرسانهم في وقعة البحرة والحولة لم تزد على ٣٠٠ فارس كما نص على ذلك الشيخ حيدر رضا الركيني في مذكراته وكذلك لم تزد فرسانهم في وقعة كفر رمان على ٥٠٠ فارس على رواية الامير حيدر وغيره من المعاصرين .. وهبها بلغت الألف والالفين فأين هذا من العشرة آلاف ؟ وهاتان الوقعتان من أكبر وأشهر وقائع العامليين في عهد ناصيف النصار وظاهر العمر .

ثم انك لو احصيت الخيل في الوقائع الكبرى التي خاضها كل من الأمير فخر الدين المعني والامير بشير الشهابي في عنفوان عظمتها وقوتها لرأيتها لم تبلغ عشرة آلاف فارس بما فيهم فرسان العامليين ؟

وعلى فرض ان يكون فرسان العامليين عشرة آلاف فكم ينبغي ان يكون عدد المجموع من حملة السلاح ممن لا يستطيعون ان يقوموا بنفقات الخيل ولوازمها وهم لا يكونون عادة -في كل عصر ومصر- دون التسعين بالمائة؟ (١)

ثم بعد كيف بهذه الشائعات والاقوال اذا اصبحت مورداً للتنافس الذاتي ومصدراً للأماني الجامحة ومظهراً للتعصب الحزبي كهذه الأقوال والشائعات المتناقضة التي يتراشق بها اليوم كل من زعماء الحزبين المتعارضين في الجنوب فيدعيها فريق وينكرها فريق ويتأولها آخر ؟

أم كيف بهذه الأقوال إذا عصف بها تراوح النفوذ بين زعيم وزعيم وتطور الصداقة بين يوم ويوم كهذه الأقوال والنسب المختلفة بين ما كان يقصه ويقوله أعضاء القوائم الانتخابية سنة ١٩٤٧ عن بعضهم البعض وما أصبحوا يقصونه ويقولونه اليوم ، وقد تبدلت الأحوال وأصبح الأخصام أصدقاء والأصدقاء أخصاماً ألداء يستبيحون كل شيء يرضي نقمتهم حتى إنكار ما كانوا يتحدثون

---

(١) راجع ص ١٧١ من مجلة الكلية البيروتية م ١٠ عدد شباط سنة ١٩٢٤

به في المجالس العامة وما كانوا يقولونه إزاء مكبرات الصوت وما ملأوا به صحف ذلك العهد من صور الاحتفالات ونصوص الخطب والتصريحات المغالية .

فهل تظن أن السياسة كانت في الماضي أروع وأرصن منها في هذه الأيام ؟؟ وهل تتصور أن ساسة الأمس وزعماءه كانوا أبعد نظراً وأصح منطقاً من ساسة اليوم وزعمائه ؟ أم هل تعتقد أن أفراد الرأي العام كانوا قبلاً أوفر علماً وأكثر فهماً وأصدق لهجة منهم في هذا العصر ؟. ليكون لهم ولهذه الشائعات التي تداولتها اغراض السياسة الحزبية وعصف بها تراوح النفوذ وتطور الصداقة واضطراب المتقاعدين من رواتنا بين عبث الذاكرة وتمادي الخيال ليكون لهم ولها هذا المنطق العلمي في وضع تاريخنا وتحرير قضاياه على ما تقره أصول البحث ، إذا نحن أخذنا هذه الأخبار الشائعة على علاتها ولم نوسعها شكاً وبحثا وتمحيصاً ؟

وثيقة الركيني

٢

لعل هذه الوثيقة أو المذكرة تمتاز عن غيرها من مصادر التاريخ العاملي بشيئين هامين : أولهما سذاجة واضعها سذاجة تباعد بينه وبين افتعال الحوادث أو تلوين الحقائق والاحتيال في توجيهها وترتيبها على اشكال توصله الى النتيجة التي يصل اليها الحاذقون المتطرفون في أغراضهم ومآربهم الشخصية ، وثانيهما معاصرته لأكثر الحوادث وصلته بملابسيها ومدبريها .

فهي لذلك أقرب الى الصحة وحسن الظن وصدق الدلالة من هذه المصادر المجهولة النسب ، ومن هذه الوثائق التي جاءت متأخرة عن زمن الحوادث ولم تسلم من المبالغة والتأويل والأذعان لحكم الظروف المحرجة والعواطف الجامحة .

فما يرد في هذه الوثيقة موافقاً لما ورد في غيرها نستطيع أن نعتبره مؤكداً له أو موضحاً لمجمله ، وما يرد مخالفاً له أو مصوراً لأشياء وخصائص تؤدي الى نتائج غير النتائج التي أدت اليها بقية المصادر المعروفة نستطيع ان نتخذه حجة على ضعف الدلالة وخطأ الاستنتاج من فحوى النصوص المغايرة، أو نعده برهاناً على ان هناك روايات وملاحظات لم تزل في طي الكتمان لم تصل اليها يد المؤرخين العامليين او انهم لم يجرأوا على إظهارها او اعتبارها، أما لأنهم لم يؤمنوا بها كل الايمان او لأن ظروفهم وأجواءهم وتقاليدهم لا تتسع للحرية والصراحة إلا بقدر معلوم يرضي ارتياح الناس لروعة الماضي وعصمة الآباء والأجداد عن خطل الرأي واتباع الهوى .

ولكن موطن الضعف ومحل الشك في وثيقة الركيني هذه هو في أن عبارتها لا تشعرك بأن المؤلف قد لابس الحوادث او شاهدها عن كثب او استقى اخبارها من الموارد الاصيلة الصافية او تابع مجراها واستقصى اجزاءها وفصولها ، وانما تشعرك بأنه سجل ما وصله من الاخبار عن أي طريق اتفق ولو انها كانت مشبوهة ، وهناك موضع الخطر في السذاجة وحسن الظن وسرعة التصديق ، أضف الى هذا ان نصوصه في أغلب الاحيان تأتي قاصرة او مبتورة متقطعة لا تفهم منها ما يجب ان يفهم من منشأ الحوادث او تسلسل صورها وفصولها ونتائجها ، وكم تراه يجمل في اشياء ويسكت عن أشياء هي اجدر بالتوضيح والتعليل وبالحكم القاطع من هذا الاستطراد الى ما يشبه السخف احياناً كأنما هو قد كتب هذه المذكرات لنفسه او لابناء جيله من الذين يكتفون منها بالاشارة لعلمهم بالاسباب والظروف وتفاصيل الحوادث ونتائجها يومئذ .

فاذا جاز للباحث ان يطمئن الى سذاجة المؤلف وصدق لهجته وبساطة تعبيره فلا يجوز ان يطمئن الى صحة فهمه للحوادث بعللها وظروفها وتفاصيلها ولا الى صدق معرفته لهوية المتحدثين اليه ومقدار علمهم بالحوادث ومدى احتياطهم لحقيقة ما يروونه ويقصونه ولا يصح ان نعتقد بأن ما أهمله او دق

عن فهمه وتعبيره من الحوادث والحالات والملاحظات كأن لم يكن له حقيقة ولا وجود .

إذن فأهمية هذه الوثيقة تدور مدار الدقـــة في وزن نصوصها وتفحص اخبارها واستلهام اسرارها ومزاياها والاحتياط لما فيها وفي غيرها من تفاوت الدلالة وتمارض السياق . وهـــذا أمر شاق عسير بالنسبة لمن تتحكم به الاغراض والاهواء وتحول بينه وبين الاخلاص لـما توحيه الأدلة والقرائن من نتائج طريفة وأحكام مغايرة لما تنضح به الشائعات والاخبار المرسلة .

الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد

٣

لا شك بأن الذين أدركوا عصر الاديب الفاضـــل الشيخ علي السبيتي أو اتصلوا به من علمائنا وادبائنا قد اطلعوا على كتابه « الجوهر المجرد » [١] أو على قسم منه او سمعوا الكثير من أخباره ونصوصه وتناقلوها جيلاً عن جيل – على اختلاف في الوعي والذاكرة والأمانة في النقـــل – حتى وصلت الى كتاب عصرنا وأدبائنـــا الذين حاولوا ان يسجلوا تاريخ بلادهم على ضوء العقل والواقع .

فكتاب السبيتي إذن من الكتب التي تستوجب العناية ، والبحث عنهـا كمصدر للمؤرخين له أثره في تبرير أحكامهم وتقويم أبحاثهم ، وإذا لم يتهيأ لنا الوقوف على أصل الكتاب ولم نستطع ان نعرفه معرفة صحيحة تامة فحسبنا – لتقويمه كمصدر علمي – ان نعرف منه قصد المؤلف وغايته من وضع الكتاب ثم الجو الذي سيطر عليه أثناء التأليف وهل كان تأليفه لغاية علمية صرف ؟

---

(١) هناك فئة من علمائنا وادبائنا الثقاة تذهب الى أن هذا الكتاب كان موجوداً لدى شبيب باشا ثم اختفى أثره بعد أن نشر مقدمة ديوانه التاريخية وأن اسم هذا الكتاب الحقيقي (العقد المنضد) كما تنص على ذلك مخطوطة الشيخ محمد مغنيه – ولكن الباشا انتحل هذا الاسم لكتابه ثم سماه باسم (الجوهر المجرد) .

أم لضرورة سياسية وحاجة في نفس يعقوب ؟ وهل كانت ظروفه أثناء العمل حرة مساعدة على الصراحة في القول والاخلاص في العمل والتجرد لرسم الحقائق بجميع فروعها وعللها وألوانهـــا ؟ ام ان الظروف والاعتبارات قد احرجته وارهقت قلمه وخياله بمحاولات ومجاملات لا قبل للعلم والتاريخ الصريح بها ؟

وليس معرفة هذا الجو وهذه الغايــة من الصعوبة بحيث تتصور فإنه اذا لاحظنا هذه الآثار الأدبية التي تصدى العلماء والادباء لشرحها وتفسيرها ، وأدركنا انهم انما تصدوا لشرح ما اغلقت معانيه وكثرت الغرابة والوحشية في الفاظه كالمعلقات السبع ، والعلويات السبع ، او لما اشتمل – مع ذلك – على حكم غالية وامثال مجهولة المورد هي بحاجة الى التوضيح والتقرير كلامية العرب ، ومقصورة ابن دريد ، أو لـما تضمن الاشارة الى كثير من الحوادث الهامة وانطوى على مبلغ من الاحكام والنظريات كرسالة ابن زيدون لولادة بنت المستكفي ، أو لما دق معناه وسما فنه حتى صار بحاجة الى من يكشف للقارىء العـــادي عن اسرار البلاغة فيه ويجعل منه انموذجاً للفن الرفيع كما ترى في تفسير آي القرآن أو ما قاربها فصاحة وبلاغـــة من خطب النهج ومختارات الشعر والنثر. فإنه إذا لاحظنا ذلك كله ثم رجعنا الى هذه القصيدة التي تصدى لها هذا الأديب الكبير بالشرح والتفسير ، ولاحظنا أنها لا تعدو أن تكون عادية بصيغها والفاظها ومعانيها ليس فيهـــا من هذه الخصائص والامتيازات ما يستوجب شرحاً أو يدعو الى تفسير وتعليق ، فلا الفـــاظها وحشية ولا معانيها مغلقة ولا فيها من الأمثال والحـكم ولا من شبح الحوادث التاريخية وصورها الهامة ما يعز على القارىء فهمه وتصوره ولا هي من دقـة البلاغة وتناهي الخيال وتوغل الفكر بحيث نعجز عن ادراك أسرارها وتذوق فنها وجمالها إلا بتوجيه عالم وتأويل خبير أو افتراض شاعر ألم بهذا المختـار من أبياتها :

خليلي ما هذا الجفـــا والتقاطع ... وماذا التنائي والدموع هوامع
رعيت سوام اللحظ في زهرة الدجى ... فمــا بان لي للنيرين مطـــالع

ولم أر غير الفرقدين وأختهـا العمـيصا تعاطيهـا الرضى فتمانع
سلوا مهجتي الحرى ودمع تذيبه بعين وأخرى للديـار تطـالع
فإنسانهـا يرنو الى ربواتـكم كأن له في الرقمتين ودائـع
أقلب فكري بالتداني فلم أجد سبيلا وداعي البين بالبعد صادع
كوى الدهر أحشائي من الهجر وانثنى عـلي بسهم اوترتـه النوازع
متى نلتقي يوماً بتبنين عامـل وتبصر هاتيك الليـالي رواجع
أأنسى لييلات أديرت كؤوسها علينـا وأقداح السرور فواقع
نعمت صباحاً ربع تبنين واغتدت بك العـين والآرام وهي روائع
يقولون عذالي أما آن أن يرى فؤادك من بين الأخـلاء هاجع
تذكرت هل يجدي العواذل عذلهم وهل يصنع المحبوب مـا أنا صانع
إلى الله كم عهـد رعيت وذمـة حفظت وود أخبئته الأضـالع
وكم ليلـة أحييتهـا وجفونكم غريقـة نوم أهنأتهـا المضاجع
خليـلي إني كلما ذر شـارق شرقت بمـاء أسلته المدامـع

. . .

فمـا أنا عن عهد الأقـارب معرض ولا أنا عن وصل الأخـلاء راجع
سموت بآبـاء كرام شعـارهم بناء المعالي حيث كيوان ساطع
لهم شرف يسمو على هامة السهى ومجـدهم فوق المجرة طالـع
هم القوم من عليا نزار وطفلهم تمائمه البيض الرقـاق القواطع
هم مهدوا من عـامل كل صعبة وهم شيدوها والرمـاح شوارع
وهم ورثوها بالصوارم والقنـا وفي همم تندك منهـا القوارع
وهم لذوي الآمـال كعبة آمل وعند لقـا الأعدا رياح زعازع
وهم في الوغى آساد كل كريهة وفي السلم بالجدوى غيوث هوامع
وأيامهم من عهد عـاد شهيرة وفي كل عصر هم بدور طوالع
مناقب لا تحصى لهـم ومآثر شذا عرفها في الهند والصين ضايع

رعوا ذمم العليـــا بالهمم التي ... اليهـــا جميـع العالمـين خواضع
وكم شامخ العرنين أضحى مذللا ... لدينا وكاس الذل والحتف جارع
نروي القنا في يوم معترك اللقـــا ... وبتارنـــا في هامة الضد راكع
وان طلب المعروف والفضل طالب ... اشارت الينـا بالأكف الأصابع
ورب امرء أودى الغرور بنفسه ... فسيق لمـا قد ساءنا وهو جازع
وجر عنان الغي منـــه تبختراً ... ورام التي منهـــا تطير القنازع
فكان عثوراً قد كبا بغيه بـه ... وضاق به رحب الفضا وهو واسع
ألم تعـلم الأقوام اني فـتى الوغى ... وبدر اذا مـــا أظلم الخطب طالع
واني من القوم الكرام ذوي العلى ... ليوث قراع ما لهم من يقـارع
وان دافعتهم من زمـــان صروفه ... يعاضدهم عون من الله دافـع
وفي جبهة الايـــام خطت مآثر ... لنا سطرتها في الدهور الوقـائع
وان نحن فاخرنا بآثـــار مجدنا ... فليس لنا عند الفخار منازع[1]

ومهما قيل في وصف هذه القصيدة فهي لا تدل على معنى يصح الاطمئنان اليه ، سوى ان الناظم – وهو بحكم الجـــاه والمال والنسب وهتاف المحدقين بملاعب صباه من اولئك الواثقين بأنفسهم والمعجبين بماضي آبائهم وأجدادهم – رأى قصيدة الفرزدق العينية فأعجبته وتأثر بها أو بهذا البيت من أبياتها :

اولئك آبائي فجئني بمثلهم ... اذا جمعتنا يا جرير المجامع

فأوحى له هذا الاعجاب المثلث ان يعارضها او ان يقلدهـــا وينظم على الوزن والقافية قصيدة يفتخر بهـــا هذا الفخر الاجمالي الساذج الذي اعتاد المتأخرون من شعرائنا ان يقلدوا به المتقدمين من شعراء الجاهلية كالسموأل وابن كلثوم وعنـــترة ، او من شعراء الاسلام كالفرزدق وأبي فراس ، والرضي ، تقليداً لمحض التقليد لا يقصدون بـه الى حقيقة مدركة ولا الى واقع مرموق .

---

(١) مقدمة ديوان شبيب باشا الاسعد ص ١٠٩ .

فإنا اذا أمعنا في هذه الملاحظات وتدبرنا نتائجها نستطيع ان نعرف ان المؤلف – وإن غالى في مقدمة الكتاب بما يشعرك ان القصيدة تمتاز بجميع هذه الخصائص التي تستوجب الشرح [1] – لم يؤلف كتابه لغاية علمية أو ادبية صرف مهما يكن من توسعه في استعراض الحوادث والحالات والسير ، وإنما ألفه لغاية أخرى وفي جو خاص وضمن دائرة معينة لا يستطيع الخروج عنها الى ما يسخط حاكم المقاطعة ، وزعيمها المطلق ، وشاعرها الحماسي . مما لا يتناسب مع فحوى الحماسة من وقائع وسير وملاحظات قد تكون جديرة بأن لا تسقط من حساب المؤرخين الاحرار ، ولا يسعه كذلك التهاون ضمن هذه الدائرة بما يرضي الميول والطباع والتقاليد الاقطاعية من أحاديث المهرجين وزخارف المداهنين ومبالغات المتزلفين ، ولو انه اعتقد – في صميم نفسه – بأن معظمها من تلوين الخيال الجامح .

ويكفي للدلالة على صحة هذه الاحتمالات ان تقرأ ص (٧٩٦ من العرفان م ١٠) هذا النص للعلامة الشيخ محمد علي عز الدين وهو من المعاصرين للحوادث الذين أجمعت الكلمة على نزاهة رأيهم وصدق معرفتهم .

ثم نقابله بما رواه شبيب باشا الأسعد ص ٣٩ و ٤٠ من ديوانه عن كتاب (الجوهر المجرد) هذا :

رواية عز الدين

قال العلامة عز الدين ص ٦١ من كتابه [2] « سوق المعادن » « وفي سنة ١٢٦٨ هـ خرجت حوران واللجا وجملة من طائفة الدروز واجتمعوا في اللجا وتوجه رئيس العساكر الشامية الى حربهم وأنفذ امرأ الى رئيس عشائر بلادنا حمد البك بن محمد النصار في ملاقاتهم ، فوجه الاوامر الى البلاد في تجهيز

(١) ديوان شبيب باشا ص ٧٠ .
(٢) نسخة الشيخ أحمد رضا بخط المؤلف .

العساكر وامتنع عليه جملة من اولاد العشائر خوفاً على بلادهم من انهم اذا خرجوا منها يأتيها العدو . وفي أثناء ذلك دخلت سنة تسع وستين وكان ابتداؤها يوم الجمعة فإنه كان اول المحرم وما مضت منه ايام حتى غزا جملة من العرب البلاد فجاؤوا الى قرية الخيام وساقوا جملة من الغنم ووقعت الغلبة على أهل الخيام ، واتصل ذلك[1] بتامر بك فلم يقدر على اللحاق بهم . وفي اليوم الثامن من المحرم غزا جماعة من العرب طرف البلاد من جهة مقام نبي الله يوشع فاستاقوا جملة من الغنم التي لزبيد طائفة من العرب وكانوا قد نزلوا مرج قدس واخذوا ثلاثة حمير لأهل قدس فجاءهم أهل عثرون وبعض المغاربة النازلون بديشوم وأهل قدس ووقع بينهم وبين الغزاة حرب فقتل ستة من الغزاة ورجل فارس ، وجرح من اهل البلاد اثنان ومن المغاربة اثنان ، وجاء الخبر الى حمد البيك وكان قد عسكر في سهل الخان من ارض تبنين فأمر بنقل المعسكر الى عين قدس ثم مضى بعد ذلك الى ارض الخيط وخيّم على جسر الجامع وانتهب جملة من خيل عرب الاويس ، ولما انقادوا له ردها اليهم وبقي على الجسر أياماً ثم كر راجعاً الى قدس . وجاء الخبر من رئيس العساكر بوقوع الصلح بينه وبين أهل اللجا بعد أن وقع بينهم حرب في بلدة تسمى ازرع .

رواية السبيتي

وروى شبيب باشا الاسعد (ص ٣٩ – ٤٠) من ديوانه عن كتاب الفاضل السبيتي ما نصه : وقد كانت شقت عصى الطاعة في لجا حوران بالديار الشامية ولجأ اليها كثير من مردة ذؤبان العربان : قال العلامة الشيخ السبيتي في كتابه الجوهر المجرد في شرح القصيدة العينية للوالد رحمه الله : فصممت الدولة العلية أيد الله شوكتها ضربه وارضاخه للاطاعة فاستنهض رئيس عساكر عربستان في الشام همة هذا الشهم الهمام ودعاه لهذا المهم لعلمه بزيادة إلمامه وسعة خبرته

(١) وفي نسخة رضا وجاء الصوت الى تامر بك .

بالحروب ورأيه وتدبيره وقدم عهـــده بالرئاسة وحسن معرفته في كبراء الطوائف وميل عظمائهم اليه واقتداره على استجلاب دانيهم وقاصيهم ومتمردهم وعاصيهم ، إن كان بالحرب أو بأساليبه ولطف مسالكه وذلاقـة لسانه وخطابته ، وألقى له زمام هذا الأمر وندبه لسرعة المبادرة بتجهيز جيوشه ومسيره لتلك الاطراف على ظن من رئيس العساكر المشار اليه ان والي الايالة في بيروت لا يخالف هذا الرأي لأنه جهاد في طاعة الدولة وعلى مقتضى ارادتها الغالية . أما هذا الهمام المقدام فانه قام بجموعه وعسكره وعسكر على الاردن وعبر الجسر وخيم حيث الطريق إلى ناعران ، وكان باثناء ذلك قد استاقت عربان الجولان ماشية لعرب الخيط من اعمال صفد فلجأ هؤلاء الى بلاد بشارة بما عندهم من المواشي فراراً من أولئك ونزلوا سهل قادس في جنوب مقـــام نبي الله يوشع فاجتمع اولئك العربان وغزوهم بغتة فأصابوا سائر ماشيتهم ، فبلغ الخبر جيرة ذلك الموقع وهم قرى عثرون والمالكية وقـــدس فلحقوهم ولكنهم لم يدركوا آثارهم ، وعندما وافى البك الخبر استرجع من العربان ما غنموه وسلموه لأربابه وبث في تلك الاطراف الأمن وامسكت جميع عربان تلك الجهات وأرباب الشكاوات عن الاتيان بحركة ما من الحركات المخلة بالأمن وما زال هو بمدة اقامته يبعث بجموع من طرفه تحت قيادة معتمديه فيجتمعوا مع العسكر السلطاني المعسكر بانتظار حركته لهاتيك الجهـــات ليتجسسوا الامور ويرسل الجواسيس لتلك الانحاء وبقي ينتظر حتى فهم بذلك الاثنا مخالفة رأي الوالي في بيروت لرئيس العساكر في الشام (١) وجعـــل مخابراته متصلة مع الجانبين ليأخذ النتيجة بالصورة المرضية لدى أولياء الامور فما كان إلا باثنائها حدث حرب القارص فصدر أمر الدولة العلية برفع الحرب على اللجا ورجعت العساكر الشاهانية الى دمشق الشام والبك بجموعه الى تبنين . انتهى كلام صاحب الجوهر المجرد .

---

(١) وانما اصبحت بيروت ولاية مستقلة عن دمشق سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٧ م .

الفرق بين روايتي عز الدين والسبيتي

(١) ان رواية عزالدين تنفرد بأخبارها عما أهمل ذكره السبيتي من غزوة العرب لقرية الخيام وعجز تامر بك عن تدارك الخطر وإرجاع المنهوب منها لأهله .

* * *

(٢) ثم بهذا النص على امتناع جملة من حكام المقاطعات العاملية عن الامتثال لأوامر حمد البك في الذهاب الى حرب اللجا ، مما يشعرك بأن صفة شيخ المشايخ كانت أشبه بالألقاب من الصفات الشرفية والاعتبارية في جبل عامل ليس لها أي أثر عملي عند اللزوم إلا اذا أوجبت الضرورات وحكمت الظروف الخارجية على كل فرد منهم ان يشترك بما دعى اليه داعي شيخ المشايخ : كما تكون الحال في الحروب التي تهاجم بها البلاد من الخارج ، او كما تكون حين تغزى الطائفة في عقر دارها وفيما يشبه ذلك من حالات وعوامل يتجاوب بها حافز السياسة مع حافز الدين وحافز الدفاع عن العرض والنفس والمال ، كما اتفقت هذه العوامل جميعها في حادث الخيام مع الدروز يوم انقادت الطائفة على اختلاف احزابها وطبقاتها وزعمائها للاشتراك مع آل عبد الله في دفع الخطر عن قريتهم وما يليها من حدود الجبل مع انه لم يكن في آل عبد الله شيخ اقطاعي ولا شيخ مشايخ ؟

* * *

(٣) ثم تختلف رواية عز الدين عن رواية السبيتي بنصها على وقوع معركة في – سهل قدس – بين الغزاة من العرب وأهل قدس وديشوم وعثرون ، ثم بنصها على وقوع أربعه جرحى من العامليين وسبع قتلى من الغزاة في هذه الوقعة ، ثم لا تشعرك بعد بأن الغزاة استطاعوا أن ينفذوا بشيء مما سلبوه. بينما رواية السبيتي لا تشعرك بوقوع معركة ما بين العامليين والغزاة ، وإنما

* * *

(٤) وكذلك تختلف رواية السبيتي عن رواية عز الدين بنصهما على أن حمد البك عسكر على الاردن قبل حدوث غزوة قدس وانه قد بلغه خبر هذه الغزوة هناك فاسترجع ما نهبه الغزاة لأهله وبقي على الاردن الى ان صدر أمر الدولة برفع الحرب عن اللجا ، بينما تنص رواية عز الدين على أن حمد البك تحرك برجاله من تبنين بعد وقعة قدس وإنه انما قصد الاردن لتأديب الغزاة فلما انقادوا لإرادته رد لهم ما نهبه منهم وبقي أياماً قليلة ثم عاد الى تبنين قبل أن يأتي خبر الصلح بين الدروز والدولة ؟!

* * *

(٥) أما الذي تفردت به رواية السبيتي فهو بنصها على أن حمد البك قد فهم أن رأي والي بيروت كان مخالفاً لرئيس العساكر الشامية في حرب اللجا ، وأنه لهذا بقي يتربص في معسكره على الأردن ويرسل الجواسيس ويواصل مخابراته مع الجانبين الى ان صدر أمر الدولة برفع الحرب عن اللجا ورجعت العساكر فرجع هو من الأردن الى تبنين ؟!

وأما عز الدين فإنه لم يقل بشيء من هذا ؛ ويؤيد سكوته ومعارضته لما رواه السبيتي : ان بيروت كانت في هذا العهد متصرفية تابعة لولاية دمشق فلا يعقل أن يكون حاكمها الاداري مخالفاً لسياسة دمشق في حادث يهدد أمن الدولة ويزعزع نفوذها كهذا الحادث ؟

أضف الى هذا كله .. اختلاف الروايتين في العبائر والصور البيانية باختلاف أثر العاطفة وأثر المنطق في نفس الراوي ، فرواية السبيتي تمتاز بهذا الاندفاع العاطفي المتكلف كما أن رواية عز الدين تمتاز بهذا الهدوء الرصين

الذي يفرضه الاسلوب العلمي على المتحررين من قيود السياسة ومغرياتها .

(٦) وحسب الباحثين اليوم أن يلاحظوا هذا الفرق بين النصين ليدركوا مدى تقيد المؤلف بواجبات المؤرخين الأحرار ومدى تهاونه بها ؛ ثم ليعرفوا واجبهم من القصد والاحتياط والحذر في الأخذ منه والاعتماد على ما ينسب له من أقوال واحتمالات تتراوح بها الظنون والأوهام والعقائد .

مقدمة ديوان شبيب باشا الأسعد

ومهما تختلف الآراء والأقوال بشأن هذه المقدمة وعحلها من الآثار العلمية والأدبية التي يتداولها القراء والباحثون ، فهي لا تعدو أن تكون كما يقول المؤلف « ص ١٥ من الديوان » نبذة تاريخية تحتوي ما أمكن جمعه من تاريخ نسب بيته مع ترجمة بعض اسلافه أي ترجمة الفرع الذي اختص به المؤلف من أبيه وعمه

وأن من يحيط علماً بهذه الظروف التي أحاطت بالكاتب ويتصور الجو الذي كان يسيطر على أفكاره أثناء كتابته لهذه النبذه وتأليفه لهذه المقدمة ثم يقرؤها بترو وإمعان ، ... يدرك أي أثر للعاطفة والخيال فيما كتبه وفيما قدمه للناس من تاريخ :

فان المؤلف - كما يعلم جل معاصريه - إنما كتب ما كتبه في عنفوان خصومته مع كامل بك الأسعد وفي الوقت الذي تكتلت فيه أسرته آل الصغير ، مع أكثر الأسر العاملية حول خصمه ومعارض سياسته كامل بك .

فهو - بما يترجمه من حياة عمه وأبيه وبما يصوره من تاريخ آبائه وأجداده كمن يحاول أن يفند سلوك القوم معه ، وعقوق العشيرة له ، وتخاذل الطائفة عن نصرته وتأييده ، أو كمن يحاول أن يبين مبلغ الإثم والخطأ في تألبهم عليه وتجاهلهم لمكان بيته ونسبه ، ومدى علمه وأدبه وما امتاز به من

خصائص لم تتهيأ لغيره من منافسيه على الرياسة وجاحدي فضله ومعروفـــه جهلاً ومكابرة وحسداً .

ولكي تتأكد من صحة هذه المزاعم التي أزعمها فاقرأ ما يقوله صفحة ٢٩٢ :

لخالق أوجد الأشياء من عـدم أشكو خيانتكم بي يا ذوي رحمي
أخفيتم الغـــدر منكم في صدوركم فكان أشهر من نـــار على علم
فكم وفيت وبي خنتم وكنت لـكم أمين عهد بغـير الحفظ لم يهم
وكم رجوت صلاحاً من سرائركم فكنت كالمرتجي نوراً من الظـلم
اذ قد تعودتم الغـــدر القبيح بلا داع وما الغدر من شأني ومن شيمي
كأنكم حسداً منكم على حنق مني طوالب ثـــار غابر ودم
ومـــا علي إذا لم اكترث بكم وعن علي ورثت الحـلم من قدم
لولا شقائي بتشييدي لمجدكم لمـــا أرقت بليل فيـه لم أنم
فـكم لقيت بكم من شدة ولكم ألم من أجلكم بالقلب من ألم
وكم بعثت سهاداً من تخبطكم كخبط عشواء لي في أليـــل بهم

ثم أنظر صفحة ٣٢٦ الى هذا الأسلوب (العشائري) من قوله في الافتخار بنفسه وبمآثر أبيه وفي التخلص من ذلـك الى التعريض بمن يتحدى جاهه ومنزلتـه .. تعريضاً يصور مدى الخصومة العنيفـــة ومدى الملاحاة الشديدة فيما بينهما :

قد جرتم بعذابي عند صولتكم[١] كأنكم مـــا علمتم انني ابن جلا
وانني الأسد الضرغام والرجل الذ ي إذا عد كان الاصيد البطلا
وانني ابن أب كانت مكانتـه فوق الثريا وعنهـــا قط ما نزلا
وانني ابن أب كانت مناقبه تعدادها لو يعد الرمل ما اكتملا
وانني ابن أب نال العـلى ورقى على الأثير بآثار لـــه وعـلا

(١) الخطاب لأحد أصدقائه .

واني ابن أب في الدهر كان له ... أيد طوال بهـا كم ابرئت عللا

واني ابن أب نجم الفخار بـه ... عند الكرام ليوم الحشر ما أفلا

أبو السعود الذي كم عاد قاصده ... على السعادة من جدواه مشتملا

فسؤدد المرء والمجـد الأثيل كذا ... وهكذا فليكن أو لا يكون فلا

أنا ابنه المقتفي نهجاً عليه مضى ... وغير أوصافه الغراء مـا انتحلا

فيا لـه مفخراً ان عـد في ملأ ... لم تلق فيه أخـا شك به جهلا

فقل لمن رام يعزو : لي معائبـه ... لا برد الله من احشائك الغلـلا

مت بغيظك كم من حاسد حنق ... اعاب قبلك شهماً معرقـاً وقلى

وهل يلام بعيب الشمس ذو رمد ... وطيب الورد يؤذي عرفه الجعلا

أما تحديه لكامل بك أو تفنيده لمزاعمـه ومقاصده فلا يمكن أن نحصيها بقصيدة أو قصيدتين من شعره ، ولكنا نستطيـع أن نزعم ان جل نقده له يرتكز على ما تراه (صفحة ٢٩٨ في القصيدة الميمية . وصفحة ٢١٥ في القصيدة الرائية) من معان وأوصاف ومرام كان لها أثرها في الهدم والبناء السياسي يومئذ ، فانظر الى قوله في الميمية :

عجبت ولست أعجب من ... ... على خبث السريرة مستقيم

حكى الدجال بالتزويق منه ... لخلق الواحـد الأحد العليم

تراه يبث كالخنـاس شراً ... وكم في الناس من عقل سقيم

فويل ثم ويل ثم ويـل ... بيوم غـد لأفاك أثيم

ولما خال من ذا الدهر ميلا ... لمرعى منبت الأصل الوخيم

تردا في رداء قـد تبدت ... علائمـه على الوجه ...

وصير نفسه علمـاً وأضحى ... بهـا لأولي المساوىء كالزعيم

وفي ضرر العباد لـه ولوع ... فيشتم الفسـاد من النسيم

يرى ذكر الأذى لذوي المعالي ... كنغمة عود اسحـاق النديم

بخيل للعقـول تخيلات ... يخال بهـا كابليس الرجيم

إذا مر المهار بغير قال وقيل بات في ليل السليم
بطالب - للمفاسد - في حقوق بالحاح مطالبة الغريم
ويزعم انه في المجد أمسى كحاجب او زرارة في تميم
يكلف نفسه ما ليس فيها ويحملها على الخطب الجسيم
ويظهر ان كل الميل فيه لأهل المجد والخير العميم
وهل ترجى المكارم في صفات وأخلاق من . .
وذا ما لا يكون : ومثل هذا طلوع الشمس في الليل البهيم

* * *

يخاصمني بلا سبب وداع ولست له بضد او خصيم
ولكن حيث طينته فساد فليس على خصامي بالملم
تمسك أن يمسك واستعذ من اذاه بسم رحمن رحيم

ثم ابحث عما شاكل هذه الاقوال والآثار ، من حياة المؤلف نفسه ومن تصريحاته السياسية وبقية منشوراته الادبية ، فإنك حين تبحث ذلك وتتصور حقيقته وتقرأ ما أورده في المقدمة على ضوء هذه الحقيقة والواقع المعلوم ... لا تستطيع - مهما جهدت او بالغت في تأويل المقاصد وتوجيه الروايات - أن تساير المؤلف في كل ما ذهب اليه من أقوال وآراء طغت على معظمها العواطف الفردية والقبلية أو ما شئت أن تعتبره من هذه العوامل التي اثرت على منطقه وتفكيره واذهلته عما يتخلل بيانه من مآخذ جمة . حتى أنه نسب (واقعة بحرة الحولة) مع عثمان باشا الى نصّار الاحمد مع ان الذي خاض هذه المعركة سنة ١١٨٤ هـ هو ناصيف النصار لا والده نصار كما يبدو من جميع المصادر التي روت الحادث [١] .

فانظر الى ما يقوله العلامة الشيخ محمد علي عز الدين ص ٦٦ و ١٥٣ من كتابه سوق المعادن عن اختلاف علي بك الاسعد مع تامر بك الحسين ،

(١) مقدمة ديوان شبيب باشا الاسعد ص ٢٠

وعن اعتقال الاول مع ابن عمه محمد بك ووفاتها بدمشق حيث قال[1] ما نصه :

وفيها - أي سنة ١٢٧٢ - رجع تامر بك الى محله حاكماً على عادته بعد أن عزل وذهب الى مصر ثم الى القسطنطينية ، ولما رجع لاقاه أخوه وأبناء عمه محاربين له مجردين كثيراً من أهل البلاد وجرى بينهم حرب في ارض الخيام ، وابل السقي ، ووقعة اخرى في تبنين ، ثم جرى الصلح .

ثم يقول في حوادث سنة ١٢٨١ « وفيها جاء خورشيد باشا والي بيروت الى صيدا واعتقل رئيسي بلادنا علي بك الاسعد وابن عمه محمد بك الاسعد وأخذهما الى بيروت ووضعهما في القشلة وأغرى أهل البلاد بهما فأقاموا عليهما دعاوى كثيرة ، وبقوا في اعتقاله الى ان عزل نحو سبعة أشهر » .

ثم يقول في حوادث سنة ١٢٨٢ : « ثم فشا الوباء في الشام وبيروت وغالب البلاد وبه مات علي بك وابن عمه المذكوران بالشام وكانا قد نقلا من بيروت بعد عزل خورشيد باشا ومجيء رشدي باشا حكمداراً على بلاد الشام كلها من اللاذقية الى غزة فأخذهما معه الى الشام فأقاما أشهراً فحصل الوباء وكانا من أول من ماتا به عفا الله عنهما بمنه وكرمه ، فلعمري لقد انهد بموتهما ركن عظيم طالما كان المجد بأكنافه يقيم » .

أنظر هذا ثم قس عليه ما قاله الباشا في ذلك بين صفحة ١١٠ وصفحة ١١٥ من ديوانه مما لم أستصوب نقله ولا اختصاره .

* * *

الفرق بين روايتي عز الدين والاسعد

فإن بين الروايتين - كما يبدو للمطلع - بوناً شاسعاً واختلافاً كبيراً لا يمكن معه ان نصدق كلا منهما بكل ما أجملته أو فصلته من حوادث او بكل

(١) وقد نشر في العرفان م ١٠ ص ٧٩٩ و ٩٠٦ و ١٠٠٨

ما نضحت به من صور او ذهبت اليه من أغراض . اذ لا بد ان يكون في احداهما بعض الاغراق في الحذف او التحريف وتكبير الصور او ان يكون في الثانية بعض المبالغة في القصد والاحتياط والتحديد لمجرى الحوادث .

(١) فرواية شبيب باشا مثلا لا تعترف بأن تامر بك الحسين عاد بأمر الدولة الى مباشرة عمله في مقاطعة هونين ، مع إصرار علي بك الأسعد على مقاومته لذلك ؟

(٢) ورواية شبيب باشا لا تشير الى أن علي بك مع ابن عمه محمد بك ومع أخي تامر بك سلمان الحسين قد حاربوا تامر بك الحسين في مواقع متعددة الى أن جرى الصلح فيما بينهم ؟.

(٣) ورواية شبيب باشا لا تشعرك بأن علي بك قد تضعضعت هيبته في النفوس عندما اعتقل حتى أقام عليه أهل البلاد دعاوى كثيرة وهو معتقل كما يستفاد من رواية عز الدين .

(٤) ثم إنا حين نرجع لتاريخ سوريا العام نرى أن الزمن الذي اعتقل به علي بك الأسعد هو عين الزمن الذي قضت فيه الدولة على النظام الاقطاعي في عموم البلاد ، مما يدل على ان اعتقال علي بك لم يكن لمساعي تامر بك ومن جاراه من المعارضين لسياسة علي بك . كما يستفاد من رواية شبيب باشا ومن جاراه في ذلك من المؤرخين .

وإنما كان اعتقاله لاستئصال الحكم الاقطاعي من البلاد وتوطيد النظام والاصلاح الذي حاوله العثمانيون سنة ١٨٤٢ م يوم أنهى مصطفى باشا عهد الحكم الشهابي ورأى الفرصة ملائمة لتحقيق آمال الاصلاحيين بالغاء إمارة لبنان الوراثية وسد الطرق على الأوروبيين ومنع تدخلاتهم في شؤونه بواسطة أمرائه وحكامه الاقطاعيين [١] : أو يوم صدر فرمان سلطاني سنة ١٨٥٦

(١) تاريخ لبنان العام لادمون بليبل ص ١٧٧ - ١٨٥ .

يقضي بالغاء امتيازات الاقطاعيين وتساوي الناس جميعاً أمام القانون ·

تأمل هذا وأمثال هذا ثم حدث بعد عما يمكن ان تطمئن اليه أنت من هذه الاقوال والروايات التي حلت من هذه النبذة محل القاعدة من التمثال ، لنطمئن - نحن - اليها ونأخذ عنها بدون تحفظ وبدون احتياط لأثر العاطفة والخيال في صياغتها وتأليفها وتداولها بين الرواة ؟

بقيــــة المصادر

أما غير هؤلاء من المؤرخين والرواة العاملين الذين اطمأن اليهم صاحب (جبل عامل في التاريخ) فاحسب ان الكلام في جل ما رووه لا يختلف عن الكلام في هذه الشائعات من الاقوال والقصص التي عبثت بها الايام حتى جعلتها مادة للهو والتندر إذ لا أراهم تحدثوا بما تحدثوا به إلا وهم يرسفون في اغلال التقاليد والعادات ويستوحون أعنف المؤثرات الحزبية أو القبلية أو الطائفية في تصوير ما صوروه من الحوادث والوقائع حتى التبست الحقيقة بالخيــال ولم يبق للباحثــــين من التاريخ سوى رموز وإشارات لا تشعرك بأي احترام للواجب العلمي ولا بأي احتياط للحقيقة والواقع وإنما تشعرك بأن هناك كلفاً بالاغراب او طمعاًبالحظوة أو تهرباً من المسؤولية أو مسايرة للأجواءوالظروف التي حسنت لهم ما حسنته من تلاعب بالالفاظ وتسامح في الحديث وإسراف في التلوين والمغالاة .

ولو ان هؤلاء الرواة والمؤرخين حافظوا على عناصر القصة والرواية فيما حكوه وصوروه في كتابتهم ثم سموا ذلك بالأسمـــــاء التي ترضيهم أو ترضي القراء كما فعلت السيدة زينب فواز حين وضعت قصتها - حسن العواقب - لأراحوا ضميرهم واستراحوا من فضول النقاد وأنصفوا العلم والأدب بوقوفهم عند حد معلوم من كلا الطرفين ..

أما أن يبيحوا لأقلامهم وألسنتهم مـــــا يستبيحه القصاصون من التمادي

في الخيال والافتراض ومن الاغراق في صوغ التاريخ على مـــا يرضيهم أو يرضي فئة من الناس ثم يتنكروا جهدهم لمظاهر القصص وواجباته ... فذلك شيء لا يقره منطق العلم ولا منطق التاريخ السياسي والأدبي .

فان المرحومة زينب فواز عندما اذكت الغربة في نفسها عواطف القومية والوطنية وأرادت أن تعبر عن هذه العواطف وتتغنى بمجد قومهـــا ومحاسن وطنها لم تحاول أن تصوغ تاريخاً يرضي هذه العواطف وإنما الفت قصتها الآنفة الذكر وصورت فيها الحياة السياسية – فيما مضى من تاريخ عاملة – مقترنـــة بأنبل مظاهر المروءة والشمم والنخوة العربية ، فلم تجـــازف بحق التاريخ كواقع وعلم ولا بحق الأدب كعاطفة وخيال ، فأدت لقومها ولوطنها بذلك أكبر خدمة . وقدمت للأدب والفن أبرع آية على سبق الفتاة العاملية وتقدمها في عالم القصص .

هذا وما يقال في نقد المصادر العاملية المتقدمة يمكن أن يقال في نقـــد المصادر المتأخرة كتاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر ؛ وجبـــل عامل في التاريخ للعلامة الشيخ محمد تقي الفقيه ؛ وخطط جبل عامل للعلامة الأمين ؛ وان يقال في نقد غيرها من المصادر اللبنانية كتاريخ الأزمنة وتاريخ الصفدي ، والشهابي والشدياق ، وان تكن هذه المؤلفات اللبنانية في أبحاثهـا وتفاصيلها اقرب الى التاريخ والأبحاث العلمية من المصادر والمؤلفات العاملية القديمة .

الوطن العاملي

اقتطفنا جل هذا الفصل بتصرف كبير من مقال «بنو عاملة» المنشور في العرفان م ٣١ ص ٢١٨ ومقال « المتاولة او الشيعة في جبل عامل » المنشور في العرفان م ٢ ص ٢٣٧ : وكلا المقالين والبحثين للعلامة الشيخ احمد رضا :

بنو عاملة

في الصحاح عاملة : حي من اليمن وهو عاملة بن سبأ . وفي لسان العرب قال الأزهري « عاملة قبيلة ينسب اليها عدي بن الرقّاع العاملي ؛ وعاملة حي من اليمن وهو من عاملة بن سبأ .

وفي القاموس ؛ بنو عاملة بن سبأ حي من اليمن من ولد قاسط » .

قال الأمير شكيب أرسلان « ان مؤرخي العرب اتفقوا على كون حمير ، وكهلان ، وأشعر ، وعمرو ، وعاملة ، هم من ولد قحطان ، وأن أباهم هو يشجب بن يعرب بن قحطان : وان من حمير التبابعة ، وبني شيبان ، وقضاعة ومن كهلان : الأزد ، وطيء ، ومذحج ، وهمدان ، وكندة ، ومراد ، وانمار ، ومن كل هؤلاء بطون وأفخاذ كثيرة ، وأما أشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها ابو موسى الاشعري . وأما عمرو فمنهم لخم ، وجذام ، وأما عاملة ، فإنهم خرجوا الى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف « بجبل

عاملة ، ومنهم عدي بن رقاع الشاعر ، وعلى هذا يكون اصل سكان هـــذا الجبل من عرب اليمن ، وربما يكون نزل فيه ايضاً قوم من السكاسك ، وهما قبيلتان على ما حققه ابن الجوّاني النسابة ، الاولى من كندة والثانية من حمير وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير ويلقب بزيد السكاسك ، وكلاهمـــا باليمن . والذي يحملني على هذا الظن وجود ارض (بل قرية) يقال لها السكسية الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر .

وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضيع كثيرة ، وقال اليعقوبي في اعلاقه وجبل الجليل(بالجيم) وأهلهـــا قوم من عاملة . وقال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين بلدة في جبال عاملة ، وقال عند ذكر تبنين بلدة في جبال بني عامل المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور . وورد في تاريخ ابن الأثير عندذكر حصر الافرنج تبنين: أن الملك العزيز خرج من مصرلنجدة المسلمين في الشام ، ورحل هو والعساكر الى جبل الخيل (بالخاء) ويعرف : بجبل عاملة [1] .

وقال أبو الفداء صاحب حماه في تاريخه المختصر في أخبـار البشر : وأما بنو عاملة فهم ايضاً من القبائل اليمانية التي خرجت الى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل هناك يعرف بجبل عاملة فمن عاملة عدي ابن الرقاع العاملي الشاعر ، ونقل في صبح الأعشى عن الهمداني ، ان بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجم الغفير ، وفي مجمع الامثال للميداني عن فروة بن مسيك المرادي عن رسول الله (ص) لما سأله عن سبأ رجل أم امرأة ، فقال له (ص) هو رجل ولد عشرة تيامن ستة وتشاءم أربعة وهم عاملة ، وغسان ، ولخم ، وجذام اخوة عاملة. فهذا الحديث الشريف يدل على ان عاملة تشاءمت أي هاجرت الى الشام .

وقال ابن خلدون : وأمـا عاملة فاسمه الحرث بن عدي وهم اخوة لخم

---

(١) العرفان م ٢ ص ٤٤٧ .

وجذام ، وإنمـــا سمي عاملة بأمه القضاعية وهم بطن متسع ومواطنهم برية الشام ، وقال عند كلامه عن ملوك غسان ، وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة وكان منزله بالجولان من جهة دمشق ثم ملك الايهم ابن جبلة بن الحارث وكان له رأي في الإفساد بين القبـائل حتى يفني بعضهم بعضاً كما فعل ببني جسر ، وعاملة وغيرهم .

ولا يخفى أن الجولان متصلة بجبال بني عاملة لا يفصله عنها غير عرض مرج الحولة وهو حوالي الميل الواحد .

ويقول الهمداني في صفة جزيرة العرب « ديار عامـلة مجاورة للاردن ، وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر ويطل على الاردن ، ويقول ايضاً وأما عاملة فجبلها مشرف على طبريا الى نحو البحر .

وفي هجاء بعضهم لعدي بن الرقاع العاملي ما يدل على جهة ديار عاملة في أرض الشام إذ يقول :

ولسنا نبالي نأي عامـــلة التي   أجدّ بها عن أرض بصرى انحدارها

أي التي اسرع انحدارها عن ارض بصرى وجبال عاملة منحدرة عن ارض بصرى الى الغرب حتى شاطيء البحر .

جبل عاملة

تعرف الناحية التي تديّرها بنو عاملة من ارض الشام باسم جبـــل عاملة وجبل عامل ، وترخيم التـاء أكثر في العصور المتأخرة ، وهو اسم شائع في الاقطار الشرقية عند الشيعة الإمامية في الهند وايران والعراق وبعض الحجاز ، وذلك بما كان لأهل هذا الجبل من التقدم العلمي وبما أخرج من العلماء والفقهاء على مذهب الامامية الجعفرية حتى كانت مؤلفاتهم تدرس في كل مدارس الشيعة في سائر الاقطار الى اليوم وأصبح اسم جبل عامل في سائر الاقطـــار رمزاً عندهم للعلم والتقى .

والمستفاد من تحقيقات علماء هذه البلاد ومن توجيه نسبة العاملي عند متقدميهم لمن خرج من قرى هذه الناحية من العلماء ... أن حدود هذه الناحية أو هذا الجبل تبتدىء من الشمال بمصب نهر الأوّلي شمالي صيدا فتدخل مدينة صيدا فيه ، ثم يذهب صعداً الى الشرق شمالي قرية البرامية ويتجاوز في خطه قرية روم من جهة الشمال الى ان يصل الى جزين فيضم اليها واديها وشالوفها وجميع القرى التي كانت تابعة لمقاطعة جزين ، ويقطع جبل التومات منحدراً الى مشغرة [1] ويتصل بنهر الليطاني من شمال سحمر ، ثم يذهب الى أن ينحط على ينبوع النهر الحاصباني ، ويتجه عندئذٍ جنوباً على مجرى النهر المذكور ، فيدخل فيه جبل الظهر ومشغرة ، وعين التينـــة ، وميذون ، وسحمر ويحمر ، وقلية ، وزلايا ، (ولبايا) ولوسه ، من قرى البقاع الجنوبي وتدخل فيه قرى كوكبة ، وبرغز ، وسوق الخان ، من ناحية حاصبيا ، ثم ينتهي هذا الخط على ضفة بحيرة الحولة الغربية ، وينعطف غرباً جنوبي مقام النبي يوشع وشمالي الهراوي ، ويمتد غرباً فيتبع مجرى وادي فــارة وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصة والزيب فتدخل فيه قرية الخالصة من ارض الحولة وهونين وقدس ويوشع ثم آبل القمح ، وصلحة ، والمالكية ، وتربيخا ، من القرى التي ألحقت بفلسطين ، وتدخل فيه قرية البصة التي كانت مثار النزاع بين العامليين وحكام عكا .

---

(١) ومما يجعل لهذا التحديد طابعه العلمي ، هو ما نقله الأب لامنس ص ٦٣٤ من مجلة المشرق م ٣٠ عن كتاب (البلدان) ص ٣٢٧ من قول اليعقوبي المتوفي سنة ٢٨٧ هـ « كبني عاملة في جبال صيدا » .

فعلى قول اليعقوبي هذا تكون اضافة البرامية ، وروم ، وجزين ، ومشغرة ، الى جبل عامل دعى لتحقيق مصداقه العلمي من اضافة النارة ، والمالكية ، ومارون ، وشمع وأمثالها من القرى العاملية الى حدود هذا الجبل ، لأن جبال البرامية وروم وجزين حتى مشغرة اقرب الى صيدا وألصق بها من تلك القرى التي لا يشك بأنها من صميم جبل عامل .

. ومن الباحثين من يحد جبـــل عامل . من الجنوب بالنهر المسمى بنهر القرن الجاري شمال طيرشيحا الى جنوب قريــة الزيب ، ومن الغرب بالبحر الابيض المتوسط ، ومن الشرق بأرض الخيط او بسهل الخيط (المفصول بينه وبين الجولان بنهر الاردن وبينه وبين الحولة بالبحيرة التي أزالها الصهاينة [1] الى الوادي المسمى بعوبا ، الى نهر الفجر ، ثم نهر الوزاني شرقي قرية سردة وقرية الخيام الى قرى كوكبا ، فلبّايا وسحمر ، ومشغرة

وعلى هذا التحديد يدخل في جبل عامل جملة قرى خارجة عنه ، منهـا قرية الزيب ، وهي قرية على البحر في الجانب الغربي الجنوبي من نهر القرن ، فانها لم تتبع البلاد اصلاً ، ومنها البصّة ، وهي بسفح الجبل المسمى (بلبون) ولم تزل تابعة لجبل عامل منذ القديم حتى قتل ناصيف النصار سنة ١١٩٥ هـ فاتبعت لعكا ، أما مزارع البصة فان اكثرها الى الآن تخص جبل عامـــل وخراجها يؤدى الى قلعة تبنين ، ومنها الارض المسماة (بجاليل) وهي الآن خراب لا مزارع فيها سوى أراضي تنزلها العربان والمتلصصون وفيهـا غابة زيتون عظيمة من غرس الرومانيين يقلع منهـــا كل سنة جانب عظيم لجميـع الجهات ، وقد وضع أهل ترشيحا يدهم – بعد مقتــــل ناصيف – على تلك الارض وعلى الزيتون واستغلوها ، ولهم فيها مزارع يزرعونها ، وقد أقـــام عليها حمـد البيك المحمد (دعوى) في ديوان الأيالة في بيروت سنة ١٢٦٣ هـ وتهيأ له شهود من اهالي الزيب وطرشيحا ، وأقر له اهل طرشيحا بأنهـــا كانت تابعة لبلاد بشارة قديماً ، وكان رفض الوالي لدعوى حمـد البيك مجرد تحامل وعصبية .

---

(١) والجبل الغربي من سهل الخيط الى عين ديشوم . الى مقام النبي يوشع كان كلـــه تابعاً في الاصل لجبال عاملة .

والى الآن في الشرق من (جاليل) مزرعة تخص جبـــل عامل تسمى المصاصر خراجها تغرمه مقاطعة تبنين من دون انتفاع بشيء من ارضها، ومنها خربة ديشوم في الشرق الجنوبي من بلاد بشارة وأرضها المتصلة بأرض قدس هي الآن تابعة لبلاد صفد (١) .

ثم يحـدد من الشمال باقليم الخروب واقليم الشوف ، او بالضفة الشمالية من نهر الأوّلي (نهر الفراديس) ومما يؤكد هذا التحديد ويوضحه قول العلامـة الشيخ سليمان ظاهر في الحنين الى جبل عامل وهو ناء عنه :

لعـــبر الأردن الغربي أصبو
وتجـــذبني لشرق البحر هضبُ
ومن نهر الفراديس المصفّـــى
لنهر القرن لي رهط وصحبُ
هنالك من بـــــديع الإبداع يُلفى
جمـــالٌ كل قلبٍ فيه صبُّ (٢)

القرى العاملية التي الحقت بفلسطين

.. وان القرى العاملية التي الحقت بفلسطين هي من الجنوب الغربي الى الجنوب الشرقي ، قرية المشيرفة ، والناقورة ، وما يتبعها من خرائب ومزارع كجاليل (من ملك علي اسعيد وغيره من عرب السبنية) وقرى معصوبة ، وحانوتة ، وأدمث ، وجردي ، وأعربّين وخربة الصوّانة، وخربة مردة ، وقرية اكرث ، وطربيخة ، وما يتبعهـــا من خرائب ، ومنصورة (بيت مطر) وسعسع ، وصلحة ، وديشوم ، والمالكيـــة ؛ وقدس أو قادس نفتالي ؛ ومزرعة يوشع ؛ والمنارة ؛ وهونين ؛ وإبل القمح ؛ والمطلة ، الى غيرها من القري الخربة أو المستحدثة ضمن حدود جبل عامل القديمة كقريتي مسكفعام قرب عديسة ، والتخشيبة ضمن ابل القمح اليهوديتين .

---

(١) لاحظ ص ٦٠٣ - ٦٠٤ من كتاب جواهر الحكم للشيخ محمد مهدي مغنية نقلا عن العقد المنضد في شرح قصيدة الاسعد للشيخ علي سبيتي ، حيث يقولان « وفي الجزء الشمالي مـــن عامل المسمى باقليم التفاح جملة قرى اختلسها اهل لبنان .

(٢) لاحظ ص ٧٥٥ من العرفان مجلد ١٣ .

وهناك القرى التي فصلت عن جبل عامل وألحقت بإقليم الشوف ومقاطعاته أثناء المعارك مع المعنيين والشهابيين ، وأثنـــاء حكم الأمير بشير الثاني بعد وفاة الجزار ؛

وهي قرى مقاطعة جزين ؛ ومنها جزين قاعدة المقاطعة ، ثم قرى بكاسين فوادي جزين ، ثم قيتولة ، بسرّي ، روم ، عازور ، قطين، بنواتي، صليما، الميدان ، بتدّين اللقش، الحرف، مشموشة،خرخريا، خرايب صبّاح، الحصية، القبع ، حيطورة سميّا ، حيداب ، الخربة ، قتالة ، أنان ، مزرعة المطحنة، صفارية ، كفرحونة ، المزريعة ، كفرتعلا ، الغباطية ، الهوينية، الماصوصة، الرخصة ، الحورانية ، ماروس ، مراح المكنونية ، عين الثغرة، اللويزة .

ثم قرى مقاطعة إقليم التفاح الشمالي ، ومنها قرية الهلالية ، ثم البرامية ، البرغوثية ، لبعا ، كفرفالوس ، كفرجرة ، شواليق ، كرخا ، برتي ، حيتولة جرنايا ، كفرشلال ، بجدليون ، مراح كيوان ، المحاربيـــة ، المجيدل ، طنبوريت، دير يسين، بقسطا ، الحسانية الفوقا ، الحسانية التحتا ، زغدرايا، الحبابية ، عبرا ، الصالحية ، الميه وميه ، مغدوشة .

ثم قرى مقاطعة جبل الريحان : ومنهـــا الريحان ، وهي القاعدة ، ثم ميذون ، الوردية ، اللويزة ، مليخ ، الدمشقية ، العيشية ، عرمتا ، تمرة ، الزغرين ، قروح ، الوازعية ، بقيرة ، الجرمق، خلة خازم، الوزيد، شبيل ، الصويرة ، الى غيرها من القرى والمزارع التي تخللت هذه المقاطعات (١) .

---

(١) لاحظ ص ٢٩ ـ ٣٠ من أخبار الأعيان لطنوس الشدياق ج ١ الطبعة الثانية .

مساحته

يبلغ متوسط طول هذا القطر من الجنوب الى الشمال نحو من ثمانين كيلا (كيلومتر) ومتوسط عرضه (إذا جعل منتهاه من الشرق الجنوبي ضفة بحيرة الحولة ومن الشرق الشمالي منتهى جبل الظهر) إلى ساحل البحر نحو من اربعين كيلا ، فيكون مربع المساحة نحواً من ثلاثة آلاف كيل مربع .

مقاطعاته

وعرفت هذه البلاد في الزمن الأخير باسم بلاد بشارة منذ دخلت بلاد الشام في حوزة الترك العثمانيين ، هذا رأي العلامة رضا ، ولكن من يستقرىء تاريخ العامليين في القرن الثامن والتاسع للهجرة يشعر بأن هذا الاسم اطلق على هذه المنطقة من بلاد الشام منذ سادها بنو بشارة العامليين في القرن الثامن والتاسع للهجرة ، كما يتضح من الكلام على بني بشارة فيما يلي من هذا الكتاب .

وبلاد بشارة هذه تقسم إلى قسمين : بلاد بشارة الجنوبية وهي لا تزال تحمل هذا الاسم ويفصلها عن الشمالية مجرى نهر الليطاني الذي يصب شمالي صور ، وكانت مقاطعاتها زمن الحكومات الاقطاعية أربع ، مقاطعة تبنين ، ومقاطعة هونين ، ومقاطعة قانا ، ومقاطعة معركة .

وبلاد بشارة الشمالية وهي لا تعرف اليوم بهذا الاسم وانما تعرف كل مقاطعة من مقاطعاتها الثلاث باسمها الخاص وهي الشقيف ، والشومر ، والتفاح . وهناك مقاطعة ثامنة تدخل في الصميم من حدود جبل عامل وتاريخه ، وهي مقاطعة جزين ، وكان حكامها من المقدمين المعروفين بمقدمي جزين الخزرجيين .

هذا عدد المقاطعات العاملية حسب الشائع عند مؤرخينا ، ولكن من يتصفح تاريخ (الحركات في لبنان) يشعر بأن هناك مقاطعة عاملية تاسعة هي مقاطعة جبل الريحان وكانت قاعدتها قرية (كفرحونة) وكان حكامها

من آل (برّو) على ما يتضح من مفاد هذه العبارة : « لما استوطنت عشائر الدروز في بلاد الشوف واستولت على مقاطعاته ، كانت عشائر المتاولة مستوطنة اقليم حزين ومستولية عليه مع ما يتبعه من ناحيتي جبل الريحان ، واقليم التفاح ، وكانت تلك الأنحاء برمتها مأهولة بالمتاولة ، أما العشائر المتوالية فكان أهمها المقدمون الخزرجيون ، وكانت جزين قصبة لهم يملكونها ويملكون ما يجاورها من القرى والضياع ، ثم المشايخ آل برّو أصحاب كفرحونة وجبل الريحان ، وهؤلاء كانوا ذوي وفر جزيل وثروة عظيمة [1] » ، ويؤيد هذا القول الاخير ما جاء ص ٦٢ من تاريخ الصفدي عند الكلام عن مقتل حسين اليازجي سنة ١٠٢٧ هـ « ومع التقادير صادف حسين اليازجي حين انهزامه شقيفا كبيراً عارضه قدامه فما أمكن أن تسلكه الفرس فنزل عنها واختبى في مربة وجلس وجماعة الشيخ هاشم ابن برو من كفرحونة ، دايرون في الوعر على المكاسب فصدفوه ، فقام على حيله وركض على الشيخ هاشم فكان الشيخ هاشم أقدر منه وأقوى فقتله وقطع رأسه في نهار الجمعة ثاني شهر جماد الأول وأخذه الى صيدا » . ومن يلاحظ قول الصفدي « وجماعة الشيخ برو » يشعر – على ضوء ما تقدم من رواية صاحب الحركات – أن الشيخ هاشم برو كان من قواد المعركة التي دارت بين المعنيين وبين حسين اليازجي حاكم سنجقية صفد ، وبأنه كان شيخ كفرحونة وما يليها .

بلاد المتاولة

وكما عرف جبل عامل ببلاد بشارة عرف كذلك ببلاد المتاولة منذ أطلق هذا اللقب على شيعة هذه الديار ، وهو لقب حديث لا يتجاوز القرن الثاني عشر للهجرة ، ذلك على قول العلامة رضا ، ولكن من يراجع تاريخ الأزمنة للدويهي ، وتاريخ الأمير فخر الدين للصفدي ، يبدو له أن هذا اللقب

(١) تاريخ الحركات في لبنان لأبي شقرا ص ١٥٠

كان يطلق على العامليين منذ أوائل القرن الحادي عشر ، غير أن اللبنانيين في الشمال كانوا يقولون (متاولة) كما في تاريخ الدويهي والشهابي ، والفلسطينيين في الجنوب كانوا يقولون (بني متوالي) كما في تاريخ الصفدي ، وأما شعراء الزجل فكانوا يرددون قول (بني متوال) كما في زجلية شناعه شاعر الزيادنة ، ثم يقول الجميع للمفرد من المتاولة (متوالي)

وهذا اللقب وهذه اللفظة (متاولة) هي جمع متوالي مشتق - على غير قياس - من تولى أي اتخذ وليـاً ومتبوعاً من ولائهم لأهل البيت النبوي الطاهر الذي هو الركن الركين في مذهب الشيعة ، أو مشتق - على القياس - من توالى أي تتابع من تتابعهم واسترسالهم خلفاً عن سلف في موالاة آل البيت عليهم السلام .

كان يطلق عليهم بعد اسم الشيعة في جبل عامل اسم العلويين منذ نشأت فرقتا العلوية والعثمانية في أواخر عصر الخلفاء الراشدين ، واختص أشياع علي القائلون بتفضيله باسم العلويين ، واشياع عثمان القائلون بتفضيله ، وتفضيل من تقدمه باسم العثمانيين كما انقسم المعتزلة الى هاتين الفرقتين من بدء العصر الثاني الى نهـاية العصر السابع للهجرة .

وما زال اسم العلويين في هذه الديار يرادف الشيعة حتى نسخ الأول لقب متاولة وحلّ محله .

الحوادث العاملية من الفتح العربي حتى العهد العثماني

-١-

عندما تستقرىء صحف التاريخ العـــام لسوريا ولبنان وتنعم النظر في استنطاقها صفحة صفحة لا ترى ما يشعرك باسم حاكم اقطاعي أو بمكان خاص لأسرة اقطاعية حاكمة تدير شؤون البلاد العاملية وتستوطنها قبل عهد (بني بشارة) في القرن الثامن والتاسع الهجري ، وإنما ترى ما يلمح الى بعض الحوادث والحروب التي وقعت في جبل عامل وألمت بمدنـــه وقراه وقلاعه الحصينة ونال منها العامليون ما نالهم من حرج أو فرج كما يتضح من الروايات المتفرقـــة في تاريخ الحروب الصليبية وتاريخ الملوك الايوبيين ... ثم ملوك المماليك . . حين تقرأ بعض نصوصهـا موجزة ومرتبة حسب السنين على النحو التالي :

فتح صور وقدس سنة ١٣و ١٤

بين سنة ١٣ و١٤ هجرية افتتح شرحبيل بن حسنة الاردن عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه على انصاف منازلهم وكنائسهم وفتحت جميـع مدن الاردن وحصونها على مثل صلح طبرية فتحاً يسيراً بغير قتال ، ففتح بيسان وسوسية وافيق وجرش وبيت رأس و« قدس » والجولان ؟ وغلب على سواد

الاردن وجميع أرضها ، وعلى صفورية ، وعكا وصور ، وبفتح هذين الثغرين من الساحل انقطع ما بين الروم في ايلياء وبين خط رجعتهم من البر مع انطاكية وما وراءها من الدروب [1].

فتح صيدا وبيروت سنة ١٤ هـ

وسنة ١٤ هـ استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان شقيق معاوية ، كما وعده الصدّيق ، فسار الى صيدا ، وبيروت ، وجبيل ، وعرقة ، ففتحها فتحاً يسيراً [2].

يقول البلاذري « وكان يزيد يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قُوتِل قتالاً غير شديد وربما رمى ففتحها ، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل ، رتّبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين ، فإن حدث في شيء منها حدثٌ من قبل العدو سرّبوا اليها الأمداد ، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل ، وشحنها ، وإقطاع من ينزله إيّاها القطائع ففعل وانتقل الناس الى السواحل من كل ناحية [3].

ترميم صور وتجديدها

حدّث محمد بن سعيد عن الواقدي ، وأخبر هشام بن الليث الصوري عن مشايخ أهل الشام قالوا : « رمّم معاوية عكا عند ركوبه منها الى قبرس ، ورمّم صور ، ثم ان عبد الملك بن مروان جددها وقد كانتا خربتا [4].

---

(١) خطط الشام ج١ ص ١٧ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢١ وفتوح البلدان ص ١٧٠ ـ ١٧٥ .

(٣) لاحظ ص ١٧٥ من فتوح البلدان للبلاذري.

(٤) فتوح البلدان ص ١٦١ طبعة بيروت ١٩٥٧ م .

وحدّث محمد بن سَهْم الانطاكي عن مشايخ أدركهم قالوا « لما كانت سنة ٤٩ هـ خرجت الروم الى السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية ابن أبي سفيان بجمع الصناع والنجارين فجُمعوا ورتبهم في السواحل ، وكانت الصناعة في الاردن بعكا ، قال فذكر أبو الخطّاب الأزدي أنه كانت لرجل من ولد أبي مُعَيْط أرجـــاء ومستغلات فأراده هشام بن عبد الملك على أن يبيعه إياها فأبى المعيطي ذلك عليه ، فنقل هشام الصناعة الى صور ، واتخذ بصور فندقاً ومستغلاً ، وقـال الواقدي لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان ، فنقلوها الى صور ، فهي بصور الى اليوم [١] .

في أحكام اراضي الخراج

قال بشر بن غياث، قال أبو يوسف « أيّما أرض أُخذت عنوة مثل السواد والشام وغيرهما ، فإن قسمها الامام بين من غلب عليها ، فهي أرض عشر ، وأهلها رقيق، وإن لم يقسمها الامام وردها للمسلمين عامة كما فعل عمربالسواد، فعلى رقاب أهلهـــا الجزية وعلى الارض الخراج ، وليسوا برقيق ، وهو قول أبي حنيفة ، وحكى الواقدي عن سفيان الثوري مثل ذلك .

وقال الواقدي ، قال مالك بن أنس وابن أبي ذئب « إذا أسلم كافر من أهل العنوة – أى الأرض التي أُخذت عنوة – أقرت أرضه في يده يعمرهـا ويؤدي الخراج عنها ولا اختلاف في ذلك « وسقطت عنه الجزيه طبعاً».

وقال أبو الزناد ، ومالك ، وأبو حنيفة ، وسفيان ، ويعقوب ، وابن أبي ليلى ، وابن سبره ، وزفر ومحمد بن الحسن وبشر بن غياث « إذا عطل رجل أرضه ، قيل له ازرعها وأدّ خراجها ، وإلا فادفعها الى غيرك يزرعها ، فأما

(١) لاحظ ص ١٦١ من فتوح البلدان .

ارض العشر فإنه لا يقال له فيها شيء ان يزرع أخذت منه الصدقة وان أبى فهو أعلم [١]

المدن المفتوحة صلحا تعتبر ارضها عنوة

تواترت الأخبار بأن (عياض) فتح الرقّة ، وحرّان ، والرّها ، ونصيبين ، وميافارقين ، وقرقيسيا ، وقرى الفرات ومدائنها صلحاً ، وأرضها عنوة ، وكذلك باقي مدن الجزيرة وأرضها [٢].

الأرض من حق جمهور المسلمين

من المعروف ، ان كل مـــا سقط في أيدي المحاربين من اموال منقولة وأسرى حرب إنما هو داخل في الغنيمة ، وهو من نصيب المقاتلين كما كان في حينه ، وليست الأرض كذلك إذ هي من حق جمهور المسلمين ، يتألف منها ومن سائر الأموال التي تجبى من الرعايا ما يعرف بـ « الفيء » [٣] .

احكام الجزية ومقدارها

كانت الجزية تؤدى دفعة واحدة ، (من أهل الذمة) ، أما مقدارهـــا فكان في الغالب أربعة دنانير لمن عدّ من طبقة الأغنياء ، وديناران لمن اعتبر من متوسطي الحال ، وديناراً واحداً لمن كان من الفقراء ، وقد اعفي منهـــا النساء ، والأطفال ، والمستعطون ، والمسنون ، والمرضى ، إلا من كان منهم ذا دخل شخصي مستقل .

وقد كان الدينار هو الوحدة للنقود الذهبية في عهد الراشدين ، وكان يزن

---

(١) نفس المصدر ص ٦٢٧ - ٦٢٨ .

(٢) المصدر ذاته ص ٢٣٨ - ٢٤٢ .

(٣) لاحظ ص ٢٠ ج ٢ من تاريخ سوريا ولبنان للدكتور فليب حتي .

نحو أربعة غرامات ، وكان في عهد عمر يساوي عشرة دراهم (من الفضه) وغدا معادلاً لإثني عشر درهماً [١] .

الروم تغزو صيدا وصور سنة ٥٧ هـ

ومن أهم ما حـــدث في أواخر أيام معاويـــة أن الروم ركبوا السفن للسنة السابعة عشرة من خلافته وأتوا ساحل صور وصيدا فاستولوا على جبل لبنان وانتشروا من جبل الجليل الى الجبـــل الاسود ، وكان الناس يسمونهم الجراجمة وبعضهم يسميهم المردة . دسهم قسطنطين بن هرقـــل ملك الروم ليشغلوا العرب عن الغزو ، وبقوا في البـــلاد حتى أخرجهم عبد الملك ابن مروان [٢].

أثر المعارك في صيدا سنة ٣٦٥ هـ

« وسار الفتكين على طريق الساحل فنزل على صيدا وخرج اليه أبو الفتح ابن الشيخ ، وكان رجلاً جليل القدر ومعه شيوخ البلد ولقوه وقرروا معـــه أمرهم على مال اعطوه إياه وهدية حملوهـــا اليه وانصرف عنهم على سلم وموادعة [٣] .

« ولما هلك المعز الفاطمي سنة ٣٦٥ هـ وتولىّ مكانه ابنـــه العزيز فأمن الفتكين من جهة مصر والرملة وقصد (من دمشق) سواحل الشام ، وعمـــد الى صيدا فحصرها وكان بها ابن الشيخ والياً ومعه رؤوس المغـــاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلهم وقاتلوه وكانوا في كثرة وطمعوا في الفتكـــين وخرجوا اليه فاستجرهم حتى ابعدوا ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعـــة

---

(١) لاحظ ص ٢١ من المصدر نفسه .
(٢) لاحظ ص ١٤٣ من خطط اشام ج ١
(٣) لاحظ ص ١٧٣ من تاريخ صيدا للشيخ عارف الزين صاحب العرفان .

آلاف قتيل وطمع في أخذ عكا فتوجه اليها وقصد طبريه ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا وعاد الى دمشق [1] .

ثورة علاقة في صور سنة ٣٨٧ هـ

وسنة ٣٨٧ هـ عصى أهل صور وأمروا عليهم رجلا ملاحاً يعرف بالعلاقة ضرب السكة باسمه وكتب عليهـــا (عز بعد فاقة لأمير علاقة) فأرسلت عليه حكومة الفاطميين اسطولاً ، فاستجار علاقة بملك الروم فأنفذ اليه عدة مراكب مشحونة بالرجال والمقاتلة ، والتقت هـذه المراكب بمراكب المسلمين فاقتتلوا فظفر المسلمون وملكوا مركباً من مراكبهم وقتلوا من فيه وانهزمت بقية المراكب ، ثم ندب أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمـــدان في عسكر الى صور بعد أن كان أنفذ اليها مراكب في البحر مشحونة بالرجال فأحاطت العساكر بها براً وبحراً وضعف اهل صور عن القتال واخذ علاقة فحمل الى مصر فسلخ « حياً » وصلب بها ، وأقام ابن حمدان والياً عليها [2] .

صيدا وصور بدلا من حلب

وفي سنة ٤٠٥ هـ اقطع الحاكم بأمر الله خليفة مصر صور وصيدا وبيروت للفتح حاكم حلب عوضاً عن حلب ولقبه مبارك الدولة وسعدها وكان ارتفاع – خراج – الثلاثة اماكن المذكورة ثلاثمائة الف دينار . وذلك بعد ان كان الفتح دودار قلعة حلب وفي خدمة صاحبها ابي نصر بن لؤلؤ فعصيه واستولى على القلعة وكاتب الحاكم بأمر الله فأرسل الحاكم نوابه فتسلموا المدينة وأعطاه الخليفة عوضها صور وصيدا وبيروت «تاريخ صالح بن يحي طبعة بيروت لسنة ١٩٠٢ ص ٢٦ » .

---

(١) لاحظ ص ١٤٣ من الخطط م ١ ثم ص ١٧٣ من تاريخ صيدا ايضاً .

(٢) الخطط م ١ ص ٢٤١ – ٢ – المصدر نفسه ص ٢٥٥ .

يقول الرحالة ناصر خسرو عندما زار لبنان (سنة ٤٣٨ هـ و ١٠٤٧ م) ان اسواق صيدا مزينة تزييناً رائعاً حتى ليخيل للزائر بأن المدينة تستعد لاستقبال السلطان ، وكذلك بساتينها فانها أنشئت حسب هندسة جميلة كأنما أنشئت خصيصاً لتكون حديقة لسلطان ؛ أما سور صيدا المحكم البناء فقد كان له أربعة أبواب [١] .

ويقول مؤلف تاريخ صيدا نقلاً عن رحلة (كيران) الفرنسي « ان في جنوبي صيدا وعلى ذروة الربوة التي تعلو عن البلدة خمسة واربعين متراً قلعة تدعى « قلعة المعز » ، والمسيحيون يسمونها قلعة (القديس لويس) لأنهم ينسبون بناءها الاخير له [٢]

ويروي العلامة الأمين عن ناصر خسرو « ان اهل صيدا او اكثرهم كانوا من الشيعة في عصر السيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ والمسائل الصيداوية التي أرسلها اليه اهل صيدا مشهورة [٣] .

ثم يروي الدكتور حتي عن ناصر خسرو ايضاً قوله « وأما أسواق صور المزدهرة المكتظة بالبضائع والسلع فعلى غاية من النظافة ، وخاناتها أبنية ذات خمس أو ست طبقات ، أما سكانها فأكثرهم من الشيعة كما هي الحال في طرابلس ، والمدينة مجهزة بالماء الذي يصلها في قناة مرتفعة على قناطر[٤] » .

ويروي العلامة الامين عن ناصر خسرو ايضاً « ان في صور نوافر كثيرة

---

(١) لاحظ ص ٣٤٠ وص ٣٤١ من « لبنان في التاريخ » .

(٢) لاحظ ص ١٠٣ من تاريخ صيدا اصاحب مجلة العرفان .

(٣) لاحظ ص ٢٦٠ من خطط جبل عامل .

(٤) لاحظ ص ٣٤١ من لبنان في التاريخ .

ونعم وافرة وهي معروفة بالمال والقوة بين البلاد الساحلية ، وعلى باب البلدة مشهد فيه أفرشة وقناديل من الذهب والفضة [١] » .

تحصين المدن الساحلية قبل الحملة

وقال المؤرخ فيليب حتي « يذكر لنا الرحالة الجغرافيون الذين زاروا هذه المدن الساحلية – قبل الصليبيين – بأنها كانت حصينة تحيط بها أسوار وأبراج وقلاع ، فإن حكامها – من المسلمين – كانوا يخشون عدوّين ، قرصان البحر ، وغزوات الروم (البيزنطيين) وقد اهتم ابن طولون اهتماماً خاصاً بمدينة عكا لكونها قاعدة بحرية حصينة ، الى أن قال يخبرنا المقدسي أن ابن طولون استدعى جده من بيت المقدس ليبني ميناء للمدينة في داخل البحر ، وقد تم إنشاء ميناء كهذا يضم جذوع شجر الجميز الضخمة بحيث يضعون جذعاً الى جانب جذع ثم يضعون فوقها حجارة ضخمة ، وقد تُركت في السور الغربي فتحة واسعة بشكل باب للميناء،وربطت بسلاسل ضخمة لتمنع دخول المراكب غير المرغوب فيها ، ولا سيما ليلاً ، ولم يقتصر بناء هذا النوع من الميناء على عكا بل تعداه الى صور وبيروت اللتين جهزتا بسلاسل من هذا النوع [٢].

ثم قال في مكان آخر من تاريخه « وما كان ليخطر على بال الطولونيين والفاطميين الذين أقاموا هذه الحصون أن هجمات خطرة ستنقض عليها من غربي أوربة عن طريق الشرق لا من البيزنطيين بل من الصليبيين [٣] .

صور لدى قدوم الصليبيين

« كانت صور ، بعد طرابلس أحسن المدن الساحلية ازدهاراً وعمراناً ، عندما غزاها الصليبيون ، فإنه فضلاً عن صناعاتها القديمة المشهورة التي

(١) لاحظ ص ٢٥٤ من خطط جبل عامل .
(٢) لاحظ ٣٣٩ من لبنان في التاريخ .
(٣) المصدر ذاته ص ٣٤١ .

جئنا على ذكرها سابقاً كانت صناعة السكر فيهـا مزدهرة ، وكانت صور محصنة تحصيناً قوياً فقد كان يحيط بها من جهة البر سور منيع يتألف من ثلاثة أسوار ، ومن جهة البحر سور مزدوج [1].

ولعل صور بقيت على حالها من الحصانة حتى يوم مرّ بها الرحالة ابن جبير (سنة ٥٨٠ هـ) ووصفها بقوله « وصور مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطالبهـا بيد طاعة ولا استكانة . وحصانتها ومناعتها أعجب ما يحدث به ، وذلك انها راجعة الى بابين ، أحدهما في البر ، والآخر في البحر ، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر (حيطان) مشيّدة بالباب ، وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج إلا على أعينهم ، فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل اليهـا ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل [2] .

محاصرة صور سنة ٤٦٣ هـ

وفي سنة ٤٦٣ هـ استولى القفقي مختص بن أبي الحسين على دمشق وطرد نواب امير الجيوش واستولى على صور ابن ابي عقيل وعلى طرابلس قاضيها ابو

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٨ طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ .

طالب بن عمار ، وعلى الرملة والساحل ابن حمدان ولم يبق لأمير الجيوش غير عكا وصور ، ونزل هـــذه السنة امير الجيوش في العسكر المصري على صور محاصراً لعين الدولة بن ابي عقيل القاضي الغالب عليه ، فاستنجد هذا الامير ترلو مقدم الاتراك بالشام فأنجده بستة آلاف فارس، فرحل عنها امير الجيوش ثم عاودها وحاصرها من البر والبحر سنة بدون طائل [١] .

صور في سنة ٤٧١ هـ

وكان ثغر صور وطرابلس سنة ٤٧١ في أيدي قاضيها قد تغلبا عليها . ولا طاعة عندهمـــا لأمير الجيوش الفاطمي ويصانعان الاتراك بالهدايا والملاطفات [٢] .

الفاطميون يعودون الى صيدا وصور

لم ينقطع أمل الفاطميين من ملك الشام بعد أن قطعت خطبتهم من أهم مدنها مرات ثم عادت اليها ، بل بعثت سنة ٤٨٢ جيشاً قصد الساحل وفتح صور وكان تغلب عليهـــا القاضي عين الدولة بن عقيل وامتنع على الفاطميين ومات فوليها أولاده ودخلوا تحت راية تاج الدولة تتش ، فلما حصرهم عسكر المصريين سلموها اليهم ثم فتح الجيش الفاطمي صيدا وعكا وجبيل . وأصلحوا أحوال هذه البلاد وقرروا قواعدها وساروا عنها الى مصر عائدين واستعمل أمير الجيوش على البلاد الأمراء والعمال [٣] .

وفي سنة ٤٨٦ خرج من مصر عسكر كثير الى صور لما عصى واليها منير الدولة ، وكان اهل صور أنكروا عصيانه ، فحين اشتد القتـال نادوا بشعار المنتصر بالله العلوي ، فهجم العسكر المصري على البلد وأخذها ، وفرض على أهلها ستين ألف دينار [٣] .

---

(١) المصدر ص ٢٦٥ .

(٢) تاريخ صيدا ص ٥٥.

(٣) المصدر ص٢٦٩ من الخطط.

لما توغل الصليبيون في البلاد الشامية وكانوا في كل بلد يدخلونه يظلمون أهله ويخربون عمرانه ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره. هام الناس على وجوههم في البراري ومنهم من قصد داخلية الشام ومنهم من فر الى مصر على حالة رثة ، وفي سنة ٤٩٢ هـ ملك الفرنج ما حول بيت المقدس من صور وعكا والرملة ويافا [١] .

والي صور الفاطمي
يحتل ربض حصن تبنين سنة ٥٠٠ هـ

وفي سنة ٥٠٠ هـ زاد عبث الفرنج في أعمال السواد وحوران وجبل عوف (عجلون) فنهض صاحب دمشق بالمسكر وخيم في السواد وهجم عز الملك والي صور على ربض حصن تبنين في جبل عامل من عمل الفرنج وقتل من كان فيه [٢] .

بناء تل المعشوق في صور سنة ٥٠١ هـ

وأهم الأحداث في العقد الأول من القرن الخامس للهجرة إقامة صاحب القدس على تل المعشوق في صور سنة ٥٠١ هـ بناء ومصانعة واليها على سبعة آلاف دينار [٣] .

أما الدويهي فينقل عن ابن الحريري قوله ان بلدوين الملك حاصر صور وبنى قبالها حصناً فبذل له متوليها سبعة آلاف دينار فرحل عنها ونزل الى

---

(١) الخطط م ١ ص ٢٨٣ .

(٢) الخطط ج ١ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩١.

صيدا ، فكشف عنها عسكر دمشق [1] ، ويروي صاحب الخطط انه « في هذه السنة ٥٠١ نهض صاحب القدس الى صيدا براً وبحراً ونصب برج الخشب على صورها ووصل الاسطول المصري فظهر على المراكب الجنوية وعسكر البر واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقي لحماية صيدا فرحلوا عنها [2] . وفي سنة ٥٠٢ وصل الاسطول المصري بعد أخذ طرابلس ونهبها وسبي وأسر أهلها ، فأقام بالساحل مدة وفرقت الغلة في جهاتها وتمسك بــه أهل صور وصيدا وبيروت وشكوا ضعفهم عن مقاومة الافرنج [3] .

أخذ صيـــدا سنة ٥٠٣ هـ

وفي سنة ٥٠٣ نزل بغدوين على صيدا فسلمها أهلها واستمهلوه مدة عيّنوها فأجابهم وأخذ منهم أتاوة مقدارها ستة آلاف دينار بعد أن كانت ألفين [4] .

حوادث سنة ٥٠٤ هـ

وقال ابن الأثير : « في ربيع الآخر من سنة اربع وخمسمائة ملك الفرنج صيدا من ساحل الشام ، وسبب ذلك انه وصل في البحر إلى الشام ستون مركباً للفرنج مشحونة بالرجـــال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحج البيت المقدس وليغزو المسلمين ، فاجتمع بهم بغدوين ملك القدس وتقررت القاعـدة بينهم ان يقصدوا بلاد الاسلام ، فرحلوا من القدس ونزلوا مدينة صيدا ثالث ربيع الآخر من هذه السنة وضايقوها براً وبحراً ، وكان الاسطول المصري مقيماً على صور فلم يقـــدر على إنجاد صيدا ، فعمل الفرنج برجاً من الخشب

---

(١) تاريخ الأزمنة ص ١٨.

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٩٢

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٩٢

(٤) لاحظ ص ٢٩٢ ج ١ من خطط الشام . ولاحظ ص ١٧٣ من تاريخ صيـــدا الشيخ عارف الزين .

وأحكموه وجعلوا عليه ما يمنع النار عنه والحجارة وزحفوا به ، فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت ، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنج وطلبوا من ملكهم الأمان فأمنهم على أنفسهم واموالهم والعسكر الذي عندهم ومن أراد المقام به عندهم أمنوه ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم على ذلك . فخرج الموالي وجماعة كثيرة من أعيان أهل البلد في العشرين من جمادى الاولى الى دمشق ، وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان ، وكانت مدة الحصار سبعة واربعين يوماً ، ورحل بغدوين عنها الى القدس ثم عاد الى صيدا بعد مدة يسيرة فقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين الف دينار فأفقرهم واستغرق أموالهم [1] .

ويقول الدويهي « وفي سنة ٥٠٤ هـ وردت من بلاد الفرنج جملة مراكب قاصدين زيارة بيت المقدس ، فاستنجد بهم ملك بيت المقدس وزحف بالجيش على فتح صيدا وكان فيها أكثر عوام المسلمين فشدوا عليها الحصار من جهة البر والبحر وملكوها بالأمان في التاسع عشر من كانون الاول بعدما قرروا على أهلها عشرين الف درهم [2] ويذكر غوليلمو اسقف صور انه كان قائم باستخدام الملك بلدوين رجلاً كان يدعى بلدوين فهذا من اصله كان مسلماً ثم ان عمده بلدوين الملك وسماه باسمه ، وعندما كان الملك شد بالحصار على صيدا دفعوا له أهل صيدا مالاً جزيلاً اذا قتل (عرابه) فتآمر معهم وكان يطلب فرصة ليقتله ، ولكن حدث ان بعض النصارى من الذين كانوا بالمدينة اخذوا خبر تلك المخامرة وبعثوا أعلموا الملك بها بورقة ارموها الى عسكر الفرنج في النشاب فلما اطلع على الورقة الملك استدعى بلدوين وقرره فاستقر واقتضى الشرع على ان يميته مخوزقاً [3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨ – ٥٩ نقلاً عن ابن الأثير .

(٢) ولكن في الكامل يقدرهم بعشرين الف دينار ج ١٥ ص ٨١ .

(٣) تاريخ الازمنة ص ٢٠ وفي ص ٤٧٨ من تاريخ غليوم الصوري ان المراد بالخازوق هو الشنق ؟

ثم يروي صاحب الخطط انه في سنة ٥٠٤ وقع الخوف في قلوب اهل الشام من الفرنج فصالحهم صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وأهل صور على سبعة آلاف دينار وصاحب شيزر على أربعة آلاف دينار . ثم في سنة ٥٠٥ انجد صاحب دمشق أهل صور وكان أغار عليهم بغدوين وساروخيم ببانياس وبث سراياه ورجاله في أعمال الفرنج ونهض الى حصن الحبيس في السواد فملكه بالسيف وأغار على صيدا وأحرق عشرين مركباً من مراكب الفرنج ، وبعد ان عمل الفرنج كباشاً كبيرة لتعلق على السور رماها اهل صور بالنفط والزيت مرات واقاموا على محاصرة صور اربعة اشهر ونصف ثم قصدوا عكا وتفرقوا في اعمالهم » الخطط ج ١ ص ٢٩٧ » . ويقول البطرك اسطفان الدويهي « في سنة ٥٠٦ هـ نازل الفرنج مدينة صور وقدم عسكر دمشق لنجدتها فطال الحصار عليها نحو اربعة اشهر ونصبوا لها برجاً من خشب علوه سبعون ذراعاً فشحنوه وجروه على المجلات وعندما الصقوه بسور المدينة احرقوه اهل صور بالنفط وقاتل المسلمون على صور قتال الموت، فخافت الفرنج من طفتكين لا يحرق الغلات فأخذوا من اهل المدينة مالاً ورحلوا عنها » « تاريخ الأزمنة ص ٢٢ » ويروي صاحب الخطط « في سنة ٥٠٦ نزل اهل صور عن بلدهم لصاحب دمشق لما اعيتهم الحيل في الدفاع فتسلمها وأقام الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ولم يغير لهم رسماً مع ان سائر الشام كانت طاعتها يومئذ للعباسيين ودعوتها لهم وذلك حباً بدوام الصلات مع صاحب مصر حتى لا يقطع مدده عن الساحل » (الخطط ج ١ ص ٢٩٨) .

بناء قلعة اسكندرون سنة ٥١٠

ويقول الدويهي « بعدما عاد الملك بلدوين للقدس سنة ٥١٠ هـ قصد السواحل وشرع ببناء حصن بين صور وعكا في الموضع الذي كانت قلعة

اسكندر وهي بريد بالبعد من صور لأن ما كان تبقا بيد المسلمين في سواحل المتوسط إلا صور وحدها[١]

الصليبيون يساومون على جبل عامل

ثم في هذه السنة ٥٠٦ كاتب الصليبيون صاحب دمشق على ان يتركوا له حصن تبنين وجبل عامـــل ويعوضوا عن ذلك بحصن الحبيس حبيس جلدك الذي في السـواد - والسواد نواح قرب البلقـاء - ويتركوا التعرض لشيء من أعمال دمشق، ولا يعرض هو لشيء من اعمال الفرنج، فلم يجب صاحب دمشق الى ذلك [٢] .

طلب الهدنة مع والي صور سنة ٥٠٧ ﻫ

بعد انكسار الصليبيين في معركة الاقحوانـة ارسل ملك القدس الى والي صور سنة ٥٠٧ يريده على المهادنة والموادعة لتحسم اسباب الاذية عن الجانبين فأجابه الى ذلك وأمنت السابلة والتجار والسفار واستقرت الحـال بينهما على المهادنة لتعمر الاعمال بعد خرابها فأمنت المسالك وصلحت الاحوال بعد ان ذاق الفرنج بأس ملوك الشام والجزيرة على الاقحوانة [٣] .

تملك صور سنة ٥١٨ ﻫ

وفي سنة ٥١٦ وصل الاسطول المصري الى صور وحمـــل والي صور سيف الدين مسعود الى مصر وكانت عاقبة خروجه منها خروجها بالأمان من أيدي المسلمين الى الفرنج بعد سنتين . وفي سنة ٥١٨ ملك الفرنج مدينة صور

---

(١) تاريخ الازمنة ص ٢٦ رلا يبعد ان يكون هـــذا الحصن هو حصن اسكندرون على البحر بين صور وعكا . كما يبدو من رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٩٨ .

(٣) المصدر م ١ ص ٢٩٩

بالأمان بعد حصار طويل -- وكانت للخلفاء العلويين أصحاب مصر - بعد أن ثبتوا نحو خمس وعشرين سنة على قتال الفرنج مع قلة المنجد لهم من مصر وكانت صور من آخر ما ملكه الفرنج من بلاد الساحل [١] .

الاستيلاء على صور سنة ٥١٧ ه

ويقول الدويهي « في سنة ٥١٧ ه نزلت جيوش الفرنج مدينة صور فأحاطوا بها من كل جهة ونصبوا لها البراج من خشب ، وكانت مدينة صور مكفية من آلات الحصار ومن الميره وهي في قلب البحر لم تحكمها الارض إلا من خلا جهة الشرق وفيها عسكر ليحميها لأن كان مودع فيها متجر جميع سواحل كسرى ؟ فجدوا الفرنج عليها بضرب النفط والحجار والمنجنيقات ليلاً ونهاراً وهم يقاتلون عن نفوسهم وعن أولادهم وحريمهم وبعثوا بطلب النجدة إلى خليفة مصر وإلى ملك دمشق فلم يستفيدوا شيئاً لأن الفرنج من حين ولفوا عليها الحصار جعلوا أمير البندقية يكون حافظاً على طريق البحر لئلا يأتيهم الخليفة بالنجدة وأوقفوا صاحب طرابلس مع أناس من البنادقة لصيانة طريق البر فقدم طغتكين بالجيوش الشامية ولكن ما صار له يقطع النهر ، فذلت قلوب أهل مصر وصور من شدة الحصار ومن الجوع ومن عدم النجدة فملكوها الفرنج بالأمان واستباحوا جميع ما وجدوا بها [٢] .

صور من صداق العروس

ويقول الدويهي « وفي سنة ٥٢٢ » ملك القدس بلدوين زوج ابنته الكبيرة لفولقان امير الطورانيين وقدم لها صور وعكا في الصداق ! [٣]

---

(١) المصدر م ١ ص ٢٠٢

(٢) تاريخ الازمنة ص ٢٢ وغليون ص ٤٧ وابن الحريري ص ٦٣

(٣) تاريخ الأزمنة ص ٢٥

تجديد الأبراج والقلاع بعد الاحتلال

يقول الدكتور حتي « لكي يحتفظ الصليبيون بكيانهم على الساحل وبسيادتهم على البحر أقاموا التحصينات عند مداخل الموانىء البحرية في عكا وصور وصيدا وغيرها وشادوا أبراجاً عند آخر السور أو الحاجز الذي يمنع الأمواج، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانىء، وهكذا بنوا سلسلة من الابراج التي كانوا يستخدمونها للمراقبة على (طول) الشاطىء اللبناني لكي يؤمنوا الاتصال بينها، وكذلك بنى الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانىء من جهة البر، أما في طرابلس، وصور، وعسقلان، حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الأمد، فإن الصليبيين بدأوا ببناء قلاع كهذه في زمن مبكر [1].

تجديد قلعة البحر في صيدا

ثم يقول « أما قلعة صيدا فإنها جددت وبنيت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧ – ١٢٢٨ م، وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٥٨ يرداً لا يزال قسم منه قائماً الى يومنا هذا، ولما أخذ لويس التاسع بترميم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التي كان الرومان والفينيقيون (والفاطميون) قد استعملوها في بناء تحصينات المدينة، فإننا نجد مثلاً أعمدة من حجر الغرانيت حمراء ورمادية اللون من مصر، وفي الواقع ان اكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي أقامها الصليبيون لم تكن سوى ترميمات أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها من سبقهم من الدول المتعاقبة، وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها في عصر تالٍ، ذلك بأن مواقعها الاستراتيجية الممتازة تسترعي انتباه العسكريين [2].

---

(١) لاحظ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ من لبنان في التاريخ.

(٢) ص ٣٥٧ من نفس المصدر.

ويقول « لقد حرص الصليبيون على أن يسيطروا على المضايق الستراتيجية التي تربط الشاطىء الذي كان في حوزتهم بداخلية البلاد،ولذا فإنهم أقاموا الى جانب القلاع والحصون الساحلية سلسلة أخرى من القلاع على المرتفعات أو عند سفوح الجبال الغربية المشرفة على الساحل ، ولا شك بأن أروعها قلعة الشقيف التي يسميها الرحالة العرب شقيف عرنون (أرنون) أما اسمها عند الغربيين فهو قلعة (بلفور) .

تقوم هذه القلعة ، وكأنها عش نسر ، على شاهق يشرف على نهر الليطاني على ارتفاع ١٥٠٠ قدم من مجرى النهر ، وعلى ارتفاع ٢١٩٩ قدماً فوق سطح البحر ، وهي بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبي الذي يربط شاطىء صيدا وصور بالبقاع فدمشق ، تماماً كما تقوم قلعة حصن الاكراد على حراسة الممر الشمالي الذي يربط شاطىء طرابلس بسهول حمص وحماة ، و (فولك) ملك القدس (صهر بولدوين الثاني وخليفته) [١] هو الذي بنى قلعة الشقيف عام ١١٣٥ م على موقع استراتيجي كان الرومان قد أقاموا عليه من قبل حصناً ، وتبلغ واجهة القلعة ١٣٠ يرداً طويلاً و ٣٣ يرداً عرضاً ، وترتفع جدرانها الى علو يتراوح بين ٥٨ الى ٧٨ قدماً من الخندق المحيط بها من جهتي الجنوب والغرب ، وهذا الخندق محفور في الصخر وعمقه يتراوح بين ٤٨ الى ١١٥ قدماً ، وفي قلب الخندق حفرت غرف آبار لحفظ الماء ، وكانت هذه القلعة تعد حصناً لا يقهر [٢] ، وبالرغم من مرّ القرون فإن هذه القلعة ، مثل أختيها في الشمال ، حصن الاكراد ، والمرقب ، لا تزال قائمة على هضبتها تشرف على ما حولها من أودية وتلال بإباءٍ وشمم [٢] .

---

(١) لاحظ هامش ص ٣٥٨ من لبنان فى التاريخ .

(٢) لاحظ هامش ص ٣٦٠ من نفس المصدر حيث يشير المؤلف للمصادر الاجنبية المتعددة التي اعتمد عليها في بحثه .

تقع الى جنوب قلعة الشقيف، وإلى شرقي صور (قلعة تبنين) وقد بناها حاكم طبرية حوالي سنة ١١٠٤ ميلادية بقصد عزل مدينة صور [1] وسماها (التلة المنعزلة) .

صور في عهد الصليبيين سنة ٥٨٠ ﻫ

مدينة يضرب بهـا المثل في الحصانة ، لا تلقي لطالبها بيد طاعـة ولا استكانة وحصانتها ومناعتها أعجب ما يتحدث به ، وذلك انها راجعـة إلى بابين ، أحدهما في البر والآخر في البحر ، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضى اليـه بعد ولوج ثلاثة أبواب او أربعـة ، كلها في ستائر (حيطان) مشيدة بالباب ، وأما الذي فيالبحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بهـا سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلةعظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتهـا ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع . ولعكة مثلهـا في الوضع والصفة ولكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل » .

(رحلة ابن جبير ص ٢٧٨ الطبعة سنة ١٩٦٤)

---

(١) لاحظ هامش ص ٣٦٠ من المصدر حيث يسجل المؤلف ملاحظاتـه وشروحه ومصادر بحثه .

« من تحيز مؤلف الخطط »

- ٢ -

من الغريب ان يقول المؤلف عن كوارث الحروب الصليبية « والويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجين والمدافعين فان مزرعته وداره الى بوار » وان يقول بعد ذلك بقليل « وكان آل تنوخ وآل معن حجازا في أعالي سواحل لبنان بين املاك الصليبيين واملاك صاحب دمشق ولهم الأثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق والمتولون للساحل ولكن خدمتهم للمسلمين اكثر بالطبع وهواهم مع ابناء دينهم وعلى نحو ذلك كان الدروز وقد قاتلوا في صفوف المسلمين فأظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقر به العيون ، ومن الغريب ان شيعة جبل عامل كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين إلا قليلا وكأنهم اضطروا الى ذلك اضطراراً لأن بلادهم في قبضة الصليبيين كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين ومن الموارنة ادلاء لهؤلاء وعمال وتراجمة لهم » « الخطط ج ٢ ص ١٤ » اجل من الغريب ان يقول المؤلف ما قاله اولاً ثم يتهم بعد ذلك موقف شيعة جبل عامل من الصليبيين مع راسخ علمه بأن بلادهم كانت في قبضة الصليبيين وانها بعد ما جاهدت وناضلت مع صيدا وصور سنين طويلة لم تذعن وتستسلم للصليبيين إلا يأساً من نجدة المسلمين في مصر والشام والعراق ، وإلا فشيعة جبل عاملة ما كانوا إلا كشيعة صيدا وصور وطرابلس في مقاومة الغزو الصليبي ، فهل رأى

سيادته ان صيدا وصور وطرابلس الشيعية يومئذ قد تهاونت او قصرت في مواقفها النضالية الحازمة ام كانت آخر ما احتله الصليبيون من المدن والسواحل الشامية ليقصر العامليون ويتهاونوا بواجبهم ؟ ولكن ما حيلة العامليين في مقاومة الصليبيين وقد اصبحت جميع الحصون والقلاع التي تشرف على اراضيهم وتتخلل قراهم مكتظة ومطوقة بالجيوش الصليبية .. ليقال عنهم ما يقوله (كانوا من حزب الصليبيين) .

ولنسأل كل مراقب هل كان بوسع الدمشقيين ان يتمردوا يومئذ على الصليبيين لو ان دمشق أصبحت كجبل عامل . مطوقة بالحصون والقلاع التي يشرف جيش الصليبيين منها على كل بقعة من بقاعها ؟ وليت مؤرخنا الفاضل قبل ان يتهم شيعة جبل عامل وهم بين القلاع والحصون الصليبية المطلة من بانياس ، وهونين ، وشقيف ارنون ، وشيف تيرون ، وقلعة صيدا وحصن صور وشمع وقلعة تبنين وقلعة مارون وقلعة ميس ، ليته تمهل وراجع اقواله للتقدمة في الجزء الاول من خططه [1] عن جهاد الشيعة في صور وصيدا وطرابلس كيلا يتهم بتناقض الاحكام واضطراب الاقوال بين ساعة وساعة .

بل ليته راجع ما يقوله الحريري او الدويهي في تاريخه « وفي سنة ٦١٣ هـ اقبل الفرنج بفارسهم وراجلهم من البحار وخرجوا الى عين جالوت ليأخذوا القدس، فخاف الملك العادل وعجز وتأخر وتهيأ اهل دمشق للحصار وتحصنوا واختبط الناس ، وبعث الملك العادل يستحث عساكر البلد وتأخر الى مرج الصفر وضج الخلق الى الله ، ثم تأخر الفرنج الى ناحية عكا بعد ان حاصروا الطور أياماً ثم أمر العادل بتخريب الطور ؛ وسارت خمساية من الفرنج ليأخذوا جزين وما حولها من القرى – وهي يومئذ من اكبر المراكز العلمية والسياسية لشيعة جبل عامل هدف الحملة – ونزلوا الى مرج العواميد وهو وادي تحت جزين فأخلاها اهلها ؛ ثم تجمعت المسلمين من تلك البلد

(١) الخطط ج ١ ص ٣٠٣ و ٢٩٣ و ٢٩٢ و ٢٠٨ و ٢٨٦ .

فكبسوا الفرنج وقتلوا اكثرهم وأسروا مقدمهم وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم ، فلما بلغ ذلك صاحب عكا غضب وشن الغارات على جزين وماحولها، فسار اليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق فتأخر الفرنج الى عكا [1] .

او ليته راجع ما يقوله ابن جبير في رحلته من « ان راحتنا مدة اقامتنا في صور كانت بمسجد بقي بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد اخر ، فأعلمنا به احد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكه قبلها باثني عشرة سنة بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المسغبة (الجوع) عليهم ، ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، وانهم حملتهم الأنفة على ان هموا بركوب خطة عصمهم الله منها ، وذلك انهم عزموا على ان يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ويحملون السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه ، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم بشروط اشترطوها » .

(رحلة ابن جبير ص ٢٧٩ طبع بيروت سنة ١٩٦٤)

أخذ قلعة الشقيف سنة ٥٢٨ هـ

يقول الدويهي « وفي سنة ٥٢٨ هـ سار اسماعيل ملك دمشق الى حصن الشقيف الذي كان تغلب عليه سابقاً وامتنع عنه فأخذه من الضحاك ابن جندل رئيس وادي التيم » .

(تاريخ الازمنة ص ٤١ والكامل ج ١١ ص ٤)

---

(١) لاحظ ص ١٠٤ من تاريخ الازمنة للبطرك اسطفان الدويهي .

وفي سنة ٥٥٣ هـ أغار الفرنج على بانياس فانتصر المسلمون ومحقت السيوف عامة رجـــال الفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين اليهم ؟ وافتتح نور الدين بانياس قهراً وظهر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيـان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم إلا اليسير [1] .

وفي هذه السنة ٥٥٣ هـ أغار عسكر نور الدين على أعمال صيدا وما قرب منها فغنموا أحسن غنيمة وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقـــد كمنوا لهم فغنموهم وقتل اكثرهم وأسر الباقون وتجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهزم هذه المرة نور الدين لتفرق عسكره في البلاد [2].

تخريب قلعة هونين

وفي سنة ٥٦٢ هـ اجتمع نور الدين بأخويه قطب الدين ونور الدين للغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فخربوا (هونين) .

(الخطط ص ٣٩ ج ٢)

وقعة مرجعيون سنة ٥٧٥ هـ

وفي سنة ٥٧٥ كانت الوقعـــة بمرجعيون بين صلاح الدين والفرنج فانهزم الفرنج وأخذوا منهم مايتين وسبعين أسيراً واعتقلوهم بقلعة دمشق فوصل اليهم صلاح الدين على غفلة وهم نازلين على شاطىء النهر ليستريحوا من شقاء الطريق وكان بجملة الأسرى اودون مقدم الديوانية مات بالسجن ، وأوجين صاحب طبريـة ، وصاحب جبيل ، وابن صاحب مراقيه وبلدوين من رام فبذل عن نفسه ألف أسير ، وجملة دراهم ونجا .

(تاريخ الازمنة ص ٨٠)

---

(١) الخطط ص ٣٢ ج ٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣ .

ويقول ابن جبير « واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر وأكثر شجره الرند بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف (بالاسطبل) لو ولجته العساكر لغابت فيه لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف (بتبنين) وهو تمكيس القوافل وصاحبته .. تعرف بالملكة وهي أم الملك ... صاحب عكة دمرها الله ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض للتجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك ... وهو محل التمشير والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً .

واكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك على ما يقول الافرنج : « ان المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم .

ورحلنا من تبنين دمرها الله ؟ سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضاً ، ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم ، وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل رساتيقهم كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوب

أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله » .

(رحلة ابن جبير ص ٢٧٤–٢٧٥ طبع دار بيروت سنة ١٩٦٤)

« صلاح الدين يفتتح تبنين سنة ٥٨٣ هـ »

وفي أسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر « انه بعد ان انتصر السلطان صلاح الدين في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ سيّر ابن اخيه تقي الدين إلى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين فأرسل يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه ، فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليها حادي عشرة ، فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل وبقي الفزع كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم ، وبقيت في يده الى أن توفي سنة ٥٨٩ هـ فأصبحت في يد ولده الأفضل الى سنة ٥٩٤ وهي السنة التي ملك فيها عليه مدينة دمشق وأعمالها عمه العادل أبو بكر أيوب » .

(مجلة العرفان ص ٤٣٧ م ٨)

كيف أخذت صيدا ؟

وأما صيدا فإن صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها إلى صيدا فاجتاز بطريقه الى صرفند ، فأخذها صفواً عفواً بغير قتال وسار عنها الى صيدا ، وهي من مدن الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوها سار عنها

وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الاولى [1] .

وبعد تسلم صيدا ثم بيروت بالأمان لدى حصارهـا ، حضر المركيس (حاكم الفرنج) في سفينة الى عكا وهي للمسلمين ، وأقلع منهـا الى صور ، فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صور .

ويذكر المؤرخون ان اطلاق أمراء الفرنج من الأسر وحملهـم الى صور كان من أعظم أسباب الضرر ، وقوة الفرنج ، ورواح عكا [2] .

صلاح الدين يحاصر الفرنج في صور سنة ٥٨٤ هـ

وفي سنة ٥٨٤ هـ رحل السلطان صلاح الدين الى عكا ومنها الى صور وقد حصّنت بالرجال وحفر خندقها من البر الى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشرة شوان فاتفق ان الفرنج كبسوهم في الشواني وأخذوا خمسة شواني ، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا وأخذ الباقين وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في الشتاء وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور فسار كل واحد الى بلده وبقي السلطان ، وأرسل إلى هونين ففتحها بالأمان كما فتح قلعة أبي الحسن (قلعةميس) من عمل صيدا ، وشقيف أرنون ، وصفد وكوكب وهما حصنان عظيمان للداوية والاسبتارية ، فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم من البلاد والثغور سوى صور واستصفيت كلها جملة [3] .

صلاح الدين يحاصر قلعة الشقيف سنة ٥٨٥ هـ

وسنة ٥٨٥ هـ جدد عزمه على قصد شقيف ارنون وهو موضع حصين

---

(١) لاحظ ص ٥٩ من تاريخ صيدا لصاحب العرفان .

(٢) لاحظ ص ٥٩ ج ٢ من خطط الشام .

(٣) الخطط ج ٢ ص٦٢

قريب من بانياس وكان تبريزه في الثالث من ربيع الاول ، فسار حتى نزل مرج برغوث وأقام بـه ينتظر العساكر الى حادي عشرة ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر فخيم بـه وهو قريب من شقيف ارنون بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، فأقمنا أياماً نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدة وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعين طريقاً الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل ، فاحترمه وأكرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلائها ، وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على كل شيء من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده ثان فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت طاعته وانه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يمكّن من الإقامة بموضعه وهو يتردد من الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ، فأجيب الى ذلك كله وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل وقت ويناظره في دينه ويناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة ومتأدباً في كلامه ؛ وفي أثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان .

وقال في مكان آخر من سيرته [1] : ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا أنه صادق في ذلك وإنما قصد فيه تدفع الزمان وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة وإتقان الأبواب وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان

---

(١) ص ٦٩ و ٧٠ .

ويرسل سراً من يمنع من دخول النجدة والميرة اليه وأظهر أن سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج ، وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر (جمادى الآخرة)وقد مضى من الليل ربعه فما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة وبقي بعض العساكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم انه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة حدثته نفسه أن ينزل الى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته ان ذلك يتم. فنزل الى الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها إلا اليسير وأي فرق بين التسليم اليوم أو غداً وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور وانهم على الخروج منها في هذه الأيام وأقام في الخدمة ذلك اليوم الى الليل وسعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئاً وأجراه على عادته وتقضي مدته عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها ، وطلب الخلوة بالسلطان وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحس السلطان منه الغدر فماطله وما آيسه وقال نتفكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه نعرفك ، وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرساً لا يشعر به وهو على غاية من الاكرام والاحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم في ذلك القلب مستمرة حتى انقضت الايام وطولب بتسليم المكان ، فكشف له انك أضمرت الغدر وجددت في المكان عمائر وحملت اليه ذخائر فأنكر ذلك واستقرت القاعدة من ان ينفذ من عنده ثقة بتسليم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فمضوا اليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه اليهم ووجدوه قد جدد باباً للسور لم يكن فأقيم الحرس الشديد عليه واظهر ذلك ومنع الدخول الى الخدمة وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم ، وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه .

ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة وفيه اعترف بانتهاء المدة قال : أنا أمضي وأسلم المكان وسار معه جمع كثير من الامراء والأجناد حتى أتى الشقيف

وأمرهم بالتسليم فأبوا ، فخرج اليه قسيس وحدثه بلسانه ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن أنه أكد الوصية على القسيس في الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم يلتفتوا وأعيد الى المخيم المنصور وسير من ليلته الى بانياس وأحيط عليه بقلعتها فأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين وأقام صاحب الشقيف ببانياس الى سادس رجب واشتد حنق السلطان على صاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئاً فأحضر الى المخيم [1] وهدد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن رجب ورقى الى سنام الجبل بخيمه وهو موقع مشرف على الشقيف من المكان الذي كان فيه أولى وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاجه . أما ارناط صاحب الشقيف فقد سير الى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه وقال في خبر تسليم الشقيف . ولما كان يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول علم الافرنج المستحفظون في الشقيف انهم لا عاصم لهم من أمر الله وأنهم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الأمان وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الامان وكانوا قد علموا من حال صاحبهم انه قد عذب أشد العذاب فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك ما فيه من أنواع الاموال والذخائر ، وعاد صاحب صيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور [2] .

تجمع الافرنج في صور واستغاثتهم سنة ٥٨٥ ﻫ

ولما سقطت القدس واستولى السلطان على جميع البلاد التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم إلا يافا ، وصور وطرابلس تجمع (النازحين من) البلاد

---

(١) قال العماد الاصفهاني في الفتح القسي ثم استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويفه على أن يبلغ المراد في شقيفه ، فلما لم يفد خطابه ولم يجد عذابه سيره الى دمشق وسجنه وألزمه شجاه وشجنه ،

(٢) سيرة صلاح الدين ص ٦٥ : ثم ص ٤٥ - ٩ ؛ من كتاب قلعة الشقيف للشيخ سليمان ظاهر .

التي أخذها السلطان صلاح الدين في ثغر صور فكثر جمعهم وأرسلوا الى الغرب يستصرخون ، وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضربه وقد أدماه ، وقالوا هذا نبي العرب يضرب المسيح ؟! فخرجت النساء من بيوتهن ، ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا الى عكا من صور ونازلوها وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين ألوف أيضاً وعاد السلطان في السنة التالية سنة ٥٨٦ ﻫ الى قتال الفرنجة على عكا ..

(الخطط ص ٦٥ ج ٢)

الحر بين صور وتبنين سنة ٥٩٣ ﻫ

وفي سنة ٥٩٣ﻫ للهجرة وصل جمع عظيم من الفرنج الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت فسار العادل ونزل بتل العجول ، وأتته النجدة من مصر ، ووصل سنكر الكبير صاحب القدس ، وسيمون القصري صاحب نابلس ، ثم سار الملك العادل الى يافـا وهاجمها وملكها بالسيف وقتل الرجال المقاتلة وخربها ، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها ، وخرب صيدا ايضاً ، ونازلت الفرنج (تبنين) فأرسل العادل الى الملك العزيز (عثمان) صاحب مصر ، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمه العادل على (تبنين) فرحل الفرنج الى صور ، ثم عاد الملك العزيز (بن صلاح الدين) وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل اليه أمر الحرب والصلح ، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع العادل الى دمشق [1] . وأما الدويهي ، فيجعل مدة هذه الهدنة خمس سنين اعتماداً على رواية ابن الحريري ، وابن الأثير [2] .

---

(١) الخطط ص ٨١ ج ٢ .

(٢) تاريخ الأزمة ص ٩٦ .

ولما عاد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من تبنين الى مصر مدحه ابن سناء الملك بقصيدة منها :

قدمت بالسعد وبالمغنم	كذا قدوم الملك المقدم
قميصك الموروث عن يوسف	ما جاء إلا صادقاً في الدم
أغنت تبنين وخاصتها	فريسة من ماضغي ضيغم
شنشنة تعرف من يوسف	في النصر لا تعرف من أخزم
مقدمه صار جمادى به	كمثل ذي الحجة ذا موسم (١)

وعندما حصر الافرنج حصن تبنين وسألوا الملك العادل تسليمه بالأمان قال بعض أهل الحصن لصاحبه هاجياً أسامة بن منقذ وكان والياً على بيروت فتركها حين بلغه استيلاء الفرنج على صيداء :

سلم الحصن ما عليك ملامه	لا يلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب	سنة سنها ببيروت سامه (٢)

استيلاء الفرنج على صيدا سنة ٦٢٤ هـ

وفي الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٤ هـ و ١٢٢٩ م. استولى الانبروز فريدريك وصاحب صقلية وبوليه وانكبرديه على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا عليها وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة (تبنين وهونين) وغيرها (٣) .

الحرب على ابواب صور سنة ٦٢٥ هـ

وفي سنة ٦٢٥ هـ وقعت وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة انفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لتحرك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة (٤) .

---

(١) العرفان ص ٤٣٧ ، م ٨

(٢) اسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٣٨ ؛ من العرفان م ٨.

(٣) الخطط ج ٢ ص ٩٣

(٤) الخطط ص٩٣

يقول الدويهي نقلاً عن ابن الحريري وفي سنة ٦٣٠ هـ توفي الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل سيف الدين وهو شقيق المعظم عيسى وهو الذي بنى قلعة الصبيبة في بانياس وقلعة تبنين واليه تنسب المدرسة العزيزيــة بدمشق بجوار الكلاسة [١] .

خيانة الملك الصالح بتسليم قلعة الشقيف سنة ٦٣٨ هـ

يقول صاحب الخطط: وكان قد قوي خوف الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيـه الصالح ايوب صاحب مصر فسلم الملك الصالح اسماعيل صفد والشقيف الى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن اخيه صاحب مصر مما لم يعهد له مثيل في تاريخ بني ايوب حتى الآن اللهم مــا كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر لملك الفرنج سنة ٦٢٤ هـ ووعده له باعطائه القدس [٢] ويقول الدويهي وفي سنة ٦٤٣ هـ وهب الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق قلعة الشقيف للفرنج ليوازروه فأنكر عليه ابن عبـد السلام خطيب دمشق وأبو عمر الحاجب المالكي فعزلها وحبسهما بالقلعة [٣] .

معركة الخيام سنة ٦٤٢ هـ

وفي هذه السنة اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامـل وقصدوا وادي التيم فجمع الأمير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض للتقام واستنجد بالأمير عبد الله بن الامير سيف الدين المعني فجمع أهــالي الشوف وسار بهم الى نجدة الأمير عامر والتقى الجمعان في مرج الخيـــام وصدمتهم

(١) تاريخ الازمنة ص ١١٣ وابن الحريري ص ١١٢.
(٢) الخطط ج ٢ ص ١٠٣ .
(٣) تاريخ الازمنة ص ١١٩ .

الفرنج ودام القتال ثلاثة أيام وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا أعلامهم وولوا مدبرين [1]

هولاكو يحتل صيدا سنة ٦٥٨ هـ

وفي سنة ٦٥٨ هـ استولى التتار على صيدا من بلاد الفرنج ونهبوها وأسروا منها ثلاثمائة اسير وعاث التتار في بلاد حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل والخليل والصلت وما اليها وجاؤوا بالأسرى الى دمشق فمنهم من افتدى نفسه ومنهم من هرب [2] .

قلعة الشقيف سنة ٦٥٩ هـ

وفي سنة ٦٥٩ هـ اشترى الفرسان الهيكليون قلعة شقيف ارنون مع صيدا من صاحبها جوليان [3] .

قلعة الشقيف سنة ٦٦٧ هـ

وفي سنة ٦٦٧ هـ أتاها الظاهر بيبرس البندقداري في شهر نيسان وحاصرها حصاراً شديداً — وكان قد خرج بعض العساكر منها في اليوم السابق — فلم يستطع الذين بقوا فيها الدفاع عنها مدة طويلة وبعد أن قاتلوا بضعة أيام ببسالة اضطرهم الأمر الى الاستسلام فاستسلموا من دون شرط فأسر (بيبرس) الرجال وأما النساء والاطفال فأرسلهم الى صور [4] .

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٠٦ وفي هذه الرواية مجال للشك بأنها بريئة من المبالغة والوضع وخصوصاً حين نعلم بمصدرها الاول ومدى قيمته التاريخية .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٤ .

(٣) قلعة الشقيف للعلامة ظاهر ص ٣٨ .

(٤) دائرة المعارف ج ٣ ص ٢٥٥ .

ثم أن الملك الظاهر بيبرس هو أول من جعل في قلعة شقيف ارنون دار نيابة كدمشق ويظهر ذلك مما جاء في نسخة عقد الهدنة بينه وبين ملكة بيروت (ماركريتا) أرملة يوحنا دومنتفرات ، في السنة التي استولى فيها على القلعة وهي سنة ٦٦٧ هـ أو من قولهم « والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها » [١] .

من هذا القول يظهر انها جعلت قاعدة لملكة تسمت باسمها وكذلك يظهر من نسخة الهدنة التي عقدت بين السلطان الملك المنصور « قلاوون » الصالحي صاحب الديار المصرية والبـلاد الشامية وولده الصالح علي ولي عهده ، وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في شهور سنة ٦٨٢ هـ يظهر من قولهم « والشقيف المحروس المعروف بشقيف ارنون ومـا معه من البلاد والاعمال وما هو منسوب اليه[٢] » يظهر منه انهـــا قاعدة أعمال مستقلة ولم تكن في ذينك العهدين الظاهري والصالحي لا من اعمال صيدا ولا من أعمال صفد [٣] .

بنو تغلب حكام مشغرا سنة ٦٨٧ هـ

قال بعض المؤرخين كان بنو تغلب من مشغرا قد هيجوا الاهوية في البقاع وأثاروا الفتن فمسكهم لاجين نائب الشام وسجنهم بالقلعة وقرر عليهم مئة ألف درهم تأديباً ، ثم لمـــا حضر الملك المنصور لفتح طرابلس اتصل بنو تغلب بعلم الدين سنجرا الشجاعي شاد الصحبة ونقلوا له عن الجبلية بصيدا وبيروت

---

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤٠

(٢) صبح الاعشى ج ١٤ ص ٥٢

(٣) تاريخ قلعة الشقيف للعلامة الشيخ سليمان ص ٣٩

أن بأيديهم أملاكاً وإقطاعات بغير استحقاق فأخرجها جميعاً (أن انتزعها منهم) خلا بن المعين [1] .

ويروي المؤلف ص ١٢٤ من تاريخه ويقول« كان السلف (سلف المؤلف) قديماً واضعين أيديهم على اقطاعاتهم وكتب لهم بها مناشير (مستندات ومراسيم) من الملوك كما ذكرنا فما زالوا على ذلك الى سنة تسع وثمانين وست مائة في أيام المنصور قلاوون حيث فضل بنو تغلب من مشغرا على الجبلية بصيدا وبيروت فأخرجوا ما بأيديهم من الاملاك والاقطاعات (وأعطوها) لحلقة طرابلس عند فتحها .

تخريب صيدا سنة ٦٨٩ هـ

ولما فتح السلطان الأشرف خليل عكا رعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان وجزيرتها وقلعتها الجنوبية والشمالية واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً ، واستولى على صور وكان أهلها مثل سائر الساحل [2] .

من حوادث ٧٠٥ هـ

انه في العشر الأخر من جمادى الأول جاز على بيروت تمميره (اسطول) للفرنج ولم يتعرضوا لها وتوجهوا الى صيدا وأخذوها وقتلوا من أهلها جماعة وأسروا جماعة ونهبوا منها شيئاً كثيراً ، وكذلك المسلمون فانهم قتلوا من الفرنج وبعثوا برؤوسهم الى دمشق فعلقوها على القلعة وكانت بضعاً وثلاثين رأساً ، وحضر الى صيدا الأمير شهاب الدين ابن صبح نائب صفد وسبق العسكر الشامي ولحق التعميرة على جزيرة صيدا بعد فوات الأمر فاشترى

---

(١) لاحظ صـ ١٠٨ من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى التنوخي .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

الأسرى جميعهم كل نفر بخمسمائة درهم وأخـــذ من ديوان الأسرى ثلاثين الف درهم [1] .

القراصنة يغزون صيدا

ويقول ابن سـباط « في سنة ٧٥٦ هـ قدمت مراكب فرنج الى صيدا وقتلوا طائفة من أهلها وأسروا جماعة وقتل منهم ايضاً خلق كثير وكسر مركب من مراكبهم ووصل الصوت الى دمشق فاجتمعت العساكر من صفد ومن دمشق وبادروا في افكاك الأسرى فأخـــذوا من ديوان الأسرى مبلغ ثلاثين الف وأعطوا للفرنج على كل رأس خمسماية درهم [2] .

الفرنج يحرقون سوق صيدا

وفي سنة ٧٨٥ هـ دخل الفرنج صيدا فنهبوها وأخذوا ما وجدوا من زيت وصابون وأحرقوا السوق [3] .

من حوادث ٨٠٦ هـ

وفي سنة ست وثمانمائة في العشرين من محرم حضرت تعميرة لبيروت وفي تلك الليلة توجهوا الى صيدا وتوجهنا قبالتهم في البر فلما قربوا من صيدا على مسافة دون ميل من البلد نزلوا الى البر وكان قد اجتمع على صيدا العشران (قبائل الفلاحين) وغيرهم ولم تجسر الفرنج على الدخول الى البلد وكان ملك الامراء شيخ الخاصكي الملقب في سلطته بالملك المؤيد قد خرج من دمشق يدور في البقاع وبعلبك فبلغه نزول الفرنج على طرابلس فتوجه اليها فلم يلحق الفرنج

---

(١) صالح بن يحيي ص ٥١ ، وشهاب الدين بن صبح كان نائباً على صفد في ايام الملك النـــاصر حسن بن محمد بن قلاوون ذكره ابن اياس في تاريخه ج ١ ص ٢١٩ ودعاه ابن صبيح .

(٢) تاريخ الازمنة ص ١٨٣ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٥٨ .

فحضر الى بيروت بعد فوات الأمر فلم يلبث ببيروت ووصل الى صيدا بجماعة قلائل والناس يلحقونه تباعاً فأدرك الفرنج في البر بظاهر صيدا وهجم عليهم ونحن معه حتى كاد يختلط بهم ورموا علينا بالجروخ (دولاب وآلة يرمي بهـا العدو بالحجارة والأسهم النارية والنفط) ، وانجرح فرس الخاصكي في موضعين وجرح بعض جماعـــة من المسلمين فرجعوا عنهم ثم طلع الفرنج الى مراكبهم وتأخرت عن الشط الى الجزيرة بميناء صيدا ، وبات مـلك الامراء والمسلمون قبالتهم ورسم ملك الامراء على امراء الغرب (من لبنان) ان يكونوا حراساً على شاطىء البحر بالقرب منـــه فأصبح المسلمون والفرنج على الجزيرة وملك الامراء يظن أنهم ينزلون ثانياً وتهيأ لحربهم وأحضر ابواباً كثيرة تكون عوضاً عن الزحافات والستائر للزحف عليهم عند نزولهم فلم ينزلوا ، ثم بعـد ذلك اليوم توجهوا راجعين الى جهة بيروت قاصدين نهر الكلب [1] .

(١) صالح بن يحي ص ٥٦ - ٥٧ .

بنو بشارة العامليين أو الحلقة المفقودة في تاريخنا

١٢

لا أدري ما الذي فرض على مؤرخي جبل عامل أن يقفوا بما سجلوه من تاريخ بلادهم عند الأسر الإقطاعية التي نجمت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة ؟ أهو الحاجة إلى الاطلاع والاستقصاء أم الحاجة إلى المصادر والوثائق أم الحاجة إلى الحرية والشجاعة ؟ فإنك - مهما بحثت واستقصيت - لا تجد في المصادر العاملية المعروفة خبراً او حديثاً قد تجاوزوا به الزمن الذي لمع به آل منكر وآل الصغير وآل صعب او تجاوز الحوادث التي وقعت سنة ١٠٢٢ هـ او سنة ١٠٤٨ مع ان غيرهم من الباحثين والمؤرخين يعددون من الحوادث العاملية الهامة ما يتعدى تاريخ ذلك الزمن وحوادث تلك الأسر ، وينبؤوننا عن قادة عامليين كانوا طيلة القرن الثامن والتاسع للهجرة أهم الزعماء اللبنانيين واكثرهم نجدة وأشدهم بأساً وإقداماً ، كما يتضح من النصوص التالية .

قال بولياك صاحب كتاب الاقطاع في مصر وسورية ولبنان ص ٤٥ و٤٦ من كتابه « أما أبرز الزعماء اللبنانيين في فجر المماليك فهم بنو صبح أو صبيح ، وبنو بشارة زعماء العشير في القرن الرابع عشر ، ولا يزال اسمهم يطلق إلى اليوم على الارض الواقعة في جنوب الجمهورية اللبنانية المعروفة ببلاد بشارة ، وأكثر سكانها من الشيعة » .

ويستند المؤلف في هذا القول إلى المصادر التالية :

اولاً : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي م ٦ ص ١١٤ — ٧٨٧

ثانياً : حوادث الدهور للمؤلف نفسه ص ٥٦

ثالثاً : بدائع الزهور لابن أياس م ٢ ص ٢٣٨ طبع اسطنبول .

رابعاً : الضوء اللامع للسخاوي م٣ ص ١٣٨ طبع القاهرة سنة ١٣٥٥هـ.

خامساً : ابن طولون ، رسائل تاريخية م٤ ص ٦٠ دمشق سنة ١٣٤٨ هـ.

ثم يقول بولياك ص ٤٦ من كتابه « وقد يكون بنو بشارة وبنو صبيح من الشيعة » مستنداً في ذلك إلى صبح الأعشى م ٤ ض ١٥٣ ، ومن يراجع كتاب أمل الآمل في علماء جبل عامل — طبع إيران — يرى فيهم من ينتمي إلى بني صبيح هؤلاء ، وكذلك من يطالع العرفان م٢٧ ص ٦٢٧ يجد الركيني يقول في مذكراته ما نصه « وفي هذه السنة (١١٧٦ هـ) توفي الأمير أحمد ابن صبيح » ، ويبدو من الحوادث التي تنسب إلى بني صبيح في تاريخ صالح ابن يحيى ، وتاريخ الأمير حيدر الشهابي أن مركز إمارتهم كان في مشغرة وبقاع العزيز .

أما بنو بشارة فلم يبق من سلالتهم في بلادنا ولا من تاريخهم في أخبارنا وآثارنا العاملية ما يقوى به الاستدلال على خصائصهم المذهبية ، ولعل فيما يذكر من أسماء بعض قادتهم وزعمائهم كحسن وحسين ومحمد ما يشعرنا بانطباعاتهم الشيعية ، ومن يلاحظ حال العامليين وازدهار علومهم وآدابهم ومدارسهم الشيعية — كجزين وميس — في هذين القرنين اللذين ساد فيهما بنو بشارة . ثم يلاحظ حال العامليين وتقلص هذه المدارس بعد ذلك وتشرد علمائهم وأدبائهم وتسللهم خفية إلى العراق والحجاز وإيران .. يقوى شعوره بأن بني بشارة كانوا من صميم الشيعة . إذ لا يعقل أن ينقاد العامليون — في عنفوان هذا التعصب المذهبي — لآل بشارة طيلة قرنين وهم على خلاف مذهبهم ؟

ومما يرسّخ هذا الشعور ما نلاحظه من اتصال علامة جبل عامل الشيخ ابراهيم الكفعمي ببعض امرائهم كما يستفاد من الرواية التي يرويها صاحب اعيان الشيعة إذ يقول في ترجمة العلامة الكفعمي :

« وقد كتب بعض الأعيان هذين البيتين :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
فاصطد بها العنقاء فهي حبالة واقتد بها الجوزاء فهي عنان

ثم بعث بها مع قينة تسمّى سعادة الى الأمير نجم الدين بن بشارة .. فأجاب عليها الشيخ ابراهيم الكفعمي العاملي - على لسان الامير نجم الدين بشارة - بهذين البيتين :

وافى كتابك بالسعادة مخبراً ففضته فإذا السماع عيان
لا زلت مشتملا بضافي بردها ما سار في أعلى العلى كيوان[1]

فأجابة هذا العالم الشيعي الكبير بلسان الامير تدل على مدى الصلة القوية بينهما . فليس من الطبيعي في مثل ذلك العصر أن تقوى الصلة بين عالم ديني كبير وحاكم إقطاعي مستبد ولا يكون لوحدة المذهب الديني أثرها في تصفية الجو .

على أن من يلم بأخبار المجلد الثاني من خطط الشام وبما يروي من الحوادث التي لابسها بنو بشارة في جبل عامل طيلة القرنين الثامن والتاسع للهجرة يعتقد بأن بني بشارة هؤلاء لم يكونوا زعماء هذه البلاد في القرن الرابع عشر للميلاد فحسب ، كما يزعم بولياك ، بل استمرت زعامتهم الى أوائل القرن السادس عشر (١٥٠٣ م) كما يتضح من رواية الخطط ص ١٩١ « وتصافى

(١) أعيان الشيعة ص ٢٩٣ م ٥

(سنة ٨١٠ هـ) شيخ [١] ونوروز [٢] بعد الخلاف وتوجها بعساكرهما إلى بلاد ابن بشارة فأوسعوها نهباً وهرب ابن بشارة » .

وبما يروي ص ١٩١ ايضاً من قولهم عن حوادث سنة ٨١١ « وذكر ابن حجر ان نوروز برز إلى صفـــد [٣] ثم انثنى إلى سعسع ثم انثنى إلى بكتمر جلق (والي صفد) ومعه محمد وحسن وحسين بنو بشارة فاقتتلوا فقتل منهم جماعة وحرقت الزروع وخربت القرى وكسرهم وأقام في الرملة ثم قصد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ إلى دمشق، وكان قد جمع من التركمان والعرب والترك جمعاً وسار من حلب فرجع نوروز وسبقه إلى دمشق » .

وفي اللمعات البرقية في الكتب التاريخية لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد ابن علي بن طولون ما صورته ، قال الأسدي في ذيل العبر « في سنة ٨٢٤ في رمضان منهـا في هذا الشهر بلغني أن ابن بشارة قد عمّر مدينة صور وجعل لها أسواقاً ونقل اليها خلقاً من الناس وحصّنها [٤] .

ومن قول صاحب الخطط ص ١٩٩ « وفي سنة ٨٥٥ طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا من بها فأدركهم بجموعه ابن بشارة مقدم العشير بالبـــلاد الشامية [٥] وقاتلهم قتالاً شديداً حتى أزاحهم عن البلد بعد أن قتل من الفريقين

(١) أي شيخ المحمودي الذي كان نائب طرابلس سنة ٨٠٤ هـ

(٢) ونوروز الحافظي الذي كان نائب دمشق سنـــة ٨٠٦ هـ وقد تسلطن الاول على مصر ، والثاني على الشام من سنة ٨١٦ الى سنة ٨١٧ حيث قتل نوروز واستأثر شيخ المحمودي بملك مصر والشام ولقب بالملك المؤيد شيخ .

(٣) كانت صفد في عهد المماليك نيابه كدمشق وكان من أعمالها تبنين وهونين والشقيف وصور وكان زعماء العامليين في اكثر الاوقات مؤيدين لنائب صفد في السلم والحرب كما يبدو من المصادر التاريخية كصبح الأعشى وتاريخ العثماني والصفدي والدويهي والشهابي .

(٤) خطط جبل عامل ص ١٠٩

(٥) قال بولياك مؤلف كتاب الاقطاعية في مصر وسورية ولبنان صفحة ٤٤ من كتابه هـذا « قبائل الفلاحين في سورية ولبنـــان » ويعرفون بالمشائر ، من اعتشر القوم وتماشروا ، أي تصاحبوا وتخالطوا ، أو بالعشير جمع عشراء ، أو بالعشران ، جمع عاشر ، وكانوا يوكل اليهم أن يؤمنوا المارة من كيد اللصوص ، ولدى الحروب كانت الحكومة تستأجرهم مرتزقة مشاة سلاحهم الافراس والسهام والحجار .

جماعة وأمسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم ».

ومن قوله ص ٢١١ « وفي سنة (٩٠٩ هـ الموافق ١٥٠٣ م) جهز الأمير ناصر الدين بن حنش مقدم البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين فقتل من جماعة ابن جنش نحو مئتين .

ومن يراجع قول ابن سباط العاليهي الفقيه الدرزي معاصر الفتح العثماني لسوريا ومصر : « ثم حضر الامير التنوخي شرف الدين يحي على الملك المظفر سليم شاه بن عثمان ملك الروم لما . ملك دمشق سنة (١٥١٦) وباس يده وخدمه ، فرسم له بالعلامة على مناشيره وكذلك ايضاً لما تملك الديار المصرية ورجع الى دمشق (١٥١٧) حضر عليه ثانياً وباس يده وقدم له التقادم فقبلها ؛ ولما رجع الامير شرف الدين يحي الى بلده ، وعصى الامير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين على الملك المظفر سليم شاه، فجهز ملك الامراجان بردى الغزالة الى عمل صيدا وقصد القبض عليه فهرب منه(١٥١٨) فاتهم الامير شرف الدين يحي بالميل اليه ولما حضر على جان بردى الغزالة في بلاد صيدا قبض عليه وعلى الامير زين الدين (أخيه ؟) والامير قرقماش والامير علم الدين سليمان أولاد معن إمارة شوف صيدا ، ورجع بهم الى مدينة صيدا في احتفاظ زايد . ثم جهزهم في البحر في مركب الى مدينة صور . ثم الى قلعة صفد . ثم الى قلعة دمشق بعد مدة، ولما رحل الملك المظفر سليم شاه بالعساكر نحو بلاد الروم أخذهم صحبته الى حلب : ووصل رأس الامير ناصر الدين بن الحنش الى حلب وهم في الاعتقال .. ثم بعد ذلك أفرجوا عن المذكورين ، وتكلفوا بواسطة ذلك أموال جزيلة [١] .

ثم يراجع قول المؤرخ الدمشقي ابن طولون وهو الشاهد العيان لفترة الفتح العثماني .

---

(١) الدكتور كمال الصليبي في ملحق النهار في ٢١ تموز ١٩٦٦ ، نقلاً عن نسخة الجامعة الاميركية لتاريخ ابن سباط

« وفي يوم الاحـــد ثامن عشر (ذي القعدة ٩٢٢ هـ - أول كانون الثاني ١٥١٨ م) أعطى الخنكار (أي السلطان سليم) للأمير محمد بن قرقماس النيابة على بيروت ، وعلى صيدا ، والتقدمة على بلاد البقاع وما والاهما ممـا هي في تقدمة الامير ناصرالدين بن الحنش ، وما كان زاده للامير ناصر الدين المذكور على ذلك من اقطاع الأمرية الكبرى وذخيرة ابن السلطان واقطاع نوى في ٢١ تموز[1] .

ان من يراجع النص الاول يدرك ويستشعر ان ابن الحنش كان قـد قضى على نفوذ بني بشارة وحكمهم واستولى على صيدا ومقاطعاتها بعد وقعة شيحين المعهودة سنة ٩٠٩ للهجرة .

ومن يراجع النص الثاني يدرك ويتأكد بأن بني بشارة لم تقم لهم قائمة بعد مقتل ابن الحنش وقيام الامير محمد بن قرقماس البقاعي مكانه :

ثم يطوي التاريخ خبر بني بشارة بعد ذلك فلا نسمع لهم او لغـيرهم من ساسة العامليين خـبراً ولا اثراً حتى سنة ١٠٢٢ هـ حيث يشير الصفدي في بعض الحوادث الى ذكر بني منكر (او مَنْقَر) وبني شكر وبني الصغير مرتين في الكلام على هذا النحو من التقديم والتأخير .

أترى ذهب بنو بشارة فيمن ذهب ضحية الدفاع عن سورية مع المماليك ؟؟ أم فتك بهم السلطان سليم تشفياً وانتقامـاً من أخصامه ومزاحميه على فتح سورية والعراق من الشيعة أو ملوكهم الصفويين ؟

وعلى كل فتلك النصوص وأمثالها تدل دلالة صريحة على ما كان لبني بشارة من حول وطول ومكانة مرموقة بين زعماء سورية لا زعمـاء لبنان فحسب ، فكيف أهملهم المؤرخ العاملي وغفـل عن تاريخ قرنين اضطربت فيها الحوادث وتزاحمت الأهوال ؟.

---

(١) المصدر نفسه نقلا عن تاريخ مفاكهة الخلان ، طبع القاهرة ج ٢ ص ٧٧ - ٧٨

المتاولة في عهد المعنيين

التاريخ امانة وصراحة وصدق

اننا حين نحاول درس تاريخنا الاقطاعي على وهج العواطف القبلية او الإقليمية او الطائفية نجني على الوحدة الوطنية ونقضي على مفعولها القومي والانساني في بلد كلبنان تضاربت فيه النعرات القبلية والإقليمية والطائفية حتى اوشكت ان تجعل منه برجاً من ابراج بابل وأن تحوّل برلمانه الى ما يشبه جمعية أمم .

لهذا كان على المؤرخ الطامح الى وحدة امته ومصلحة بلاده ان يكتب التاريخ بروح علمية بريئة تبعث فينا هزّة الإكبار لكل مخلص أمين على الواجب القومي والوطني والانساني ، أو تعزز في نفوسنا ثورة المقت والغضب والاحتقار لكل خائن أو جائر او مستهتر بواجب المروءة وواجب الايمان والتضحية في سبيل المثل العليا – على ما تفرضه الحياة في كل زمن وفي كل قطر – وإلا كان التاريخ من عوامل الرجعة والإنتكاس والجمود .

وإنني ، حين بذلت الجهد في تمحيص ما قد جمعته وتنسيق ما اخترته من المصادر التاريخية توضيحاً لماضينا السياسي وتحديداً لمحلنا (نحن العامليين والمتاولة) من الشعب اللبناني ، أو حين سجلت ما دار عليه هذا الكتاب من أفكار وملاحظات ونصوص ... لم أفكر في أن أرضي فئة من الناس وأسخط فئة ، ولا في أن أضر بعضاً وأنفع بعضاً ، ولا في أن أتقرّب الى جهة وأنفر من جهة ، وإنما فكرت في أن أرضي الحق والواقع ، وسمو القصد من التاريخ في

موقفي من هذه الآثار والمعالم التاريخية التي رأيتها تضطرب بين الوضوح والغموض ، وبين الصواب والخطأ وبين الاخلاص والملق، وتوشك - لما يشيع في جملتها من غلوّ وتهافت وتلبيس - أن تكون مجاملة فارغة ، أو مغالطة كاذبة ، أو صدى خافتاً لا يجد فيه القارىء اللبيب ما يبل اوامه أو يرضي طموحه أو يعزز إيمانه بالأهداف والقيم والنتائج العلمية .

فإذا ما وقفت من هذا كله موقف الثائر على ما في تاريخنا من أساطير ، وعلى ما في خيالنا من تلبيس وعلى ما في تفكيرنا من اضطراب .. فجلُّ همي من ذلك أن آخذ بيد القارىء المخلص لحكم الوجدان والضمير الى مكان الضعف والخلل من قصصنا وتاريخنا وتفكيرنا وأدعوه للوقوف منها موقف الجد والحذر حين يقرأ وحين يفكر وحين يحكم .. علِّ في هذا الجد والحذر ما يقربه الى الصواب أو يشعره بما يشعر به الطامحون الى مثل أعلى في الحق والخير والجمال ، وعلّ في هذا الشك ما يحفّز الملكات والهمم الى تقويم ما اعوجّ ، وايضاح ما خفي وإتمام ما نقص من المعلومات والملاحظات والبراهين وما ذلك على الجيل المتوثب الطامح بعزيز .

بعض التقاليد والأنظمة المرعية في العهد العثماني

ولما كان النظام والتشريع في الدولة يصوّر عادات الأمة وتقاليدها ومعتقداتها ، ويترجم مظاهر الحياة الاجتماعية الموروثة ويصوغها في أحكام إلزامية أو شبه إلزامية يكون تطبيقها العملي دليلاً من الأدلة على مستوى المعيشة ودرجة الحضارة [1] .

وكان من التقاليد والأنظمة الاقطاعية المأخوذة بعين الاعتبار من ابتداء عهد العثمانيين في سوريا ولبنان حتى سنة ١٢٥٦ هـ .. هذه الأنظمة والتقاليد التي يرويها الاستاذ ساطع الحصري في كتابه (البلاد العربية والدولة العثمانية) .. أتقدم للقارىء الكريم بصورة موجزة منها :

تقسيم المقاطعات

كان العثمانيون عندما يستولون على قطر من الأقطار يحصون القرى الموجودة فيه ثم يقسمونها الى مقاطعات بعضها صغيرة وبعضها كبيرة ويمنحون المقاطعات الصغيرة الى النابهين من الجنود المحاربين والكبيرة الى القواد والأمراء ، وذلك بعد أن يخصصوا طائفة من المقاطعات الكبيرة للسلطان .

---

(١) عن الاوضاع التشريعية للدكتور صبحي المحمصاني

أنواع المقاطعات ودرجتها

كانت المقاطعات تقسم الى ثلاثة أنواع :

أ - المقاطعات الصغيرة وهي التي يقل واردها عن عشرين ألف آقجة : وتسمّى تيمار [1] .

ب - المقاطعات المتوسطة وهي التي يتراوح واردها بين ٢٠٠٠٠ آقجة ، وبين ١٠٠٠٠٠ آقجة ، وتسمى (زعامت) .

ج-المقاطعات الكبيرة وهيالتي يزيد واردها على١٠٠٠٠٠ آقجة وتسمى (خاصة). وظل هذا التقسيم معتبراً الى آخر عهدالامير بشيرشهاب الثاني .

(كما يتضح من مراجعة تاريخ الغرر الحسان م ٣ ص ٥٤٤-٥٤٩)

منح المقاطعة غير التمليك

إن منح مقاطعة من المقاطعات الى شخص من الاشخاص ، ما كان يعني تمليكه القرى والاراضي التي تؤلف تلك المقاطعة وإنما كان يعني تفويضه حق جباية الأعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها ، وكانت الاراضي والقرى والمزارع تبقى تحت تصرف مالكيها والعاملين بها على أن يدفعوا الضرائب التي تفرض عليها الى صاحب المقاطعة أو من يوكله لتسلمها .

---

(١) لاحظ ص ٨٣ من خطط الشام ج ٥ لمؤلفه الاستاذ محمد كرد علي لتعرف : أن قيمة البارة الواحدة ثلاث اقجات ، وقيمة القرش أربعين بارة ، والكيس خمسماية قرش صاغ ، او لتعرف انه في سنة ١٠٩١ هـ قر الرأي بأن يحسب كل أربعين بارة قرشاً ، وأن البارة كانت تساوي ثلاث اقجات ، وان استعمال البارة لم يشتهر إلا في سنة ١٠٦٦ هـ وان قيمة القرش العثماني في القرن الثامن عشر كانت تساوي خمسة فرنكات فرنساوية من فرنكات ذلك العصر .

ثم لاحظ ص ١٥١ من (الدراسات الادبية) السنة التاسعة العدد ١-٢ حيث يقول المعلق على هامش الصفحة « ان الآقجة وحدة تقدير تزيد قليلا عن ثلث درهم من الفضة » .

تقسيم البلاد اداريا الى إيالات ثم ألوية ثم مقاطعات

ثم كانت البلاد تقسم إداريـــاً وعسكرياً الى (إيالات) والايالات الى (ألوية) أي(سناجق) وكان كل لواء من الألوية يضم مقداراً من الـ« تيمار » ات ، أو الـ« زعامت » ات

وكان يعهد بشؤون الأيالة الى (باشا) يسمى (بكلربكي) بمعنى (بك البكوات) ويعتبر برتبة (مير ميران) بمعنى « أمير الأمراء » . ويعهد بشؤون اللواء الى (بك) يسمى (سنجق بكي) بمعنى (بك اللواء) ويعتبر بمرتبة (مير لواء) بمعنى (أمير اللواء) .

وكان يخصص لمنصب كل ايالة من الايالات وكل لواء من الألويـــة مقاطعة بدرجـــة (خاص) ويترك باقي المقاطعات بدرجة (زعامت) أو (تيمار) تلزّم وتضمن لزعماء البلاد (المقاطعجية) .

واجب المقاطعجي جباية الأموال وإعداد المحاربين

ومقابل ذلك كان يفرض على أصحاب المقاطعات المذكورة أن يكونوا دوماً على استعداد للحرب وأن يتولوا إعداد عدد من الخيالة والفرسان المحاربين ، وأن يجهزوهم بكل مـا يحتاجون اليه من أسلحة وخيول بنسبة فارس واحد عن كل خمسة آلاف آقجة من حاصل المقاطعة . فإذا كان حاصل المقاطعة قد سجل بأربعمائة ألف آقجة – مثلاً – كان على من تفوضهـا أن يعدّ ويجهز ثمانين فارساً محارباً .

واجب أمير اللواء

وكان يعتبر (بك السنجق) آمراً ومرجعاً لجميع التيمارات والزعامات الداخلة في حدود اللواء ، فإذا طلبت الدولة تسفير الجيوش للحرب في جهة

من الجهات جمع البك الخيالة المترتبة على (الخاص) المخصص لمنصبه مع الخيالة المترتبة على التيارات والزعامتات التابعة للوائه ثم توجه بهم الى حيث يأمره الـ (بكلربكي) .

واجب الباشا

وكان البكلربكي (الباشا) يتصرف بالخاص المخصص له (سنجق الباشا) ويجهز ويعد الخيالة المترتبة على ذلك الخاص. فضلاً عن أنه يأمر ويوجه الخيالة الذين يجهزهم أمراء الألوية وأصحاب التيارات والزعامتات التابعة لجميع ألوية الأيالة .

راتب الباشا وأمير اللواء

يظهر مما تقدم أن أمراء الألوية والأيالات وكذلك سائر الموظفين ما كانوا يتقاضون من خزينة الدولة رواتب مقننة ، إنما كانوا يتقاضون الضرائب والتكاليف المخصصة لوظيفة الأيالة او اللواء . ولا حاجة الى القول بأنهم كانوا يعينون (متسلمين) يتولون جباية الضرائب باسمهم كما أن كل متسلم كان يستعين بخدمات طائفة من أهل البلاد وأعيانها في أمر توزيع الضرائب وتثبيتها وجبايتها . وكان هؤلاء يكونون طبقة خاصة يخدمون الولاة والمتسلمين الذين يتوالون على كرسي الحكم في الأيالات والألوية .

راتب بعض الولاة من الخزينة

غير أن بعض الألوية والأيالات كانت تستثنى من هذا النظام العام فيخصص لرؤسائها رواتب مقننة يتقاضونها من خزينة الدولة مباشرة ، وكانت أمثال هذه الرواتب المقننة تعرف باسم الـ (ساليانه) اي النقدي.

يلاحظ مما تقدم أن الامور الأدارية ما كانت تنفصل عن الامور الحربية وكان أمراء الأيالات والألوية يجمعون بين أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية فكانوا بمثابة : ولاة حكم ، وقواد جيش . وبتعبير آخر : رجـــال ادارة ، ورجال جيش في وقت واحد [1] .

الشؤون العدلية للقضاة الشرعيين

أما الشؤون العدلية فكان قضاة الشرع بوجه عام يشكلون المحاكم العادية في تاريخ الخلافة العثمانية حتى سنة ١٢٥٦ هـ وكان يرأس هـذه المحاكم نواب الشرع الذين يعينهـــم شيخ الاسلام إذ كان يشرف على جميع المفتين وقضاة الشرع في جميع اقطار المملكة العثمانية وكان القضاء الشرعي يطبق الاحكام الشرعية وفقاً للمذهب الحنفي الرسمي مبدئياً ، راجع « الأوضاع الشرعيـة للمحمصاني ص ١٧٦ » .

تقسيم الألوية حسب تعدد القضاة

وكانت الألوية تقسم – من هذه الوجهة « الى اقضية » ينصّب لكل قضاء منها (قاضي) أو (نائب قاضي) .

ولذلك كان في كل المدن تقريباً قاض أو نائب قاضي وفضلاً عن ذلك كان في عاصمة الدولة مناصب دينية عليا يسمى أصحابها « قاضيعسكر » و « أمين فتوى » و « شيخ الاسلام » .

---

(١) راجع ص ٢٩ – ٣٢ البلاد العربية والدولة العثمانية .

أما العشائر فكانت تترك خارج الترتيبات الادارية التي ذكرناهـا آنفاً وكانت شؤونها تدار من قبل شيوخهـا وامرائها وفقاً للعادات والتقاليد والعنعنات المتعارفة بينهم وكانت الدولة تعترف بسلطة هؤلاء وتصدر الأوامر والمناشير اللازمة عند توليهم المشيخة او الامارة وفقاً لتقاليدها :

سلطة علماء الدين المعنوية

كان السلاطين يستشيرون رجال الدين في كثير من الامور ويحاولون أن يدعموا أعمالهم ويبرروا تصرفاتهم بفتاوى شرعية يستحصلون عليها من هؤلاء .. ولهذا السبب كان علماء الدين يتمتعون بسلطة معنوية كبيرة ويقومون بدور فعال في شؤون الدولة .

علماء الدين آلة لاستبداد السلاطين

كان السلطان العثماني يتمتع بسلطات مطلقة لا يحدهـا حد والأمر الذي يصدر من بين شفتيه كان يكفي لإعدام الأشخاص ومصادرة أموالهم دون محاكمة وسؤال ..

بيد أن أعماله في الظاهر كانت تبدو مقيدة - بصورة نظرية - بأحكام الشريعة الاسلامية . لأن رجال الدين قلما كانوا يتأخرون عن إيجاد الأحكام وإصدار الفتاوى التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على أوامرهم وتصرفاتهم صفة (الشرعية) .

مثلاً ، عندمـا قرر السلطان سليم الأول محاربة الشاه اسماعيل الصفوي

وأمر بقتل جميع الشيعة الموجودين في البلاد العثمانية استند على « فتوى » صادرة من رجال الدين تعتبر هؤلاء مرتدين عن الاسلام .

ولذلك نستطيع أن نقول، أن سلطة السلطان كانت مطلقة بصورة فعلية.

استبداد البشوات

ومن الغريب أن البشوات كانوا كذلك مطلقي التصرف إذ كانوا يتمتعون – بصورة فعلية – بسلطة إعدام الاشخاص ومصادرة الأموال ويصطنعون نفس الوسائل الدينية التي كان يصطنعها السلاطين .

دولة عسكرية ، دينية اقطاعية

هذه هي الخطوط الأساسية لنظام الحكم عندما بدأ العثمانيون يستولون على البلاد العربية ؛ وإذا أردنا أن نلخص هذه الاوضاع استطعنا أن نقول أن السلطنة العثمانية كانت دولة « عسكرية دينية ، اقطاعية » من نوع خاص[1].

أيالة الشام في أوائل القرن السابع عشر

يتبين مما جاء في رسالة (قوانين آل عثمان) لمؤلفها « عين علي أفندي » أمين الدفتر الخاقاني بتاريخ ١٠١٨ هـ ١٦٠٩ م : ان الدولة العثمانية كانت تقسم الى ٣٢ أيالة ١٤ منها عربية ، ومن الأيالات العربية :

أيالة الشام

وكانت هذه الأيالة تشتمل على ١١ لواء يتصرف أمراء ثمانية سناجق منها كل واحد بمقاطعة من درجة (خاص) وأمراء ثلاثة منها يتقاضون (ساليانه)

---

(١) راجع البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٩ - ٣٤ .

أي راتباً نقدياً ، كما أن الأيالة كانت تضم ١١٢ مقاطعة من درجة (زعامت) و٨٦٨ مقاطعة من درجة (تيمار) .

يبلغ مجموع العساكر المفروضة على أصحاب هذه المقاطعات ٢٦٠٠ خيالاً وأما مجموع (حاصل المقاطعات) المذكورة فيبلغ ٦,٥٥٨,٦٠٠ آقجه .

لواء دمشق

مخصصات سنجق الباشا – مقاطعة خاصة – ١٬٠٠٠٬٠٠٠ آقجه . عدد الخيالة المفروضة عليه ٢٠٠ وكان عدد المقاطعات التابعة لهذا اللواء ٨٧ مقاطعة زعامت ٣٣٢ مقاطعة تيمار .

لواء صفد

كان مرتباً لأمير لواء صفد مقاطعة (خاص) ٣٦٣٬٨٠٠ آقجه ، وكان عدد الخيالة المفروضة على مير اللواء ٧٤ خيالاً ، وكان يتبع لهذا اللواء خمس مقاطعات من درجة (زعامت) و ١٢٣ مقاطعة من درجة (تيمار) وكانت مقاطعات بلاد بشارة الجنوبية تابعة لهذا اللواء كما يتضح من تاريخ الصفدي .

لواء صيدا مع بيروت

أما لواء صيدا وبيروت فكان يتقاضى مير اللواء فيه ٥ ساليانه [١] .

منشور التنظيمات سنة ١٨٣٩ – ١٨٥٦

أما بعد منشور التنظيمات الادارية والماليه والقضائية والتعليمية بين سنة ١٨٣٩ – وسنة ١٨٥٦ وبعد القوانين التي صدرت تنفيذاً لأحكام المنشور

---

(١) راجع « البلاد العربية والدولة العثمانية » لساطع الحصري صفحة ٢٣٠ – ٢٣٢

أصبحت الدولة العثمانية تقسم الى ولايات والولايات الى الوية (سناجق) والألوية الى أقضية ، والأقضية الى نواح .

وكان على رأس الادارة في كل لواء (متصرف) وفي كل قضاء (قائممقام) وفي كل ناحية (مدير ناحيه)[1] مع مجلس ادارة مؤلف من وجوه قرى الناحية .

التنظيمات وضعت حدوداً للاقطاعية

وان قانون الولايات هذا وضع حداً للاقطاعيات القديمة وحدد صلاحيات كل من الولاة والمتصرفين والقائمقامين ، كما الغى النظم الباقية من عهود (التيمار والزعامت) وعين لكل موظف راتباً يتلقاه من خزينة الدولة .

وقد أحدث رجال التنظيمات محاكم نظامية تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة وبموجب قوانين جديدة كما وضعوا الأنظمة اللازمة لاصلاح شؤون المحاكم الشرعية المتعلقة بالمعاملات في (مجلة الأحكام العدلية) .

---

(١) البلاد العربية : لساطع الحصري ص ٢٤٠ .

متى حكم المعنيون في جبل عامل

- ١ -

يقول الخوري بولس قرألي « كانت مقاطعة صيدا وصور جزءاً غير مجزأ من ولاية المعنيين أمراء الشوف قبل العهد العثماني ، فقد كان الامير فخر الدين المعني الاول صاحب الشوف متولياً على صيدا في السنة ١٥٠٥ م ، وبعد أن احتل السلطان سليم العثماني سوريا في السنة ١٥١٥ م ، أقره على منصبه ومنحه لقب (سلطان البر) الذي خوله حكم عربستان [١] ».

ثم يقول بعد ذلك « ولما غضبت الدولة على الامير قرقماس المعني في السنة ١٥٨٤ سلخت عنه صيدا وجعلتها سنجقية » [٢].

ولا ندري على أي مصدر اعتمد في إطلاق هذه الاقوال التي ما زالت بحاجة الى التمحيص والاثبات ، لأنــه إذا لاحظنا (ما تقدم من) النصوص والأدلة التي تثبت ان بني بشارة العامليين كانوا حكام جبـل عامل من بداية القرن الثامن الى نهاية القرن التاسع للهجرة [٣] ، وان ناصر الدين محمد بن الحنش

---

(١) لاحظ هنا أبحاث الدكتور كمال سليمان الصليبي « حول نسب فخر الدين » في ملحق النهار عدد ٣١ تموز و ١٤ من آب سنة ١٩٦٦ حيث يخطىء مثل هذه المزاعم بالأدلة والبراهين القاطعة.

(٢) لاحظ ص ٩٢ - ٩٣ من تاريخ فخر الدين المعني ، لبولس قرألي .

(٣) لاحظ ص ٧٨ - ٨١ من كتاب « مع التاريخ العاملي او ص ٤ من هذا الكتاب» للمؤلف.

ظل يتحداهم سياسياً وعسكرياً من بداية القرن العاشر للهجرة الى أن قضى على حكمهم ونفوذهم وأصبح حاكم صيدا والبقاعين برهة من الزمن الى أن قتل في عهد السلطان سليم الأول ، وتولى مكانه الأمير محمد بن قرقماس البقاعي حتى سنة ١٥٢٠ ميلادية على ما يرويه الدكتور كمال الصليبي في ملحق النهار لسنة ١٩٦٦ م .

اذا لاحظنا كل هذه الوقائع التاريخية بدا لنا منها أن المعنيين في هذه الفترة من سنة ٧٠٠ حتى ٩٢٢ للهجرة لم يكن لهم من سبيل الى حكم صيدا وجبل عامل

ثم اذا تتبعنا تاريخ المعنيين الاول في لبنان كله ، لا نرى فيما عرف او ظهر من المؤلفات التاريخية كتاريخ ابن سباط الدرزي العاليهي [١] والمتضمن لما جرى من الحوادث بين سنة ٥٢٧ وسنة ٩٢٢ للهجرة ، وتاريخ بيروت لصالح ابن يحيى التنوخي [٢] المعاصر لقدماء امراء الغرب التنوخيين ، وتاريخ البطريرك اسطفان الدويهي والمتوفي سنة ١٧٠٤ ، وتاريخ محمد المحبي (خلاصة الاثر) المعاصر للامير احمد المعني آخر امراء المعنيين ثم التاريخ المنسوب (زوراً وبهتاناً) لأحمد بن محمد الخالدي (المعروف بالصفدي) والمتوفي (سنة ١٦٢٤ م) في عصر فخرالدين الثاني .

اذا تتبعنا كل هذه المؤلفات التاريخية لا نرى فيها جملة وتفصيلا ما يوضح للقارىء او يشعره بأن حكم آل معن الأول تجاوز حدود الشوف ، وكل ما يراه الباحث عن تاريخ المعنيين هذه العبائر الموجزة حيث يقول الدويهي :

« وفي سنة ٩١٢ هـ دخل الى نيابة دمشق سيباي الاشرفي ، وبعد أيام قليلة قبض على الامير فخرالدين عثمان بن معن امير الاشواف من أعمال صيدا ، ثم ان الامير عثمان توفي في ربيع ثاني سنة تسعماية واثني عشراً أي قبل الفتح العثماني بعشر سنوات [٣].

(١) المتوفي سنة ١٥٢٠ ميلادية
(٢) المتوفي سنة ١٤٣٦ م .
(٣) تاريخ الازمنة ص ٢٢٦ طبعة بيروت سنة ١٩٥١ م

وحيث يقول ابن سباط « وفي هذه السنة (٩١٧ هـ و ١٥١١ م) توفي الامير يونس بن معن امير الاشواف وكان يوم دفنه له يوم عظيم لانه كان شاباً ذا حرمة وسطوة ووقار [١] .

ثم حيث يقول الدويهي « كتب السلطان سليم الى امراء البلدان بالأمان والحضور، فحضر اليه الامير قرقماس ابن الامير يونس بن معن، والامير جمال الدين اليمني ، والامير عساف ، وغيرهم ، دون امراء الغرب التنوخيين لأنهم كانوا من صوب الجراكسة؟ فولى الامير قرقماس بلاد الشوف والامير جمال الدين بلاد الغرب ، والامير عساف كسروان وبلاد جبيل [٢] .

ثم حيث يقول الدويهي « وفي سنة ٩٩٢ للهجرة قدمت الشكايات في الدروز ، وفي الامير محمد بن عساف انهم شلحوا الخزنة (خزنة السلطان) فبعث طلب الغرماء من الامير قرقماس بن معن ومسكوا دروب البحر والبقاع على الدروز وقتلوا شعباً كثير ، فحضر على ابراهيم باشا الامير محمد بن جمال الدين من عرمون الغرب وابن عمه الامير منذر من (عبيه) والامير محمد بن عساف من غزير ، وأما الامير قرقماس بن معن هرب الى مغارة من بلاد الشوف (كذا) ومات فيها عن ولدين وهما الامير فخر الدين وأخوه يونس ..

والامراء الذين حضروا عليه (على الوزير) في الامان أخذهم صحبته الى نفس اصطنبول فبرءوا ذاتهم وقبلهم حضرة السلطان مراد ابن سلطان سليم بحلم ، وقرر على امراء الغرب بلادهم وعلى الامير محمد بن عساف أيالة طرابلس بتمامها دون المدينة وعادوا الى مواطنهم مسرورين [٣] .

* * *

هذه النصوص والنبذ التاريخية هي كل مـا يطالعه الباحث من أخبار

(١) الدكتور كمال الصليبي في ملحق النهار لسنة ١٩٦٦

(٢) تاريخ الازمنة صفحة ٢٣٦

(٣) لاحظ ص ٢٨٤ من تاريخ الأزمنة .

المعنيين الاول في تاريخ المعاصرين لهم .. فهل ترى فيها ما يدل (ولو بالتلميح) على أن المعنيين تجاوزوا في حكمهم اقليم الشوف الى غيره من المناطق الدرزية كمقاطعة الغرب ، والجرد ، والعرقوب أو المقاطعات العاملية كأقليم جزين، واقليم التفاح واقليم الشومر ؟!

على أن في النصين الأخيرين ما يؤكد بصراحة أن أمراء الغرب التنوخيين كجمال الدين اليمني ، ومحمد بن جمال الدين ، وابن عمه الأمير منذر ، ظلوا حكاماً في الغرب بعد الفتح العثماني (سنة ٩٢٢ هـ) وبعد وفاة الامير قرقماس المعني سنة ٩٩٢ هـ .

وإذا لم يستطع المعنيون في تلك الفترة أن يسيطروا على جميع المناطق الدرزية ، فكيف تسنى لهم أن يسيطروا على المناطق العاملية يوم كان الشيعة في جبل عامل وحده أقوى بعددهم وعِددهم وحصونهم المنيعة وأراضيهم الواسعة الخصبة من أن يتغلب عليهم أحد من الجيران بقوته الذاتية وخصوصاً عندما تنضم الى قوة العامليين قوة اخوانهم الشيعة في مناطق بعلبك والهرمل والبقاع ؟.

ثم يلاحظ (بعد) من النص الأخير أن الشكايات قدمت على الدروز جميعاً وعلى الامير محمد بن عساف أمير كسروان لا على دروز الشوف وحدهم.

وعليه فكيف طلب الغرماء من الامير قرقماس دون غيره من أمراء الدروز وأمراء كسروان ؟ مع انه لم يكن قرقماس حاكماً على جميع الدروز، وإنما كان حاكماً على دروز الشوف وحدهم دون دروز الغرب والجرد، والعرقوب، ودون مقاطعة كسروان ؟؟

ثم لماذا هرب الامير قرقماس وتخبأ من وجه الدولة الى أن مات متخفياً في المغارة ؟ مع ان غيره من امراء الدروز وأمراء كسروان قد واجهوا السلطان وبرأوا أنفسهم وأعيدوا الى حكم مقاطعاتهم مكرمين مسرورين ؟

كما يلاحظ أن جمهور المؤرخين يقول بأن الامير قرقماس إنما لجأ لمغارة جزين ومات فيها ، وجزين كانت (باجماع المؤرخين) تعد من أكبر المراكز العلمية والأدبية ومن أوسعها شهرة بين قرى جبل عامل،فكيف عدها المؤلف الدويهي من بلاد الشوف ؟

هذا الى غيره من الأسئلة والملاحظات مـا يحملنا نشك بأن النساخ لم يتلاعبوا بعبارة المؤلف لدى النقل عن النسخة الأصلية أو نشك بدقة العبارة وكونها جاءت صحيحة سالمة من الاضطراب والنقص في التعبير عن صميم الواقع التاريخي ؟.

في عهد الامير فخر الدين الثاني

وبعد ، ألم يتضح مما تقدم ، أنه لم يتسن للمعنيين حكم جبل عامل إلا في عهد الامير فخر الدين الثاني ، يوم كان الشيعة في لبنان وسوريا موضع نقمة الدولة العثمانية ، لمبالغة شيعة ايران والعراق في مضايقتها سياسياً وعسكرياً [1] .

ويوم كانت الدول الغربية مع الكرسي الرسولي تأخذ بعضد الامير وتمده بالسلاح والمال والسفن الحربية ، ثم بالخبراء والقادة العسكريين [2]

ويوم انضم النصارى في لبنان وسوريا وفلسطين الى الدروز (تحت راية الامير المعني) امتثالاً لرغبة قداسة البابا وتحقيقاً للأهداف التي رسمها عواهل أوروبا لاحتلال الاراضي المقدسة [3] .

ويوم كان فخر الدين يقدم الهدايا الثمينة ، ويغدق الاموال الطائلة على

---

(١) لاحظ ص ٨ ثم ص ٢٣٩ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي ثم ص ٣٢١ و ٣٣٤ من تاريخ الازمنة .

(٢) لاحظ ص ١٤ ثم ٧٦ و ٧٧ ثم ١٣٧ و ١٨٤ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي

(٣) لاحظ ص ٣٧ و ٧٠ و ١٣٤ و ١٤٨ من تاريخ بولس قرألي،ثم ٣٢٩ من تاريخ الازمنة.

الوزراء والولاة ليمكنوه من حكم السنجقيات والمقاطعات ، ورؤوس الأعداء والمنافسين له كابن الفريخ وابن الحرفوش .

فبمساعدة تلك الظروف ، وبالسلاح المرسل من الغرب والأموال المبذولة ليشتري بها العملاء والولاة والوزراء لا بالوراثة استطاع فخر الدين أن يستولي على ما استولى عليه من سناجق ومقاطعات ، وخصوصاً في جبل عامل كما يتضح من النصوص التالية، وهي كل ما يحصل عليه الباحث- في هذا الباب- من المؤلفات التاريخية المعاصرة .

أخذ قلعة الشقيف

كان الصليبيون يدعون قلعـة شقيف ارنون (بلفور) أي الحصن الجميل .. روى الرحالة الانكليزي جورج ساندس في السنة ١٦١٠ ميلادية ، أن الامير فخر الدين أخذها خدعة من صاحبها وحصنها تحصيناً قوياً وجعلها مخبأ لخزنته [١] .

على أن المؤلف (بولس قرألي) لم يذكر اسم صاحب القلعـة ولا كيف خدعه فخر الدين وأخذها منه ؟

وهل كانت خدعته لصاحب قلعة الشقيف كخدعته لصاحب قلعة بانياس الصبيبة على مـا يروي ساندس نفسه في السنة ١٦١٠ من أن الامير استولى عليها بالحيلة، وكانت حيلته بأن ضرب خيمته بقرب سورها فجاء الشيخ صاحبها مرحباً به ودعاه لزيارتها- أي دعاه للضيافة لأن عرب الأرياف لا يدعون كبيراً يمر ببلادهم لزيارة بيوتهم دون أن يقيموا له المآدب الفاخرة - فدخلهـا الامير مع زهاء ثلاثين من رجاله مسلحين خفية ، ولما استقر بها تسلق بقيـة

---

(١) لاحظ ص ٨٤ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي .

رجاله الاشجار والابراج اليها حسب اتفاق سابق معهم فتملكهـــا وحصنها ونقل حاميتها القديمة الى غير مكان [1] .

اخذ منطقة صور

اعتنى الامير فخر الدين بعمار صور وسلمها بعد عودته من الغربة الى أخيه الامير يونس وأنشأ فيها قصراً حصيناً أثار شبهات الباب العالي فأوفـــد في السنة ١٦١٩ علي باشا قبطان البحر ليتحقق من أمره .

وأصبحت صور لمركزهـــا الحربي الممتاز محور كل المشاريع التي أعدها فخر الدين والأمراء المسيحين حلفاؤه في السنين ١٦٠٥ و١٦٠٨ و١٦١١ و١٦١٤ و١٦٢٤ و١٦٣٢ ثم ١٦٣٤ و١٦٣٧ لنزول الحملة على الاراضي المقدسة كما تشهد التقارير العديدة والخرائط الموضوعة لهـــذا الغرض ، وقد نشرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب [2] .

سنجقية صيدا

ويقول بولس قرألي ص ١٣ من تاريخه « في اواخر سنة ١٥٩٢ مر بصيدا مراد باشا القبوجي في طريقه الى دمشق مقر ولايته الجـــديدة ، فقصد اليه فخر الدين واسترضاه وسأله التوسط لدى السلطان في منحـه سنجقيتي صيدا وبيروت وقطع رأس ابن الفريخ ففعل ؟ »

---

(١) بولس قرألي ص ٨١

(٢) لاحظ ص ١٠٠ وص ١٠١ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي عن المجلة البطريركية السنة العاشرة سنة ١٩٣٥ ، اذ يظهر من رواية المؤلف « ان صور اصبحت محوراً لكل المشاريع التي أعدها فخر الدين وحلفاؤه في السنين ١٦٠٥ و١٦٠٨ حتى سنة ١٦٣٧ لنزول الحملة الصليبية على الاراضي المقدسة » ان الدول الاوروبية كانت تعضد الامير وتمده بالمساعدة من اول عهـــده بحكم الشوف او من سنة ١٦٠٥ على أقل تقدير وانها استمرت في مـساعدة آ له من بعـــده حتى آخر عهد الامير ملحم .

ثم يقول ص ٩٨ من تاريخه « لما ولي مراد باشا نيابة الشام طلع من صيدا في احدى بعد الالف « ابتدأ في تشرين اول سنة ١٥٩٢ » فخدمه الامير فخر الدين بخدمة سنية وأطعمه بكل جزئية وكلية فعمل مراد باشا على قبض الامير منصور ابن الفريخ وهو آمن .. ثم قتله في نهار الثلاثاء ١٣ ربيع الاول سنة ١٠٠٢ هـ أي في ٨ كانون اول سنة ١٥٩٣ » .

ثم يروى عن تاريخ الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف (ص ٦٨ منه) ويقول في وسط ربيع الآخر سنة ١٠٠٢ هـ تولى الامير فخر الدين سنجق بيروت وصيدا بسعي مراد باشا .

ثم يقول بولس قرالي نفسه جاء في تاريخ الازمنة للدويهي « في سنة ١٠٠٩ للهجرة جاء باشا الشام في البحر وطلع لمدينة صيدا فواجهه الامير فخر الدين وقدم له التقادم والذخائر فطيب خاطره وكتب عليه أيالة صيدا وأقاليمها وسكن الامير في صيدا » .

ما يلاحظه الباحثون

هذا ما نقله بولس قرالي ص ٩٨ – ٩٩ من تاريخه ، ولكنك اذا راجعت تاريخ الدويهي كله مع الصفدي كله لا تجد فيهما أي أثر لهذه الاقوال وهذه الروايات التي رويت عن مرور مراد باشا في صيدا وعن تولية فخرالدين لصيدا سنة ١٠٠٢ للهجرة او الف وتسع ، وكل ما يذكره الدويهي والصفدي ويؤكدانه هو القول «بأنه سنة ١٠١٦ للهجرة (١٦٠٧ م) عندما حنق الوزير مراد باشا على الامير فخر الدين لموضع ذلك وجه الامير لعنده في شهر رمضان ابنه علي وله من العمر نحو تسع سنين ودفع له على مرتين ثلاثماية الف قرش لاستعطاف خاطره فعفى الوزير عنه وانعم عليه وعلى ولده بسنجقية صيدا وبيروت واغزير [1] .

(١) لاحظ ص ٢٩٩ من الدويهي ، ثم ص ٥ – ٦ من تاريخ الصفدي .

وعلى كل سواء صحت هذه الروايات كلها أو لم يصح منها سوى هذه الرواية التي صرح بها كل من الصفدي والدويهي فإنها بجملتها تنص وتؤكد على أن المال والرشوة والخديعة كانت من أهم الاسباب والوسائل التي مكنت فخر الدين من الاستيلاء على صيدا وغيرها من المناطق والاقاليم العاملية .

ثم يلاحظ ان هناك ما يدعو الى التساؤل وهو أن اقليم الشوف لدى حكم الامير فخر الدين كان فقيراً بطبيعة ارضه وحاصلاته ولم يكن له موارد صناعية وتجارية تعوض عن جدبه وفقره سيما بعد نكبة دروز الشوف سنة ١٥٨٤ م ..

فكيف استقوى الامير فخر الدين يوم ذلك على جدب الشوف ونكبة أهاليه ، وتمكن بهذه السرعة الخارقة أن يوفر الاموال الطائلة التي مكنته من شراء كل شيء بالمال حتى الوزراء والباشوات والسناجق ؟؟ وجعله يقدم على طلب أمور لم يجرأ على مثلها أسلافه من قبل .

يقدم على أن يطلب من الوزير سنجقيتي صيدا وبيروت ، ثم على أن يطلب منه رأس ابن الفريخ أمير البقاعين وصيدا وصفد ونابلس دون ما خوف أو وجل كما لو كان الوزير من بعض زلمه وموظفيه .

كيف تمكن فخر الدين من هذا كله وهو ما زال حديث العهد بالحكم وسنه لا يتجاوز العشرين وميزانية إمارته - حتى في عنفوان حكمه - لم تكن لتتجاوز (٢٩٥٠٠٠) غرش [١] ولا لتعادل ما دفعه نقداً لمراد باشا سنة ١٠١٦ هـ ، وهو باجماع المؤرخين ثلاثماية ألف غرش [٢] .

كيف تمكن من هذا كله دون ان يكون على صلة متينة بدول أوربا ؟ ودون أن تكون دول أوربا قد بدأت تمده بالمال والسلاح ، والقادة والخبراء

---

(١) لاحظ ص ٦٥ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي .
(٢) لاحظ ص ١٠٥ من نفس المصدر .

من أول عهده بالحكم تنفيذاً للخطط المرسومة لاستئناف الحملات الصليبية على الاراضي المقدسة ؟؟

وبعد إذا تبين للقارىء من تتابع الأدلة والنصوص أن المعنيين لم يحكموا جبل عامل إلا في عهد فخر الدين الثاني ، فهل يعني ذلك أن حكمهم على جبل عامل استمر بعد القضاء على حكم الامير فخر الدين ؟؟

هل استمر حكم المعنيين في جبل عامل ؟

ان من يتتبع الحوادث والروايات التاريخيـة التي تصور سياسة الدولة العثمانية في منطقة صيدا بعد فخر الدين يشعر بأن حكم المعنيين على جبل عامل قد تقلص وأصبح لا يتجاوز حدود اقليم الشوف إلا في فترات محدودة ثم يشعر كذلك أن العامليين قد استقلوا في حكم مقاطعاتهم عن حكام الشوف ، كما تدل الحوادث التي وقعت في قرية أنصار سنة ١٠٤٨ هـ ، وفي النبطية سنة ١٠٧٧ هـ ، وفي وادي الكفور سنة ١٠٧٨ هـ الى غيرها من الحوادث الاقليمية التي تظهر حرص العامليين على استقلالهم عن حكام الشوف بعد زوال حكم فخر الدين .

ويبدو أنهم ظلوا مستقلين عن حكم المعنيين إلا في فترات قليلة وظروف طارئـة يسرت للأجانب أن يتدخلوا وأن يضغطوا ، وللولاة العثمانيين أن يتاجروا ويبيعوا ذممهم وضمائرهم بالمزاد ، ولحكام الشوف أن يتآمروا ويتوسعوا .. كما يظهر للمتأمل من قول بولس قرألي .

« وعقب مصرع الأمير (فخر الدين) وأخيه وأولادهما وملاحقة ذويهما.. قصد الشيخ أبو نادر الخازن الى روميا واستغاث بالكرسي الرسولي ليسعى في تخليص الامير ملحم معن ابن أخي فخر الدين والمقدمين أبي اللمـع أصهاره فاستحث الكرسي الرسولي فردنان الثاني (أمير تسكانا) وحمله على إيفاد غليون

(مركب كبير) الى لبنان لهذا الفرض ، وتجددت المساعي لشد أزر آل معن واحتلال الاراضي المقدسة [1] .

ومن قول الدويهي ص ٣٣٤ من تاريخ الأزمنة « وفي سنة ١٦٣٦ في تشرين الاول ورد الخبر أن التحم الخون (أي الحرب) في بلاد العجم بين كجك أحمد باشا (قائد الجيش العثماني) وبين الشاه ، وان الشاه استيسره وقتل من عسكره خمسين ألف ».

ثم من قول الدويهي نفسه ص ٣٣٣ « وفي سنة ١٦٣٦ ميلاديـــة أحمد الشاملي آغا الانكشارية في الشام قصدمقاتلة الامير علي بن علم الدين لمصاوته في ابراد مال السلطان ؟ واتفق مع الشاملي سنجق صفد، ومتسلم بيروت، والمقدم مراد والأمير عساف السيفلي ، فانهزم الامير علي من قدامهم بأعياله ورحلت صحبته يمنية بلاد الغرب ، والجرد ، والمتن ، والشحّار ، والشويفات بأعيالهم وماشيتهم ما ينوف عن سبعة آلاف نفر » .

ثم يقول المؤلف نفسه ص ٣٣٤ بعــد ان ينتهي من سرد حوادث القصة بتمامها « وعند هذه الاحوال ظهر الامير ملحم بن معن وجميع الرجـــال ، فأهزم لابن علام الدين وتولى حكم بلاد الشوف »

ألا تشعر من تسلسل هذه الحوادث والروايات انه في الوقت الذي انكسرت فيه جيوش الدولة العثمانية أمام الشاه واشتد تدخل الدول الغربية وضغطها في هذه الظروف العصيبة .. انحرف حكام الشام نحو المعنيين وعملوا مع أنصار المعنيين على تشريد ابن علم الدين وباقي اليمنية سنة ١٠٤٦ هـ حتى يظهر الامير ملحم ويتولى حكم الشوف .

على ان الامير ملحم لم يستطع ان يثبت في الحكم او يتجاوز بحكمه حدود الشوف حتى سنة ١٠٦٥ هـ حيث يقول الدويهي ص ٣٥٠ من تاريخ الأزمنـــة

---

(١) لاحظ ص ١٤٦ من تاريخ فخر الدين المعني لبولس قرألي .

« وفيها الامير ملحم بن معن ارسل مع محمد آغا ابن القهوجي ثلاثين الف لحضرة الوزير فاستعطف خاطره وأعطاه سنجقية صفد » .

ثم يبدو من خلال حوادث سنة ١٠٦٧ هـ ان حكم الامير ملحم خارج اقليم الشوف لم يستمر إذ يقول الدويهي ص ٣٥٢ من تاريخ الأزمنة « وفيها انحط الوزير مراد باشا عن الوزرنة وعطى الختام الى محمد باشا الذي كان متولي مدينة طرابلس فولى عليها محمد آغا الطباخ ، وعلى صيدا وبيروت اسماعيل آغا ، وعلى صفد بشمق محمد آغا » .

ويبدو كذلك من خلال حوادث سنة ١٠٦٩ هـ ان ملحم كان قد عاد الى حكم صيدا وصفد ، إذ يقول الدويهي ص ٣٥٥ من تاريخ الأزمنة «وفيها الامير ملحم توجه الى صفد لجمع مالها فمرض بعكا ونقلوه لصيدا بتخت اروان وعند انخساف القمر في السادس عشر من ايلول قضى أجله » .

وبعد وفاة الامير ملحم لم يستقم الحكم لابنائه حتى في الشوف على ما يظهر من حوادث سنة ١٠٧١ هـ حيث انتهت الى تولية بلاد الشوف الى الشيخ سرحان بن عماد وتولية بلدان الغرب والجرد والمتن ، الى اولاد علم الدين[١].

ثم بعد مقتل الامير قرقماس ابن الامير ملحم وفرار أخيه الامير أحمد في سنة ١٠٧٣هـ أعطى باشا صيدا الحكم للامير محمد بن علم الدين والشيخ ابو علوان من قيسية الباروك[٢] .

وهكذا ظل حكم الشوف خارجاً من يد المعنية الى ان صارت الوقعة عند برج بيروت بين القيسية واليمنية سنة ١٠٧٨ هـ وانهزم اليمنية الى بلاد الشام وتولى الامير احمد بن معن بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان[٣] دون غيرها من المقاطعات .

(١) لاحظ صفحة ٣٥٨ من تاريخ الازمنة .
(٢) المصدر نفسه صفحة ٣٦٣
(٣) لاحظ صفحة ٣٦٢ من ذات المصدر .

ثم رفعت يد الامير أحمد المعني عن تلك المقاطعات أثنـــاء حوادث سنة ١١٠٥ هـ وتملك الامير موسى بن عـــلم الدين سراية ابن معن في دير القمر والمقاطعات التي كانت بيده ، ولم يعد الامير أحمد المعني الى حكم مقاطعاته إلا بعد ان دفع لمطبخ السلطان مايتين كيس دراهم [١] .

ثم في سنة ١١٠٩ هـ توفي الامير احمد المعني ولم يكن بيده غير المقاطعات التي تولاها سنة ١١٠٥ هـ [٢] .

* * *

وبعد اذا صح انه لم يتسن للمعنيين - قبل الامير فخر الدين الثاني -- أن يسيطروا على صيدا او جبل عامل ولا ان يستمر حكمهم بعده خارج حدود الشوف ، فما هي الدوافـــع التي حفزت فخرالدين الثاني للتوسع ؟ وما هي الوسائل التي ميزت سياسته ؟ والظروف التي اكتنفت عصره وسهلت له الامور حتى بلغ ما لم يبلغه غيره من نفوذ وشهرة ؟

الدوافع المشتركة

مما لا شك فيه ان فخرالدين ظل طيلة حياته يعقد مع أمراء الغرب ودوله المحالفات والمعاهدات ليسلخ لبنان وفلسطين وقبرص عن الدولة العثمانية [٣] ، ويعيد الى أوربا المسيحية مملكتي أورشليم ، وجزيرة قبرص الصليبيتين [٤] وأنه ظل لذلك يرسل السفراء والنداءات والرسائل المرةتلو المرة الى الكرسي الرسولي وأمراء تسكانة ، وملك اسبانيا وغيرهم حتى بلغت بــه اللجاجة في المرة الثالثة التي أرسل بها المطران جرجس بن مارون الاهدني مع نداء لدول

(١) المصدر نفسه صفحة ٣٨١

(٢) لاحظ ٣٨٢ من نفس المصدر .

(٣) لاحظ ص ١١٧ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي.

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٤ .

أوربا أن يقترح في ذلك النداء « انه إذا نجح الجيش المسيحي في مهمته أن يتوج غرندوق تسكانه ملكاً على أورشليم، وتادي بربريني ابن أخي البابا أميراً على قبرص ، ثم وعد فخر الدين لذلك بإشهار نصرانيته وتعميد أسرته وذويه وحمل شعبه وحلفائه على الاقتداء به فتصبح إمارة لبنان معقلاً للكثلكة في الشرق وحليفة صدوقة للملكتين الحديثتين [١] .

الوسائل الملتويـــة

وكان فخر الدين لهذه الأهداف ذاتهـا - يدلي سراً - الى أمراء الغرب (ودوله) بالمعلومات عن حركات أسطول الدولة العثمانية ومراكبها التجارية ليهاجموها ويغنموها ، وعلى مواطن الضعف في ثغورها ليضربوها وينهبوها[٢].

وكان يتوسع ويثرى على حساب جيرانه ويتآمر سراً على الدولة العثمانية مع الأمراء الأوربيين والعصاة الشرقيين ، وإذا مر بجواره وزير من وزراء الدولة أسرع الى إرسال الوفود بالمؤن والمال فيشتري بهذه الطريقة ضمائر الوزراء وصداقتهم وحمايتهم ويبدد ظنونهم به متظاهراً بالطاعة والتعلق بأهداب السلطنة حتى إذا بعد ظلهم عاد الى مضايقة جيرانه والتآمر على الدولة [٣] .

الجواسيس والعملاء

وكان الى ذلك يتخذ له من كبـار الموظفين في الاستانة ودمشق وكلاء برواتب معينة يعملون لمصلحته فيطلعونه على مجرى السياسة العثمانية وتطوراتها وأحوال السلاطين والوزراء والولاة وعلى التهم الواردة بحقه والمكايد التي تدبر

---

(١) لاحظ ص ١٤٥ و ١٣٩ من نفس المصدر .

(٢) المصدر ذاته ص ١١٧ .

(٣) لاحظ ص ١١٦ من تاريخ فخر الدين لبولس قرألي .

لديهم عليـــه ، ويبتاعون له عطفهم ويدرأون عنه العقوبات التي ينوون إنزالها به .

روى الأب روجيـه ، أن أحد كبار موظفي الباب العالي كان وكيلاً للأمير في الاستانة يحسن للسلطان ولوالدته مـا يفعله الأمير ويفوز لـــه منهما برغائبه » .

وروى أيضاً أن الأمير كان له في حاشية واليدمشق أصدقاء نافذو الكلمة مثل ابراهيم باشا الذي اشترى له أغلب شرفاء المدينة ووجهائها .

وفضلاً عن هؤلاء اتخـــذ الامير (كتخداء) يجيدون التركية وطرق التدليس والرشوة واسترضاء كبار الموظفين ، كان يعينهم للاقامة في الاستانة أو يرسلهم أكثر من مرة في السنة بداعي تسديد الاموال الأميرية أو بغيره ، ويزودهم بالعطايا فيتقربون من هؤلاء ويفوزون له بما يصبو اليهمن مطالب العفو والتبسط أو قهر الأعداء وتأييد الأصدقاء ، نعرف منهم ثلاثة ، هم الحـــاج كيوان عبد الله ، ومصطفى بك كتخدا بن حسن شلبي ، والحاج درويش[١].

هذا غيرما كان يقوم به السفراءوالقناصل ورجال الدين في أوربا والاستانة ولبنان من مساع وخدمات لدى عواهل الغرب وخاصة الكرسي الرسولي ، ودولتي تسكانة واسبانيا[٢] .

الظروف الدوليـــة

أما الظروف الدولية والأزمات السياسية في عهد فخر الدين فقـد تبدو جلية واضحة من خلال هذه الاقوال المتداولة بين المؤرخين .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٠ - ١٢١

(٢) نفس المصدر ص ٤٠ و ١٣٤ ثم ١٤ و ١٧ منه،

يقول الخوري بولس قرألي « كان جو السياسة في الاستانـة كثير التقلب لضعف السلاطين ، وجشع الوزراء وضغط ثورة العجم الطويلة [١] .

وهي الثورة التي ضعضعت أحوال العثمانيين وأوهنت قوائم الحربيـة ، واستنفدت خزينتهم وشجعت كثيراً من رعاياهم على العصيان ، كفخر الدين في لبنان ، وجانبولاد في سوريا ، ومصطفى حسين والقلندر في الأناضول ، والشيخ مبارك وأباظـه باشا في العراق ، وأطمعت أمراء الغرب ودوله في التعدي على مراكبهم وثغورهم وشد أزر مناوئيهم بالاساطيل والاعتـدة والذخائر الحربية [٢] .

ومما يشعرنا بملائمة الظروف لمحاولات فخر الدين ما تضمنته رسالة محفوظة منه الى البابا يحثه فيها على السعي للاستيلاء على الاراضي المقدسة ، ويؤكد له ان الوقت مناسب لأن الفوضى ضاربة أطنابها في البلاد العثمانية والضعف بادٍ عليها ، وعرض فيها الامير على البابا ان يذهب بنفسه الى روميه ليتولى تنظيم هذه الحملة [٣] .

ثم رسالة اخرى منه ايضاً الى نائب ملك اسبانيا ينبئه فيهـا « بانكسار العثمانيين أمام الفرس وخسارة نصف بلادهم » الى ان يقول « وان سألتم عن العمارة بتاع الترك ما في البحر الآن عمارة أبداً » ثم يقول له فيهـا « ونحن وجهنـا نقولا - وهو رسول الامير - على مصالح كثيرة ما يمكن كتبها في المكتوب وهو يخبركم عنهـا في السر ، وان سألتم عنا فإننا لا نتغير لأن قلبنا واحد ونيتنا واحدة [٤] .

---

(١) لاحظ ص٨٨ من نفس المصدر ،

(٢) لاحظ صفحة ٨٠ ن تاريخ فخر الدين لبولس قرالي

(٣) نفس المصدر صفحة ١٤٤

(٣) نفس المصدر صفحة ١٣٩

بهذه الوسائل والظروف والاهداف المشوبة استطاع فخر الدين ان يستولي على صيدا وجبل عامل وعلى ضوء من هـــذه الوسائل والظروف والاهداف نستطيع ان ندرس تاريخ فخر الدين ونفهمه فهماً حقيقيـــاً ، وأن نتحرى الوثائق والنصوص التاريخية التي تمت الى عهده وتنبىء عن أفعـاله ومحاولاته ونفسرها تفسيراً علمياً .

فخر الدين المعني وأثره في بعث القومية

(٢)

ان كل حادث من الأحداث الكبرى وكل علم من أعلام التاريخ لا يرتكز في سيره على قاعدة من المبادىء السامية والاهداف البعيدة عن التمحل والتعنت.. يضمحل وزنه ويقل أثره على النفوس الشاعرة والعقول النيرة مهما تأنق المؤلفون في تلوين صوره وبالغ المؤرخون في ترسيخ معانيه

ومن هنا تنطلق وتتصاعد شكوك اللبنانيين في محتوى تاريخهم السياسي، وتضطرب أفكارهم وميولهم بين ما يقرأون في الكتب المغالية والصحف المتحيزة، وبين ما يطمحون اليه اليوم على ضوء الأهداف الوطنية الشاملة والمبادىء القومية الأصيلة.

فهم عندما يتصفحون تاريخهم السياسي الحديث ابتداء من عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني الى آخر عهد الامير بشير شهاب الثاني، لا يجدون في حوادثه الكبرى وشخصياته السياسية اللامعة ما يرضي طموحهم الوطني والقومي، « ويصلح رفعه الى مكانة المثل العليا والقدوة الحسنة [١] »، التي تلم شمل الجميع على اختلاف أحزابهم وطوائفهم ومناطقهم، وتوحد جهودهم فيما يصون حقهم في الحرية والاستقلال ويرفع شأنهم بين الشعوب الناهضة والبلاد المتطورة.

---

(١) الجملة للمؤرخ النابه الشيخ نسيب وهيبه الخازن.

خذ مثلاً على ذلك الامير فخر الدين المعني ألمع شخصية في تاريخ لبنان السياسي ، وابحث عن حقيقة أهدافه وحقيقة سياسته الداخلية والخارجية ، ثم عن حقيقة بطولته في كبرى الحوادث ، هل تجد فيها ما ينعش الروح القومية ويعزز الوحدة الوطنية ويوجب الإلفة والمحبة بين الطوائف والأحزاب المختلفة النزعات ؟؟

وقبل أن أفاجأ (بلا أو نعم) أرجو بكل تجرد واخلاص للواقع التاريخي أن أجاب على هذه الملاحظات والأسئلة .

ماذا وراء المساعدات الغربية لأمير الشوف

أمن الصحيح أن حكام الغرب وملوكه قد عضدوا الأمير فخر الدين وأمدوه بالمساعدات المعنوية والمادية وبالسلاح والعتاد ، وبالخبراء والقادة لمجرد أنه كان ضد الدولة العثمانية ؟ أو لأنه كان يسعى لتحرير لبنان من النفوذ الأجنبي ؟ أم أنهم عضدوه وساعدوه بكل ما يستطاع لكي يعيد الاراضي المقدسة الى الصليبيين ويستبدل مستعمراً بمستعمر ثم يكون بالتالي تحت حماية الأسياد الجدد؟؟.

أمن الوطنية اعادة الحروب الصليبية الى البلاد ؟

وإذا صح أن آل الخازن الكرام قد حالوا دون أن يعلن فخر الدين عن عقيدته المسيحية تفادياً للفواجع الدامية التي كانت لا بد واقعة وعلى رأسها وفي بدايتها حشد جميع القوى ضد (المرتد) المهروق الدم [١] .

فلماذا لم يحولوا بين الامير فخر الدين وبين إصراره على إعادة الاراضي المقدسة الى الصليبيين بأي وسيلة ؟ وبأي ثمن ؟

وهل من المعقول أن تكون إعادة الاراضي المقدسة الى الصليبيين أخف

(١) لاحظ ص ٣٦٣ ـ م ٣ ـ من الاصول التاريخية للاستاذ نسيب وهيبه الخازن .

وقعاً على نفوس العرب والمسلمين من ارتداد فخر الدين عن دين الاسلام ؟ أو أسلم عاقبة لصيانة الوطن اللبناني من مغبة الحروب الطاحنة التي تستوجبها إعادة الاراضي المقدسة الى الصليبيين ؟

أم هل كان من الجائز يومذاك ان يتسنى لفخر الدين وأمثاله من المغامرين إعادة الاراضي المقدسة الى الصليبيين بدون أن تعود الحروب الصليبية للبلاد بكل ما احتوته من اهوال وكوارث ومآسي ، ثم تكون النهاية كنهاية الحروب الصليبية الاولى دماراً وانقساماً وتعصباً ؟

على أن الذي صان لبنان وسوريا وفلسطين من مغبة تلك الحملة الصليبية لم يكن في عودة فخر الدين الى صوابه ولا في حيلولة آل الخازن بينه وبين ما يريد .. بل لأن فرنسا تحسبت لتلك الحملة التي تشبث بها فخر الدين وخشيت أن يكون نجاحها – اذا نجحت – في مصلحة أخصامها من دول اوروبا لا في مصلحتها هي ، فأرسلت الى قنصلها في صيدا (جان باتيست تاركيه) تأمره بأن يقنع فخر الدين بضرورة الابتعاد عن توسكانة واسبانيا وحلفائها .

ولما لم يقتنع ويذعن لارادتها عملت سراً على إحراق الاسطول الكبير الذي أعد لتلك الحملة ، فقضت بذلك عليها وهي تتظاهر بتأييدها ؟ ثم بعد قليل من الزمن قضي على فخر الدين وعلى حكمه ثمناً لاستمساكه بتوسكانة واسبانيا وحلفائها[1] .

سياسة فخر الدين والوحدة الوطنية

... واذا ما اعتقدنا بأن الوحدة الوطنية لا تكون بالقسر ولا تتحقق بالتحيز وتغليب طائفة من أهالي البلاد على طائفة .

فهل من الصحيح ان الامير فخر الدين كان في حكمه وادارته وسياسته

(١) لاحظ الأدلة والنصوص التاريخية صفحة ٢١ – ٢٤ م١ من السياسية الدولية في الشرق العربي للاساتذة اميل الخوري وعادل اسماعيل .

يعمل على توطيد دعائم الوحدة الوطنية بين الاحزاب والطوائف اللبنانيـة ؟ أم أن كل شيء في حكمه وادارته وسياسته كان يجري على خلاف ما تقتضيه الوحدة الوطنية ؟ كما يبدو من هذا النص الواضح .

« ... لقد ساعد فخر الدين الموارنة على الانتشار في بقية مقاطعات لبنان كالمتن ، والغرب ، والشوف ، وفي مدنه السـاحلية وثغوره كصيدا ، وصور ، وعكا ، وفي سهوله كعكار ، والبقاع ، وبلاد بشارة ، ومرجعيون ، حيث أقـام الامير على المرتفعات المشرفة على السهل الشرقي عدة قرى مسيحية لرد غارات البدو وغيرهم عن جبل لبنان ، مثل كوكبا ، وقد جلب اهلهـا من اهدن ، وجديدة مرجعيون ، والقليعة ، وأصلهم من العاقورة ، والخريبة ، وسرده وغيرها فضلاً عن قرى البقاع . وهكذا استعان الامير بالموارنة على التوسع والتوطيد ، واستعانوا به على انشاء وطن قومي لهم في لبنان [١] .

وعليه فهل يصح أن يكون فيما يشير اليه هذا النص من الاجراءات الكيفية والسياسية المتحيزة التي كان يعمل فخر الدين على تطبيقها وتحقيقها ... ما من شأنه أن يوطد الالفة والمحبة بين أبناء الوطن الواحد ؟

أم أن كل ما فيه من حقائق كان يدعو الى التذمر والقلق او الى ما يحوّل التذمر والقلق – لدى اضطراب الاوضاع العامة – الى تحد وانفجار ، كما حدث في الشوف مثلاً سنة ١٨٤١ و١٨٤٥ و١٨٦٠ من جراء السياسة المشابهة لسياسة فخر الدين في تغليب فئة على فئة ، وإيثار طائفة – من اهالي البلاد – على طائفة [٢] .

ثم عندما نلاحظ ان القرية في عهد فخر الدين كانت الملجأ الوحيد للمواطن اللبناني إذ لم يكن في لبنان يومئذ من يعرف الهجرة الى البلاد الغنية المضيافة

(١) فخر الدين المعني أمير لبنـــان ، لبولس قرألي صفحة ٤٠ من المجلة البطريركية السنة العاشرة سنة ١٩٣٥

(٢) لاحظ صفحة ٧٨ – ٧٩ من تاريخ لبنان الحديث للدكتور كمال سليمان الصليبي .

ولا كان فيه مدن كبرى كاليوم تتسع لاستيطان من يشردون عن ديارهم ، ولا معامل يعملون بها لكسب العيش بدلاً من عملهم في قراهم التي نشأوا بهـــا وألفوا أرضها وسماءها حتى أصبحت قطعة من نفوسهم يهون عليهم كل شيء إلا تركها والبعد عنها قسراً واضطراراً .

عندما نلاحظ هذا كله نزداد شكاً بسياسة فخر الدين وبأهدافه الحكيمة ثم باحترامه لعوامل الوحدة والوئام .

مظاهر بطولته في معركة عنجر

ثم هل يطمئن الباحث الى ان انتصار الامير فخر الدين في معركة عنجر كان انتصاراً طبيعياً لم يلابسه ما يشوش الصفوف ويوهي العزائم ويدعو الى الهزيمة من دسائس ومؤامرات وأهواء مريضة ؟

أم يرى أن انتصاره في عنجر كان أشبه بفصول تمثيلية منه بحوادث حرب جدية لم يشبها شائبة من المكر والخيانة ..؟؟

مصادر الشك

ومبعث الشكوك هنا أن جمهور المؤرخين يعلمون ويصرحون بأن الحاج كيوان وكرد حمزة – وهمـــا من أكبر أغوات الانكشارية نفوذاً في ولاية الشام وأشدهم تأثيراً على سير الامور السياسة والعسكرية فيها – كانا (بالمال والرشوة من عملاء فخر الدين اللامعين) (١).

أما الحاج كيوان فقد أوضحنا أمره في غير هذا المكان ، وأما كرد حمزة بلوكباشي فحسبك للدلالة على رسوخ قدمه في العمالة لفخر الدين ، ما تضمنه

---

(١) لاحظ ص ١٣٨ من الصفدي ، ثم ص ١٠٥ و ص ١١٣ و ١٢٢ من تاريـــخ بولس قرألي .

قول المؤرخ الصفدي في أخبار سنة ١٠٣٢ هـ « وفي هـــذا الشهر (شوال) جاءت مكاتيب من كورد حمزة بلوكباشي وهو بمدينــة حمص الى فخر الدين بأخبــار الجانب الشمالي .. وبالتقدير كان الامير يونس ابن الحرفوش أرسل مكتوباً الى كورد حمزة بلوكباشي يعلمه فيه بعزل ابن معن عن صفد وعمــا صار في جماعته في نابلس وعجلون وضبط الامير بشير (قانصوه) جميــع الطروش والمواشي وأظهر فيـــه البغض وشدد على كورد حمزة باغتنام هذه الفرصة لأنهــا في كل وقت لا تقع ، فاختلط هذا المكتوب مع المكاتيب التي أرسلها للأمير فخر الدين لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولو علم بذلك لمــــا أرسله فلما اطلع الامير فخر الدين على ذلك تغير خاطره على بيت الحرفوش[1].

فهذا القول والنص يدل دلالة صريحة على أن كرد حمزة كان عميلاً خاصاً لفخر الدين قبل المعركة سواء صح أن هناك مكتوباً من الامير يونس ضمن المكاتيب المرسلة من كرد حمزة أم لم يصح إذ أن مجرد تبرع كرد حمزة بإرسال أخبار الشمال وغيرها من المكاتيب لفخر الدين يكفينا دلالة على أنه كان عميلاً له قبل المعركة ، وإذن كيف تحول هذا العميل الخبير الى عدو لفخر الدين ، ثم الى حليف لأخصامه بعد ذلك بقليل ؟.

سر الوظيفـــة

أجل وأي غرابة في ذلك بعد أن علمنا أن كلاً من الحاج كيوان وكرد حمزة كان عميلاً لفخر الدين يتقلب حسب أهوائه وأغراضه ويتكيف حسب الظروف المناسبة للتآمر والدس على أخصام الأمير ومنافسيه ممـــن كانوا يعارضون سياسة فخر الدين ويرون في مظاهرها وأهدافها مــا يشكل خطراً على مصير البلاد وعلى مستقبل جل أحزابها وطوائفها .

ومن هنا وهناك يبدو الاحتمال القوي بأن يكون العميلان قد اتفقا – بعد

(١) لاحظ ص ١٣٣ و ١٣٤ من تاريخ الصفدي .

البحث عن الخطط الجهنمية – على أن يكون كل منهما في طرف من الأطراف المتخاصمة ويكون هدفهما بالنهاية واحداً، وهو تسديد الضربة القاضية لأخصام الامير بتشتيت جيوشهم وإحباط مساعيهم ؟

مظاهر التآمر

وتوضيحاً لذلك .. لاحظ أنه في الوقت الذي وصل فيه الامير فخر الدين الى قب الياس للانقضاض على آل الحرفوش وصل فيه الحاج كيوان من الشام « بحجة أنــه صار بينه وبين عسكرها منافرة » حتى كأنهما كانا على ميعاد وكأن كل شيء بينهما كان مدروساً [١] .

وانسحاب مثل كيوان من جيش الشام وحده كان كافياً لأن يحدث انقساماً في صفوف قادته وشللاً في معنويات أفراده فكيف به إذا مــا عزز بالرشوة والمال الذي كان يغدقه فخر الدين عادة في مثل هذه المناسبات والظروف على السماسرة والقادة !؟.

المظهر الثاني

ثم لاحظ انه بعد ذلك جــاء عشرة من الباباشية والبلوكباشية من الشام لأخذ الحاج كيوان الى هناك لرفع ما بينهم من شقاق ، فذهب معهم واجتمع هو وجماعته مع كورد حمزة وجماعته بحضور مصطفى باشا وأعيان الدولة، ولما تغلبت حجج أنصار كرد حمزة على حجج أنصار الحاج كيوان أصر كيوان على عناده ورجع الى قب الياس حانقاً غاضباً [٢] دون ان يعارضه معارض مع انهم اصبحوا بل كانوا في حالة حرب مع الامير فخر الدين ومعه ، مما يفرض على قادة عسكر الشام وعلى كرد حمزة بالذات ان يمنعوا كيوان من الرجوع

---

(١) لاحظ ص ١٣٦ من الصفدي

(٢) نفس المصدر صفحة ١٣٦

الى جيش عدوهم ولو بالاعتقال او بالقتل ، لو ان خصومة كرد حمزة لكيوان كانت خصومة جدية لا خصومة مصطنعة لاحكام التآمر .

المظهر الثالث

ثم من المعلوم ان سبب الحرب (في عنجر) وهدفها من قبل الامير فخر الدين ، كانوا هم الحرافشة أولاً وبالذات ، ومع ذلك كان هجوم الامير عندما التقى الجمعان في المعركة مركزاً على آلاي مصطفى باشا أولاً وبالذات ، كما يستفاد من النص التالي :

« فلما أطلت عليهم الألاليات المذكورة من المواضع المزبورة وركضت عليهم مقدار ماية خيال ركضة واحدة فانفكت ألاية مصطفى باشا وقامت الغبرة فانطلقت عليهم جميع الخيالة والازلام فتبعوهم الى طاحونة عنجر ومسكوا منهم أزيد من ماية رجل..وأما مصطفى بكلربكي الشام فما أمكنه الفرار فمسك قبضاً باليد ، ولما وصل اليه الامير فخر الدين وولده الامير علي نزلا عن خيلهما وقبلا ذيله [١] .

أجل ما الداعي الى هذا التركيز على جيش الباشا وما الموجب له ؟ غير أن أغوات هذا الجيش وبلكباشيته وقادته كانوا كلهم أو جلهم متواطئين مع الحاج كيوان والامير فخر الدين ومنقادين سلفاً لأغراضه لا يخشى منهم أن يقفوا جادين في وجه خيالة الامير او ان يحاربوا ضده ، ولهذا بادروا الى الفرار من أول وثبة وثبها جيش الامير ، قسم منهم فر نحو بيروت موطن خصمهم مما يشعر بأنهم كانوا متفقين مع كيوان على هذا النحو من الفرار ، وقسم منهم فر الى أنحاء سوريا ومنهم كردحمزة وبلكباشيته بحيث ترك الباشا وحده عرضة للأسر والهوان مما يدل على تواطؤ بلكباشية حمزة مع بلكباشية كيوان على الخيانة ايضاً [٢] .

---

(١) لاحظ ص ١٥٠ من الصفدي .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥

وكان فرارهم بالطبع سبباً لفرار بقية الجيش الذي كان معتداً بهم بوصفهم عسكر الدولة او مخدوعاً بإخلاصهم وخبرتهم وبسالتهم بصفتهم جيشاً نظامياً.

بعــــد المعركة

ثم لاحظ قول الصفدي – بعد صفاء الجو بين مصطفى باشا والامــير فخر الدين في بعلبك – واعطى الباشا الأمير فخر الدين تمسكاً (أي أمراً خطياً) انه يرسل يقتل المسوكين الذين في بيروت من البلوكباشية والبنكجرية فما قبل الامير فخر الدين ذلك وقال هؤلاء ما بقي عليهم مقدرة ، وطاول في القضية وأبدى المعذرة (١) .

لاحظ هذا القول ، ثم اسأل نفسك ما شأن هؤلاء البلكباشية المسوكين؟ ولماذا طلب الباشا قتلهم بعد المعركة بالذات؟ ولماذا دافع عنهم الامير فخر الدين ولماذا! كل هذا الاهتمام بأمرهم .. لو لم يكونوا من المتضامنين مع مستشاره كيوان على الفرار من المعركة في أول حمــلة الجيش المعني ، اشاعة للفوضى والذعر في النفوس ، وإيهاماً للجيش الشامي بوقوع الخطر والانكسار ؟

تكشف الأسرار

ثم لاحظ قول الصفدي بعد المعركة أيضاً « واجتمع أعيان دولة الشام في بعلبك بمصطفى باشا والأمير فخر الدين واتفقوا جميعاً على أن يكون الحاج كيوان آغا الانكشارية والبنكجرية بدمشق ، ولكن الحاج كيوان بعد هذا (الاتفــــاق) حمل ثقله ورام الفرار من بعلبك وهو غضبان فمنعه سكمانية الامير فخر الدين ، ثم ركب الامير بنفسه ليسترضيه ويمنعه فما قبل منه بوجه من الوجوه فعنــدئذ حول الامير عن فرسه وتقدم اليه وضربه سكينين ؟ وكملت السكمانية على أخذ روحه ودفنه (٢) .

(١) الصفدي ص ١٥٤

(٢) الخلاصة عن الصفدي ص ١٥٤ – ١٥٥

لاحظ مضمون هذا القول ولاحظ أن المركز الذي رقي اليـه كيوان هو أقصى ما كان يطمح اليه أمثاله من طلاب المراكز العالية .. فلماذا تخوف من قبوله وحاول الفرار من وجه الباشا .. لو لم يكن يشعر في قرارة نفسه أن خيانته وتآمره المكشوف الذي كان من أهم أسباب هزيمة (عنجر) لا يمكن أن تتسامح به الدولة أو يغتفر جرمه من قبل الباشا ، ولو لم يكن يعلم ويقدر سلفاً عاقبة مثل هذا الترقي والتعظيم الذي جرت عـادة العثمانيين أن يجعلوه سلماً ومقدمة للقضاء على من يحاولون الانتقام منه .

ثم لماذا أصر الامير فخر الدين على منع كيوان من الفرار مع انه كان يعلم ويشعر بكل ما كان يشعر به كيوان من دواعي الخطرعلى مصيره وعلى حياته لو ذهب مع مصطفى باشا الى دمشق ؟؟ ثم لمـــاذا قتله الامير بيده عندما عجز عن اقناعه ومنعه من الفرار ؟

أليس في هذا كله ما يدل ويؤكد على أن خيانة كيوان وتآمره ودسائسه قد بلغت من الشياع والوضوح لدى الجميع ، جميـع أركان الجيش وأركان الدولة بحيث لا يمكن لفخر الدين التستير عليها ولا المدافعة عنها وعما تقتضيه من عقـاب صارم إلا بتمرد عنيف على قوانين الدولة وتقاليدها أو بحرب لا يؤتمن عواقبها - في مثل تلـك الظروف - على مستقبل فخر الدين سياسياً وعسكرياً ، ولهذا سوغ فخر الدين لنفسه أن يبالغ في التنصل من تبعـات الحاج كيوان وأفعاله ومحاولاته (وإن كانت من أهم أسباب انتصار الامير) وذلك بأن يبادر الى منع كيوان من الفرار ثم الى قتله بيده تقرباً الى الدولة ومراعاة لاعتقاد ولاتهـــا بتآمر كيوان وخيانة بلكباشيته ، ثم مبالغة في التمويه والتزلف عاد الأمير فخر الدين - بعد أن قتـل الحاج كيوان - الى مصطفى باشا يبشره بمقتل كيوان ؟! وعاد الباشا يحبذ عمل الأمير هذا بقوله « هو - أي كيوان - كان مستحقاً لذلك من قبل الآن وهذا الذي كان مقدراً عليه استوفاه[1] » .

(١) الصفدي ص ١٥٥ .

هذا ما كان من أمر الحاج كيوان الذي انكشف تآمره في معركة (عنجر) بحيث لم يستطع فخر الدين نفسه أن يدافع عنه أو يحميه من سوء المصير الذي انتهى اليه .

وأما زميله كرد حمزة فقد كان بوسعه أن يصبح آغا الانكشارية في ولاية الشام كلها بعد أن خلا له الجو بقتل كيوان وتلاشي أنصاره ، ولكن تحري الحوادث بعد المعركة وأثناءها أظهر لمصطفى باشا من تقلبات كرد حمزة وتلونه بين عميـــل لفخر الدين قبل المعركة ، ثم حليف لأخصام فخر الدين أثناء المناورات الكلامية والدعوة للحرب ، ثم خائن ومتآمر عليهم وعلى الباشـا إبان المعركة ؟! إذ فرَّ هو وبلكباشيته تواطؤا مع بلكباشية كيوان حتى بقي الباشا وحده في الميدان عرضة للأسر والهوان [1] .

كل هذا تجلى لمصطفى باشا بعد المعركة وفي جوها ، وأثار نقمته وغضبه على كرد حمزة وبلكباشيته حتى قال عنه إذ بشره فخر الدين بقتل الحاج كيوان « ولعل الله تعالى يفعل كذلك بكورد حمزة بلوكباشي حتى تخمـــد الفتنة وتستريح مملكة الشام » [2] .

وحتى انه بعث من بعلبك الى متسلمه في الشام وإلى كبرائها وأعيانهـــا « أن يوقعوا القبض على البلوكباشية واليكجرية الذين هم من هوى كرد حمزة بلوكباشي فقامت أهالي الشام بأعيانهـا فمسكوا منهم كرد باكير وأربعة أو خمسة أنفار مـــا بين بلوكباشي ويكجري ، وخنقوهم في القلعة وانهزم محمد

---

(١) لاحظ ص ١٥٣ - ١٥٤ من الصفدي .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ .

بلوكباشي ابن توركان حسن ، وغيره من البلوكباشية واليكجرية الى جانب حمص وحماه وحلب وتفرقوا في الاقطار أيدي سبا [1] .

الانتصار بالمؤامرات لا يعد بطولة

ومما يزيدنا اطمئناناً لبواعث الشكوك وتوكيداً لأثر الخيانة والتآمر في معركة عنجر ، أن نرى ونشاهد الامير فخر الدين (وهو في عنفوان قوتـه وعظمته سنة ١٦٣٤) يضطرب من بعيد ويتهافت جزعاً مع جيشه الخاص البالغ عشرين الف محارب بمجرد ان سمع أن أحمد باشا الكجك متوجه اليه بما يقرب من عشرة آلاف مقاتل .

فلو صح أنه – بدون رشوة ومؤامرة – قد هزم اثني عشر الف محارب من جيش أخصامه بأربعة آلاف من جيشه في عنجر ، لما انهارت عزائمه وتلاشى مع جيشه العشرين الف ثم توارى بمغارة جزين بمجرد أن سمع بقدوم الكجك أحمد باشا نحو بلاده بما يقرب من عشرة آلاف مقاتل [2] .

الواقع التاريخي

وبعد فإن معركة عنجر لا تعد – لدى التمحيص – معركة بين العثمانيين واللبنانيين ، وانما هي في الحقيقة معركة أهلية بين حزب المعنية والشهابية وحزب الحرافشة والسيفلية ، كان جيش الباشا فيها بمعداته ومظاهره مع الحرافشة والسيفلية ، وبأغواته وبلكباشيته مع الشهابية والمعنية ، وانتصار حزب من اللبنانيين على حزب في حرب أهلية لا يعد انتصاراً وطنياً يصح للمؤمنين بالمبادىء الوطنية الشاملة ، والاهداف القومية الاصيلة ، أن يعتدوا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(٢) المصدر ذاته ص ٢٤٦ – ٢٤٧

به ويتحمسوا له وخصوصاً عندما يكون وراء حرب الظافرين أهـــداف استعمارية كأعادة الاراضي المقدسة للصليبيين مثلاً أو مقاصد رجعية كتغليب طائفة من اللبنانيين على طائفة وإنشاء قومية مارونية ؟!

وأخيراً فكل ما أتمناه على القارىء الكريم –حين يمعن في شكه وتثريبه– أن يرجع الى اصالة القول المأثور « بأن التاريخ لا يعرف الرحمة ولا النقمة ، وإنما يتحرى الحقائق ليسجلها بدقة وأمانة بقطع النظر عن اعتبـــارها مدحاً أو هجاء .

مظاهر السياسة العاملية في عهد المعنيين

... يقول مؤلف – جبـــل عامل في التاريخ – ص ٥٧ من كتابه هذا « كان المنكريون مثالاً صالحاً لهذا الواقع الذي تصطدم به براعة الكاتب الماهر والمفكر المصيب كلما أجالها على جبين القرطاس ، فإن ثورتهم على المعنيـــين ليست إلا ثورة أحرار على أغـــلال ، ومجازفة الضعيف في حقـــه فإنهم أرادوا أن يرغموا عدوهم بقوة الحق والاخلاص ليس إلا ، وإقـــدامهم على محـــاربة الامير يونس المعني بعدما خفوا لتوحيـــد كلمتهم قبـــل هرب أخيه الامير فخر الدين المعني يدلنـــا على مـــا يحملونة من حنكة وتجربـــة وغيرة ملتهبة » .

ثم يقول في ص ٥٨ من الكتاب « ذلك العهد هو عهـــد الاقطاعية المظلمة التي يلعنها عصر النور ، والتي وثب المنكريون لتحطيمها ، وأعانهم الحرافشة وفي حياة ابن منكر – أي الحاج علي منكر – نقاط تستدعي الإكبار وتثير الإعجاب ، تأليف العامليين وجمع كلمتهم وإقناع الزعماء بكفاءته ومقدرته ، ومن ثم رأسوه عليهم ، واصطدامه مع المعنيـــين وهو ضعيف وهم أقوياء ،

وإصراره على مبدئه ، واتخاذه مع الحرافشة رداً ومجناً وساعداً ومساعداً هذه نبذة من حياة ابن منكر في بضع سنوات » .

وإنا مع احترامنا لمكانة آل منكر السياسية في هذا العهد ... لنأسف أشد الأسف أن يكون المصدر الوحيد لهذا القول من المؤلف .. هو مجرد الخيال والحدس إذ لم نجد له – حتى الآن – ما يبرره ويدل على صحته من نص صريح ، أو منطق سليم ، أو واقع مدرك ، ولعل الشيء الذي طوّح بخياله الى هذه الهواجس والصور التي افترضها لزعماء آل منكر ، هو ما أورده الصفدي ص ١٦ من تاريخه إذ قال في حوادث سنة ١٠٣٢ هـ ما نصه « ودخل – الامير فخر الدين – الى تحت قلعة الشقيف وأناخ هناك للاستراحة ، فجاء اليه أناس اشتكوا من أولاد علي مشايخ قرية الكوثرية بأن جماعتهم شلحوا أناساً وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية ، فركب عليهم بخيله ورجله فما وجدهم بالقرية بل كانوا غائبين في جمعية بني متوالي ، وصار كبيرهم الحاج علي وأخوه ناصر الدين ولدي منكر ؛ فنهب جميع أرزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم قرية الكوثرية المذكورة وأخذ ما لكل واحد منهم الدواب وغيرها ليتأدب غيرهم وعاد الى خيامه تحت قلعة الشقيف وأقام يومين » على ما جاء في حوادث سنة ١٠٢٢ هـ .

ثم جاء الامير حيدر الشهابي المتوفى سنة ١٨٣٥ م و ١٢٥٠ هـ فلخص بدوره هذا القول ص ٦٣٠ من تاريخه (الغرر الحسان) ولكنه نظراً لقلق عبارة الصفدي وغموضها ونظراً لشهرة بيت علي صغير في زمن الشهابي – بحيث كان يظن البعيد عن جبل عامل أن كل شيخ من مشايخ المتاولة هو من أولاد علي الصغير حتى مقدمي جزين كما يستفاد من رواية دواني القطوف ص ١٥٧ و ٢٥٠ ومن كتاب لبنان ص ١٤٥ . ومن قول الشيخ ناصيف اليازجي « وفي اقليم جزين قوم من المقدمين ينسبون الى بني علي الصغير مشايخ بلاد بشارة ولم يزالوا الى الآن يتزوجون من أطراف المشايخ المذكورين بني

علي الصغير لكنهم التحقوا بأمراء رأس نحاش في الفقر والهوان بعد أن كانوا ذوي صولة في البلاد ولما سقطت منزلتهم صارت القرية التي هم فيها لقباً لهم فصاروا يعرفون بمقدمي جزين [١] . ومن هؤلاء المؤرخين العامليين الذين حسبوا أن عباس العلي صاحب قلعة ميس من آل الصغير مع انه أخو الشيخ محمد العلي بن علي منصور منكر [٢] ومع أن قلعة ميس لم تكن خارجة عن دائرة حكم آل منكر من الشومر : حسب – الشهابي – ان المراد من قول الصفدي (أولاد علي) هم أولاد علي الصغير فعدله على موجب هذا الظن وأضاف لفظة (الصغير) الى كلمة أولاد علي ثم رواها كذلك فسببت هذه الاضافة وهذا التعديل لمؤرخي جبل عامل الذين اعتمدوا على رواية الشهابي شيئاً من الاضطراب في التفسير والاستنتاج والحكم ، لأنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار صورة النص الأصيل – بجميع النسخ المخطوطة – ولم يلاحظوا بقية القرائن التي تساعد على ضبطه وتصحيح المراد منه .

(١) فلو أنهم لاحظوا أن الصفدي في كل جملة تعرّض بها لآل الصغير كان يذكرهم ويقول (أولاد علي صغير) إلا حين ذكر مشايخ الكوثرية الذين بدأوا يقطعون الطرق سنة ١٠٢٢ هـ كما تنص على ذلك عبارة الصفدي .

(٢) وأن الكوثرية كانت ولم تزل من قرى اقليم الشومر ، وان اقليم الشومر هذا لم يحكمه ويستوطنه من الأسر الاقطاعية سوى آل منكر في جميع العهود العثمانية الى أن كفت الدولة أيدي الأسر الاقطاعية في عاملة عن الحكم سنة ١٢٢١ هـ ووزعت قرى الشومر عليهم تعويضاً عن أملاكهم ، وحصرت وجودهم فيه [٣] .

(٣) ولو أنهم تبينوا من قول الصفدي المتقدم أن المراد من كلمة (وصار

---

(١) رسالة اليازجي ص ١٣

(٢) الركيني في العرفان م ٢٨ ص ٤٥٣

(٣) العرفان م ٢٦ ص ٧٧ نبذة من تاريخ سليمان باشا للمعلم ابراهيم العورا .

كبيرهم الحاج علي) وسار كبيرهم الحاج علي إذ كثيراً ما نرى مؤرخي العهود التركية الذين كتبوا التاريخ باللغة الشعبية.. يكتبون الصاد سيناً والسين صاداً ككتابة قرية سعسع صعصع وقيسية قيصية ، ويخسرهم يخصرهم، والمساقب المصاقب ، وسرف صرف ، وسار صار ، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى لمن يراجع كتبهم وإلا فأي معنى - في مثل ذلك المقام - للأخبار بأنه صار وأصبح كبير المتاولة أو زعيمهم فلان وفلان ؟

(٤) أو أنهم تحققوا بعدُ أن الضمير في قول الصفدي (وصار كبيرهم الحاج علي وأخوه ناصر الدين) عائد الى كلمة (أولاد علي) لا الى بني متوالي كما توهم المؤلف ، وذلك لتوالي الضمائر الخمسة التي جاءت بعد هذا الضمير من قول الصفدي فنهب جميع أرزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم قرية الكوثرية وأخذ ما لكل واحد منهم من الدواب وغيرها ليتأدب غيرهم في رجوعها الى كلمة (أولاد علي) .

(٥) ثم لاحظوا أن كبير البلاد وزعيمها لا يكون عادة اكثر من واحد فكيف يصير اثنين ؟! ومن أسرة واحدة ! - كما يزعم المؤلف - مع وجود أسر منافسة لها لا تنقص عنها قوة ونفوذاً واعتداداً بكفاءتها ، ان لم تكن أشد وأقوى واكثر اغتراراً بأهليتها للزعامة العامة كما يستفاد من فحوى النصوص والأقوال الشائعة عن آل شكر ، ومنها قول المؤلف نفسه ص٢٧ .

(٦) ثم رجعوا بعد هذا لقول الصفدي ص ٣٧ « ثم سمع حافظ أحمد باشا أن أناساً من أهل الشوف الحيطي مجتمعين في مرج بسري ، فعين لهم من جماعته حسن آغا حاكم صيدا ، وعين معه اليازجي محمد آغا بلوكباشي وبقية البلوكباشية بجميع طائفة السكانية ، وعين الحاج علي ابن منكر وأخاه الحاج ناصر الدين من مشايخ بلاد صيدا اللذين هما أخبر بأراضي تلك البلاد » .

ولقوله ص ٦٩ « وكان قد بلغ الأمير فخر الدين أحوال مشايخ بني متوالي

أثناء غيابه ومقابلتهم لابن الحرفوش في قريـــة مشغرا فحين وقعت عينه على الحاج ناصر الدين بن منكر مسكه لأنه من أعيانهم ».

لرأوا أن الصفدي بكلا النصين لا يشعرنا بأن الحاج علي وأخاه او بأن واحداً منهما هو زعيم المتاولة ، وإنما جعلهما في النص الأول من بعض مشايخ بلاد صيدا وجعل أحدهما في النص الثاني من أعيان المتاولة لا زعيمهم الأكبر.

(٧) ثم لتأكدوا من خلال ملاحظاتهم وتحقيقاتهم ومن جميع الاعتبارات الداخلية والخارجية أن المراد من قوله : أولاد علي هم مشايخ آل منكر في الكوثرية ، ومن قوله : صار كبيرهم الحاج علي سار كبيرهم – الى جمعيـة بني متوالي – .

وعلى هذا يكون جميع ما رتبه المؤلف على رواية الصفدي والشهابي من تفاسير وافتراضات خيال في خيال لا أساس له من الواقع بل قد يكون الواقع على عكس ما يريد ، إذ يظهر من هذه الجمعية التي أشار اليها الصفدي في نصه ذاك ... ان العامليين كانوا يحاولون – مع العثمانيين – الانتقـاض على الامير فخر الدين لما لاقوه في عهده من جور وتحامل ، ففي عهده الأول بدأ الضغط على الشيعة في إقليم جزين ، وفي عهـــده الأول أحرقت مكتبة آل زين الدين الكبرى في جبع وتشرد علماؤهم ، ولكن تسرع آل منكر في الكوثرية الى النهب والشغب قبل انعقاد جمعية العامليين او اثناء انعقـــادها أضاع عليهم نتائج خططهم ومحاولاتهـم ، ونبه الأمير فخر الدين للقضاء على حركتهم في مهدها قبل أن تصل اليه ضربة الحكومة وقبل أن يغادر البلاد الى أوربا ، ثم ان هذا التسرع ضاعف نقمة المعنيـــين على العامليين وجعلهم يراقبون تصرفاتهم بريب وحنق ويعدون لهم أعنف القصاص لدى أول فرصة تسنح ، كما حاولوا أن يقتصوا من الشكريين سنـــة ١٠٢٣ هـ ، وكما اقتصوا منهم بعد رجوع الأمير فخر الدين من أوربا سنة ١٠٢٧هـ يوم ألح على بيوتهم وبيوت آل منكر في الهدم والتدمير .

وإنا حين نقرأ ص ٦٤٠ من تاريخ الشهابي إذ يروي أن الحافظ أحمد باشا « أتى الى مرجعيون وعيّد هناك عيد رمضان سنة ١٠٢٣ هـ وانتقل الى حصار قلعة الشقيف ، فأخبر أن السلطان أحمد قتل نصوح باشا الوزير ، وتولى على الوزارة محمد باشا قبودان الذي كان ساري عسكر البحر ، وقد كنا ذكرنا أن الامير فخر الدين قدم له تقدمة لما مر عليه معزولاً عن مصر ، فلما عرف بذلك الحافظ أحمد باشا رجع الى الشام ، وكل من كان معه رجع الى مكانه ».

أو نقرأ ص ٣٠٥ من تاريخ الدويهي إذ يقول «في سنة ١٠٢٢هـ و١٦١٣ م وردت البشائر بأن السلطان أعزل أحمد باشا عن محافظة الشام واعطاها لجركس محمد باشا – صديق المعنيين – فأرسل متسلمه وأمره ينادي بالأمان ويرجع جميع النزاح ، وحين قدم الوزير محمد باشا قبودان الى حلب بعث أطلق سبيل الست وعلماء الشوف وأرسل منديل الأمان وعفو نامه للأمير فخرالدين ليرجع الى بلاده بأمان».

ثم نقرأ ص ٣٩ من تاريخ الصفدي .. نرى – من هذا الاستقراء – أن المعنيين لما اطمأنوا بعض الاطمئنان الى مستقبلهم في الحكم أخذوا يفكرون في أساليب الانتقام ويهيئون الوسائل الجهنمية للتنكيل بالعامليين وشن الغارات على مراكز الحكم والقوة في بلادهم ، كما يستشف من قول الصفدي ص ٣٩ – ٤٠ إذ يقول « وفي هذه الشتوية – شتوية سنة ١٠٢٣ هـ – كان طويل حسين بلوكباشى سردار قلعة الشقيف أرسل ناساً من السكمان ومن خدمه الذين يخدمونه لينهبوا من بلاد صيدا قرايا وينهبوا العرب المعتادين بالنزول في الحولة فيبيعوا نصف المكسب ويصرف في علف الطائفة السكمانية[1] والنصف

(١) المراد من العلوفة هنا ، المعاش . ومن الطائفة ، الجماعة . ومن السكمانية بفتح السين الجند المأجور أو الخدم المعدين للصيد والقنص .

الآخر يتقاسمونه بينهم ، فعند ذلك حصل الطائفة التي في قلعة بانياس الغيرة وقالوا لسردارهم حسين اليازجي أرسلنا نحن أيضاً الى مكان يحصل لنا منه فائدة، فعين من عنده ثلاثماية من الرجال وأرسلهم الىطويل حسين بلوكباشي بقلعة الشقيف ، فعين الطويل من عنده ايضاً نحو مايتي رجال فتوجه الجميع وكبسوا قرية عيناثا من بلاد بشارة وكان قد رجاهم النذير فجمعوا اليهم ناقلي العدد من القرايا القريبة منهمووقع بينهم القتال فقتل علي قول أو غلي سردار السكمانية المعيَّن عليهم فانكسروا وعادوا الى مواضعهم فتبعهم أولاد شكر وجماعتهم الى قرية عين الدقيقة من الحولة وفقد منهم عشرون رجلاً وجرح منهم مجاريح ، فعند ذلك عملت الطائفة التي في القلاع الميدان على البلوكباشية الحاضرين الواقعة وعدتهم ستة أنفس على وجـــه السرعة وطووا بيارقهم وأعادوهم الى حزب النفر ».

ولدى التفكير برواية الصفدي – وهو كما يتضح من مقدمـــة كتابه لم يؤلف تاريخه هذا إلا تقربـاً من الامير فخر الدين وانقياداً لحكمه ومشيئته ممـــا يفرض عليه أن يكيّف الحوادث وأسبابها ومسبباتها بالصور التي ترضي الامير ولا تمس كبرياء المعنيين أو تفضح دخائل سياستهم العارمة . ومع هذا يبدو لنا من خلال الرواية أن هذه الغارة التي شنهـــا قادة المعنيين على آل شكر لم تكن وليدة الصدف أو من وحي الطمع بالنهب والسلب ، وإنما كانت عن سابق تصميم ونتيجة مخابرات طويلة بين القادة ، وبعد تفكير دقيق في وضع الخطط الجهنمية للغدر والفتك وإلا فمحاولة النهب وحدهـــا لا تقتضي المعنيين أن ينظموا قوتهم ويوحدوا قيادتهم ويحشدوا مثـل هذا العدد الكافي الإيقاع بجيش كبير منظم ، كما قد أوقع علي الظاهر ابن الشيخ ظاهر العمر بجيش عثمان باشا الصادق وشتته واستولى على أسلحتــه وذخائره بمثل هذا العدد وبمثل هذه المباغتة [١] التي حاولهـا رجال المعنيين يوم باغتوا

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٢٣

الشكريين في قرية عيناثا على بعد المسافة بينها وبين قلعـــة الشقيف وقلعة بانياس ، ومع وجود قرى أقرب وأخصب وأيسر تناولاً للنهب والسلب منها؟

وابتداء المعنيين بآل شكر دون غيرهم من قـــادة العامليين بهذه الغارة الكبيرة وهذه المباغتة المنظمة للفتك والتنكيل والانتقام .. يشعرنا بما كان للشكريين يومئذ من مزيد السطوة والنفوذ في عاملة . فلو لم يكونوا إذ ذاك نقطة الدائرة في سياسة البلاد أو أنهم هم القوة التي يخشى بأسها لما كانوا أول من يسعى المعنيون –الى خضد شوكتهم وتشتيت كلمتهم– بهذه الحملة المدمرة وهذا الاسلوب الغادر الذي يشف عن مدى الحقد والنقمة عليهم وعلى ساستهم ومدبريهم .

مواضع الشك

ثم لعل الباحث يلاحظ ما ألاحظه – في مجموع هذه النصوص التاريخية التي تشف عن سياسة العامليين وخططها بين سنة ١٠٢١ و ١٠٢٨ هـ – من أن مشايخ بيت علي الصغير كانوا يشتركون مع مشايخ البـلاد العاملية في كل ما يثير نقمة الحكام المعنيين عليهم ، فقد تظاهروا ضد المعنيين مع مشايخ آل شكر وآل منكر في تأييد حسين اليازجي يوم تولى سنجقية صفد ، – وكان جبل عامل أو بلاد بشارة الجنوبية من توابع هذه السنجقية –على ما يبدو من مراجعة الصفدي ص ٦٠ و ٧١ ومن مراجعـــة الشهابي ص ٦٥٤ إذ يقول « وكتب (حسين اليازجي) الى جميع أهالي بلاد صفد يعلمهم بتقرير سنجقية صفـــد لعهدته ، فالبعض من مشايخها لم يوافقوا على ذلك والبعض وافقوا مثل بيت منكر وبيت شكر وبيت علي الصغير » اؤ من مراجعـــة الدويهي ص ٣١٠ إذ يروي ما نصه « في سنة ١٦١٧ م و ١٠٢٦ هـ توجـه حسين اليازجي الى صفد فقبله مشايخ قبلة أعني بيت منكر وبيت شكر وأولاد علي صغير وفي جماد الأول طلب ابن معن التوجه الى صفد بألف رجل فتواقع مع جماعـــة حسين اليازجي عند الوعرة » .

ثم تظاهر آل الصغير كذلك مع آل منكر وغيرهم من وجهاء البلاد في الاتصال بالحرافشة وزيارتهم في قرية مشغرة على الرغم من استيـــاء المعنيين لذلك وخوفهم من نية منافسهم الامير يونس الحرفوش يومئـــذ ، كما يتضح من قول الصفدي ص ٦٦ « وقبل هذه الاحوال كان صار نصيب الامير احمد ابن الامير يونس الحرفوش في مصاهرة الامير فخرالدين بن معن وعقد عقد نكاحه على كريمته فغره الطمع بتدبير والده وحيله فجاء وسكن قرية مشغرة وأسس بها أساس بنيان ليعمر فيها مسكناً له فيه يقيم ، وصار يراسل ويكاتب بني متوالي من المشايخ المتعينين فطلع اليه من شيعته وملته بهـــدايا أولاد داغر ، وأولاد علي الصغير ، وابن منكر الحاج ناصر الدين بحجة انهم يسلمون على قرابتهم الحاج علي بن منكر لكونه كان نازحاً عنهم مذ رجع الامير علي الى البـــلاد وحكمها ونازلاً عند ابن الحرفوش الامير يونس . فلما رأى الامير علي ذلك وعلم ان مجيء الامير أحمد المذكور الى مشغرة مبني على فساد وانه ما مراده المجيء الى هذه القرية إلا استمالة بني متوال اليه واجتماعهم عليه وإن كان ظاهره ان مراده بالبناء في مشغرا ان يسكن شقيقة الامير علي بهـــا . فأرسل الامير علي لأبيه الامير يونس الحرفوش مع السيد نور الدين من قرية جبع يذكر له ان كان مرادكم محبتنا وصداقتنا فامنعوا ولدكم الامير أحمد من البناء في مشغرا ومن السكن بها أيضاً فإنه ما يتأتى من ذلك إلا العداوة بيننا والبغضاء فأرسل جواباً يوهم أنه صحيح وقال نحن ما مرادنا إلا التقرب الى جنابكم بالمليح وان الذي خطر في بالكم لم يخطر ببالنا ، وذكر أعذار على هذا المنوال غير مقبولة ولا معقولة . فأرسل الامير علي مرة ثانية السيد نور الدين المذكور انه لا بد من منع ذلك ان قصدتم صداقتنا على اليقين وإن كان لـكم نية غير ذلك فعرفونا بها لنكون على بصيرة ، فأرسل قرايبه امير حاج الى الامير علي لينوب عنه في الاحتجاج ويبين الأعذار ويوضح الاخبار وأرسل الى ابنه يمنعه من العمارة ومع هذا كله ما انقطعت حكاياتهم ومراسلاتهم الى مشايخ بني متوالي وهم لم يمتنعوا من التردد اليه » .

ثم من الطبيعي أن يكون آل الصغير قد تظاهروا مع مشايخ العامليين في اجتماعهم للانتقاض على المعنيين يوم كان المعنيون مطاردين من قبل والي الشام أحمد باشا الحافظ إذ لا يعقل أن يتظاهر آل الصغير مع العامليين في الاتصال بالحرافشة وفي تأييد حسين اليازجي ضد المعنيين بعد أن صفحت الدولة عن هؤلاء جميعاً واطمأنوا الى مراكزهم في الحكم .. ولا يتظاهروا مع العامليين في الانتقاض على المعنيين يوم كانوا مطاردين من قبل الدولة ومن قبل جميع الأحزاب اليمنية ؟

ومع كل هذا التظاهر ضد المعنيين لم نرهم تعرضوا لآل الصغير بسوء أو أشركوهم في العقاب الذي حاولوه سنة ١٠٢٣ هـ أو في العقاب الذي أوقعوه بآل شكر وآل منكر وأتباعهم من آل أبي شامة وآل داغر سنة ١٠٢٧ هـ كما يتضح من رواية الصفدي إذ يقول ص ٧١ : « وسأل الامير فخر الدين ولده علي هل لك على البلاد مال ؟ فذكر أن له على بلاد صفد القسط الثاني المعتاد أخذه في زمن الزيت وهذا أوان أخذه ، فتوجه الامير فخر الدين بنفسه الى عكا وفرق القصاد على سائر البلاد لجمع المال المذكور ، وفي ذلك الوقت طاحت مشايخ بلاد بشارة بيت شكر ، وأولاد علي صغير وكلهم راحوا الى عند الأمير يونس ابن الحرفوش ، فلما بلغ الامير فخر الدين هجاج مشايخ بلاد بشارة ، أرسل هدم بيوت أولاد شكر في عيناثا والحاج علي ابن أبي شامة في بنت جبيل ؛ وفرحات داغر في قرية أنصار، والحاج ناصر الدين ابن منكر في قرية الزريرية ، وولده في قرية حومين الفوقا ، وضبط جميع غلتهم -- الى أن يقول -- وجميع هؤلاء الطايحين كانوا أولاً قابلوا الامير فخر الدين في عكا وما قصده ضرر أحد منهم غير الحاج ناصر الدين ؛ فبعد ما فارقوه ما عادوا قابلوه » .

وقول الصفدي في هذا النص « وجميع هؤلاء الطايحين كانوا قابلوا الأمير فخر الدين في عكا أي -- يوم رجع من أوربا -- وما كان قصده ضرر أحد

منهم ... فبعد ما فارقوه ما عادوا قابلوه ، يشعرنا بأنه لم يكن همّ الأمير فخر الدين من هذا التوجه الى صفد هو مجرد جمع المال وإنما كان جل همه أن يعاقب ويباغت من كانوا موضع نقمته وغضبه من العامليين والصفديين ، وإلا فجمع المال يمكن أن يقوم به أحد كواخيه أو أبنائه على خير ما يريد ، كما أن دفع العامليين والصفديين القسط الأول – بوقته – وعدم مضي الوقت على دفع القسط الثاني .. يشعرنا بأنهم لم يكونوا عاصين في دفع المال ولا محاولين لأن يعصوا به » .

وبعد فما السر في استثناء آل الصغير من هذه التعقيبات ؟ وما الذي دعا المعنيين – في عنفوان قوتهم وانتصارهم – الى غض النظر عنهم أو الى حسن الظن بهم دون غيرهم من مشايخ العامليين ؟

ألأن آل الصغير كانوا من السطوة والقوة بحيث يخشى المعنيون بأسهم وخطرهم فيضطروا الى مجاملتهم والى التسامح معهم ؟ وفي هذا ما فيه من دواعي الشك والريب لأن جميع الروايات حتى رواية آل الصغير أنفسهم عن أسلوب انتقامهم وسبب فتكهم بآل شكر تدل دلالة صريحة على ان الشكرية كانوا أشد بأساً وأوسع نفوذاً .

أم لأن آل الصغير كانوا يشتركون ظاهراً مع بقية الزعماء والمشايخ العامليين فيما توجبه الضرورة وتقضي به الاعتبارات السياسية والعرفية ... وينقادون سراً لوحي الحكام المعنيين وإشارتهم .. اغتراراً منهم بمناعة القوة الحاكمة ، أو تحدياً لاهداف الجبهة المعارضة ! كما هي الحال في سياسة الزعماء الموالين لكل سلطة تتولى الحكم مهما يكن من أمرها ؟

ولهذا يقوى احتمال المشككين بأن يكون هذا الاسلوب من سياسة آل الصغير أحد العوامل الرئيسية في القضاء على نفوذ آل شكر في عاملة ، وإلا

فالوقوف عند ما تصوره الاساطير والقصص المؤلفة لنشأة جدهم علي الصغير ومباغتته للشكريين في قانا أو تبنين أو عيناثا – وهم في نشوة من الغبطة والفرح بأعراس بنيهم – يزيد في الشك والتساؤل عن موقف السلطات العليا من بشوات الاتراك والأمراء الوطنيين إزاء هذا الحادث الفظيع الذي يمس مصالحهم وسيادتهم ، ويحملهم أكبر المسؤولية .

قصة علي الصغير مع الشكرية

يوشك أن يجمع المحققون من مؤرخي لبنان على عروبة أبناء عاملة [1] وعروبة أسرهم النابهة ما خلا الأسرة الصعبية التي تفردت بانتمائها لسراة الاكراد وتسنى لها أن تستغل هذه النسبة لدى طغيان الأجانب وانتكاب العامليين بحكمهم الجائر ، وانه لا يعترينا شك بصدق انتساب معظم الأسر العاملية – وفي مقدمتها أسرة علي الصغير – الى أصل عربي كريم ، ولكن موضع الشك هو في صحة ارتباط هذه الحلقات المشوشة –من أسماء الأعلام– في سلسلة الأنساب العاملية وفي صدق اتصالها اتصالاً وثيقاً كاملا بأرومة القبيلة التي تنتمي اليها أي أسرة من أسرنا حتى الأسر المنتسبة الى الأوس والخزرج! وحتى بعض من ينتمون لقريش وهاشم ، على عناية هؤلاء في حفظ جداول الانساب .

وإني إذ أتقدم اليوم بمثل هذا الزعم لا بد لي من بسط الحجج والمآخذ بين يدي القراء ، ولا بد لي – مراعاة للوقت ، وترف القراء ، ومجال الصحيفة المحدود – من أن أقتصر على قصة واحدة من قصص الانساب وهي

---

(١) راجع مقال الأب لامنس اليسوعي فيما تقدم من هذا الكتاب

قصة علي الصغير ، إذ كانت من ألمع القصص في تاريخ الأنساب العاملية وإذ هي موضع البحث والاستشهاد في تاريخنا السياسي ، وقد رويت في سلسلة النسب العائلي على أوجه مختلفة نجتزىء منها بما رواه الحاج محمد سهيل واضع سلسلة نسب آل الصغير في مجموعة من خطه وانشائه . وما رواه شبيب باشا الأسعد ص ١٦ – ١٨ من ديوانه ، وما رواه العلامة السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة م١٥ ص ١٠٣–١٠٥ مع شيء من التعليقات والمقارنات جعلته وسيلة للشك وصحة الاستنتاج وذريعة لتصفية التاريخ من إسراف القصص والقصاصين في الإغراب والافتراض .

الفصل الأول من القصة

يقول الحاج محمد سهيل في فاتحة القصة ما نصه « تاريخ بداية عائلة آل علي الصغير وهي عائلة قديمة تنسب الى وائل بن ربيعة بن نزار ، فمن سلالة وائل هجرس، ومنه هرمون ، ومنه شامان ، ومنه عبد الله ، ومنه سالم ، ومنه جندل ، ومنه شعلان ، ومنه ناصيف ، ومنه حمد ، ومنه جمان ، ومنه حويشان، وحويشان تخلف بأحمدوبولد آخر غيره الذي منه فارس آغا، فأحمد تخلف بحسين ، وحسين تخلف بعلي المدعو علي الصغير ، فأصل وجودهم بهذه الديار ، وهو ان أحمد بن حويشان وأخوه أتيا من البادية فنزل أخوه بغوطة الشام وهو أتى على ناحية الجيدور ونزل بقرية من قراها يقال لها (سكيك) وكان إذ ذاك بشارة المغني حاكماً على جبل عامل ومركزه بقرية زبقين (١) من أعمال صور الآن، فقام أحمد الحويشان المرقوم من منزله قرية سكيك ونزل ببلاد بشارة حسب عادة العرب ، فسمع بشارة به وبأوصافه فأتى زائراً له وكان أحمد المذكور من البراعة والشيم والشجاعة والكرم على جانب عظيم ، فبعد أن نزل بشارة برحابه تلقاه بالرحب والسعة وقام بأود ضيافته حق القيام فلما رآه بشارة على الحالة التي تقدم الذكر عنها طلب منه أن يكون بحاشيته برسم مستشار فأبي واعتذر له واستعفى من

ذلك فلم يقتنع بشارة بأعذاره ولا اقتبلها منه وأضمر في نفسه أنه إذا وجد عندي شخص نظير هذا استغني به عن عدة رجال يكونوا من أفراد الناس لما رأى من استعداداته فلح عليـه وأظهر له أمارات الحب والميل القلبي فأجابه لمسؤوله بعد محاورات طويلة فتوجه هو وإياه ، وقلب بشارة يرقص فرحاً على ما حصل بيده .

فبقي مدة عند بشارة هو المقدم في الاعزاز والاكرام برسم ولده وهو المتصرف بالأشغال والآمر الناهي بها كيف شاء ، وكانت بذاك الوقت صيدا وزارة (٢) فحصل بين وزير صيدا وبين بشارة مباينات لبعض أسباب اتصل بينهم الأمر للحرب فكل منهم جرد الجرود واستعدوا للقتال فجهز بشارة جيوشه وعساكره وجعل القائد على الجيش أحمـد المرقوم ، فعند مصادمة الجيشان فعل احمد المذكور أفعال مستغربة تنذهل منها العقول من الشجاعة التي أظهرهـا ومن ترتيب عساكره وتنظيم جيوشه فكانت الغلبة على وزير صيدا وما النصر إلا من عند الله ، فانكسر الوزير هـو وعساكره وولوا الأدبار فتبعهم احمد الى ارض خيزران موقع محل بقرية السكسكية فهناك ظفر بالوزير فذبحه وأخذ ما كان معه من السلب والمهمات وكان بيد الوزير خاتم الحكم فقطع خنصره والخاتم بهـا ليقدمه الى بشارة والذي هرب من عسكر الوزير فاز بالحياة (٣) والذي أبى الهرب ورد الهلكات كما قال المتنبي أبي الطيب :

فحب الجبان النفس أورده البقـا وحب الشجاع الحرب أورده الحربا

ورجع احمد الحويشان غانماً كاسباً منصوراً فازدادت محبته عنـد بشارة حتى انه ما عاد تعاطى شيء وكلمـا صارت بيد أحمد ، وكان بشارة المعني المرقوم ليس لـه أولاد ذكور وكان له بنت فايقة بالمعارف والأدب والعفة وعلو النفس فبعد إياب أحمد من سفره هذا الميمون فوراً عقد له عقد نكاح علي ابنته السالفة الذكر (٤) فبقي أحمد هو صاحب الحل والعقـد والأمر

والنهي مدة عمر بشارة ، وما كان إلا قليل مات بشارة فسبحان الحي الذي لا يموت يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين ، فتولى أحمد مكان عمه واستولى على جميع ما احتواه بشارة (٥) فبقي صافياً له الوقت راتعـــاً في رياض العز ، فتخلف بحسين ، وحسين تخلف بعلي المدعو علي الصغير ، الذي له الوقعـــة المشهورة مع بيت شكر فنذكر منها طرفاً غير مطول » .

ما يلاحظه الباحثون

١ – بيد أن الامير شكيب أرسلان يقول ص ٤٤٧ من العرفان م ٢ « أما الأمراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم من اسمه بشارة » وان من يستقري تاريخ العهد المعني من البداية الى النهاية لا يجد في حكامهم من سكن جبل عامل فضلاً عن (زبقين) وإنما كان مقر حكمهم يتراوح بين بعقلين ، ودير القمر ، وصيدا ، وبيروت .

* * *

٢ – وان صيدا لم تصبح في عهد المعنيـــين (إيالة) او مقراً للولاة على اختلاف ألقابهم من نواب ووزراء وباشوات وبكلربكية إلا سنة ١٠٧١ هـ في أيام الامير أحمد المعني آخر حكام المعنيين كما يتضح من مراجعـــة الدويهي ص ٣٥٩ والشهابي ص ٧٣٣ ودواني القطوف ص ١٩٤ .

* * *

٣ – وإن المؤرخين على اختلاف لهجاتهم لم يشيروا بشيء الى وقوع هذه المعركة بالقرب من خيزران أو غيره فكيف نتصور معركة يقتل فيهـــا وزير الدولة ويظفر بها أمير البـــلاد ، ثم تبقى مجهولة مهملة من المؤرخين مع انهم لم يهملوا ما هو دونهـــا خطراً من الحوادث ؟ ثم إنا حين نقرأ ص ١٤٣ من كتاب لبنان وص ٢٤٨ من الدواني أو نقرأ غيرهمـــا من تواريخ العهـــد الاقطاعي نرى ان تقاليد الحـــكم الاقطاعي وأنظمته لم تكن تسمح بقتل أو

إهانة أحـــد من أصحاب الرتب والامتيازات الرسمية كالامراء والمقدمين والمشايخ فضلاً عن البشوات والوزراء ، ومن يطالع ص ١٥٠ –١٥١ من تاريخ الصفدي يرى ان الأمير فخر الدين المعني في أوج عظمته وانتصاره لما حارب باشة الشام وكسر جيشه وتمكن من الباشا نفسه في وقعة مجدل عنجر ترجل عن فرسه وقبل أذيال الباشا تأدباً واحتراماً ! !

* * *

٤ – لقد ذكر المؤرخون جميع الأسر التي صاهرها الحكام المعنيون ، كآل شهاب ، وآل الحرفوش ، وآل سيفا ، ولم يذكروا مصاهرتهم لآل علي الصغير ومن يراجع ص ١٥٣ من كتاب لبنان يرى انه كان من التقاليد المرعية في العهد الاقطاعي ان لا يتزوج كرايم الأمراء ممن هم في رتبة المشائخ ولا كرائم المشائخ ممن هم دونهم رتبــة ومكاناً ، الى غير ذلك من التقاليد والاعتبارات المرعية بين الأسر مما يحول دون مصاهرة آل الصغير للأمراء المعنيين .

وحسبك لتطمئن الى أثر هذه المنعنات والتقاليد في نفوس أبناء الأسر الاقطاعية ان تقرأ بمجمل هذا الحادث الفظيع الذي يرويه صاحب أخبـــار الاعيان على النحو التالي :

«وسنة ١٦٦٠ ولـّى أحمد باشا الكبرلي الشيخ سرحان العماد جبل الشوف مكان الامير أحمد المعني وأخيه الأمير قرقماس حين اختبأ ؛ وفي ذات يوم طلب أن يتزوج احدى بنات الامراء المعنيين فلم يؤذن له ؛ وسنة ١٦٦٤ عندما رجعت الولاية الى الأمير أحمد المعني وبلغه طلب الشيخ سرحان أمر بقتله وقتل أقاربه معه فقتلوه وقتلوا ثمانية من أقاربه فلم يبق من العماديه سوى ذكر فرّ حالاً الى قرية كامد في البقاع متنكراً وأخـــذ يرعى بقراً هناك وسمّى ذاته بعيزق [1] .

---

(١) أخبار الأعيان ج ١ ص ١٧٦ طبعة ثانية

أو أن تقرأ ما جاء ص ١٣ من رسالة الشيخ ناصيف اليازجي عن تقاليد اللبنانيين حيث يقول ما نصه « وفي جبل البترون قوم كانوا امـــراء ذوي شوكة يدعون بنسب الاكراد الأيوبيين ثم انحط أمرهم حتى صاروا من أذل العامة ويحرثون ويحطبون وبعضهم يستعطي الناس أيضاً ولكن قد بقي عندهم أثر من شرف النفس فلا يتزوجون من عامة الناس ولا يزوجونهم » .

أو تقرأ رسالة الأمير بشير ملحم شهاب الى الامراء اللمعيين في العـــدد الثاني من مجلة أوراق لبنانية ص ٧٣ .

* * *

٥ – لو ان أحمد هذا حل في الحكم محل عمه المزعوم لأصبح الشوف مع جبل عامـــل في حكم آل الصغير ؟ على انه لم يرث المعنيين في الحـكم غـــير سبطهم الأمـــير حيدر من آل شهاب سـنة ١١٠٩ هـ كما هو مشهور لدى المؤرخين أجمع .

الفصل الأخير من القصة

وهو ان الشكرية أحد طوائف السادة بهذه البلاد استقووا على حسين الأحمد وعائلته وأقاربه وقتلوهم ولم يبقوا منهم باقية حتى الاناث والأطفال وكانوا عندما يظفروا بالرجل أو بالمرأة وبالولد وبالطفل من هذه العائلة يقضوا عليه قصداً بقطع آثار هذه العائلة واستئصالها كلياً لأنهم استولوا مكانهم في البلاد وحذراً من ان يتنفس معهم الدهر كما هو عادته استأصلوهم عن آخرهم(١) فكان ان احد نساء حسين عندما حصل ما حصل من قتل كافة عائلتها كانت ذات فطنة وذكاء فبعد قتل زوجها وأولادها وعائلتها عموم من ذكر وانثى وطفل اخفت نفسها واستترت وتوجهت على وجهها وخرجت من البـــلاد وخرجت مستترة لإحدى الجهات التي لا يعلموها الشكرية بها وكانت حامل فشاءت القدرة بأن تضع غلام ذكر وكان من جمـــلة الذين قتلوا بسيوف الشكرية أحد أولادها كانت سمته علي وكانت ذات حب شديد لهذا الاسم

مشغوفة به مولعة بأن يكون لها ولد اسمه علي ففكرت في نفسها وقالت يا ترى ولدي علي هل هو على وجه الدنيا حي فاستعبرت وقالت أسمي هذا الولد الثاني علي فإن كان أخوه الأكبر حي أدعيه بعلي الكبير وهذا أدعيه بعلي الصغير ، وكانت لا تناديه إلا بعلي الصغير ، رجاء بأن يكون ولدها الأكبر على وجه الدنيا فأخذت تربي هذا الولد الذي وضعته بالغربة وتخدم وتشتغل وتربيه وتستقصي الأخبار عن بلادها فتجاب بما يسؤها فبقيت مدة تخدم وتربي هذا الولد وأحسنت تربيته الى أن ترعرع وبلغ أشده ، فذات ليلة جالساً بجانب أمه سألها عن وجوده بهذه الغربة وحيد بدون أقارب وسؤاله لها كان لسبب خصام وقع بينه وبين أحد أولاد تلك القرية فلح على أمه بالسؤال عن حقيقة ذلك فأبت أن تخبره لأنه كان لم يبلغ مبالغ الرجال وبعد برهة أعاد عليها السؤال فأخبرته من بدايته الى نهايته وقالت له يا ولدي لك ولعائلتك أحلاف وأغراض في البلاد كثيرة وإنما لا يقدرون يتظاهروا بمحبتكم خوفاً من سطوة بيت شكر وكان هذا الولد قد منحه الله قوة ونشاط وبأس وشجاعة لا مزيد عليها فحالا عندما تمت له والدته الحديث تركها مكانها وتوجه لأطراف بلاده وأخذ يسترق الأخبار ويسأل بكل دقة عن الذين كانوا يميلون ويغرضون لعائلته فأرشد الى عائلة يقال لها عائلة بيت عزقول في قرية ياثر من أعمال تبنين فتوجه للقرية وسأل عن كبيرهم فأرشدوه اليه فعندما عرفه هذا الرجل وتحققه دخل على قلبه وقلب عائلته سرور تام وأخذ يأخذ منه بعض معلوميات عن آبائه وأجداده وعن مسراهم وكيف كانت أعمالهم ومن الذي كان يميل لهم وهو يفهمه ويرشده فاجتمع عليه نحو من ماية رجل من غرضه والمخصوصين بآبائه وأجداده وأخذوا يتخطون في أطراف البلاد سراً وكان الحاكم الشكري بذاك الوقت مركزه قرية قانا ، من أعمال صور الآن وله خمسة أولاد ذكور خاطب لهم ومراده يزوجهم جميعهم بليلة واحدة وكانت الأفراح والتعليل بكل ليلة تشتغل وميادين الخيل تلعب وخادمهم العز وكافة البلاد مجتمعة بالفرح فليلة الزفاف

امرّوا مع امرأة من قانا كانت خادمة لأسلاف علي الصغير ولها غرض قوي لنحوه وقالوا لها نحن متوجهين لمزرعة مشرف تبعد عن قانا ثلاثة أرباع الساعة مرتفعة عليها نكمن بها لنهاية السهرة فعندما ينتهي التعليل وتتم الأفراح ويخلو العرايس وكل إنسان يتوجه لمحله تقومي تعملي لنا إشارة فتحملي مصباح نور وتتخطي به من سطح الى سطح ، فأجابتهم لطلبهم فتوجه علي الصغير هو وجماعته وأرفاقه لمزرعة مشرف وبقي كامن بها لوقت الميعاد الذي صار بينهم وبين الامرأة يترقبون الاشارة منجهة الامرأة فعندما خلوا العرايس بالعرسان وكل إنسان توجه لمحله وهدأت العيون قامت الامرأة وعملت له الاشارة فنزلوا من المزرعة قاصدين دار شكر (٢) فدخلو الدار ولم يتركوا بها من ينفخ النار ، وعند صفو الليالي يحدث الكدر ، ومن سن سيف البغي قتل به وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين .

حكم الإله قضت بأن لو قد بغى جبل على جبل لدك الباغي

ودوام حـــال من المحال ومصباح ذاك النهار جلس علي الصغير مكان شكر (٢) يحكم في البلاد فأرسل استحضر والدته وأقام بالبـــلاد وهو فرد وعائلته لم يكن منها أحد غيره .

فهذا مختصر مسألة نهاية الشكرية ، فتوطد الأمر لعلي الصغير (٣) – من هنا افترقت عائلة بيت حرب – فأعقب بأولاد أنجبهم حسين، وحسين أعقب بنصار ، ونصار أعقب بأحمد ، وأحمد اعقب بمشرف ، من هنا افترقت عائلة بيت واكد ، ومشرف اعقب بأنجب أولاده نصار ، ونصار اعقب بأحمد ، وأحمد بحمدان ، وحمدان بحسين ، وحسين بأحمد ، وأحمـــد بنصار ونصار تخلف بثلاثة ذكور نجباء الذي منهم العائلة الآن ، وهم محمد النصار ، وحسن النصار ، ونصـــار النصار ، فنصار تخلف بناصيف ، ومحمود ، وضـــاهر ومراد (٤) .

١ – ولكن شبيب باشا الأسعد يتجاهل – ص ١٧ من ديوانه – خبر قتل الشكريين لوالد علي الصغير كما يتجاهل ضمنا خبر استئصالهم لعشيرته ولا يبعد ان يكون هذا الافتراض من قبل آل الصغير تبريراً لما ارتكبوه مع الشكرية من أخطاء مريعة يمقتها الشرع وتأباها المروءة لانا لم نجد له مصدراً تاريخياً عند غيرهم من المؤرخين ولو صح لتعرضله الجميع واشتهر كما اشتهرت واقعة فتك آل الصغير بالشكرية حتى جعلها بعضهم تاريخاً لابتداء حكم بيت علي الصغير كما يروي الشيخ حيدر رضا الركيني في مذكراته – وهو من المعاصرين لناصيف النصار .

* * *

٢ و ٢ – ولعل القارىء يلاحظ هنا ما الاحظه في مفاد هاتين الجملتين من ان المراد بلفظة شكر هنا هو اسرة آل شكر لا فرد منها بعينه ، وبلفظة علي الصغير هو الاسرة بجميع افرادها لا شخص معين منها ولا يبعد ان يكون هذا المراد وهذا الاصطلاح عاماً لدى رواتنا المتقدمين .. وعليه فلا يجب ان يكون بطل النكبة الشكرية .. شخص اسمه علي الصغير ، كما يذهب الى ذلك جل المؤرخين والقصاص من أبناء عاملة الكرام ويكفي ان يكون واحد من اسرته ليقال قضى على الشكرية أو على جماعة الشكرية .

* * *

٣ – يعترضك من المخطوطة أثناء هذا السطر ، التعليق التالي : « ومن هنا افترقت عائلة بيت حرب » ونحن مع احترامنا للراوي – لا ندري كيف نصحح هذا التعليق أو هذا الزعم مع الاطمئنان لصحة الكلمة المتقدمة عليه وهي قوله (ومصباح ذلك النهار جلس علي الصغير مكان شكر يحكم في البلاد فأرسل استحضر والدته وأقام وهو فرد ، وعائلته لم يكن منها أحد غيره .

* * *

(٤) – يصرح الركيني في العرفان م٢٨ ص ٩٥٣ والعلامة الأمين في أعيان الشيعة م١٥ ص١٠٥ والعلامة ظاهر في أسماء قرى جبل عامل ص ٤٣٤ من العرفان (م ٨) ويذهب الجميع الى أن حادثة علي الصغير مع آل شكر كانت سنة ١٠٥٩هـ وعليه فان الممعن في سياق هذه القصة – قصة نسب آل الصغير – يرى ان بين علي الصغير هذا الذي قوّض حكم آل شكر سنة ١٠٥٩ هـ وبين حفيده ناصيف النصار الذي كان حاكماً سنة ١١٦٣ هـ أحد عشر جداً أو جيلاً في حين انك لا ترى بين علي الصغير هذا وجد الاسرة الأول (وائل بن ربيعة) أكثر من ثلاثة عشر جداً أو جيلاً ؟ فكيف نتصور ونستسيغ ان يتوالى احدى عشر جداً أو جيلاً في مدة لا تزيد عن ١٠٤ سنوات بينما لا يتوالد في مدة تبلغ ١٣٠٠ سنة – على أقل افتراض – أكثر من ١٣ جداً أو جيلاً ؟ أليس في هذا ما يدعو الى الشك والتساؤل ؟

مقتل أحمد بن علي بن شكر ١٠٥٩ هـ

يقول الشيخ محمد بن مجير العنقاني في سنة ١٠٥٩ هـ قتل أحمد بن علي بن شكر في واقعه عيناثا التي باغت فيها آل الصغير آل شكر وهم مشغولون بأعراسهم [١] .

قصة علي الصغير كما يرويها شبيب باشا الاسعد

يقول شبيب باشا ص ١٦ – ١٨ من ديوانه « كان على عهد الملك المجاهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، جاء من بادية نجد جدنا محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء قبائل عنزة بجيش من أعراب بوادي قبائله الى بلاد جبل عامل بالديار الشامية (١) فدخل هذه البلاد والأمير عليها يومئذ بشارة بن مقبل القحطاني (وهي تعرف من عهده حتى اليوم ببلاد بشارة) فساق عليه حرباً قام بينهما على ساق وما انتهى إلا بالغلبة على بشارة فاستولى جدنا على

---

(١) أعيان الشيعة ج ٩ ص ١٠٩ .

البلاد وحكمها وتزوج ببنت بشارة وأجرى عليه معاشاً يقوم بأوده الى ان توفاه الله (فهو جدنا لجهة الأم) (٢) وبقي جدنا محمد بن هزاع أميراً بها مدة حياته وبعد وفاته تلقاها ابناؤه وأبناء أبنائه يقوم بها الولد بعد أبيه وما برحوا الى ان أفضت حكومة البلاد الى أحمد بن مشرف الوائلي (خلاف مشرف الثاني) ثم توفاه الله ولم يكن إذ ذاك في ذلك البيت رجل يقوم مقامه فترك زوجته بحال الحمل وكان تزوجها من بني عمومته وهم بني سالم المعروفون بالسوالمة فخذ من افخاذ عنزة فجاء أخوتها وحملوها اليهم وكانت منازلهم يومئذ بأطراف بادية الشام ، مما يلي نجد فولدت غلاماً وحيث كان لها أخ غائب اسمه علي ، وكان إذ ذاك بديار اليمن لأمر من مهمات شؤونهم ولم تره منذ جيء بها وقد طال غيابه ولها شغف به ، فسمت ابنها علي ، وعرف عنه بالصغير للفرق بين اسمه واسم خاله ، فكان يقال له علي الصغير فشب الغلام وامتاز بالنجابة عن اقرانه وما صار في الخامسة عشر من عمره حتى صار له مقاماً بفل المشكلات بين القبائل وقد بلغ أشده ووقف على حقيقة أمره وأمر أبيه الذي كان حاكم بلاد جبل عامل وانه توفي عن والدته وهي بالحمل به وقد أنبته أمه انه بعد ان خلت البلاد منهم تمردوا جماعة من وجوهها يقال لهم بنو شكر وأصبحوا يتصرفون بالأحكام بها وأن سيرتهم قد ثقلت بالبلاد لما سلكوا به من الجور والتعسف وان العموم هم لخلو البلاد من حكم هذا البيت في غاية التأسف ، ويتمنون بلوغك من العمر منزلة تعينك على العود لحكومة أبيك وجدك وانقاذهم من جور الظلمة المتسلطين عليهم (٣) فحركته الأريحية والشهامة هنالك وسألها عن الذين كان لهم قرب حظوة وخلوص انتماء لدى أبيه فأخبرته عن رجلين من وجوه البلاد فجهز قوماً من بني رحمه ونهض بهم وسار قاصداً تلك البلاد الى ان دخلها وأرسل الخبر الى ذينك الرجلين فعندما وافاهما خبره هاما على وجهيهما لاستقباله فرحين ولما لقياه قصا عليه قصص ما هي عليه حالة البلاد من الضنك والتلهف على لقائه وان العموم ما انفكوا يتذاكرون أيام أبيه ومن سلف من

هذا البيت واخبره ان هؤلاء الجماعة في هذه الأيام مشغولون بأعراس وأفراح منعقد قسم منها بنفس تبنين وآخر بقانا ، فتقرر أمره على ان ينقسم جمعه الى فرقتين كل فرقة تفاجيء موقعاً من الموقعين ، وقد كان اجتمع الى جموعه جمهور من البلاد بطريقه ففعلوا ذلك ، وقد قابلوا اولئك الجماعة مفاجآتهم هذه فدارت عليهم الدائرة واستولى على البلاد ، وقطع بيد معونة الله منها دابر الفساد وما زال بحكومتها وعنه تلقاها بنوه ثم عندما أشرقت شموس الدولة العلية الشأن أعظم دول الزمان دولة آل عثمان خلد الله سرير ملكها لآخر الدوران واستولت على هذه الديار الشامية وقد كان خضع لشأن حضرة ساكن الجنـان السلطان سليم خان الثاني وبقي من طرف الدولة العلية على حالته السالفة (٤) .

ما يلاحظه الباحثون

١ – لا أدري بما نفسر هذا القول ؟ وإن أيسر نظرة في تاريخ العرب وانساب القبائل تعرفك أن – وائل – أبا القبيلة المنسوب اليها جد المؤلف هو ابن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، من العدنانيين لا من القحطانيين كما يذهب اليه المؤلف هنا ، ثم يؤكده ص ١١٩ من هذا الديوان برأي عمه حمد البيك ، ثم ان وائل..هذا هو كما ينص عليه كتـاب المفصّل ص ١١ أخو عنزة لا من ذريته ليكون محمد بن هزاع الوائلي من رؤساء قبل عنزة ؟

٢ – ولكن العلامـة السيد محسن الأمين يقول في أعيان الشيعة م ١٥ ص ١٠٣ ما نصه : « أما ما يقوله بعض أفراد عائلة آل الصغير من ان اسم جدهم محمد بن هزاع ، وانه جاء الى بلاد عاملة والأمير عليها بشارة بن مقبل من قبل صلاح الدين الأيوبي وهو الذي تنسب اليه بلاد بشارة فحاربه هزاع وغلبه وتزوج ابنة بشارة وأجرى عليه معاشاً حتى مات ، فـلا يستند الى مأخذ وما هو إلا نوع من الأقاصيص التي تخرجها المخيلات » .

ويقول الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر في اسماء قرى جبل عامل ص ٤٥ من العرفان

م٣٤ » وأما ما جاء في العقد المنضد من نسبة البلاد الى الأمير بشارة بن مقبل القحطاني فلم نجد له على كثرة المراجعة ذكراً وهو أشبه بأن يكون شخصاً اسطورياً.

٣ - تأمل هذا الحديث ولاحظ أن الفترة التي حكم فيها آل شكر هي - على أيسر افتراض - من أوائل القرن الحادي عشر الى نهاية العقد السادس منه ، ثم لاحظ ان ما بين هذه الفترة من الزمن وبين عهد صلاح الدين المتوفي سنة ٥٨٢ هـ ما يزيد على أربعة قرون ، فكيف نتصور ان عشيرة تسود البلاد بعددها وعديدها زهاء أربعة قرون وعندما يموت رئيسها لا يبقى منها ما يقوم مقامه سوى هذا الجنين (علي الصغير) الذي ولدته أمه في البادية في حوران - كما هو شائع على ألسنة الناس ونشّأه الرواة والمحدثين - كما ينشأ أبطال القصص وأبناء الأساطير ، أرجوحة للخيال ومحوراً للصدف .

٤ - إن العثمانيين لم يحتلوا الأقطار السورية إلا سنة ٩٢٢ هـ وحكم آل شكر إنما تلاشى في نهاية العقد السادس من القرن الحادي عشر سنة ١٠٥٩ هـ - على أرجح الأقوال - فكيف صح مع هذا ان يقول المؤلف ان علي الصغير قضى على آل شكر واستولى على البلاد واستقل بحكومتها وعنه تلقاها بنوه الى ان دخل السلطان سليم الثاني وخضعوا لحكمه وأبقاهم في محلهم من حكم البلاد ؟

٥ - هذا وإن من يطالع رواية الحاج محمد سهيل ورواية شبيب باشا الأسعد - على اتحادهما عصراً ونسباً وغاية - يرى اختلافاً كبيراً بينهما في التصميم وفي الاسلوب وفي اجمال الحادثة وتفصيلها ، الى غير ذلك من الفوارق البينة ، وانه لفرق كبير - في الدلالة على الصواب والخطأ - بين ان يكون اسم جدهم الأعلى أحمد بن حويشان كما يقول سهيل ، أو محمد بن هزاع كما يقول الأسعد ، وبين ان يكون الامير الذي خلفه جدهم في الحكم هو بشارة المغني كما يقول سهيل أو بشارة بن مقبل القحطاني كما يقول الاسعد ، وبين ان يكون الامير بشارة قد تحبب الى جدهم واستماله اليه كما يقول سهيل ،

وان يكون جدهم قد فاجأه بالحرب وغلبه كما يقول الاسعد وبين ان يكون هذا الامير قد تقرب الى جدهم بالمصاهرة كما يقول سهيل ، وأن يكون جدهم قد أخذ ابنتــه قسراً واغتصاباً كما يقول الأسعد ، وبين أن يشير المحدث الى المسافة بين جد الاسرة الاول وبين علي الصغير بطل القصة كما في رواية سهيل ، وأن تهمل الاشارة ويجهل مدى الزمن بينهما كما في روايــة الاسعد وبين أن يتوفى والد علي الصغير ولا يبقى في عشيرته من يقوم مقامه فيتغلب الشكرية ويتفردوا في الحكم كما في رواية الاسعد وأن يقتله الشكرية ويستأصلوا عشيرته ثم يستولوا مكانهم كما في رواية سهيل، وبين ان تكون أم علي الصغير من السوالمة كما يروي الاسعد ، وأن تكون مجهولة الهوية كما يروي سهيل . وبين أن تذهب أم علي الصغير مع اهلها من السوالمة عزيزة مكرمة كما يروي الاسعد ، وأن تذهب الى حوران متنكرة لتخدم وتعيش مع طفلها كما يروي سهيل ، وبين أن يرجع علي الصغير مع أخواله السوالمة وينضم اليهم جمهور من أبنـــاء عاملة ، فيهاجم بهم الشكرية في قانا وتبنين معاً كما في رواية الاسعد ، وأن يعود وحده يبحث عن خواص أبيه وأسرته ويسعى لتأليف عصابة منهم فينضم اليه نحو مائة رجل يكمن بهم في مزرعة مشرف ليباغت الشكريين هجّداً في قانا كما في رواية سهيل ، وبين أن يجعل زمن الحادث قبل دخول العثمانيين لسورية كما في رواية الأسعد ، وأن يهمل كل هذا كما في رواية سهيل .

قصة علي الصغير كما يرويها العلامة الامين

يقول العلامة السيد محسن الأمين ص ١٠٣ م ١٥ من أعيـــان الشيعة « واصل آل علي الصغير من عرب عنزة من بني سالم المعروفين بالسوالمة جاء جدهم الى جبل عامل وتحضر واتصل بالحكام وحارب معهم وصارت له عندهم مكانة انتهت الى الامارة في البلاد إلا أن اسمه ومبدأ إمارته فيهـــا لا يزال مجهولاً ، والذي يظن كما قال بعضهم ان حكمهم بعد حــكم بني سودون الذين كانوا من جهـــة نواب دمشق المنصوبين من ملوك مصر المماليك الأتراك (١)

حوالي سنة ٧٠٠ هـ . أما بشارة الذي تنسب اليه بلاد بشارة فالظاهر أنه بشارة بن أسد الدين بن عامر العاملي السبأي الذي كان في عصر صلاح الدين وحضر معه فتح هونين وأقطعه خيط بانياس وحضر معه فتح السواحل الشامية ، واستمر حكمهم في بلاد بشارة الى ما بعد الألف فتغلب عليهم الشكريون وهم سادة أشراف لا تزال ذريتهم في جبل عامل الى اليوم بعد حرب جرت بينهم وقتلوا رئيسهم ورجال عشيرته (٢) وهربت زوجته التي كانت حاملا الى بني عمها السوالمة وولدت ذلك الغلام عندهم في البادية وسمته علياً باسم أخيها الغائب وعرف بالصغير تمييزاً له عنه أو عن آخر منهم كان قبله ، فلما بلغ علي الصغير الخامسة عشرة من عمره صار له مقام سام بين القبائل وكان قد علم من والدته وقومه أن أباه كان أمير بلاد بشارة وأن الشكريين قتلوه واستولوا على ملكه فحركته همته الى الأخذ بالثأر واستعادة ملك آبائه وأجداده ، فسأل والدته عمن كان من خواص أبيه من وجوه تلك البلاد ، فأخبرته عن رجلين فراسلهما وأخبرهما عن عزمه ففرحا بذلك ، وأخبراه أنهما ورجالهما طوع إشارته ، وأن اهل البلاد عموماً يتمنون عوده اليهم ليخلصهم من ظلم الشكريين ، فإنهم كانوا قد ظلموا كثيراً وساءت سيرتهم ، فنهض بشجعان قومه السوالمة الى أطراف البلاد وجاءه ذانك الرجلان ومن لف لفيفهما وأخبراه ان الشكريين مشغولون بإقامة أفراح وأعراس قسم منها في عيناثا والقسم الآخر في قانا ، فقسم رجاله الى فرقتين كل منهما تهاجم موقعاً من الموقعين وكان قد انضم اليه جمع كثير من اهل البلاد فهاجم رجاله الشكريين في البلدين حال اشتغالهم بالأعراس وجرت بينهم حرب كانت فيها له الغلبة على الشكريين فقتلهم وأبادهم وأخذ ثاره منهم ، وعادت أفراحهم أتراحاً واستولى على البلاد وكانت هذه الوقعة سنة ١٠٥٩ هـ وأبلى في هذه الواقعة أبو شامة العاملي مع علي الصغير بلاءاً حسناً وهو جد الطائفة المعروفة بآل شامي في بنت جبيل وعثرون ، والقبور التي في رأس العقبة بين عيناثا وبنت جبيل هي من قبور من قتل في تلك الوقعة ، واستمروا

في الإمارة الى سنة ١٢٨١ ، ولا تزال الوجاهة والرياسة في أعقابهم الى اليوم ومدة ملكهم إذا صح أنهم ملكوا حدود سنة ٧٠٠ نحو ٥٠٠ سنة (٣) لم يتخللها إلا حكم الشكريين وهو لا يصل الى ٢٠ سنة بل دونها ».

ما يلاحظه الباحثون

(١)لا ندري ما هي علاقة سودون وأبناء سودون في جبل عامل وحكمه وسياسته ؟ ولا نعلم ما قيمة المستند التاريخي الذي اعتمده صاحب الاعيان وغيره من القائلين بهذا القول .. وكل ما قرأناه في المجلد الثاني من خطط الشام قوله ص ١٥٨ وفي سنة ٧٨٧ « امر السلطان برقوق ، نواب الشام بالتوجه الى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركمان، فوصلوا الى طيون وهي بين مرعش وابلستين فالتقى بهم سولي فقتل (سودون العلائي) نائب حماه في المعركة ، وكذلك (سودون نائب بهسنى) فبلغ السلطان ذلك فشق عليه ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل أخاه .

وقوله ص ١٦٣ « وفي سنة ٧٩١ خرج يلبغا الناصري نائب حلب عن الطاعة وقتل (سودون المظفري) الذي كان نائب حلب قبله وقتل أربعة أنفس من مماليك سودون .

ثم قوله ص ١٦٥ « وفي هذه الاثناء (سنة ٧٩١) ركب مماليك نائب حماه (سودون العثماني) مع عسكر حماة وارادوا قتله فهرب الى دمشق » .

ثم قوله ص ١٩٥ « وفي سنة ٨١٧ خلع – الملك المؤيد شيخ المحمودي على الامير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس » .

كما قد قرأنا في الطبعة الاولى من تاريخ صالح بن يحيى التنوخي ص ٥٧ وفي الطبعة الاولى من تاريخ الغرر الحسان ص ٥٠٧ . وتاريخ الازمنة ص ١٩٤ . ان سودون الظريف ابن أخت الملك الظاهر برقوق أصبح نائباً

على الكرك في شرق الاردن سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) ثم نائباً عن دمشق سنة ٨٠٢ (١٤٠٠ م).

فأي سودون من هؤلاء النواب يحتمل أن يكون جداً لبني سودون المزعومين في حكام جبـل عامل . . . فإن ابتداء تاريخه السياسي متأخر – كما ترى – عن تاريخ نهاية حكم بني سودون في جبـل عامل سنة ٧٠٠ هـ (الموافق لسنة ١٣٠٠ م) على ما يقوله صاحب الاعيان : وان هذا العصر (بين سنة ٧٠٠ و ٨٠٢) هو عصر بني بشارة في زعامة جبل عامل على ما يذهب اليه (بولياك) صاحب كتاب الاقطاع في مصر وسوريا وفلسطين على ما أثبتناه فيما تقدم من الكلام عن بني بشارة العامليين .

(٢) وهذا يخالف ما تقدم من قول المؤلف « إلا أن اسم جدهم ومبدأ امارته فيها لا يزال مجهولاً » ، ويخالف ما ثبت بالنصوص التاريخية من أن آل شكر كانوا حكاماً في جبل عامل منذ عرف التاريخ آل الصغير وآل منكر.

أما إثبات أي الأمر أقدم في الرياسة فلا تزال المصادر الميسورة لمثلنا عاجزة عن البت في مثله ، وان اشعرنا الصفدي في تاريخ الامير فخر الدين المعني ان آل شكر كانوا – بين سنة ١٠٢١ و ١٠٢٧ هـ – أشد بأساً وأمنع جانباً من غيرهم في البلاد ، وصرح الركيني في مذكراته – المنشورة في العرفان م ٢٨ ص ٩٥٢ – بما نصه : « تاريخ ابتداء أول حكم بيت علي صغير من وقعه عيناثا سنة الف وتسعة وخمسين الى يوم قتل ناصيف النصار يوم الاثنين خامس شوال سنة الف ومائة وخمسة وتسعين (مائة وستة وثلاثون) هذا مدة حكمهم » .

(٣) وعلى كل فإن رواية صاحب الأعيان او جلهـا ملخص عن روايتي سهيل والاسعد وربما كانت اكثر تمشياً مع رواية الاسعد وأدنى الى خيالها ومنطقها لولا هذا التفاوت في الرأي وهـذا الشك في بعض ما ذهب اليه الاسعد والاطمئنان الى غيره من الاقوال المرجوحة .

ومما يلفت النظر في هذا التلخيص أن السيد أخذ بقول سهيل عن سبب تغلب الشكريين على آل الصغير ، وأخذ بقول الاسعد عن الخطط المكشوفة والوسائل المرتجلة التي استعملها آل الصغير للقضاء على وجود الشكريين ، مع انه لو خالف فاعتمد قول الاسعد عن سبب قتل الشكريين ، واعتمد قول سهيل عن الاسلوب المركز والوسائل الخفية التي يتناسب اتخاذها مع حال المستضعفين كآل الصغير للادالة من الاقوياء الحاكمين كآل شكر يومئذ .. لكان بذلك أدنى الى فحوى النصوص والقرائن وأبعد عن هذا الاغراب والافتراض البعيد .

فمن المألوف عرفاً عندما يموت زعيم في أسرة أو في قرية أو في منطقة ما – ولا يكون فيها من اصحاب الكفاآت والمؤهلات للزعامة من يسد مسده – ان يتوجه الناس بنظرهم الى من يعتدون بأهليته أو بشهرته أو بقوته وجاهه من الزعماء الآخرين في غير الأسرة أو غير القرية أو غير المنطقة ولو كان هذا الزعيم الآخر معارضاً في سياسته لسياسة الزعيم الاول ، لأن الناس في كل عهد ولا سيما العهود الاقطاعية بحاجة الى من يحميهم بعضهم من بعض ويحل مشكلاتهم على نحو يرضي الجميع او يسكتهم والى من يجمع كلمتهم لدى الخطوب الطوارىء ويوحد قوتهم في وجه العدوان من أي الجهات اتى ، أو لأنهم يخافون ان تطغى عليهم قوة هذا الزعيم الآخر وأن يؤخذوا بأسالب انتقامية اذا ما خلا له الجو ولم يكونوا موالين لحكمه ومذعنين لارادته سلفاً ، وهذا ما يتسق تماماً مع قول الاسعد « بأن وفاة زعيم آل الصغير وعدم وجود من يقوم مقامه في الاسرة كان سبباً لتغلب آل شكر واستئثارهم بحكم البلاد .

أما أن يقتل الرئيس اعتباطاً وتستأصل عشيرته لتفضي الرياسة الى قاتليه فذلك من خوارق العرف والعادة ومن الاساليب التي ينكرها الناس أذكياءهم وأغبياءهم .

ثم من المحتمل المألوف ايضاً أن يكون هذا الفتى الموتور من آل الصغير قد استغل بعض المناسبات التي كثر فيها المتذمرون من حكم الشكرية – وما أكثر تذمر الناس من الحكام – اما لظلمهم واستهتارهم واما لتقريب أخصام المتذمرين اليهم أو مساعدتهم عليهم أو تمييزهم بالحفاوة واختصاصهم بالاحسان ، فاتصل بأولئك المتذمرين وألف منهم عصابة قوية واستعمل نفس الاسلوب المركز ونفس الوسائل الخفية – التي تحدث عنها سهيل – للقضاء على الشكريين والسيطرة على مقاطعاتهم :

اما ان يرتجل الوسائل ارتجالاً ويهاجم الشكريين وجهاً لوجه بثلة من المتذمرين وثلة من السوالمة كما يقول الأسعد . فليس في هذا الارتجال من الحزم ما يضمن له السلامة أو يدنيه من المطلوب في ذلك العهد الذي بلغ من قوة الشكريين فيه ومن حذرهم واعتدادهم ما جعلهم يردون مباغتة المعنيين لهم بخمس مائة جندي منظمين مستعدين للبطش والقتال .. بأعنف الردود وأرهبها منطقاً ؛

... وبعد فإن اختلاف الرواة من آل الصغير وغيرهم في هذا كله وتباين آرائهم في مجمله ومفصله قد يقوم مقام الدليل على شك القوم بالحقيقة التاريخية أو على الجهل المزمن بواقع قصتهم ونسبهم مما يضطرنا – من حيث نريد ولا نريد – الى البحث عن الواقع التاريخي لهذه القصة والى استنطاق الحوادث والظروف والقرائن التاريخية عن العوامل الأساسية التي تمكن بها آل الصغير من استئصال نفوذ الشكريين وسيطرتهم .

فنحن إذ نستقرىء شيوع هذه القصة بين الجمهور أو نستوحي تنافس آل الصغير في حفظها وتناقلها على ما في نهايتها من عسف وتنكيل وصور منكرة لا بد لنا – مهما تداولها من خطأ وافتعال وتناقض – من الاعتقاد بأنها كانت وما برحت ترتكز على حادث خطير وحقائق مرة لا مجال لانكارها .

ونحن إذ نطمئن للوثائق التاريخية التي تدل بصراحة تامة على ان آل الصغير كانوا ينتسبون الى علي الصغير قبل وقوع هذه الواقعة بزمن بعيد ، والتي تنص على ان كلا الرئاستين في بيت شكر وبيت علي الصغير كانتا موجودتين في آن واحد.. نجنح الى القطع بكون بطل الحادثة من آل الصغير هو غير هذا الذي تنتمي اليه الاسرة كما يزعم الرواة ، ونلجأ الى الاعتقاد بأن سبب هذه الحادثة هو غير ما يفترض من قيام زعامة آل شكر على انقاض زعامة آل الصغير ، ثم نميل الى الشك والريب بأن يكون آل الصغير اقدموا

على مثل هذه المجازفة والعمل الفظيع قبل ان يستشعروا بانحراف أولي الأمر – من ولاة الأتراك أو الحكام الوطنيين – عن زعماء آل شكر ، أو قبل ان يطمئنوا الى تأييد هؤلاء الحكام والولاة لهم فيما يضمرونه لاخصامهم أو يحاولون ادراكه، أو قبل ان يتبرعوا لهؤلاء الحكام سلفاً بما يرضي ميولهم من مسالك حزبية ، أو تعهدات سياسية ، أو ضمانات مالية .

ذلك بأن العهد الاقطاعي – وإن يكن عهد استبداد وفوضى وعسف – لم يكن خالي الوفاض من قواعد رئيسية نافذة الحكم ، ومن أصول مرعية محترمة لدى الحكام الكبار والصغار فلم يكن يباح في العهد الاقطاعي لأحد من الناس بالغاً ما بلغ من القوة، أن يستولي على مقاطعة من المقاطعات بدون ضمانة مالية تؤدى للحاكم العام أو لوالي الايالة . أو بدون تعهدات وشروط خاصة تفرض على ملتزم المقاطعة من قبل الولاة والحكام ، مثل ان يقدم لدى الحرب كمية معلومة من الرجال والعتاد ، وان يؤيد بجهده ميول السلطات العليا في السياسة الداخلية والخارجية [1] ، وكذلك لم يكن يباح في العهد الاقطاعي – لمن هم في رتبة المقدمين والمشايخ ان يحكموا بالقتل على أحد من المجرمين، وإنما كان ذلك من خصائص الحاكم العام أو والي الايالة وقاضيها الرسمي [2] ، فكيف بقتل الابرياء ؟ وكيف بالقضاء على أسرة كبيرة ، فيها العجزة وفيها الاطفال ، وفيها الابرياء ؟ ثم الاستيلاء على ملكها ومقاطعاتها جهراً ؟

فهل يعقل مع وجود هذه القوانين المرعية أن يكون آل الصغير – مهما بلغ من تهافتهم على الحكم ومن استباحتهم لكل شيء في سبيل الرئاسة – أقدموا على ما أقدموا عليه وهم ينوون التمرد على هذه القوانين المحترمة وعلى ما يحميها من قوى الدولة وقوى الأمراء المسيطرين على ما حولهم ؟

---

(١) راجع ص ٩٨٩ من تاريخ الأمير حيدر طبع مصر : وص ٧٠٩ من العرفان م ٢٦ عن شروط سليمان باشا ثم عبد الله باشا على الشيخ فارس الناصيف وبقية المشايخ العامليين .

(٢) الدواني ص ٢٤٨ ، ولبنان ص ١٤٤

وهل يتصور أنهم حاولوا ما حاولوه – بهذا الاسلوب الذي يدل على شعورهم بالضعف تجاه قوة أخصامهم من الشكريين – وهم يشكّون برضى الحكام ؟ او يرتابون بتأييد الولاة لكل ما يضمرونه للشكريين ؟ وقد رأينا ما حل بمشايخ الكوثرية سنة ١٠٢٢هـ يوم حاولوا التمرد على مثل هذه القوانين وما حل بالشيخ مشرف الصغير سنة ١١١٠ هـ او سنة ١٠٩٩ هـ على ما رواه الاستاذ ظاهر عن بعض المخطوطات القديمة يوم قبض عليه عبدون باشا والي صيدا لظلمه وقتله مشايخ القرى في غار المزرعة حيث لم يطيعوه في بعض الامور (١) .

مما يقوي الظن

وهناك من الاعتبارات الجديرة بالبحث والتفكير ما يقوي هذه الإحتمالات والظنون .

منها : أن آل شكر كانوا موضع نقمة الامير فخر الدين المعني دون آل الصغير ، كما يستفاد من تاريخ الحوادث بين سنة ١٠٢٣ و ١٠٢٧ هـ .

ومنها : ان الفترة التي تضعضع بها آل الصغير ، وصفا بها الجو لآل شكر هي كما يستفاد من فحوى القصة – نفس الفترة التي تقوض بها حكم الامير فخر الدين واستولى مكانه في حكم البلاد الامير علي علم الدين اليمني الذي حاول استئصال المعنيين وأنصارهم من القيسية كما يبدو من اغتياله للأمراء التنوخيين في قرية (عبيه) لأنهم كانوا يميلون للمعنية ؟

ومنها : أن لا يتسنى لآل الصغير ان يظهروا وأن يقضوا على الشكرية إلا حين تسنى للامير ملحم المعني – بطل واقعة أنصار – أن يثبت لخصمه ابن علم الدين وان يثبّت قدم المعنيين في الحكم ويعزز أنصارهم على أخصامهم.

ويدلنا على تسلسل هذه الحوادث وارتباطها ببعضها.. ميل اكثر المؤرخين

---

(١) العرفان م ٨ ص ٥٢٦

العامليين الى ان واقعة آل الصغير مع الشكرية كانت سنة ١٠٥٩ هـ تم اتفاق جميع رواة القصة على أن بطل الواقعة من آل الصغير كان جنيناً في بطن أمه يوم تلاشى نفوذ آل الصغير وتمادى الشكريون في بسط رئاستهم ، وأنه كان في دور المراهقة (بين سن ١٤ و ١٦) يوم قضى على آل شكر واستأصل حكومتهم ونفوذهم سنة ١٠٥٩ هـ . وعليه فإذا أسقطنا سن الغلام المراهق (١٤ او ١٦) من ١٠٥٩ يكون الوقت الذي تغلب فيه آل شكر هو بين سنة ١٠٤٣ و ١٠٤٦ هـ وهو ما يتسق تماماً مع الزمن الذي انتقل فيه الحكم لابن علم الدين خصم المعنيين الألد ، ثم يكون الوقت الذي قضى آل الصغير على آل شكر سنة ١٠٥٩ هـ مما يتفق مع الوقت الذي تسنى فيه الحكم للأمير ملحم المعني الموتور من ابن علم الدين ومن المؤيدين لسياسته .

وعليه فهل يبعد على السياسة الاقطاعية لذلك العهد ان يكون أخصام ابن علم الدين من المعنيين في لبنان ومن أحلافهم الشهابية في وادي التيم قد عززوا حقد آل الصغير على الشكريين لتفرد هؤلاء في حكم بلاد بشارة في عهد خصمهم ؟ وهل يبعد على المعنيين والشهابيين ان يمدوهم بشيء من قواهم الحربية وان يضمنوا لهم رضا الولاة الأتراك ، ليشفوا غيظهم من الشكريين أو ليقضوا على مستقبل خصمهم الألد بالقضاء على أشياعه وأنصاره .

وقد « كان الحكام يومئذ ينتصرون لمن يخالف خصمهم ، فإن العسافيين وبني سيفا ، حكام طرابلس والشمال – عضدوا مظفر اليمني شيخ عين داره والأمراء آل علم الدين ، ومقدمي بني صواف ، والأمراء الحرافشة وأمراء رأس نحاش وغيرهم من مشايعي اليمنيين تشفياً من المعنيين وحلفائهم من القيسيين »[1] .

---

(١) دواني القطوف ص ١٩٤ .

هذا وما يحتمل ان يقال في موقف آل الصغير من الشكريين في عهد الامير ملحم المعني قد يحتمل ويقال في موقف الشكريين من آل الصغير في عهد الامير علي علم الدين لولا هذا التفاوت بين الظروف والبواعث والنزعات.

فالتاريخ لا يشعرنا بأن آل الصغير كانوا موضع نقمة آل علم الدين قبل ان يتخاصموا مع المعنيين لتطغي نقمة ابن علم الدين عليهم لدى تغلبه على المعنيين ويساعد على استئصالهم ، كما يشعرنا بأن آل شكر كانوا موضع نقمة المعنيين قبل أن يصطدم هؤلاء بابن علم الدين وقبل ان يؤازره العامليون- من شكرية ومناكرة – على المعنيين في وقعة انصار (سنة ١٠٤٠ هـ) كما يستفاد من أقوال المؤرخين في هذا الحادث .

والتاريخ لا يوحي لنا بأن آل الصغير استطاعوا في عهد المعنيين الأول ان يستأثروا بحكم بلاد بشارة دون الشكريين ليوغروا صدور هؤلاء حقداً ومقتاً وجزعاً ويلجئوهم – عند سنوح الفرص – الى التخلص منهم بهذه الاساليب والصور التي تمثلت بقصة علي الصغير كما استطاع آل شكر ان يغضوا من جماح آل الصغير وان يكبتوا عنجهيتهم ويتفردوا بحكم البلاد حين دانت الامور لابن علم الدين وللبمنية أجمع سنة ١٠٤٣ هـ .

والتاريخ لا يشعرنا بأن آل الصغير كانوا مظنة للخطر على نفوذ آل شكر بل يشعرنا بأن آل شكر كانوا أشد بأساً وأمنع جانباً وأرسخ قدماً في الرياسة من آل الصغير في عهد الامير فخر الدين فكيف يكون حالهم من الاعتداد بسطوتهم والاطمئنان الى واقعهم والاستخفاف بمناهضيهم من آل الصغير بعد انهيار حكم الامير فخر الدين ، وسيطرة حليفهم ابن علم الدين مكانه وتضامن آل منكر معهم في النقمة على المعنيين ومشايعة أخصامهم .

وحسب هذه الاعتبارات والحيثيات والظروف التي اكتنفت سياسة

الشكريين أن تميزها عن سياسة آل الصغير وان تضفي عليها من وحي الغطرسة والغرور ما يفضي بآل شكر الى الاستهتار وعدم الاكتراث بشأن مناهضيهم من حيث تضاعف حنق آل الصغير عليهم وتنمي الشك بهم والخوف منهم الى ان تسوّل لهم نفوسهم ما سولته بذلك الحادث الغريب والمأساة الدامية حين تغلب الامير ملحم واتسقت الامور للمعنيين وتسنى لاخصام الشكرية ان يظهروا ما يبطنونه .

اثر هذا الحادث في السياسة العاملية

من طبيعة الحوادث الفظيعة أن تزعزع أمل الناس بعطف الأقوياء وبحلمهم عند المقدرة ، وان تنمي فيهم بواعث الحقد والمقت والنقمة على مرتكبيها ومدبري خططها .

ومن لوازم هذه الأحوال والأجواء المكفهرة التي تحدثها الاغتيالات والمفاجآت العنيفة أن تشعر القادة الظافرين بما يبدو على وجوه الناس من مضض الفاجعة ، وعلى أقوالهم من اصطناع الرضا ، وعلى أفعالهم من تكلف الطاعة ، أو تقنعهم بأن ما يرونه من الاذعان لأوامرهم أو الانقياد لحكمهم أو المحافظة على رضاهم، إنما هو بدافع الخوف من بطشهم، والعجز عن مقاومتهم، أو الشك بمساعفة الأقدار ومواتاة الظروف .

وعليه فما الذي نفترضه لسياسة هؤلاء المسيطرين بعد الواقعة ؟ أتراهم بعد الظفر وبلوغ الغاية وشفاء الغليل فضلوا سياسة الرفق والتسامح والتقرب الى الناس بما تطمئن اليه قلوبهم وينتعش أملهم وينسيهم هول الفاجعة ؟؟ وهذا ما لا يحتمل إجراءه في مثل تلك العهود التي حلّت فيها الرحمة عن قلوب الأقوياء ولم يسيطر بها سوى العنف والاستبداد والمجازفة ، وقد لا يلتئم مع الدوافع التي حسّنت لآل الصغير أن يفتكوا بالأبرياء والضعفاء والأطفال من السادة الحسنيين ؟ – كما هو المعروف من نسب آل شكر – لأن الأخذ

بسياسة الرفق والتسامح لا يبرد غلة الموتورين والناقمين من فلول الشكرية وأنصارهم ، ولا يفل من غرب الطامحين والمعتدّين بقوتهم ومؤهلاتهم وجدارتهم بالحرية والسيادة من أبناء الشعب ، بل يفسح المجال لهؤلاء وهؤلاء لأن يتقووا مادياً ومعنوياً ، ولأن يستغلوا الفرص المؤاتية ويستعملوا نفس السلاح ونفس الوسائل التي تذرع بهـا آل الصغير للوصول الى ما وصلوا اليه من فتك واغتيال وغلبة .

أم تراهم – وقد غلب على أفكارهم اليأس من حب الناس ومن رضاهم وائتمانهم – آثروا سياسة الضغط والارهاب بشتى وسائله ومعانيه في داخل البلاد؟ وذلك أمر عسير لا يستتب لهم– مع نقمة الجمهور وحقده واشمئزازه– إلا اذا اطمأنوا لقوى السلطات العليا في الخارج وارتاحوا لرضا الولاة والحكام المتسلطين أو رضى الأقوى فالأقوى – مهما كابدوا في سبيل ذلك من تقلب الولاة واختلاف الحكام واضطراب الخطط ، وفي هذا ما فيه من طبع السياسة العاملية بطابعين خطرين همـا : (١) الضغط والارهاب في داخل البلاد . (٢) والانقياد لهؤلاء الحكام والولاة بكل ما يفرضه الانقيـاد من خضوع وعبودية واستخفاف بالواجبات الوطنية أو ما كان يقوم مقامها من الروابط الاقليمية ، والحقوق الطائفية ، والمصالح العامة .

ولعل من يحسن الاصغـاء الى مفاد النصوص ومساق الحوادث في هذه الفترات التي كان يضطرب فيها نظام الحكم ويسود الارهـاب والعسف ، ويكون آل الصغير منها في حال شك او يأس أو خوف ، أو يكونون إزاء معارضة عنيدة تمتحن بهـا سجايا الرجال ، وعقلية الساسة وبراهين الأقوياء .. يميل الى القول بأن سياسة الضغط والارهاب هي التي كانت تسيطر على أفكارهم وأعمالهم ومحاولاتهم .. وقد ينمو هذا الميل عند من يستعرض تاريخ الخصومات والمعارضات الداخلية أو يتحرى الوسائل والأعمـال والأساليب التي كانوا يتوسلون بها للسيطرة على أفكار العامة وإنهاك المعارضة وانتهاك المعارضين .

يقول مؤلف جبل عامل في التاريخ ص ٤٩ من كتابه « قال مروة في رسالته : جبل عامل في قرنين ، وسنة ١٠٧٠ هـ كانت وقعة عيناثا ، وقال الشهابي في حوادث سنة ١٠٧١ هـ ، وفي هذه السنة قدم علي باشا الدفتردار الى صيدا وهو أول من تولاها من الباشاوات ، وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة » ثم يعقب المؤلف (ص ٥٠) على هذا بقوله « ومن المظنون وحدة ما ذكراه واشتباه احدهما في التوقيت ، كما أن حدوثها في عيناثا يؤذن ببقاء زعامة بيت شكر الى هذا التاريخ » .

ولعل من يطلع اطلاع المؤلف ويلاحظ ملاحظاته لا يستبعد وحدة ما ذكره الشهابي ومروّة والسبيتي ، اما أن يكون وقوع الواقعة في عيناثا إيذاناً ببقاء زعامة آل شكر ، فهذا ما لا يتفق وفحوى النصوص والحوادث لأن آل شكر لم يكونوا في أميالهم السياسية من أشياع القيسيين والمعنيين – على ما تقدم من إيضاح – وإنما كانوا من أشياع اليمنيين وآل علم الدين ، فلو انه بقي للشكرية كيان سياسي الى تاريخ (١٠٧٠ و ١٠٧١ هـ) لكانت هذه الوقائع التي وقعت في هذا التاريخ تأييداً لسياستهم وبعثاً لرياستهم في عاملة ، لأن باشا صيدا هذا كان – في هذه الاوقات – مع ابن الكبرلي باشة الشام معارضين أشد المعارضة لسياسة المعنيين وأشياعهم من القيسية ومؤيدين أبلغ التأييد لسياسة آل علم الدين وأشياعهم من اليمنية ، كما يتضح من استقراء الحوادث (بين سنة ١٠٧٠و١٠٧١ هـ) ومن مراجعة قول المؤلف نفسه ص ٤٨ إذ يقول « وأعطاها – أعطى والي الشام صيدا – الى علي باشا الدفتردار وهو أول باشا تولاها فاضطهد المعنيين والشهابيين واستعان الباشا بأولاد علم الدين واستعانوا به ، فدمروا بلاد المعنيين حرقاً ونهباً وقطعاً للأشجار » .

أو مراجعة قول صاحب دواني القطوف إذ يقول ص ١٩٤ من كتابه

« ان احمد باشا الكوبرلي ابن الصدر الاعظم والي الشام سلم ولاية صيـدا الى علي باشا الدفتردار وسماه وزيراً ، فصار ولاتها منذ ذلك العهد وزراء وكان نصير اليمنية فأوقع بالمعنيين ونهب بلادهم حتى هجروها وهربوا من وجهه » .

ثم قول الشهابي ص ٧٣١ عن حوادث سنة ١٠٧١ هـ « وعند وصول ابن الوزير الى الشام كاتب باشا القدس ، وقبلان باشا والي طرابلس، وباشا غزة، وابن طربيه البـدوي ، بالركوب لحرب بني قيس ، فأتى اليه الامير علي بن علم الدين ، وولداه الامير محمد والامير منصور وابن الصهيوني والمقـدم علي ابن الشاعر واكثر حزب اليمنية ، فمات في الشام المقدم علي بن الشاعر والامير علي بن علم الدين في الطاعون. ثم ان أحمد باشا ابن الكبرلي زحف بالعساكر من الشام الى سعسع ، فكاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فما قبل ذلك ، فهربوا بعيالهم الى بيت حمادة وسار معهم نحو ستماية رجل الى (قمز) في أطراف كسروان الى الجرد ، ثم سار أحمد باشا ابن الكبرلي الى وادي التيم فهدم سرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبيوت مدبريهم وقطعوا نحو خمسين الف شجرة من توتهم في مرجعيون والبقـاع وأعطوا حكم وادي التيم الى ابن علم الدين ، والى المقدم زين الدين وابن أخيه عبدالله » .

الى أن يقول ص ٧٣٢ « وأما بيت معن فظهر منهم إهمال في إيراد المال الذي تعهدوا به ، فخرج ابن الكبرلي في العسكر الى المرجـة ثم انتقل الى مرج عيون ، ثم الى قب الياس ، وحضر اليه باشا غزة وباشا طرابلس وابن علم الدين وأولاد طربيه ، فاجتمع المعنية والشهابية وبيت حمـادة في قمز ، واتفق الرأي بينهم أن يصرفوا رجالهم « وأن يرسلوا السكمانية واللاوند الى الامير عساف الحياري ، وان الامير قرقماز والامير علي يتوجهون بخمسين رجلاً الى بلاد جبيل ليختفوا بها ، وان الامير أحمد المعني وأخاه يختبئان في بلاد جبيل ايضاً » .

وعليه فلا يعقل أن يكون باشا صيدا مع جميع بشوات سورية مؤيدين

لسياسة اليمنية وآل علم الدين في طرابلس وفي الشوف وفي وادي التيم ثم يخذلونهم ويخذلون أشياعهم القدماء من الشكريين في جبل عامل على تقدير أن يكون باقياً لهم كيان سياسي في هذا الوقت ؟

وخصوصاً إذا ثبت ان علي بن علي الصغير – حليف المعنيين والقيسيين – قد قتل هو وأولاه أثناء تولي علي باشا الدفتردار على صيدا أو في غمار الفتنة التي وقعت بينه وبين مشايخ المتاولة في قرية عيناثا كما يرجح ذلك صاحب أعيان الشيعة (١) نقلا عن ابن بجير العنقاني .

ذلك ما يشعرنا بأنه لم يكن للشكريه أي أثر في السياسة العاملية يومئذ، وإلا لتسنى لهم ان يظهروا ويناهضوا أخصامهم بهذه الفرص السانحة ، وأن يستعيدوا ماضيهم في الرئاسة ويشتتوا آل الصغير كما تشتت آل معن وآل شهاب وآل حمادة وجميع القيسية واستولى مكانهم آل علم الدين ومن اليهم من زعماء اليمنية .

وكذلك ليس من الرأي ان نطمئن – مع فحوى هذه النصوص والحوادث – الى قول المؤلف ص ٥٤ « وإذا حدثنا الشهابي انه في سنة ١٠٧١ وقعت فتنة عظيمة بين علي باشا الدفتردار وبين مشايخ المتاولة ، امكننا ان ننسب هذه الحرب الى أحمد بن علي الصغير إذ يمكن ان يكون تغلب على الوالي في ذلك التاريخ واستقل بشطر من البلاد ، وأصبح المسيطر ، ومنع الوالي من تعيين متسلمين أتراك « وغير أتراك » ليس لنا ان نطمئن الى هذا القول .

إلا إذا جاز أن يكون أحمد بن علي الصغير هذا أكثر جنداً وأجرأ قلباً ، وأمنع جانباً من امراء المعنيين والشهابيين ومشايخ آل حماده – وقد كان اتحادهم مع القيسية يشكل أعظم قوة حربية وسياسية في بلاد الشام – يوم انهارت قواهم وتهربوا من وجه اولئك الولاة الذين تضامنوا مع علي باشا الدفتردار وقادة اليمنية .

(١) أعيان الشيعة ج ٤١ ص ٣٥٤

هل جار الشكريون في حكمهم ؟

من الشائع على أفواه الناس في عاملة أن عهد الشكريين كان عهد ظلم وجور وعسف ؛ وقد تندرت المجالس العاملية بذلك جيلا بعد جيل حتى أوشكنا لتكرار الحديث ان نصدق ما ترويه الأساطير التي تؤيد مثل هذه المزاعم .

وليس من اليسير على المؤرخ أن يسدد مثل هذه الشائعات أو يفندها وقد مضت عليها القرون الطوال إذا لم يعد للأمر عدته ويهيء للصواب أدلته وبراهينه ، بيد أن مجال البحث لا ينفك واسعاً وأبواب الرجاء لا تزال مفتوحة ، ومهما يكن من أمر الشكرية وأمر سياستهم وحياتهم كملائكة الرحمة أو شياطين العذاب ، فإنا حين نرجع الى التاريخ العام ونستضيء بنوره ونراقب سير الأحوال في هذه الفترة التي عم بها حكم الشكريين لبلاد بشارة لا نعدم سبيلا للواقع حيث نجد أن كل بقعة من بقاع الأرض التي شملها حكم العثمانيين كانت تشكو مما يشكوه العامليون في هذه الفترة من ظلم وعسف وجور فهل كانت هذه الشكوى العامة من جراء حكم الشكريين وعسفهم ؟ أم كانت تمت بجذورها الكبرى وعواملها الرئيسية لما أصاب المملكة العثمانية من فساد السلطان ابراهيم بين سنة ١٠٤٩ و ١٠٥٨ هـ وقد كان هذا السلطان من الشذوذ في الخلاعة والحماقة والإسراف بمحل جعله في شغل شاغل عن الأمة إلا بما كان فيه تحقيق شهواته وكان غريباً فيها .

ومن غرائبه انه كان يطوف العاصمة وضواحيها فإذا رأى من أعجبته وتردد وليها في إرسالها يلقى جزاءه في الحال ؟ وكان تقرر جعل النساء الرسميات أربعاً ولكن في عهد السلطان ابراهيم بلغ عددهن ثمان .

وكانت واردات لواء (سنجاق) تعطى من قبلُ نفقة لنساء القصر فأصبحت ايالة الشام على طولها وعرضها يخصص ريعها وجبايتها للمرأة السابعة

بحسب الأصول الحديثة في العهد الابراهيمي ، ولم يرض النساء أن تجبي لهن الولاة وبكوات الألوية الأموال بل كن يعين جباة مخصوصين من قبلهن حتى أصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري والسراري .

وكان على نسبة اشتداد أعصاب هذا السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له إلا مزاولة الأفراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقتناء الجواري والحلي والزهور والأموال والطرائف وإصدار الاوامر بقتل الأنفس بمعنى وبلا معنى حتى أصبح يرتاح لرؤية المناضر الفظيعة من القتل ، وقد قتل عدة من رجاله ، وقتل الصدر الأعظم مرة لأنه بعث في طلبه لتدارك حطب القصر ، فقال له الوزير ان هذا المطلب ليس من الأمور المهمة التي يفكر فيها من يفكر في أمور السلطنة فمثل به في الحال ولم يجرأ بعدها على تولي الصدارة إلا من كان على جانب من الرياء والنفاق ليرضي السلطان [1] .

وذكر مؤرخو الترك أن سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على عهد السلطان ابراهيم ثلاث سنين خرب خلالها في جسم الدولة ما لا يقع مثله في ثلاثة قرون ، ولم يبق في عهد هذا السلطان أحد لا يرتشي من الصدر الأعظم فنازلاً ، لأن السلطان يطلب من كل عامل عنده جعلاً يليق بشأن سلطانه وقد بلغت القحة بالسلطان ابراهيم الى أن طلب من وزيره أن يسترجع ما أهداه أجداده من السلاطين الى حرمي مكة والمدينة من المجوهرات ، وتعدت الحال في طلب الاموال الى كبار التجار في الاستانة ، وأخذ رجال

---

(١) ومع كل هذه الموبقات ظل في المؤرخين من يقول في ترجمة السلطان ابراهيم ما يقوله المحبي ص ١٣ من خلاصة الأثر « وكان زمانه أنضر الأزمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن ، واعتدل به الزمن »،

وظل في الشعراء أيضاً من يقول في مدحه ما يقوله الأمير منجك الدمشقي ، ص ١٤ من خلاصة الأثر م ١ :

ملك من الايمان جرد صارماً ... بالحق حتى الكفر أصبح مسلما
العدل أخرس كان قبل زمانه ... أذنت له الأيام أن يتكلما .

القصر ونساؤه يسلبون من الأمة ما يقدرون عليه واضطر كثير من التجار الى الاختفاء وإغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان .

فإذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الأمة فيها فما الحال بالولايات البعيدة كهذا القطر - ويعني الشام - حين يكون ولاته كولاة غيره من جماعة القصر ينصّب أكثرهم بشفاعة النساء والقوادين والقوادات [1] .

ثم كيف يكون حال المقاطعات الصغيرة المرموقة بعين الغضب والنقمة كمقاطعات جبل عامل - يومئذ - وقد كان أهله متهمين بميولهم واتجاهاتهم نحو أعداء العثمانيين من ملوك الشيعة الصفوية وكان ولاة العثمانيين يراقبونهم محنقين ويعاملونهم معاملة الاخصام في السياسة والاخصام في المذهب منذ أن دخلوا سورية حتى ذلك العهد ؟

اضطراب علمائنا في هذا العهد

وإن الباحث ليشعر - عند تاريخ الحركة العلمية في هذا العهد - ان مدارس جبل عامل قبل احتلال العثمانيين لسوريا كانت عامرة بالتلامذة والأساتذة والعلماء لأعلام من الشيعة ولم يكن هناك ما يوجب خوفهم أو تسترهم كما أصبحت الحال بعد انقضاء عهد المماليك وعهد بني بشارة ، واحتلال بني عثمان ، وتنازع الرياسة العاملية بين آل منكر وآل شكر وآل الصغير فإن الحال قد اختلفت كثيراً عما كانت عليه قبل ذلك ، إذ بتنا نرى تقلّص هذه المدارس الشيعية ونرى تشتت علمائنا وأدبائنا بين مستتر في بيته وقريته أو مهاجر الى ايران أو الحجاز أو العراق ، أو لائذ بحبال التقية كما يستفاد من تاريخ الشهيد الثاني وذريته الى عهد حفيده الشيخ زين الدين المتوفى بمكة سنة ١٠٦٤ هـ . ومن حال الشيخ حسين عبد الصمد والبهائي والكركي وغيرهم ممن لجأوا لإيران أو العراق أو الحجاز أو ترددوا بين هذه الأماكن .

(١) خطط الشام ص ٢٦٧ - ٢٧٠ : م ٢ .

على أن الشيء الذي يستوجب البحث والتدقيق من تاريخ علمائنا وأدبائنا في هذه الفترات المحرجة ، هو أن صلتهم بإيران كثرت واتسع مداها وكادت أن تنحصر – بداية ونهايـة – بعهد الملوك الصفوية أخصام الملوك العثمانيين الذين بادروا للاستيلاء على سورية ومصر خوفاً من أن يسبق اليها منافسوهم من الصفوية بعد أن اجتاح هؤلاء العراق ثم تحالفوا مع ملك مصر وسورية ، قانصوه الغوري .

وهذه الظاهرة ، ظاهرة الهجرة من عامل الى ايران في هذا العهد ، عهد التنافس والحرب بين العثمانيـــين الذين انتحلوا لسياستهم في حرب الفرس ، حماية أهل السنة ، والصفوية الذين انتحلوا في مناضلة العثمانيين حماية الشيعة – لا يمكن أن تكون وليدة الصدف ليس لهـا أي علاقة بهذه السياسة المختلفة الأهواء والمطامع ، فلا بد أن تكون هجرة هؤلاء العلمـــاء الأعلام من بلادنا لباعث خاص وعوامل سياسية مختلفة الأثر بين شك وخوف وضغط من قبل العثمانيين وولاتهم وبين أمل واطمئنان وترحيب من قبل الصفوية وقادتهم . كما نستشعر من فحوى تاريخهم ومن فحوى هذه الاقوال السانحة في تراجم بعضهم كقول صاحب « الدر المنثور » في ترجمة والده الشيخ محمد زين الدين المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ « ثم رجع الى البلاد – يعني عاملة – وأقام بهـا مدة قليلة ، وسافر الى العراق خوفاً وفرقاً وفراراً ممن نصبوا له العداوة وأقام بكربلاء ثم عرض له ما يقتضي الخروج منها فسافر الى مكة وبقي الى أن اختاره الله » .

وقوله في مكان آخر « وطلبه سلطان ذلك الزمان عفا الله عنه مرة من العراق فأبى وطلبه من مكة المشرفة فأبى .. الخ .

ثم قوله في بيان ما شغل بال والده قبل الوفاة وقال له أصحابه « ان بعد هذا يرسل اليك السلطان على وجـــه لا يمكنك إلا السفر الى بلاده ؛ فكان يدعو الله أن يتوفاه إن كان يعلم أن هذا الأمر يلزمه وأن وفاته خير له » .

ثم قول المؤلف في ترجمة نفسه « لما سافر والدي الى العراق كان عمري نحو ست سنين ووقع على بلادنا فتور عظيم (يعني اضطراب وجور وحرب) احترق لنا فيه ألف كتاب » .

وقوله في مورد آخر « جزى الله عنا سوء الجزاء من حرمنا من الكتب التي كانت عندنا (من أجدادي ووالدي) وقد وقع عليها الفتور غير مرة : منها قرب ألف كتاب احترقت وأنا إذ ذاك ابن نحو سبع سنين أو ثمان[1] ، حرقها أهل البغي . ولما سافرت الى العراق كان الباقي لنا في الجبل[2] ودمشق وغيرها ما يقرب من ألف كتاب، وأكثرها منه ما أخذه الناس ومنه ما تلف من النقل والوضع تحت الارض والباقي نحوماية كتاب وصلت إليّ بعد السعي التام » .

وقوله – في بيان اللطف الإلهي الذي صادفه أثناء رحلاته بين أصفهان ومكة – بلغني ما بين أصفهان والبصرة أن رجلا من بلادنا مع الحاج قال : أنا مسافر الى مكة بقصد أذى فلان .. في مكة وإشاعة خبره انه كان ببلاد العجم وانه كان يفعل كذا ، وكذا . فضاق صدري لذلك » .

ثم قوله بعد « ووقع لي نحو ذلك في مكة ومنى من رجلين ، وكان ذلك – لو لم يدفعه الله عني – موجباً لتلف النفس بل ربما سرى الى تلف أنفس ، ونقل ذلك يحوج إلى التطويل ».

ومهما قيل في عوامل هذه الهجرة العاملية ونتائجها ، فأحسب أنها أفادت الشيعة من الفرس افادات كبرى وأضرت كثيراً بالشيعة من عرب سورية فقضت عليهم في حلب وأضوتهم في دمشق وضعضعتهم في لبنان وجبل عامل.

---

(١) واذا عرفنا مولد المؤلف كان بين سنة ١٠١٣ و ١٠١٤ هـ نعرف من هذا القول أن احراق مكتبتهم كان بين سنة ١٠٢١ و ١٠٢٢ هـ وهي السنة التي نهب فيها الامير فخر الدين المعني قرية الكوثرية ، على أرجح الظنون وأقربها للواقع .

(٢) كان موطن أسرة المؤلف ، قرية جباع الحلاوه .

شحن القلعـــة بالعتاد والرجال

عندما عرف الامير فخر الدين المعني بتهيء أحمد باشا الحافظ للحملة عليه او عندما استعد للفرار منه الى ايطاليا سنة ١٠٢٢ ﻫ وضع في كل واحدة من قلعة بانياس وقلعة الشقيف من الرصاص والبارود والعازق (المؤن) ما يكفي العسكرين بها خمس سنين ، ووضع فيها برسم علوفات السكمانية [١] ماية الف قرش وجعل على عسكر قلعـــة بانياس حسين اليازجي سرداراً وبها عشرة بلوكباشيه على الف نفر ماشي ، وعلى عسكر قلعـــة الشقيف طويل حسين بلوكباشي وبها خمسة من البلوكباشية على اربعماية نفر ماشي ايضاً ؛ وكل من كان منهم متأهلا أدخل أهله معه الى القلعة . ووضع الامير حريمه في القلعتين[٢].

كما انه وضع في قلعة الشقيف قبل سفره الى ايطاليا ثمانيـــة عشر اسيراً فرنسياً (يعني ثمانية عشر خبيراً عسكرياً) ماهرين باستخدام المدافع [٣] .

---

(١) السكمانية والسكبان هم الجيش المأجور (المرتزقـــة) وكان جميعهم من العصاة وقطاع الطرق والفارين من الجيش ومن وجـــه الحكومة . لاحظ ص ٧١ من تاريخ فخر الدين المعني للخوري بولس قرألي .

(٢) تاريخ الصفدي ص ١٢

(٣) تاريخ الخوري بولس قرألي ص ٧٦

وفي أواخر شعبان ١٠٢٢ هـ وعندما رحل السردار أحمد باشا الحافظ من مرجميون الى جسر خردلة كان معه من البكلربكية المعروفة اسماؤهم مصطفى باشا ديار بكر ابن وائل كتخدا نصوح باشا سابقاً ، وعمر باشا كتانجي بكاربكي (أمير أمراء) اناطولي ، وباكير باشا قرمان ، ومؤمن باشا الرها ، وطويل أحمد باشا درابزون ، وخرّم باشا ملاطيه ، وموسى باشا اخو ابن الاتمكجي بكلربكى حلب ، وأمير شرف خان ، وأمير سيدخان ومعهم جميع سناجق كردستان وكل واحد من الباشوات والسناجق جميع عساكره معه (١) .

محاصرة القلعة والبرج

ثم بعد ان وصل الى جسر خردلة استشار الباشوات الذين معه في المشي على الشوف أولاً أو محاصرة الشقيف فاعتمد رأيهم على البدء بالمحاصرة فرحلوا الى أرنون تحت القلعة المذكورة وفي ذلك النهار طلع طايفه من القلعة وقاتلوهم من أول النهار الى آخره وفعلو فعلاً تعجز عنه الجبابرة وعادوا الى القلعة وغلقوا الباب ولم يبالوا بكثرة العساكر واستمروا الى ان جاء قورط بلوكباشي في برج الظاهرية الذي هو مقابل القلعة ومعه خمسون نفراً من السكمانية والبرج المذكور لم فيه منعه والأمير كان رسم لهم ان يهدموه والبلوكباشي يدخل القلعة فلم يرض بذلك ولم يدخل القلعة عناداً منه وفي رابع يوم نزولهم على ارنون حاصروا برج الظاهرية المذكور من بكرة النهار الى العصر وقتل من عسكر السردار نحو ثلاثين رجلاً بالرصاص والقتال بينهم عمّال ثم ان واحداً من الطايفة أراد ان يملء وزنته باروداً من البرميل وفي يده فتيلة مشعولة فأخذ البارود جميعه ، واحترق من الطايفة ناس ومن الذين كانوا في الخارج من

---

(١) تاريخ الصفدي ص ١٢

العسكر لانهم كانوا وصلوا لحيط البرج فوقع من الجماعة المحاصرين البرج لما طلع البارود عليهم سبعون رجلاً في المزحلق وغالبهم من جماعة حسين باشا ابن سيفا فقتلوا ولم يسلم منهم أحد فانهدم غالب البرج وملكوه ونجا بعض سكمانيه أخذوهم الى السردار فلم يشوش على أحد منهم بل أطلقهم في حال سبيلهم تطميناً لقلوب من في القلعة .

عمل المتاريس

وفي ثاني يوم من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف شرعو في عمل المتاريس وقطعوا شجر الزيتون ورموه من عند برج الظاهرية والسردار في بعض الأوقات واقف عليهم يأمرهم وينهاهم واستعمل فيه السناجق وأعيان العسكر حتى اوصلو ستارة الحطب الى الخندق فطلع بالليل طايفة من القلعة وأحرقوا متاريس الحطب فأمرهم حافظ أحمد باشا ان يغيروا الحطب ويجعلوا بدله تراباً في مخالي الدواب فوضع كل واحد مخلاة الى أن وصلوا الى خندق القلعة وكانت مدة الحصار ستين يوماً بلياليها ولا يبطل الضرب بالبندق والمدافع من الجانبين لا بالليل ولا بالنهار ولا سيا من القلعة وأعاليها فلله درّ من في القلعة فقد ثبتوا للحصار ثباتاً ما عليه مزيد لأن العسكر الذي مع السردار يزيد عن خمسين ألفاً؟ غير أولاد العرب ؟ [1] .

للنجدة من دير القمر

وفي أواخر شهر رمضان ارسلوا الى الأمير يونس بن معن ولمن عنده من السكمانية في الدير يستوحونهم ليجو الى العسكر ويشغلونهم بالحرب ويرسلوا اليهم جماعة منهم فيدخلوا معهم الى القلعة لكثرة ما صار عندهم من الوهم

---

(١) انها مبالغة زايدة عن الحد ذلك بأن كل ما كان في قلعة الشقيف من عسكر المعنيين لا يزيد عن أربع مائة جندي وحصارهم من الجهات الأربع لايقتضي (مع المبالغة في الخوف من قوتهم) أكثر من خمسة آلاف جندي ؟ من قبل الدولة .

لما جاءت العساكر بالمدفع الذي كان في قلعة صيدا فان كبره خارج عن الفهم وفي حال وصوله ضربوا به مرتين وانفزر وتعطل أمرهـــم حيث انكسر وكذلك كان قتل من الطايفة من المرامي من رمي البندق من برّا بعض ناس وأرادوا ان يدخل لعندهم نجدة يشتد عضدهم بهـم واتجه في المكاتيب من القلعة كورد حيدر فلما وصلت الأوراق الى الدير عرضوا على البلوكباشية فلم يوجد لأحد منهم على المسير نية من زود العسكر الذين حايطين القلعة مثل السرادقفانتدر[1] جلبحسين بلوكباشي الذي جاء من حارة اغزير وقال أنا أتوجه على خير الله وبركاته فكتب معه ماية وخمسين نفراً وأعطى حضرة الأمير يونس لكل نفر منهم خمسة غروش هبة ليأخذوا بها للحرب اهبه فلما تحقق النفر ان دخولهم القلعة أمر لازم لم يثبت مع البلوكباشي غير أحـــد وخمسون نفراً فتوجه بهـــم كورد حيدر من دير القمر وهو الذي كان يروح ويجيء بالمكاتيب والأخبار من دير القمر ، الى القلعة ومن القلعة الىدير القمر.

عمل الجواسيس

وكان في الدير جماعة من البلوكباشية يكاتبون حافظ أحمد باشا فأرسلوا اليه وأعلموه ان جلب حسين طلع من الدير هو ورفقاه ليكونوا من المحاصرين في القلعة ؟ ففي الحال عيّن حسين باشا ابن سيفا والأمير يونس ابن الحرفوش ان يربطوا طريق جلب حسين المذكور ورفقاءه فصدفوهم عند العقبة التي فوق جسر خردلا فصارت الوقعة بينهم بحـــال الليل فقاتلوا قتالاً شديداً ومانعوا عن أنفسهم ومسكوا من جماعته اثنين وخلص بالباقي جلب حسين؟؟ الى ان وصل الى متاريس تركجه بلمز وسحبوا سيوفهـــم وغاروا على اللذين في المتاريس وصاحوا صيحة واحـــدة فانهزم من قدامهـــم الذين كانوا في المتاريس فأخذ منهم بيرقاً من بيراقه وألووها على متاريس الأمير أحمد ابن الأمير محمود ابن سيفا فانهزموا من قدامه وأخذوا منهم بيرقين وجرح الأمير أحمد ابن سيفا وعاد جلب حسين هو ورفايقه ونزلوا من الخندق ؟؟ وداروا

---

(١) ولعل المراد هنا من انتدر : ابتدر ، وان الغلط مطبعي .

الى جانب المزحلق وفتح لهم أهل القلعة باب السر وسلموا من الشر بعد ان سحبوا كورد حيدر بالحبل الى عندهم فعند ذلك ادخلوهم أربعة وثلاثين رجلا ومسك منهم اثنان وقتل واحد وانهزم الباقي من الطريق لأن المفاداة التي فادوها بأنفسهم ما عنها مزيد وصارت تلك الليلة هزة كبيرة في العسكر فأصبحوا نصبوا الثلاث بيارق التي أخذوها على شراشيف القلعة فعند ذلك تيقظ حافظ أحمد باشا للقاطنين بسرايا دير القمر [١] .

توسل أم الأمير المعني بحافظ باشا

ولما اشتدت الحال على الامير يونس المعني وعلى وجوه الشوف وأحاطت بهم العساكر اضطروا لأن يرسلوا والدة الامير يونس الست نسب اتترامى على الحافظ أحمد باشا وتتوسل اليه . وحين وصلت لعند الباشا – وهو محاصر لقلعة ارنون – وقدمت المال والخيل أمر لها بالقبول واستجاب طلبها وخلع عليها وعفا عن ولدها بشروط وأبقاها عنده رهناً ، فأذعنت له وكتبت له صكاً بما طلب ، فأمر حينئذ برفع القتال عن الشوف ، وأعطاها الأمان لآل معن [٢] .

رجوع الباشا عن قلعة أرنون

ثم رحل الباشا بالعساكر عن القلعة المذكورة في أوائل ذي القعدة الحرام سنة اثنين وعشرين وألف وأخذ معه الست نسب معظمة محبورة ، وكانت عساكره تنوف عن خمسين ألفاً غير أولاد العرب ، ومع ذلك كان الرخاء موجوداً حتى بيع المدّ الحنطة بقطعة وما بقي يشتري إلا الكسلان لأن الغلال كانت في القرايا بلا حد ولا قياس [٣] .

---

(١) التاريخ المنسوب للصفدي ص ٢٠ - ٢٢ .

(٢) أخبار الاعيان ص ٣٠٥-٣٠٦ من طبعة سنة ١٩٥٤

(٣) ص ٢٥ من تاريخ الصفدي .

إذا صح أن عدد جيش أحمد باشا الذي كان مطوقاً للقلعة يتجاوز خمسين ألف مقاتل بما فيهم رجال الحرافشة والسيفلية الأشداء ، وصح أن الجواسيس أخبروا الباشا بقدوم جلب حسين الى القلعة مع خمسين نفر ، وأن جماعة الحرافشة والسيفلية ربطوا لهم في طريقهم الى القلعة .. فكيف نصدّق انهم مع ذلك تغلبوا عليهم وهم مستعدون لهم ومحصنون بمواقع حصينة تمكن الواحد منهم أن يصد ألفاً من المتسللين صعوداً ونزولاً ، وكيف نتصور انهم مع قلتهم وجهلهم بما يكمن لهم من مخاطر الطريق — اخترقوا صفوف ومكامن القوى الباسلة المرابطة لهم ودخلوا القلعة دخول الظافرين ؟ كأن رجال الحرافشة والسيفلية من بعلبك وعكار كانوا من الجبن والغفلة بحيث يعبث بهم اولئك القلة من رجال الدير ؟

هدم قلعة أرنون

وفي سنة ١٠٢٥ هـ نفـّذ حكم الوزير العثماني بهدم القلعتين ، فتوجه حسين اليازجي ومصطفى كتخدا وباكير آغا والامير يونس ابن الحرفوش وأخرجوا جملة الحريم ولم يتركوا في القلعة أحداً من حريم حضرة الامير ولا حريم البلوكباشية والطايفة على وجه العموم وجاءوا بالكل الى صيدا ، والحوايج التي ما بيعت وفضلت عنهم نقلوها الى شقيف نيحا ، وأما حواصل الغلة بعدما راح منها للأكل وغيره في هذه المدة ثلاث سنين خمسماية غرارة باعوها .

وجاء من الشام للهدم معلمون وشرعوا فيه واستمروا في القلعتين (قلعة ارنون وقلعة بانياس) مقدار اربعين نهاراً ، وكان مبتدا الهدم في واحد وعشرين شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، ومنتهاه في ثلاثة جمادى الاول[1].

---

(١) ص ٥٠ من الصفدي .

وعن قلعة ارنون ايضاً

يقول صاحب خطط الشام « ثم جرت وقعة سنة ١٠٢٣ هـ بين جماعة أحمد باشا الحافظ والي الشام وجماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة الحافظ أحمد باشا وقتل منهم نحو خمسمائة قتيل وأكثرهم من السكبان، وكان عسكر الدولة نيفاً وعشرين ألفاً .

ثم امتنع يوسف آغا سنة ١٠٢٤هـ من أن يتسلم حصن الشقيف (شقيف نيحا) وحصن ارنون الى أن يخرج منها أولاد العرب وأولاد معن ويتصرف بهما الاتراك تمام التصرف ، فشق ذلك على الامير يونس وأخذ في هدمها ، ولما انتهى الخبر الى الوزير (جركس محمد باشا) فرح جداً وأمر بخرابهما ولبث المسلمون في تخريبها أربعين يوماً [1] ، بعد أن حصن فخر الدين المعني قلعة الشقيف (وفقاً لتصميم المهندسين والخبراء الذين جاءوا من أوربا خصيصاً لمثل هذه الغاية [2] .

وجددها وشحنها بالأرزاق الكثيرة وجعل بها من آلات الحصار ما لا يعد ولا يحصى ، وقد استمر في ذلك التحصين نحو عشرة أعوام [3] .

---

(١) لاحظ الخطط ص ٢٥٧ م ٢ . أما صاحب أخبار الاعيان فيروي ان الامير يونس المعني التمس من جركش باشا في سنة ١٦١٥ م أن يرسل خمسين رجلا من الدولة تقيم في حصن شقيف نيحا وحصن شقيف أرنون ، وأن الآغا قائد الخمسين هو الذي طلب من الامير أن يخرج رجال العرب من القلعتين ليحل الاتراك محلهم ، لاحظ ص ٣١٠ و ٣١٢ من أخبار الاعيان طبعة سنة ١٩٥٤ .

(٢) تاريخ فخر للخوري بولس قرألي ص ٨٠ مجلة البطركية ، السنة العاشرة .

(٣) لاحظ ص ٢٦٤ من الخطط م ٢ .

أخبار متفرقة

من حوادث سنة ١٠٢٧ هـ

وفي هذه السنة بعد رجوع الامير علي بن معن الى صيدا ولّى على بلاد الشوف وبلاد بشارة (عمه) الامير يونس ، وأعطى حكم مدينة صيدا وتوابعها الى الشيخ حسين الطويل ؛ وفي تلك الأيام آخر شهر المحرم وصل أحمد آغا التوتونجي مندوباً من قبل الصدر الاعظم محمد باشا في طلب المال الاميري وقدره خمسة وعشرون الفاً ، والمال الذي تعهد به هبة مائة الف قرش ، وبقي في صيدا اربعة أشهر ولم يحصل على شيء [١] .

من حوادث سنة ١٠٢٨ هـ

وفي هذه السنة وصل في أواخر رجب الى ثغر صيدا علي باشا القبطان وصحبته خمسون مركباً وأقام في صيدا ثلاثة أيام ، وقدم له الامير فخر الدين وولده خمسين الف قرش تقدمة ما عدا الذخائر ، وخرج الى صيدا وطلب الامير أن يحضر اليه ، فرد له الجواب مصطفى آغا انه اذا حضرنا الى مقابلتك فما هو لائق بشانك ان تمسكنا ، وان اطلقتنا ربما يصير عليك ملامة من الدولة . فاستحسن علي باشا جوابه ، وكان موجود في صيدا مركب

(١) لاحظ ص ٦٤ من تاريخ صيدا نقلاً عن الشهابي .

فلامنكي احتج عليه الباشا انه قرصان وأخذه وكان فيه اربعون الف قرش[1].

من حوادث سنة ١٠٣١ هـ

وفي هذه السنة وردت الى ميناء صيدا المراكب السلطانية وكان القبطان عليها خليل باشا الوزير السابق ، وخرج الى البر وجال في صيدا متفقداً ، وفي الحال لاقاه الامير علي بن معن وقبّل ذيله ، ودعاه الى داره وقدّم له الاكرام وتقدمة خمسة آلاف غرش وحصان فقبلها وأولم له وليمة في داره فأكل معه ورجع الى المراكب [2] .

من حوادث سنة ١٠٣٣ هـ

وفي هذه السنة قدم صيدا ثمانية مراكب مغاربة من جهة تونس وكان رامي في الميناء مراكب فرنساوية وفلامنكية فطلبوا منهم عشرة آلاف قرش فامتنعوا عن اعطائهم وقرّبوا مراكبهم لتحت قلعة البلدية فأتت المغاربة على نية الحرب وضربوهم بالمدافع ، فالشواطي حمت نفسها ، واستمر اطلاق المدافع بينهم ذلك النهار بطوله ، وعند الغروب ذهبت المغاربة ورست المراكب بعيدة عن الميناء ، وهذا جرى بين المغاربة والفرنساويين ، أما مراكب الفلامنك فلم يتعرضوا لها . فلما سمع الامير فخرالدين ذلك الخبر رحل من صور الى صيدا ليلاً فوصلها عند طلوع الشمس وأرسل الى المغاربة قوارب تسألهم عن مرادهم ، فلما علموا بقدوم الامير والعسكر – من فلسطين – أقلعوا وأبعدوا في البحر ، وأقام الامير في صيدا ثلاثة ايام وأخذ معه نصف السكمان وتوجه الى بيروت وأبقى ولده مع الباقين في صيدا [3] .

---

(١) لاحظ ص ٦٤ من نفس المصدر ، والقرصان مركب يحوي لصوص البحر يأتون للسرقة والنهب .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤

(٣) لاحظ ص ٦٥ من تاريخ صيدا للشيخ عارف الزين .

حبس جنبلاط في قلعة ارنون

يقول مؤلف تاريخ الامير فخر الدين المنسوب للصفدي ص ٣٢ – ٣١ منه « ولما وصلت مكاتيب الامير فخر الدين المعني – من تسكانه – الى الامراء والاعيان ومشايخ البلاد مع محمد ابن عيسوق ومحمد ابن الكاور وكتبوا للامير جوابها عاد ابن عيسوق وابن الكاور بالاجوبة وتوجه معهما الشيخ يزبك ابن عبد اللطيف من أعيان الشوف لأنه كان له عليه احسان وحكّمه سنة بلاد صفد ، وسنة بلاد بشارة وانصفه من خصمه الشيخ جنبلاط ووضعه في قلعة الشقيف محبوساً » .

ثم يقول أيضاً ص ٣٦ من الكتاب « .. وصار الحافظ أحمد باشا يكاتب لأهل الشوف الذين هم من هوى الشيخ جنبلاط الذي كان محبوساً في قلعة الشقيف فراح اليه (الى الباشا) بعضهم وخلع عليهم أحمد باشا خلعاً مقلّمات. »

ارسال جنبلاط الى قلعة الشقيف محافظاً

وفي أسماء قرى جبل عامل ص ٧٦١ من العرفان م ٨ يروي الشيخ سليمان ظاهر نقلاً عن أخبار الأعيان ما نصه ؛

« وسنة ١٦٣١ ميلادية أرسل الامير فخر الدين المعني جانبولاد (جنبلاط) الى قلعة شقيف ارنون ومعه خمسون نفراً لمحافظة القلعة خوفاً من الامير طربيه ابن علي الحارثي أمير اللجون وبلادها ، فأقام في القلعة مقدار سنة » من سنة ١٦٣١ الى سنة ١٦٣٣ م ؛ وأما وفاته فقد ذكر انها كانت سنة ١٦٤٠ ؛ ولم يذكر انها كانت في القلعة كما يصرح الدكتور شاكر الخوري في كتابه مجمع المسرات .

لاحظ ص ١٥١ من أخبار الاعيان طبعة سنة ١٩٥٤ ثم لاحظ ان القلعة كانت مهدّمة سنة ١٦٤٠ وان حكم المعنيين كان في مهب العواصف وذمة الاقدار لتدرك مدى صحة زعم مؤلف مجمع المسرات .

من حوادث سنة ١٠٤٣ هـ

وفي هذه السنة حضر كجك أحمد باشا الى صيدا وكتب للأمير يونس بن معن بالأمان فنزل من دير القمر الى صيدا (وقيل استحضره من مخبأه في قلعة دوبيه) وفي حال وصوله قتله ، ثم انه ذهب لحصار مغارة جزين التي اختبأ بها الامير فخر الدين وهي مغارة منيعة في وسط الجبل لا يسلك اليهـا أحد إلا على الأخشاب ، والماء من داخل المغارة ، وابتدأت النقّابين تنقب الجبل من أسفل وصاعد وما زالوا يقطعون في الصخر حتى بلغوا المغارة وملكوها ، وأوثق الكجك أحمد الامير فخر الدين وأولاده منصور وحيـدر وبلك مع مدبريهم ورجع بهم الى الشام .. وقد أمر السلطان بعـد ذلك بقتله وقتل أولاده لكثرة الشكايات عليه [١] .

من حوادث سنة ١٠٦٩ هـ

وفي هذه السنة تولى صيدا وبيروت اسماعيل آغا ، وفيهـا مرض الامير ملحم بن معن في عكا فأحضر بهودج الى صيدا وتوفي بها وتولى صيدا وبيروت سنة ١٠٧١ هـ محمد باشا الأرناؤط [٢] .

---

(١) لاحظ ص ٦٥ من تاريخ صيدا نقلا عن الامير حيدر .

(٢) لاحظ ص ٦٥ من نفس المصدر .

واقعة انصار سنة ١٠٤٨ هـ

ذكرنا فيما بحثنا عن بني بشارة العامليين النصوص التي تشير الى زمن حكمهم وحروبهم (بين ٧٠٠ و ٩٠٩ هـ) ، ثم ذكرنا في بحثنا عن السياسة العاملية في عهد الشكرية والمعنية ، مـــا عثرنا عليه من النصوص التي تتصل بتاريخ العامليين في هذه الفترة ولم نتخلف بشيء من ذلــك عن النشر والملاحظة إلا لأن درسه وتمحيصه كان بحاجة الى مزيد من الاستقراء والتروي وإلى مزيد من المصادر والنصوص الواضحة ، ومن ذلك هذا الخبر عن حادثة انصار الذي أشار اليه الشيخ علي سبيتي بقوله :

« صارت وقعة انصار سنة ألف وثمانية وأربعين »[١] ، ثم يرويـه الشيخ احمد رضا موضحاً بقوله : فاستلحم أهل انصار واستمر القتل فيهم ولم يشف حقـــد الامير ملحم مقتل ألف وخمسماية من المتاولة حتى استباح القرية نهباً وسلباً »[٢] .

ثم يرويه الشيخ سليمان ظاهر عن بعض المخطوطات العاملية بما نصه « وفي سنة ١٠٤٨ صارت وقعة انصار مع الامير ملحم فنهبها نهبة عظيمة وقتل فيها خلقاً كثيراً وأقام فيها نحو أربعة أيام »[٣] .

---

(١) العرفان م ٥ ص ٢١ .
(٢) العرفان م ٢ ص ٢٢٦ ،
(٣) العرفان م ٨ ص ٣٤٣ .

ثم يورده الامير حيدر أحمد شهاب على ما يلي « وفي سنة ١٠٤٨ هـ قدم السلطان مراد خـان الى مدينة حلب بعساكر وافرة قاصداً بغداد فخاف الامير علي بن علم الدين وانتقل الى بلاد بشارة وكان الامير ملحم بن معن في وادي التيم فأرسل الى رجال الشوف وسار بهم الى بلاد بشارة وباغت الامير علياً علم الدين في قرية انصار فهرب ابن علم الدين »[١].

ثم يعرضه الشيخ بطرس الشدياق على هذا النحو « وسنة ١٦٣٨ لمـا أمر السلطان بالزينة عند فتحه بغداد خاف الامير علي والتجأ الى متاولة بـلاد بشارة فلما علم به الامير ملحم المعني جمع عسكراً ودهمه في قرية انصار وقتل من جماعته خلقاً كثيراً ففر الامير علي الى دمشق مستغيثاً بواليها فأرسل معه الوالي سكماناً (عسكراً مأجوراً) فزحف بهم على الامير ملحم ففر منه . وخلت الشوف ، والغرب ، والمتن ، والجرد من السكان ، وفيها تولى أحمد آغا صيدا وبيروت فقتله الامير علي في أرض خلدة وفي سـنة ١٦٣٩ دهم الامير علي قرية مشغرة في البقاع ونهبها »[٢] .

ثم يروي الدويهي ويقول في سنة ١٠٤٨ هـ و ١٦٣٨ ميلادية قدم السلطان مرادخان الىمدينة حلب بعساكر متوافرة ما انقطع لها وتر بمدة اثنعشر يوم قاصداً بغداد فملكها وأمر بالزينة ، فأبن علم الدين أخـذه الوهم من قدوم السلطان فالتجأ الى عند متوالية بلاد بشارة فكبسهم الامير ملحم في قرية انصار وقتل منهم نفراً كثيراً في شهر آب ، ثم ان ابن علم الدين اجتمع في سكمانية الشام الذين أرسلهم المتسلم وزحف بهم على الامير ملحم فطفر من قدامهـم وطفروا أيضاً من أوطانهـم أهل الشوف والغرب والمتن والجرد وخلا بلاد الدروز[٣] .

---

(١) تاريخ الامير حيدر ، طبع مصر ص ٧٢٣ .

(٢) أخبار الأعيان طبعة ثانية م ١ ص ١٣٩ .

(٣) ص ٣٣٧ من تاريخ الأزمنة للدويهي طبعة سنة ١٩٥١ .

١ – يلاحظ ان رواية السبيتي تشير الى حصول وقعة في أنصار أمـــا كيف صارت ومع من ؟ مع رجال الامير علم الدين أو مع رجال المتاولة أو مع الجميع ؟ ثم ما هي كمية القتلى ومن أي جهة فهــذا كله يبقى مجهولاً من رواية السبيتي .

٢ – بينما تشير روايتا رضا وظاهر الى ان الحرب كانت مع المتاولة والى ان عدد القتلى كثير وانهم بلغوا ألف وخمس مابة أضف الى ذلك اباحة القرية للنهب والسلب مما يجعل تفاصيل هذه الوقعة أشبه ما تكون بتفاصيل وقعة انصار سنة ١١٥٦ وهو ما يجعلنا نحسب الحساب لاضطراب المصادر والروايات العاملية المتشابهة في اجمالها وغموضها ونتقبل كل احتمال لوقوع الالتباس بين ما حدث سنة ١١٥٦ هـ على يد الامير ملحم شهاب وما حدث سنة ١٠٤٨ هـ على يد الاميو ملحم المعني ولا نستبعد ان يكون لهذا الالتباس أثره في تصوير ما وقع في عهد الامير ملحم المعني بنفس الصورة التي وقعت في عهد الأمير ملحم الشهابي مع انه لا بد ان يكون هناك فارق بين تفاصيل حادثـة سنة ١١٥٦ وحادثة سنة ١٠٤٨ .

وأما رواية المؤرخ الشهابي فانها لا تصرح بوقوع حرب بين الطرفـين ولا بشيء من عدد القتلى بينما تصرح رواية الشدياق بوقوع الحرب وتبالغ في كثرة القتلى ولكنهم من جماعة الأمير علم الدين فحسب على انه لا يدري ما يقصد من جماعة علم الدين ، أهم جنده الخاص من الدروز أم الدروز وحلفاءهم من المتاولة كما يستشف من كلام رضا وظاهر . وعلى كل فإن رواية الدويهي وهي مصدر رواية الشدياق تشعرنا بصراحة تامة ان المعني باغت المتاولة في قرية انصار مباغتة. والا لكان القتلى من الطرفين لا من جماعة علم الدين فقط دون جماعة المعني على ما يظهر من عبارة الشدياق .

٤ – وأما القول بأن الامير علم الدين قد خاف من السلطان مراد فانتقل

أو التجأ أو فر الى بلاد المتاولة .. فقول لا يبرره منطق التاريخ . ذلك بأن الامير علي كان من الموالين للدولة العثمانية والمعتمدين على تأييدها ومساعدتها في مجابهة آل معن وأنصارهم من اللبنانيين وغير اللبنانيين . كما يدل على ذلك التأييد فرار الامير علي الى والي دمشق عندما هزمه الامير ملحم في قرية انصار ، ثم انتصار والي دمشق له في الموقعة الثانية التي هزم بها خصمه الامير ملحم المعني .

ثم هب ان الامير علم الدين لم يكن من اصدقاء الدولة العثمانية فما الذي يوجبه ان يخاف من مجرد مرور السلطان مراد بحلب أو من مجرد أمره بالزينة ؟ فهل كان الامير علم الدين – أثناء ذلك – من الموالين لأخصام السلطان أو من المحاربين لجنوده .. ليخاف منه بعد انتصاره في بغداد ؟ وإذا جاز لأحد ان يخاف من انتصار السلطان يومئذ فان الامير ملحم المعني أولى من غيره بالخوف منه .

ولعل أقرب طريق الى الصواب في تفسير حادثة انصار هذه وفي توضيح ظروفها واظهارها بالصورة التي تقربها من الواقع أو تجعلها سهلة التصديق .. هو بأن يكون الامير علي علم الدين شعر بخطر ما يحاك حوله من المؤامرات في أنحاء لبنان . ثم لاحظ ان الامير ملحم لم يقصد وادي التيم في تلك الأحوال إلا لغرض مريب في عواقبه فأخذ هو بدوره الحيطة لما قد يفاجأ به من خطر وقصد بلاد المتاولة يستنجد بهم ويحالفهم قبل ان يدهمه عدوه بما لا قبل له به من قوى الشوف ووادي التيم معاً ، فما كان من الامير ملحم إلا ان استغل خروج خصمه من الشوف وباغته في قرية انصار .. وكان ما كان من المقدرات: وان في قول المؤرخ الشهابي « وكان الامير ملحم بن معن في وادي التيم فأرسل الى رجال الشوف وسار بهم الى بلاد بشارة وباغت الامير علياً علم الدين في قرية انصار » ما يدل على ان كل شيء كان مدبراً للمباغتة ومعداً للانقضاض على ابن علم الدين .

يقول العلامة الأمين : قتل علي بن علي الصغير هو وأولاده سنة ١٠٧٢ هـ على ما ذكره الشيخ محمد بن مجير المنقاني في تاريخه المختصر قال : وقتل عاصي وأولاده وقتل قرقماس بن معن . وقال قبل ذلك انه في سنة ١٠٧٠ صارت صيدا باشوية ، وكان أول ولاتها علي باشا وبعده محمد باشا في ثاني سنة وقتل قرقماس ابن معن (اه) والظاهر انه قتل علي بن علي صغير وأولاده في الفتنة (أي الحرب) العظيمة التي حدثت بين علي باشا الدفتردار ، أول باشا ولي صيدا ، وبين أمراء الشيعة في جبل عامل ، فقد ذكر الأمير حيدر في تاريخه « انه في سنة ١٠٧١ قدم علي باشا الدفتردار الى صيدا وهو أول من تولاها من الباشوات ، وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة ، وفي سنة ١٠٧٣ عزل علي باشا الدفتردار عن مدينة صيدا وتولى مكانه محمد باشا فكتب الى الامير قرقماس والامير أحمد المعنيين بالأمان فحضرا فقتل قرقماس وهرب أحمد بعد ما أصابه سيف في رقبته »[1].

ملاحظة وتوضيح

ان السيد الأمين لم يورد نص عبارة المنقاني لنتحقق من مفادها ومدلولها الطبيعي وإنما تصرف بالنصوص تصرفاً لم يدع مجالاً لفكر القارىء ان يستقل بحكمه وتقديره.. غير اننا اذا لاحظنا ان السبيتي قال : في سنة ١٠٧٠ كانت وقعة عيناثا ، وان الامير حيدر قال : في سنة ١٠٧١ أصبح علي باشا والياً على صيدا ، وكانت فتنة بينه وبين مشايخ المتاولة ، وان المنقاني – وهو من المعاصرين للحوادث – قال : في سنة ١٠٧٢ قتل علي بن علي الصغير وأولاده بعد ما قال : إن علي باشا أصبح والياً سنة ١٠٧٠ هـ

ثم لاحظنا ان الامير حيدر لم يحدد زمن الفتنة في عهد علي باشا الدفتردار

(١) أعيان الشيعة ج ٤١ ص ٣٥٤

الذي امتدّ – على رواية الامير – الى سنة ١٠٧٣ ، مما يفسح المجال لاحتمال أن تكون الفتنة قد وقعت في سنة ١٠٧٢ وفي عهد علي باشا . ولاحظنا كذلك ان العنقاني لم يوضح كيفية القتل وملابساته وأسبابه .

إذا لاحظنا كل هذا .. أمكننا أن نزعم ونرجّح أن وقعة عيناثا سنة ١٠٧٠ كانت أولاً بين الاحزاب اليمنية من الاهالي وبين المنتمين منهم الى القيسية كعلي بن علي الصغير وأولاده ، وان واقعة سنة ١٠٧١ بين الباشا ومشايخ المتاولة كانت جواباً على الواقعة الاولى وانتصاراً لليمنية من العامليين ضد القيسية منهم ، وإن يكون علي بن علي الصغير وأولاده قد اعتقلوا في تلك الوقعة وظلوا معتقلين الى سنة ١٠٧٢ حيث بدا للباشا ما حسن له قتلهم ، وان يكونوا قد فرّوا من وجه أخصامهم ، وظلوا فارّين الى ان ظفر بهم أخصامهم سنة ١٠٧٢ وقتلوهم . كل هذه الاحتمالات جائزة ما دام العنقاني لم يوضح كيفية القتل وأسبابه وملابساته .

كما يحتمل ويجوز أن نقول بأن ما أشار اليه السبيتي والامير حيدر والعنقاني فد وقع في زمن واحد ، وان الاشتباه بين المؤرخين انما كان في تعيين ذلك الزمن وتحديده وضبطه بين سنة ١٠٧٠ و ١٠٧١ و ١٠٧٢ هـ .

وقعة النبطية سنة ١٠٧٧ هـ

يصرح الفاضل السبيتي بهذا الخبر « وسنة ألف وسبعة وسبعين كانت وقعة النبطية وانتصر المشايخ ، وسنة ١٠٧٨ هـ كانت وقعة وادي الكفور [١]

ثم يرويه ويوضحه الاستاذ رضا بقوله : « واغتنم المتاولة فرصة الوهن الذي طرأ على الحكومة المعنيـة في زمن الامير احمد فأعلنوا استقلالهم عن لبنان وخرجوا عن طاعة أمرائه ، فغزاهم الامير احمد في سنة ١٠٧٧ في النبطية مقر الصعبية حكامها فارتدّ عنها عسكره منهزماً بعد ملحمة كبرى

(١) العرفان م ٥ ص ٢١ .

فاستجاش عليه والي صبدا فأتاها هذا في العام القابل غازياً وكان نصيبه كنصيب صاحبه المعني حيث لحق المتاولة المنهزم الى عين المزراب قرب صيدا [1] .

ثم يرويه الاستاذ ظاهر بقوله : « من الحوادث التي وقعت في النبطية ، ولم يذكرها المؤرخان المطران الدبس والشدياق وجاء ذكرهـا في بعض المخطوطات العاملية « ان الامير احمد المعني جاءها سنة ١٠٧٧ هـ في أربعة آلاف رجل لمقاتلة بيت أبي صعب فقاتلوه وكسروه كسرة عظيمة وقتلوا من عسكره زهاء مائتي رجل وقتل منهم خمسة رجال [2] .

ملاحظات وتوضيح

١ - يلاحظ من سياق الحوادث العاملية واللبنانية أن جبل عامل لم يكن - في جل أزمنة الحكم المعني - تابعاً في سياسته وحكمه لأمراء الشوف ، وخصوصاً بعد أن أصبحت صيدا ولاية لكي يحدد ولاتها نفوذ الأمراء الشوفيين ويراقبوا سياستهم المشبوهة بعلاقتها مع قناصل أوربا وتأثرهـا بدسائسهم المغرضة وإذا ما اضطرب استقلال العامليين أو انضوى تحت حكم المتسلمين أو حكم أمراء الشوف .. فلم يكن يضطرب أو ينضوي إلا في بعض الحالات التي كان يتمرد فيها العامليون على الدولة أو يتأخرون عن دفع الضرائب والأموال المفروضة للدولة ، أو حين كان يتآمر عليهم الولاة مع أمراء الشوف طمعاً بالمال وتأثراً بوحي الظروف الدولية مثل أن يكون شيعة ايران أو العراق في حرب ضد العثمانيين أو يكون العثمانيون منهارين في حرب أوربية .

فيغتنم قناصل أوربا في لبنان مثل هذه المناسبات للضغط على الدولة وولاتها في تحقيق بعض الاغراض التوسعية والمخططات السياسية التي كانت توحي بها أماني دولهم الاستعمارية ومصالح انصارهم في لبنان .

---

(١) العرفان م ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) العرفان ص ٦٥٧ ، م ٨ .

٢ – كما يلاحظ من ماجريات الحوادث ومن القوانين العثمانية المرعية في ذلك العهد ان والي الايالة هو الذي كان من حقه أن يستجيش بقية الحكام الاقطاعيين على من يتمرد منهم على الدولة أو يتأخر عن دفع الضرائب والاموال الاميرية [١] لا أمير الشوف وأمثاله كما يبدو من رواية الاستاذ رضا في حادثة النبطية ، فما الذي غير التقاليد والقوانين وسوّغ هذا التناقض وجعل الحاكم تابعاً للمحكوم وصيّر أمير الشوف المحكوم لوالي صيدا هو الذي يستجيش الوالي على أخصامه ؟!

٣ – مما لا شك فيه أن الصعبية كانوا حكاماً للنبطية باعتبارها من قرى مقاطعة الشقيف التي كانوا يحكمونها ، أما انها كانت مقر حكمهم يوم كانوا حكاماً لمقاطعة الشقيف ، فهذا لا يستند الى دليل ولا الى أي أثر تاريخي يوضحه ذلك بأن مقر حكمهم قبل نكبة الجزار للعامليين سنة ١١٩٥ كان في قلعة الشقيف كما يبدو من تاريخ الحوادث المتعلقة بهم أو بحكمهم. وأما بعد النكبة فقد أجبروا مع بقية الأسر الاقطاعية على الإقامة في قرى إقليم الشومر كالمروانية والبابلية وزفتة ، ولم يعرف أن أحداً منهم سكن النبطية إلا بعد زوال الحكم الشهابي سنة ١٨٤١ وتطور الاوضاع الادارية وتقسيم جبل عامل الى مديريات ، ذلك بأن أملاكهم وأراضيهم في النبطية كلها أو أكثرها مستحدثة ومأخوذة من ملاكي النبطية القدماء كآل فخر الدين وآل فران وآل محي الدين ، ثم ان دورهم فيها كلها مستحدثة لا يتعدى تاريخ أقدمها سنة ١٨٥٦ وان مكان دارهم اليوم في النبطية كان خاناً للبلدية سنة ١١٨٥ هـ يوم غزاها الامير يوسف شهاب . وان حوادث سنة ١٨٦٠ لا غيرها هي التي دلت على استيطانهم للنبطية واستئناف حكمهم في مديرية النبطية كما يبدو من مراجعة العرفان م ٥٠ ص ١٠٠٣ – ١٠٠٦ أو كتاب مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري .

---

(١) راجع ص ٢٩ – ٣٢ من كتاب ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية . ثم خطط الشام ص ٢٧٧ ج ٢ .

أحمد بن علي الصغير

يقول الامير حيدر « وفي سنة ١٠٩٠ هـ توفي الشيخ أحمد بن علي الصغير شيخ المتاولة [١] ويقول الشيخ محمد بن مجير العنقاني ان أحمد هـذا مات فجأة سنة ١٠٩٠ هـ [٢] .

---

(١) الغرر الحسان طبع مصر ص ٧٣٩ .
(٢) أعيان الشيعة ج ٩ ص ١٠٩ .

واقعة وادي الحبيس بقيادة الحاج زين

ينقل الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر هذا النص على ما يلي :

« وجاء في كتاب مؤرخين عامليين من أبناء القرن الثاني عشر للهجرة ، قال أحدهما: وفي سنة ١٠٩٥ كانت وقعة وادي الحبيس بين بلاد بشارة وأهل القبلي بقيادة الشيخ علي بن الحاج أحمد ونهبت فيها بلاد بشارة وخربت ديارها .

ورواها ثاني المؤرخين كما يلي: وسنة ١٠٩٥ هـ صارت وقعة وادي الحبيس وضربت بلاد بشارة أجمع ونهبتها القبيلة مع الشيخ أحمد ، وكان حاكمها الحاج زين [١] .

توضيح وملاحظة

١ – وادي الحبيس في سفح جبل الجرمق وقرية بيت جَنْ الفلسطينية وهو متصل شرقي وادي الجِشْ ونهر القرن في حدود جبل عامل الجنوبية . كما يتضح من يوميات روبنصن ج ١ ص ١٨٨ – ١٩١ طبعة بيروت .

٢ – المراد بأهل القبلي هم أهل صفد وعكا ونابلس وما يليها من قرى فلسطين ممن هم قبلي جبل عامل وجنوبه .

---

(١) العرفان م ٨ ص ٢٨٣ .

٣ – من يراجع كتاب جبل عامل في التاريخ يشعر بأن المؤلف أهمل الاشارة الى هذين النصين ثم تمادى فأهمل الاشارة الى جميع ما نشره الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر في العرفان من أبحاث تاريخية عن جبل عامل وخاصة ما نشر متسلسلاً بعنوان (أسماء قرى جبل عامل) مع ان الاستاذ ظاهر كان أكثر العامليين التزاماً بأصول البحث ومسايرة للروح العلمية ؟

الصمت والغموض

ثم يرجع التاريخ بعد رواية هذه النبذ الى ما عودنا عليه من الصمت والإهمال والغموض ؛ ونعود نحن الى ما كنا عليه من الشك والحيرة بشأن هذه الفترات الطويلة المضطربة بين حادث وحادث فلا ندري ماذا جرى فيها ولا نعرف بالضبط من قدّر لهم أن يحكموا البلاد أثناء ذلك .

أهم هؤلاء المتسلمون الذين كان يفرضهم الولاة والأمراء بعد كل حادثة ينهزم بها العامليون كالمتسلم حسين الطويل الذي كان متسلماً في قلعة الشقيف في عهد الامير فخر الدين المعني ، وكحسين اليازجي الذي أصبح متسلماً في تبنين وبلاد بشارة على عهد الامير علي المعني ، وكالشيخ محمود ابي هرموش الذي أصبح متسلماً لبلاد بشارة في عهد الامير حيدر شهاب سنة ١١١٨ هـ . أم غيرهم ممن نبهوا في الأسر العاملية كآل شامي في بنت جبيل ، وآل داغر في انصار ، وآل الزين في شحور ، وآل برّو في كفرحونه وجبل الريحان ؟ فإن بعض المخطوطات والنصوص الموضحة لتاريخ العامليين في العهد المعني تشير بجلاء الى انه كان لبعض أبناء البيوتات الاخرى شأنهم السياسي مع الحكام والمشايخ والأحداث الجسام في بعض الفترات التاريخية .

ومن يقرأ قول الامير علي المعني او محمد خالد الصفدي ص ٦٦ من تاريخه « وصار الامير أحمد ابن الامير يونس الحرفوش يراسل ويكاتب بني متوالي من المشايخ المتعينين ، فطلع اليه من شيعته وملته بهدايا أولاد داغر ، وأولاد

علي الصغير ، وابن منكر الحاج ناصر الدين الخ ، ومن يقرأ هـذا القول من الصفدي ، او من الامراء المعنيين يدرك بأن أولاد داغر من قريـة انصار كانوا في عـداد مشايخ المقاطعات العاملية ومن ساستهم ايام المعنيين . ومن يطالع كذلك قول الصفدي ص ٧٠ من تاريخه : « فلما بلغ الامير فخر الدين هجاج مشايخ بلاد بشارة أرسل هدم بيوت أولاد شكر في عيناثا والحاج علي ابن ابي شامي في بنت‌جبيل،وفرحات داغر في قرية انصار،والحاج ناصر الدين ابن منكر في قرية الزريرية ، وولده في قرية حومين الفوقا وضبط غلتهم.. يشعر بأن الحاج علي شامي وفرحات داغر كانا معتبرين لدى المعنيين في جملة المشايخ والقادة العامليين .

وكذلك يستشعر القارىء من تلك الرواية التي تنص على أن الحاج زين -- جد الأسرة المعروفة في الاوساط العاملية - كان حاكمـاً في بلاد بشارة حول سنة ١٠٩٥ هـ .

همسةٌ لا بد منها

كان من الاحتياط لحسن ظن القراء بتجردي ونزاهتي أن أتجاوز هذا الخبر الذي يشير الى حكم الحاج زين ، وأن أغض النظر عن إثباته هنا لعلاقته الماسة بما تتهم به الاخلاق وتمتحن الاثانيات، ولكن الأمانة العلمية للتاريخ قضت بأن أسجله في جملة النصوص المرسلة ارسالاً لأفسح المجال لغيري من الباحثين أن يمحصوا ما لم يتهيأ لمثلي تمحيصه وبيان محله من الصواب والخطأ .

ذلك بأن للمخطوطات القديمة من الحرمة والواجب ما يقلل من قيمة الاعتراض على مفادها – إيجاباً او سلباً – بدون مبرر علمي ومستند تاريخي يصح الاعتداد به وقول (لا) او نعم لا يكفي في مثل هذا الموقف لدحض المزاعم المعاكسة او تبريرها .

لا سيما وأن مفاد هذا النص له – من وحي الظروف السياسية واضطراب الاحوال العامة ومن وجود قرية خربة شرقي قرية مَرْوحين تسمّى (ام الزينات) فيها قبر ولي اسمه الشيخ زين[1]. ومن الاخبار التي تروى عن

(١) راجع خطط جبل عامل للعلامة الأمين ص ١٩٧ ، لترى ان في اقتران هذا النص الذي نقله الامين برواية الاستاذ ظاهر عن معركة سنة ١٠٩٥ هـ برئاسة الحاج زين ما يستشف منه أن حاكم بلاد بشارة الحاج زين كان قد قتل في تلك المعركة عند قرية أم الزينات ، كما يستشف من خراب القرية انها أحرقت في تلك الغارة أو دمرت، ثم بني بعد ذلك قبر الشيخ زين فيها وأصبح بتوالي الايام كقبور الاولياء يتبرك بــه الناس كما أصبح (قبر الشيخ ناصيف النصار) موضعاً للتبرك بعد أن قتل واستشهد في معركة يارون سنة ١١٩٥ هـ الى غير ذلك من الافتراضات المحتملة.

عهد مشرف ، وناصيف ، وحمد البك - له من ذلك كله مـا يقرّبه الى عالم الامكان والواقع ، وهو فضلاً عن ذلك لا يمكن أن يعتبر من الخوارق والمستحيلات الخيالية بالنسبة لمنطق المؤهلات للحكم الاقطاعي في ذلك الزمن يوم كان يكفي لتحقيق أمنية الطامح الى الحكم أن يؤلف حوله عصبة من الرجال الأشداء لتشويش الامن وإحراج الحكام الى مهادنته بتقرير ما يليه من المقاطعات على اسمه ، أو بأن يشتري ذمم الولاة والامراء بالهدايا الكريمـة والتقادم المغريـة ، أو بأن يتقرب اليهم بالزيادة على مقدار الضمانة المالية التي يدفعها غيره من الملتزمين ، أو بأن يستغل الفرص التي يكون فيها المنافسون له موضع نقمة الولاة والامراء، وهي فرص كثيراً ما كانت تسنح ويمتد زمنها في العهد المعني الاخير ، نظراً لتمادي الفوضى وعدم استقرار الاحوال العامة او استقرار الاوضاع في ايالة صيدا أو مقاطعات جبل عامل على نحو خاص، إذ كانت موضع النزاع الاداري بين إلحاقها بسنجقية صفد ، أو بامارة لبنان أو بأيالة صيدا رأساً بدون واسطة . ثم موضع النزاع الداخلي بين الاسر المتهافتة على الرياسة والحكم يوم لم يكن يطلب من الحكام شهادة علمية ، أو ضمانة أخلاقية ، أو كفاءة نادرة ، أو انتخاب شعبي حر ، أو ما أشبه ذلك مما يعتد به أحرار عصرنا ويفخر به شباب هذا الجيل .

أخبار متفرقـــة

من حوادث سنة ١٠٤٩ هـ

ويقول مؤلف الغرر الحسان في تاريخ لبنان ص ٧٢٥ من الكتاب « وفي هذه السنة ١٠٤٩ باغت الامير علي بن علم الدين قرية مشغرا ونهبهـــا ثم نزل لبيروت وسكن فيها » .

وفاة الشيخ حسن بن علي الصغير سنة ١٠٦٦هـ

« وفي سنة ١٠٦٦ هـ و ٤ من جماد الاولى توفي الشيخ حسن بن حسين بن علي الصغير على مـــا ذكره الشيخ محمد بن مجير العنقاني المختصر لحوادث القرن العاشر الى الحادي عشر ، في جبل عاملة » .

(الاعيان ج ٢١ ص ٢٢٢)

* * *

« وفي سنة ١٠٦٧ هـ توفي حسين بن علي الصغير » .

(أعيان الشيعة ج ٢٧ ص ٤٠)

الامير اسماعيل الكردي يتسلم صور سنة ١٠٦٦ هـ

يقول مؤلف أخبـــار الاعيان ص ٢٠٥ من طبعة سنة ١٩٥٤ « وفي سنة ١٦٥٤ م و ١٠٦٦ هـ استخدم محمد باشا الكبرلي الامير اسماعيل الأيوبي من

رأس نحاش مدبراله] وسنة ١٦٥٥ سار محمد باشا الكبرلي بعسكره لقتال الامير اسماعيل والحاج سعيد حماده لعصيانهما بالمال الأميري فقاتلهما عند خريشة الهري فانكسرا وانهزم الامير اسماعيل وسار بعياله الى الامير أحمد المعني فسلّمه صور . وسنة ١٦٦٠ م و ١٠٧١ هـ كتب قبلان باشا [والي طرابلس] الى الامير اسماعيل كتاب الأمان فحضر بعياله من صور الى طرابلس مغتراً ، ولما بلغ أحمد باشا الكبرلي قدومه قبض عليه وقتله لأنه اجتمع بالمعنية عند عين زحلتا ، يوم كان المعنية من المغضوب عليهم عند الباشا .

من حوادث سنة ١١٠٤ هـ

يقول الأمير حيدر الشهابي (ص ٧٤٣ من طبعة مصر) ما نصه « وفي سنة ١١٠٤ هـ توجه الأمير يونس بن شهاب ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم ونهب وقتل ورجع الى وادي التيم وصاحب خطط الشام يعتبر هذا الحادث من حوادث سنة ١١٠٣ هـ .

من حوادث سنة ١١٠٥ هـ

وفي هذه السنة زار صيدا العلامة الشهير الشيخ عبد الغني النابلسي المتصوف المعروف ، ونسخ بعض الافاضل رحلته التي يقول فيها « ثم أقبلنا – نحو صيدا – على السبعة أعين وذلك المرج الأخضر ونزلنا ساحه فطاب لنا المجلس هناك والمحضر وقلنا في ذلك الروض الأنضر :

نزلنا من حما صيدا　　بماء طيب نبعه
فكانت أعين السبعة　　علينا الأعين السبعه

ثم سرنا الى جهة البلد فخرج الى لقائنا جماعة من أهلها ذوو الفضائل الامجاد ، ونزلنا في الجامع المعروف بجامع الكتخدا في حجرة هناك لطيفة

وأضافنا تلك الليلة الشيخ الفاضل مفخرة الأعيان الأفاضل الشيخ محمد المعروف بابن قطيش بضم القاف .

وفي اليوم الرابع عشر من صفر ذهبنا الى زيارة ضريح الشيخ قاسم من أولياء الله ، وقلنا في ذكر مديحه والتبرك بضريحه :

ان صيدا تنير بالشيخ قاسم وبه ثغرها مدى الدهر باسم
قد ثوى في ذرى ثراها شهيدا نور اسراره بدا في المواسم

وقد أطلعنا مفخرة الأفاضل الشيخ محمد بن قطيش المتقدم الذكر على قصيدة لصديقنا المرحوم الشيخ العالم الكامل عبد القادر المعروف بابن عبد الهادي العمري الدمشقي مدح بها الشيخ قاسم المذكور لما أتى الى صيدا وزار الشيخ قاسم في سنة ١٠٩٨ هـ وقال :

خليلي في صيدا مطالع للفتح وفي حسنها طاب النظام مع المدح
وسل عن شهيد الحق ذلك قاسم فإن به طير الشهادة في صدح

ثم ذهبنا بعد ذلك الى زيارة (ابي الروح) وهو شبيب بن ذي الكلاع أبو روح صحابي مختلف في صحبته ، فدخلنا الى ذلك المقام وابتهجنا بزيارته ومكانه لطيف الفناء فهناك أشجار وأزهار وعليه قبة معقودة فقرأنا له الفاتحة ودعونا الله بما تيسر من الدعاء وجلسنا هناك حصة من الزمن نحن ومن كان معنا من الاخوان وقلنا في ذلك المقام :

يا أبا الروح أنت للروح روح حيث عرف الكمال فيك يفوح
قد أتينا نزور منك ضريحاً طائر السر في ذراه يبوح

وقد اجتمعنا بصيد المحروسة بمفتي السادة الشافعية هناك وهو الشيخ الفاضل حاوي الفضائل والفواضل الشيخ رضوان بن الحاج يوسف الصباغ المصري الدمياطي وجرت بيننا وبينه مذكرات علمية ومباحث فقهية ثم دعانا بعد ذلك الى داره وقدم لنا الضيافة العظيمة وقد اجتمعنا ذلك اليوم بحضرة

الوزير المكرم أحمد باشا محافظ ثغر صيدا المحروسة وحصل لنـــا عنده كال السرور بحضرته المانوســـة ، ثم في اليوم السادس عشر من صفر حضر عندنا قاضي صيدا وهو يومئذ جناب فخر العلماء ومجد الفقهاء محمد أفندي الرومي وحضر معه جناب الديوان افنديسي المنسوب الى حضرة الباشا محافظ ولاية صيدا بقصد الزيارة فحصل لنا بهما كال الانس (١) .

من أخبار جزين وأسباب هجرة الشيعة منها

في سنة ١١٠٥ هـ و١٦٩٣ م ولـّى السلطان سليمان الثاني بواسطة ارسلان باشا مقاطعات الأمير أحمد المعني السبع الى الامير موسى عـــلم الدين ، وكان من جملتها إقليم جزين ، ولكن الامير أحمد بمصانعته مصطفى باشا والي صيـــدا بهداياه الفاخرة استرجع إقليم جزين مع بقية اقطاعاته وطرد الأمير موسى ؛ وفي سنة ١١٢٣ هـ و ١٧١١ م اقطع الامير حيدر الشهابي إقليم جزين الشيخ قبلان القاضي ، وفي سنة ١١٢٨ هـ و ١٧١٥ م توفي الشيخ قبـــلان بلا عقب فانتقل الى صهره على ابنته الشيخ علي بن رباح جنبلاط ، ومن هذا العهد أصبح من اقطاعات الجنبلاطيين ؛ وفي سنة ١١٩٧ هـ و ١٧٨٢ م تسلم الامير يوسف الشهابي إقليم جزين من الجنبلاطيين مع مقاطعة جبل الريحان وجعل تصرفهم فيه عن يده .

أما التشيع في جزين واقليمها فإنه قديم ، وحسبك دليلاً على قدمه انتساب عبدالله بن ايوب العاملي الجزيني اليها وهو من رجال المئــة الثانية للهجرة ومن المنقطعين الى الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام وهو من الشعراء وعدّه ابن شهراشوب من شعراء أهل البيت .

واما تقلص ظل الشيعة من هذا البلد فلا يمتد الى اكثر من قرن ، وسببه مزاحمة مساكنيهم من غير أبناء ملتهم لهم على مساكنهم التي ابتدأت من عهد

---

(١) لاحظ ص ٦٦ - ٧٠ من تاريخ صيدا للشيخ عارف الزين .

امارة الامير فخر الدين المعني وابن اخيه الامير أحمد ، ثم الحرب التي كانت سجالاً بين العامليين وامراء الشوف، ثم قضى الجزار والامير بشير على النفوذ الشيعي ، يوم لم يكن للاهالي سلطة على الارض ولم يكن هناك مساحة تلزمهم بها وإنما كانت الارض ملكاً للدولة ، وكان كل شيء بيد حكام المقاطعات ورهن حكمهم الكيفي وإرادتهم الغاشمة .

فلا عجب بعد هذا أن يصبح الشيعة أقلية ضئيلة في هذا الاقليم الذي كان معموراً بهم ، وأن تصبح جزين نفسها بلداً مسيحياً محضاً منذ مئة وثلاثين عاماً تقريباً .

بناء مزار شمع ١١٠٦ هـ

ويروي العلامة صاحب أعيان الشيعة ما خلاصته أو نصه :

« بنى الشيخ حسين ابن الشيخ ابن الشيخ جمال الدين ابن الشيخ يوسف ابن خاتون العيناثي مشهد(شمع) في جوار قلعة شمع القائمة على هضاب الساحل الصوري. وله هذه الأبيات المنقوشة على حجر في ذلك المشهد :

حجرة بل نزهة للناظرين	غرفة مبنية للزائرين
في حمى شمعون زادت رفعة	إذ له فضل ومرٌ مستبين
أيها الزوار طبتم أنفساً	فاقصدوها نعم دار المتقين
جاء في التاريخ عز كاملٌ	ادخلوها بسلام آمنين

ثم يقول المؤلف « ان هذا التاريخ (مع ركته) لا يوافق عصر المترجم لأنه يبلغ ألفاً فقط والمترجم والناظم كان موجوداً بعد الألف ومئة وثمان سنين [١] .

ويقول بعض المؤرخين : ان الملك بلدوين ملك القدس شرع ببناء قلعة بين صور وعكا سنة ٥١٠ للهجرة ، ويعني ذلك انه بدأ في بناء (قلعة شمع) المعروفة بأطلالها اليوم .

---

(١) اعيان الشيعة ج ٢٥ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

مظاهر الادب العاملي في العهد المعني

(مخطوط)

في سبيل البحث عن كتاب خطي قديم ، كان المرحوم والدي قد أطلعني عليه ولفت نظري الى بعض محتوياته ، قلّبت جميع مـــا لدينا من الكتب الخطية فـلم أقف له على خبر حتى اذا أعياني البحث وخذلني التعب جلست أفكر فيما عسى أن يكون أصـاب هذا الكتاب الأثري النفيس بمـا يشتمل عليه من نصوص علمية وأدبية لها أثرها في تقويم الفكر العاملي لذلك العهد ، فنبهني طول التفكير الى ان المرحوم والدي حين أطلعني على ذلك الكتاب أطلعني على كتاب آخر أجمل منه خطاً وأكبر حجماً وأقدم تاريخاً يشتمل على بعض ما اشتمل عليه الأول من آثار العامليين القدمـاء ، وتذكرت فيما تذكرت أني قد سألته بعد ذلك عن الفرق بين ما حواه الاول وما يحويه الثاني . فقال إن ما في الاول من الشعر والتراجم موجود في الثاني وأما باقي النثر فيختلفان فيه موضوعاً وكماً وغرضاً وترتيباً . فتجدد نشاطي لهذه الذكريات وانبعث رجائي فاستأنفت البحث والتنقيب في جميع أنحاء المكتبة ولم أترك فيها رفاً إلا قلبته ولا ملفاً إلا فككته حتى اذا أوشك اليأس أن يقعدني بعد استقصاء جميع الكتب المجلدة وكدت أنهي البحث بين الاوراق والكتب المفككة ، عثرت على صرة مربعة الأركان مشدودة من أربـع جهاتهـــا بخيوط غليظة وبجانب هذه الصرة جلد كتاب عتيق قد تآكلت جوانبه وتشققت من تقلب

الأيدي عليه ، ونقر العث قلبه فيما نقر ، وانحنت أطرافه على بعضها حتى صار أشبه بالعرجون القديم من القمر في آخر منازله ولياليه .

فبادرت الى حل العقدة وفك الوثاق ونشر ما التف وانطوى ، فإذا بأوصاف الكتاب الذي صورتها الذاكرة تتراءى لعيني فيما تشققت عنه هذه الصرة وإذا بالشعر والآثار العاملية المطلوبة لي تبدو لأول مرة قلبت فيها صفحات هذا المتحف المغمور في زوايا النسيان .

نوع الورق

لا يحتاج الناظر فيه الى التدقيق ليعدد مميزاته الشكلية فإنه لأول نظرة يرى ورقه لا يختلف عما كان يسمى - بالترمي - الورق الابيض الرقيق الناعم الملمس المائل بلونه الى شيء من السمرة ولكن ما طرأ عليه من وكف الشتاء - الدلف - ومن تعرض أطرافه لنور الشمس أو الدخان جعل لونها يميل الى اللون القرفي أو البني وترك بعض الصفحات مبقعاً .

وكذلك اهماله في رفوف البيوت القديمة من ايران او العراق او جبل عاملة مهد للعث والأرضة سبيلاً إلى تخريم صفحاته وحواشيه بخطوط مستديرة آناً وملتوية آناً ومستطيلة مع السطور أحياناً ، ولكنها دقيقة لم تؤثر على صور الألفاظ وعلى قراءتها إلا نادراً .

نوع الخط

وأما خطه فنموذج للخط الفارسي الجميل المتوسط في دقته ثم في وضوحه أيضاً لأن اصطلاحات الناسخ في رسم بعض الحروف مغاير لاصطلاح العصر الحاضر في كتابتها كرسمه للهاء منفصلة مع الألف كما يرسم عدد (٤) وكتابته لحرف الميم قبل اللام في أول الكلمة كما تكتب بعدها في وسط الكلمة ، وللفظة « لايخلو » : لايخ . ولفظة و « كذلك » : وكك و « الظاهر » :

والظ : أضف الى مثل هذا نسيانه للنقط ثم الحروف في بعض الأحيان كل هذا مما يجعل قراءتهـــا لأول مرة صعبة عسيرة بدون تمرين على مصطلحات الناسخ، ويلحق بهذا إهماله – كغيره من القدماء – لترقيم الصفحات واكتفائه عن ذلك بكتابة الكلمة الاولى من الورقة الثانية بذيل الورقة الأولى ليستدل بها على ما يليها .

وقـــد يكون من محاسن خطه ومميزاته ان يكتب العناوين الكبرى والفواصل الرئيسية بحبر أحمر أثناء السطور وبخط عريض أحمر على هامش الصفحات ممـــا يزيد في جمالهـــا الفني ويسهل على القارىء اختيار الموضوع والانتقال من بحث الى بحث كما لو ترك لها هالة كبيرة من البياض بين السطور أو في أول الصفحة .

طريقة الناسخ في ترتيب السطور والصفحات

على أن الشيء الذي يصطدم به ذوق القارىء الحديث هو عدم التفرقـة بين الشعر والنثر في الترتيب فحيث ينتهي الناسخ من الشعر الى النثر أو من النثر الى الشعر يبتدىء بالكتابة سواء في أول السطر أو في آخره وبدون ان يترك فراغاً بين المقاطع الشعرية أو يرتبها على النحو المعتاد ، فالتفرقة بـين الشعر والنثر موكولة هنا الى ذوق القارىء وحذقه وانتباهه والا اضطربت الحال وجدّ للسامع الأريب ما يضحكه أو يشوشه .

ولعل السر في هذا الحبك والمزج والمحافظة على تساوي أطراف الصفحات في خطوط مستقيمة هو كون النسّاخ في الأعـــم الأغلب من الفرس أو من المقلدين للفرس في هذا النمط من الكتابة ، وقد يكون العامل الاول اقتصادياً إذ ان الخطاطين المحافظين كانوا وما يزالون في العراق وفارس يتقاضون الأجر على حسب الصفحات والسطور طولاً وعرضاً وكيفاً وكما مراعاة لمصلحتهم أو لميزانية صاحب الكتاب – إذا كان معسراً – تجنبوا ترك الفراغ بين السطور

والصفحات الى هذا الحد البعيد المباين لما اصطلح عليه الجيل المعاصر من تجميل السطور والصفحات بترك شيء من الفراغ بين المقاطع الشعرية وتكليل الفصول الكبرى بهالة من البياض في مبتداها وفي نهايتها .

بقية المميزات

أما بقية المميزات الشكلية فيمكن تعديدها على النحو التالي :

فطول الكتاب بدون الجلد	٢٤	سنتمتر
وعرضه كذلك « «	١٣	«
وطول المكتوب من الصفحة	١٦	«
وطول السطر منها	٧	« ونصف
وعدد سطورها	٢٣	سطراً
وعدد الكلمات من كل سطر بين	١١و١٢	كلمة
وعدد صفحات الجزء الأول منه	٢٩٩	صفحة
وعدد صفحات الجزء الثاني	٢٥٧	«
وعدد الملحق به من كتاب الافصاح	١١٦	
وعدد المجموع	٦٧٢	

محتويات الجزء الاول

إنك حين تتوغل في درس هذا الجزء وتستقصيه بحثاً واطلاعاً تتبين لك مميزاته وما يشتمل عليه من مسائل مختلفة وأحاديث متفاوتة وطرائف متنوعة ليس لها ترتيب أو تبويب أو ترقيم وإنما سجلت على حسب استطراق الذهن اليها أو عرضها عليه أو تأثره بها وهي تكاد تنحصر فيما اختلف به نظر العلماء ودق فهمه وتفسيره من مشكلات الحديث وعلم الفقه والأصول ، أو علم الكلام والتصوف والاخلاق ، أو علم التفسير والتجويد والقراءات ، أو علم النحو والصرف ومفردات اللغة . وهناك فصل كبير لما التبست معانيه وبعدت

مقاصده او تعددت وجهته من عبائر الصحيفة السجادية اجتهد المؤلف في تفسيرها وتوجيهها وتقريبها الى الأفهام والعقول النيرة ، وفصل آخر للمنتخبات الادبية من قطع شعرية او جمل نثرية طويت على حكمة او عبرة او توجيه أخلاقي او اجتماعي او ديني او وجداني يسمو اليه شعور المعتدلين من الفقهاء والادباء والعاشقين والمتصوفين تصوفاً دينياً لا شذوذ فيه يوجب سخط المؤلف وتفنيده كما سخط في ردوده على نظريات الغزالي حين استطرق لكتبه المختلفة غرضاً واتجاهاً كالمنقذ من الضلال ، وسر العالمين .

طريقته في البحث

وطريقته في ذلك أن يذكر الحديث أو المسألة او العبارة برواياتها المختلفة ويذكر أقوال العلماء وأصحاب النظر فيها ، ثم يعلق على ذلك كله بعد أن يفسر ما التبس من معاني الالفاظ اللغوية ، فيقرب بين الروايات المختلفة والآراء المتفاوتة أو يرجح أحدها أو يستقل برأيه وتفسيره ووجهة نظره ويورد أدلته وملاحظاته بأسلوب يدل على مدى علمه وبعد نظره واعتدال ذوقه وصفاء منطقه وعذوبة ألفاظه وفصاحة لهجته فصاحة لا يقاس بها ما نقرأه لعلماء عصره ومؤلفيه . ولعل اسلوبه في النثر العلمي أبرع وأصفى من أسلوبه في النثر الفني وأقرب الى الطبع .

وهو أكثر ما يستفيض وتظهر قوته ودقة نظره وتبحره في المسائل الفقهية كمشكلات شرح اللمعة او المسائل الكلامية كمشكلة الجبر والتفويض والقضاء والقدر والبداء ، كما يبدو لمتصفح الكتاب وعسانا نوفق الى نشر نموذج من هذه الابحاث كتفسيره لحديث (المعروف كاسمه) : وحديث اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، ومسألة إدخال الدنيا في البيضة .

أما مظاهر الضعف في رأي المؤلف وحكمه فقد تتجلى بهذه المسائل التي

تفرض على الباحث فيهـا ان يكون متضلعاً من فلسفة العلوم الطبيعية فإن المؤلف يبدو هنا عليل الرأي مضطرب الخطى يعتمد على فطنته وخياله في أشياء لا يغني فيها الافتراض ولا الفطنة شيئاً عن العـلم بالنواميس الطبيعية والمقررات العلمية .

نموذج من نثره العلمي

وقبل أن ننهي الكلام عن هذا الجزء نقـدم للقارىء الكريم نموذجاً من نثره العلمي أو من كلام المؤلف في الرد على الصوفية .

« انـه لما سرت سيرة الصوفية الى الامامية كان في أول الأمـر من يفرق بين القشر واللباب والذهب والتراب فكان من يميـل الى طرف من مقالهـم يختار منه اللباب ويترك القشور ، إذ كان اللباب حسناً منمقـاً بكلام الأنبياء والأوصياء ومن يحذو حذوهم من العلماء الأتقياء ، فإن الصوفية كانوا يدخلون مثل ذلك في كتبهم ومؤلفاتهم ليحسن الظن بهم ، ثم يتدرجون بعد ذلك الى تأويله بمـا يوافق مطالبهم ويناسب مآربهم ، وكان من يختار وينتجب شيئـاً من ذلك يجعله من جملة الوسائل الى تطهير النفس وتزكيتها وإبعادها عن الرذائل ، ومع ذلك فالمطلب الأسنى عنده والحالة الحسنى لديه سلوك طريق الشرع وإنفاذ العمر فيه، كما يراه من عرف حال أجدادنا وغيرهم من علماء الإمامية ، ثم تلاشى الامر ووصل الى ارتكاب ما سلكوه والاعتماد على ما قالوه ولو بسماع بعضه من غير تميـيز وفرق الى أن وصل الأمر الى التنفر من الشرع وأهله ودخل تحت هذا الاسم ، وهو الصوفية : من يسمى به وينسب اليه فحسب ؛ فاقتصر المدعي على ذلك واكتفى المريد به ، فصار الملحوظ محض الاسم في الغالب ، وإلا فلا مشاحة في التسمية إذا كان المسمى مبنياً على أساس صحيح ثابت لم يتطرق اليه هذا الغش ، ولم تترتب عليه هذه المفاسد التي ترتبت على لفظ التصوف ومعناه ، إذ التبست الحال فيها على غير المميز أمرها . بل على المميز أيضاً ، إذا لم يعمـل بعقله وتمييزه ، ومحك

الفرق والتمييز هو الميل الى جانب الشرع وأهله ، أو التنفر منه ومن اهله ، وعلامة التنفر منه التنفر من اهله ، وربما أظهروا التنفر من اهله متعللين بتقصير يدعونه فيهم ، وهذه خدعة إبليس لأن إظهار التنفر من الشرع ليس لهم فيه مصلحة ولا حيلة فابطنوه وأخروه الى وقت يمكنهم إظهاره وتعللوا بالقدح في أهله ، وإلا فلو كان هناك تقصير من حاملي الشرع لا يلزم منه القدح في الشريعة وعدم متابعتها .

محتويات الجزء الثاني

وهو لا يمتاز عن القسم الاول إلا بتوسعه في النقل والاختيار للطرائف العلمية والأدبية الدقيقة الرائعة، فإن المختار والمنقول من ذلك يستغرق معظم هذا القسم ، فهو ينقل :

١ - نبذة مختارة ومختصرة من كتاب الأضداد اللغوية للصنماني ، ابتدأ فيها بقوله : المأتم للنساء المجتمعات على الحزن وعلى الفرح ، الأزر القوة والضعف ، وختمها على هذا النحو بما أوله هاء كقوله : هوى ، إذا صعد وإذا نزل .

٢ - ومنظومة ابن مالك ، في الافعال التي جاءت لاماتها بالواو ، وبالياء وعدد أبياتها سبعون بيتاً ابتدأها بقوله :

قل إن نسبت عزوته وعزيته وكنوت أحمد كنية وكنيته

وختمها بقوله :

عيني همت تهمو وتهمي دمعها وحموته المأكول مثل حميته

٣ - ونبذة من كتاب لباب الأدب . وسر الأدب للثعالبي : ذكر فيها طرفاً من سنن العرب التي لم يشملها قياس النحويين ولا قواعد الصرفيين ، كقوله ، من سنن العرب : أن تقول رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه أي

عليها . قال الله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهـا في سبيل الله ، تقدير الكلام ولا ينفقونهما ومن سنن العرب ، إذا ذكرت شيئين اثنين أن تجريهما مجرى الجمع نحو الحسنين عليهم السلام. وكما قال عز ذكره: إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ولم يقل قلبا كمـا ، والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ولم يقـل يديهما إقامة للواحد مقام الجمع . ومن سنن العرب اشتقاق نعت الشيء من اسمه كقولهم : يوم أيوم ، وليل أليل ، وكنّ كنين ، وروض أريض ، وأسد أسيد ، وصلب صليب ، ومن سنن العرب الخ .

٤ – ثم تفسير بعض الأبيات الغامضة المعقدة من الشعر تفسيراً يدل على طول باعه في الأدب ودقة ملاحظاته ثم يذكر بعض مقامات بديع الزمان ونبذة طويلة من أخبار الواردات على معاوية .

٥ – ثم منظومة ابن سينا المشهورة – بمجربات ابن سينا – ويبلغ عـدد أبياتها هنا ١٤٠ بيتاً ابتدأها بقوله :

أبدأ باسم الله في نظم حسن   أذكر ما جربت في طول الزمن
مـا هو بالطبـع وبالخواص   لكل عـام ولكل خاص

ثم ختمها بالصلاة على النبي وآله وصحبه : ما جاد قطر وأجاد دهر .

٦ – ثم تحفة الدهر : في المناظرة بين الغنى والفقر ، وهي مناظرة أدبية لوالد المؤلف تشغل ١٧ صفحة من الكتاب ، ولعلها تمثـل النمط العالي للنثر الفني في عصر المؤلف وبيئته .

٧ – ثم فصول انشائية مختارة من كتاب نسيم الصبا منها فصل في وصف أقسام العام وفصل في وصف الفراق وفصل في وصف السماء والنجوم وفصل في وصف الشمس والقمر ، وفصـل في وصف السحاب والمطر ، وفصل في وصف الليل والنهار . وقد ختم هذه الفصول المختارة بهذا التعليق إذ قال : إن هذا الكتاب كنت كتبته كله في أيام الشباب ثم ذهب فيما ذهب من الكتب

وكان جدي الحسن أبو منصور قد انتخب هـذه الفصول منه ، وهي عندي بخطه الشريف والترتيب مختلف ، وكتب في أولها : هذه فصول أنيقة تشتمل على فقر في البلاغـة عريقـة انتخبتها من الكتاب المسمى بنسيم الصبا للفاضل البارع الأديب الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب ، وقدمت أمامها شيئاً من كلامه في الديباجية مما تمس اليه الحاجة ..

بغية المريد

٨ – ثم قسم من كتاب بغية المريد ، من الكشف عن أحوال الشيخ زين الدين الشهيد لتلميذه وملازمه الشيخ محمد بن علي بن حسن العودي الجزيني ، وهو كتاب يشتمل على مقدمة وخاتمة وعشرة فصول ، لم يكن منـه بيد المؤلف سوى خطبة الكتاب مع المقدمة والفصول الثلاثة الاولى فنقلها كلها في ٤٦ صفحة كبيرة وعقب عليها بهذه الكلمة :

هذا آخر مـا وجدته من التاريخ المذكور ، ونرجو من الله تعالى الظفر بالتتمة فإن الساقط منه كثير بمقتضى الفصول المتقدمة .

وقد رأيت العلامـة الكبير السيد محسن الامين أخرج كتاباً صغيراً في تاريخ الشهيد الثاني هو – في جوهره – لا يزيد عمـا في هذا (المخطوط) من تاريخ ابن العودي ومن مراثي الشهيد الثاني ، ولو أن السيد – رحمه الله – حين أثبت خطبة كتاب ابن العودي أثبت مـا يليها من بيان فصوله ومحتوياته لعرف القراء أي قيمة تاريخية وأدبية وسياسية لمـا فقد من هذا التاريخ وبخاصة الفصل السادس والسابع والثامن والتاسع منه ؛ إذ يقول ابن العودي : والفصل السادس في محاسن الرسائل البليغة والانشاءات الفصيحة التي برزت منه الى الغير ومن الغير اليه والسابع في ذكر القصائد التي مدح بها في الزمان ومن مدحه من أهل هذا الشأن . والثامن في ذكر ما عرض له من الأخاويف وما نزل به من الأراجيف وما يتبع ذلك من التستر وإخفاء

نفسه في النازلات من الاعداء وأهل السعايات ومـــا وقع خلال ذلك بيننا وبينه من المراسلات . والتاسع في مقتله وخاتمة أجله ومن سعى في تعجيل الحتف اليه وأين وقـع وكيف اتفق وما يتبـع ذلك من الكتابات المشتملة من الشفاعات من أعيان علماء أهل الشام وفضلاء الاسلام .

ثم لو ان السيد رحمه الله حافظ على وضع ما نشره من تاريخ ابن العودي ولم يتصرف فيه بحذف او تقديم او تأخير او إضافـة قسم من اقوال المؤلف الى غيره من المؤلفين الذين قالوا قوله او رووا ما قد رواه بلفظه او بمعنـــاه لو انه التزم بذلك ، ثم أضاف الى هذا التاريخ ما قد أضافه من ملاحظات واستدراكات وعناوين وسمى الكتاب باسم (تعليقات على تاريخ ابن العودي) او أبقـــاه على اسمه الاول (بغية المريد) لكان ذلك أجدر بمثله وأدنى للعمل بما رواه عن صاحب المعالم حين قال في أعيان الشيعة م ٢١ ص ٣٩٦ ومن مؤلفاته .

التحرير الطاوسي في الرجال

وذلك ان ابن طاوس قد حرر كتاب الاختيار وهذب أخباره متناً وسنداً ووزعها في كتاب (حل الاشكال) على التراجم ، فلما ظفر صاحب المعـالم بكتاب حل الاشكال ورآه مشرفاً على التلف انتزع منه ما حرره ابن طاوس ووزعه في أبواب من كتاب الاختيار خاصة وسمـــاه (التحرير الطاوسي) فالتحرير الطاوسي عبارة عن جميع ما حرره ابن طاوس وهذبه من كتاب الكشي خاصة دون ما عداه ، وإيداعه في كتاب واحد سمي بهـذا الاسم ، وقد أضاف اليه المترجم في المتن والحواشي فوائد كثيرة. وقال كان اكثر مواضعه قد أصابه تلف فتعبت في تحريره تعباً عظيماً .

٩ – ثم يستطرد الى ترجمة الشيخ حسن صاحب المعـــالم بن الشهيد الثاني – وهو الجد الادنى المؤلف – مع الأشارة الى تاريخ ولادته سنة ٩٥٩ وتاريخ وفاته سنة ١٠١١ ﻫ ثم الى أسماء مؤلفـــاته ورسائله مع ذكر شيء من آثاره الادبية ، كقوله في الحنين الى مواطن أحبابه :

طول اغترابي بفرط الشوق أضناني والبين في غمرات الوجد ألقاني
يا بارقاً من نواحي الحي عارضني إليك عني فقد هيَّجت أشجاني
فما رأيتك في الآفـــاق معترضاً إلا وذكرتني أهلي وأوطاني
وما سمعت شجى الورقاء نائحـــة في الأيك إلا وشبت منه نيراني
ويا بليلاً سرت من قربهـــم سحراً في طيها نشر ذاك الرند والبان
أحييت ميتاً بأرض الشام مهجـته وفي العراق له تخييل جـــثماني
وكم حييت وكم قـــد متّ من شجن ما ذاك أول احيائي ولا الثاني
هل يسكن الوجد ما دام الشتات وهل تصفو المشارب لي إلا بلبنـــان
في ربع أنسي الذي حل الشباب به تمـــائمي وبه صحبي وخلاني
كم قد عهدت بهاتيك المعـــاهد من اخوان صدق لعمري أي اخوان
وكم تقضت لنـــا بالحي آونـــة على المسرة في كرم وبستان
يا جـــيرة الحي قلبي بعد بعدكمُ في حيرة بين أوصاب وأشجان
يمضي الزمان عليه وهو ملـــتزم بحبـــكم لم يدنسه بسلوان
باق على العهد راع للذمام فمـــا يسوم عهدكم يوماً بنسيان

وقوله في الغزل على طريقة الفقهاء :

اختلف الاصحـــاب في محنتي وما الذي أوجب لي البـــلوى
فقيل طول النأي والبعـــد عن نيل المنى من وصـــل من أهوى
وقيـــل لا بل صدغه لم يزل بالسحر يرمي القلب بالأسوا

وقيل سهما لحظـه إذ رنا لم يخطئنا من جسدي عضوا
وقيل ضعف الطرف والخصر إذ عليه قلب الصب لا يقوى
وقيل بل كلٌ له مدخـل فيها ، وعندي انه الأقوى ؟ !

الشيخ محمد بن صاحب المعالم

١٠ – ثم إلى ترجمة الشيخ محمد بن صاحب المعالم – والد المؤلف – مع الاشارة ايضا إلى تاريخ ولادته سنة ٩٨٠ وتاريخ وفاته سنة ١٠٣٠ هـ ، وإلى اسماء مؤلفاته ورسائله مع ذكر شيء من آثاره الأدبية كقوله في مدح بعض امراء الشيعة – الامير موسى الحرفوش حاكم بعلبك – وكان شاعراً مجيداً وقد مدح المترجم بقصيدة فأجاب عليها بما يلي وهو غض الشباب

جادت بسكب الحيا من مائها السحب فاستبشرت بالحيا الارضون والحقب
والأرض حاكت لها الأنواء هاطلة أثواب وشي حكتها الانجم الشهب
والطير غنت على الافنان من طرب فاهتز من لحنها الافنان والقضب
والجو هبت بـه ريح الصبا فغدا بعطرها تهتك الاستار والحجب
وأكؤس البشر دارت وهي صافية على الورى فاحتساها العجم والعرب
والعيش قـد حفه صفو فعاد له نضارة وانقضت للطالب الارب
وراية العدل في الآفاق قد نشرت والجور أحشاؤه قد مسّها الوصب
وعسكر الهم ولىّ وهو منهزم وموطن الغم منـه داثر خرب
والدهر ذو ألسن في المدح ناطقة لكامل زانـه الافضال والحسب
الوارث المجد والافضال عـن سلف له كما في البرايا يورث النسب
مولى أباد العدى لمـا ألم بهم كأنه مـذ نشا في حتفهم سبب
لم تُرم بالسحر آيات له شهدت بأنـه الآن في فلك العلى قطب
وقـد حكاه لدى الهيجاء قسورة لكن اظفـاره الهندية القضب
بالجود والعدل قد احيى الانام كما يحيي النبات إذا ما عمت السحب
فالشاة والذئب في مرعاهما اصطحبا كما بـه اصطحب الإحسان والادب

ضرباتـــه علة في الحتف كاملة   إذا اتت مـا تكنّ البيض واليلب
إن كان موسى له الطاعون معجزة   فهلك اعداه من سطواتـــه العجب
ولم يشاور سوى نفس مؤيـــدة   في امره إن بـــدا في نفسه الطلب
مولى بـه الحق امسى وهو مبتهج   لما غدا منـــه دمع الشرك منسكب
بـه سمت بعلبك الشام وافتخرت   إذ لم تحز مثله مصر ولا حلب
لو لم يكن ذكره في النطق ما حسنت   الفـــاظه وهي مـــع ذكر له ضرب
كـذاك لو لم يكن في بذله ذهب   حال الندى في الورى لم يكمل الذهب
مولى له البشر دأب والسرور فلا   . . . . .
لو رام حاسده يخفي مكارمـــه   ابانها الشكر والأشعار والخطب
وما عسى ان يفي مثلي بمدحتـــه   إذ حظ فكري بذاك العجز والتعب
لا زال في سائر الأزمان محتفظاً   وعيشه واسع في دهره خصب
ما هب في سائر الاقطار ريح صبا   وما تداولت الاقـــلام والكتب

الشيخ زين الدين الثاني

١١ – ثم ينتقل إلى ترجمة الشيخ زين الدين الثاني – وهو الاخ الأكبر للمؤلف – مع الاشارة لتاريخ ولادته سنة ١٠٠٩ هـ وتاريخ وفاته سنة ١٠٦٤ هـ وإلى ما صادفه في حياته العلمية مع ذكر شيء من آثاره النثرية والشعرية كقوله في النسيب

كم ذا ادري الجوى والسقم يبديـــه   وأحبس الدمع والاشواق تجريـــه
شابت ذوائب آمالي ومـــا نجحت   وليل هجرك مـــا شابت نواصيه
رفقـــاً بقلب المعنّى في هواك فما   أبقيت بالهجر منـــه ما يعـانيه
وكيف يقوى على الهجران ذو كبد   جرت لطول التنائي من أماقيـــه
يا من نأى وله في كل جارحـــة   مني مقـــام إذا ما شط يدنيـه
لقد تمادى الجوى فينـــا ورقّ لنا   قاسي قلوب العـــدا مما نقـاسيه
فهل لنا اليوم بعد اليأس من فرج   أو راجع من لذيذ العيش صافيه

وقوله في رثاء ابن أخيه (مؤلف الكتاب) وكان يحبه حباً شديداً لذكائه وفطنته وصغر سنه وكامل أوصافه :

بقلبي وروحي ظاعن جلّ فقده صغيراً وان الرزء فيه كبير
هلال دهاه الخسف قبل كماله وغصن طواه الحتف وهو نضير
فليت زماني حين جارت صروفه عليّ بغير الخطب فيه تجور
ثوى مذ ثوى صفو الحياة وطيبها فما لهما حتى النشور نشور
ولو أنه يفدى بروحي فديته وما صنتها ان الفداء حقير
لئن غاب عن عيني بديع جماله فقلبي لديه حيث كان أسير
على العيش والأيام من بعده العفا فكيف يلذّ العيش وهو مرير
يعز علينا أن يكون له الثرى وطاء وأن تعلو عليه صخور
وأن تصبح الاوطان منه خلية وتضرب من دوني عليه ستور
وأن يتوارى في التراب ولم يكن له من دموعي الهاطلات طهور
سأبكيه ما حنّت اليه جوانحي وكاد لذكراه الفؤاد يطير
فكل البكا إلا عليه سفاهة وكل الأسى إلا عليه لزور

ترجمة المؤلف

١٣ – ثم يأخذ بعد في ترجمة حياته – أي حياة المؤلف نفسه المولود سنة ١٠١٤ هـ وفي تسجيل ما صادفه في غربته وتصوير ما لابسه في حياته مع الإشارة الى جهوده العلمية وذكر شيء من آثاره الادبية والشعرية وقد قدمها بهذه الكلمة التي تدل على مدى احترامه لنفسه ولأدبه إذ قال : ولقد كنت في أوائل عمري أتعاطى نظم الشعر ، وكنت كلما نظمت شيئاً من قصيدة وغيرها تطلب نفسي ما يكون أعلى طبقة من ذلك النظم ، وكنت لذلك لا أثبت ما أنظمه ، وقد بقي في خاطري بعض أبيات ، منها ما يحضرني الآن ، أثبته ليكون تذكرة لما أوجب نظمه من حالات . فمنه هذه الأبيات من قصيدة رثيت بها ولدي محمد الأول :

عرفت الليالي غثها وسمينها فسيّان عندي سهلها وحزونها
فلا برؤه يرجى جريح سهامها ولا داؤه يلفى دواء طعينها
إذا وهبت تمد السرور شمالها على غلط غالته عمداً يمينها
قوافل أحزان فؤادي مناخها وأنهار أشجان عيوني عيونها
تقر عيون الشامتين فلم يكن لنفسي شيء فوق ما بي يهينها

ولما رحلنا من دمشق الى العراق كتبت رسالة من جملتها هذه الابيات :

باقٍ على الودّ وإن شطّت الد ار به أو بعد العهد
صبٌ لقاكم منتهى قصده أنى وقد أتلفه البعد
سميره أشجانه والبكا ودأبه التحنان والوجد
يرجو من الله اجتماعاً بكم وهو المنى والسؤل والقصد

ثم يستأنف سيرته الاولى من عرض المسائل والأحاديث المشكلة ولا يمضي في ذلك قليلاً حتى يقف وينتهي الجزء الثاني من الكتاب دون ان يختمه بكلمة او بآية تشعرنا بانتهائه او ببقاء شيء منه لم يستطع ان ينقله أو يتمه في هذه النسخة .

نسخة المؤلف

مما لا شك فيه ان هذه النسخة التي بين أيدينا ليست نسخة المؤلف وإن تكن كتبت واستنسخت في عصره على ما يبدو من تاريخ نهاية الجزء الأول من الكتاب إذ يقول الناسخ : هذه صورة خطه – أي خط المؤلف – زاد الله في حفظه.

« تم الجزء الاول من كتاب – الدر المنثور في المأثور وغير المأثور – واسأل من كرم الله وجوده التوفيق لإكماله ، بقلم مؤلفه أقل العباد علي ابن محمد بن الحسن بن زين الدين العاملي وذلك في عاشر شهر صفر من شهور سنة ١٠٧٣ ثلاث وسبعون بعد الالف انتهى كلامه أعلا الله مقامه » .

فقول الناسخ : هذه صورة خطه زاد الله في حفظه ، يدل دلالة واضحة على كونه نقل هذه النسخة عن نسخة المؤلف ، وعلى انه استنسخها في حياته.

وكذلك يبدو من تاريخ نهاية الناسخ من كتاب - الافصاح للمفيـــد - الملحق بالجزء الثاني والمنسوخ مع الجزئين بخط الناسخ إذ يقول الناسخ نفسه :

« تم كتاب الافصاح في الإمامة » بقلم العبـــد الفقير الى عفو الله علي بن عبدالغالب بن عناية الله بن علي الفيروزبادي ، وذلك في ضحى يوم الجمعة من شهر شوال من شهور سنة ١٠٨٥ خمس وثمانين بعد الالف من الهجرة المشرفة على هاجرها ألف ألف التحية ا كذا .

فكتابة هذا الملحق بالجزءين بخط الناسخ نفسه يستشعر منها أن الجزء الثاني منقول عن نسخة المؤلف وفي عصره أو ما يقرب من عصره على فرض أن يكون قد توفي قبل نهاية الناسخ من عمله الأخير سنة ١٠٨٥ فإن المؤلف يذكر في ترجمة حياته انه دفن بنفسه ولده الشيخ حسين سنة ١٠٧٨ هـ .

مكان تاليفه

إن من يقرأ حديث المؤلف عن حيــاة ولده الفاضل الشيخ حسين المولود سنة ١٠٥٦ هـ وعن موته ودفنه في المشهد المقـــدس سنة ١٠٧٨ هـ وعن تألمه ورثائه له وذكر ما بقي عليه من الديون باسم بعض النقود والاعداد الفارسية (هزار) .

أو يقرأ قوله في ترجمة جده الشيخ حسن صاحب المعالم ، وله ديوان شعر في بلادنا بخطـــه ، سمعت أنه باقٍ عند أولاد الشيخ نجيب الدين مجـــلد ومجموع .

ثم يطالع قوله في الصفحة السابعة من ترجمة نفسه ، وهــذا الحقير قضى أكثر أوقاته في الغربة مكدر العيش محزون القلب ولم يحصل على شيء سوى

الندم ، وكنت مع هذا مشغولاً بالمطالعة والبحث والتدريس ولم يكن عندي ما أحتاج اليه من الكتب فاستنسخت ممـــا أحتاج اليه ما يزيد عن سبعين كتاباً ، واتفقت لي برهة من الزمان .. كتبت فيها حاشية على شرح اللمعة في مجلدين ، وجمعت هذا الكتاب الذي اكتب فيه الآن ، وكتبت الخ..

فمن هذه الاقوال وأمثالها يتبين ان المؤلف جمع كتابه هذا وألفه كله او أكثره بعيداً عن وطنه وأهل بلاده ، وأغلب الظن ان محل إقامته وعمـــله كان بأصبهان كما يستشعر من تعدد رحلاته بينها وبين مكة المكرمـة ومن عناية البيت المالك هنالك به .

قيمة الكتاب النسبية

إنك حين تعلم أن المؤلف ولد سنة ١٠١٤هـ وأن انتهاءه من تأليف الجزء الاول كان سنة ١٠٧٣ هـ تعلم أنه قد أنجز هـــذا العمل وهو على غاية من النضوج الفكري والثقافي ، وأنه نتيجة لجهاد طويل في تحرير الحقائق العلمية واختيار الروائع الأدبية وتسجيـــل الآراء والأحاسيس والملاحظات في شتى الميادين الفكرية لذلك العصر بهذا البيان الناصع والعبائر الصافية واللغـــة المهذبة الفصيحة .

وإنك حين تتصور ما كان يعج به عصر المؤلف من الفتن ودواعي الرجعية والخمول العلمي والادبي حتى طغت فيه اللهجة الأمية على أقلام النابهـــين من علماء وشعراء ومؤرخين .

تتأكد أن ما انطوى عليه هـــذا الكتاب هو أقصى ما كان يطمح اليه النابهون من إنتاج علمي وأدبي ، في ذلك العصر عصر الجمود والأمية والتنكر للعلم والحق وحرية الفكر .

وانك حين تقدر ما كان يسيطر على المؤلف في غربته من قلق واضطراب لمصير أهله وأبناء وطنه – عامة – في عهـــد الحكام المغنيين الذين تنكروا

للشيعة في لبنان وجبل عامل تأثراً بنزوات حزبية او طائفية او تزلفاً لملوك بني عثمان وارضاء لنقمتهم على الشيعة يومئذ وعلى ملوكهم وحلفائهم في ايران .

تعرف إذ ذاك أي فكر نافذ وأي إرادة جبارة تغلب فيها ... على هذه المشاغل فاسترسل في عمله يسجل ما يراه ويسمو اليه فكره وطبعه واحساسه من هذه الأبحاث والملاحظات والطرائف المختارة ، ويقدمها خير شاهد على استقلال الفكر ومرونة الطبع وسعة الأفق العلمي والادبي درساً وبحثاً واختباراً .

التحريف آفة الوثائق التاريخية

قرأت في العرفان (م ٣٩ ص ٧٥٨) كلمة حول التاريخ العاملي بتوقيع الفاضل الشيخ عبد المحسن الظاهر ، فلم أدر – على حسن الظن بنية الكاتب – أهي دفاع عما قاله وارتآه صاحب (جبل عامل في التاريخ) أم هي دفاع عن حقيقة التاريخ وواقعه أنى كان ومن أين أتى ؟

فاذا كانت هذه الكلمة دفاعاً عما قاله وارتآه صاحب جبل عامل في التاريخ ، فليس من الانصاف والحكمة أن أبادر في الجواب عليها قبل ان تنتهي ، إذ بلغني أن ما نشر منها بداية للرد لا نهاية .

وأما اذا كانت دفاعاً عن حقيقة التاريخ وواقعه أنى كان ومن أين أتى . . فما أولى كاتبها بأن يمحص هذه الحقيقة ويدافع عنها فيما تحدث به ونشره من وثائق قبل أن يدافع عنها في كلام غيره .

وما يقول – وقد غلى الشك – في قيمة الوثيقة التاريخية وفي صورتها (التي نشرها ص ٥١٢ من العرفان م ٣٩) حينما قرأت نص المكتوب على هامشها هذا « طلب منا المشايخ المذكورين أعلاه بأن نجدد لهم الدفتر الذي بيدهم من المرحوم سليمان باشا طاب ثراه الذي تاريخه ٢١ جا سنة ٢٢٠ مح وقد جددناه لهم بتاريخه وأجرينا لهم ذلك في ١٥ د سنة ١٢٣٧ . الامضاء : أمين الحاج ، محمد يوسف والي الشام وصيدا وطرابلس» ؟

فإن جميع الذين أرخوا حوادث سنة ١٢٣٧ يؤكدون للملأ أن والي الشام في هذه السنة كان اسمه درويش باشا ، وهو غير والي صيدا يومئذ ، فان هذا كان اسمه عبد الله باشا ، وكان بينه وبين درويش باشا والي الشام حرب عوان سنة ١٢٣٧ وكان العامليون -- بقيادة الشيخ فارس الناصيف - يحاربون مع عبد الله باشا ، فمن اين جاء الناشر إذن بهذا التاريخ والتوقيع الغريب الذي يخالف التاريخ من كل وجه ؟ فلا والي الشام ولا والي صيدا وعكا يومئذ كان يلقب ويسمى « امين الحاج محمد يوسف والي الشام وصيدا وطرابلس» ولا كان العامليون يرجعون لوالي غير عبد الله باشا ، وكانت صورة توقيعه على ما يلي (امير الحاج السيد عبد الله والي الشام وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزة ، ويافا ، ونابلس، وسنجاق القدس حالا)[1].

وإذا تحقق التلاعب بهذه الحاشية فمن يضمن لنا سلامة الوثيقة نفسها من تلاعب المحدثين والناقلين وكيف يجوز لنا بعد هذا ان نعتبر ما يرويه ناشروها من خبر النصوص والوثائق التاريخية او نطمأن إلى فحواه ؟؟

وهذا الاضطراب وهذا التلاعب والتصرف المريب في نقل الوثائق ومـــا يتصل بها من حواش تاريخية . . يذهب بقيمتها العلمية ويزلزل كل ما يترتب عليها من أحكام واستنباطات لأن التصرف والتلاعب بنقل الوثائق وما يتصل بها من الحواشي التاريخية . .يزعزع الثقة بأمانه الناقل وبصدقه وبكل ما يزعمه ويفترضه من حوادث وصور ومميزات، وخاصة عندما يكون الراوي والناقل لها من ذوي العلاقة بها - كالشيخ عبد المحسن الظاهر وممن لا يجوز لنـــا - بحسب الأصول العلمية - ان نطمئن إلى مزاعم أمثالهم ورواياتهم إلا بعد الاستقراء التام واستعراض ما يقوله جميع ذوي العلاقة « بذلك المروي »

---

(١) خطط الشام ص ٣٦ ج٣

على اختلاف ميولهم ووجهة نظرهم من القضايا المروية : ولا سيما من يكونون منها في الطرف الثاني [1]

لأن ذوي العلاقة قلما يلتزمون الحياد العلمي في الوقائع التي تمس ماضي قومهم وعشيرتهم : وكثيراً ما يلجأون إلى صبغ الوقائع التاريخية بألوان تلائم غرورهم القومي والقبلي : فيتصرفون ويتفننون لاظهارها بالمظهر الذي يساعد على اعلاء شأن قومهم وقبيلتهم من جهة وستر معايبهم من جهة أخرى، وذلك باهمال ذكر بعض الوقائع مع التوسع في سرد بعضها الآخر وترك بعض الوقائع بين الظلال لكي لا تلفت الانظار مع صبغ بعضها الآخر بألوان زاهية لكي تخطف الأبصار ، فهم لذلك يستطيعون أن يصوروا القضايا التاريخية بأشكال مختلفة عن طريق اصطفـــاء الوقائع وجمعها ومزجها وعرضها بأشكال شتى .

(١) اطلب ص ٤١ – ٤٢ من كتاب : اراء واحاديث في التاريخ والاجتاع للاستاذ ساطع الحصري

المكابرة آفة العلم والتاريخ

قرأت أكثر من مرة ما نشر بتوقيع الفاضل الشيخ عبد المحسن الظاهر من تعقيب على أبحاثي التاريخية التي نشرت متسلسلة بالعرفان (م ٣٩) وكلما تأملت أسلوب الكاتب في تفنيد حججي وآرائي على وهج العواطف القبلية جنحت إلى القطع بأن مثل هـــذا الاسلوب لا يجوز مناقشته أو التعرض له بقول (لا) أو نعم ذلك بأن صاحبه لم يتقيد بأصول البحث وقواعده ولا بمنطق العلم وموجباته ، ومن يكن هـــذا شأنه في المناظرة والجدل كيف تحاول إقناعه وزحزحته عما تأثر بـــه من عنعنات العشيرة أو سحر وجدانه من قصص ونوادر بالغ فيها خيال الرواة تكبيراً وتصغيراً وتحريفاً حتى اصطبغت بصبغة الأساطير .

ولكن إسراف المهوشين في التجني وتماديهم في مكابرة الحقـــائق طول هذه المدة التي تحرجت فيها من الجواب ، حفزني لاعادة النظر في كل ما نشره حضرة المنتقد . وسوغ لي أن أقدم للقراء أمثلة واضحة من أسلوبـــه في الجدل والاحتجاج وسوق البراهين العليلة .

١

فمن هذه الأمثلة اني ذهبت « ص ٣٥٣ من العرفان م ٣٩ » بأدلتي العلمية إلى أن « أولاد علي » مشايخ الكوثرية الذين نهبهم الأمير فخر الدين المعني

سنة ١٠٢٢ هـ هم من آل منكر لا من آل الصغير ، وإلى أن حديث الصفدي عنهم لا يدل على ان المراد من « أولاد علي » هم أولاد علي الصغير بل يدل على العكس من ذلك .

فجاءني حضرة المنتقد يقول « هذا خلاف الواقع لأن من البديهي المعلوم الذي لا ينازع فيه بأن لفظة أولاد علي لا يفهم منها إلا آل الصغير ، ومن حينما وضعت عليهم أصبحت علماً لهم لا يشاركهم فيها أحد مطلقاً سواء أضفت اليها الصغير أم لم تضفه [١] .

ولو صح هذا المنطق من المنتقد لاستغنى الصفدي عن لفظة « الصغير » حين تعرض لذكر أولاد علي صغير مراراً في غير هذا المقام ، ولاستغنى غيره من المؤرخين – عند تعرضهم لآل الصغير – عن ذكر هذه اللفظة لو كان وجودها وعدمها سواء من حيث الدلالة على الأسرة المعلومة . ولو صح هذا المنطق ، لاطمأن له صاحب جبل عامل في التاريخ – الذي يدافع عنه حضرة المنتقد – ولم يتلبك – حين أراد أن ينسب حادثة الكوثرية الى آل الصغير – ولم ينحرف عن نقل عبارة الصفدي بنصها الى تلخيصها وزيادة لفظة « الصغير » على جملة « أولاد علي » كما زادها الشهابي الذي تمسك صاحب جبل عامل في التاريخ بعبارته ونقلها بنصها ولم يلخصها كما لخص عبارة الصفدي مع أن حضرته يقول صفحة ٢٥ من كتابه « أنه لا يعرف يوماً لفخر الدين المعني في الكوثرية غير اليوم الآنف وحديث الصفدي عنه أوثق الأحاديث لانه معاصر له ولعله كان يكتب الحوادث في وقتها وقد كان يوقتها باليوم والشهر والسنة » .

كما انه قال ص ٣١ منه « والعادة تقضي بصحة رواية الصفدي لانه معاصر للقوم ومتخصص في تدوين ما يجري لهم » .

---

(١) العرفان م ٣٩ ص ٨٨٣

- ٢ -

ومنها اني ذهبت في الاستدلال على ان مشايخ الكوثرية حين نهبها الامير فخر الدين المعني سنة ١٠٢٢ هـ هم من آل منكر لا من آل الصغير إلى أن قرية الكوثرية هذه لم يسكنها آل الصغير إلا في مدة متأخرة من ذلك الزمن [١] .

فرد عليّ –تبريراً لاعتبار هؤلاء المشايخ من آل الصغير لا من آل منكر– بأن بعض شيوخ آل الصغير انتقلوا الى قرية الكوثرية بعد حادثتهم مع آل شكر ، وهي من الحوادث المعروفة بنسبتها الى سنة ١٠٥٩ هـ .

فانتقال آل الصغير بعد سنة ١٠٥٩ هـ الى الكوثرية هو دليل قاطع بنظر المنتقد على أن آل الصغير كانوا في الكوثرية سنة ١٠٢٢ هـ ! وانهم هم الذين عناهم الصفدي حين قال ص ١٦ من تاريخ الامير فخر الدين « فجاء اليه أناس واشتكوا من اولاد علي مشايخ الكوثرية بأن جماعتهم شلّحوا أناساً وشرعوا يخربون في البلاد ويشوشون على الرعية » .

على أنني حين حاولت أن أنفي كون مشايخ الكوثرية هؤلاء من أولاد علي الصغير ، لم احاول ان انفي عنهم مفخرة من المفاخر وإنما رفعت عنهم بهذا النفي مسؤولية ما قام به أولئك المشايخ من محاولات حمقاء أساءت الى العامليين وضاعفت نقمة الحكام المعنيين عليهم .

- ٣ -

ومنها انني استدللت بما صوره المؤرخون – ونص عليه الصفدي [٢] من انهزام قوى المعنيين العسكرية شر هزيمة أمام قوة الشكريين – على مدى قوة آل شكر وعلى انهم كانوا يومئذ أشد بأساً وأمنع جانباً من غيرهم في

(١) العرفان م ٣٩ ص ٣٥٣

(٢) تاريخ الصفدي ص ٣٩ – ٤٠

عاملة [1] موضحاً بهذا الأستدلال لما جاء ص ٢٥ من كتاب جبل عامل في التاريخ من قول المؤلف نفسه « ربما نستفيد من اجتماعهم – والضمير عائد إلى جمهور العاملين – في بلاد بشارة . انها كانت خارجة عن سلطة المعنيين وانهم من أجل ذلك اختاروا الاجتماع بها » ومن قوله «وربما نستفيد منه – والضمير هنا عائد إلى حديث الصفدي – إن هذا الشطر الخارج عن سلطة المعنيين كان محكوماً لبيت شكر فقط »

ومن قوله « ص ٢٧ » – تعليقاً على حديث الصفدي عن حملة المعنيين على آل شكر – « وهذا الحديث يكشف لنا عن أن الشكريين هم حكام بلاد بشارة في ذلك التاريخ دون غيرهم ويدلنا على مبلغهم من النجدة الملتهبة والبسالة المشوبة والتيقظ الواعي »

ومع ذلك ظل حضرة المنتقد الواثق بما يقوله صاحب الكتاب يطالبني بالدليل على هذه الشدة والبأس [2] ويفترض الافتراضات الشاذة لتكذيبها ثم يذهب في مغالطته إلى أن عدم زيارة آل شكر للأمير أحمد الحرفوش في مشغرة او عدم تلبيتهم لدعوته . . دليل على انحطاط مقامهم وضعف قوتهم بالنسبة لمقام الذين زاروا الأمير من أولاد علي صغير، وأولاد داغر، ومنكر؟ كأن استقلال آل شكر بالارادة وحرية الرأي واختلاف ظروفهم واعتباراتهم الموجبة لاهمال مثل هذه الزيارة ولعدم الارتباط والتقيد بما يتقيد به غيرهم . . كأن ذلك ليس له هذه الأهمية وهذا الأثر بنظر مؤرخ القرن العشرين ؟

– ٤ –

ومنها أني تخلصت بما يرويه آل الصغير مع الحاج محمد سهيل من مظاهر تغلب آل شكر على آل الصغير ومن انضواء هؤلاء وتسترهم خوفاً على حياتهم

---

(١) العرفان م ٣٩ ص ٣٥٦

(٢) العرفان م ٣٩ ص ١١٣٠

وشكا بقدرتهم على الثأر زهاء ١٥ عاماً ثم تسللهم بعد ذلك وتكتمهم لاغتيال قادة الشكرية ـ وهم نيام مطمأنين إلى صفو الليالي وبعد الاخطار عن ديارهم ـ تخلصت بذلك وأمثاله إلى القول بأن جميع الروايات حتى رواية آل الصغير أنفسهم عن أسلوب انتقامهم وسبب فتكهم [1] تدل دلالة صريحة على أن الشكريين كانوا أشد بأساً وأوسع نفوذاً .

فعقب حضرة المنتقد على ذلك بقوله ص ٩٩ من العرفان م ٤٠ « هـذا قول لم يستند إلى دليل ولم يقم عليه برهان ويظهر عليه شمار الحيف والتحيز بلا كلفة ولا مشقة لمن أراد الامعان والتدقيق وما ندري من أين عثر على تلك الرواية لآل الصغير حتى جاز له أن يقول مثل هذا القول »

ثم رجع بعد ذلك يقول « ان التاريخ ليحدثنا عن مكانة آل شكر قبل وقعة علي الصغير معهم وآل الصغير يعترفون لهم بذلك ! ولكن بعد الوقيعة لم يحدثنا التاريخ بشيء عن نفوذهم وشدة بأسهم كما يقول الكاتب »

تأمل هذا القول من حضرة المنتقد ، وحدثني أي من المؤرخين زعم له « أن آل شكر كانوا – بعد موتهم أشد بأساً واوسع نفوذاً من آل الصغير؟! وهل كان هذا الافتراض إلا من إغراق المنتقد في البحث ، والتمحيص والتزام المنطق والأدلة ؟ المعقولة ؟؟

– ٥ –

ومنها أني عندما عقبت على رواية شبيب باشا الأسعد القائلة بأن عشيرتهم دخلت جبل عامل في عهد صلاح الدين الأيوبي وتغلبت بقوة السلاح والحرب على حاكم البلاد وعسكره ثم ظلت حاكمة الى أن مات والد علي الصغير ولم يبق من يقوم مقامه من أبناء العشيرة ، أي الى القرن الحادي عشر للهجرة – بقولي « فكيف نتصور أن عشيرة تسود البلاد بعددها وعديدها زهاء أربعة

---

(١) راجع ص ٢٧١ – ٢٧٣ من هذا الكتاب

قرون وعندما يموت رئيسها لا يبقى منها أحد يقوم مقامه سوى هذا الجنين علي الصغير ؟ »

أجابني حضرة المنتقد « أليس من المعقول الممكن اذا مات سيد عشيرة أو قتل وكان له أقارب كثيرة أن لا يوجد أحد من عشيرته يقوم مقـامه ويغني غناه ، ثم احتج لذلك بقتل الشيخ ناصيف النصار وعدم قيام أحد من عشيرته مقامه في الحكم ، على كثرة ابناء عشيرته يوم قتل .. احتج بذلك ولم يميز بين الحاكم الذي يموت حتف أنفه بمعزل عن الحرب ونقمة السلطان ولا يبقى حي من العشيرة (التي حكمت البلاد بعددها وعديدها زهاء أربعة قرون) يرثه سوى جنين كما يستفاد من سياق رواية الأسعد وغيرها مما يستعرض قصة علي صغير مع الشكرية ، وبين الحاكم الذي يقتل بسيف السلطان وفي فترة تحاول فيها الدولة أن تقضي على جميع الحكام المتمردين على إرادتها وأن تقتص من جميع الرؤساء الجائرين على أهالي البلاد كما كانت الحال يوم قتـــل الشيخ ناصيف وتشردت بقية الأسر العاملية المسيطرة ، على ما يبدو من أقوال المؤرخين التي تشعرنا بما نستشعره من قول المعلم ميخائيل مشاقة « وعولت الدولة العثمانية على الجزار في إخضاع الشام وضمه تحت جناحها على طريقة الغـــدر والخداع وإلقاء الفتن والحروب الأهلية بين أمراء البلاد والمشايخ الذين يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل أنواعاً والظلم أشكالاً وشريعـة الرجل منهم إرادته السخيفة ، والحـاكم يشنق ويقتل ويشوه أخلاق الشعب وكأن الحال قيضت لهم رجلاً كالجزار ينتقم منهم ، ولم تكن معاملة الجزار للامير يوسف أقسى من معاملة هذا الامير لإخوانه وأنسبائه وإن ما لحقه من الجزار هو مما يستحقه ، وقس على الامير بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون أموال الرعية وأعراضها في سبيل أهوائهم [1] .

---

(١) راجع خطط الشام ص ٢٣ م ٣ ومشهد العيان ص ٦٢ .

وحسبنا بعرض هذا المقـــدار من المغالطات المطردة فيما نشره حضرة المنتقد .. دليلاً على غيرها في باقي ردوده المتعنتة ، وقد يكون من لغو الكلام وفضوله أن أتتبعها عداً وألمّ بها نقداً وتفنيداً ما دام حضرته يتجاهل حقيقة ما أقوله ثم لا يتورع من التحريف والعبث بألفاظي وعبائري ومقاصدي حين يضيق بها ولا يرى مخرجاً له إلا بتأويلها أو تبديلها كما بدل عبــارة الاستفهام الانكاري من قولي « ألأن آل الصغـير كانوا من السطوة والقوة بحيث يخشى المعنيون بأسهم وخطرهم » بعبارة التأكيد والإثبات حين نقل هذه العبــارة على النحو التالي « إلا أن آل الصغير كانوا [1] الخ » لينقض بذلك مقاصدي وغايتي منها ..

ثم لا شيء سوى اني أتمنى على هواة التاريخ بعض ما تمناه فقيـــد الأدب العربي الاستاذ أمين الريحاني حين قال [2] :

« اقرأوا التاريخ منزهين عن الأغراض مجردين عن الأهواء اقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه فتنسوا إذ ذاك قريضه وقوافيــــه ، او تشعروا بأنه اذا كان في التاريخ فائدة ما، فهي في هذه الدروس التي يلقيها علينا هي في الامثولة التي تعلمنا انه يجب أن نتعظ بأخطاء الماضي ، هى في الامثولة التي تعلمنا أنه من الإثم أن نورث أبنـاءنا ما ورثناه من مساوىء الماضي ، هي في الامثولة التي تعلمنا أنه لا يجوز أن نظل مخدرين الى الأبد بأوهام التاريخ . ولا يجوز أن نسمم عقل الأمة الى الأبد بسمومه ، بل يجب أن نعرف الحقيقة منه كلها فنستنير بها اذا كانت خيراً وننبذها ونتقي أمثالها إذا كانت شراً » .

---

(١) أطلب العرفان م ٤٠ ص ٩٩

(٢) النكبات ص (و) ثم ص ١٠٩

المتاوِلة في عهدِ الشهابيين

الأسر الاقطاعية في جبل عامل

مما لا شك فيه ان وضع جبل عامل السياسي قديماً كان كوضعه في عهد النظام الاقطاعي الاخير ؛

« مشيخات تابعة لحكومة مركزية مستبدّة هي كل شيء في التاريخ والسياسة » فلم يكن يحسب له المؤرخون حساباً ليكون له تاريخ مستقل مفصل ؛

ثم انه لم يكن معروفاً على انه عمل مستقل الا في القرون الأخيرة ؛ وان عمله المستقل كان على مثال الاعمال الاقطاعية التي قضت سياسة الغالب تجزئة بلاد الشام اليها؛وفي تلك السياسة تركتها ميداناً للتنازع بين حكام الاقطاعات المتجاورين وباباً للتفريق بين ملتمسي الأمرة والحكم من كل مقاطعة [1]

إذ كانت الدولة تطرح المقاطعات الريفية التابعة للولاية للمزايدة بين الراغبين فيها من اعيان البلاد واغنيائها مقابل مبالغ محدة يدفعها الراغب في الألتزام ؛

وفي مقابل ذلك كان الملتزم يحل محل الحكومة في السيادة والامارة على ادارة الالتزام ؛ وكان حرّ التصرف في جبايته ما يشاء جبايته من الاهالي بدلاً من قيمة الالتزام التي كان يدفعها كل عام للدولة :

(١) لاحظ اسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٢٦١ من العرفان م (٨)

وكان الاهالي الذين يزرعون ارض الألتزام أذل من العبيد مع الملتزم فربما استطاع العبد أن يفرّ من مولاه إذا أرهقه ولكن الفلاح ما كان يستطيع ان يفرّ من الملتزم الى بلدة اخرى ويترك وطنه وعياله لأن الملتزم اذا علم بمكانه احضره قهرا وزاده اذلالا ومقتاً .

وقد بلغ من هوان الفلاحين ان اصبح الأذلال دستوراً محترماً لديهم ، فكانوا اذا ما آنسوا من الملتزم او الملاك تسامحاً معهم ورحمة بهم .. تهاونوا في خدمته وازدروه وماطلوه في دفع ما عليهم له [1]

وفي اطار هذه العادات والتقاليد كان يحكم جبل عامل – في جل العهود العثمانية الاخيرة – أسر اقطاعية تابهة كلٌ منها يستقل بحكم مقاطعة او مقاطعات عدة يلتزمها ويجبي ضرائبها ويدير امورها ويستثمر اراضيها كيفما يشاء على أن يدفع لقاء ذلك كل ما عليه من المال سنوياً الى خزينة السلطنة العثمانية بواسطة والي الأيالة او من يقوم مقامه وعلى ان يلتزم بتأمين الطرق وحفظ الأمن داخل حدود مقاطعته ؛ وعلى ان يلبّي – برجاله وفرسان مقاطعته – دعوة والي الأيالة لدى الحروب الأهلية والدولية ويشترك في أي معركة يوجّه اليها :

وأشهر الأسر العاملية التي حكمت في جبل عامل – على عهد العثمانيين – هي اسرة آل منكر أو (منقر) [2] وآل علي الصغير ؛ وآل صعب ؛ وهناك

---

(١) لاحظ ص ٢١ من يوميات الجبرتي :

(٢) يقول النابهون من آل منكر انهم ينتمون الى قيس بن عاصم المنقري سيد أهل الوبر وانهم بناءً على ذلك من آل (منقر) بالقاف لا بالكاف، وان تحريف القاف الى كاف انما كان تندراً من المتحاملين على اسرتهم ؛ ويؤيد هذا القول منهم انه لا يعقل ان تنتسب اسرة عربية مسلمة – تعرف حكاية منكر ونكير من الوجهة الدينية ، ثم تعرف معنى المنكر من الوجهة اللغوية – الى منكر او ان تسمّي به احداً من ابنائها واعلامها الا اذا خرج ذلك عن محض إرادتها واختيارها ؛ وشاع على ألسنة الناس بواسطة تقوّل المعارضين والمنافسين لهم في المنطقة ؛

اسر تولت الحكم في بعض الفترات السياسية ولكن لم يستقم الأمر لها طويلا كما استقام لهـــذه الأسر الثلاث ؛ ومن تلك الأسر آل شكر في بلاد بشاره وساحل معركة ؛ ومقدمي جزين الخزرجيين في اقليم جزين ؛ وآل الزين في بلاد بشاره وساحل صور ؛ وآل برّو في جبل الريحان على ما يبدو من بعض النصوص .، . وآل داغر في منطقة انصار ، وآل شامي في منطقـــة بنت جبيـــل .

قصة مشرف بن علي الصغير والامير بشير الاول

تحقيق علمي فيما لابس عصر مشرف بن علي الصغير من صراع حزبي ومناورات سياسية اشترك فيها لبنان مع باريس والاستانة .

لا يمكن بعد اليوم أن يطمئن وجدان المفكرين الأحرار الى حكم المؤرخ الذي يسترسل في مزج التاريخ بالاسطورة ولا يميز بينهما . ولا الى هذا الذي يتحدى طبيعة الأشياء وظروفها وملابساتها .. بافتراضاته ومبالغاته الخيالية واغراقه في تكييف الحوادث حسب أهوائه ونزعاته الجامحة .

فإن هذا النوع من المنطق قد أصبح في هذا الجيل - الذي تيقظت في أبنائه ملكة التفكير والموازنة - مبعثاً للشكوك والريب . ناهيك بأنه لا يقربهم الى هدف الكاتب وغرضه وقد ينفرّهم منه ويردهم عن المضي في المطالعة الى نهاية ما يحاولون درسه ومعرفته .

وان المؤلف الذي يتخذ مثل هذا المنطق وسيلة لتشويق القراء واغرائهم يسيء كثيراً الى الحقيقة العلمية والى التاريخ الصحيح الذي ينسجم مع الواقع ويسمو بطبيعته عن أن يقوم على الاساطير والخرافات أو على أي منطق لا يهضمه العقل ويتقبله الذوق السليم وتدعمه الحجج والوثائق المحررة من كل زيف .

واذا كان من ازدراء العلم أن نورد الاساطير على انها واقع تاريخي فإن من

الاهانة لمن نترجمهم من رجال التاريخ وأعلامه أن نغض النظر عن مواهبهم الطبيعية وعن حقيقة أعمالهم وآثارهم المـــادية والمعنوية ثم نمعن في افتراض المعجزات والخوارق ونتمحل في اضافتها الى مميزاتهم الشخصية !

وعلى هذا فلا بد لمن يحاول كتابة التاريخ بروح علمية لا تتأثر بمـا طبع عليه المؤرخون ورواة الحديث من عصبية او عنجهية او ممالأة غاليـة كانت ولم تزل تفرض على المؤرخ مهما يكن مستواه – في ظل الحـكام المستبدين – أن يحذف او يضيف وأن يقتصـــد او يبالغ وأن يتأول او ينحرف حسب الظروف والاهواء والمصالح الوقتية.. لا بد له من أن يتأنى في بحثه ويتجرد في تفكيره ويتوسع في درسه ويبذل أقصى ما يستطاع من جهــد في البحث والاستقراء للكتب والنصوص والمصادر المختلفة عامة كانت أو خاصة مع الالتزام بالأصول والمصطلحات العلمية لبحث التاريخ وتفسير النصوص وتحليل العقـد وأحكام الموازنة بين المتناقضات ، وإلا كان بحثه وتفكيره وتأليفه ناقصاً ملتوياً يزيد في بلبلة الافكار وتشكيك المطالعين والتباس الحقائق او ضياعهـــا بين الأخيلة والأوهام .

واحتياطاً لمثل هذه الواجبات العلمية رأيت ان المقارنة بين الاقوال – فيما تضاربت به الرواة – أفضل طريق لتصفية الحقائق واظهارها ناصعـة الجبين بينة الحجج ... وذلك هو السبيل الذي أحاوله وأدعو اليــه في البحث عن مجهول التاريخ العاملي واللبناني . وفيما سأعرضه من نصوص وملاحظات . مع ترك المجال واسعاً أمام القارىء الكريم لإبداء الرأي وإصدار الحكم وإتمام ما يمكن إتمامه من نقص المعلومات والملاحظات والأدلة .

مشرف بن علي الصغير

ليس للشيخ مشرف تاريخ مجمل او مفصل ننطلق منه الى المدى البعيد في تاريخ حياته السياسية والاجتماعيـــة ونفسر به ما غمض من حوادث عصره

وملامح شخصيته ، وكل ما يتلمسه الباحث من خـــلال الدرس والاستقراء مظاهر اجمالية هي السبيل الوحيد الى معرفة بعض الشيء عن مشرف وبعض الشيء عن سياسة عصره .

- ١ -

مزرعة مشرف

وأول تلك المظاهر هو مزرعة مشرف الباقية لليوم تحمل اسمه وتشير الى واقعه التاريخي اشارة غامضة تبيح للشعراء ان يصوروه كما يشاؤون ، وتبيح للرواة والمؤلفين ان يقولوا عنه ما يقولون حقيقة كان أم خيـــالاً .. وما علينا فيا قيل وما قد يقــال إلا أن نقرأ ونفكر ونتساءل علنا نصل من ذلك الى الواقع المجهول من أخبار ماضينا .

وعلى هذا الأساس قرأت ما رواه مؤلف (جبل عامل في التاريخ) وما قاله ص٦٤ من كتابه «مدّن مشرف بقمة واتخذها عاصمة ، وهي لا تزال ترمز الى عظمته وأقام فيها صرحاً ونقش على بعض جدرانه ما يلي :

قسماً بما حاطت أباطح مكة ... ومنى وآيات الكتاب المـــنزل
لم أبنهـــا طمع الخلود وإنمـــا ... هي زينة الدنيا لأهل المنزل

أشاد هذا البناء وأعلاه وأحسن النظر لو كافأ بنّـاه الشيخ الكبير الملقب بالصغير شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته سنة١١٠٨هـ ، فأصبحت حاضرة يقصدها السفر ودار حكم تتبعها مئات القرى وساعد الحظ فأضيفت الى اسم مليك البلاد مشرف » .

وما كدت أقرأ هذا الكلام حتى ساور ذهني الشك ولا سيا حين قارنت ما طالعته من رواية المؤلف بما قرأته من تاريخ صالح بن يحيى التنوخي [١]

---

(١) هو تاريخ بيروت المطبوع سنة ١٩٠٢ مع تعليق الاب شيخو اليسوعي .

من أدباء القرن التاسع للهجرة وقول المعلق ص ٢٨٤ منه « نظن في أيامه – أيام شرف الدين موسى التنوخي – بنيت سراية عبيه سنة ٨٧٠ هـ ١٤١٦ م . وإليك ما كتب على بابها :

قسماً بما ضمت أباطح مكة ... ومنى وآيات الكتاب المنزل
ما شدتها طمع الخلود وانما ... هي زينة الدنيا لأهل المنزل »

ثم حين سألت بعد ذلك من يعرفون مزرعة مشرف وأطلالها معرفة اطلاع ومشاهدة عن قصة التاريخ والبيتين المتقدمين .. أكدوا لي في الجواب أنهم لم يروا في أطلال المزرعة أو الدار من فخامة البناء وزخرفته مايتناسب خبره مع حقيقة خبر البيتين اللذين كنت أحسبهما من مظاهر الادب العاملي في عصر مشرف .

ثم سألت عن محل الدار من بقايا المزرعة وأطلالها ؟ فقيل لي ليس هناك دار ومزرعة ، بل هناك دار هي المزرعة أو مزرعة هي الدار على ما هو معروف قديماً في بلادنا من بناء المزارع الصغيرة على نحو الدور الكبيرة المؤلفة من عدة بيوت متلاصقة حول ساحة رحبة تدخل اليها من باب كبير كأبواب الحصون والقلاع ولهذا عبّر عنها بعض المؤرخين بالمُزَيرعة [١] وقال آخر في مكان يقال له المُزَيريعة [٢] ثم قالوا جميعاً ان مشرفاً قبض عليه في المزرعة لا في داره من المزرعة . ومع ذلك فما زال في كتابنا ومؤرخينا العامليين من يذهب الى أن مزرعة مشرف كانت مدينة وعاصمة ثم حاضرة جبل عامل متجاهلين الاعتبارات والمصطلحات العرفية التي تميز هذه المعاني عن معنى المزرعة ، أو الدار ، أو مقر حاكم المقاطعة . وما زال فيهم من يروي بكل اطمئنان « أن مشرفاً بنى فيها مسجداً كبيراً » وان عالم المزرعة قاطع هذا المسجد ولم يقم فيه الصلاة لظلم بانيه بل بنى مع بعض فقراء القرية

(١) أخبار الاعيان طبعة ثانية م ٢ ص ١٦
(٢) خطط الشام م ٢ ص ٣٨٦

مسجداً ثانياً [1] .. كأن أرض المزرعة وبيوتها كانت ملكاً لفلاحيها ؟ وكأن اهلها كانوا مخيرين فيما يقولونه ويفعلونه خارج بيوتهم ؟ وكأن مخالفة الحاكم في داره وملكه وبلدته كانت من الامور العادية الميسورة لفلاحي المزارع في ذلك الزمن ؟ وخصوصاً عندما يكون الحاكم ظالماً – كما يقال عن الشيخ مشرف – او يكون من يحاول مخالفته بحاجة ماسة الى مصانعته ومداراته ، او يكون وجوده في المزرعة موقوفاً على عطفه ورضاه ؟؟

– ٢ –

مشرف في عهد عبدون باشا ١٠٩٩ هـ

والثاني من هذه المظاهر المجملة: هذه الرواية يرويها العلامه سليمان ظاهر عن بعض المخطوطات العاملية عند بحثه عن مزرعة مشرف اذ يقول ما نصه « وفي سنة ١٠٩٩ هـ وهي السنة التي تولى فيها على صيدا عبدون باشا فقبض على صاحبها الشيخ مشرف لظلمه وقتله مشايخ القرى في غار المزرعة حيث لم يطيعوه في بعض الأمور وقبض على احمد نصار شيخ المناكرة » .

العرفان م ٨ ص ٥٢٦

–٣–

اخبار القبض على مشرف

الثالث منها هذه الحادثة التي اجمع المؤرخون على صحة وقوعها وان اختلفوا في تكييف صورها وتفصيل مراحلها فقال محمد بن مجير العنقاني « في سنة ١١٠٩ هـ صارت وقعة القاسمية مع الشيخ مشرف في شوال وذلك انهم حاصروه في المزرعة ثم قبضوا عليه وتوفي في صيدا بعد ثلاث سنين [2] .

---

(١) اعيان الشيعة م ٤٨ ص ٦٨ .

(٢) اعيان الشيعة ج ٤٨ ص ٥٨ .

وفي النبذة التاريخية المنسوبة للشيخ علي سبيتي او الشيخ علي مروة وردت على هذه الصورة « وسنة الف ومابة وتسعة ، ركب الامير بشير على بلاد بشارة . ومسك مشرف من المزرعة وبنى عين الدروز قرب (جويا) وقتـل حسين العمر وصفا له الحكم في بلاد بشارة [1] .

وفي تاريخ الأمير حيدر احمد شهاب المطبوع في مصر سنة ١٩٠٠ وردت على النحو التالي « في سنة ١١١٠ هـ تولى ايالة صيدا قبلان باشا ، وكان الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل اناساً من رجال الدولة وقصد العصاوة فاستنجد قبلان باشا بالأمير بشير فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوه في مكان يقال له المزريعة فقبض عليه الامير بشير وعلى اخيـه الحاج محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم الى الباشا فأمر الباشا بشنق حسين المرجي ووضع مشرفاً واخاه في السجن واعطى الامير بشير ايالة صيدا مـن اطراف بلاد صفد الى جسر المعاملتين وصار له اسم عظيم عند الدولة » . [2]

ما يلاحظه الباحثون

١ – يلاحظ ان في رواية العنقاني من الاجمال والغموض ما لا يمكن فهمه وتعقله الا بأن نفرق بين واقعة القاسمية وواقعة المزرعـة ونعتبر كلا منهما مستقلة عـن الاخرى لا يربط بينهما زمان ولا مكان لبعد المسافة بين موقع القاسمية وموقع مزرعة مشرف .

ثم لو صح انه قد وقع اصطدام بين مشرف والامير عنـد نهر القاسمية فانتصار مشرف على الامير بشير في ذلك الصدام من شأنه ان يرد الأمير وجيشه على اعقابهم وان يحول بينهم وبين الوصول الى المزرعة او الى اعتقال مشرف..

---

(١) العرفان م ٥ ص ٢١ .

(٢) تاريخ الامير حيدر احمد شهاب طبعة مصر ص ٧٤٩ ثم خطط الشام م ٢ ص ٢٨٦ .

اما انكسار مشرف فانه لا يوحي له بأن يفرّ الى المزرعة ويقيم فيها الى ان يداهمه جيش الامير . بل يوجب عليه بداهة وبدون تفكير ان يجد السير الى حيث لا تدركه عين او تناله يد بمكروه .

٢ – ثم يلاحظ من روايـــة المؤرخ الشهابي .. ان تعليله لاستنجاد الباشا بالأمير للغارة على مشرف بما كان من قتل مشرف لبعض رجال الباشا . . ثم توقيته لهذه الغارة في سنة ١١١٠ هـ اي بعد واقعة القاسمية بثلاثة اشهر او اكثر على موجب توقيت العنقاني لواقعة القاسمية في شوال ١١٠٩ هـ .

كل هذا مما يشعرنا بأن واقعة القاسمية هي الواقعة التي قبض فيها مشرف على بعض رجال الباشا وقتلهم . وانها هي التي أوجبت نقمة الباشا على مشرف وحملته لأن يستدعي أمير الشوف لاعتقال مشرف والتنكيل بجماعته من العامليين . . واتخاذ مثل هذه الاجراءات والسعي لتحقيقها عملياً يستوجب ان تكون المسافة الزمنية بعيدة المدى بين الواقعتين :

علة استنجاد الباشا بالامير

ان من يقرأ رواية العلامة ظاهر السالفة يرى ان عبدون باشا لم يستعن بأمير لبنان للقبض على مشرف ثم يشعر كذلك ان استنجاد قبلان باشا بالأمير لم يكن عجزاً عن الاقتصاص من مشرف وانما كان جرياً مع سياسة الاتراك المتبعة . اذ كانوا كلما اضطربت الاوضاع في مقاطعة من المقاطعات او اخل حاكم من حكامها بواجب الطاعة ألـّبوا عليه حكام المقاطعات المجاورة ودفعوهم لحربه والتنكيل بأبناء مقاطعته [1] ايغالا في التفرقة بين اهالي البلاد وبثاً للأحقاد بين الزعماء او توفيراً لنفقات الحروب المحلية وتخفيفاً لمشقاتها ومسؤلياتها على دولة الباشا :

وقد يكون هذا الاستنجاد من الباشا تعظيماً لشأن الامير الجديد وارهاباً

---

(١) خطط الشام م ٢ ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

لمناوئيه بما يمهد له من اسباب البطش بالمتهاونين المنفصلين عـــن دائرة حكمه ونفوذه ليخشاه ويستسلم له المعارضون الداخلون في منطقة حكمه ونفوذه . . ومما يقرب هذا الزعم الى حيز الواقع . قول صاحب (أخبار الاعيان) في نهاية روايته « ورجع الى دير القمر ممتزاً » ، ثم قول الشهابي « وصار له اسم عظيم عنـــد الدولة » .

كيف قبض على مشرف

وان من يتدبر قول المؤرخ الشهابي « وكبسوه في مكان يقال له المزيرعة فقبض عليه الامير . . » يتضح لديه انه لم يقع حرب بين الامير والشيخ مشرف في هذه الحملة لأن لفظـــة كبسوه اي باغتوه ، ولم يتركوا له مجالا للفرار او المقاومة ، لا يمكن ان يستفاد منها انه وقع حرب بين الطرفين بـل العكس هو المستفاد . . ومن يعرف موقع مزرعة مشرف هذه يعرف انها بما حولها من عرصات لا تتسع لوقوف ثمانية آلاف مقاتل فضلا عن اصطفافهم لمحاربة من يقابلهم من صفوف العامليين كما يقول صاحب اخبار الاعيان بل احسب انها لا تتسع لاصطفاف الف في مقابل الف ؟ .

هل كان مشرف حاكماً مطاعاً لدى حملة الامير ؟

ويمكننا ان نستدل من نص الشهابي هـذا على ان مشرفاً لم يكن – لدى غارة الامير بشير – حاكماً رسمياً من قبل الدولة ؛ ولا زعيماً مطاعاً من قبل الاهالي ؛ ولا متفقاً مع بقية حكام المقاطعات العاملية اذ لو كان كذلك لاستعد لحملة الامير وتحرى اخبارها وقطع عليه الطريق بحملة مثلها قبل ان يصل الى المزرعة . ثم لاذ بالفرار لاول بادرة تشعره بتخاذل جيشه ، او لقبض – حين قبض عليه – مع الكثير من انصاره لا مع واحـــد واثنين كما تنص الروايات المختلفة .

ومما يقوي هذا الظن ان استقراء تاريخ الحكام الاقطاعيين عامة – وفي

جبل عامل خاصة – يشعرنا بأنهم كانوا لا يجرأون – وهم في الحكم – على تحدي رجال الدولة او قتلهم او التعرض لأحد منهم بسوء بل كان من التقاليد المرعية ان يبالغوا في التقرب اليهم والى موظفيهم وان يتحاموا كل حركة وكل اتجاه يخالف رضاهم ، الا عند اليأس وحين كانت تكف يدهم عن الحكم ، او يلاحقون كما يلاحق أصحاب السوابق. فانهم إذ ذاك كانوا يلجأون الى الخطخطة والاخلال بالأمن واقلاق راحة الحكام والأهالي بما يرتكبون من موبقات جرياً على الأساليب التي كان يتبعها الاقطاعيون – وهم في مثل هذه الحال – ليوهموا رجال الدولة بأنه لا يستتب الأمن ولا تستقر الأحوال الا بالعفو عنهم وعودتهم الى حكم مقاطعاتهم ... وما يدرينا بأن يكون الذين قتلهم الشيخ مشرف او زلمـــه – عمداً او خطأ – من غلمان قبلان باشا هم من بعض عابري مخاضة القاسمية او عابري طريق وادي عاشور حيث تطل مزرعة مشرف .

ثم ان اخبار حملة الأمير على بلاد بشارة تشعرنا بأنه لم يتعرض لغير مشرف من مشايخ المقاطعات العاملية –كما تعرض عبدون باشا من قبل لمشرف ولأحمد بن نصار شيخ المناكرة – وهذا يوحي لنا بأن حكام بقية المقاطعات العاملية لم يكونوا مؤيدين لمشرف آنذاك ولا راضين عن تصرفاته : ومما يقوي هـــذا الشعور مجيئهم لعنـــد الأمير بشير والتزامهم منه المقاطعات التي بأيديهم قبل أن يرحل عن بلاد بشارة اذا صح ما رواه صاحب اخبار الاعيان حيث قال [١] :

« وحضر الى الامير بنو منكر المتاولة اصحاب اقليمي الشومر والتفاح . وبنو صعب المتاولة ايضاً اصحاب مقاطعة الشقيف ودخلوا في خاطره فقبلهم وقررهم على مقاطعاتهم ورجع الى دير القمر معتزاً » .

ثم انه لو كان مشرف حاكماً عاماً في جبل عامل لتحصن في احدى القلاع العاملية كقلعة تبنين التي كان يتخذها حكام بلاد بشارة مقراً لحكمهم او لتمركز

(١) اخبار الاعيان م ٢ ص ١٦ من طبعة بيروت الثانية .

في احدى القرى الكبيرة المنيعة بموقعها – كقرية شحور مقر آل الصغير القديم [1] ولما لجأ الى سكنى تلك المزيرعة المنعزلة النائية عن مراكز الحكم والعارية مـــن المؤهلات الاجتماعية الطبيعية وبما يضمن لساكنيها وقاصديها الراحة والاستقرار ، اذ انها الى الانعزال والتخفي عن اوجه الناس اصلح منها للاتصال بالحركات السياسية والحربية والاشراف على سير الامور الاجتماعية كما هو المفروض في حاكم البلاد ومدير شؤونها الرسمية والشعبية .

الحرب بالنظارات

ألمحنا فيما تقدم من الكلام عن كيفية القبض على الشيخ مشرف من المزرعة الى انه لم يقع بين الطرفين حرب ولكن صاحب (أخبار الاعيان) يروي ما يشعر بوقوع حرب بين الامير والشيخ اذ يقول ما نصه :

«وسنة ١٧٠٠م خرج الشيخ مشرف بن علي الصغير المتوالي اليمني صاحب مقاطعة بلاد بشارة عن طاعة ارسلان باشا وقبض على بعض من غلمـــانه وقتلهم ، فاستنهض الوزير المذكور الامير بشير لقتاله وأطلق له ولاية صفد مع مقاطعات جبل عامل الثلاث وهى مقاطعة بلاد بشارة ومقاطعة اقليمي الشومر والتفاح ومقاطعة الشقيف ، فجمع الامير من رجال القيسية ثمانية آلاف مقاتل وزحف بهم الى قتال مشرف اليمني ، فالتقى به في قرية المزيرعـــة من بلاد بشارة ، واصطف الفريقان للقتـــال ، ولم تضطرم نار الحرب بينهم إلا قليلاً حتى انكسرت رجال مشرف وهلك منهم خلق كثير وقبض على مشرف ..الخ »

ص ١٦ م ٢ الطبعة الثانية

---

(١) كان في مقبرة شحور ركن يشتمل على بعض القبور الرخامية المهدمة ، وفي سنة ١٩١٦ رأيتها بعيني ثم سمعت من لسان المغفور له العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين وهو ابن شحور البار انه قرأ في صباه على بعض القطع الرخامية المكسرة حول تلك القبور اسم حسين بن علي الصغير وفي اعيان الشيعة ج ٢٧ ص ٤٠ ان حسين بن علي الصغير توفي سنة ١٠٦٧ هـ .

والذي يدعو الى الشك في رواية صاحب « أخبار الاعيان » وبما تضمنته من وقوع الحرب .. ان البطريرك اسطفان الدويهي – وهو من العلماء المعاصرين لهذه الحادثة المفروض فيهم البعد عما كان يتأثر به المؤرخ الشهابي أو مساعدوه وناسخو كتابه من دواعي الاضطراب والانحراف في تكييف الحوادث – يرويها بالصورة التي رويت بها في تاريخ الشهابي المطبوع في مصر سنة ١٩٠٠ ولا يختلف عنه بغير هذه الجملة ، فبدلاً من أن يقول « فأمر الباشا بشنق حسين المرجي » يقول « وبالحاضر أمر برفع حسين المرجي على الخازوق »[1] ولا يصرح الدويهي قط بوقوع حرب بين الأمير والشيخ كما تصرح عبارة صاحب أخبار الأعيان وعبارة النسخة اليسوعية المنسوبة للشهابي في طبعة بيروت او عبارة الاستاذ محمد جابر (ص ٧٤٢ من العرفان م ٢٦) حيث يقول ما نصه :

« وسنة ١١١١ هـ و ١٦٩٧ م توفي الامير أحمد المعني ودالت به دولة المعنيين ، وانتقلت الامارة الى الشهابيين فتم للعامليين استقلالهم والانفراد بحكم بلادهم ، وظهر الزعيم الوائلي مشرف بن علي الصغير فقاد صفوفهم وجمع شتاتهم ونبذ طاعة ارسلان باشا والي ايالة صيدا وقتل بعض عماله وطرد الآخرين ، فاستنجد الوالي بالامير بشير الشهابي .. فدارت رحى الحروب وثارت الفتن وسالت الدماء انهاراً .. كذا » .

– ٢ –

هل عاد مشرف الى الحكم بعد حبسه

من الشائع لدى العامليين ان مشرفاً ظل محبوساً في صيدا منذ ان اعتقله الامير بشير سنة ١١٠٩ هـ الى ان مات في صيدا سنة ١١١٢ هـ على قول العلامة الامين[2] وسنة ١١١٣ هـ على حسب ما تقدم من قول ابن مجير العنقاني[3] وسنة ١١١٤ هـ على ما ينص عليه قول السبيتي .

---

(١) تاريخ الأزمنة ص ٣٨٣ – ٣٨٤ طبع بيروت سنة ١٩٥١

(٢) و (٣) أعيان الشيعة ج ٤٨ ص ٦٨

« وسنة الف ومائة وثلاثة عشر القي القبض على علي منصور ومحمد بزبع في انطاكية وسنة أربعة عشر توفي مشرف في صيدا »[1]

ولكن ما ينسب الى المؤرخ الشهابي في نسخته اليسوعية المطبوعة في بيروت سنة ١٩٣٣ يخالف هذه الاقوال الشائعة وينقضها إذ يصرح (ص ٨ م ١) بما نصه : « في السنة التي تولى فيها الامير حيدر شهاب انعزل ارسلان باشا عن صيدا وقدم اليها بشير باشا والي أعليها فأفرد ولاية صفد ومقاطعات جبل عامل عن الالحاق بولاية جبل الشوف فولى على صفد وديارها وعكا وديارها ظاهر ابن عمر بن ابي زيدان المقدم ذكره وولى من قبله بني منكر على مقاطعة اقليمي الشومر والتفاح ، وبني صعب على مقــاطعة الشقيف , وكان مشرف بن علي الصغير قد أطلقه ارسلان باشا بعد اعتقاله كما مر ، ولمــا حضر بشير باشا المذكور (سنة ١١١٧ هـ) توجه الى صيدا فارتمى لديه وتوسل فولاه مقاطعة بلاد بشارة » .

وعلى موجب هذا القول يكون مشرف قد اشترك مع العامليين في معركة النبطية سنة ١١١٨ هـ كما سنفصلها .

أما صاحب (أخبار الاعيان) فانه – حين يروي أخبار سنة ١٧٠٦ م و ١١١٧ هـ – لا يصرح بشيء يدل على وجود مشرف او رجوعه للحــكم ، وكذلك الشهابي نفسه في الطبعة المصرية .

وعليه فلا ندري بأي الاقوال نأخذ وعلى أيها نعتمد ؟

وكذلك لا نستطيع أن نحــكم فيما اذا كان قبلان باشا هو الذي استنجد بالأمير بشير للقبض على مشرف أم أخوه ارسلان باشا المطرجي ؟ وذلك لاختلاف الأقوال بين الرواة فالشهابي في النسخة اليازجية المصرية يصرح كما

---

(١) العرفان م ٥ ص ٢١

تقدم بأن الذي انتدب الامير للقبض على مشرف هو قبلان باشا وتابعه على هذا القول صاحب (خطط الشام) ص ٢٦٨ ج٢ .

ولكن الشهابي في النسخة اليسوعية البيروتية يذهب (ص ٥ - ٧ ج ١) الى ان الذي استنهض الامير هو ارسلان باشا ويؤكد هذا القول صاحب أخبار الاعيان ص ١٦ ج ٢ ط٢ .

وكذلك لا ندري هل ان الذي تسلم حكم بلاد بشارة من قبل الامير بشير هو الشيخ محمود ابو هرموش كما ينص على ذلك الشهابي ص ٧٤٩ من النسخة البازجية والطبعة المصرية ثم يؤكده صاحب (الخطط) بنقله للنص بحرفيته (ص ٢٨٦ ج ٢) ام ان الذي تسلّم حكم بلاد بشارة من الامير بشير هو غير أبي هرموش من المتسلمين ؟ لأن الشهابي نفسه يتجاهل ذلك في الطبعة البيروتية والنسخة اليسوعية .

هل كانت حملة الامير لمجرد القبض على مشرف

مما يروى عن السبيتي وعن الشيخ حسين سليمان البياضي ان الامير بشير بعد ان مسك مشرفاً من المزرعة بنى عين الدروز قرب جويا وعين الراموح وعين الجنان قرب بافليه ، فبناء الامير لهذه العيون في المنطقة التي قبض فيها على مشرف يدلنا على ان الغاية من حملته على بلاد بشارة كانت أبعد مدى وأوسع مجالاً من القبض على مشرف .

أضف الى ذلك ان القبض على مشرف بهذه السهولة لا يستوجب ان يعطى للأمير أيالة صيدا من أطراف صفد الى جسر المعاملتين ، كما يذهب الشهابي ويتابعه صاحب (الخطط) ... ولا أن يطلق له حكم ولاية صفد مع مقاطعات جبل عامل ، كما يذهب صاحب (أخبار الاعيان) ومن يذهب مذهبه من نساخ تاريخ الشهابي . إذ أن قيام الامير بمثل هذه المهمة كان من الواجبات التي تفرضها تقاليد الحكم التركي وشروطه على كل حاكم

اقطاعي ينتدبه والي الايالة لمثل ذلك [1] ثم اذا اقتضى الحال وحسن للدولة ان تعوض على الأمير نفقات هـــذه الحملة فليس من مصلحة الدولة ولا من المحافظة على هيبة الباشا ان يعوض على الأمير بتفويضه حكم مقاطعات الايالة جميعها ، او مقاطعات صفد وجبل عامل ، وحسبه ان يعوض عليه بالعفو عن اموال مقاطعات الشوف – كما فعل عثمان باشا المحصل (سنة ١٧٧١ م) مع الأمير يوسف شهاب يوم خاض معارك كفر رمان والنبطية وحارة صيدا او بتفويضة حكم المقاطعات التي كانت مهددة بعصيان مشرف ، لا بحكم صفد وغيرها من المقاطعات المسالمة ما دام حكام هذه المقاطعات لم يخرجوا على ارادة الباشا ، ولم يتعرضوا لأحد من رجاله بأذى ، ولم يخلوا بواجب العبودية كما يقـــال :

ثم ان القبض على مشرف لا يستوجب ان يقضي على حكم بني البتيم الدروز في (عرابة البطوف) ومنطقة طبرية ، وان يقام على انقاضه حكم (الزيادنة) كما يبدو من رواية الشهابي في النسخة اليسوعية والطبعة البيروتية ص ٦ ج ١ : واذن فلا بد وان يكون هناك ما هو أدق معنى وأبعد غاية : اذا صحت روايات مؤرخي لبنان

ما وراء الستار

وهذا أمر لا تتضح معالمه الا اذا لاحظنا كيف آلت سياسة ورثـــة المعنيين في لبنان الى سياسية افرنسية طائفية نفّرت الدروز من فرنسا وجعلتهم يرتمون في احضان قناصل بريطانيا ونفرت البريطانيين من الموارنة حتى قال قنصلهم العام في بعض تقاريره عن لبنان :

« ان الموارنة مستسلمون نفساً وجسداً الى فرنسا.. وعليـــه فـــلم يبق لانكلترة ان تختار في الأمر بل أمسى من المحتم عليها عضد الدروز [2] » .

---

(١) راجـــع جواب سليمان باشا والي عكا للامير بشير الثاني ص ١٤١ – ١٤٢ من تاريخ ابراهيم العورة ثم البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري ص ٢٩ – ٣٤ .
(٢) المحررات السياسية م ١ ص ٧٣ .

ثم لاحظنا ما يلاحظه الباحثون في تاريخ لبنان السياسي من أن (كواخي) امراء الشوف منذ عهد الأمير أحمد المعني الى آخر عهد الأمير بشير شهاب الثاني .. كانوا قناصل لفرنسا [١] او كان القناصل – بكل ما لديهم مـــن نفوذ وبكل ما حولهم من الجاليات الافرنسية وبكل ما يملكون من وسائل ومداخلات لدى السفراء والوزراء والحكام كانوا بكل هذه القوى المتضامنة – يكمنون وراء اولئك الكواخي الذين سيطروا على أفكار الأمراء وقلوبهم حتى أصبحوا او كادوا ان يصبحوا هم الحكام فعلا وان يكون الأمراء رمزاً للحكم واسماً بغير مسمى كما يتضح من قول العالم النمسوي (اندريا اوبليتر) [٢] في تاريخه للبنان بين سنة ١٧٢٩ وسنة ١٧٩٥ حيث يقول ما نصّه « ان حكام جبل لبنان على الحقيقة لا هم الدروز ولا الموارنة ولكن مع ذلك فزمام الحكم كله بيـــد الموارنة ، لأن وزراء الحاكم او كواخيه (نوابه ومستشاريه) هم دائماً موارنة والحكم كله مقلد لهؤلاء الكواخي وهم يقطعون ويمضون ويحكمون بحسبما يحسن عندهم ، من دون ان حاكم الوقت يمانعهم بنوع من الانواع ، وكما اختبرت الأمور بذاتي في الكاخيين اللذين توليا زمام الحكم الواحد بعد موت الآخر في مـــدة اقامتي بدير القمر التي هي كرسي الحكم الآن ، وسلطان هؤلاء الكواخي هو ممتد الى هذا الحد حتى انهم ليسوا يحكمون فقط بقضاء الموت ويرتبون الجزاء والقصاص حسبما يرتأون واجباً بل انهم يناوئون بالحرب ويجمعون العساكر للقتال وليس لحاكم الوقت سوى ان يثبت رأيهم ويحكم بمـــا يشورون [٣] .

---

(١) يقول صاحب (اخبار الاعيان) وفيها اي في سنة ١٦٥٨) لما توفي الامير ملحم المعني وتولى عوضه ولداه الامير احمد والامير قرقماس صار الشيخ ابو نوفل « مدبرهما » كما كان عند والدهمـــا وسنة ١٦٥٩ – انعم ملك فرنسا على الشيخ ابي نوفل بقنصلية بيروت ووكالة قنصلية البندقية : صفحة ٨٦ ج ١ الطبعة الثانية من تاريخه .

(٢) راجع مفصل قوله ص ٣٢٣ من مجلة اوراق لبنانية السنة ١٩٥٦ .

(٣) لاحظ ص ٣٢٣ من مجلة اورواق لبنانية لسنة ١٩٥٦ .

ثم لاحظنا الظروف والأزمات السياسية والاقتصادية التي كانت تكتنف الدولة العثمانية سنة ١٦٩٧ – ١٦٩٩ يوم سعى الساعون لانتقال الحكم من الأمراء المعنيين الى الامراء الشهابيين اذ كانت قوى العثمانيين المادية والمعنوية منهارة من وطأة الحرب التي هزموا فيها امام قوى النمسا وحلفائها يوم اضطروا الى توقيع معاهدة (كارلو فتز) وكانوا بحاجة الى تأييد فرنسا وغيرها من مناهضي النمساويين وحلفائهم ثم بحاجة الى المحافظة على صداقة فرنسا والتغاضي عن كل ما يحاوله انصارها في لبنان مما لم يكن له بنظر ولاة الأتراك يومئذ أي شأن ، وخصوصاً عندما يرتشون ويمنون بالأماني المعسولة من قبل القناصل والامراء .

تحسب المعني وتحذيره

ثم لاحظنا ما جاء في ض ١٦٤ من تاريخ (الحركات في لبنان) من أن الامير أحمد المعني لما ناهز الثمانين من عمره وأحس بدنو الوفاة ولا عقب له ولا لأحد من أقربائه (في لبنان) ارتأى ان ينتخب حاكماً بحياته حسماً للنزاع بين الفئات المتباينة في الجبل ، فجمع وجوه البلاد وأبدى رأيه بإناطة أحكام البلاد بالامراء آل علم الدين زعماء اليمنيين فلم يرض بذلك القيسيون لشدة البغضاء والشحناء بينهم وبين اليمنيين (وطلبوا ان يكون أحد الامراء الشهابيين) ، فاعترض الامير على مطلبهم هذا وأنذرهم عاقبة تحكّم بني شهاب قائلاً لهم : ان هذا الجبل جبلاً للدروز فلا تجعلوه للنصارى باقامتكم بني شهاب حكاماً عليه [1] .

وهذا الكلام – اذا صحت الرواية – مما يصور لنا بجلاء ان الامير أحمد

(١) كل ما جاء من الكلمات بين هلالين هو زيادة من المؤلف لتوضيح ما غمض من النصوص ، ولتكميل ما نقص من العبائر او تفسير بعض الكلمات المجهولة لدى القراء .

المعني كان يشعر بما يدور حوله من مناورات على تغيير أسلوب الحكم في الشوف - أي تغيير الحاكمين لا الأنظمة وان نصيحته هذه لم تكن بلا سبب.

ثم لاحظنا ان الاحزاب اليمنية في لبنان كانت - بحكم الظروف والحوادث التي جرت في آخر أيام المعنيين (١١٠٤ و ١١٠٩ هـ) - أقوى شعبية وتأثيراً في الاوساط اللبنانية من الاحزاب القيسية وخاصة بعدما فرض الأمير أحمد المعني ضريبة (المسعدة) سنة ١٦٩٦ م والناس في ضيق شديد لمحل المواسم وغلاء الاسعار .

وعليه فلا يعقل - لما عرف من تضامن الدروز البليغ في نطاق الحزبية والطائفية - أن توافق الاحزاب اليمنية - اذا صح ان القيسية منهم وافقت - على ان ينقل الحكم من المعنيين الى الشهابيين وهم من غير طائفتهم ومن غير حزبهم ومن غير اقليمهم بدون ان يتذمروا او يعترضوا بصراحة وحزم .

اعتراض اليمنية

ثم لاحظنا ما جاء في (أخبار الاعيان) حيث يبدو اعتراض الاحزاب اليمنية على تولية الامير بشير الشهابي ثم هربهم الى الشام بعد توليته - واضحاً من قول المؤلف « واعرض اليمنيون (للسلطان) انهم لا يقبلون الامير بشير والياً . ثم عزل مصطفى باشا وتولى مكانه ارسلان باشا المطرجي فحضر له أمر من السلطان مصطفى جواباً عما كان قد أعرض عنه مصطفى باشا . مضمونه ان الامير حيدر الشهابي يكون والياً بعد الامراء المعنيين ويضع يده على متروكاتهم لأنه أحق بالارث لكونه ابن بنت الامير أحمد المعني ، وكان صدور هذا الامر بواسطة الامير حسين ابن الامير فخر الدين المعني الباقي (مع اولاده) من سلالة المعنيين في اسطنبول مضبوطاً . فلما ورد الامر السلطاني الى ارسلان باشا أرسله الى الامير بشير ، فأجابه ملتمساً ان يعرض للسلطان ان الامير حيدر هو ابن اثنتي عشرة سنة وان الامير بشير كفوء

للنيابة عنه . فأعرض وأتاه الجواب انالامير بشير يكون والياً بطريقالنيابة الى ان يكون الامير حيدر قد بلغ أشده فيتولاها ، ففر (إذ ذاك) الامراء اليمنية الى دمشق » .

أخبار الاعيان الطبعة الثانية ص ١٦

أثر العنعنات العائلية

ثم لاحظنا ان المعنيين – كما يتضح من النص السابق – لم ينقرضوا من الوجود بموت الامير احمد ، فقد كانت ذرية الامير فخر الدين المعني الكبير في اسطنبول تتمتع بأفضل المميزات الشخصية والثقافية والبيتية لذلك العهد مما يجعلنا نستبعد ان ينصرف الدروز اليمنيوناو القيسيون عنهم الى غيرهم بدون ضغط خارجي شديد على المعنيين أنفسهم او عليهم وعلى الدروز جميعاً ولا سيما حين يكون اولئك الامراء الجدد من غير طائفتهم ومن غير اقليمهم .

ثم لاحظنا ان ابناء البيوتات الاقطاعية كانوا يأنفون بطبيعتهم ان يستجيبوا او ان يذعنوا الا لحكم من يكون أعظم جاهاً وأوسع نفوذاً منهم كما يلاحظ بجلاء من سير التاريخ .

وان اضطرار محمود باشا ابو هرموش حين تولى الحكم على مقاطعات الشوف سنة ١٧٠٩ الى اشراك آل علم الدين في الحكم لدليل واضح على اثر هذه العنعنات وعلى احترام هذه التقاليد والاعتبارات لدى الحرص على تغيير الحكم او على توطيده وانسجامه مع طبيعة المحكومين وعاداتهم . كما يبدو من قول الشهابي .

« ثم قدم محمود باشا ابو هرموش بتلك العساكر (السلطانية) الوافرة الى دير القمر واستقر فيها والياً وحيث يعلم ان اكابر لبنان لم ترضخ لأمره طلب الامراء بيت علم الدين من بلاد الشام فحضروا اليه وجعلهم مشاركين له في الأحكام » . ص١٠ ج١ من طبعة بيروت

وعليه فان كثيراً من الأسر اللبنانية ، كآل علم الدين ، وآل ارسلان ، وآل عماد ، كانوا لا يرون الأمراء الشهابية في حاصبيا او راشيا – قبل ان تنتقل اليهم امارة لبنان – اعظم جاهاً وأوسع نفوذاً منهم يومئذ ، فكيف تغلبت تلك الأسر على عنعناتها وتنازلت عن تقاليدها واعتباراتها وأذعنت مختارة لحكم الأمير الجديد الذي اتي به من وادي التيم الى لبنان يوم كان وادي التيم تابعاً لولاية دمشق ، وكان جبل الشوف (او جبل الدروز) تابعاً لولاية صيدا ؟

انتخاب الحكام مناورة مصطنعة

ثم اذا لاحظنا بعد هذا كله : ان تولي الحكم او انتقاله في دروز لبنان انما كان بالوراثة او بالتعيين من قبل الولاة والسلاطين او بهما معاً ، اما الانتخاب للحاكم من قبـــل أهالي البلاد فلا نجد لهما اثراً في تاريخ امرائهم وحكامهم وخصوصاً تاريخ المعنيين والتنوخيين منذ ان حكموا في لبنان الى ان دالت دولتهم سنة ١٦٩٧ وأصبح القول بانتخاب الأمير والحاكم ذريعة للمناورات السياسية ولتغيير الحكم والحكام :

الوثائق والنصوص

ثم لاحظنا ما جاء في صفحة ١٠١ من كتاب (آثار فرنسا ومآثرها) في لبنان وسورية وتأملنا بهذا النص « وثقت فرنسا بولاء الموارنة فأنعمت على أحد مشايخهم ابي نوفل الخازن برتبة قنصل (سنة ١٦٦٢ – ١٦٧٩) يقيم في بيروت : ذلك تلبية للمرسلين اليسوعيين » .

وعلى اثر وفاته سمّت القنصل ابا قانصو فياض خلفاً له (سنة ١٦٧٩ – ١٦٩٦) ثم تولى القنصلية حفيده الشيخ حصن بن فياض (سنة ١٦٩٧ – ١٧٠٧) وقام بعده الشيخ نوفل بن حصن (١٧٠٨ – ١٧٥٣) السابق الذكر » .

ثم قرنّا هذا النص وقابلناه بما قد نشر في الجزء الثاني من كتاب هنري

غيز قنصل فرنسا العام في بيروت (سنة ١٨٠٣) عن الغاية من جعل مدبّر الامير أحمد المعني قنصلا لفرنسا في بيروت وعن الغرض من مساعي أمراء لبنان (مشايخ آل الخازن) وبطرك الموارنة لتغيير اسلوب الحكم ، وتدبّرنا فحوى ما جاء ص ٤٠ — ٤١ من قول المسيو غيز :

« ان هاتين الدولتين — فرنسا وتركيا — اتفقتا على مخالفة شرائعهما ونظمهما لتعيّنا أحد مشايخ آل الخازن قنصلا في بيروت [1] وقد لقبوه في باريس بالأمير » .

وقوله « وفي عام (١٦٦٢) عين أحد أفراد آل الخازن قنصلا لفرنسا في بيروت وكان القصد من هذا العطف أن يخول أحد الموارنة الاقوياء بعض السلطة ليعاضد اخوانه ويرعاهم » .

ثم قوله « ويظهر ان الموارنة ظلوا في قلق وخوف كما يتبين ذلك مما نشره (دي لا روك) من براءات ملكية ترجع الى عام ١٦٩٧ حول مساعي أمراء لبنان (قناصل فرنسا في لبنان) وبطريركه في تغيير أسلوب الحكم المجحف بحقوقهم » .

أصابع لويس الرابع عشر

ثم لاحظنا هذه الرسائل المتبادلة بين حكام فرنسا في باريس وسفيرها في القسطنطينية وقناصلها في سوريا ولبنان او اكتفينا منها بقراءة هذه الرسالة من ملك فرنسا الى سفيره في الاستانة :

---

(١) اذ لا يجوز في قانون كلا الدولتين ان يعين قنصل الدولة الا من رعاياها ، فتعيين مارونياً لبنانياً من رعايا الدولة العثمانية قنصلا لفرنسا في لبنان مخالف لقانون تركيا ولقانون فرنسا ، اذ كيف ترضى تركيا مختارة أن يكون أحد رعاياها رقيباً عليها وعميلا لدولة اجنبية ؟ وكيف تأتمن فرنسا رجلا أجنبياً عن بلادها على مصالحها وأسرارها في بلاد اجنبية ما لم تكن واثقة بوطامعة بتسخيره لكل ما تبتغيه من محاولات ؟

« الى السيد دي كاستنيار مستشار دواويني وسفيري غير العادي بالقسطنطينية :

ان السيد يوحنا مار ماكون الكافلير الماروني الموفـــد من قبل الاميرين نصيف وحصن (الخازن) ومن قبـل مطران نيقوسية رئيس الدين الكاثوليكي الروماني بغياب البطريرك اسطفانوس (الدويهي) قد رفع لي رسائل يسألون بها حمايتي من الضيق الملم بهم بعد أن السيد الاعظم (السلطان) ولـّى على بلادهم الامير أبا موسى علم الدين عوضاً عن الامير أحمد بن معن ويلتمسون ان يعطى أحدهم الامير حصن قنصلية بيروت ليتمكن من نشر العلم الافرنسي ونيل حقوق القنصلية والانعامات المختصة بقناصل الامة الفرنسية ويخمدون بذلك جذوة ما حاق بهم من الضيق ، ولما كان عزمي أن أساعد بكل وسعي على راحة جميع المستنيرين بالانجيل المقدس في أي قطر كانوا من العالم ، فأنا مرسل اليكم كتابي لأبلغكم ارادتي ومرغوبي ان تستوعبوا ما يشرحه لـكم معتمدهم المذكور لخير الدين الكاثوليكي ونفعه وان تبذلوا بعد العناية باسمي لتنولوه كل ما يبتغيه من الامور المعقولة ، وأخـــيراً أسأله تعالى ان يحفظكم بحراسته المقدسة ايها السيد دي كاستنيار .

« كتب في فرسايل في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧ والتوقيع (لويس) وفي أسفل الصفحة « كولبر » .

ثم هذه الرسالة من الوزير وكاتب سر المملكة المركيز دي تورسي ، وقد كتبها بأمر الملك الى قناصل فرنسا بحلب وصيدا وطرابلس ، وفحواها — على ما يقول المترجم — ان جلالة الملك أمره أن يكتب اليهم مبيناً رغبة جلالته بمساعدة الامير نصيف وحصن الخازن ومطران نيقوسية نائب البطريرك بغيابه وان يبذلوا بكل فرصة عنايتهم الفعـــالة بالمذكورين ليشعروا بمفاعيل حماية جلالته . وانه جعل الأمير حصناً قنصلاً ببيروت منفصلة عن صيدا » .

راجع هذه الرسائل مع رسائل آل الخازن والبطريرك في جريدة (النهار) البيروتية تاريخ ١١ حزيران سنة ١٩٦١ ص ٥ عدد ٨٧٢١ .

ما عسى أن تدل عليه هذه الكلمات والعبائر: (المساعدة على راحة جميع المستنيرين بالانجيل المقدس) وما معنى (حمـــاية جلالته) وما الغاية من التأكيد على عناية قناصله بحصن وناصيف الخازن (ليشعروا بمفاعيل حمايته)؟

فلو ان هذه الكلمات والجمل كانت صادرة عن رئيس روحي كالبطريرك مثلاً لكان لها شأنهـــا الديني ومعناها الانساني الخالص من شوائب التلبيس والتمويه السياسي ، أما وهي صادرة من دواوين ملك كان منغمساً في اللهو والترف الى اذنيه كما يبدو من تاريخ فرسايل وتاريخ مقصوراته الخاصة ، من ملك بلغ به الطموح لتوسيع ملكه ومدّ سلطانه الى حد التهور كما يشهـــد بذلك ما آلت اليه حالة الخزينة والجيش الافرنسي من الاضمحلال رالتدهور في عهده . أما وهي صادرة من دواوين الملك لويس الرابع عشر ، فلا بد لنا من ان نفسرها بتفسير سياسي محض ولا بد لنا من أن نعتبر هذه الغيرة الدينية من مثـــله انما كانت ستاراً لما وراءها من أغراض سياسية وخطط استعمارية مدروسة ... وخصوصاً عندما نلاحظ ان موضوع الرسائل التي ارسلت اليه كان سياسياً محضاً وهو التشكي من تعيين حاكم على لبنان لا يرضى عنه زعماء الموارنة او قناصل فرنسا في لبنان .. ثم عندما نلاحظ ما جاء في النصوص المتقدمة من « ان فرنسا لم تخالف شرائعها وانضمتها وتنعم برتبـــة القنصلية على زعماء الموارنة الا لانها وثقت من ولاء الموارنة » .

ثم نلاحظ بعد ذلك كيف قامت قيامة زعماء فرنسا في مجلس الأعيان لأن دول اوروبا شاركت فرنسا في حماية مسيحيي لبنان وسورية ؟ على ما يتضح لك من خطاب الكونت دي مونتا لامبر سنة ١٨٤٥ وقوله « .. ان ما تقدم بسطه يدفعني الى ابداء التأسف على التبديل الذي حدث في سياستنا العامة في الشرق ... وقوامه الاستيعاض عن عمل فرنسا الانفرادي واستقلاله في التدخل في الشؤون الشرقية بعمل انضمت اليها فيه اربع دول معادية .

ثلاثة منها معاديـــة طبعاً للديانة الكاثوليكية في الشرق وفي مقدمتها الروسية لأنه ينتمي اليها ابناء مذهب معادون لأمة نحميها ، ثم تليها انكلترة وبروسيا ولهما دواع ظاهرة خاصة لعدم عضدهما الكاثوليك الشرقيين ، وازاء هـــذه الدول الثلاث يوجد دولة رابعة كاثوليكية مثلنا هي النمسا تتوق من صميم قلبها الى اخذ مركزنا وهذه الرغبة لا يسعنا لومها عليها لكننا على ما اری قد اسأنا عملا اذ شجعناها بقبولنا ان تقاسمنا امتيازاتنا وحقنا الخاص في تلك النواحي وقد ايدته العصور المتوالية ، واني لأخشى ان نكون قـــد استأصلنا بيدنا اعمق وشائج نفوذنا في الشرق ... من جراء الضعف الذي يصيب كل عمل كانت تنفرد به دولة واحدة ثم اشتركت به خمس دول ..

واضيف الى ما تقدم ان سردينيا ويعني (ايطاليا) جعلت ذاتها في مصاف الدول الحامية وهي مصيبة لانها وان لم يكن لها عداد بين دول الغرب العظمى فهي كاثوليكية ولها قوة بحرية معتبرة وتجارة كبيرة مع الشرق فهي تعمـــل ما يلائم مصلحتها . امـــا نحن فهل احسنا صنعاً باحيائنا في خاطر الدول فكرة اخذ مركزنا ؟؟ » .

المحررات السياسية : م ١ ص ١٩٧ – ١٩٨

ثم على ما يبدو لك من رد وزير خارجية فرنسا على ذلك الخطاب وقوله «ياحضرات الاعيانلم انهض لاعارض ما قاله حضرة الخطيب المكرم او لالومه على الفاته نظر الندوة الى هذه المسألة فاني آسف مثله ... ولكننا (منـــذ سنة ١٨٤١) كنا في موقف غير مناسب للانتصار لمسيحي سورية ولبنان فقد كنا اهملناهم حديثاً في مقاومتهم باشا مصر (ابراهيم باشا) وقد عضدنا الباشا ليس فقط ضد الباب العالي (الوزارة العثمانية) بل ايضاً ضد موارنة سوريا ولبنان الناهضين عليه مما اضعف موقفنا اخيراً في الاستانة » .

المحررات السياسية ج ١ ص ١٩٩ – ٢٠٣

انه اذا لاحظنا جميع هذه الاعتبارات والمحاولات ولاحظنا ما أظهرته فرنسا بين سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٦١ من الحرص على اعادة النظام الاقطاعي القديم ، وارجاع الاسرة الشهابية لحكم لبنان صوناً لنفوذ فرنسا في الشرق على ما يؤكده قول المسيو دي ملفيل في مجلس الاعيان الفرنسي سنة ١٨٤٦ « بيد ان الامر الثابت الاكيد المؤيد بالمحررات الرسمية العديدة .. هو ان انكلترة واصلت جهدها منذ خمس سنوات لمنع اعادة الحكم الى الامير بشير شهاب واسرته مهما كلفها ذلك ، ولماذا ذلك ؟ - وغير خاف على احد - لان اعادة امارة لبنان المسيحية الى ما كانت عليه ينجم عنها بسط النفوذ الفرنسي وهذا ما تأباه انكلترا .

اما المسألة الوحيدة التي تشغل بالي ونرغب جميعاً في الحصول على مزيد ايضاح بشأنها من الحكومة هي معرفة كيف لم يظهر شيء من مساعيها في مدى الخمس السنوات المذكورة لبلوغ الغرض المقصود في حين كان يجب على جميع الرجال العقلاء ان يجعلوا مرمى غايتها اعادة امارة الجبل المسيحية الى ما كانت عليه من الاستقلال بالحكم . وكانت الندوة قد اعربت بكل جلاء عن نيتها ورغبتها الشديدة بهذا الشأن [1] ».

انه اذا لاحظنا هذه الاعتبارات والمحاولات والنصوص .. بدا لنا من خلالها ان انتقال امارة لبنان من المعنيين الى الشهابيين لم يكن انتقالا طبيعياً وانما كان انتقالا مصطنعاً كي لا تظل سياسة لبنان سياسة درزية عثمانية كسياسة الامراء اليمنيين يومئذ يصعب معها تحويرها وتكييف اوضاع لبنان العربية حسب تصاميم الافرنسيين او حسب الأغراض والخطط الاستعمارية .. ولم يكن من سبيل الى مثل هذا التحوير والتبديل - آن ذلك - الا بان ينقل

---

(١) المحررات السياسية ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

حكم لبنان الى امراء مسلمين بظاهرهم يطمأن الى سهولة تكييفهم وتطورهم حسب ما توحي به الاغراض والمطامع ومناهج رسل فرنسا في بلاد الشام .

وكان مـــن المتوقع المفروض ان يؤدي هذا الانتقال – المخالف لما كانت عليه حالة الاهالي وتقاليدهم الموروثة – الى فوضى عامة واضطراب شامـل مخيف لا في جبل عامل فحسب بل في سائر المناطق التابعة لايالة صيدا وبخاصة ما كان منها تحت سيطرة الاحزاب اليمنية .

ثم كان من الطبيعي ان يبادر الولاة المسؤولون عن اضطراب الاوضاع وتمادي الفوضى الى اتخاذ الاجراءات المتبعة لحفظ الامن واستتبات النظام والى اصطناع الخطط المفرضة للتنكيل بحزب دون حزب وللاقتصاص من طائفة دون طائفة وللضغط على اقليم دون اقليم بما يهيء لأصحاب المآرب والغايات ان يتخذوا من هذه الاحوال والاجراءات والخطط وسيلة لتكبير شأن الامير الجديد وشأن حملته على بلاد بشارة ، وذلك بما يقدرون لمشرف ابن علي الصغير من اخطاء جسيمة ، وبمـــا يفترضون للقبض عليه من اهوال بالغة الخطورة لا تدرك او تتصور على ما يبتغون لها من اثر ، الا بحشد ثمانية آلاف مقاتل من رجال الامير واصطفافهم لخوض معركة حاسمة ينكسر فيها رجال مشرف ويهلك منهم خلق كثير ويقبض عليه وعلى اخيه ، كل هـــذا كان أو افترض بعضــــه وبولغ في تكبير البعض الآخر لا لاخضاع مشرف فقط ... بل ليرجع الامير بشير الى دير القمر معتزاً ؟؟ ويصير له اسم عظيم عند الدولة ؟ ويعتبر الدروز بما جرى لغيرهم .. ذلك بأن السبيل الى تغيير (اسلوب الحكم) او الى تعبيد الطريق (لبسط نفوذ فرنسا في الشرق) لا يستقيم مع الزمن اذا لم يصبح خليفة الامراء المعنيين عظيماً عند الدولة وعزيزاً مهاباً بين جميع طوائف لبنان .

التاريخ لا يهمه سوى الحقيقة

قرأت للسيد علي وزني ص ٤٠٩ من العرفان م ٥١ ما يشبه الرد على ما قلته وكتبته عن مزرعة مشرف [١] وأول ما نبهني الى ذلك قوله .

يا شيخنا المفضال من ندعو له ليكثّر الرحمان من أمثاله
لا تبخس التاريخ جوهر مجده وسموه بالفخر في ابطاله
آثار مشرف لا تزال عظيمة ودياره تنبيك عن آثاره
في موقع الساحات ساحات الوغى ويلوح في (الميدان) رسم قتاله

فرأيت من واجبي أن أشكر عاطفته واهتمامه بتاريخ بلاده وأن ألفت نظره ونظر القراء الى انني حين أبحث وأكتب في التاريخ لا أحاول سوى البحث عن الحقيقة فخراً كانت أو عاراً أم طوارىء عادية ملغياً من حسابي كل اعتبار يثير العواطف او يكبتها .

لهذا كنت أتمنى عليه - قبل ان يجهد فكره وقلمه وبندفع في تحديد موقع (مزرعة مشرف) الجغرافي ليدلنا بذلك على مدى تقديره للواقع - أن يقوم بجولة استطلاعية في أراضي المزرعة وفيما حولها من القرى التي تحيط بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ليعرف أن أراضي (كفرة) وأحراشها هي

---

(١) العرفان م ٥١ ص ٥٧

أمتّ صلة بالمزرعة من جهة الشرق من أراضي قريتي حاريص وتبنين الواقعتين شرقي كفرة وشمالها، وان مرج الصفراء في جنوبها الغربي متصل بوادي عاشور في جنوبها الشرقي بل ان هـذا المرج يكاد ان يكون تتمة لوادي عاشور .. ثم ليتأكد من أن ممر وادي عاشور هذا هو ممر داخلي يمتـد شرقاً من شمال حاريص وينتهي غرباً (بمرج الصفراء) بين قانا والمزرعة لا علاقة له بفلسطين ولبنان القديم ليقول « بأن طريقه كان يربط بين لبنان وفلسطين .

ثم كنت أتمنى لو انه – عند تعرضه لذكر (ساحات الوغى) في المزرعة – حدد مسافة كل منها طولاً وعرضاً وأوضح مدى انبساطه وانحداره او مدى بعده وقربه من جدران المزرعة . وإلا فإن قوله (بأن موقع الساحات يتسع لآلاف عديدة من الرجال « لا يقنع أحداً بأنه يصلح لأن يصطف به ثمانية آلاف مقاتل من الفرسان والرجالة لمحاربه من يقابلهم في المزرعة من العامليين » مع الاحتفاظ بحلبة واسعة المدى بين الفريقين تصلح لتجاول الفرسان وتجاوب القربينات .. ولعله يشعر معي بأن ساحات بلدية صور الحالية (مثلاً) تتسع لآلاف عديدة من الرجال ومع ذلك فهي لا تصلح لأن تكون مجـالاً للحرب بين ثمانية آلاف مقاتل وبين من يقابلهم من أخصامهم على ما كانت تقتضيـه تقاليد الحرب وشروطها يومئذ .

وما يقال عن موقع (الساحات في المزرعة – من حيث سعة أرضهـا او ضيقها ومن حيث انبساطها وانحدارها ومن حيث بعدها وقربها من المزرعـة وصلاحيتها لاصطفاف ثمانية آلاف مقاتل حولها – يقـال عن الارض المسماة بالميدان . فليس كل ما يسمى ميداناً صالحاً لأن يكون ميداناً حقيقة وواقعاً؟ إذ قد يكون الاسم على خلاف المسمى . وان ما يصلح لأن يكون ميـداناً لعشرة او عشرين خيـالاً قد لا يصلح لأن يكون ميداناً لأكثر من ذلك وخصوصاً عندما يتجاوز عدد الخيل الى المئات والآلاف .

ثم لا يغيب عن باله ان كل بلدة سكنها الاقطاعيون كان يوجد بها مكان

لترويض الخيل او للتمرن على تقاليد الفروسية . وانه لا يزال في النبطية مكان يسمى بالميـــدان كان معداً لمثل تلك الغـاية ، ومع ذلك نلاحظ ان جميع المعارك التاريخية التي وقعت في النبطية كانت بعيدة عن الارض المسماة بالميدان لأن الميدان لعدد قليل من الخيل يختلف مداه ومجاله عن الميدان للمئات والآلاف من الفرسان كأولئك الذين أحاطوا بالمزرعة يوم غارة الأمير بشير الشهابي الأول عليها سنة ١١٠٩ هـ على ما توحي به رواية صاحب أخبار الاعيان او تزعمـه عن المعركة التي انكسر بها رجال مشرف .

على انني لم أزعم « ان المزرعة بما حولها من عرَصات لا تتسع لاصطفاف ثمانية آلاف مقاتل لمحاربة من يقابلهم من العامليين » لم أزعم هذا إلا بعد أن رأيت المؤرخ الذي نشأ بجوار المزرعة وبالغ في تعظيم شأنها حتى جعلها مدينة وحاضرة وعاصمة ؟ رأيته يذهب الى ان مرج الصفراء هو المـيـــدان الوحيد المؤهل في القرية لتجاول الخيل .. إذ يقول ما نصه: « فالقرية محصنة بحصن طبيعي من ناحية وادي عاشور وأما بقية النواحي فانها لا يسهل فيها طراد الخيل ومصارعة الفرسان . لذلك تنحصر مواجهة العدو فيها من وجه واحد (مرج الصفراء) المبتعد قليلاً عن القرية المنخفض عنها » .

جبل عامل في التاريخ ص ٦٤

ثم ان هذا المرج على ما لاحظت – أثناء مروري به – بعيد بموقعه عن المزرعة وينخفض عنها انخفاضاً سحيقاً ، ولعله أقرب الى (قانا) وأولى بأن يكون تابعاً لها من أن يكون تابعاً للمزرعة ، ثم ان سهـــله لا يعد شيئاً إذا قيس بغيره من المروج العاملية كمرج قدس ومرج الميذنة ومرج الخيام ، وإن قيـــل عنه « انه فسيح متسع الجوانب [1] فذلك بالنسبـــة لمضايق وادي عاشور وخنادقه » .

أما أن يزعم بأنه لا يزال في أطلال دار مشرف (جدران ضخمة ورمّايات)

(١) جبل عامل في التاريخ ص ٦٤

فهذا ما يتنافى مع الشائع لدى غيره ممن شاهدوا المزرعة وعرفوا أطلالها وهم كثر. ثم لو ان دار مشرف كانت محصنة بالجدران الضخمة والرمايات لتحصن بها مشرف ورجاله مدة من الزمن قبل ان يستسلم يوم دهمه الامير بشير شهاب برجاله وقبض عليه بأسرع ما يقبض على ساكني الكوخ.. ثم لسماها المؤرخون قلعة او حصناً ولم يعبروا عنها تارة بالمزرعة وتارة بالمزيرعة وتارة بالمزريعة وتارة بدار مشرف. مع ان قلعةدوبيه وهي في تكوينها وحجمها أشبه بالدار منها بالقلعة سماها المؤرخون قلعة لوجود بعض الرمايات في جدرانها.

ثم أرجو أن يعلم السيد وزني وغيره من هواة التاريخ والآثار انني لم أكتب عن أحوال المزرعة في هذه الايام حيث يبلغ عدد سكانها – على حد قوله – خمسماية نفس وانما كتبت ما كتبته عن المزرعة في أول انشائها او ترميمها منذ ٢٧٥ سنة يوم لم يكن في السهول الساحلية أي قرية عامرة بسكانها حتى مدينة صور.

وأن يعلم كذلك انني لا أجهل الصخرتين الرخاميتين المحتفظ بها آل سليمان في مزرعة البياض وقد رأيتها أمام بيت المرحوم الشيخ حسين سليمان يوم زرته في المزرعة ولفت نظري اليها ابن أخيه العلامة الشيخ ابراهيم سليمان ولم أجد فيها من جمال الخط والنقش الذي شاهدته على بقايا قبور آل الصغير في قرية شحور بل رأيت ان ذلك الخط والنقش يكاد ان يكون عادياً أو أقل من العادي ولذا لم اهتم لمحتواه اذ لم يكن لي يومئذ أي اهتمام بغير الجمال الفني والمناظر الطبيعية، وأما حجم الصخرتين فأحسب أن عرض كل منهما لا يتجاوز ١٨ سانتي كما أن الطول قد لا يبلغ الذراع في كل منهما.

كما اني ألفت نظره – اذا كان ممن يحرصون على جوهر مجد التاريخ الذي يحيط بمزرعة مشرف – الى ان يقرأ هذه الكلمة التي ألحت بمحتواها على الرحالة ربنصن أن يقول ما نصه :

« سمعنا برسوم منقوشة في الصخور على احدى الطرق المؤديـة الى صور ، بالقرب من حناويه القريبة من قانا ، رسم ثلاثـة رجال منحوتة على لوحة في جبهة الصخر ، الرسم الذي في الوسط يمثل رجلاً جالساً على كرسي وهو أعلى من الرسمين الآخرين ، ولكن العوامل الجوية أضرت كثيراً بهذه الرسوم .

وفي قرية مزرعة الواقعة في شمال وادي عاشور على مسافة ساعة من قانا مغارة يدخل اليها من باب صغير ، تضم رسوماً تشبه تلك التي ذكرت أعلاه ، رؤوسها مغطاة بقبعة (قلنسوة) مخروطيـة لم تتعرض لعاديات الجو لوجودها داخل المغارة ، فظلت على رونقها . لم يتح لنا زيارتها ولكنها تستحق اهتمام السياح في المستقبل[1] .

(١) لاحظ رحلة ربنصون ج ١ ص ١٦٧ تعريب ادوار البستاني طبع بيروت سنة ١٩٤٠

المتسلم ابو هرموش قبل معركة النبطية وبعدها

مما لا شك فيه أن الشيخ محمود أبا هرموش كان متسلما حكم بلاد بشارة في عهد الشهابيين الأول في لبنان ولكن مدار الشك هو التاريخ الذي ابتدأت به متسلمية أبي هرموش ومدى الزمن الذي حكمه في بلاد بشارة ونوع الحكم الذي أجراه وطبقه . إذ لا يدرى أتسلم أبو هرموش حكم بلاد بشارة من قبل الأمير بشير الأول يوم غزاها وقبض على الشيخ مشرف سنة ١١١٠ هـ كما ينص على ذلك صاحب الغرر الحسان ص ٧٤٩ من طبعة مصر ونسخة اليازجي. ثم يؤكده صاحب خطط الشام بنقل النص بحرفيته ص ٢٨٦ م ٢

أم أن الذي تسلم بلاد بشارة يومئذ غير ابي هرموش من اللبنانيين ؟ فإن مؤلف أخبار الأعيان – إذ يروي خبر هذه الحادثة [١] يهمل الإشارة إلى الذي تسلم بلاد بشارة من قبل الأمير بشير بعد القبض على مشرف . وكذلك صاحب الغرر الحسان في طبعة بيروت ونسخة اليسوعية فإنه يهمل خبر أبي هرموش في عهد بشير الأول ... ثم يصرح ص ٨ بأن الأمير حيدر شهاب الأول عين أبا هرموش متسلماً من قبله على بلاد بشارة عندما غزاها كما يتضح من قوله .

« في السنة التي تولى فيها الأمير حيدر انعزل أرسلان باشا عن صيدا وقدم إليها بشير باشا والياً عليها فأفرد ولاية صفد ومقاطعات جبل عامل عـــن

---

(١) أخبار الأعيان طبعة بيروت ص ١٧ م ٢

الإلحاق بولاية جبل الشوف. فولـّى عليها صفد وديارها وعكا وديارها ظاهر بن عمر بن أبي زيدان المقدم ذكره . وولى من قبله بني منكر على مقاطعة إقليمي الشومر والتفاح وبني صعب على مقاطعة الشقيف . وكان مشرف بن علي الصغير قد أطلقه أرسلان باشا بعد اعتقاله كما مر . ولما حضر بشير باشا المذكور توجه إلى صيدا فارتمى لديه وتوسل فولاه مقاطعة بلاد بشارة ولم يبقى تحت ولاية الأمير حيدر سوى جبل الشوف وتوابعه » .

وقعة النبطية باكورة أعمال الامير حيدر ؟

ولما تولى بنو علي الصغير على مقاطعاتهم المذكورة أظهروا ما عندهم من البغضة للأمير حيدر وجعلوا يخرقون (يتعدون) في بعض أطراف بلاده زعماً منهم بأنهم (يثأرون) بما فعله الامير بشير بهم ، وانضم اليهم المناكرة والصعبية - لما بينهم من الاتحاد بالتشيع والتعصب لليمنية ! وبقي ضاهر العمر منفرداً عنهم واداً للأمير حيدر لكونه سنياً قيسياً ! ولما ظهرت الوحشة والنفرة بين الامير والشيعة المذكورين كتب لبشير باشا والي صيدا يلتمس منه ولاية بلاد بشارة واستماله اليه بالهدايا فأجابه لذلك وفوض له ولاية تلك الديار ولما تولاها نهض من دير القمر وجمع جموعه وسار اليها سنة ١١١٨ هـ للاستيلاء عليها ولقتال الشيعة المذكورين ، فبلغ قرية النبطية من قرى تلك الديار وقد اجتمع فيها بنو علي الصغير برجالهم ومعهم باقي المناكرة والصعبية وساير الاحزاب الشيعية وهم جمع غفير ، ولما بلغهم قدومه اليهم نهضوا لقتاله نهضة واحدة فالتقى بهم خارج القرية المذكورة وهناك اصطف الفريقان للقتال .

ولما وقعت العين على العين وهاج كل من الفريقين نادى الامير حيدر برجاله وغلمانه وحمل على القوم في خلال ذلك اليوم وصدم جموع الشيعية فأخرقها وبادر صفوفهم فمزقها ، ولم تكن ساعة من الزمان حتى انكسرت جيوش الشيعية المتاولة وانفضوا بعزائم عاطلة وأدبروا نافرين فتبعهم رجال الامير حيدر وقد أوسعوا فيهم القتل والسلب حتى أهلكوا منهم خلقاً كثيراً ودخل

منهم جماعة الى القرية المذكورة وتحصنوا فيها ففار عليهم الامير حيدر بفرسانه فظفر فيهم واهلكهم جميعهم ، وانجلى بنو علي الصغير عن بلاد بشارة ونفروا منها بأثواب الذل والخسارة واستولى الامير حيدر على الديار المذكورة ووضع الشيخ محمود بو هرموش أحد شيوخ جبل الشوف نائباً فيها من قبله وأمره بجباية المال المرتب عليها .

الملاحظات التاريخية

- ١ -

من المشهور لدى العامليين ان الشيخ مشرف بن علي الصغير قد توفي في سجن صيدا سنة ١١١٤ هـ كما يتضح من رواية الشيخ علي سبيتي في العرفان م ٥ ص ٢١ وأين هذا التاريخ من تاريخ وقعة النبطية سواء أكان سنة ١١١٨ كما يصر صاحب الغرر الحسان في نسخة اليسوعية أم سنة ١١٢٠ كما يصر عليه أيضاً في نسخة اليازجي وطبعة مصر ثم تؤكده رواية العامليين ص ٦٥٨ من العرفان م ٨ ثم رواية صاحب الخطط إذ يهملون جميعاً خبر مشرف في هذه الواقعة .

- ٢ -

ثم يلاحظ ان المتاولة كانوا لما توفر بينهم من العلماء والادباء يومئذ .. أكثر وعياً ومحافظة على الشيم والتقاليد العربية من أي طائفة في لبنان .. فلا يعقل ان يكونوا قد ابتدأوا الامير حيدر بالعدوان وهو الذي قضى على خصمهم الامير بشير وأزال خطره عنهم واحتل مكانه [1] مع ان طبيعة هذا العمل تقضي عليهم أن يتقربوا للأمير حيدر وأن يؤازروه ويحترموا جواره لا أن يجافوه ويثأروا -بتعديهم عليه- لما لاقوه من جور سلفه وخصمه وعليه فلا بد أن يكون غزو الامير حيدر للنبطية جرياً على خطة رسمت للشهابيين في الخفاء

(١) راجع ص ٧ من تاريخ الامير حيدر أحمد طبع بيروت سنة ١٩٣٣

يستشفها الباحث من تاريخ سلفه الامير بشير الاول سنة ١١١٠ وتاريخ خلفه الامير ملحم سنة ١١٤٤ ثم خلفه الامير يوسف شهاب سنة ١١٨٥ يوم جعل كل منهم باكورة أعماله في حكم الشوف غزو بلاد المتاولة ونهبها .

- ٣ -

ثم إذا لاحظنا تاريخ وقعة النبطية هذه يبدو للجميع أن ضاهر العمر لم يكن ذا خطر على من حوله يومئذ ثم لم يكن قد تخاصم بعد أو تحالف مع العاملين.. ليصح القول بأنه « بقي منفرداً عن المتاولة واداً للأمير حيدر لكونه سنياً قيسياً » ، ثم لو ان الامير حيدر هاجم بلاده كما هاجم بلاد المتاولة لما انفرد عن المتاولة في مقاومته . كما أن مشايخ المناكرة والصعبية وآل الصغير لم يتحدوا ضد الامير حيدر لتشيعهم وتعصبهم لليمنية كما يزعم المؤلفون وانما -أحسبهم- اتحدوا ليتقوا خطر الامير وهجومه الاعتباطي على بلادهم .

لذلك لا أتورع عن الشك بغرض المؤلفين او النساخ او الناشرين من إقحام هذه العبائر النابية في هذه النسخة وخصوصاً عندما نرى حرصهم على نشر الأهاجي المنفرة بين الشيعة والدروز ص ١٥٢ - ١٥٥ من تاريخ الشهابي طبع بيروت سنة ١٩٣٣ .

الخلاف بين ابي هرموش والامير حيدر

« في سنة ١١٢١ هـ بلغ الامير حيدر ان الشيخ محمود ابو هرموش اجرى ظلماً في بلاد بشارة واخذ مالاً زايداً عن المرتب وان ذلك باق عنده ولم يدفعه جميعه له فاخذه عليه الغيظ وارتاب منه فطلبه اليه ليحاسبه على ما جمعه في مدته من تلك البلاد ويختبر جلية ما نقل اليه ففرّ عند الطلب من بلاد بشارة الى مدينة صيدا ودخل على واليها بشير باشا وارتمى لديه بان يحميه من الامير حيدر وكان للوزير المذكور ميل ومحبة لنحو الشيخ محمود لسبب انه كان يخدمه كثيرا ويتعاهده بالهدايا مدة اقامته في بلاد بشاره وله عنده العهد الوثيق فترحب به وطمنه على نفسه ووعده بالحماية .

ثم التمس منه الشيخ محمود ولاية جبل الشوف وان يستمد له مواهب الدولة العلية بالباشوية فاجابه لذلك وكتب بشأنه لساحة الدولة العثمانية السامية والتمس له الباشوية فأجيب التماسه وقررت على الشيخ محمود رتبة باشا ذي طوخين – والطوخ هو كالعلم – واطلق عليه اسم باشا ثم ولاه بشير باشا مقاطعات جبل الشوف وما يتبعه .

ما يلاحظه الباحثون

– ١ –

وملاحظتنا على مضمون هذا النص أنه لا يعقل ان يكون الامير حيدر قد التمس من بشير باشا ولاية بلاد بشارة ، وان يكون الباشا قد اجابه على هذا الألتماس ، ثم تكون النتيجة بعد ذلك ان يمنع الامير من محاسبة وكيله (ابو هرموش (في بلاد بشارة على سوء أمانته وظلمه ؛ ثم ان يقوّي هـذا الوكيل عليه ؟ ثم يضعه مكانه في حكم الشوف ؛ ثم يطلب له الباشوية كما يتضح من سياق الروايات المتقدمة .

– ٢ –

ثم انه لو كانت الرشوة هي السبب الأول في رفع ابي هرموش الى مكان الباشوية وحكم جبل الشوف .. لكان الأمير حيدر أقوى على تقديم الرشوة والخدمات من وكيله أبي هرموش ولما تيسر لأبي هرموش شيء من أمانيه .

– ٣ –

وعليه .. فما يدرينا بأن يكون سياسة الأتراك الذين وافقوا بفعل الرشوة على نقل الحكم في الشوف مـن الأمراء المعنيين إلى الأمراء الشهابيين كما أوضحنا فيما سلف – قد شعروا – بدون رشوة – بما قد ارتكبوه في ذلك العمل من خطأ وخطر على سياستهم وسيادتهم في لبنان فأرادوا أن يتلافوا خطأهم بهـذه المبالغة في تأييد أبي هرموش وفي إسناد الباشوية إليه على غير عادتهم مع حكام لبنان قبله أو بعده ليجعلوا من باشويته وسيلة لتصحيح خطئهم ونقل الحكم من يد الشهابيين إلى اخصامهم كما يستفاد من رواية صاحب الغرر ص ٧٥١ من طبعة مصر ونسخة اليازجي ومن قول صاحب خطط الشام .

(في سنة ١١١٩ هـ توفي الأمير بشير الشهابي وخلفه الأمير حيدر الشهابي فركب في السنة التالية لغزو بلاد المتاولة لأن المشايخ بني علي الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الأمير بشير بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الأمير حيدر حكم بلاد الشوف وكسروان فنزل الأمير حيدر برجال بلاده وتجمعت المتاولة في قرية النبطية فأوقع بهم هناك وظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجع الى بلاده فعظم ذلك على بشير باشا فأرسل يقوي الامراء اليمنيين في الغرب والجرد من بني علم الدين وغيرهم » . (الخطط ج ٢ ص ٢٨٧).

-٤-

ويبدو من استعظام بشير باشا لغزو الامير حيدر بلاد بشارة بعد أن فصلت عن حكم الشوف وسلمت لحكام المتاولة . ومن تقويته للأمراء اليمنية ما يدل دلالة صريحة على أن غزو الامير حيدر لبلاد بشارة كان بدون رضا الباشا . كما يدل على أن السبب الاول لرفع يد الامير حيدر عن حكم الشوف وتعيين أبي هرموش محله هو غير الرشوة وغير الهدايا .

-٥-

ثم إذا صحّ أن أبا هرموش قد تسلم بلاد بشارة على يد الامير حيدر ١١٢٠هـ ثم نال الباشوية بالرشوة وما أشبهها من الهدايا النفيسة سنة ١١٢١ . فليس من المعقول أن يثرى متسلم من مقاطعة بلاد بشارة بهذه المدة الوجيزة – وبعد حرب ضروس أنهكت قوى العامليين الاقتصادية – ثراء يستطيل به على أخصامه ويسهل له السيطرة على أفكار الولاة ، ثم يغريه بطلب الباشوية يوم لم يكن يجرؤ على طلبها أي حاكم وأي أمير في لبنان ! .

بل لا بد مع هذا التقدير والفرض من مدة طويلة تيسر له نمو الثروة وظهور الشخصية . وذلك لا يتسق ولا يتحقق إلا بأن يكون أبو هرموش

قد تسلم بلاد بشارة من الامير بشير شهاب سنة١١١٠ هـ وظل فيها متسلماً إلى أن نزعها والي صيدا منه وردها لآل الصغير سنة ١١١٩هـ ثم بقيت بيدهم إلى أن غزاها الامير حيدر سنة ١١٢٠ وردها لحكم أبي هرموش . كما يستفاد من رواية صاحب الغرر الحسان ص ٧٥١ من طبعة مصر ونسخة اليازجي . ثم رواية صاحب خطط الشام ص ٢٨٧ م ٢ ثم رواية الأستاذ ظاهر ص ٦٥٨ من العرفان م ٨ - إذ ينقل عن بعض المؤرخين العامليين ما يوافق رواية صاحب الخطط في تحديد تاريخ تلك الحوادث وعلى كل فان الاطمئنان لاي افتراض من هذه الافتراضات لا يزال بحاجة الى ما يبرره ويوضح سبله .

من الحوادث العاملية

هناك من الحوادث والأخبار ما اختلفت مصادرها وتمادى الرواة في تكبيرها او تصغيرها كل حسب هواه وعنعناته الحزبية والطائفية والعائلية حتى التبست تلك الحوادث بحقائقها وصورها وتناءت بمنطقها عن منطق الواقع الطبيعي او منطق التاريخ العلمي . وهي مع هذا كله لا تزال محسوبة من التاريخ ومحمولة عليه .

وهناك أخبار وحوادث رويت مبتورة بدون توضيح لصورها أو تفصيل لوقائعها أو تحديد لأسبابها وأهدافها أو إشارة لما ترتب عليها من نتائج. وجل ما فيها أنها حدثت في أرض عاملية أو نسبت إلى العامليين .

فكان لزاماً علينا تجاه ما نراه من النوع الأول أن نتبسط في تحقيق نصوصه ونوازن بينها ونوضح بقدر الإمكان ما التبس من أمرها توضيحاً يبرر اجتهادنا أو يكفينا مغبة التقصير بواجب التاريخ كعلم يخضع لمنطق العقل ويبحث عن الحقيقة من حيث هي بقطع النظر عما يترتب على بيانها من نتائج حسنة أو سيئة .

وأما ما نصادفه من النوع الثاني . فلا بد لنا من أن نكتفي بنقل نصوصه على علاتها حسب ما وصلت إلينا دون أي ملاحظة أو شرح أو تعليل إلى أن يتاح لنا أو لغيرنا من الوثائق والنصوص ما يساعد على وصلها بعللها وأسبابها .

ويوسع المجال للبحث والمقارنة والتمحيص ثم قد نكتفي بالنقل عن مصدر واحد بالنسبة لما اتفقت المصادر المختلفة على شكله ومضمونه أو على مضمونه فحسب . مع المحافظة على ترتيب الحوادث والأخبار حسب السنين الهجرية

بلاد بشارة في حكم الأمير قاسم شهاب سنة ١١٢٤ هـ

« وفي هذه السنة حكم الأمير قاسم شهاب حاكم حاصبيا على بلاد بشارة من يد بشوية صيدا وأنشأ بها مظالم كثيرة : وقبض عثمان باشا على الشيخ منصور بن علي الصغير وقتله [١] .

واما السبيتي فيقول ما نصه « وسنة ١١٢٢ هـ القى القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلي - بالياء المنقطه - منصور وتوفي الحاج محمد بزيع ، بعد ان قال في حوادث سنة ١١١٣ هـ » « القي القبض على علي منصور ومحمد بزيع في انطاكية [٢] » وهذا التكرار مما يوضح ان المقبوض عليه من قبل عثمان باشاهو علي منصور لا الشيخ منصور بن علي الصغير واذا لاحظنا أعلام آل علي الصغير في التاريخ العاملي لا نجد فيهم من يسمى منصورا او علي منصور وانما يوجد هذا الاسم منصور او علي منصور في اعلام آل منكر كما سنوضحه في محله من تاريخنا العاملي :

مقتل الشيخ يونس في النبطية سنة ١١٣٠ هـ

وفي هذه السنة قتل يونس من العلماء قتله الأمير حيدر [٣]

ولكن الأستاذ الشيخ سليمان ظاهر - اعتماداً على بعض المخطوطات - يرجع بتاريخ قتله إلى سنة ١١٢٠ هـ في معركة النبطية مع الأمير حيدر نفسه [٤] ولعل هذا أقرب للواقع

(١) نص الغرر الحسان في طبعة بيروت ص ١٦ .
(٢) العرفان م ٥ ص ٢١ :
(٣) السبيتي ص ٢١ من العرفان م ٥
(٤) اسماء قرى جبل عامل ص ٦٥٨ من العرفان م ٨

من رسالة للقس توما اللبودي إلى رئيسه العام اذ كان في روميه سنة ١٧٣١ م (ولعلها سنة ١١٣١ ه) يخبره فيها عن اعتقال ولاة آل العظم في بلاد الشام وعن محاولة سليمان باشا العظم والي صيدا أن يهرب من قلعتها فأعيد إلى سجنها ، ثم عن تولي الباشا الجديد أحمد بن أبي طوق صهر السلطان على صيدا. ثم يقول في جملة الرسالة :

« وقبل تاريخه بعشرين يوم – ويعني ٢٥ كانون – ركب الأمير حيدر شهاب حاكم البلاد باثني عشر ألف راجل إلى بلاد المتاولة والقبلية وبلاد الشقيف وإقليم الشومر ونهب البلاد وقتل منها نحو اربعين قتيلا واخذ منهم الف – وفي رواية اخرى الف رجل – وحرق البلاد ونهب سحته وقطع أشجاره وهدم سرايات الحكومة هدماً مربعاً ورجع إلى موضعه »[1]

ما يلاحظه الباحثون

ومما يدعو للشك هنا أن الذي غزا بلاد المتاولة في هذا التاريخ هو الأمير ملحم لأن الأمير حيدر كان قد تنازل عن الحكم لابنه ملحم سنة ١٧٢٩ م ثم توفي سنة ١٧٣٠ ولا يعقل تصحيح هذه الرواية إلا إذا اعتبرنا سنة ٣١ هذه هجرية لا ميلادية . لأن مؤرخي لبنان جميعاً – بما فيهم حفيد الأمير حيدر وسميه – يذكرون غزوة للأمير حيدر على بلاد المتاولة في سنة ١١٣١ ه كما يتضح من راية الغرر الحسان إذ يقول ص ١٧ من طبعة بيروت ما نصّه :

« وفيها -- أي سنة ١١٣١ ه – انتقل عثمان باشا أبو طوق من صيدا إلى الشام وكانت وقعة القرّية بين الأمير حيدر والمشايخ بني متوال وكان النصر إلى الأمير حيدر الشهاب » .

---

(١) نص الوثائق التاريخية ص ١٢٣–١٢٦ ومجلة أوراق لبنانية ١٩٥٧ ص ٢٧٤–٢٧٧

بين المتاولة وظاهر العمر سنة ١١٣٣ ﻫ

وفيها كانت الفتنة (أي الحرب) بين مشايخ المتاولة والشيخ ظاهر العمر وحكام بلاد صفد وجرى بينهم قتال شديد فانهزموا الصفديون وقتل منهم مقتلة عظيمة : ثم خرج عثمان باشا بالعساكر على بلاد صفد وقتل منهم أنوَف من ثلاثمائة قتيل ، وقتل البشناق أولاد مشايخ بلاد صفد [١] أما اين ومتى ولماذا كانت هذه الحرب ، فلم يشر اليه احد من المؤرخين .

آل العظم يقهرون المتاولة بالأمير ملحم

في سنة ١١٤٢ ﻫ تنازل الامير حيدر عن الحكم لابنه الامير ملحم وفي سنة ١١٤٣ ﻫ توفي وخلا الجو للأمير ملحم، وظل في الحكم إلى سنة ١١٦٧ ﻫ وقد كان في هذه المدة على وفاق مع والي صيدا ودمشق من آل العظم : كما يظهر من قول صاحب الغرر « وكان سعد الدين باشا العظم يستنجد بالأمير ملحم كثيراً ويشاوره بمهامه ويقهر به متاولة جبل عامل » [٢] .

---

(١) نص الشهابي في الغرر طبع بيروت ص ١٧ ثم طبع مصر ص ٧٩٦ .

(٢) الغرر الحسان طبع بيروت ص ٦٣ ، ونقصد من طبعة بيروت ما سموه لبنان في عهد الامراء الشهابيين .

اعتقال الشيخ نصار بن علي الصغير

١١٤٤هـ

وفيها – على ما يرويــــه صاحب الغرر الحسان في طبعة مصر ونسخة اليازجي – استأجر الأمير ملحم الشهابي بلاد بشارة من يد وزير صيدا بموافقة الشيخ سليمان الصعبي وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير وباغت اخوتــه في قرية اجويا فهربوا إلى بلاد القنيطرة وقتل ثلاثة عشر قتيلا من قبيلتهم– ونهب الدروز تلك البلاد ثم رجع أولاد نصار وفكوا أخاهم واستأجروا بلادهم من الأمير ملحم : وكان في تلك السنة موت عظيم وتوفي الشيخ سليمان الصعبي

وأما صاحب أخبار الأعيان فإنه يروي هذه الحادثة على ما يشبه رواية صاحب الغرر في نسخة اليسوعية وطبعة بيروت إذ يروي ما نصه :

« وفيها بلغ الأمير أن بني علي الصغير أصحاب بلاد بشارة أظهروا الشماتة بموت والده فخضبوا ذيول خيولهم بالحناء سروراً . فكتب إلى سعد الدين باشا العظم والي صيدا يلتمس منه ولاية بلاد بشارة فولاه فنهض إليها فمال إليه سلمان الصعبي صاحب مقاطعة الشقيف فأمنه وأبقاه كما كان . ثم دهم بني علي الصغير للقتــال فالتقى بهم في أرض قرية يارون [١] من تلك الديار فظفر بهم

(١) (ولعله يقصد قلعة مارون) لان آل الصغير كانوا يسكنون بها آناً وآناً بشحور او بهما معا .

وكسرهم وأهلك منهم خلقاً وقبض على مقدمهم نصار ففرّ اخوته إلى قرية اجويا من تلك الديار فسار خلفهم فانهزموا إلى القنيطرة فظفر بجماعة من غلمانهم (أي زلمهم) فأهلكهم ونهب تلك الديار ثم قفل راجعاً إلى لبنان ومعه نصار الصغيري معتقلا ثم بعد أيام حضر اخوته واستماحوا منه إطلاق أخيهم وقدموا له مالا فداء عنه فأخذه وأطلق لهم أخاهم وأعادهم إلى بلادهم ولاة من قبله »[1] .

ما يلاحظه الباحثون

- ١ -

يقول صاحب الغرر في طبعة مصر « ثم رجع أولاد نصار وفكوا أخاهم نصار »ولا يستقيم هذا القول إلا إذا كان هناك نصاران نصار الأب ونصار الابن على ما يقال في سلسلة نسب آل الصغير :أما إذا لم يكن إلا نصار واحد فتكون عبارة صاحب أخبار الأعيان « ثم رجع أخوة نصار وفكوا أخاهم » هي الأصح .

- ٢ -

ثم إن رواية صاحب الغرر تلك تشعرنا بأن غزو الامير ملحم لبلاد بشارة كان بموافقة الشيخ سلمان الصعبي وبكامل رضاه ثم تشعر بأنه لم يقع حرب بين الامير ونصار وإنما فاجأه الامير على حين غرة وقبض عليه ويؤيد ذلك بأن نصار لو كان على علم واستعداد للحرب لثبت للأمير في قلب جبل عامل أو على حدود لبنان ثم لكان اخوته معه حين قبض عليه ولما كان باستطاعة الامير أن يباغتهم في جويا وهم على علم بما وقع لاخيهم نصار .

بينما رواية صاحب الاخبار تشير إلى أن الشيخ سلمان الصعبي إنما مال لجهة الامير ملحم خوفاً من بطشه أثناء توجهه لبلاد بشارة لا قبل ذلك. ثم تصرح بأن الحرب قد وقعت بين الطرفين على نحو ما .

(١) أخبار الأعيان ص :٢ م ٢ .

أما رواية صاحب الغرر في طبعة بيروت ونسخة اليسوعية فتزيد على ذلك بأن الأمير ملحم ولى الشيخ سلمان على بلاد بشارة أثناء اعتقال الشيخ نصار [1] .

فما عسى أن نصدقه أو نكذبه من هذه المتناقضات وهي لرواة متعاصرين متقاربين داراً وسياسة وديناً ؟؟

-٣-

ثم يبدو للباحث من خلال الروايات المختلفة في تلك الواقعة ان حكام المتاولة لم يكونوا متأخرين عن دفع المال المرتب على مقاطعتهم لوالي الإيالة . ولا سبق لفرد أو لأفراد من جماعتهم أن اعتدو على حدود مقاطعات الأمير ملحم ولا غير ذلك مما كان يتذرع به الحكام للحرب والإغارة على البلاد الآمنة ..وإنما كل ذنب المتاولة أنـــه روي للأمير ملحم أو خيّل له أنهم - شمتوا بموت والده – فكان الذي كان من إباحة بلاد بشارة للنهب والقتل والدمار . مما يدعو الباحث للشك بأن هـــذه الغارات المتلاحقة على بلاد المتاولة في عهد الشهابيين - وخصوصاً في عهد الأمير ملحم - كانت عفوية خالصة مـــن شوائب التخطيط المريب والعوامل الخفية .

لأنه كان المفروض في كل وال من ولاة الإيالة أن يكون أول من يحافظ على الاستقرار والأمن فلا يدع حكام المقاطعات التابعة لإيالته يعتدي بعض على بعض بدون سبب أو لسبب تافه كهذا السبب الذي تذرع به الأمير ملحم لمهاجمة بلاد المتاولة .

ولأن المفروض في الولاة أن يحترموا قولهم (في كل مرسوم) للحكام الإقطاعيين «إن اقصى إرادتنا راحة الأهالي والرعايا وتحصيل أسباب رفاهيتهم ومنع وزجر المعتدين وعمار البلاد وتأمين العباد » [2] .

(١) الغرر الحسان طبعة بيروت ص ٢٩ .
(٢) الأصول العربية لأسد رستم ص ٨٤ م١ .

ولأن ولاة صيدا كانوا أجدر الولاة العثمانيين براعاة هذه الشروط وهـذه التوجيهات الحقة.. ذلك بأن صيدا لم تجعل ولاية مثل دمشق ، ولأن ولاتها لم يعينوا ولاة من قبل السلطان إلا لمراقبة سياسة أمراء الشوف وتحديـد نزعاتهم وصونها من أن تصبح مسيرة لأغراض الاوروبيين كما أصبحت سياسة الامير فخر الدين المعني بعد أن أحاطها الاوربيون بالكثير من المغريات الفعالة ليجعلوا مـن إمارة لبنان قاعدة لغزوهم وانطلاقهم السياسي والاقتصادي والعسكري في منطقة الشرق الاوسط : وإلا فما هي الغاية البريئة من تلك الاسلحة الجديـدة التي كانت تهدى إليه بكثرة ؟ وما معنى تلك الدعاية المركزية لمساندته في الحرب والسلم ؟ وتلك المعاهدات المريبة في أهدافها وشروطها التي رسمها له الاوربيون .. وكانت مثاراً لقلق العثمانيين وسبباً من الاسباب التي عجلت بزوال سلطانه ونبهتهم إلى خطر التدخلات الاوربية في سياسة لبنان وإلى التفكير الجدي بتعيين وال في صيدا لمراقبة حكام الشوف وأمرائـه مراقبة حاسمة بعد أن زادتهم تصرفات الامير ملحم المعني شكاً وارتياباً .

وعليه فهل كان في تسامح ولاة صيدا مع الامراء الشهابيين إلى هذا الحد أو في مساعدتهم على المتاولة – يوم كان المتاولة أبعد الطوائف عن مصانعة الاوربيين – شيء مـن الإخلاص لواجبهم كمراقبين لسياسة أمراء الشوف المعقدة الغامضة ؟ أو لواجبهم كحكام مطلقي الارادة ؟

وهل كانت سياسة الأمراء الشهابيين في أن يجعـل كل من تولى منهم على لبنان باكورة أعماله غزو بلاد المتاولة لسبب مفتعل أو لغير سبب – كما يتضح من سيرة الأمير بشير الأول وسيرة الأمير حيدر ثم سيرة ابنه الأمير ملحم ثم ابنه الأمير يوسف – هل كانت تلك السياسة سياسة عفوية بريئة ؟ أم أن هناك ما يحمل على الشك بما كان يكمن وراءها من خطط وأهداف مشبوهة ؟ وتأكيداً لما يلابس الأذهان من شك نلفت النظر إلى ما أوضحناه في البحث

عن تاريخ السياسة العاملية في عهد مشرف بن علي الصغير من « أن انتقال الحكم في لبنان من الامراء المعنيين الى الأمراء الشهابيين لم يكن انتقالاً طبيعياً.

- ٤ -

ثم نشير هنا إلى ما يلاحظ في تاريخ لبنان السياسي من أن كواخي أمراء الشوف - منذ عهد الأمير بشير الاول الى آخر عهد الامير بشير الثاني - كانوا قناصل لفرنسا في لبنان أو كان القناصل - بكل ما لديهم من نفوذ وبكل ما حولهم من الجاليات الافرنسية في لبنان والأساكل البحرية وبكل ما يملكون من وسائل ومداخلات لدى السفراء والوزراء والحكام كانوا بكل هذه القوى المتضامنة - يكمنون وراء اولئك الكواخي الذين سيطروا على أفكار الأمراء وقلوبهم حتى أصبحوا أو كادوا أن يصبحوا هم الحكام فعلاً وأن يكون الأمراء رمزاً للحكم وإسماً بغير مسمى ، كما يصرح العالم النمسوي « أندريا أوبرليسنر » في تاريخه للبنان بين سنة ١٧٢٩ و ١٧٩٥ [١]

وعليه فبما ندحض زعم الزاعمين : بأنه لولا تخطيط اولئك القناصل وتحبيذ هؤلاء الكواخي لما توالت حملات أمراء لبنان اعتباطاً على بلاد المتاولة بهذه الصور المتلاحقة الملحاحة منذ سنة ١٩٦٨ حتى سنة ١٧٧٢ ؟

حوادث مغلوطة ١١٤٧ هـ

يقول الشيخ علي سبيتي « وفي هذه السنة (١١٤٧) صارت وقعة انصار مع الامير ملحم بن الأمير حيدر واسر من الشيعة الف واربعماية . ومات في الكنيف في بيروت وفكت الأسرى وكانت الوقعة بفتوى الشيخ نوح تاريخها في الحامدية [٢] :

---

(١) مجلة أوراق لبنانية لسنة ١٩٥٦ ص ٣٢٣ ثم ص ٣٧٨من هذا الكتاب

(٢) العرفان م ٥ ص ٢١ .

لم يشر أحد من المؤرخين الى وقوع حرب بهذه السنة بين العامليين والشهابيين . ومما يدعو للشك بهذه الرواية أن الأمير ملحم شهاب توفي سنة ١١٧٣ هـ كما يبدو من تاريخ الغرر الحسان [١] وان الذي مات سنة ١١٤٧ هو اخو الامير ملحم (الامير عمر شهاب) ولم يصرح صاحب الغرر ان الامير عمر مات في الكنيف وانما قال انه مات مصروعاً [٢] وأما الذى قيل انه مات في الكنيف فهو كاخية الامير ملحم شهاب ولكن موته كان سنة ١١٦١ هـ على ما يبدو من قول صاحب الغرر وفي هذه السنة (١١٦١) غضب الامير ملحم على كاخيته بطرس المشقوتي ووضعه في السجن وضبط جميع املاكه وكان هذا الشدياق رجل كبير النفس فعظم عليه ذلك ففي بعض الايام قيل انه دخل الى الفضاء وقص خصاه في قلم الطراش فدخل عليه السجان فرآه قد مات [٣] .

ابراهيم العظم يتولى صيدا والظلم استفحل سنة ١١٥١ هـ

في ٢٥ من آذار سنة ١٧٣٨ . كتب الاب توما اللبودي رئيس الرهبنة اللبنانية العام الى المنسنيور يوسف السمعاني الكبير في روما ما نصه .

« ... الأخبار عندنا ابراهيم باشا العظم تولى على صيدا في الجديد وبيت حمود طفروا من صيدا وطلعوا الى عند الامير ملحم والجبال والسهول تحالفوا وتعاهدوا انهم على صوت بعضهم . والظلم الذي ابتدى في عرب بستان بعد خروجكم شيء لا يدرك .

مجلة أوراق لبنانية م ٣ ص ٥١٢

---

(١) تاريخ الغرر الحسان ص ٤٩ طبعة بيروت .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠ .
(٣) الغرر الحسان ص ٣٦ طبع بيروت .

مقتل الشيخ أحمد الفارس وأولاده

سنة ١١٥٢ هـ

يقول الشيخ محمد بن نجيم المنقاني : « في سنة ١١٥٢ هـ اجتمع جماعة من الأشقياء لقتل الشيخ أحمد فارس فلم يقدروا وهربوا والتجأوا الى شقيف ارنون » (اهـ) .

وفي بعض التواريخ العاملية ان احمد منصور واحمد فارس أقاما في قلعة الشقيف عام ١١٥١ هـ فعمراها وأحدثا فيها بوابة [١] .

ويقول المؤرخ الأمير حيدر « وفي هذه السنة ١١٥٢ كبس باشة صيدا - والمرجح أنه سعد الدين باشا العظم - بلاد الشقيف وقتل الشيخ أحمد فارس وأولاده ، وهرب أخوه الشيخ حيدر الى بلاد الدروز واحتمى عند الامير ملحم [٢] .

ما يلاحظه الباحثون

هذا كل ما ذكره المؤرخان . أما من هو الشيخ أحمد فارس وما هو محله بين أبناء مقاطعة الشقيف ؟ أكان حاكماً رسمياً فيها ؟ أم وجيهاً شعبياً ؟ ثم من هم جماعة الاشقياء الذين اجتمعوا لقتله فلم يقدروا وهربوا؟ثم ما هي الأسباب

(١) لاحظ أعيان الشيعة ص ١٤٠ ج ٩

(٢) لاحظ ص ٣١ ج ١ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين ط بيروت سنة ١٩٣٣

التي دعت لقتله ؟ ولماذا عمد الباشا بنفسه بعد ذلك لقتله مع أولاده ؟ أكانت انتصاراً لتلك الجماعة التي عجزت عن قتـــله أم لأسباب أخرى تشعر بخطر أحمد الفارس ومكانته الاجتماعية أو تشعر بأن تلك الجماعة التي حاولت قتله هي من صنائع الباشا وطلائع نقمته ؟

ثم كيف كان قتل الشيخ أحمد الفارس وأولاده ؟ أكان بعد معركة انتهت بالقبض عليهم أم أنهم أخذوا من منازلهم وقتـــلوا ؟ أم قضي عليهم حيث وجدوا ؟ فإن المؤرخين لم يشيروا الى شيء من هذه الامور المحتملة .

ولو لم نلاحظ ان الباشا بنفسه هو الذي دهم بلاد الشقيف ولم ينتدب أحداً من قبله ، وان المؤرخ الشهابي لم يذكر من فواجع حملة الباشا على بلادالشقيف إلا قتل الشيخ أحمد الفارس .. لما قدّرنا وتصورنا ان الشيخ أحمد الفارس كان من أعيان المتاولة في عصره ومنطقته .

ثم ان قول المؤرخ الشهابي « بأن باشة صيدا قتل الشيخ أحمـــد الفارس واولاده سنة ١١٥٢ وهرب أخيه الشيخ حيدر الى بلاد الدروز » لا ينسجم مع النصوص التاريخية والأدبية التي تؤكد انه لم يتسن للباشا قتل جميع أولاد الشيخ أحمد . ثم تنص على أن الشيخ حيدر الفارس وأخاه الشيخ علي هما من أولاد الشيخ أحمد الفارس لا من اخوته ، وعلى انهما بقيا يناضلان مع الشيــخ ناصيف النصار حتى سنة ١١٨٩ هـ كما يتضح من نصوص التاريخ ومن قصائد الشيخ ابراهيم يحيى والشيخ ابراهيم الحاريصي في مدحهما واطراء مواقفهــما في الحروب الاقليمية والطائفية ، وكما يبدو من تصفح مخطوطـة خنجر بـــك الصعبي حفيد الشيخ علي الفـــارس ومـــا تضمنته من قصائـــد مدحهما وخصوصاً في واقعـــة تربيخا والدولاب سنـــة ١١٨٠ هـ وحسبنا دليـــلا على ذلك قول الشيخ ابراهيم الحاريصي في مدح الشيخ حيدر :

يا شاكياً من دهره متظلـــماً   لذ من بني صعب الكرام بحيدر

أعني سلالة أحمد الشهم الذي　　أفعاله مشهورة لم تنكر ..

لاحظ ص ٨-١٦ من المخطوطة

ثم قوله في مدح أخيه الشيخ علي الفارس :

من آل صعب فتى صعب المراس له　　الباع الطويل وباع الليث قد قصرت
عليّ أحمَدُها من نسل أحمَدَها　　كبيرها خيرها بيناً وإن كبرت

لاحظ ص ١٣٩ - ٢٧٨ منها

ثم قوله ص ١٤٢ - ٢٨٤ منها :

فما قلبي بصخر او حديد　　كقلب عليّ في يوم النزال
سلالة أحمد نفسي فداه　　كريم الأصل محمود الفعال

الى غير ذلك من الأقوال والشواهد .

واقعة انصار سنة ١١٥٦ ﻫ كما يرويها مخايل ابريك

يقول الخوري مخائيل ابريك (وفي هذه السنة بلغني انه في سنة ١٧٤٥ م ركب الامير ملحم حاكم جبل الدروز في دير القمر على بلاد المتاولة وحاصر قرية انصار وكان جميع سكانها متاولة وفيهم عيلتين نصارى مسيحيين فقط فأمر الامير أن يخربوا تلك القرية ويقتلوا جميع أهلها وهكذا فعلوا فانهم قتلوا اهل تلك القرية ومن وجد فيها نحو الف وخمساية رجل وخربوها وحرقوها [١] .

من عجائب وقعة انصار

ثم يقول المؤلف (وهنا صارت عجيبة من سيدتنا القديسة مريم العذراء والدة الإله قصدت ان اعرفك بها ايها الواقف على تاريخي هذا لكي تلقي حملتك وآمالك واتكالك على هذه القديسة المنجدة في الحروب) .

(اعلم انه كان ساكناً في هذه القرية المذكورة رجل مسيحي خائف الله متكل على القديسة مريم العذراء من قلبه . فلما نظر القتل والخراب والحريق الواقع بالقرية فللحال جمع عيلته ودخل بيته وجاب ايقونة القديسة الطاهرة مريم العذراء وحطها امامه وبدأ يصلي ويطلب منها المعونة بدموع غزيرة من

---

(١) ص ٤٣ من تاريخ الشام للخوري مخائيل ابريك وهو ممن عاصروا الامير ملحم .

كل قلبه هو واولاده وعيلته فيا لعجائبك ايتها الطاهرة التي تفوق العقول التي تفعلينها مع كل من يقصدك بامانة. وتخلصين من كل شدة وحزن ورجز وارد، فلما انتهت العساكر الى عند باب دار هذا الرجل المسيحي وهموا ان يدخلوا عليه فللحال برز رجل وبيده بارودة وحطها فوق ذلك الباب وقال لهم هذا الدار بحمايتي وللحال مر ذلك العسكر جميعه وما احد التفت الى ذلك الباب ولا دخل الى الدار أصلاً وكان ذلك المسيحي الخائف من الله عمال يصلي ويطلب من كل قلبه بامانة. وبعدما انتهى العسكر من خراب تلك القرية وقتل اهلها كما اخبرنا سابقاً ورحل عنها: قام ذلك الرجل واخذ عياله وجمع متاعه ورزقه، وحمل وراح الى غير بلد سالماً هو وعيلته ورزقه.

تعليق الناشر

ثم يعلق ناشر الكتاب الخوري قسطنطين الباشا على هذه الرواية بقوله: (جرت واقعة انصار سنة ١٧٤٣ م (١١٥٦ هـ) على المتاولة وكان النصارى في لبنان يشتركون مع الدروز في المواقع التي كان يقاتل فيها اميرهم اخصامه وربما كان الرجل الذي قام بحماية البيت المذكور بعناية الله مسيحياً من رجال الأمير (١) .

ما يلاحظه الباحثون

ان في هذه الرواية من مخائيل ابريك وفي هذا التعليق من قسطنطين الباشا على علاتها .. ما يدعو الى الظن بان هذا الرجل المسيحي الذي حمى الدار المذكورة بمجرد اشارة منه وجعل عسكر الأمير من الآلاف المؤلفة يحذر ان يمس الدار واهل الدار بأذى .. كان من (كواخي) الأمير ملحم المسيطرين على فكره وعلى توجيه افراد جيشه. وإلا فلا يعقل بالنسبة لتقاليد ذلك العصر ان يخالف الدروز إرادة وزير صيدا – على ما يزعم صاحب الغرر وان

(١) تاريخ الشام لابريك ص ٤٤ :

يقتلوا ١٥٠٠ رجل من ابناء المتاولة ويحرقوا قرية من قراهم الكبرى ثم يستثنون – بعد ذلك – بيتاً منها لا لشيء إلا لأنه بحماية رجل مسيحي لا يعقل ان يفعلوا هذا كله – وهم يقولون انهم ابناء عم بني متوال – بدون ان يكون الخوف من سلطة ذلك المسيحي هو الذي شل ايديهم عن ان يخالفوا اشارته لما لهذا (الكاخية) من دالة على الامير ملحم ومن سلطة على افراد جيشه :

زمام الحكم بيد الموارنة [1]

ثم ان في هذه الرواية وهذا التعليق ما يبرر تصريح العالم النمسوي (اندريا اوبرلينر) في تاريخه للبنان سنة ١٧٢٩ – ١٧٩٥ م إذ يقول ما ملخصه « ان زمام الحكم كان بيد الموارنة ، وليس لحاكم الوقت سوى ان يحكم بما يشاؤون » .

واقعة انصار كما يرويها الشهابي ١١٥٦ هـ

يقول الامير حيدر أحمد شهاب صاحب الغرر الحسان (في هذه السنة أظهر المتاولة أصحاب جبل عامل الخروج عن طاعة سعد الدين باشا العظم والي صيدا وامتنعوا عن اداء الاموال السلطانية المرتبة على ديارهم وجعلوا يعوثون في جوارهم وتطاولوا على اقليم التفاح التابع لولاية الامير ملحم .

فكتب سعد الدين باشا للامير ملحم يستنهضه اليهم ويحرضه على قتالهم ، فلبّاه ونهض من دير القمر بجحفل جرار من اهالي الديار حتى بلغ جسر نهر صيدا ، وبلغ الشيعة المذكورين نهوض الامير ملحم اليهم فدخلهم الخوف والرعب ووجهوا رسلاً من خواصهم بالهدايا والصلات الى الوزير المشار اليه يرتمون لديه ويتوسلون لالتماس العفو والسماح ورضخوا لاداء الاموال السلطانية وتعهدوا بدفعها ودفع مالاً آخر غيرها واستجلبوا رضاه فقبل ذلك المال منهم وأحب العفو عنهم فكتب للامير ملحم عند وصوله الى الجسر المذكور بأن

(١) مجلة اوراق لبنانية لسنة ١٩٥٦ ص ٣٢٣

يرجع الى دياره وأخبره بأنه رضي عن المتاولة المذكورين وأنهم دانوا لطاعته فأبى الامير ملحم الرجوع عنهم وأخذ في نفسه على الوزير بأنه كيف يرضى عنهم ويصالحهم من غير معرفته ودون اشارته ، ولوقته نهض من محله المذكور وسار بجيشه الى قتالهم فأدرك قرية انصار من تلك الديار وفيها المناكرة والصعبية وقد اجتمع عليهم كامل الاحزاب الشيعية ولم يتخلف منهم احد . وفي نسخة اليازجي وطبعة بيروت يقتصر على قوله : (واجتمع عليهم جميع المناكرة والصعبية وأحزابهم ، فخرجوا لملتقاه بجيش عرمرم واصطف الفريقان في صحراء القرية المذكورة فقامت (الحرب) بينهما على قدم وساق وانقلبت الارض من ضجيج اولئك الأمم ، فحمل الامير ملحم برجال جيشه وهجم على القوم بشدة بطشه .

فانكسرت عند حملته جيوش المتاولة وانفضوا كالنعم الهاملة فأخذ اللبنانيون أعقابهم وغنموا أسلابهم وخذلوا نصرهم وأهلكوا أكثرهم ، فدخل من الشيعة جمع الى قرية انصار وتحصنوا فيها فدخل عليهم الامير ملحم وغار بالفرسان فاستولى عليهم وقتل خلقاً منهم ونهب ما في القرية من الامتعة والاموال ولم يبق فيه سوى الحريم والعيال ، وقبض على أكابر شيوخ المتاولة - وعددهم اربعة بنسخة اليازجي - وبلغ عدد قتلاهم في تلك الموقعة نيف على الف وستماية قتيل ، ثم حرق تلك الديار بعد ان سلبها وقفل راجعاً الى دياره الى دير القمر فدخلها بعز سامي وسعد نامي ومعه الشيوخ الذين قبض عليهم مشدودين فأبقاهم عنده في الأسر والاعتقال . فكتب الى سعد الدين باشا يخبره ويبشره بما خوله الله من النصر والظفر ، فأجابه الوزير بخطاب الرضا ؟ وأظهر له التقية فشكره وأثنى عليه وتلقى رسله بالبشاشة والاكرام؟ وفي رواية أخبار الاعيان « ان الباشا قدم للامير ملحم مصرف العسكر في هذه الحملة » .

ثم بعد أيام دخل علي جنبلاط بالوسيلة في اطلاق شيوخ المتاولة من الأسر

والوثاق وتوسط لذلك عند الامير ملحم فأطلقهم بعد أن عاهدوه على ان يدفعوا له كل عام ستة آلاف قرش عن مالهم وحجرتين من الخيل الجياد [1].

ما يلاحظه الباحثون

١ – ليس من الطبيعي ان يخرج الشيعة عن طاعة والي صيدا يومئذ او أن يتعدوا على حدود بلاد الامير ملحم وهم لم ينسوا بعد ما حل بهم وبالشيخ أحمد فارس وأولاده من والي صيدا سنة ١١٥٢ ولا ما حاق بهم وبالشيخ نصار النصار من تآمر والي صيدا مع الامير ملحم عليهم في سنة ١١٤٤ هـ .

وهل كان من الحزم أن يتغافل الساسة العامليون عما كان يضطرب في نفوس حكام الدولة العثمانية يومئذ من نقمة عارمة على الشيعة عامة لدى احتلال نادر شاه للعراق بين سنة ١١٥٢ و ١١٥٧ هـ وتأييد شيعة العراق له [2] .

إذن فما الذي يضطر العامليين لأن يتجاهلوا ظروفهم ويتجاوزوا المعقول الى ما يشبه المجازفة بأرواحهم وأموالهم بدون سبب محرج ؟!

ولعل أقرب الاحتمالات الى الواقع ان الامير ملحم زاد على شيوخ المتاولة عند الباشا في قيمة الضمان والألتزام المفروضة على مقاطعاتهم ففوضه الباشا أمر حكمها وأطلق يده فيما يحاوله فبادر المتاولة – حين عرفوا بذلك – الى الباشا وأرضوا مطامعه ودفعوا له ما يوجب عدوله عن تفويض الامير ملحم فأمره بالكف عما ينويه تجاه المتاولة .. ولكن الامير ملحم أو من هم وراء الامير ملحم تداركوا هذا التغيير من الباشا بشراء ضميره ، واسكاته عما يحاوله الامير ملحم من اجراءات تعسفية فكان الذي كان .

٢ – ثم ما الموجب لأن يستنهض وزير صيدا الامير ملحم او يحرضه على

---

(١) ص ٣١ طبعة بيروت ثم أخبار الاعيان ص ٢٦ طبعة ثانية سنة ١٩٥٤

(٢) راجع أعيان الشيعة م ٤٩ ص ١٠٥ ، ثم مجلد ٤١ ص ٨٦ – ٩٢ – ٦٥

قتال المتاولة فهل كان الوزير عاجزاً عن ردع المتاولة وحده او استدراجهم الى حيث يريد او الانتقام منهم بدون نجدة الامير كما قد فعل سنة ١١٥٢ هـ

على انه ليس من شأن والي صيدا ووزيرها ان يستنهض الامير ويحرضه ، وانما كان عليه ان يأمر الامير ملحم ، وعلى الامـــير ملحم ان يلبي الاوامر ويطيعها عملاً بالشروط الصريحة التي كانت تفرض عليه وعلى امثاله من أصحاب المقاطعات (عندما يفوضوا في حكم مقاطعاتهم) كما يتضح من مراجعة ص ٢٩ – ٣٤ من كتاب البلاد العربية في عهد الدولة العثمانية . او مراجعة ص ٩٨٩ من تاريخ الشهابي طبعة مصر ، او مراجعـــة رد سليمان باشا والي عكا على الامير بشير الثاني بعد معركة الجديدة سنة ١٢٢٥ هـ وقوله للأمير الكبير ما نصه :

واجب امير لبنان تجاه الولاة

« ان حضورك بالجرود (الجيوش) ليس فضلا ولا منة كما ظننت بـــل فعلت ما يجب عليك ان تفعله ، فان الذي نعلمه – بموجب سندك المحفوظ عليك في خزينتنا – ان اول شرط مشروط عليك بحكومة جبل لبنان انك في أي وقت كان وفي ايـــة ساعة كانت تحضر بدون تأخير انت وكامل رجال الجبل للحرب والقتال فتجمعها وتبقى فيها الى حين النهاية بدون ان يتكلف الوالي تقديم شيء مما يلزم لمصاريفها . لا ماهيات ولا علائف ولا عليق خيل ولا مأكول ولا شيء ، ولأجل ذلك صرت مفوضاً بحكومة الجبل [١] » .

٣– ثم متى كان المتاولة مجتمعين يخافون امير الدروز اكثر مما يخافون والي صيدا ؟ وهل كان بوسع امير الدروز أو غيره ان يغزو المتاولة في عقر دارهم ويرجع ظافراً لو ان الباشا وامثاله من الولاة وقف موقفاً محايداً او منحازاً اليهم بدلا من انحيازه لأمير الدروز ؟ كلا ثم كلا ؟ وفي ما يأتي من الحوادث ما يبطل كل ادعاء فارغ .

---

(١) راجع ص ١٤١ – ١٤٢ من تاريخ سليمان باشا لمؤلفه ابراهيم العورة وهو من كتاب سليمان باشا اللامعين وممن عاصر تلك الحوادث .

٤ - ثم لا ندري كيف يأنف الأمير ملحم ويغضب من الباشا لأنه اتفق مع المتاولة بدون مشورتـه ورضاه ثم لا يأنف الباشا ولا يغضب من الامير ملحم بعد ان خالف ارادته وتجاوز اوامره واعتدى على من اصبحوا في حمى الباشا وعهدتـه من المتاولة فسفك دماءهم واحرق ديارهم ونهب اموالهم ولم يستثن من قرية انصار الا البيت الذي شملته حماية بعض كواخيه كما يتضح من رواية ابريك وتعليق قسطنطين الباشا السالفين .

٥ - ثم هل من الصحيح أنـه باستطاعة الامير ملحم ان يتظاهر بالاباء والتمرد على رغبة الباشا كأنه سيده لو لم تكن هناك مؤامرة مدبرة باع فيها الباشا واشترى ؟؟

٦ - ثم لا ادري كيف تكون التقية المزعومة من والي صيدا للأمير ملحم او من الحاكم للمحكوم بدون رشوة ومؤامرة ؟ والتقية كما يعلم الجميع انمـا تكون من المحكوم الضعيف للحاكم الطاغية في جوره وتعسفه ليس الا ..

واقعة انصار كما يرويها العامليون

يقول الشيخ علي سبيتي «وفي سنة ١١٥٦ ركب الامير ملحم على انصار (ثانية) وقتل من الفريقين اكثر من الف قتيل ونهب انصار [١] » .

ويروي الاستاذ الشيخ سليمان ظاهر عن غير واحد من مؤرخي هـذه النكبة من العامليين ما محصله «باغت الامير ملحم انصار والمتاولة غير متأهبين للقتال لعلمهم بأن تسليمهم لوزير صيدا قد كف عنهم عادية انتقامه على يـد الامير ملحم وان مباغتته لهم لم تقطع املهم بانصرافه عنهم سلماً تظاهر بميله اليه على شروط اقترحها عليهم تبتدىء بالقائهم اسلحتهم ثم الاجتماع به للمداولة

---

(١) العرفان م ٥ ص ٢٢ .

في مكان يحضره هو وبعض خواصه ، ولم يحتاطوا لهجوم جيشه الذي دبره متخذاً وسيلة له اجتماعه بهم عزلا من السلاح ففاجأهم عسكره المسلح في مكان اجتماعهم وفيه جمهرتهم فكان ما كان من القتل الذريع .

ثم يقول الاستاذ « ويؤيد هذه الرواية شعر زجلي لبعض زجليي ذلك العصر يتناقله الخلف عن السلف يتضمن ملام بعض حكام مقاطعة انصار على انخداعه للامير ملحم مما كانت عقباه انكسار المتاولة [1] » .

ولكن الأستاذ ظاهر لم يورد لنا شيئاً من هذا الزجل في روايته تلك مع ان ايراده كان ضرورياً لتوضيح وجهة نظر المتاولة بتلك الحادثة .

ما يلاحظه الباحثون

مما يؤيد رواية العامليين بأن المتاولة أخذوا غدراً انه ليس من المعقول أن يطلب وزير صيدا من الامير ملحم الكف عن قتال المتاولة حقيقة ثم يبادر دولته - بعد إيغال الامير ملحم وجيشه فتكاً وتنكيلاً بالمتاولة - الى الثناء على الامير وشكره له على ما فعل بقرية انصار ؟ ثم الى أن يرسل له مصرف عسكره بتلك الحملة الجائرة ويقابل رسله بالبشاشة والاكرام - على ما في رواية صاحب الغرر المتقدمة ورواية صاحب اخبار الاعيان [2] - وليس من المعقول هذا التناقض بين أن يطلب وزير صيدا الكف عن القتال وبين ان يثني على الامير ويشكره على ما فعل بانصار إلا أن يكون طلبه للكف عن القتال تمويهاً على أعين المتاولة ومخادعة لهم عن أن يستعدوا لغارة الامير ملحم ويجمعوا شتاتهم وينظموا قواهم بقيادة حازمة موحدة .

٢ - ثم يبدو من قول صاحب الغرر في نسخة اليازجي (واجتمع عليهم

---

(١) العرفان م ٨ ص ٣٤٥ .
(٢) أخبار الاعيان طبعة بيروت سنة ١٩٥٤ م ٢ ص ٢٦

جميع المناكرة والصعبية وأحزابهم[1])يبدو من هذا القول انه لم يكن مشتركاً في هذه المعركة من مشايخ العامليين سوى مشايخ المناكرة والصعبية وان مشايخ آل الصغير وأهل بلاد بشارة الجنوبية لم يكونوا مشتركين معهم .. ذلك مما يشعرنا بان المتاولة لم يكونوا جميعهم في هذه المعركة، وان المشتركين فيها - بناء على تلك الجملة - لا يكادون يبلغون نصف عدد المتاولة بكامل شيوخهم ومقاطعاتهم وأحزابهم .

٣- ثم اذا صح ما يرويه صاحب الغرر من (ان الامير ملحم اعتقل عدداً من شيوخ المتاولة في وقعة انصار) ثم لاحظنا عدم تسمية اولئك الشيوخ بأسمائهم .. بدا لنا من خلال الشكوك والاحتمالات أن المتاولة لم يكونوا في تلك المعركة متحدي الآراء والصفوف ضمن قيادة واحدة وإلا لاكتفى الامير ملحم باعتقال القائد الأعلى وحده او مع كواخيه . ولسمى المؤرخون هذا القائد باسمه كما سموا الشيخ نصار النصار في حوادث سنة ١١٤٤هـ والشيخ أحمد فارس في حوادث سنة ١١٥٢ هـ .. ثم أن عدم تسمية المؤرخين لأولئك الشيوخ بأسمائهم قد يستشعر منه أن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا من أصحاب المكانة الاولى بين شيوخ المتاولة . كما قد يستشعر مثل ذلك من تخاذل المتاولة في تلك المعركة .

انقسام المشايخ الاقطاعيين وأثره

٤ - ثم اذا رجعنا لتاريخ الغارة التي شنها الامير ملحم شهاب على بلاد بشارة سنة ١١٤٤ هـ واعتقل فيها الشيخ نصار النصار . ولاحظنا ان الشيخ سلمان الصعبي وافق الامير ملحم وانضم الى جانبه بدلاً من أن ينضم الى جانب الشيخ نصار النصار (على ما في تاريخ الغرر[2]) . ثم لاحظنا أن آل منكر لم يحركوا ساكناً لتأييد آل الصغير في تلك الحادثة على ما يبدو من اغفال

(١) الغرر الحسان ص ٧٧٠ ط مصر .

(٢) الغرر الحسان ص ٧٦٨ ط مصر ونسخة اليازجي ، ثم ص ٢٩ من ط بيروت .

ذكرهم وذكر علاقتهم بها إذ لو كانوا مؤيدين للشيخ نصار النصار او مشتركين معه في حوادث سنة ١١٤٤ لكان في استسلامهم جميعاً لغارة الامير ملحم شهاب يومئذ من معاني التباهي والتفاخر في قوة آل شهاب الحربيـــة ما لا يحسن تجاوزه او السكوت عن تفاصيله من قبل المؤرخ الشهـابي المفروض فيه ان يتبسط في توضيح مفاخرهم وفي تكبير ملابساتها وتعدد جوانبها .

ثم لاحظنا بعد أن آل الصغير لم يشتركوا هنا في معركة انصار (١١٥٦) مع المناكرة والصعبية .. على ما تقدم من توضيح وتعليل .

إنه اذا لاحظنا جميع هذه الاحتمالات والملابسات .. ألا يسوغ لنا أن نعتبر ما كان من تهاون آل الصغير وعدم اشتراكهم مع المناكرة والصعبية في معركة انصار (١١٥٦) هو بمثابة الرد على ما كان من موقف آل صعب وآل منكر ١١٤٤ هـ اثنـاء اصطدام آل الصغير مع الامير ملحم شهاب ؟ ثم ألا يسوغ لنا أن نتصور ان هذا التجافي وهذا الانقسام الداخلي هو الذي فتّ في عضد المتـــاولة وكان له أثره البالغ في تخاذلهم لدى العـــدوان الخارجي على بلادهم ؟

اختلاف صور المعركة باختلاف الروايات

ثم بعد هذا كله ألا تلاحظ من رواية صاحب الغرر « أن معركة انصار بدأت خارج القرية منظمة الصفوف معدة العدد من الطرفين حتى اذا انكسرت المتاولة وانسل منهم من انسل الى داخل القرية تبعهم جيش الامـــير ملحم ونهبوا القرية وأحرقوها وقضوا على من وجد بها من الرجال وبلغ عدد القتلى من المتاولة ١٦٠٠ قتيل » .

وان رواية العامليين لا تصرح إلا « بأنهم أخذوا غـدراً واغتيلوا خارج القرية ثم نهبت وأحرقت وقتل جميع من فيها وبلغ عـدد القتلى من الطرفين نحو الف قتيل » .

وان رواية الخوري مخائيل ابريك - وهو ممن عاصروا الامير ملحم - لا تشير الى حدوث شيء خارج القرية وانما تنص على « ان الامير ملحم حاصر قرية انصار وأمر بأن يحرقوها ويقتلوا جميع أهلها ومن وجد فيها وهكذا فعلوا فإنهم قتلوا نحو ١٥٠٠ رجل » .

وعليه فبأي هذه الروايات نأخذ وعلى أيها نعتمد ؟ وخصوصاً اذا عرفنا أن عملية الإحصاء لم تكن متبعــة يومئذ ، ثم على تقدير أن تتبع فهي لا تتيسر في مثــل تلك الحالات . وانه كان ولم يزل من شأن المتحاربين أن يكثر كل منهم عــدد أخصامه ثم عدد قتلاهم بعد المعركة . وان المبالغة في زيادة الاعداد والارقام ما زالت تختلف باختلاف الاغراض والاحوال ولكنها على كل حال يمكن ان تعتبر كناية عن الكثرة المجهولة الحدود .

الحوادث بعد وقعة انصار

احراق اقليم التفاح سنة ١١٥٦ هـ

يقول الامير حيدر أحمد شهاب صاحب الغرر الحسان بعد روايته لمعركة انصار (وفي هـذه السنة – سنة ١١٥٦ هـ – تولى على الشام سعد الدين باشا ابن المظم ؟ وقام اربع سنين على ولاية الشام ؟ وكان والي صيدا عثمان باشا المحصّل . فانكسر عند الامير ملحم مال ميري ، فأعرض عثمان باشا الى الدولة العلية فحضر فرمان شريف الى وزير الشام ووزير طرابلس بأنهم يكونوا مسعفين الى عثمان باشا فخرج بعسكره الى جسر صيدا وحضروا الى عنده الوزراء المذكورين فأحرق عسكر الدولة اقليم التفاح ومرج بسري ، فتوجه الامير ملحم بعسكر البلاد الى قرية مزبود ، ثم دخل بالصلح محيي الدين آغا واورد الامير ملحم كامل ما هو مكسور عنده من المال الميري ورجعوا البشوات الى مكانهم [(١)]

ثم يروي بعد ذلك تفاصيل هذه الحادثة وملابساتها ضمن حوادث سنة ١١٦٢ هـ على النحو التالي « وقدم والياً على دمشق بعده سليمان باشا العظم ؟ وحضر عثمان باشا المحصل والياً على صيدا وغرّم الامير ملحم في الحادثة المذكورة – ويقصد هنا حادثة اعتداء الامير ملحم على بلاد بعلبك كما يستفاد

---

(١) الغرر الحسان ص ٣٢ ط بيروت ، ثم خطط الشام م ٢ ص ٢٩٣

من السياق – أموالاً وافرة فانكسر عنده المال السلطاني المرتب على مقاطعاته فكتب له عثمان باشا المحصل يطلب المال المكسور وشدد عليه فأجابه ملتمساً المهلة والسعفة فلم يرتضي وكتب له يهدده فأجابه بجواب خشن فحنق الوزير المذكور عليه وكتب يشكوه الى السلطة السلطانية العالية بأنه لم يدفع الاموال الميرية ولم ينفذ لاطاعة الوزراء ، فخرج الأمر من لدن السدة الملوكيـــة الى والي دمشق وطرابلس بأنهما ينهضان بعساكرهما إلى صيدا لمعونة واليهـا عثمان باشا المذكور على قتال الامير ملحم ، فنهضا إطاعة للأمر السلطاني وحضرا الى صيدا ثم جمع عثمان باشا عساكره وخرج بجحفل هائل الى جسر صيـدا وذلك في أواسط السنة المذكورة (١١٦٢ هـ) فخيم في صحراء الجسر المذكور وأنفذ بعض عساكره فحرقوا قرى اقليم التفاح التابعة لولاية الأمير ملحم ، وقطعوا شجر الزيتون الكائن في الارض المشاع القريبة من نهر صيدا . وبلغ ذلك الامير ملحم فجمع الجموع ونهض من دير القمر فنزل قرية مزبود يريـد القتال ! وكان رجل من أعيان صيدا يقـال له محيي الدين آغا من آل حمود ووجوه البلدة المذكورة يميـــل لجانب الامير ملحم فتوسط بينه وبين الوزير المشار اليه بأمر الصلح والمسالمة وحبّب كلا منهما بذلك وكتب للامير ملحم يحثه على اطاعة الوزير وخاطب الوزير بالعفو والامالة فرضخا لاشارته وأجريا الصلح بينهما على ان الامير ملحم يدفع ما عنده من الاموال الميرية المكسورة والكفيل بذلك محيي الدين آغا المذكور . ولما عقدت المسالمة رجع عثمان باشا الى صيدا وانفضت عساكره ، ونهض الامير ملحم من قرية مزبود راجعاً الى دير القمر من غير قتال ودفع ذلك المال الذي تقرر عنده »[١] .

ما يلاحظه الباحثون

١ – انما يقصد من اقليم التفاح هنا جزؤه الشمالي كقرى الهلالية والبرامية والصالحية وما اليها من القرى ، وكان هذا الجزء من اقليم التفاح تابعــاً لبقية

(١) الغرر الحسان ط بيروت ص ٣٩

أجزاء الاقليم في جبل عامل وكان حكامه الاقطاعيون من آل منكر وكانت قاعدة حكمهم قرية حومين الفوقا في عهد المعنيين ، ثم جبع الحلاوة في عهد الشهابيين ، ولكن ضغط حكام الشوف منذ عهدالاميرفخرالدين المعنيحتىعهد الامير يوسف شهاب وتواطؤهم مع ولاة صيدا وعكا على احراج المتاولة أدى - بتوالي الزمن - الى انضواء المتاولة في حدود جبل عامل الشمالية والى اضطرار البقية الباقية منهم الى الجلاء عن هذه الناحية حتى أصبحت مع مقاطعتي جزين وجبل الريحان العامليتين تابعة لحكم الشوف وضمن مقاطعات آل جنبلاط الأسرة الدرزية المعروفة وأصبح أهلها بعد المتاولة من الطوائف المسيحية بالرغم من السيادة الشكلية التي كان يتمتع بها الدروز ، مما يشعرنا بأن المخطط السياسي كان أبعد مدى من أهداف الدروز واهداف النصارى وتفكير الحكام الاقطاعيين في لبنان ذلك الزمن .

٢ - إن الذي يتتبع تاريخ الحوادث بين سنة ١١٥٧ و ١١٦٢ ﻫ يدرك ادراك اليقين ان سعد الدين باشا العظم قد انتقل من صيدا الى ولاية غير ولاية دمشق او انه عزل عن الحكم في هذه الفترة ، إذ يتضح له من رواية صاحب الغرر الحسان - على اضطرابها - ان اسعد باشا العظم تسلم ولاية دمشق في هذه الفترة بين سنة ١١٥٧ و ١١٦٢ ﻫ لا سعد الدين باشا [١] كما يتضح من رواية الخوري مخائيل ابريك - وهي أقرب الروايات الى الواقع - ان سليمان باشا العظم لا غيره بقي والياً على دمشق من سنة ١١٥٤ ﻫ الى أن مات سنة ١١٥٧ ﻫ ثم اصبح اسعد باشا العظم والياً بعد موته علىدمشق وظل والياً فيها الى سنة ١١٧٠ ﻫ [٢] .

٣ - ثم اذا لاحظنا ان حادثة اجتماع الوزراء الثلاثة على جسر صيدا وإحراق اقليم التفاح لم تتكرر مرتين في عهد ولاية عثمانباشا المحصل علىصيدا

(١) الغرر الحسان ص ٣٤ - ٣٩ ط بيروت .
(٢) راجع ص ١١ - ٣٥ من تاريخ الشام للخوري أبريك .

كما يبدو من رواية أخبار الأعيان ص ٢٥-٢٨ ، ثم لاحظنا محاولة نسبتها في الرواية الثانية الى عهد ولاية سليمان باشا العظم على دمشق سنة ١١٦٢ هـ ازددنا شكاً بالرواية وايماناً بعدم وقوع الحادثة في هذه السنة (١١٦٢) ذلك بأن مؤلف تاريخ الغرر الحسان نفسه يصرح بأن وفاة سليمان باشا العظم كانت قبل ذلك التاريخ بخمس سنين [1] كما ان غير واحد من المؤرخين وفيهم من عاصر سليمان باشا وجاور آله في دمشق [2] يؤكدون بأن وفاته كانت سنة ١١٥٧ هـ فضلاً عن ان بعضهم يؤرخها ضمن حوادث سنة ١١٥٦ هـ .

٤ - ثم اذا لاحظنا ان الحادثة التي غرم بها الامير ملحم وسببت انكسار المال السلطاني عليه .. لو كانت هي حادثة تعدي الامير ملحم سنة ١١٦٢ على بلاد بعلبك - كما يبدو من سياق الرواية الثانية - لكان على والي دمشق وحده ان يغرم الامير ملحم او يستدعي بشوات صيدا وطرابلس الى المشاركة في قهره واجباره على دفع المال السلطاني ، ذلك بأن مقاطعات بعلبك والبقاع كانت في العهد العثماني تابعة لولاية دمشق لا لولاية صيدا ، وكان والي دمشق هو المسؤول عن التعدي على أهلها وعن تحصيل أموالها الاميرية لا والي صيدا؛ إذن فلا بد أن تكون تلك الحادثة التي غرم الامير ملحم بسببها هي حادثة عدوانه سنة ١١٥٦ على منطقة انصار التابعة لولاية صيدا ، ولا بد ان يكون والي صيدا هو الذي اضطرته الحال لأن يستدعي بشوات دمشق وطرابلس ليقهر بهم امير لبنان .

بعد جميع الملاحظات

٥ - ثم اذا أخذنا بعين الاعتبار جميع هذه الملاحظات .. بدا لنا ان رواية هذه الحادثة - حادثة اجتماع البشوات في صيدا - ضمن حوادث سنة ١١٦٢ هـ إنما كان تحاشياً من اعتبار نقل سعدالدين باشا العظم من ولاية صيدا

(١) الغرر الحسان ص ٣٤

(٢) تاريخ الشام ص ١١ ، تاريخ ظاهر العمر ص ٦٥ خطط الشام ص ٢٩٣

نتيجة لتآمره مع الامير ملحم على المتاولة في واقعة انصار ، او كان تحويلاً لنظر الباحثين عما لقيه الامير ملحم من نقمة الدولة وتغريمها له على ما ارتكبه في أنصار من أعمال بربرية تستوجب القصاص .

القوة الخفيـــة

ثم بدا لنا ان هناك قوة فوق قوة الدولة وقوة البشوات تحول بين البشوات وبين أي عمل حازم يمنع أمير لبنـــان من اعادة العصيان على الدولة او من التعدي على ما حوله من المقاطعات المسالمة . وانه لولا وجود هذه القوة لكان بوسع البشوات الثلاثة - وهم في بيوتهم - ان يوقفوا أمير لبنان عنـد حده وأن يضعضعوا قواه ويحولوا بينه وبين أي تعـــدٍ أو عصيان ، وذلك بأن يوحـــدوا رأيهم ويصمموا على ان لا يفوض والي الشام حكم المقاطعات التابعة لولايته كالبقاع وبعلبك إلا لرجال من ولايته ، وأن لا يفوض والي طرابلس حكم المقاطعات التابعة لولايته كجبيل والبترون إلا لرجال من ولايته ، وأن لا يفوض والي صيـــدا حكم مقاطعاتهـــا الدرزية إلا لرجال من الدروز ، وحكم مقاطعاتها المسيحية إلا لرجال من المسيحيين ، وحكم مقاطعاتها الشيعية إلا لرجال من الشيعة (المتاولة) حتى يصبح أمير لبنان - المضطرب في تمويه شعاراته وعواطفه بين المسلمين والمسيحيين - بدون امارة ، ثم يرسل البشوات الثـــلاثة قوامم المسلحة في وقت واحد من جميـــع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية ليطوفوا مقاطعة الامير ملحم ويعتقلوه ويصادروا أمواله ويستوفوا منه المال المكسور عنده مع الغرامة الكافية لنفقات هذه الحملة . ثم يستعملوا بعد ذلك صلاحياتهم الحرة في تقرير مصيره حاكماً على الشوف او في رده الى الى موطن آبائه وأجداده من وادي (تيم اللات) .

اما ان يحشد البشوات الثلاثة جيوشهم ليلتقوا على جسر صيدا. ثم تكون النتيجة قطع زيتون الأهالي واحراق بعض القرى الآمنة من اقليم التفاح ،

ثم اجراء الصلح مع الأمير ملحم كأن لم يكن هناك شيء يستوجب الحذر والتحفظ من وساوس الأمير واغتراره ، او كأنهم كانوا مدعوين لحفلة من حفلات الصيد والقنص وألعاب الفروسية ؟! .. فهذا مالا يتفق مع الحزم الاداري والعسكري ولا مع مستوى الحوادث والجرائم التي ارتكبها الأمير ملحم في تعديه على المقاطعات المسالمة واستباحته دم الأبرياء من أهلها ونهب أموالهم وحرق ديارهم .. ثم العصيان على الدولة بما دخل عليه من الأموال السلطانية .. بل هـذا ما يدعونا لأن نفترض ان وراء تصرفات الامير ملحم وخطرها على الأمن، والعدل، وهيبة الحكام .. قوة خفية تحول بين البشوات وبين القيام بواجبهم على نحو يصون حقوق الدولة ويحفظ هيبة الولاة ويدعو الى الاستقرار والطمأنينة .

أما مـا هي تلك القوة الخفية التي كانت تحول بين الولاة العثمانيين وبين ايقاف امير لبنان عند حده أو ما هي مصادر هذه القوة وروافدها.. فذلك مما يستوقف النظر ويوجب التحفظ الشديد لأن البحث عن مجموع هـذه الأمور او عن بعضها لا يتأتى للباحث الا اذا توسع في استقراء الظروف والأزمات السياسية . وفي تحري الملابسات والمناورات الدولية لذلك الزمن ، ثم لاحظ تأثير المال على وجدان اولئك الولاة والبشوات . ثم تأثير سفراء الدول الاجنبية في القسطنطينية على منطق حكامها ووزرائها ثم تأثير قناصلهم في سورية ولبنان على أهواء البشوات والامراء والكواخي .

ثم عرف بعد ذلك كيف ولماذا خالفت الدول العثمانية قوانينها وانظمتها واباحت ان يكون بعض رعاياها قناصلا لدولة اجنبية في بيروت ولبنان يوم كان القنصل – كالسفير – عيناً للدولة التي ترشحه لهذه الوظيفة في البلاد التي تستقر بها وظيفته ويوم كان للقناصل من الصلاحيات والامتيازات اكثر مما للسفراء اليوم .

اوعرف كيف ولماذا خالفت فرنسا قوانينها وانظمتها الصريحة وسمحت بل اصرت على ان يكون قنصلها في بيروت ولبنان من غير رعاياها مع ان واجبات هذه الوظيفة تقضي بأن لا يؤتمن عليها اجنبي من غير أبناء فرنسا ؟

لمحـــات الضوء

ولعل في بعض الوثائق الخازنية التي نشرتها جريدة النهار البيروتيـــة في عددها الصادر بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٩٦١ م : ثم فــيما نشر من تقرير يوسف السمعاني الى مجمع نشر الأيمان كي ينظر المجمع بشأن عائلةالامير بشير شهاب الأول ؛

ثم فيما نشر من رسائل الأب توما اللبودي رئيس الرهبنة اللبنانية العام .. لعلّ في ذلك ما يمهد للقارىء سبيل البحث عما يجب فهمه ومعرفته لحـــل الالغاز في تاريخ السياسة اللبنانية يومئذ ؛

أما الوثائق الخازنية فبأمكان القارىء أن يطالعها كاملة في محلها من جريدة النهار أو يكتفي منها بما نشرناه لدى الاستدلال على أن انتـــقال الحكم من المعنيين الى الشهابيين لم يكن انتقالاً طبيعياً ؛

من تقرير السمعاني

وأما تقرير الأب يوسف السمعاني سنة ١٧٢٠ م فاليكم بعض محتوياتــه كما نشرتها مجلة أوراق لبنانية ؛

« ثم عرض السمعاني على الكرسي الرسولي مشروع تحرير شمالي لبنان من ضغط الحماديين وتولية أبن الأمير بشير (شهاب الأول) عليها ، ويتطلب

تنفيذ هذا المشروع خمسة عشر الف سكودي رومـاني يدفعها الأمير بدل ولايته ؛ أما القيـمة فيمكن استدانتها من التجار الفرنجـة في بيروت وصيدا وحلب ويمكن أن يطلب الكرسي الرسولي الى سفير فرنسة في استانه أن يوصي السلطان بالأمير [1] .

ومن رسائل الأب توما اللبودي

« .. اعلموا أن بعد صلحة (اتفـاق) البشوات مع حضرة الأمير ملحم حيدر شهاب وهذا الصلح (والاتفاق) قد تم على يد باش ترجمان الفرنساوية في صيدا بوجودي هنا أي ما بين العسكرين ؛ وكان ذلـك بواسطة حضرة المونسنيور (يوسف السمعاني الكبير) لأن استمنوني المشايـخ وحضرة الأمير ملحم أيضاً لكي اباشر بما ذكر ، فاكراماً للمذكورين عملت ما قدرني الله ، وتمت الأمور على أحسن حال وصار من ذلك فخر لملتنا عند الدروز وغيرهم ولم يزل .. »

لاحظ ص ٥٠٨ من مجلة أوراق لبنانية السنة الثالثة :

ثم لاحظ قول الأب في تلـك الرسالة « أن الامير ملحم له خاطر رضا على الرهبنة وعلي لأسباب كثيرة لأن بواسطتي أنا خادمها قد أسدت الىالامير المشار اليه قضي مصالح تحرز عند الغير مؤمنين وعند القناصل الافرنـج وغيره ، وهذه المصالـح ليس هي إلا اصطلاح حال ومدارات وقت لان يتفهموا ان الرهبنة كلها تحت يده »

لاحظ ص ٥١٠ م ٣ من أوراق لبنانية

وعلى موجب هذه الوثائق والرسائل والتقارير ومـا ترسمه في ذهن القراء

---

(١) لاحظ ض ٣٤٣ ج ٨ من مجلة اوراق لبنانية لسنة ١٩٥٧.

من اساليب وخطط ووسائل كان لها اثرها البالغ في سياسة لبنان الغابرة ..
لا مجال للشك بان هذه العناية الكبيرة التي شملت ابن الامير بشير شهاب الاول والامير ملحم ومشايخ آل الخازن كان لها مع الزمن خططاً متطورة تعضد وتوجه وتنقذ كل من سار على طريقتهم واتبع خططهم السياسة من امراء لبنان وكواخيه وشيوخه ، ولو أنهم خالفوا جميع الانظمة والتقاليد المرعية في مملكة آل عثمان :

وقعة مرج عيون ١١٥٧ هـ

يقول الشيخ علي سبيتي « وسنة سبعة وخمسين كانت وقعة في مرج عيون بين الدروز والشيعة وكانت الغلبة للشيعة [١] » .

ويقول الشهابي في تاريخ الغرر الحسان « وفي سنة ١١٥٧ هـ كانت الوقعة في مرج عيون بين المشايخ بني متوال واهالي وادي التيم ومعهم دروز جبل الشوف . وكانت الكسرة على الدروز وعسكر وادي التيم : وقتل معهم مقدار ثلاثماية رجل واحرقت المتاولة جميع قرايا مرج عيون ، ثم اجتمعت المتاولة في قرية النبطية وارادوا ان يغزوا جبل الدروز فمنعهم وزير صيدا [٢] .

ثم يروي الاستاذ ظاهر نفس الرواية عن الشهابي ويعلق عليها بقوله « وفي هذه الوقعة يقول بعض الزجليين :

« يا بنت مردم بك طلي وشوفي دخان مرجعيون غطى الشوفي »[٣]

ما يلاحظه الباحثون

١ - تمتاز رواية صاحب الغرر الحسان بأنها رواية الامير حيدر احمد ابن اخ الامير ملحم شهاب نفسه مدير المعارك بين المتاولة والدروز في الفترة

(١) العرفان م ٥ ص ٢٢ .
(٢) الغرر الحسان ص ٣٤ طبعة بيروت .
(٣) العرفان م ٨ ص ٣٤٦

الممتدة بين سنة ١١٤٣ و ١١٦٥ هـ فهي اذن ليست موضعاً للتأويـل والشك من قبل اللبنانيين دروزاً ونصارى : وإذا كان فيها مجال للتأويـل فهو مجال المتاولة ليس إلا .. وأول مـــا يلاحظه المتوالي لاول نظرة خلو قصة هذه المعركة من ذكر امير الشوف وامراء وادي التيم الشهابيـين كأنهم ليس لهـم أي علاقة بأهالي الشوف ووادي التيم ؟ واذن فمن الذي جمع الجموع من اهالي الشوف والتيم وضرب لهم موعداً لحرب المتاولة في زمن معـين ومكان محدد من أمكنة المتاولة ؟ وهل يعقل أن تكون الصدف هي الـتي جمعت العساكر والاهالي من اقصى الشوف واقصى وادي التيم في اليوم المعـــين لمعركة مرجعيون ؟ ومتى كانت المعارك الكبرى التي يجتمع فيها أهالي الشوف واهالي وادي التيم ضد المتاولة تحدث وتدار بدون سابق دعايـــة وتخطيط وبدون قيادة لها قوتها وسلطتها على الجميع ؟ ثم ما رأيك لو ان الكسرة في تلك المعركة كانت على المتاولة وكان اخصامهم هم الظافرون بهم .. هـل يكون حديث الامير حيدر عنها بهذه الصورة المقتضبة مجرداً من ذكر الامير ملحم أو غيره مـن امراء الشوف ووادي التيم الشهابيين؟ وهل يكون الحديث خالياً من مثل هذه العبارات المتكررة في وصف المعارك الشهابية ؟

واصطف الفريقان وانقلبت الارض من ضجيج اولئك الامم فحمل الامير ملحم برجال جيشه وهجم على القوم بشدة بأسه فانكسرت عند حملته جيوش المتاولة وانفضوا كالنعم الهاملة [١] » .

٢ – ثم يلاحظ ان المؤرخ الشهابي لم يذكر أسباب تلك الحمـلة كما جرت العادة أن ينسب حملات أمير الدروز على بلاد المتاولة الى اعتداء المتـاولة على حدود بلاده .. ولعل وقوع المعركة في بلاد المتـــاولة بدون سبب من تلك الأسباب التافهـــة أو المنتحلة في جملتها .. يدل على أن المتاولة كانوا في تلك

---

(١) الغرر الحسان ص ٣٢ طبعة بيروت .

الحملة يدافعون عن حدود بلادهم المحتلة ، وأن القرى التي أحرقوهـا ليست جميع قرى مرجعيون ، وإنما هي القرى التي يحتلها غير المتاولة لأن مرجعيون وجميع قراها كانت ولم تزل تعتبر من قرى جبل عامل ، وقرى جبل عامل في عرف ذلك الزمان كانت قرى خاصة بالمتـاولة أو في مناطق حكمهم الاقطاعي ، ثم قد يكون احراق تلك القرى رداً على احراق الامـير ملحم لقرية انصار سنة ١١٥٦ .

٣ - ثم اذا لاحظ القارىء هذه الجملة من رواية الشهابي : « ثم اجتمعت المتاولة في قرية النبطية وأرادوا أن يغزوا جبل الدروز فمنعهم وزير صيدا » إذا لاحظ هذه الجمـلة بدا له مدى اطاعة المتاولة لوزير صيدا ، ومدى الشك بما نسب لهم - قبل معركة انصار - من الخروج عن طاعة وزير صيـدا : ثم بدا للقارىء من رواية الشهابي هذه أن الوزير عثمان باشا المحصل كان في هـذه الوقعة حيادياً وإلا لما منع المتاولة عن أن يغزوا جبـل الدروز لو انه كان منحازاً ضد الدروز .. ثم بدا للجميع ان انكسار المتاولة في معركة انصار سنة ١١٥٦ هـ لم يكن عن عجز او عن جبن وانمـا كانت نتيجة لتآمر الوالي سعد الدين باشا العظم مع الأمير ملحم على المتاولة ثم أخذهم غـدراً على أرجح الاحتمالات .

وقعة مرج قدس المزعومة

يقول مؤلف جبل عامل في التاريخ « والذي نعرفه عن واقعة مرج قدس ان سليمان باشا العظم أقسم أن يحرق بلاد بشارة وزحف بالجيوش الكثيرة ونزل في مرج قدس فنزل (فنزح) من وجهه أهل بلاد بشارة وبلاد الشقيف واقليم التفاح ، وأقام ثلاثة عشر يوماً ورجع ، كما في رواية الشهابي ، وتوفي ، كما في رواية مروة . وكفى الله المؤمنين القتال [1] .

ويقول الشيخ علي سبيتي أو الشيخ علي مروة على زعم بعضهم : « وسنة الف ومائة وستة وخمسين صارت وقعة مرج قدس مع سليمان باشا ابن العظم وتوفي الباشا قبل الحرب وكفى الله المؤمنين القتال ، وقيل في ذلك شعر :

قالت الدنيا الغرورة ... مات سلمان النجيب
قلت في التاريخ كفي ... موته فرج قريب [2]

ما يلاحظه الباحثون

١ - يلاحظ من أقوال العامليين هذه (أولاً) ان سليمان باشا نزل بجيشه في مرج قدس ثلاثة عشر يوماً (ثانياً) ان العامليين نزحوا من وجهه خوفاً (ثالثاً) ان الباشا كان مصمماً على محاربة العامليين وحرق ديارهم (رابعاً) ان

---

(١) جبل عامل في التاريخ ص ٧٦
(٢) العرفان م ٥ ص ٢١

الباشا توفي سنة ١١٥٦ هـ في مرج قدس قبل الحرب . فما الذي يمكن إثباته أو نفيه من هذه الامور الملحوظة ؟

٢ - أما نزوله في مرج قدس وفرار العامليين من وجهه فليس في أقوال المؤرخين جميعاً ما ينقضه أو يفنده بل ان فيها ما ينص على ذلك ويصرح به كما يبدو من رواية الشهابي وقوله « وفي هذه السنة (١١٥٦) خرج سليمان باشا وزير صيدا ، وعلى الأصح وزير دمشق يومئذ[١] بالعساكر الكثيرة ونزل في مرج قدس فخرب بلاد بشارة وبلاد الشقيف واقليم التفاح ، وبقي الباشا في مرج قدس ثلاثة عشر يوماً[٢] » .

٣ - وأما أنه كان مصمماً على محاربة العامليين واحراق ديارهم .. فليس في أقوال المؤرخين ايضاً ما يشير الى ذلك ولو اشارة خفية بل أن فيها ما ينص على أن سليمان باشا كان يقصد بحملته الاولى وحملته الثانية الشيخ ظاهر العمر في طبرية لا أهل بلاد بشارة ، كما يتضح من رواية مواطن سليمان باشا ومعاصره الخوري مخائيل ابريك وقوله « وتوجهت (وزارة) دمشق ثانية على سليمان باشا ابن العظم سنة ١١٥٤ هجرية واستقام ثلاث سنين ، وفي هذه المدة ركب على ظاهر العمر بطبرية وما انتفع بشيء ، ثم تقوت الانكشارية بدمشق وصارت (وسارت) الزرباوات (الاشقياء) وأظهروا ربوات قبائح على الرعايا وعلى الخصوص على النصارى المساكين ، ثم ركب سليمان باشا ثانياً على طبرية على ظاهر العمر ، وهناك مات وقيل مات مسموماً وجابوه للشام مايت محمل ودفنوه في دمشق يا حيفه يموت[٣] » .

ثم أن فرار العامليين ونزوحهم من وجه سليمان باشا يدل صراحة على

---

(١) تاريخ الشام للخوري ابريك ص ١١

(٢) الغرر الحسان ص ٣٤ ط بيروت .

(٣) تاريخ الشام للخوري أبريك ص ١١ ثم ص ٤٢-٤٦ من تاريخ الشيخ أحمد البديري الحلاق طبعة سنة ١٩٥٩ م حيث يزعم ان الشيخ نصار بن علي الصغير ركب مع سليمان باشا لحصار الشيخ ظاهر العمر في طبرية ومعه اربع مابة متوالي .

أنهم لم يكونوا مستعدين لمحاربته كما يدل على أنهم كانوا خائفين من مجرد مروره ببلادهم ، ذلك بأن مرور العساكر ببلد ما يومئذ كان من لوازمه تسخير الأهالي ونهب مواشيهم وحاصلاتهم بدون أي تعويض .. وهذا ما كان يقصده الشهابي من قوله « نزل سليمان باشا في مرج قدس وخربت بلاد بشارة وبلاد ... » على أنه لا يعقل أن يكون جميع القرى العاملية اوالقرى البعيدة عن طريق العساكر – مثل تبنين وحاريص – قد فر اهلها من وجه الباشا وانما المعقول ان يفر اهل القرى القريبة من ممر العساكر – كميس الجبل وبليدة – اذ هي موضع الخطر والخوف من التسخير والنهب والتعسف .

٤ – اما موت سليمان باشا قرب طبرية او في قدس سنة ١١٥٦ فهو موضع الخلاف بين المؤرخين فمنهم من يرجحه كما يبدو من رواية صاحب خطط الشام [1] ومنهم من يصرح بأن وفاته كانت سنة ١١٥٧ هـ كما يبدو من رواية صاحب الغرر الحسان ص ٣٤ ومن تصريح الخوري مخائيل ابريك فيما تقدم من قوله « وتوجهت وزارة دمشق ثانياً على سليمان باشا سنة ١١٥٤ هـ واستقام ثلاث سنين وفي هذه المدة ركب على ظاهر العمر بطبرية وما انتفع بشيء ثم ركب ثانياً على طبرية وهناك مات » .

فموت سليمان باشا بعد الثلاث سنين من حكمه التي تبتدىء أثناء سنة ١١٥٤هـ يدل دلالة صريحة على انه مات اثناء سنة ١١٥٧ هـ :وكلام الخوري ابريك ادعى لان يؤخذ بفحواه ويعتمد على مضمونه لان صاحبه كان معاصراً لسليمان باشا ومواطناً لآل العظم في دمشق وبعيداً بجوه عن المنمنات التي عبثت بمؤلف الغرر الحسان وامثاله من اللبنانيين وجعلت كلامهم موضعاً للشك والحذر والتأويل .

---

(١) خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي م ٢ ص ٢٩٣

واقعة الخربة والقليعة ١١٦٣ هـ

يقول الاستاذ العلامة الشيخ سليمان ظاهر « وفي سنة ١١٦٣ هـ نشبت في قريتي الخربة والقليعة حرب بين عسكر الشيعة وعساكر الاميرين نجم وسيد احمد وكان عسكر الصفديين [1] منضماً الى عسكر الشيعة البالغ مجموعه ثمانماية فارس وراجل وانتهت الحرب بانتصار الشيعيين وحلفائهم الصفديين على الاميرين وقال من ارخ هذه المعركة ان قتلى الاميرين بلغت اكثر من الالف » .

العرفان م ٢٤ ص ٩٤٢

ما يلاحظه الباحثون

١ – ان المؤرخين اللبنانيين على اختلاف ميولهم لا يشيرون الى واقعة الخربة بقليل او كثير عندما يسردون حوادث سنة ١١٦٣ هـ ولعل اهمالها من قبل مؤرخي الشهابيين انما كان لاخفاء السبب الحقيقي الذي اثار حفيظة الامير ملحم شهاب ودفعه للغارة على جباع وبلاد المتاولة في تلك السنة حتى بلغ شحور ومارون .

---

(١) المراد بالصفديين هنا الفلسطينيين لا اهل صفد وحدهم ذلك بأن صفد كانت في العهود الاقطاعية وخصوصاً في عهد الشيخ ضاهر العمر – قاعدة حكم تسيطر على جل المقاطعات الفلسطينية .

٢ – ثم يلاحظ ان الاستاذ ظاهر يرويها في اماكن مختلفة وعلى وجوه متعددة مع اغفاله لذكر المصادر التي يعتمدها في رواياته كلها :

٣ – ثم انه يشير هنا الى ان عسكر العامليين في هذه الواقعة كان مؤلفاً من ٨٠٠ راجل وفارس بينما روايته في مكان آخر تجعلهم ٨٠٠ من الفرسان فقط .

٤ – ثم انه يصرح بأن الصفديين كانوا منضمين الى الشيعة في هذه المعركة وشركاء لهم في النصر والغلبة بيد انه لا يشير الى السبب في حشد اهالي وادي التيم لحرب المتاولة في ضواحي مرجعيون ولا الى سبب انضمام الصفديين الى المتاولة في هذه المعركة ؟ .

٥ – كما انه لا يشير الى انها وقعت بعد غارة الامير ملحم على جباع وبلاد المتاولة أو انها وقعت قبلها وكانت السبب المباشر لزحف الامير ملحم على جباع وبلاد المتاولة .

٦ – بيد انه يقول في مكان آخر من تعليقه على قصيدة الشيخ عبد الحليم النابلسي التي يمتدح فيها الشيخ ظاهر العمر زعيم فلسطين ويؤنب العامليين في ابيات منها .

ولكم فوادح ذادها عن حيكم   لولاه ما كنتم هناك رجالها
أنسيتم يوماً بلحم أولغت   بكم السيوف وأشبعت أطفالها
وبيوم مرجعيون لولا تذكر   ونكاته وضرابها وقتالها
يا عصبة جاءت بما لا ينبغي   ولربما جنت النفوس نكالها
فادّاركوا ان كان ثم بقية   ان الصنيعة ويحكم أولى لها
واستوثقوا في رأيكم بأولي النهى   ما عز قوم قلدت جهالها

يقول الاستاذ ظاهر في تعليقه على قول النابلسي (أنسيتم يوماً بملحم أو لغت) ان اليوم الذي يلمح اليه هو يوم زحف الامير ملحم شهاب بخيله

ورجله على جبل عامل سنة ١١٦٣ هـ وتدويخه البلاد حرقاً وقتلاً ، ووقف به عن التوغل استنجاد العامليين بالشيخ ظاهر العمر [١] وقد ذكرنا – ويعني نفسه – هذه الحادثة باسهاب في التعليق على قرية جبع [٢] .

ثم يقول في التعليق على قول النابلسي (وبيوم مرجعيون) بأنه « يوم للعامليين ورجال الشيخ ظاهر العمر على الدروز والأميرين الشهابيين نجم وسيد احمد ، وهو الذي احفظ عليهم الامير ملحم فكان منه ما ألمعنا اليه في التعليق المتقدم وكان حدوثه في السنة نفسها [٣] » اي في السنة التي كانت فيها حادثة القليعة والخربة وهي سنة ١١٦٣ هـ .

فاذا لاحظنا ان الامير ملحم لم يزحف على جبل عامل مرتين في سنة ١١٦٣ وإنما زحف مرة واحدة ابتدأت بجبع وانتهت ببلاد بشارة على ما تؤكده الروايات المختلفة وخصوصاً رواية الامير حيدر الشهابي .. بدا لنا من قول الاستاذ ظاهر « يوم انتصار الشيعة على الدروز في معركة مرجعيون هو الذي احفظ الامير ملحم ودفعه للزحف على جبع وبلاد بشارة » بدا ان حادثة القليعة ومرجعيون كانت قبل الزحف على جبع وبلاد بشارة لأنها – على موجب هذا القول – السبب في ذلك الزحف ، والسبب لا بد ان يكون متقدماً في الوقت على المسبب عنه والا لما كان سبباً له بل كان غاية وهدفاً .

واقعة جبع كما يرويها طنوس الشدياق ١١٦٣ هـ

يقول صاحب اخبار الأعيان المعلم طنوس الشدياق « وسنة ١٧٥٠ تطاولت المناكرة الشيعية على بعض اقليم جزين وقتلوا رجلين من اصحاب الشيخ علي جنبلاط فعظم ذلك على الامير ملحم فجمع الجموع وحشد لقتل المتاولة

---

(١) العرفان م ٩ ص ٤٢٥ .

(٢) لاحظ العرفان م ٨ ص ٣٤٨ .

(٣) لاحظ العرفان م ٩ ج ٥ ص ٤٢٥ .

المذكورين وسار الى جزين ومنها الى اجباع الحلاوة التي كان فيها بنو منكر فالتقي الجيشان واصطدم الفريقان فظفر بهم الامير واهلك منهم ثلاثمائة رجل وفر الباقون الى مزار هناك فتحصنوا فيه فوجه اليهم الامير كتيبة من جيشه صحبة الأمير مراد اللمعي والشيخ ميلان الخازن فغاروا عليهم فظفروا بهم واهلكوهم جميعاً ثم شنّ الامير الغارة على باقي تلك الديار ورجع الى بلاده مؤيداً » .

اخبار الاعيان طبعة ثانية ج ٢ ص ٢٩

ما يلاحظه الباحثون

١ – انه لو صح وقوع هـذا الحادث الذي يفترض سبباً لأي هجوم من حكام الشوف على جبل عامل في عهد الشهابيين ... فان صحته لا تستوجب -- عرفاً ولا شرعاً – مثل هذه الحملات التعسفية الغادرة ثم اباحة البلاد جميعها للقتل والنهب والدمار ، وانما تفرض صحة هذا الحادث على حكام الشوف أن ينذروا حكام المناكرة في جبع ويطلبوا منهم تسليم القتلة والمعتدين أو يفرضوا عليهم الغرامة الشافية لنقمتهم ، حتى إذا قنطوا من جدوى هذه الوسيلة لجأوا إلى اساليبهم المعهودة في مثل هذه الحال وذلك بأن يضمنوا مقاطعات المناكرة من والي الايالة ويخضعوا حكامها واهاليها لارادتهم وجشعهم وجبروتهم ، أما أن يهاجموا البلاد العاملية بغتة بدون أي التفات لما يوجبه العرف وشرع الدولة ومشيئة والي الإيالة .. فذلك مما يوجب الشك في صحة وقوع ذلك الحادث المفترض سبباً لغارة الأمير وخصوصاً عندما نصغي الى الرواية التي تنسب حادث الغارة على جباع لانتصار الشيعة على امراء وادي التيم الشهابيين في معركة الخربه والقليعة وانه مما اثار حفيظة الامير ملحم على المتاولة وجعل منه وسيلة لتنفيذ مآربه العدوانية .

٢ – ثم إذا اعتبرنا أن السبب الذي حرك الامير ملحم للغارة على بلاد المتاولة هو غضبه للتعدي على حقوق الجنبلاطيين وعلى رجالهم فهذا

السبب يوجب أن يكون ابطال هذه الغارة من الدروز والجنبلاطيين وعليه فما الموجب لاختفاء ذكرهم فيها وظهور الموازنة مع الشيخ ميلان الخازن والامير مراد اللمعي دون غيرهم من مشايخ الشوف مع أن هؤلاء كانوا أشد بأساً وأمضى عزيمة في الحروب من سواهم وخصوصاً عندما تكون الأسباب متعلقة بالدفاع عن حقوقهم وكرامتهم!

ألا يدلنا ذلك على تلاعب النساخ والمؤرخين، أو على أن حكم الشوف كان حقيقة بيد مدبّري الأمير لا بيده. هـذا اذا لم يضطرنا للشك بصحة ذلك الحادث الذي افترض سبباً مباشراً لتلك الحملة؟

٣ - ثم اذا لاحظنا أن المزار الذي تحصن به الفارون من المعركة هو مزار (صافي) لا غيره المشرف على جباع وعلى ارض المعركة (في جل الشوك)، ولاحظنا أن هذا المزار لم يزل كما كان يومئذ في حجمه وطبيعة بنائه لا يتسع - على اكبر افتراض - لأكثر من ١٦ شخصاً او ٢٠ وأن محله الطبيعي يسهّل للمقيمين به أن يروا القادمين عليهم من بعيد ومن أي جهة ويهيىء لهم أن يفروا ويختفوا بين الأدغال بسرعة تحول بينهم وبين أي قاصد أو طامع. ثم لاحظنا ان الفارين .. انما يفرون عادة الى الجهة التي تحجبهم وتبعدهم عن عين العدو وعن حدود المعركة .. لا الى الجهة التي تقربهم من العـدو ومن حدود المعركة كما يفترض في فرار المتاولة من معركة جل الشوك الى مزار صافي.

إذا لاحظنا كل هذه الاعتبارات بدا لنا جلياً ان الذين لجأوا الى المزار - إذا صح الخبر - ليسوا سوى قلة من العاجزين عن حمل السلاح أو من النساء والاطفال الذين لا يستوجب فرارهم إرسال كتيبة من رجال الامـير اللمعي والشيخ الخازني.. إذا صح أن هذه العبارة لم تكن من وحي العنعنات العائلية، أو صح أنه وقعت معركة حقيقية بين جيش الامير ملحم والمتـاولة، ولم يكن المقتولين من المتاولة ممن اطمأنوا لجيش الامير او ممن فرّوا من وجهه تجنباً للشر، كما يتضح من رواية الامير حيدر أحمد التالية:

واقعة جباع كما يرويها الشهابي

يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي : « وفي سنـة ١١٦٣ هـ تطاول المشايخ بني منكر على اقليم جزين وقتلوا اثنين من رجال أتباع الشيخ علي جنبـلاط فعظم ذلك على الامير ملحم وجمع عسكر البلاد وركب على جبع الحلاوي فهربت المتاولة من أمامه فأحرق اكثر بلادهم ورجع منصوراً الى دير القمر ، وكانت الواقعة في جبل الشوق الذي فوق جبع – جل الشوك ويمتد من سفح مزرعة الرهبان الى جنوبي المرجة في جبع – وقتل من المتاولة نحو ثلاثمـاية قتيل وحرق الامير ملحم حارة جباع وقطع الاشجار وأحرق بلاد الشقيف وبلاد بشارة ، وفيها كسر الأمير ملحم أموال الميرية وطلب من البـلاد تفريعة من كل رجل قرش فقط » .

تاريخ الغرر الحسان طبعة بيروت م ١ ص٤١

ما يلاحظه الباحثون

٢– يقول النابهون من آل منكر انهم ينتمون الى قيس بن عاصم المنقري سيد أهل الوبر ، وانهم بناء على ذلك – من آل (منقر) بالقاف لا بالكاف وان تحريف القاف الى كاف انما كان تندراً من المتحاملين على اسرتهـم .. ويؤيد هذا القول منهم انه لا يعقل ان تنتسب اسرة عربية مسلمـة تعرف حكاية منكر ونكير من الوجهة الدينية ثم تعرف معنى المنكر من الوجهة اللغوية – الى منكر أو أن تسمي به أحداً من ابنائها واعلامها إلا إذا خرج ذلك عن محض ارادتها واختيارها .

٢ – ويلاحظ من رواية الشهابي تلك ان المتاولة لم يحاربوا عسكر الامير ملحم في غارته على جباع وانما فروا من وجه العدوان المباغث وتركوا البلاد عرضة للنهب والحريق فكان من تعسف جيش الامير ما لا مبرر له من سفك الدماء البريئة

٣ – ثم إذا لاحظنا ان الامير ملحم – على اثر تلك الغارة المشؤومة – كسر الاموال الميرية المفروضة على مقاطعاته – أي اظهر العجز عن دفعها – ثم طلب من أهل البلاد تفريعة (أي توزيع ضريبة مالية)... بدا لنا من خلال ذلك ، ومن خلال الاعتبارات التي أوضحناها في التعليق على حوادث سنة ١١٥٧ هـ : ثم من خلال اضطراب المؤرخ الشهابي في سرد الحوادث التي تلت واقعة جباع وتقدمتها .. بدا لنا من خلال ذلك كله ان الدولة غرمت الامير ملحم لتجاهل مكانها ومشيئتها .. أو أن الامير نفسه كان قد اطمع والي الإيالة بمبلغ خيالي من المال ليغض عنه النظر في تلك الحملة الغادرة .. وحين عجز الامير عن دفع المبلغ المعهود أو عن تحضيره لجأ الى كسر المال الميري ثم الى توزيع الضريبة على اللبنانيين .

واقعة جبع كما يرويها العامليون

يروي الاستاذ ظاهر انه « سرق لرجل من الشوف بغلة فاتهم بها أحد العامليين .. فاعتدى بعض الشوفيين على عاملي غير المتهم فجرحه ، ولما نمي الخبر الى الشيخ ظاهر النصار بعث ببعض رجاله فترصدوا جسر الأوّلي على الشوفيين فقتلوا منهم رجالاً فاغتاظ من ذلك الامير ملحم وزحف بعسكره على جبل عامل فأحرق قرية جبع وقتل كثيرين من سكانها وسكان ما يليها من أعمال اقليم التفاح وبالغ في تخريب البلاد فاجتمع عسكر الشيعة في النبطية وكانوا ثماني مائة فارس فزحفوا على الخربة والقليعة لمحاربة الاميرين نجم وسيد أحمد الشهابيين المرابطين فيها بعسكرهما فطردوا الاميرين بعد أن قتلوا من عسكرهما ما يربو على الألف وأتوا منصورين ، فعظم الامر على الامير ملحم فأحرق اقليم التفاح ومشى بعسكره الى بلاد الشقيف فأحرقها

ثم قصد بلاد بشارة فالتقاه من الشيعة سبعون فارساً بأرض دير قانون النهر فحدثت معركة انجلت عن قتل الشيخ مراد نصار ، واحرق الامير قريتي شحور ومارون وبعض القرى فاستنجد المشايخ العامليون الشيخ ظاهر العمر فأنجدهم بالصفديين ولما بلغ الامير خبر مجيئهم بجيشهم لقتاله تراجع بعسكره عن البلاد بعد ايغاله فيها وتخريب ما خربه وحرق ما احرقه منها .

العرفان م ٨ ص ٣٤٨

ما يلاحظه الباحثون

١ – كان مقر آل نصار وعلي صغير في قرية شحور وقلعة مارون يومئذ وكان حكمهم في بلاد بشارة ولم يكونوا قط حكاماً للمقاطعات الكائنة على حدود جزين والشوف وانما كان حكامها من آل منكر (منقر) .. واذن فما الذي اوجب الشيخ ظاهر النصار لان يتصدى وحده للرد على عدوان الشوفيين دون المناقرة مع كون هؤلاء هم الحكام المسؤولين على حدود الشوف ؟ وهل كانوا بحاجة الى رجال اشداء للقيام بمثل هذه المغامرة عندما تدعو اليها الحاجة ؟ ام ان السر في هذه الرواية لا يزال غامضاً .

٢ – ثم بعد لماذا اختار الشيخ ظاهر النصار جسر الاولي دون غيره من المواقع الكثيرة على حدود الشوف العاملية .. لتمثيل هذه المجازفة بالقرب من مدينة الباشا ومقر والي الايالة وفي هذا الاختيار من التحدي او التجاهل لمقام الباشا ما يدفع الباشا الى التهاون بواجبه نحو المتاولة كرعية للدولة ان لم يدفعه الى معاضدة اخصامهم في التنكيل والتشفي .. كل هذا مما يبعث الشك في حقيقة تلك الرواية او في سلامتها من التحريف والاضطراب .

٣ – ثم انه لا يفهم من سياق هذه الرواية ان الامير ملحم عاد الى مقره في الشوف بعد تدمير جباع وما يليها .. وانما يفهم من السياق ان ملحم

استمر في زحفه حتى بلغ شحور ومارون ، وهذا ما تؤيده الروايات المختلفة.

واذا صح ان الامير ملحم استمر في زحفه من جبع حتى مارون . فان اجتماع المتاولة في النبطية - اثنـــاء ذلك - ثم تحولهم الى الخربة والقليعة لمقاتلة دروز وادي التيم وامرائهم المرابطين في ضواحي مرجعيون.. بدلا من ان يقفوا في وجه الامير ملحم وعسكر الشوف الذي كان يجتاح البلاد ويشكل اكبر خطر عليهم وعليها .. فان تحولهم هذا يتنافى مع ابسط مظاهر الحزم والتدبير ان لم يعد تهرباً من معركة دائرة الى معركة محتملة الوقوع :

لذلك نرجح ان تكون معركة الخربة والقليعة متقدمـة على واقعة جباع لا متأخرة عنها كما يبدو من هذه الرواية .

٤ - ثم لو صح ان معركة القليعة كانت بعد معركة جبع او اثناءها كما يبدو من سياق هذه الرواية وصح أن الصفديين كانوا مع المتاولة في هذه المعركة كما يتضح من الرواية الاولى .. فكيف يتخلى الصفديون عن المتاولة بعـد كسب معركة القليعة ويتركونهم وحدهم في غمرة الحرب مع الامير ملحم الذي كان يجتاح البلاد اثناء معركة القليعة وبعدها ويشكل بمحاولاته الطائشة وجيشه الجرار أكبر خطر عليهم وعلى بلادهم ؟

٥ - ثم بعد ما معنى الاستنجاد بالصفديـــين بعد أن يبلغ جيش الامير ملحم اقصى حدود جبل عامـــل من الشمال الى الجنوب الى ان دمر (مارون) أو ما الفائدة من هذا الاستنجاد بعد خراب البصرة أو بعد أن بلغ ملحم مأربه ؟

٦ - ثم أن هذا الاستنجاد بالصفديـين لا يتسق مع المنطق السليم إلا إذا اعتبرنا حادثة القليعة والخربة كانت مستقلة عما تلاها من حوادث وانها كانت من أسباب زحف الامير ملحم على جباع والبلاد العاملية .. ثم اعتبرنا أن المقصود من (مارون) هو قلعة مارون القريبة من قرية شحور وعلى مسافة

ثلاثة اميال منها للجنوب الشرقي لا قرية (مارون الراس) التي تتصل أرضها بأرض فلسطين : كما يتبادر الى الذهن من اطلاق لفظة (مارون) مجردة عن لفظ القلعة :

٧ – ثم اذا لاحظنا ما سيأتي من ان ملحم – وهو على نبع القصيبة – عرف بحادثة القليعة في ١٢ ذي القعدة وانه بناء على ذلك رتب خطط الحملة وسار من القصيبة الى (عين ابي عبد الله) الى (دير قانون النهر) الى شحور ومارون : ثم لاحظنا بعد انه بلغ مارون ودمرها في اليوم الثالث عشر من ذي القعدة .. بدا لنا من خلال ذلك ان المقصود من لفظة مارون في هذه الحملة هو – قلعة مارون القريبة من شحور لا قرية مارون الراس . التي تتصل ارضها بأرض فلسطين ..اذ لا يعقل ان ينتقل ملحم بجيشه البالغ عشرة آلاف مقاتل من نبع القصيبة الى عين ابي عبد الله ومنها الى دير قانون النهر حيث خاض معركتها مع البشارية ثم امتد الى شحور ثم وصل الى قرية مارون الراس ودمرها في يوم واحد .. مع ان مجرد الانتقال من القصيبة الى عين ابي عبد الله الى دير قانون الى شحور فمارون الراس يحتاج الى اكثر من يوم ؟ فكيف به مع الحرب ثم احتلال القرى وهدمها واحراقها على ما يبدو لك من تفاصيل الرواية التالية :

واقعة دير قانون النهر ١١٦٣ هـ

ثم يروي الاستاذ ظاهر « وفي سنة ١١٦٣ هـ حدث عدة حوادث بين الشيعة ومحالفيهم الصفديين والدروز والامير ملحم الشهابي:

وفي اليوم الثاني عشر من ذي القعدة كان الامير ملحم معسكراً بجيشه الجرار على نبع القصيبة مستعداً لمحاربة الشيعة فنمي اليه حدوث موقعة في أرض القليعة من أعمال مرجعيون بين الاميرين نجم وسيد أحمد الشهابيين من أمراء وادي التيم وبين الشيعة وانتصار الشيعة على عسكرهما ، فأشار عليه

أصحاب الرأي من رجاله بأن يباغت بلاد بشارة مصبحاً قبل اجتماع رأيهم على أمر يصلحهم ، فتقيم الضجة في بلادهم ويلقي الرعب في قلوبهم وعسكرهم فتفرقه وبذلك ينال منهم مأربه بإخضاعهم ، فاستحسن هذا الرأي ومشى بجيشه الى الغرب من القصيبة وقطع به مخاضة (عين ابي عبدالله) على نهر الليطاني ، وكان مشايخ بلاد بشارة مرابطين على جسر القاقعية فبلغهم خبر زحفه فلاقوه مسرعين في أرض دير قانون النهر بنفر يسير نحو خمسين رجلاً فحاربوا عسكر الامير ملحم بهذا العدد القليل وكان عدد جيشه زهاء عشرة آلاف ، فانجلت الواقعة عن قتل أربعة رجال منهم وخمسة من رجال الامير ملحم ، وكان من جملة قتلى الشيعة الشيخ مراد بن نصار الصفيري . ثم انصرف عسكرهم بجماية وبلغ الأمير قريتي شحور ومارون فهدمها وأحرقها في ١٣ ذي القعدة من هذه السنة » .

العرفان م ٢٤ ص ٧٩٩

ما يلاحظه الباحثون

١ - يبدو من تعميم العبارة الأولى في هذا النص ان الصفديين اشتركوا مع العامليين في كل المعارك التي جرت بينهم وبين الدروز ، مع ان الصفديين لم يشتركوا مع العامليين إلا في معركة الخربة والقليعة ، وضد الأميرين الشهابيين نجم وسيداحمد ، ولم يكن الامير ملحم مشتركاً فيها .. كما أن المعارك التي جرت بين العامليين والامير ملحم في تلك السنة لم يشترك فيها الصفديون .

٢ - لقد أشرنا فيما تقدم من ملاحظاتنا على رواية العامليين عن واقعة جبع الى أسباب ترجيح القول « بأن معركة القليعة كانت متقدمة على واقعة جبع فلا داعي لتكرار القول هنا بتقدمها وبكونها من الأسباب الفعالة للغارة على جبع وبقية البلاد العاملية .

٣ - ثم أن الامير ملحم لم يعسكر بجيشه على نبع القصيبة لمجرد النزهة

وانما ساقه الى النبع استعداده لاتمام غارته على البلاد العاملية التي ابتدأها في جبع كما تصرح به الروايات المختلفة المصادر .. فمعرفة الامير بحادثة القليعة عندما كان معسكراً على نبع القصيبة او قبل ذلك لا يمكن ان يزيد او ينقص او يغير من عزمه وتصميمه شيئاً .

٤ – ثم اذا صح ان مشايخ بلاد بشارة كانوا مرابطين على جسر القاقعية – آن ذلك – فقد تكون معرفة الامير ملحم بكونهم مرابطين في ذلك المحل هي التي أوحت له أن يباغت البشاريين من خلفهم وأن يسلك بجيشه الطريق الذي سلكه الى عين أبي عبدالله ثم الى دير قانون ، ثم الى شحور فارون وغيرها .. لا معرفته بانتصار الشيعة في واقعة الخربة والقليعة .

٥ – ثم انه ليس من الطبيعي ان يكون مشايخ بلاد بشارة – الذين رابطوا على جسر القاقعية – مرابطين بخمسين راجل أو أن يكونوا بهذا العدد اليسير اضطروا الامير ملحم وجيشه الجرار لأن يغيروا طريقهم في الزحف على بلاد بشارة .. ثم أن يكونوا بهذا العدد القليل أسرعوا من جسر القاقعية الى دير قانون ليحاربوا جيشاً يبلغ عدده عشرة آف مقاتل كما تنص الرواية ؟

أجل ان في هذه المبالغة في تقليل العدد بالنسبة لمعسكر العامليين ثم تكثيره بالنسبة لمعسكر أخصامهم ما يدعو للشك ؟!

ولعل السر في انهزام العامليين لدى واقعة دير قانون لا يرجع الى قلتهم وكونهم خمسين رجلاً او سبعين فارساً – على ما تقوله الروايات المختلفة – ولا الى كثرة أخصامهم وكونهم عشرة آلاف مقاتل.. بل يرجع السر في انهزامهم.. إلى أن الحرب في ذلك الزمن لم تكن بين جيوش منظمة أو مدربة على أساليب الهجوم والدفاع ومعرفة متى يقدمون ومتى يتراجعون ومتى يصمدون للعدو ، وانما كانت الحرب أشبه ما تكون (بالهوشة) أو الفورة الوقتية .. فالفئة التي يتاح لها أن تسبق الى الفتك بمقدمة أخصامها أو الى قتل بعض قادتهم تكون الفئة الغالبة ، والفئة التي تباغت بشيء من ذلك يمسّها الوهن والجزع

وتلجأ الى الفرار . ولا يبعد أن يكون انهزام العامليين في واقعة دير قانون ناشئاً عن مثل هذه المؤثرات والصدف وأن يكون لمقتل الشيخ مراد النصار مع ثلاثة من أتباعه الأثر الفعال في تخاذل العامليين وانسحابهم وانهزامهم من وجه العدو . يقول الرحالة الافرنسي (فولني) أثناء وصفه لحملة أبي الذهب وظاهر العمر ، وناصيف النصار على دمشق سنة ١٧٧١ م .

يقول فولني « لا إلمام للآسيويين –ويقصد عرب مصر وسورية– بالمبادىء الحربية ، فجيوشهم فوضى وزحفهم نهب وحملاتهم غزوات ومعاركهم اعتراك يسعى أقدرهم أو أجرأهم الى الآخر فينهزم غالباً دون نزال .. فاذا ثبت نشبت الحرب واختلط المتقاتلون وتلاحموا وتفجرت البواريد وتحطمت الرماح وكثيراً ما يسود الرعب ولا سبب له فيهرب فريق ويزحمه الآخر منادياً بالنصر ، وكثيراً ما تتقرر المعركة بعد مقتل رجلين أو ثلاثة » .

ثلاثة أعوام في مصر والشام لفولني ص ٨٧ ثم ص١١٩

ويقول الخوري قسطنطين الباشا في تعقيبه على انهزام جيش الكنج يوسف باشا في معركة الجديدة سنة ١٢٢٥ هـ يقول « وكان يكفي فيها – أي في المعارك الحربية يومئذ – أن ينادي بعض قادة الجيش كسرة كسرة وينهزم أمامهم فيلحقه أصحابه بالانهزام وبذلك تتم الموقعة بانتصار العدو وان لم يقتل فيها أحد .. وربما قتل بالانكسار أو بالانهزام كثيرون » .

تاريخ ولاية سليمان باشا ص ١٣٠

وعلى موجب ذلك فلا يعرف من رواية الاستاذ ظاهر بأي حالة قتل الشيخ مراد النصار واتباعه الثلاثة في واقعة دير قانون . أقتلوا في حالة الهجوم على جيش الامير ملحم ، أو في حالة الصمود له ، أم في حالة الفرار والانهزام ؟ فان لكل حالة من هذه الحالات حكمها التاريخي الخاص .

من خلال القرائن والنصوص

ربما تلخص من مجمل الروايات التي عرضت للبحث أن امراء

وادي التيم الشهابيين لأمر ما حشدوا قواتهم الحربية في ضواحي مرجعيون سنه ١١٦٣ هـ فتحالف العامليون مع الصفديين واشترك الجمع في معركة الخربة والقليعة فانكسرت قوات الاميرين الشهابيين نجم وسيد احمد وقتل منهم مقتلة عظيمة

فأثار خبر هذا الحادث حفيظة حاكم الشوف الأمير ملحم شهاب فحشد قواته من رجال الشوف وغار بهم على جباع وجبل عامل وكان منه ما كان في جباع ودير قانون وشحور وقلعة مارون ولم يتراجع على ما قيل حتى عرف بقدوم نجدة للعامليين من الشيخ ظاهر العمر .

ثم يبدو أن الدولة العثمانية غرمت الأمير ملحم على أثر تلك الغارة لتجاهله مكانها ومشيئتها أو أن الأمير ملحم نفسه كان قد اطمع والي الإيالة بمبلغ خيالي من المال ليغض عنه النظر . وعندما عجز أو أظهر العجز عن دفع المبلغ المعهود .. لجأ الى كسر المال الاميري المترتب على مقاطعاته . ثم الى توزيع الضريبة على اللبنانيين .

ثم يبدو لمن يراجع تاريخ الأمير حيدر الشهابي وخصوصاً طبعة مصر ويلاحظ اضطراب المؤرخ في سرد الحوادث الواقعة بين سنة ١١٦٣ و ١١٦٧ هـ يبدو له من خلال ذلك أن الأمير ملحم لدى امتناع اللبنانيين عن دفع الضريبة لجأ الى إيقاع الفتنة بينهم ثم الى تلبيس الأمور عليهم حتى حصّلها مضاعفة وأحال وحدتهم الى انقسام بين يزبكية وجنبلاطية [١] .

كما يبدو له من تتبع تاريخ الشهابيين في لبنان أن غارة الأمير ملحم على العامليين في سنة ١١٦٣ هـ كانت اخر غاراته عليهم بل آخر غارات الشهابيين ما عدا حملة الأمير يوسف سنة ١١٨٥ هـ ثم حملته الثانية سنة ١١٨٦ هـ حيث انهزم فيها شر هزيمة كما سيتضح من بحث الحوادث التاريخية في عهد الشيخ ناصيف النصار .

---

(٢) راجع ص ٧٧٤ وما تلاها وتقدمها من الطبعة المصرية ثم تأمل التناقضات .

المتاولة في عهد الشيخ ظاهر العمر

من معضلات التاريخ

اذ صح تعريف التاريخ – كما يقول فلاسفة التاريخ – بانه « هو الانسان بشره وخيره، وبكدره وصفوه وفي كل ظروفه واوضاعه، في حربه وسلامه، وفي فقره وغناه ، وفي خبثه وبرائته ، وفي غطرسته وتواضعه ، وفي جهله وعلمه ، وفي أساه وبهجته » .

فان من معضلات التاريخ ان يتولى أمر تدوينه اناس لم يتسن لهم ان يستقطبوا الحوادث وان يتلقوا معلوماتهم من مواردها الاصيلة الصافية او ان يكونوا من الكفاءة وحرية العمل بحيث يحسنون فهم الاوضاع والظروف والملابسات ويحسنون التعبير عما يجسدها من الحوادث والمظاهر بدقة وامانة تيسّر للباحث فهم ما يقصدون في عبائرهم ومؤلفاتهم .

لذلك يحار القارىء لدى مراجعة آثارهم التاريخية بين المجهول المنسي من الوقائع وبين المسجل والمحفوظ منها ، فهو حين يبحث عن المجهول المنسي لا يرى له أثراً فيما يقرأ من سطور وعبائر ، وحين يبحث عن المسجل المحفوظ لدى مؤرخينا هؤلاء .. يرى اكثر النصوص والعبائر قاصرة ومشوشة يتيه الفكر بين ادغالها ولا يصل الى شيء يحسن السكوت عليه الا بعد الجهد والعناء الطويل في البحث والمقارنة والتحليل .

وحسب القارىء شاهدا على ما اقول هذه النصوص والعبائر الموجزة

الغامضة في اشارتها ودلالتها بحيث لا يفقه القارىء منها شيئاً بغير التخمين والحدس، وذلك مثل قولهم « وفي سنة ١٠٤٨ هـ صارت وقعة انصار من بلاد الشقيف » .

وسنة ١٠٧١ هـ كانت وقعة عيناثا .

وسنة ١٠٧٧ هـ كانت وقعة النبطية وانتصر المشايخ .

وسنة ١٠٧٨ هـ كانت وقعة وادي الكفور [١] .

* * *

ومثل قولهم « وفي سنة ١٠٩٥ هـ صارت وقعة وادي الحبيس وخربت بلاد بشارة أجمع ونهبتها القبلية مع الشيخ علي بن الشيخ احمد ، وكان حاكمها الحاج زين » [٢] .

* * *

ومثل قولهم « وفي ٢٢ من صفر سنة ١١٧٢ هـ طلع سعد الدين باشا العظم الى بلاد بشارة وقتل ونهب » .

« وفي ١٦ ربيع أول صار بين الشيخ قبلان والشيخ ناصيف والباشا المذكور وقعة عظيمة في رأس العين ، وقتل من الفريقين قدر ثمانين رجلاً » [٣] .

الحوادث بين انصار وقلعة ميس

ثم هذه الابحاث الطويلة العريضة في توضيح بعض النصوص الملتوية القاصرة من مذكرات الركيني : حيث يروي الركيني

(١) لاحظ ص ٢١ من العرفان م ٥ .
(٢) لاحظ ص ٢٦٣ من العرفان م ٨ .
(٣) لاحظ ص ٥٢٧ من العرفان م ٢٧ .

نفسه – وهو من المعـــاصرين للحوادث « انـــه في ســـنة ١١٦٧ هـ صبيحـــة الاربعاء يوم الحادي عشر من جمـــادى الأول جاء مصطفى باشا من صيدا الى انصار فكبسها (باغتها) ونهبها نهبة عظيمة ومسك الحاج محمد الحمادة وسليمان جواد واخذهم معه الى صيدا » .

ثم حيث يقول « وفيها (١١٦٧ هـ) صبيحة الخميس ركبت خيالة عباس العلي [١] وكبسوا الدولة في مفراقة انصار ٢٣ رجب » [٢] .

ما يلاحظه الباحثون

كان من عادة بشوات الاتراك إذا تمـــرد عليهم حاكم اقطاعي أن يؤلبوا عليه مجاوريه من حكام المقاطعات ويوكلوا اليهم أمر التنكيل به وتأديبه أما أن يتولى الباشا بنفسه أمر ذلك أو يشترك فيه فهذا قلمـــا يكون إلا لدى المخالفات الجسيمة ، وحين لا يكون في الحكام المجاورين من يقوى على تأديب ذلك العاصي منهم .

فما عسى أن تكون تلك المخالفات التي ارتكبها حاكم مقاطعـــة اقليم الشومر في انصار وقلعة ميس ؟ فان الراوي لا يذكر شيئاً من أسباب تلك المباغتة لقرية أنصار مع انه يجب ان تكون من الأسباب الهامة بنظر الباشا ! كالتخلف عن دفع الأموال المفروضة على المقاطعة أو الاخلال بالامن والاعتداء على رجال الدولة بالقتل والسلب وما أشبه ذلك من الأمور التي كانت تستفز حكام الدولة وتحرجهم.

ثم أن الراوي لا يذكر تفاصيل تلك الحوادث وكيف جرت ، وكل مـــا يظهر من سياق روايته أن الأهالي قد فروا من وجه الباشا ولم يقتل منهم أحد

---

(١) يصرح العلامة ظاهر ص ٣٤٦ من العرفان م ٨ بأن عباس العلي هذا هو حاكم صور مع ان حاكم صور يومئذ هو عباس المحمد من آل الصغير ، وعباس العلي هذا حاكم الشومر من آل منكر أو منكر .

(٢) لاحظ ص ٥٢٧ من العرفان م ٢٧ .

ولذلك اكتفى من الغارة على أنصار بنهبها واعتقال بعض الوجوه أو بعض المسؤولين فيها ، ثم يظهر من مباغتة خيالة عباس العلي لعسكر الدولة في مغراقة انصار [1] بعد ذلك في ٢٣ رجب ، أن عباس العلي كان هو المطلوب في حملة الباشا على انصار ، وأن عسكر الدولة ظل يتعقب عباس العلي . ولعله هو حاكم المقاطعة يومئذ كما يبدو من حوادث سنة ١١٧٩ حيث يروي الركيني ما نصه :

« وفيها في نصف رجب انكسر في البحر غليون أهل الروم واختلف عليه مشايخ بلاد بشارة وعباس العلي ، وبعد هذا ضبطته الدولة بامر باشا صيدا » .

ثم يروي بعد ذلك « وفيها يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان طلع باشا صيدا ومعه عسكر الدروز الى قلعة ميس وحاصروا لعباس العلي» .

ثم يقول « وفيها (١١٧٩ هـ) خربت اقليم الشومر وحاصر عباس العلي وعلي منصور في قلعة ميس ، وركب الشيخ ابو حمد الى قرية طرفلسيه واخذ معزة عباس العلي وبعض جمال وخيل وسلبوا بعض اناس » . [2]

وكما يبدو من مشاركة عباس العلي لمشايخ البلاد في معركة كفر رمان والنبطية سنة ١١٨٥ ثم في معركة الغازية وحارة صيدا سنة ١١٨٦ حيث يصرح الشاعر الفلسطيني شناعة المريجي ، باسم عباس العلي لدى وصف معركة كفر رمان والنبطية ومدح ابطالها اذ يقول في زجليته اللامية :

* * *

« شفت اخو يسرى واسعد كالفهود

---

(١) مغراقة انصار واد فسيح بين انصار وقلعة ميس والزررية .

(٢) لاحظ ص ٦٢٧ من العرفان م ٢٧ .

شفت عباس العلي بومن نزل » [١]

* * *

كما يصرح باسمه واسم عباس المحمد حاكم صور لدى وصف معركة الفازية والحارة وذكر ابطالها بالزجلية الهائية اذ يقول فيها ما نصه :

« وعباس المحمد كان حاضر	برمحو جـال بالهيجا وجاها
وعبـاس العلي ذيب المثالي	اخو شيرى بنيرانو حماها [٢]

* * *

الحوادث بين صور وقلعة هونين

.. ثم اذا لاحظنا ما يقوله الركيني عن حوادث سنة ١١٦٧ هـ « وفيها يوم اربعاء تاسع شهر ذي القعدة ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس مع الشيخ ظاهر العمر على اولاده الى طبريا ولم يركب معهم الشيخ قبلان [٣] بدا لنا من خلال ذلك اول عامل من عوامل الصداقة بين الشيخ قبلان والشيخ علي بن ظاهر العمر » .

ثم اذا لاحظنا بعد ما يقوله الركيني عن حوادث سنة ١١٧٩ « وفيها في اليوم الثامن من شهر ربيع الاول وكان يوم الاثنين ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس بعسكرهم وعسكر الدرفة « لعله يعني المرسل والمدروف من قبل الدولة او من قبل الدروز » الى وادي المعظمية [٤] الى عسكر علي الظاهر فكسروه كسرة عظيمة وذبحوا

(١) لاحظ ص ١١٩ من جبل عامل في التاريخ .

(٢) لاحظ ص ١٩٧ من مجلة الكلية البيروتية م ١٥ ثم لاحظ ص ١٢٩ من جبل عامل في التاريخ .

(٣) — لاحظ ص ٥٢٥ – ٥٢٦ من العرفان م ٢٧ .

(٤) — وادي المعظمية يقع شمال قرية الجش الفلسطينية ويبعد عن تبنين مسافة يوم على الدواب لاحظ ص ١٤ من يوميات الرحالة ربنصون ج ١ .

من الصفدية قدر مايتين وخمسين رجلا »[1] .. بدا لنا ايضا ان الشيخ قبلان لم يشترك مع مشايخ المتاولة في هذا الركوب لان الركيني لم يذكر اسمه مع من ركبوا على الصفدية وبدا ان المودة بينه وبين الشيخ علي الظاهر باتت تنمو وتزداد ، ثم بدا من اشتراك عسكر الدروز في حملة ناصيف وعباس المحمد هذه انها كانت بتواطؤ مع حكام الدروز والدولة كما يستفاد من حملة الشيخ قبلان والشيخ علي الظاهر بعد ذلك على دروز ابل السقي حيث يقول الركيني:

« وفيها (١١٧٩ هـ) في شهر جماد الآخر ركب علي الظاهر وقبلان الى مرجعيون الى قرية ابل فقتلوا من الدروز قدر ستين رجلا وقتل منهم قدر خمسة عشر رجلا »[2] .

ومما يشعرنا بتواطؤ حكام الدروز مع ناصيف وعباس .. انهم بعد حملة علي الظاهر وقبلان على دروز ابل السقي .. اجتمعوا في حاصبيا اجتماعاً يكاد ان يكون مظاهرة ضد علي الظاهر وقبلان كما يبدو من قول الركيني :

« وفيها (١١٧٩ هـ) في شهر رجب المبارك صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس وعلي الفارس والامير اسماعيل شهاب والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا »[3] .

اذ ما عسى ان يكون لهذا الاجتماع – بعد حملة علي الظاهر وقبلان على دروز ابل – من معنى او من غاية سوى ان يتحالفوا ضد علي الظاهر وقبلان ويرتبوا الصلاة بين المتاولة والدروز ترتيباً جديداً ؟؟ .

---

(١) – لاحظ ص ٦٢٦ من العرفان م ٢٧ .

(٢) – لاحظ ص ٦٢٦ من العرفان م ٢٧ .

(٣) لاحظ ص ٦٢٦ – ٦٢٧ من العرفان م ٢٧ .

ومما يزيد تاريخ هذه الفترة تعقيداً وعسراً في فهم الأحداث قول الامير حيدر الشهابي « وفي السنة ١١٨٠ هـ حضر الشيخ عثمان بن الشيخ ضاهر العمر غضباناً على أبيه لأنه كان قد غضب عليه واعتقله ، فأقام الشيخ عثمان مدة عند الامير منصور إلى أن أصلح أمره مع أبيه » (١) .

ثم قول الركيني « وفي عشرين من شوال سنة ١١٧٩ ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس الحمد والشيخ عثمان الظاهر الى بلاد الدروز في الجمعية » .

ثم قوله « وفي هذه السنة يوم الاحد يوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة ركبت عساكر بلاد الشقيف وبلاد بشارة واقليم التفاح على بلاد صفد وعثمان الظاهر معهم أيضاً (٢)

ما يلاحظه الباحثون

يلاحظ ان الركيني في النص الأول من كلامه يحدد لنا الزمن في اليوم والشهر والسنة ، ويصرح بأن ركوب المشايخ ناصيف وعباس الحمد مع الشيخ عثمان الى بلاد الدروز كان للاشتراك في الجمعية وللتداول في الامور التي تهم الجميع ، ثم انه يكشف في النص الثاني أن المدة التي أقامها الشيخ عثمان عند الامير منصور كانت من عشرين شوال الى الثاني والعشرين من ذي الحجة ؛ كل ذلك مما يشعر بأن سبب حضور الشيخ عثمان الى بلاد الدروز لم يكن لغضبه من والده أو لغضب والده منه كما يزعم الأمير حيدر فيما رواه ص ٧٩٢ من تاريخه نزهة الزمان .

وإلا فما معنى ركوب مشايخ المتاولة مع الشيخ عثمان الى بلاد الدروز في حال خصامه مع والده ؟ فإن الغضبان من والده لا يكترث عادة لمظاهر

(١) لاحظ ص ٧٩٢ من نزهة الزمان في تاريخ لبنان طبع مصر سنة ١٩٠٠ .

(٢) لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ ،

العظمة أو للاحتفالات الشعبية لأنها لا تتناسب مع حالات الغضب والهرب من مواجهة السخط والنقمة . ثم لا يحسن بمن يحترمون علاقة والد الشيخ عثمان بهم كمشايخ المتاولة أن يتظاهروا باحتفائهم بالشيخ عثمان وباحتفالاتهم معه وهم يعلمون سخط والده عليه فإن مثل ذلك لا يصح منهم ولا يستساغ عرفاً إلا حين يكونون في حالة خصام مع الوالد ؟!

ولكن ركوب المتاولة أجمع مع الشيخ عثمان عند رجوعه من عند الامير منصور الى عند والده في صفد ينفي أن يكون بين المتاولة وبين والد الشيخ عثمان أي فتور في العلاقات .. ثم يشعرنا بأن تظاهر عثمان بالغضب من والده وتظاهر والده بالغضب منه انما كان دفعاً لارتياب الولاة ورجال الدولة بمقاصد هذا المجيء مع مشايخ المتاولة الى عند حكام الدروز . ثم يوضح بأن مجيء مشايخ المتاولة مع الشيخ عثمان واجتماعهم بأمير لبنان إنما كان لأمور هامة في سياسة المنطقة وموقفها من الأحداث المترقبة ؛ وان ظلت تلك الامور وتلك المقاصد مجهولة لم يتح للمؤرخين حتى اليوم استكشاف حقيقتها او مغزاها .

ولعل هذه الملاحظات المستوحاة من أقوال الركيني هي أقرب الى الحقيقة والواقع من قول المعلم مخائيل الصباغ عن كيفية رجوع الشيخ عثمان من دير القمر الى عند والده الشيخ ظاهر العمر : « وأرسل الامير منصور مع الشيخ عثمان كرامة له الشيخ علي جنبلاط في نحو مايتي خيال وكتب الى مشايخ المتاولة في بلاد بشارة أن يكونوا معهم ويسترضوا والده عنه ، فأقبل عليهم في الطريق الشيخ قبلان والشيخ ناصيف بكبار رجالهم ، ولما بلغوا الى رأس العين خارج صور نزلوا هناك وأرسلوا الخبر الى الشيخ ظاهر فقام ظاهر مع وزيره ابراهيم الصباغ [جد المؤلف] الى هناك وأقام لهم وليمة عظيمة أظهر بها كرماً زايداً حتى انهم لا يزالون الى اليوم يذكرونها في جبل لبنان كشيء ما صار له نظير [١] .

---

(١) لاحظ ص ٩٧ من تاريخ ظاهر العمر لمؤلفه مخائيل الصباغ .

ذلك بأن المؤلف الصباغ من ذوي العلاقة الذين لا يطمأن لرواياتهم كما يطمأن لرواية الركيني، وبان الصباغ لم يحدد لنا الزمان أو يحدد مدة اقامة الشيخ عثمان عند الامير منصور ، أو يصرح كالركيني بأن مشايخ المتاولة واكبوه في الذهاب الى دير القمر وفي الاياب منها الى صفد أضف إلى ذلك أن الوالد الغضبان على ولده لا يستقبله إلى مسافة بعيدة وبحفاوة زائدة كما يزعم المؤلف الصباغ من مجيء الشيخ ظاهر من عكا وصفد الى رأس العين لاستقبال موكب ابنه الشيخ عثمان ، ثم أن الأمير حيدر الشهابي في جميع مؤلفاته التاريخية ينص على أن الشيخ عثمان لم يرجع من دير القمر إلى صفد إلا بعد أن أصلح أمره مع ابيه وهو في دير القمر : مما ينقض زعم المؤرخ الصباغ (بان الأمير منصور كتب لمشايخ المتاولة أن يركبوا مع الشيخ عثمان وان يسترضوا والده عنه » .

وكأني بالمؤرخ الصباغ انما زعم ما زعمه ضمن القصص التي قصها لينوّه باسم جده ابراهيم الصباغ مدبر الشيخ ظاهر ووزيره ، ويبرّىء ذمته من الاخطاء الفادحة التي نسبت اليه أو ليحمل ابناء الشيخ ظاهر مسؤلية كل خطاء سياسي واجتماعي وقع اثناء حكم الشيخ ظاهر ، أو ليقول الصباغ عطفاً على بقية كلامه الأول .

« وإذ تكلموا بعد ذلك – أي بعد الوليمة – في أمر عثمان والشفاعة به أوعز ظاهر إلى ابراهيم أن يوقفهم على جلية خبره وسوء أعماله ففعل حتى دهشوا كلهم من ذلك ولاموه على عقوقه ثم ترجّوا والده أن يعفو عنه ويرضى عليه وضمنوا له طاعته وخضوعه له فرضي عليه ظاهر وردّ له ولايته وجميع أملاكه ورجع كل واحد منهم الى محله [1] .

---

(١) لاحظ ص ٩٧ من تاريخ ظاهر العمر لمؤلفه ميخائيل الصباغ .

كل ما قدمناه اولا من روايات وملاحظات يصلح لأن يكون عاملاً من عوامل الصداقة بين الشيخ قبلان والشيخ علي الظاهر ، أو عاملاً من عوامل الخصام بين الشيخ قبلان حاكم هونين والشيخ عباس المحمد حاكم صور .

أما الباعث الحقيقي للاصطدام بينهما فلم نصل بعد إلى شيء منه لدى البحث والتمحيص فيما تيسر لنا من مراجع وروايات .. سوى ما يرويه حيدر رضا الركيني عن حوادث سنة ١١٨٠ هـ إذ يقول ما نصه :

« وفيها مسك الشيخ عباس قبلان ورده الى خلف في سنة تاريخها ظرف ، وقتل خمسة رجال ، وطلب وراه الشيخ عباس صبيحة الثلاثاء فادركته الخيل شرقي القنيطرة فاستبسره واستيسر اخاه أحمد وجابهما إلى قلعة مارون وادخهما السجن كما قال عز شأنه (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) وفيها في يوم الأحد الرابع عشر من محرم كان وقعة صفد بين علي الظاهر ومشايخ بلاد بشارة وكانت النصرة للمشايخ وقتل من الصفدية نحو مائتي رجل وقالت أهل الزيادة زيادة ونقل ما لم يصح ليس فيه افادة ، وكانت هذه الوقعة قبل نهبة صور بيوم وليلة »[١] .

ما يلاحظه الباحثون

في هذا الكلام من الغموض والالتواء ومن الزيادة والنقص ومن التقديم والتأخير ما يحرج القراء ويبعدهم عن إدراك معانيه الحقيقية بحيث لا يعرفون في هذه الجمل المضطربة من هو الممسوك ؟ أهو الشيخ قبلان أم الشيخ عباس المحمد ؟

وبحيث لا يعرفون أين مسك أحد الشيخين صاحبه ورده إلى خلف ، أفي

(١) لاحظ ص ٦٢٧ - ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ .

صور أم شرقي القنيطرة ؟؟ ولا أين قتل خمسة رجال في تلك الحوادث أفي صور أيضاً أم شرقي القنيطرة ؟؟

ثم لا يكادون ان يعرفوا عن نهبة صور التي أشار اليها بانها كانت بعد وقعة صفد بيوم وليلة هل كانت من تصميم الشيخ قبلان أم من تصميم غيره ؟؟

كما أنهم لا يكادون أن يعرفوا من ذلك الكلام عن قلعة مارون مـا إذا كانت يومئذ تابعة لمقاطعة صور أم لمقاطعة جبل هونين ؟ أم انها كانت مستقلة وتابعة لحاكم آخر غير قبلان وغير عباس المحمد ؟؟

وبعد فاذا كانت نهبة صور قد حدثت بعد وقعة صفد فلماذا يقدم ذكر وقعة صفد على ذكر وقعة صور والقنيطرة ؟؟

الاختلاف في النقل والتفسير

يختلف المؤلفون اليوم في تفسير عبارة الركيني وتأويلها ، فالاستاذ محمد جابر يذهب الى أن المطلوب والمأسور والمسجون في ذلك الحادث هو الشيخ قبلان ، ويؤيده في ذلك نص نسخة العرفان وعبارتها المطبوعة على هذا النحو (وطلب وراه الشيخ عباس) بالهاء لا بالهمزة ، فان العبارة بنصها هذا تدل على ان الطالب والمستيسر بكسر السين الثانية هو الشيخ عباس المحمد ، وان المطلوب والمأسور والمسجون هو الشيخ قبلان الذي يرجع اليه ضمير الغائب في جملة (وطلب وراه) كما يتضح من الرواية التي يرويها الاستاذ جابر مرسلة دون أن يشير الى مصدرها أو إلى اسم الراوي الذي اعتمد عليه في نقلها على ما يلي على مضمون .

خلاصة الرواية والقصة

« كان الشيخ قبلان زعيماً سديد الرأي وافر التدبير انتهت اليه رئاسة العشائر ومشيخة المشايخ بعد وفاة والده سنة ١١٥٠هـ ووصفه المؤرخ الفرنسي « ادوار لكروا » ص ٥٥ من كتابه (تاريخ سوريا ومصر) وقال « كان

مشايخ المتاولة امناء للشيخ ظاهر العمر مع بقائهم على استقلالهم ، وهنـــاك شيخ اسمه قبلان لم يكن يتـــدخل في الحروب وتصوره مراسلات القناصل فيلسوفا حكيما لانه عرف كيف ينال رضا السلطان بارسال الميرة اليه رأسا اربع مرات في السنة فكانت العواصف تمر فوق رأسه دون أن تمسه » .

ونقل الشيخ قبلان مركز حكومته من مزرعة مشرف الى قلعة هونين واستأثر بحكومة بلاد بشارة الجنوبية كلها لانه كان رأس العشيرة واكبر زعمائها سنـــاً .

وفي سنة ١١٦٤هـ نشأ خلاف بينه وبين ابناء عمه على حكم المقاطعات انتهى بتحكيم صديقهم الشيخ ظاهر العمر ، وعقد اجتماع حافل برئاسة الشيخ ظاهر وقسمت اقطاعات بلاد بشارة الى ثلاثة اقسام فكان سهم الشيخ قبلان مقاطعة جبـــل هونين ، وسهم الشيخ ناصيف مقاطعة تبنين والبلدان الجنوبية كلها ، وسهم الشيخ عباس المحمد مقاطعة قانا ، ومقاطعة شحور ، ومقاطعة الشعب بكسر الشين، واعطيت صور للشيخ قبلان؟فرفض قبولها بحجة انهاخربة لا يوجد فيها الا مصنع للملح (ملاحة) فاعطيت للشيخ عباس . فاستلم عباس صور وبنى فيها داراً للحكومة لم تزل عامرة الى اليوم وموقعها على باب المدينة ، وشاد فيها مسجدا وكنيسة وسوقاً ودورا كثيرة واسكن فيها عائلات كثيرة من المسلمين والمسيحيين من سكان جبل عامل وجبل لبنان ، ولم يمض اربـــع سنين حتى غـــدت صور بلدة تجارية وكثر فيها الاخذ والعطاء وأمت اليها السفن الشراعية لافراغ شحنها وابتيـــاع حاصلات البلاد من الحبوب والتبغ والقطن والزيوت .

ولما رأى قبلان تقدم العمران في صور ندم على تسليمها لابن عمه الشيخ عباس ففاوض باعطائها له فلم يجب طلبه ووقع الخصام بيهما ، فحدثتـــه نفسه بالاستيلاء عليها قسرا ، واغتنم فرصة غياب الحاكم عباس وولده حسين عـــن صور في زيارة للشيخ علي الظاهر في قرية — الجش — فهاجم صور على رأس

اربعماية خيال ونهب دورها ومتاجرها حتى حلي نسائها وأسر الشيخ حمزة اخا الشيخ عباس وكان صغيرا وسار بهم الى هونين ، وطار الخبر الى الشيخ عباس فاسرع بخيله ليقطع عليه الطريق فلحقه في وادي الحجير وقد نزل على ماء يسمى عين الطابورة واقعة بين القنطرة والقصير ؟ وقدمته الاسلاب والاسير الى هونين ، وفي تلك البقعة تغلب الشيخ عباس على قبلان فأخذه اسيراً وسجنه في قلعة مارون [1] .

المآخذ على هذه الرواية

١ - من المعلوم ان الشيخ قبلان بن الشيخ حسن النصار ، والشيخ عباس ابن الشيخ محمد النصار ، والشيخ ناصيف بن نصار النصار هم جميعا ابناء عمومه ، وان جدهم الادنى هو الشيخ نصار الاحمد على ما في سلسلة النسب المشهورة لدى آل الصغير .

ومع ذلك فان مؤلف هذه القصة التي يرويها الاستاذ جابر لا يتعرض لاسم هـذا الجد اللامع نصار حين يأتي على ذكر قبلان وذكر عباس المحمد ، اذ يقول « الشيخ قبلان بن الشيخ حسن بن الشيخ احمد بن الشيخ مشرف » كما يقول « عباس بن محمد بن مشرف » دون ان يذكر اسم نصار الجد الادنى للجميع [2] .

على ان هؤلاء المشايخ الثلاثة واخوتهم كانوا يعرفون لدى المؤرخين والشعراء العامليين بابناء نصار ، وبآل نصار قبل ان يتفرعوا الى آل الاسعد وآل التامر ، وغيرهم من الفروع النابهة .

* * *

٢ - اننا لم نر في كل ما رجعنا اليه من مخطوطات عاملية ومصادر تاريخية ،

(١) لاحظ ص ٩١ - ٩٢ من تاريخ جبل عامل .
(٢) لاحظ ص ٩١ - ٩٢ من تاريخ جبل عامل للاستاذ جابر .

وفي كل ما حدثنا به المعمرون من الاحفاد واولي الخبرة .. ما يشير الى ان احداً من ابناء نصار الاحمد جد عباس وقبلان وناصيف كان شيخ مشايخ جبل عامل قبل نصار النصار عم الشيخ قبلان ، وكل ما تشير اليه النصوص أن نصار النصار كان مقدم آل الصغير في حوادث سنة ١١٤٤ هـ يوم اعتقل نصار وفر اخوته الى جوبا [١] والى ان ابنه ناصيف النصار كان شيخ المشايخ في حوادث كفر رمان والنبطيـة سنة ١١٨٥ هـ وحوادث الغازية والحارة سنة ١١٨٦ هـ وما تلاها من الحوادث [٢]

٣ – كما ان من المستبعد أن يكون الشيخ قبلان أكبر أبناء العشيرة سناً ، اذا لاحظنا أن الشيخ قبلان ذاته قد تزوج في سنة ١١٨٤ هـ من الحمادية على قول الركيني ص ٨١٥ من العرفان م ٢٧ ، يعني انه تزوج بعد أن أصبح شيخ المشايخ بأربع وثلاثين على ما يروي الأستاذ جابر أو بعـد تقسيم مقاطعات بلاد بشارة بعشرين سنة .

٤ – ثم لا شيء يدل على أن أبناء نصار كانوا يسكنون مزرعة مشرف أو يتخذونها مقراً لحكمهم ، وأن الآثار والحوادث التي يرويها المؤرخون عنهم كحوادث سنة ١١٤٤ هـ يوم اعتقل الشيخ نصار مقـدم آل الصغير في أرض قلعة مارون [٣] وحوادث سنة ١١٧٦ يوم جاء الكاخية الى شحور [٤] .

تشير كلها بصراحة الى ان مقرهم كاد أن يكون محصوراً في قلعة مارون وفي قرية شحور ، وان الآثار الباقية حتى سنة ١٩١٨ م يوم كنت أتردد على شحور تشهد على ذلك الزعم .

---

(١) لاحظ ص ٢٤ من اخبار الاعيان ج ٢ طبعة جديدة .

(٢) لاحظ ص ٥٥١ و ٦٥٦ و ص٧٦٥من العرفان م ٨ وغيره من المصادر التاريخية .

(٣) لاحظ ص ٢٤ من اخبار الاعيان للشدياق ج ٢ طبعة حديثة وص ٢٩ من تاريخ الامير حيدر ج ١ طبعة بيروت .

(٤) لاحظ ص ٦٢٦ من العرفان م ٢٧ ويقصد هنا بالكاخيـة موسى باشا او نائب باشة صيدا يومئذ .

ومن تلك الآثار القبور الرخامية المحفور على نواصبها أسماء أجـــداد آل الصغير كحسين بن علي صغير المتوفي سنة ١٠٦٧ هـ ، ومنهـا القبو الكبير في جنوب القرية برمّاياته العديدة المماثلة لرمايات الحصون والابراج القديمة ، ومنها دار الشيخ ناصيف النصار – وهي دار بيت عمنا الحاج علي زين – التي لا يزال جدران بعض غرفها الشرقية من بناء ناصيف النصار .

* * *

٥ – ثم إذا صحت رواية الاستاذ جابر وصح ان الشيخ قبلان كان حاكم بلاد بشارة كلها وكان زعيم العشيرة وأكبر أبنائها سناً وجاهاً .. فكيف يصح ان يعطى – في القسمة المزعومة – لعباس المحمد ثلاث مقاطعات كبيرة تحيط بمنطقة صور ، ثم تعطى لزعيم البلاد وكبير العشيرة مقاطعة واحدة (هونين) أو كيف يصح ان تعرض صور على الشيخ قبلان بعد أن خصصت له مقاطعة هونين مع بعد الشقة بينها وبين صور ، واستحالة ادارتها معاً وحمايتها في ذلك العهد على مثل قبلان مع انفصال كل منها عن الاخرى بمقاطعات يحكمها غيره ؟

او كيف يطمع قبلان في الاستيلاء على صور بعد ذلك مع ملاحظة هـذه الاعتبارات ، ومع ملاحظة انه كان فيلسوفاً حكيماً بصيراً بعواقب الامور على ما تصوره الرواية كما يلاحظ أن مقاطعة شمع – وهي مقاطعة الشعب – لم تكن تابعـــة لعباس المحمد بل تابعة لحكم الشيخ واكد ، كما يتضح من قول الركيني عن حوادث سنة ١١٦٦ وحوادث سنة ١١٧٥ هـ (١) .

* * *

٦ – ثم إذا لاحظنـا قول الركيني « وفيها – ١١٨٠ – في يوم الاحد في

---

(١) لاحظ ص ٥٢٥ من العرفـــان م ٢٧ حيث يقول الركيني « وفي سنة ١١٦٦ ركبت خيل واكد وناصيف على عرب القنيطرة » ثم ص ٦٢٦ من نفس المصدر م ٢٧ حيث يقول ايضاً « وفي سنة ١١٧٥ نقل الشيخ حمزة الى قانا وحاصر الشيخ واكد في قلعة شمع » ،

الرابع عشر من محرم كانت وقعة صفد بين علي الظاهر ومشايخ بلاد بشارة ، وكانت هذه الوقعة قبل نهبة صور بيوم وليلة « بدا لنا من خلال ذلك ان الشيخ عباس لم يكن لدى نهبة صور في زيارة الشيخ علي الظاهر في قرية الجش كما تقول الرواية ، وانما كان عائداً مع مشايخ بلاد بشارة من غارة على الشيخ علي الظاهر ، إذ كانت الغارة يوم الاحد قبل نهبة صور بيوم وليلة (يعني قبل ليلة الاثنين وقبل يوم الاثنين) ثم في ليلة الثلاثاء كانت نهبة صور ، وفي صبيحتها كان احد الخصمين يجد الطلب وراء الآخر ، يعني بعد المدة التي يستطيع فيها الشيخ عباس وأنصاره أن يعودوا الى صور ويطاردوا أخصامهم أو بعد أن بدا للشيخ قبلان أن خصمه الشيخ عباس المحمد لم يقع في قبضة يده .

وعليه فلو ان جماعة الشيخ عباس كان باستطاعتهم وحدهم أن يتغلبوا على الشيخ قبلان لما مكنوه من أن يخرج من صور أو يأخذ ما سلبه مع الأسير الشيخ حمزة الى حصن هونين !

ثم لو صح ان قبلان هو الذي فر من وجه الشيخ عباس فلماذا لم يفر الى حصن هونين تواً ويتحصن به حين أرسل الاسلاب والاسرى الى حصن هونين تواً وكيف يطمئن إلى نزوله في منتصف الطريق ولا يحسب الحساب لمباغتة اخصامه

* * *

ثم إذا لاحظنا أن الشيخ حمزة أخا الشيخ عباس قد حاصر الشيخ واكد في قلعة شمع سنة ١١٧٥ هـ بدا لنا من خلال ذلك أن حمزة لم يكن صغير السن يوم اسره الشيخ قبلان سنة ١١٨٠ هـ كما تنص الرواية التي اعتمدها الاستاذ جابر [١] ؟

ثم أن الركيني يحدد في روايته مكان الالتقاء في شرقي القنيطرة (من الجولان) لا في غربي قرية القنطرة من وادي الحجير ؟

---

(١) لاحظ ص ٦٢٦ من العرفان م ٢٧ .

ثم إذا لاحظنا أن القنيطرة لم تكن عامرة قبل أن يستوطنها (الجركس) الذين شردوا من جزيرة كريت ، وانما كانت على ما يظن (جفتلك) كرأس العين ، أي ملكاً للدولة يتوالى حكام المقاطعات على ضمانها من باشوات دمشق واستغلال أراضيها الخصبة بمساعدة من الباشوات كما يبدو من حديث الركيني عن ضمان الشيخ حمزة المحمد لها سنة ١١٩١ هـ ومن حديثه عن غارة الشيخ ناصيف النصار والشيخ واكد على عربها سنة ١١٦٦ هـ [1] .

هل كانت صور موضعاً للحمد ؟

ثم بعد إذا لاحظنا أن مقاطعة جبل هونين في عهد الشيخ قبلان والشيخ عباس كانت أعمر قرىً وأقل كلفة وخطراً من مقاطعة ساحل صور – وهي يومئذ عرضة لقراصنة البر والبحر [2] ولمرور عساكر الدولة وولاتها ولما كان يفرضه ذلك المرور على الاهالي والحكام من تقديم المؤن والذبائح وعليق الخيل وما إلى ذلك من تبعات طالما أدت إلى فرار الأهالي وخراب القرى الساحلية وتعطيل الأراضي عن الزرع بين صيدا وصور وعكا .

ثم لاحظنا بعد ذلك أن صور كانت طيلة عهد الشيخ عباس المحمد قرية صغيرة وظلت كذلك حتى بعد مضي ١٣ عاماً على وفاته يوم مر بها الرحالة الفرنسي (فولني) سنة ١٧٨٥ ووصفها بقوله « وبعد مسير ستة فراسخ إلى الجنوب . . (من صيدا) بموازاة البحر . . يصل المسافر الى قرية صور حيث قام المتاولة في العقد السابع للقرن الثامن عشر ببعض الترميمات التي اخذت تنهار الآن .

---

(١) لاحظ ص ٣٥١ من العرفان م ٢٨ وص ٥٢٥ من العرفان م ٢٧ .

(٢) لاحظ ص ٥٢٦ من العرفان م ٢٧ حيث يقول الركيني « وفي سنة ١١٦٩ هـ كبست الفرنج ميناء صور فاخذوا خمسة عشر نفساً رجالاً ونساء »

ويقيم في هذه القرية خمسون أو ستون أسرة يتعاطى أفرادها الفلاحة وصيد الاسماك وشتان ما بين أكواخها الحقيرة المتداعيـة والبيوت التي كانت هنالك في عصر مستر ابون [1] .

انه إذا لاحظنا جميع هذه الاعتبارات بدا لنا من خلال ذلك أن قرية صور لم تكن تصلح يومئذ لأن تكون موضعاً للحسد والتنافس أو سببا للحروب ؟ وخصوصاً حين يكون المتنافسون والمتحاربون ابناء عمومة ويكون زعيمهم وكبيرهم حكيماً وفيلسوفاً سديد الرأي لا يتدخل في الحروب إلا مضطراً كما يفهم مما ينقله الاستاذ جابر عن الشيخ قبلان [2] .

وكما يلاحظ من سياق روايات رضا الركيني عن حروب مشايخ جبل عامل في عهده وعدم اشتراك قبلان معهم إلا حين تلجئه الضرورات .

وكما يلاحظ من احتفاء محمد باشا العظم بالشيخ قبلان عندما لجأ إلى ولاية دمشق سنة ١١٩٧ هـ على أثر اجتياح عسكر الجزار لبلاد بشارة ، إذ قدم له الباشا مبلغاً من المال يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف غرش على ما يرويه (حنانيا المنير) في تاريخه ، ثم ولاه الباشا أيضاً على قريتي القاع ، ورأس بعلبك ومقاطعة الهرمل بعد أن نزعها من يد الامير يوسف الشهابي – على ما يرويه الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ص ٢١٨ من دواني القطوف ، أما رواية الركيني فتقول :

« وفي سنة ١١٩٩ هـ كان الشيخ قبلان واخوته والشيخ عقيل في دمشق فاستقبلهم درويش باشا باشة الحج وطيب خواطرهم وخلع عليهم » [3] .

---

(١) لاحظ ص ٣٤ – ٣٥ ج ٢ من (سورية ولبنان وفلسطين في الثامن عشر) تعريب حبيب السيوفي .

(٢) ص ٩١–٩٢ من تاريخ جبل عامل للاستاذ جابر .

(٣) لاحظ ص ١٨٧ من العرفان م ٢٩ .

وكما يلاحظ من احترام باشا الشام له يلاحظ ثقة الشيخ ظاهر العمر بـه واطمئنانه اليه اكثر من اطمئنانه للشيخ ناصيف وغيره من مشايخ المتاولة فيما تحدثنا به النصوص التالية من تاريخ ظاهر العمر .

« واذ بلغ الشيخ ظاهر العمر ما جرى في يافا – من عسف ابي الذهب سنة ١١٨٩ هـ – ورأى تراخي اولاده وكبار رجاله ، خاف على نفسه وترك عكا وجعل فيها الدنكزلي ومغاربته ، وسار باهل بيته وبعض رجاله وفيهم وزيره ابراهيم الصباغ الى قلعة هونين عند الشيخ قبلان ليجتمع هناك بمشايخ المتاولة ويتدبر معهم فيما يجب عمله ليدفعوا عن نفوسهم وعن البلاد ابي الذهب بالمال والمهادنة او بالحرب والقتال »[1] .

« واذ يقول يوسف بن ابراهيم الصباغ اثناء فراره من عكا الى هونين بعد موت ابي الذهب سنة ١١٨٩ هـ .

« وعند الصباح ركبت من صور وركب معي وجهاء صور من النصارى

واوصلوني الى هونين ودخلت فسلمت على والدي وادخلني على الشيخ ظاهر فسلمت عليه ودعوت له واخبرته بجميع ما جرى لي مفصلا من اول الامر الى آخره فهناني بالسلامة وفرح بي وخلع علي لكنه حزن على ابن عمه كريم الايوب »[2] .

وعندما حاق خطر الدولة بعكا سنة ١١٨٩ هـ « اتفق الشيخ ظاهر وذووه على ان يرحل الشيخ ظاهر من عكا غداة غد مع عياله الى قلعة هونين عنـد الشيخ قبلان شيخ المتاولة كما فعل ذلك قبلا حينما حضر محمد بك (ابو الذهب)

---

(١) لاحظ ص ١٣٤ من تاريخ ظاهر العمر لميخائيل الصباغ .
(٢) لاحظ ص ١٤٣ من تاريخ ظاهر العمر .

مع غز مصر ، وعندما اسرع الناس بالخروج من عكا خوفا على نفوسهم كذلك تجهز ظاهر وخرج بعياله صباحا قاصدا هونين ولكنه قتل غدرا بالطريق»[1].

* * *

وبعـــد ان استولى رجال الدولة على عكا « فتشوا على ابراهيم الصباغ والمذكور كان هرب قبل خروج الشيخ ظاهر بيومين لعند الشيخ قبلان شيخ المتاولة ثم انـه بعد ذلك نزل الى عكا بحماية الشيخ قبلان المذكور معه بيوردي من باشا الشام الذي كان حضر الى عكا حتى ينظم الامور فلما سمع القبطان باشا بحضوره (حضور ابراهيم) ارسل حالا اتى بـه لعنده وعززه وضربه كم عصايا حتى يقر على ماله ومال ظاهر فالتزم المذكور ان يقر بكل شيء »[2].

ميل قبلان لعمل الخير

وكما يستفاد من الكتابة التي وجدت على حيطان المسجد الذي بناه الشيخ قبلان في قلعة هونين ومن قراءة نصوصها التالية :

ومسجد فـــاز ببنيانه	ذو الفضل قبلان حليف الندى
كيف وقـد قال لنا جعفر	والقول حق من بنى مسجـــدا
مذ أمِن الناس وصلوا به	أرخت خروا ركعاً سجدا(١١٦٦)

ومن قراءة الكلمات الحكيمة التي خطت بجانب الأبيات مثل : تاج الملك عدله ، تزكية الرجل عقله ، واضع المرء فعله .

ومن هذه الابيات التي رسمت على صخرة بقرب المسجد :

(١) لاحظ ص ١٤٨ من نفس المصدر .

(٢) لاحظ ص ١٧٤ من نفس المصدر .

أبا حسين جـــزاك الله مغفرة   فقد أتيت بفضـــل غيرمشتبه
كلفت بالمسجد المعمور فابتسمت   سماؤه فرحاً عن نور كوكبه
يفنى الزمـــان ولا يفنى مؤرخه   الخير يبقى وأن طال الزمان به

سنة ١١٩٦ » [١] .

كل هذا مما يدل على أن الشيخ قبلان كان يتمتع بكل مـــا يدعو إلى احترامه والاطمئنان إليه من حكمة وسداد رأي وحسن معاملة وحب لعمل الخير يسمو به عن أن يستجيب لداعي الحسد والتنافس والقـــتال . جوراً وعدواناً .

وجهة نظر الفقيه

وبعد فاذا كان الاستاذ جـــابر يذهب إلى أن المطلوب والمأسور والمسجون في حوادث صور والقنيطرة هو الشيخ قبلان فان العلامة الفقيه يذهب إلى أن المطلوب والمأسور والمسجون في ذلك الحادث هو الشيخ عبـــاس المحمد ، إذ يورد سيادته جملة (وطلب وراه الشيخ عباس) على ما جاء في نسخة العرفان ، يوردها على النحو التالي « وطلب وراء الشيخ عباس» بالهمزة لا بالهاء ويستدل بذلك على أن المطلوب والمأسور والمسجون في الحادث هو الشيخ عباس ، وان الذي طلبه وامره وسجنه هو الشيخ قبلان [٢] .

ويؤيده في ذلك ما يقوله الركيني فيما بعـــد عن حوادث سنة ١١٨٠ هـ « وفيها ثالث وعشرين ذي القعدة نزل الشيخ عباس إلى صور واسترجـــع الأمور » [٣] .

---

(١) لاحظ ص ٣٠٣ – ٣٠٤ من خطط جبل عامـل ثم لاحظ ص ٥٢٧ من العرفان م ٢٧ ، حيث يقول الركيني « وفي سنة ١١٧١ هـ توفي الشيخ حسين ويحيي ولدا الشيخ قبلان » مما يوضح بأن المقصود بأبي حسين في أول الابيات هو الشيخ قبلان ذاته .

(٢) لاحظ ص ٩٦ من جبل عامل في التاريخ .

(٣) لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ .

فهذا القول لا يفهم منه سوى أن الشيخ عباس رد سكان صور إليها ورتب أمورهم في حراثة الأرض وإدارة الأعمال الخاصة بكل منهم ، مما يشعرك بان الذي نهب صور واستيسر الشيخ عباس وأبعده عن إدارة أملاكه فيها طيلة عام كامل هو الشيخ قبلان ويزداد هذا المعنى وضوحاً بقول الركيني عن حوادث سنة ١١٨١ هـ « وفيها نزل الشيخ عباس المحمد إلى صور وسكنها »[١] .

وعليه فلو كان الشيخ قبلان هو المأسور والمسجون والمغلوب على أمره في تلك الحوادث لما اضطر الشيخ عباس – في مثل هذه الظروف – أن يترك قاعدة حكمه ويسيبها طيلة عام كامل ويسكن في احدى قرى الجبل من محرم سنة ١١٨٠هـ إلى محرم ١١٨١هـ ولما اضطر أهالي صور أيضاً أن يتركوا اعمالهم ومصالحهم فيها ويرحلوا عنها كل هذه المدة من الزمن .

ومما يرجح هذا الظن قول الركيني عن حوادث سنة ١١٨٣ « وفيها يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر صفر ركبت خيل ناصيف الى أرض قلعة مارون وسلبوا ظاهر فاعور وقتلوا ظاهر ماجد في قرية قلويه » .

وقوله أيضاً عن حوادث سنة ١١٨٤ هـ « وفي شهر ربيع الآخر جاء الشيخ حمزة إلى مارون وحاصر القلعة »[٢].

فمن هاذين القولين يبدو للقارىء أن قلعة مارون لم تكن داخلة ضمن حكم الشيخ عباس المحمد ولا ضمن حكم أخيه حمزة بل يظهر من فحوى القولين بأن حكامها كانوا ضد الشيخ عباس وضد اخيه وعليه فكيف يسجن الشيخ عباس فيها خصمه الشيخ قبلان عندهم ؟؟

---

(١) لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ .

(٢) لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ .

وعلى كل فان الأولى برواية الركيني تلك أن تعدل على نحو مـا وتقدم الجملة الاخيرة منها على الجملة الأولى، ثم أن يضاف بعد ذلك إلى الجملة المتأخرة ما يصححها على وجه مرض ، مثل أن يقال « وفي سنة ١١٨٠ هـ يوم الأحد الرابع عشر من محرم كانت وقعة صفد بين علي الظاهر ومشايخ بلاد بشارة ، وكانت النصرة للمشايخ وقتل من الصفدية نحو مائتي رجل » .

وفيها - في ١٦ محرم - نهبت صور وقتل فيها خمسة رجال ثم رجع أحد المتخاصمين (الشيخ عباس أو الشيخ قبلان) الى مطاردة خصمه صبيحة الثلاثاء فأدركته الخيل شرقي القنيطرة فاستيسره واستيسر أخاه أحمد وجاء بهما الى قلعة مارون وأدخلهما السجن » .

هذا واني رغم كل ما أسلفت من ملاحظات مشككة أميل الى القول بأن ما يفهم من عبارة رضا الركيني ، هو أن الذي نهب صور سنة ١١٨٠ - لسر من الأسرار لم يعرف بعد - هو الشيخ قبلان صاحب قلعة هونين ، وان الذي عاد لمطاردته واعتقـــاله وحبسه .. هو الشيخ عباس المحمد صاحب صور . وذلك بناء على تقديم اسم عباس في جملة « ومسك الشيخ عباس قبلان » لأن من قواعد العرب في كلامهم أن يقـدموا اسم الفاعل على المفعول . وبناء على صحة ما جاء في نسخة العرفان «وطلب وراه الشيخ عباس» بالهاء لا بالهمزة .

وان ما دعاني ويدعو غيري للتشكيك فيما ينقـــل ويروى من طرائف القصص المكبرة لهذا الحادث ، هو هـــذه المتناقضات والأخطاء التاريخية التي ركزوا عليها ذلك النوع من القصص الذي اعتاد أبنــــاء الذوات منا - ولو كانوا من ذوي العلم والمعرفة - أن يغالوا في تلوينه وتنويهه حين يتحدثون عن ماضي الآباء والأجداد ، فكيف بنا اذا كان هؤلاء الأبناء والأحفـاد من الجهال الذين يتحدثون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

المتاولة في عهد ناصيف النصار وظاهر العمر

يجدر بنا قبل أن نسترسل في البحث عن أحوال المتاولة في أي زمن أن نعرّف القراء عن مصدر هذا اللقب الجديد لشيعة لبنان وجبل عامل ولماذا ألفه العامليون وظل خفيفاً على ألسنتهم حتى يومنا هذا .

يقول العلامة أحمد رضا « أن متاولة جمع متوالي مشتق –على غير قياس– من تولّى أي اتخذ وليـــاً ومتبوعاً من ولائهم لأهل البيت النبوي الطاهر الذي هو الركن الركين في مذهب الشيعة ؛ وانه مشتق – على القياس – من توالى أي تتابع من تتـــابعهم واسترسالهم خلفاً عن سلف في موالاة آل الرسول (١) .

ويقول العلامة سليمان ظاهر « ان لفظ متوال جاء في قول مهيار في عليّ عليه السلام .

وأما وجدّهم عليّ حبّهم ... يشجي العـدو ويبهج المتواليا

وفي قول البها زهير :

أنت في الحسن امام ... لك قلبي يتوالى

وقول محمد بن موسى الكاتب شرف الدين القدسي :

ورفضت نوم العاشقين فكل من ... ذكر العراق فدمعه متوال (٢)

* * *

ويلاحظ من خلال الحوادث والنصوص ان إطلاق لقب متاولة على الشيعة الإمامية واشتهارهم به انما بدأ في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة النبوية يوم كانت الفوضى ضاربة اطنابها في بلاد الشام وكان كل فريق يعتمـــد على قوة افراده وتضامنهم في الشدائد بحيث انتشرت الحماسة الوطنية والموجة الطائفية ؛ فكان الشيعة في لبنان وجبل عامل يستعملون لقب (متاولة) وبني متوال للحماسة واثارة النخوة والحمية في نفوس ابنائهم لدى الحروب الاقليمية والطائفية التي اصطلوا بنارها يوم كان الحكام من كل طائفة يستعدون الطوائف بعضها على بعض باسم الدين وباسم المذهب ؛ وهم أبعد ما يكون عن الالتزام بواجب الدين وواجب المذهب ؟؟

ومن ذلك العهد ظـــل الشيعة في جبل عامل ولبنان يتفاخرون بلقب متاولة ويهتفون به لدى الغارات في صيغ مختلفة مثل قولهم « وين بني متوال» وين راحوا المتاولة ؟؟ الى غير ذلك من الصيحات العاطفية التي كانت تنعش قلوبهم وتضاعف استبسالهم كقول الشاعر الزجلي في مدحهم يوم غارة الأمير يوسف شهاب على النبطية وكفر رمان سنة ١١٨٥ هـ .

« لا بني متوال ظهر العاديات من متول الخيل ينضون الصقال
مـــا يفوت المير ديرتنا حرام ولو نبت من فوق راياتو نخل ؟»

احوال المتاولة

واذا عرفنا ما يراد بلقب متاولة ومن هم المتاولة فعلينا ان نعرف كيف كان المتاولة يوم لمع نجم الشيخ ظاهر العمر وامتـــدّ سلطانه على فلسطين (٣) .

ثم كيف كان انسجامهم معـــه وانسجامه معهم وما هي العوامل المؤثرة التي أدت الى ذلك ؟ .

ويبدو للمتأمل من خلال المصادر المختلفة والبحث الطويل ان المتاولة كانوا في هذه الفترة من الزمن في حال اضطراب ، بين اختلافهم مع ولاة صيدا ؛ واختلافهم فيما بينهم ؛ واختلافهم مع الشيخ ظاهر العمر واولاده .

اختلافهم مع ولاة صيدا

أما اختلافهم مع بشوات صيدا وولاتها . فقد اشرنا الى جل مظاهره وملابساته فيما تقدم من البحث عن الحوادث بين قرية انصار ، وقلعة ميس يوم جاء مصطفى باشا من صيدا الى انصار « فكبسها ونهبها نهبة عظيمة ومسك الحاج محمد الحماده وسليمان جواد واخذهما معه الى صيدا » ويوم ركبت خيل عباس العلي « وكبسوا الدولة في مفراقة انصار » بين الزريرية وانصار وقلعة ميس (٤) .

* * *

ثم نضيف اليوم ونكرر ما يبدو من قول الركيني « وفي سنة ١١٦٩ في شهر رمضان خربت بلاد الشقيف ومسك الشيخ عيسى فارس في قلعة الشقيف » .

* * *

ومن قوله « وفي سنة ١١٧٢ هـ طلع سعد الدين باشا بن العظم الى بلاد بشارة وقتل ونهب وكان طلوعه من صيدا يوم الاربعاء ثاني عشر من شهر صفر ، وفي هذا اليوم سافر الشيخ ناصيف الى الشام ، وفي يوم الاربعاء سادس عشر ربيع اول صار بين الشيخ قبلان والشيخ ناصيف والباشا المذكور .. وقعة عظيمة في رأس العين وقتل من الفريقين قدر ثمانين رجلا (٥) » .

* * *

ومن قوله « وفي سنة ١١٧٩ هـ في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان طلع باشا صيدا ومعه عسكر الدروز الى قلعة ميس وحاصروا (صاحبها) عباس العلي » .

ومن قوله « وفي سنة ١١٨١ هـ في سادس ربيع الأول صار بين الكاخية (نائب الباشا) وخيل الشيخ عباس وقعة قتل فيها من الفريقين نحو عشر رجال منهم الحاج علي عجمي وعلي حسين وعلي نصار » .

* * *

ومن قوله « وفي سنة ١١٨١ في خامس شهر جماد ثاني كبست الدولة (قريتي) العقبية والصرفند » .

اختلاف المتاولة فيما بينهم

وأما اختلاف المتاولة فيما بينهم أثناء الفترة التي لمع فيها الشيخ ظاهر العمر فيبدو من خلال هذه الاقوال التي سجلتها مخطوطة الركيني :

كقوله « وفي سنة ١١٧١ هـ في غرة ربيع الاول ركب (الشيخ) محمود الى اقليم الشومر ومسك الحاج علي سليمان بن أبي صعب » .

* * *

وقوله « وفي سنة ١١٧٥ نقل الشيخ حمزة (المحمد) الى قانا وحاصر الشيخ واكد في قلعة شمع » .

* * *

وقوله « وفي سنة ١١٧٧ هـ كبس الشيخ حسين منصور قرية الغازية وخرب اقليم التفاح وتضعضعت أحوال الناس وركبت خيل ناصيف الى بلاد الشقيف وخيل قبلان وعباس الى اقليم الشومر ، وكان ذلك في عشرين خلت من ربيع أول » .

* * *

وقوله « وفي سنة ١١٧٩ خربت (قرى) اقليم الشومر وحاصر عباس العلي وعلي منصور في قلعة ميس » .

* * *

وقوله « وفيها كبست الفازية وركب الشيخ ابو حمـد الى قرية طرفلسيه وأخذ معزا عباس العلي وبعض جمال وخيل وسلبوا بعض أناس ، وفيها خرب سوق عديسة وعمر سرق الطيبة ، وسوق بدياس » .

* * *

وقوله « وفي سنة ١١٧٩ في نصف شهر رجب انكسر في البحر غليون (مركب) أهل الروم واختلف عليه مشايخ بلاد بشارة وعباس العلي وبعد هذا ضبطته الدولة بأمر باشا صيدا » .

* * *

ومن ملخص قوله ايضاً « وفي سنة ١١٨٠ هـ في ١٦ محرم نهبت صور ووقع الخلاف الشديد بين الشيخ قبـــلان الحسن والشيخ عباس المحمد ، وأدى هذا الخلاف الى تشريد أهالي صور جميعاً عن أرضهم وديارهم طيلة عام كامل الى ان عاد الشيخ عباس للسكن في صور سنة ١١٨١ هـ » .

تحالف ضاهر العمر والمتاولة

في هـذا الجو المضطرب كان تحالف المتاولة مع الشيخ ضاهر العمر ، او تحالف ضاهر مع المتاولة ، وقد يكون من أبلغ العوامل في هـذا التحالف ، الامور التالية :

أولاً ــ اختـلاف ضاهر الشديد مع عثمان باشا الكرجي والي الشام ، كما يلاحظ من تاريخ الفترة التي كان فيها عثمان باشا وأولاده حكاماً على دمشق ، وصيدا ، وطرابلس ، يرهقون السكان عسفـاً وجوراً الى حد يضطرهم لشق عصا الطاعة والانضمام الى جانب الثائرين على عثمان باشا .

ثانياً ــ انتعاش آماله بالتقاء أهدافه مع اهداف حاكم مصر علي بك الكبير وأوضاعه وعداوته لعثمان باشا الكرجي (٦) .

ثالثاً ــ اطمئنانه لضعف نفوذ الدولة ولانشغالها بالاستعداد والتهيئة للحرب مع روسية .

رابعاً ــ عـدم اطمئنانه لسياسة الأمراء الشهابيين المشوبـة بالدسائس والمؤامرات التي كانت تضطرهم بين حين وحين الى التقلب ومسايرة الوحي الخارجي من الطامعين في السيطرة على مقدرات سورية ولبنان .

وتوضيح ذلك لا يتسق لنا الا اذا لاحظنا (ان العلاقات بين فرنسا والباب العالي كانت قد توطدت في عهد وزارة شوازول الافرنسية سنة ١٧٦٦ وان

شوازول هذا قد وضع تحت تصرف سفيره في القسطنطينية في سنة واحدة مبلغ ثلاثة ملايين فرنك لشراء موظفي الباب العالي وابعادهم عن النفوذ الروسي ، حتى ان صدر الملكة كاترين الثانية قد ضاق من سياسة شوازول – وقد وقف حاجزاً بينها وبين السلطان مصطفى – ووصفته بانه ملقن السلطان) .

ثم ان شوازول « اقترح على الحكومة الافرنسية منع الاسطول الروسي من الوصول الى البحر المتوسط وتدميره بمساعدة الاسطول الاسباني (٧) »

ثم لاحظنا بعد ان ثورة الشيخ ظاهر العمر وحلفائه على الدولة العثمانية كانت – بطبيعة الحال – دعما غير مباشر لروسيا في حربها ضد الدولة دعما يقلق سياسة فرنسا ويقلق عملائها في سوريا ولبنان، كما يبدو هذا القلق واضحا لمن يلاحظ حذر قنصل فرنسا العام في صيدا من سياسة الشيخ ظاهر العمر ، ويلاحظ قوله في التقرير الذي رفعه لسفير فرنسا : « انه وان كان يخيل الينا ان علي بك هو القوة المنفذة لتلك الاعمال التي جعلت تلك المنطقة (منطقة سوريا ولبنان) مسرحاً للكوارث فانها في مجموعها ليست سوى مشروع للتوسع اوجدته اطماع ظاهر العمر للاستيلاء على جميع المدن الساحلية » (٨) .

* * *

ثم توسعنا بعد هذه الملاحظات في درس التاريخ اللبناني وتعمقنا في موازنة الاحداث وتقدير الظروف وفهمنا من ابعادها السياسية ما يفهمه الباحثون عن الحقيقة ، من « ان سياسة الامراء الشهابيين – منذ اصبحوا ورثة للامير فخر الدين المعني – كانت تخضع لعوامل خارجية ومخططات اجنبية وطائفية لها اهدافها ولها مؤثراتها في توجيه سياسة الامراء وفي اشعال نار الحروب الاهلية بين ابناء الوطن الواحد » (٩) .

* * *

ومن « ان اطماع الامراء الشهابيين في تركة الامير فخر الدين المودعة في

مصرف الرحمة الابطالي(١٠) قد ضاعفت حملاتهم المسعورة على جيران الشوف من المتاولة وخصوصاً في عهد الامير ملحم بين سنة ١١٤٤ وسنة ١١٦٣ هـ ، وهل كانت هذه الحملات من ملحم الا تقربا لمن اطمعوه في بقايا تلك الثروة المعنية اذا هو يسر لهم ما كان يحلم به مسيرو الامير فخر الدين المعني من انشاء امارة طائفية على انقاض غيرها من مشيخات الجيران والطوائف الاخرى(١١)».

* * *

ومن انه عندما اضطر الامير ملحم لان يتخلى عن الحكم كانت دعوته بتركة الامير المعني قد فشلت ، وكان ابناؤه الذين تربوا على ايدي الاكليروس تربية لها مخططاتها ولها اهـــدافها السياسية والطائفية .. كانوا في سن الطفولة ، ولهذا اضطر لان يتخلى عن الحكم لاخويه الامير احمد والامير منصور .

ومن « انه عندما لجأ اخوا الامير ملحم – بحكم الظروف –الى ان يسلكا بسياستها طريقاً محايداً يخالف سياسة اخيهم ، اخذ مدبرو ملحم واعوانــه يسعون لاقامة الامير قاسم ابن اخي الامير ملحم مكان عميه أحمد ومنصور ، وعندما خابت مساعيهم للامير قاسم ، تحولوا نحو الامير احمد ـ لايجاد ثغرة بين الحاكين ينفذوا منها الى هدفهم الخاص . وعندما تغلب عليه اخوه الامير منصور وخاب مسعاهم ، تحولوا نحو الامير يوسف بن الامير ملحم – وقـد بلغ اشده – وكان موضع ثقتهم ورجائهم لاطمئنانهم الى نشأته وميوله واستسلامه لما يوحون ، فأخذ مدبره سعد الخوري يتنقل بين امراء لبنان ومشايخه الى ان تم له ما يريد وسار بالامير يوسف الى الشام واستحصل له – بما اعد من وسائل الاغراء – على امر من الباشا بتعيينه حاكماً على مقاطعة جبيل تمهيدا لحكمه على الشوف متى حانت الفرص » .

ومن انه « عنـــدما غضبت الدولة على الامير منصور لترحيبه باحتلال دمشق من قبـل الحلفاء الثلاث محمد ابو الذهب والشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف النصار ، واصبح الامير منصور – بعد تراجع ابي الذهب وخيانته –

في حكم المعزول من قبل الدولة، عند ذلك هب الامير يوسف واعوانه الى رحاب عثمان باشا في دمشق ليحظى بمراسيم الحكم على لبنــان وليتلقى التوجيهات والاوامر الصارمة في شن الغارات على بلاد المتاولة وحلفائهم من الفلسطينيين كما يبدو من الروايات المختلفة (١٢) » .

خامساً - يأس الشيخ ظاهر من ضم المتاولة الى جانبه بالقوة والعنف وربما كان يأسه هذا هو المنبه الأول للتفكير في تحالفــه معهم ، ذلك بأنه اختبر صلابة عودهم ، ورآهم رغم اختلافهم مع بشوات صيدا ، ورغم اختلافهم فيما بينهم ، قد صمدوا له ولغاراته الكبرى بل هاجموه في عقر داره كما يبدو من مختلف الروايات والنصوص .

صمود المتاولة لظاهر العمر

.. ومن مظاهر صمودهم للشيخ ظاهر العمر ، الحوادث التي يرويهـا حيدر رضا الركيني على النحو التالي :

« وفي سنة ١١٧٩ هـ في اليوم الثامن من شهر ربيع الاول وكان يوم الاثنين ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس بعسكرهم وعسكر الدرفــة الى وادي المعظمية الى عسكر علي الظاهر فكسروه كسرة عظيمة وذبحوا من الصفدية قدر مائتين وخمسين رجلاً (١٣) » .

* * *

ومنها قوله « وفي سنة ١١٨٠ هـ في يوم الاحد الرابع عشر من محرم كانت وقعة صفد بين علي الظاهر ومشايخ بلاد بشارة وكانت النصرة للمشايخ وقتل من الصفدية نحو مائتي رجل » .

* * *

ومنها قوله « وفيها في الثالث والعشرين من ربيع الثاني كبس الشيخ ظاهر

العمر (قرية)البصة وقتل منها أناس ، (وقبل) منها في ستة أيام (مر) عثمان الظاهر قرب (قرية) الزيب ونهب منها طرشاً (١٤) » .

* * *

ومنها قوله « وفي سنة ١١٨٠ هـ في يوم الاثنين ثامن جماد الاول كبس ظاهر العمر قرية تربيخا وصار بينه وبين الشيخ ناصيف وقعة عظيمة انكسر الشيخ ظاهر كسرة عظيمة وقتل من عسكره مائة وخمسون رجلاً وأخذ من عسكره ايضاً مائة قليعة (أي مائة فرس قتل فارسها ومعدة بسروجها للركوب) وقتل عشرون رجلاً من عسكر الشيخ ناصيف (١٥) » .

* * *

ومنها قوله « وفي سنة ١١٨٠ في يوم الجمعة تاسع شهر ذي الحجة كبست قرية صلحا من الصفدية (١٦) » .

* * *

ومنها قوله « وفي سنة ١١٨١ في الخامس من شهر جماد آخر كبست الصفدية تربيخا وأخذوا منها معزا وقتل فيها واحد وامرأة ومن الصفدية واحد (١٧) » .

تقدير ضاهر لصمود المتاولة

.. ففي هذه الروايات والنصوص التي قدمناها ما يثبت أن المتاولة قد صمدوا للشيخ ضاهر العمر ، وان غاراته الكبرى عليهم انتهت بهزايم جيشه وبما يشعره باستحالة ضمهم اليه بالقوة .

كما اقتنع مشايخ المتاولة بدورهم وشعروا بأن من مصلحتهم – في تلك الظروف المفعمة بالقلق – أن يتحالفوا مع ضاهر العمر لمواجهة العواصف

والاخطار التي كانت تنذر الجميع وخصوصاً بعد أن سادت الفوضى في البلاد وضعف نفوذ الدولة وأصبح من الممكن لهم مع ضاهر العمر أن يتخلصوا من جور عثمان باشا وأمثاله من الطغاة أو أن ينفصلوا عن الدولة العثمانية على نحو يصون حريتهم وكرامتهم ويحفظ صلتهم بسلطان المسلمين .

ولهذا نرى ظاهراً – بعد ملاحظة مثل هذه الظروف والاحوال – يسعى فجأة الى عقد الاجتماع بمدينة صور مع مشايخ المتاولة في ١٧ ربيع الاول من سنة ١١٨١ ثم يذهب بعد ذلك للاجتماع بأمراء حاصبيا كما يتضح من قول الركيني « وفي سنة ١١٨١ في سابع عشر ربيع اول وصل الشيخ ضاهر العمر والشيخ علي جنبلاط الى مدينة صور الى الجمية وما تمت » .

ومن قوله « وفيها في شهر ربيع آخر جاء الشيخ ظاهر العمر الى حاصبيا لمواجهة الامارة » .

لاحظ هذين القولين ص ٧٣٥ – ٧٣٦ من العرفان م ٢٧ ثم ابحث عما عسى ان تكون الغاية من مجيء ظاهر لمدينة صور بعد غاراته الضارية على المتاولة ؟؟ أليس لاجل الصلح ؟ ثم مع من كان يحاول ان يجتمع في صور ؟ أليس مع مشايخ المتاولة ثم لماذا لم يتم الاجتماع في صور ؟ أليس لان الشيخ ناصيف النصار ومن اليه من مشايخ المتاولة لم يحضروا للاجتماع او لم يتسنى لهم ان يحضروا في ذلك الوقت المعين ؟؟ .

ثم نرى الشيخ ناصيف – تجاوبا مع هذه البوادر الطيبة التي بدرت من الشيخ ظاهر – يذهب بعد حين الى عكا ليتحالف معه ، ثم يذهب بعد تحالفه مع ظاهر – من عكا الى عند الدروز ، كما يتضح من قول الركيني .

« وفي سنة ١١٨١ هـ في ثامن شهر رجب سار الشيخ ناصيف الى عكا الى عند الشيخ ظاهر العمر ووقع الصلح بينهم ، ثم سافر الى عند الدروز » .

لاحظ ص ٧٣٥ – ٧٣٦ من العرفان م ٢٧ ثم لاحظ كيف ذهب ظاهر

الى صور للاجتماع بمشايخ المتاولة ثم كيف ذهب بعـــد ذلك الى حاصبيا للاجتماع بالامارة ، ثم تأمل بعد كيف ذهب ناصيف – بعد تحالفه مع ظاهر – من عكا الى عند الدروز ، الا تشعر من تشابه حركات ظاهر وناصيف بان الاهداف من الاجتماع والتحالف كانت واحدة لدى الجميع وهي بان تتضامن جميع القوى الشعبية في المنطقة وتستعد لمواجهة الظروف والاخطار المتوقعة ، وخصوصا بعد احتمال تلاقي المصريين والفلسطينيين والمتاولة في جبهة واحدة كما كان يقدر ظاهر وحليفه علي بك الكبير حاكم مصر .

اسباب التحالف كما يرويها الصباغ

اوضحنا فيما نقلناه عن المخطوطات والمؤلفات العاملية ما تنص عليه مـــن دواعي التحالف وظروفه وملابساته التي جمعت بين الشيخ ظاهر العمر ومشايخ المتاولة ، وهي كلها بحوادثها واسبابها واوقاتها لا تنسجم مـــع ما يذهب اليه المعلم ميخائيـــل نقولا الصباغ وينص عليه من « ان الشيخ ظاهر التفت الى المتاولة وهم قوم من ذوي البأس والجسارة والنجدة وكبيرهم – يوم ذلك – الشيخ ناصيف النصار من بيت علي الصغير وبلادهم بلاد بشارة بين جبـــل الدروز وبلاد صفد، وبما ان بحدود بلاده بلدين لهم وهما البصة وبارون،فكتب لهم ان ينزلوا له عنهما ، فارسل له ناصيف الجواب بالرفض واغلظ له القول ، ومن جملة ذلك قال له « لا تظن اننا نظير سواتا فوالله ان عندنا مقابل سيفك سيوفا احد منه وبازاء كيدك مكائد كثيرة فالاولى بك ان تدعنا غافلين عنك باعتداءك على جيراننا والآن والله العظيم انك تندم لاننا نحن طالما بغي علينا فانتصفنا من الباغي وعاهدنا فقمنا بعهدنا وكنا من انصار اصحابك فدونك الامرين انت ورأيك ونحن نرى فيما يبدو منك والسلام » .

فلما قرأ ظاهر جواب ناصيف انزعج منه واستشار اخاه سعداً بأمره فقال له سعد انا اكفيك امرهم وركب واجتمع بناصيف وحادثه بالامر فما استفاد شيئا ، ولما عاد راجعا الى ظاهر واخبره بما وقع له غضب ظاهر وارسل حالا

يطلب تقرير البلدين من الباشا ، فارسله له وحينئذ ارسل ظاهر طرد ولاة المتاولة منها وتولاها هو فبلغ ذلك الى ناصيف فجرد هذا خيله واتاه فتلقاه ظاهر ووقع بينهم الحرب اياما وكانت سجالا يوما لهذا ويوما لذاك .

فلما رأى الدنكزلي ذلك استغفل القوم ومضى في طريق غير مسلوك وكبس المتاولة في بلدهم على غرة وقبض على اولاد المشايخ واخذ معهم ولدين لناصيف ورجع في طريقه الى ظاهر » .

وكان قد بلغ الخبر بذلك الى ناصيف وهو في القتال فالتزم ان يترك موقع القتال ويسرع ليخلص اولاده فاتبعه ظاهر برجاله وهم يقتلون بالمتاولة الذين انكسروا لسبب ذلك شر كسرة ولما رجع الدنكزلي عائدا من غارته واخبر ظاهرا بما فعل سر بذلك واخذ الاولاد وجعلهم عنده مكرمين تحت الحفظ.

فلما وصل ناصيف الى تبنين وجد داره خالية من الاولاد وخيل ظاهر تابعة له تطارده فارسل حالا الى سعد يطلب الصلح وانه يتنازل لضاهر في مطلوبه بان يرجع له اولاده فسعى سعد بالصلح على ان تكون البصة ويارون لظاهر مضافة الى بلاده وان جميع بلاد المتاولة لا يكون لهم مع الباشا شأن في دفع مال الميري بل يكون ذلك مع ظاهر وهو يمنع عنهم كل ظلم يأتي عليهم من قبل الباشا ويساعدهم على كل من ناوأهم واراد قتالهم ، وكذلك اذا وقع على ظاهر حرب وطلب مساعدتهم فيكونون أول المساعدين له .

فلما عقد الصلح بينهم على ذلك أحضر ظاهر أولاد ناصيف وقبلهم وخلع عليهم وأرسلهم مكرمين فلما وصلوا الى دارهم سرّ بذلك والدهم ثم أخذ رأسين من خيل الأصايل ومضى فقدمهما بذاته الى ظاهر ، فترحب به ظاهر كثيراً وقدم له الاكرام الفائق وخلع عليه واسقط له من المال الميري المقرر على بلاد بشارة الربع ؟ وجدد له ناصيف اليمين على السيف والمصحف أن يكون هو وقومه معه يداً واحدة . ورجع إلى بلاده ففرح المتاولة بذلك ، لأن الباشا كان يكرههم للدين ويعدهم من الروافض ، وكان دائماً يشدد عليهم ويغري بهم النابلسية (١٨) .

يلاحظ من رسالة ظاهر العمر لناصيف– على تقدير صحة الخبر–ان ظاهر طلب بمجرد طلب والتماس من ناصيف أن يتنازل له عن قريتي البصة ويارون ، ولم يهدده في استعمال القوة ، ولو كان بنية ظاهر أن يأخذهما بالقوة وكيف ما اتفق الحال لاستعمل القوة وأي وسيلة من الوسائل التي توصله الى غايته قبل أي طلب ورجاء او كتابة خطية .

وعليه فليس من الطبيعي أن يستعمل ناصيف في رده على ظاهر هذه اللهجة النابية الجافة التي تصورها رواية المؤرخ مخائيل الصباغ ، وكذلك ليس في مقتضى طلب ظاهر ومغزاه ما يدعو ناصيف لأن يقترح في جوابه على ظاهر عقد معاهدة بينهما او تخيره بين التحالف او الحرب ؟

ثانياً – كان من المتعارف في تقاليد ذلك الزمن أن تكون المراسلة بين القادة الكبار – مثل ظاهر وناصيف– بالمشافهة لا بالكتابة وذلك بأن يرسل كل منهما الى الآخر مندوباً من قبله يشرح له ويبلغه ما يريد قوله او فعله وتحقيقه . ولكي يتأكد القراء من صحة هذا الزعم فليراجعوا صفحة ١٤٠ – ١٤١ من تاريخ سليمان باشا للمعلم ابراهيم العورة،حيث تتضح هذه العادة. وهذا التقليد بالقول والفعل والنص على هذا المعنى .

ثالثاً – انه من المعروف عن أنظمة الحروب الأهلية يومئذ ، بأن الحرب فيها كانت هوشة او هوشات ، وذلك بأن يهجم أحد الطرفين على الآخر فاذا سبق الى أن يوقع في أخصامه بعض القتلى او بعض الجرحى فروا أمامه وحصلت الهزيمة .

واذا استطاع الاخصام ان يسبقوا المهاجمين الى أن يسقطوا منهم بعض القتلى أو بعض الجرحى ارتدّ المهاجمون وحصلت الكسرة عليهم وتمّ النصر لأخصامهم ، وكثيراً ما تنتهى الحرب بانتهاء المعركة (١٩) .

وعليه فكيف بقيت الحرب -في رواية الصباغ- أياماً بين ظاهر والمتاولة مع أن جميع النصوص التاريخية التي وصلت الينا تدل على أن جميع مواقع الحرب بينهم كانت خاطفة وأن النصر في معاركها الكبرى كانت للمتاولة. وحسبنا بذلك ما رويناه عن حيدر رضا وهو من المعاصرين للحوادث.

* * *

رابعاً – انه ليس من المعقول ان يفكر قائد لامع من قواد المعركة كالدنكزلي بترك جيشه – والحرب دائرة على أشدها بين المتحاربين – ليسير مع فرسانه الى مسافة بعيدة وفي طريق مجهولة وعرة داخل بلاد أعدائه ؟

ثم كيف يعقل أن يغفل القوم عنه وهو من ألمع قادتهم في الحرب ، وانسحاب مثله بأي اسلوب يحدث هزة في جيشه وضعفاً في معنوياته يؤول به الى التخاذل والانكسار ؟

* * *

ثم كيف يمكن أن يصل الدنكزلي مع خيله الى تبنين دون أن يحس به أحد أو يعترض طريقه معترض من رجال المتاولة وهم في حال تحفظ وحذر من مثل هذه المفاجآت وموزعون في الطرق المختلفة التي تؤدي إلى تبنين ؟

ثم هب أن الدنكزلي استطاع أن يقطع هذه المسافات البعيدة بين تربيخا وتبنين فكيف تسنى له ان يدخل القلعة المحكمة التحصين بهذه السرعة المطلوبة ليخطف أبناء ناصيف ويذهب بهم من تبنين الى عكا دون أن يشعر به أحد أو يعترض طريقه أحد ؟ وخصوصاً في أحرج ظروف الحرب وأدعاها للتحفظ والحذر ، كأن البلاد كانت خالية من السكان او كأن القلعة كانت بلا سور ولا أبواب ولا حرس ولا ابراج ؟

* * *

خامسا – ان من يراجع تاريخ ميخائيل نقولا الصباغ يشعر بان هذا التاريخ

في جل رواياته هو أشبه بالقصص التي تمزج الحقيقة بالخيال منه بالتاريخ الذي يتحرى الحقيقة والواقع وهذا ما يحمل القارىء يشك بصحة جل رواياتـه او يشك بمطابقتها لمجرى الحوادث ، وخصوصا حين يجـد في غيرها من روايات المؤرخين ما ينقض محتوى تلك الرواياتالتي يلحقها المؤلفالصباغ بتاريخظاهر اعتباطا كروايته عن تسلل احمد اغا الدنكزلي الى قلعة تبنينواختطافه لابناء ناصيف النصار ، وارغام ناصيف على مصالحة ظاهر وتنازله له عـن قريتي البصة وياورن وما اشبه ذلك من المزاعم التي تتنافى مع اهداف ظاهر وحكمته ومرونته المعروفة .

فان من يحرص كظاهر العمر على ان يتحالف مع أي فئة قوية كانت أم ضعيفة لا يلجأ الى استعمال الوسائل التي تتنافى مع ابسط دواعي الشهامـة والمروءة كاللجوء الى اختطاف ابناء زعمائها ؟ وانما يتخذ من كياسته وكرمه وتسامحه سبيلا الى قلوب قادتها لكي يسلسلوا له القياد ويطمئنوا الى حسن نيته ويخلصوا له القول والعمل ، لهذا نجل عقل ظاهر عن ان يفكر بمثل تلك الوسائل او يستعملها لتحقيق اهداف وضيعة كمحاولة استيلائه على البصّة ويارون .

***

وبعـد أصحيح ان عثمان باشا كان – كما يقول الصباغ – يكره مشايخ المتاولة لانهم شيعة ؟ اكثر من كرهه لظاهر العمر زعيم فلسطين وعلي بك الكبير زعيم مصر لانهم من اهل السنة ؟ ام ان كرهه لهذين الخصمين كان بالضرورة اكثر من كرهه لمشايخ المتاولة لانهما كانا اكثر ايلاما له واشد خطرا عليه وعلى دولته من مشايخ المتاولة ؟أم ان المؤلف قال ما قاله جريا على عادة المبشرين للتفرقة بين الطائفتين ؟

١ – لاحظ ص ٢٣٧ من العرفان مجلد ٢ ثم ص ٣١٨ من العرفان م (٣١) ثم ص ٦٩٠ من العرفان مجلد ٢٧ .

* * *

٢ – لاحظ ٦٩٠ من العرفان م ٢٧ .

* * *

٣ – ولكي تعرف من هو الشيخ ظاهر العمر لاحظ تاريخه العام للمعلم مخائيل نقولا الصباغ، ثم ص ١٨٤ من سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للهجرة، ثم ص ٣١٧ – ٤٦٦ من مجلة المقتطف م ٢٨ ثم ص ٦٥ – ٨٩ من رحلة فولني تعريب حبيب السيوفي، وحسبك ان تقرأ قول هذا الرحالة عن ظاهر «وهذا الرجل ذي الشمائل الطيبة الذي لم تر سورية حاكماً عظيماً مثله، ففي ساعة القتال لم يكن احد اكثر منه شجاعة ونشاطا ومهارة ورباطة جأش، واما في ميدان السياسة فانـــه كان ذا استقامة وصراحة لم تجعله مطامعه بأسرها يحيد عنها ابدا، فكان يفضل مخاطر الحرب ومهالكها على الدسائس والخداع. وقبل ان يلحق به ابراهيم (الصباغ) لم يكن يعرف الرياء والمداهنة اللتين كان ابراهيم يعدهما حذرا وفطنة، وحيث عدله ادى الى استتباب الامن في بلاده بشكل لم يقو تعدد الاديان وتفرق النزعات على العبث به .

وكان متسامحا متساهلا على غرار عرب البادية في ما يختص بالاديان فقد ظل محافظا على طباعهم وارائهم واميالهم .

٤ – لاحظ ص ٥٢٦ من العرفان م ٢٧ ، ثم لاحظ اننا اعتمدنا في هـذا

البحث على مصادر عديدة ، ولعل افضلها من حيث الصحة والصدق مخطوطة الشيخ حيدر رضا الركيني ، المنشورة ضمن اعداد مجلة العرفان بين مجلد ٢٧ و٢٨ و٢٩ ، فهي تمتاز بان مؤلفها من المعاصرين للحوادث التي يرويها ، وبانه كان قريباً من مواقعها الجغرافية ، وبانه كان يحدد اوقاتها باليوم والشهر،والعام، ثم ينقلها بسذاجة واختصار تشعر منهما بانه كان بعيدا عن اختلاق الاخبار او تحويرها ، وبانه كان قاصرا بامكانياته العلمية والادبية والسياسية عن معرفة تفاصيل الحوادث وعن معرفة اسبابها وابعادها السياسية والاجتماعية .

وفي هذه الخصائص كلها ما يدعو الى تصديق لهجته وترجيح روايته ،وان كان هذا الترجيح لا يغني عن البحث عما تعدى امكانيات الركيني من معرفة تفاصيل الوقائع ومعرفة اسبابها وابعادها ، ثم البحث عن خبر الحوادث الاخرى التي اهمل ذكرها جهلا بها او تجاهلا منه لسر من اسرار زمانه ومكانه وظروفه الخاصة .

★★★

٥ - لاحظ ص ٥٢٧ من العرفان م ٢٧ : ولاحظ ان جميع النصوص التي تنبىء عن الحوادث العاملية بين سنة ١١٦٤ وسنة ١١٨١ هـ منشورة في العرفان م ٢٧ حسب ترتيب اجزائه السنوية .

ثم لاحظ ان سفر الشيخ ناصيف الى الشام في نفس اليوم الذي نهب فيه سعد الدين باشا العظم بلاد بشارة ليس له من معنى الا ان يكون للمفاوضة مع بشوات آل العظم في بت" الخلاف ، وانه عندما رجع يائساً من انصافهم لجأ الى السلاح واستعمال القوة كما يتضح من سياق الكلام وبقية مجمله .

* * *

٦ - لكي تعرف من هو علي بك حاكم مصر في القرن الثامن عشر - لاحظ ص ٩١ - ١٠٣ من رحلة فولني تعريب السيوفي ثم تاريخ علي بك لمحمد رفعت

رمضان ، ثم ص ٥٠ - ٥٢ من يوميات الجبرتي لابراهيم جلال ، ثم ترجمة علي بك ص ١٥٦ - ١٥٨ من الجبرتي ج ٣ على هامش تاريخ ابن الاثير .

* * *

٧ - لاحظ هذا النص ص ٢٨ - ٣١ ج ١ من كتاب السياسة الدولية في الشرق العربي لمؤلفيه الاستاذ اميل الخوري والاستاذ عادل اسماعيل الطبعة الاولى .

* * *

٨- لاحظ ص ١٩١-١٩٢ ج ١ من تاريخ علي بك الكبير لمحمد رفعت رمضان والمصادر الغربية التي اشار اليها .

* * *

٩ - لاحظ مقال من زوايا التاريخ اللبناني ص ١٤٩ - ١٥٩ من العرفان م ٥١ ثم ص ٦٣٥ من العرفان م ٤٦ .

* * *

١٠- لاحظ ص ٢٣٨ - ٢٩٦ من كتاب الاصول التاريخية م ٢ ج ٣ .

١١ - لاحظ ص ١٠٧٠ - ١٠٨٣ ثم ص ١٢٤٣ - ١٢٥٣ من العرفان م ٥٧.. يتضح لك ما نعنيه بهذه العبارة من معان ومقاصد .

* * *

١٢ - لاحظ تاريخ الامراء الشهابيين في لبنان بين سنة ١١٦٧ وسنة ١١٨٦ هـ ، او لاحظ ص ٤٩ - ٥٠ من رحلة فولني تعريب حبيب السيوفي وص ١٥٤ - ١٥٧ من علي بك الكبير لمحمد رفعت رمضان طبعة اولى .

وص ١٠٢ – ١٠٣ من تاريخ ظاهر العمر لمخائيل الصباغ

وص ٨٠٧ – ٨١٢ من تاريخ الامير حيدر طبع مصر سنة ١٩٠٠ .

وص ٤٣ – ٩٣ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين طبع بيروت .

* * *

١٣ – لاحظ ص ٦٢٧ من العرفان م ٢٧ ، ثم لاحظ ان المقصود هنا بعسكر الدرفة العسكر المرسل من قبل الدولة او من قبل باشا صيدا وامير الدروز لمحاربة آل الظاهر في صفد .

اما وادي المعظمية فهو الوادي الواقع شمال قرية الجش على ما في يوميات الرحالة ربنصون ج ١ ص ١٤ .

* * *

١٤ – لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ حيث يظهر من فحوى هذا النص ان المتاولة لم تمهلهم المفاجأة ليقاوموا الغارة ، كما يظهر منه ان قريتي البصة ، والزيب ، كانتا ضمن حدود بلاد المتاولة يومئذ .

١٥ – لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ ثم لاحظ بعد ص ٢١ من العرفان م ٥ حيث يروي عن مخطوطة الشيخ علي سبيتي ما نصه « وسنة الف ومائة وثمانين كانت وقعة طربيخا مع ظاهر العمر وانكسر ظاهر وقتل منة مائة قتيل ونهبت منه خيل ومن الجملة فرسه البرصاء » .

ثم لاحظ ص ١١٢ – ٢٢٤ من مخطوطة خنجر بك الصعبي حفيد الشيخ علي الفارس اذ يبدو من قصيدة الشيخ ابراهيم الحاريصي في تصوير موقف ممدوحه الشيخ علي في واقعة طربيخا والدولاب، ان الواقعة كانت سنة ١١٨١هـ

لا سنة ١١٨٠ ولعل الشاعر او الناسخ يقصد بتاريخ سنة ١١٨١ تاريخ نظم القصيدة في المدح والتهنئة والحماسة ، لا تاريخ الواقعة المتقدم على هذا التاريخ، ومما يرجح هذا القول ويسدده ان العلامة الشيخ ابراهيم يحيى يمدح الشيخ علي الفارس ويصور موقفه في واقعة طربيخا والدولاب ويؤرخ هذه الواقعة والقصيدة معاً بسنة ١١٨٠ هـ على ما ينقله الناسخ للمخطوطة ص ٦٦ - ١٣٢ .

١٦ - لاحظ ص ٦٢٨ من العرفان م ٢٧ ، ويظهر من النص ان القرية لم تصب بأذى ولم يترتب على هذه الغارة شيء يستحق الذكر .

***

١٧ -لاحظ ص ٧٣٦ من العرفانم ٢٧،ويظهر من فحوى النص ان الغارة كانت لمجرد السلب والنهب لا للقتال .

***

١٨ لاحظ ص ٣٩ - ٤١ من تاريخ ظاهر العمر للمعلم مخايل نقولا الصباغ حفيد المعلم ابراهيم الصباغ مدبر ظاهر العمر ومستشاره .

***

١٩ لاحظ ص ١٢٩ - ١٣٠ من تاريخ سليمان باشا ثم ص ٩٦ من رحلة فولني تعريب السيوفي ، وص ١١٧ - ١١٩ من تعريب ادوار البستاني .

اشتراك المتاولة في الثورة على ولاة الاتراك

لم تكن ثورة علي بك الكبير او الشيخ ظاهر العمر وامثاله من مشايخ المتاولة ثورة على الواقع الفاسد في انظمة الحكم وادارة الدولة لتبديله بنظام اصح وادارة أصلح ، وانما كانت تلك الثورة في جملتها وتفصيلها محاولة افراد او جماعة من الحكام المحليين ان يعززوا نفوذهم ويبسطوا سلطانهم على شؤون الحكم والادارة في الولاية او السنجقية او المقاطعة وما اليها من قرى وقبائل مع بقائهم تابعين – على نحو ما – لسلطان الخلافة العثمانية في اسطنبول كي تحميهم من اطماع الدول الاخرى .

واذا ما استغل الثوار فرصة انشغال الدولة بالحرب مع غيرها من الدول فذلك لم يكن لاجل الانفصال عن الدولة او الأنضمام الى غيرها من الدول المعادية كما تخيل بعض المؤرخين ، وانما كان استغلالهم لقسوة الظروف كي يحرجوا طغاة العثمانيين ويجبروهم على الاعتراف لهم بما يطمحون اليه من الحكم والنفوذ الذي يدغدغ احلامهم ويطمئن قلوبهم ويصونهم من غطرسة البشوات واستبدادهم (١) .

من هذا المفهوم للثورة وعلى هذا النحو من التفكير كان انطلاق مشايخ المتاولة ، فانهم بعد تحالفهم مع الشيخ ظاهر العمر قد اشتركوا معه في كل المعارك التي خاضها ضد بشوات الدوله العثمانية وفي طليعتها معارك داريا ودمشق التي انهزم بها البشوات والوزراء الاربع من وجه القادة الثلاث محمد

بك ابو لذهب والشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف النصار وادى انهزامهم الى احتلال المصريين والصفديين والمتاولة لمدينة دمشق خمسة عشر يوماً من عشرين صفر سنه ١١٨٥ هـ الى خمسة ربيع اول .

ومن الادلة البينة على اشتراك المتاولة مع ظاهر العمر ، وابي الذهب في هذه المعركة ، قول المؤرخ المرادي « فتوجه ابو الذهب جهة دمشق ، وكان وصوله اليها يوم الاثنين تاسع عشر من صفر سنة ١١٨٥ هـ وكان معه تسعة صناجق وخمسة من اولاد ظاهر العمر امير بلدة عكا ، ومشايخ المتاولة والصفدية اهـل البدع والرفض ومعه نحو ثمانين مدفعا واربعين الف مقاتل » (٢) .

وقول الامير حيدر شهاب في نزهة الزمان « ولما وصل محمد بك ابو الذهب الى اراضي غزة والرملة و (مقاطعات) عكا وحضر اليه اولاد ظاهر العمر . ومشايخ المتاولة وانضموا الى عسكره فصار جيشاً عظيما ينيف على الستين الفاً وسار بتلك العساكر طالباً دمشق » (٣) .

وقوله بعد الذي قاله عن احتلال ابي الذهب لدمشق ثم ارتجاعه عنها بغير سبب « وشاع رحيل ابي الذهب في الغد فتعجب اهل الشام كل العجب من ذلك ولم يعلموا السبب فيه ورجعت اولاد الشيخ ظاهر العمر ، والمشايخ المتاولة كل منهم الى مكانه وقد ذهلوا من قيامه وتأسفوا على سعيهم الباطل » (٤) .

ثم قوله بعد ان تكلم عن رجوع عثمان باشا من هزيمته الى دمشق وعن جمعه للعساكر « ثم خرج بالعساكر الكثيرة الى ارض الحولة لمحاربة الشيخ ظاهر العمر وبني متوال الذين كانوا هم السبب في تلك الأحوال » (٥) .

معركة دمشق كما يرويها الرحالة فولني

يقول الرحالة الفرنسي فولني (؟) وهو يروي عن شاهد عيان ما خلاصته « ان جيش المماليك بقيـــادة أبي الذهب قد وصل الى فلسطين في أواخر شهر شباط » .

وكان هذا الجيش يتألف من أربعين الفاً ، منهم خمسة آلاف مملوك جميعهم فرسان ، والف وخمسمئة مغربي ، ثم أن لكل مملوك خادمين راجلين سلاحهما العصي، فعدد هؤلاء الخدم إذاً عشرة آلاف ، أضف اليهم الفي فارس (سراج) كما يدعون الفارس هناك ، من تبعية البكوات والكشفة ، وأما الباقون فهم من الباعة والمرتزقة » .

« وزحف هذا الجيش الكبير الى عكا (جماعات جماعات لا يتقيدون بنظام) وكان احتشد في (مقاطعات) عكا من المتاولة الف وخمسمائة فارس (ومن الصفدية الف وخمسمائة فارس) ومن المغـــاربة الف من المشاة (؟) فبعد ما تفاوض الزعماء في الخطة الواجب اتباعها زحف الجميع الى دمشق وكان ذلك في شهر نيسان » .

وكان عثمان باشا قد تمكن هو الآخر من حشد جيش كبير وقد انضم اليه وزراء صيدا ، وطرابلس ، وحلب ؟ وجنودهم فهؤلاء كانوا واقفين يرصدون العدو تحت أسوار دمشق » .

« فلما تدانى الفريقـــان في اليوم السادس من شهر حزيران دارت بينهما رحى المعركة الفاصلة ، اذ المماليك والصفديون هجموا معاً (؟؟) هجمة صادقة على الأتراك الذين ما لبثوا ان لاذوا بالفرار منهزمين شر هزيمة ، وكان عثمان باشا اول المدبرين » .

فالحليفان (؟؟) بعد فوزهما ذاك استوليا بسهولة على دمشق التي لم يكن فيها حامية تدافع عنها ، وأما القلعة فانها قاومتهم ولم يكن على أسوارها لا مدافع ولا مدفعيون ، بل كان على مقربة منهـــا خندق غمرته المياه ، وقد وقف على الاسوار بعض حملة البنادق الذين تمكنوا من صد فرسان العـــدو ، ولكن بما أنهم هم المغلوبون فعزموا على اخلاء القلعة والاستسلام .

غير انه حدث آنئذ ما لم يكن في الحسبان لأن محمـــد بك أوعز بغتة الى رجاله في الرحيل إذ كانوا يتأهبون لدخول القلعة ،فأثار ذلك ذهول الشيخ ظاهر وناصيف (النصار) اللذين حاولا سؤاله عن الباعث على نكوصه على عقبيه على هذا المنوال ، غير انه لم يجبهما على سؤالهما بل هددهما شامخاً بأنفه ورحل هو ورجاله بقضهم وقضيضهم كأنهم منهزمون من وجه عدو جاد في أثرهم (٦) .

المعركة كما يرويها الخوري ابريك

يقول الخوري ميخائيل ابريك ص ٩٤-٩٦ من تاريخ الشام : « وفي غيبـة (عثمان باشا مع) الحج حضر لدمشق أربع وزراء (؟) وصحبتهم جملة عساكر وارطقول من طرف الدولة العلية لأجل حماية البـلاد الشامية فضروا الشام والبلاد بغير فائدة .

ولما رجع الباشا من الحجاز الى دمشق أقبلت العساكر المصرية نحو الديار الشامية مرسلة من طرف علي بك صحبة محمـــد بك ابو الذهب ومعه عسكر ظاهر العمر (وعسكر) المتاولة ، وكان ذلك العسكر جراراً كالبحر الزاخر (ومعه) نحو ماية مدفع ، ونزلوا بوطاقهم عند ثغرة كوكب .

وفي الغد خرجت الوزراء والعساكر الموجودة في دمشق مع العساكر الشامية الذين جملتهم تنيف عن مائة الف ، وصار الحرب في سهل داريا فما استقاموا قدام العسكر المصري (؟) ساعتين وانهزموا مكسورين ودخلوا المدينة مغلوبين ، وفي الليل هرب وزير الشام وباقي الوزراء والعساكر الكثيرة نحو حمص وحماه وتلك البلاد (؟) .

فأصبحت دمشق بالذل والخوف فزحف العسكر المصري ونزل بأرض القدم فوق باب الله ، وهجم على الشام بالسيف وملكها ونهب وحرق بعض محلات الميدان . وفي الغد خرجت الموالي –الأشراف– والأكابر اليه خاضعين وسلمته البلد راغمين ، فطلب منهم تسليم القلعة ، فقالوا له هذه قلعة السلطان وداخلها وجاق القبيقول ولا لنا حكم عليها بوجه ، فأجابهم أنا أملكها بالسيف . وفي الحال وجّه المدافع والقنابر عليها فأخرجوا له المحمل (؟) ونصبوه فوق السور ، فلما نظروا المحمل كفوا عن الضرب والحرب عليها ، ودخلت الغز (؟) وعساكر مصر للمدينة تبيع وتشتري والناس في أمان ، وأتت حكام الأقاليم خاضعة إلى محمد بك ابو الذهب وهو يطمنهم ويخلع عليهم ، ولم يحدث من العساكر المصرية ضرر كلياً .

وفي اليوم الخامس عشر من وصوله وقف (عيّن) متسلم بالشام وآغا الانكشارية ، ونادى بالأمان وهدم خيامه ورحل راجعاً الى مصر ، الله لا يمتعه بالسلامة ، ولم يعرف أحد سبب رحيله ورجوعه (٧) .

الهوامش والتعليقات

١ – لاحظ ص ٥–٨ ثم ص ٥٨–٦٤ من كتاب علي بك الكبير لمحمد رفعت رمضان .

٢ – لاحظ ص ٥٤ من الجزء الاول لكتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر تأليف الشيخ محمد خليل المرادي تصوير الطبعة الاولى .

٣ ـ لاحظ ص ٨٠٣ من تاريخ الامير حيـــدر شهاب ج ٢ طبعة مصر سنة ١٩٠٠ م .

٤ ـ لاحظ ص ٨٠٦ من نفس المصدر .

٥ ـ لاحظ ص ٨٧ – ٨٩ من تاريخ الامير حيدر (لبنان في عهد الامراء الشهابيين) طبع بيروت ١٩٣٣ ثم لاحظ ان المقصود (بتلك الاحوال) هو اشتراكهم بتــأليف الحملة على دمشق ، ثم اشتراكهم في معركة داريا وانهزام عساكر عثمان باشا فيها ، ثم انهزامه هو وابنائه من جراء ذلك الى حمص .

٦ لاحظ ص ٧٤ ثم ص ٩٥ – ٩٧ من رحلة فولني تعريب حبيب السيوفي، ثم ص ٨٦ – ٨٨ من تعريب ادوار البستاني ، ثم لاحظ بعد ذلك الامور التــالية :

اولا ـ قول البحاثة العبقري فولني الذي أم سورية ولبنان وفلسطين سنة ١٧٨٣ ميلادية واقام في لبنان ما ينيف عن ستة اشهر يدرس ويبحث لاحظ قوله ص ١٠ من تعريب البستاني « وتوخيت في سرد الوقائع المحافظة على الروح التي سادتني عند بحثها عنيت بذلك حب المجرد للحقيقة ، وقد منعت نفسي عن الصور التخيلية، وان كنت لا اجهل افضلية الوهم عند جمهور القراء لاني ارى الرحلات ملك التاريخ لا الروايات » .

ثانيا ـ ان المؤلف او المعرب لم يذكر من جيوش المتاولة سوى الفرسان ، وقد اهمل ذكر المشاة من جيشهم وجيش الصفدية مع انه لم يهمل عدد افراد المشاة من جيش ابي الذهب ؟؟ .

ثالثا ـ ان المؤلف او المعرب ذاتــه لم يذكر المتاولة في جملة الحلفاء حين

قال « فالحليفان بعد فوزهما ذاك استوليا بسهولة على دمشق » ولم يذكرهم ايضا لدى وصف المعركة والحرب في جملة من صالوا وجالوا في لهواتها ، وانما اقتصر على ذكر المصريين والصفديين مع العلم بان المتاولة انما اشتركوا في هذه المعارك كحلفـــاء مستقلين بقياداتهم لا كأتباع منقادين قهرا لظاهر العمر او لابي الذهب ؟؟ .

* * *

٧- لا حظ ص ٩٤ - ٩٦ من تاريخ الشام (وثائق تاريخية) للخوري مخائيل بريك ، ثم لاحظ بعد ذلك الامور التالية :

اولا - ان المؤرخ مخائيل بريك كان يومئذ رئيساً لدير السيدة المشهور في في صيد نايا ، ونائبا للبطريركية الانطاقية بدمشق ، ثم انه كان من المعاصرين للحوادث وممن شاهدوا بعض وقائعها بوعي المثقف ثقافة دينية واجتماعية محترمة لدى ابناء عصره تتيح له ان يطلع على اراء الناس واحاديثهم عـــن خصائص المعركة وتفاصيلها اكثر مما يتاح لغيره من عامة الناس .

* * *

ثانيا - ان المؤرخ ابريك يقول « ان وزراء الدولة الذين اتوا للشام في غيبة عثمان باشا الى الحجاز هم اربعة وزراء مع ان المرادي ص ٥٤ من سلك الدرر ج ١ يسميهم بأسمائهم على النحو التالي ، عبد الرحمن باشا والي حلب ، وخليل باشا والي كلس ، ومحمد باشا والي طرابلس ، ولا يجعل لهم رابعاً سوى عثمان باشا والي الشام ؟؟ .

* * *

ثالثا - ان المؤرخ يتجاهل وجود المتاولة لدى وصف المعركة والحرب كأنما كانوا على هامش الحوادث لا يعنيهم شيء من امرها؟ مع العلم بانهم كانوا حلفاء للصفديين وللمصريين لا اتباع ولا مرتزقة ولا جبناء متواكلين ؟؟ .

رابعاً - يلاحظ هنا ان مخائيل ابريك يذهب كجل المؤرخين الى ان جميع

البشوات والعساكر الشامية قد فروا معاً بعد معركة داريا ، في حين ان الشيخ محمد خليل المرادي يذهب ص ٥٤ – ٥٧ من سلك الدرر الى ان الذين فروا بعد المعركة هم عبـــد الرحمن باشا باشة حلب ، وخليل باشا باشة كلس فحسب ، واما عثمان باشا وابنه محمد باشا فقد بقيا ثلاثة ايام في دمشق يقاومان جيوش الثوار المحاصرين لدمشق ، ولم يفرا منها الا بعد ان اتفق علماء الشام على تسليمها لابي الذهب ، وعليه فلا ندري باي القولين نتمسك ؟؟ .

* * *

خامساً – يصرح مؤلف سلك الدرر ص ٥٧ من الكتـــاب « بان ابا الذهب ارسل لاعيان دمشق قبل رحيله عنها يخبرهم عن سبب حملته على الشام وعن سبب رحيله عنها » .

وعليه فكيف نوفق بين هذا التصريح من مؤلف سلك الدرر وبين مايرويه جل المؤرخين وخصوصا المعاصرين منهم للحادثـــة كالخوري مخائيل ابريك الدمشقي والمؤرخ التركي محمد سعيد فرائضي زاده حيث يصرح ص ١٦٢٦ من كتاب كلش معارف بما نصه :

« لم يكن جنـــد ظاهر العمر ، او حلفائه المتاولة بأقل دهشة من غيرهم لانسحاب ابي الذهب المفاجيء وعندما ارسل اليه ظاهر العمر وشيخ المتاولة ناصيف النصار يستفسران عن سر ذلك ، رد عليهما متهددا متوعدا » .

وحيث يؤكد هذا القول محمد رفعت رمضان ص ١٧٦ من كتابـــه (علي بك الكبير) .

* * *

سادساً – يلاحظ ان المقصود من المحمل هنا هو (المحمل الشامي) الذي كان الشاميون منذ سنة ٩٢٣هـ يذهبون به الى مكة والمدينة ويحتفلون لخروجه في موسم الحج وهو طبعاً يختلف اختلافاً بينا عن السنجق النبوي الذي يزعم مؤرخو لبنان ان المحاصرين في قلعه دمشق رفعوه على سور القلعة ، ثم لو صح ان السنجق النبوي كان موجوداً لدى العثمانيين لكان وجوده محصوراً في الاستانة لا في دمشق ليرفع على سور القلعة ؟ .

المتاولة في واقعة الحولة

.. ومن المعارك التي اشترك بها المتاولة مع الشيخ ظاهر العمر معركة الحولة التي نجمت عن اشتراكهم معه في معارك دمشق وداريا ، كما يتضح من قول الامير حيدر شهاب .

« ولما فر عثمان باشا من وجه العساكر – التي اجتاحت دمشق – توجه الى حمص وارسل نائبه يوسف آغا بن جبري الى الامير يوسف يستنجده على ابي الذهب ، وابتدأ يجمع العساكر من تلك الاطراف حتى اجتمع عنده خلق كثير » .

« فلما بلغه ارتحال ابي الذهب عن دمشق رجع اليها وحضر اليه الامير يوسف فأكرمه عثمان باشا غاية الاكرام وأقام عنده أياماً ثم استأذنه بالرجوع فأنعم عليه أنعاماً جزيلاً (١) .

« ثم أن عثمان باشا – بعد ذلك – خرج من دمشق بعسكر عظيم الى ارض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر والمتاولة الذين كانوا السبب في ذلك التشويش » .

فجمع الشيخ ظاهر رجاله واجتمعت المتاولة من تلك البلاد وكبسوا عثمان باشا في ظلام الليل فانذعرت عساكره وقتل منها خلق كثير وهزمهم الشيخ ظاهر وما زال في أثرهم حتى وصلوا الى بحيرة الحولة ، فألقى الاكثرون منهم

أنفسهم في البحيرة وماتوا غرقاً وهرب عثمان باشا بنفر قليل واستولى الشيخ ظاهر والمتاولة على أسبابه وأسلابه وكتب الشيخ ظاهر العمر إلى الامير علي بك يخبره بما كان ويحقق له خيانة أبي الذهب (٢) .

وكما يتضح من قول المعلم مخائيل الصباغ عن كسرة عثمان باشا في وقعة الحولة « ولما وصلت مكاتيب عثمان باشا إلى الدولة بالاعتذار عن كسرته في موقعة الحولة وانها كانت من خيانة الدروز لتخلفهم عن الميعاد » (٣) .

الهوامش والتعليقات

١ و٢ - لاحظ ص ٨٠٦ ، و ص ٨٠٨ من تاريخ الامير حيدر شهاب طبع مصر ، او ص ٨٦–٨٩ من (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين) ط ب ، ثم ابحث عما كان يقصده عثمان باشا من جمع العساكر ، او من الاستنجاد بالأمير يوسف شهاب ، او من المبالغة في اكرامه والترحيب به والانعام عليه حين قدم عليه في دمشق بعد ارتحال ابي الذهب عنها ورجوع المتاولة والصفدية الى بلادهم ؟؟

هل كان لذلك الانعام والترحيب من حافز يحفز الباشا للمبالغة فيه سوى أن يتخذ من الأمير يوسف واللبنانيين أداة لتنفيذ الخطط التي أعدها لضرب المتاولة وتطويق بلادهم بالعساكر من الشمال ومن الجنوب حيث يهجم الامير يوسف باللبنانيين من شمال صيدا وجباع ، ويهجم الباشا بعساكره من جنوب قرى ديشوم ، وقدس ، ويوشع ، أو قرى عديسة ، والمطلة ، وكفركلا ، كما يبدو للمتأمل في قول الامير حيدر: « ثم خرج (عثمان باشا) بمسكر عظيم الى ارض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر وبني متوال الذين كانوا هم السبب بتلك الاحوال » .

٣ - لاحظ ص ٨٩ من تاريخ الامير حيدر (لبنان في عهد الامراء الشهابيين) ثم ص ١٠٣ - ١٠٤ من تاريخ ظاهر العمر للمعلم مخائيل الصباغ ،

فان في النص الأول من قول الأمير حيدر ما يؤكد ان المتاولة كانوا هم المقصودون من توجه عثمان باشا بعساكره نحو الحولة ، كما أن في النص الثاني من قول مخائيل الصباغ ما يثبت انه كان هنالك اتفاق سابق بين الامير يوسف وعثمان باشا على أن يهجما معاً على بلاد المتاولة ، ثم ينص على ان تخلف اللبنانيين عن الميعاد المتفق عليه ، وخيانتهم للعهد المضروب بين الباشا والامير – كل ذلك هو الذي أضعف حملة البشوات وأدى الى انكسار جيوشهم في واقعة الحولة .

ومما يرجح القول بأن عثمان باشا كان يقصد بحملته تلك بلاد المتاولة ، انه عندما اجتاز بعساكره جسر بنات يعقوب جنوب الحولة ، لم ينحرف بهم نحو بلاد ظاهر العمر في صفد وطبريا بل انحرف بالعساكر الى شمال الجسر حيث نزل بهم على حدود بلاد المتاولة بين بحرة الحولة وبين الجبال العاملية المطلة على البحرة وما حولها من سهل الخيط وسهل الخالصة .

الواقعة كما يرويها الخوري أبريك

ومما يزيد في اطمئنان القارىء الى صحة رواية الأمير حيدر عن وقعة الحولة وصحة ما ترتب عليها من تفاسير ، قول الخوري مخائيل أبريك وهو من المعاصرين للحادثة ولأبطالها من البشوات والمشايخ .

« وكان عثمان باشا قبل أن عزل ركب بعساكره على ظاهر العمر والمتاولة ولما وصل الى ارض الخيط بقرب بحيرة الحولة لاقاه ظاهر العمر والمتاولة بعساكرهم وحاربوه والله تعالى كسر عساكر الباشين فمنهم من قتل والبقية أرموا ذواتهم في بحيرة الماء وغرقوا وفنيت تلك العساكر والباشا رمى ذاته في الماء وطالعوه ورجعوا الباشتين (اتباع الباشا) الى دمشق بكل خزي وكسب ظاهر العمر وطاقهم مع تلك الغنائم » (٥) .

٥ - لاحظ ص ٩٧ من تاريخ الشام للمؤلف مخائيل ابريك ولاحظ تجاوب حديثه مع حديث الامير حيدر شهاب وصراحة قولهما بأن المتاولة والصفدية قد اشتركوا معاً في واقعة الحولة ومع هذا فان المعلم مخائيل نقولا الصباغ يذهب في تاريخه الى القول بما نصه :

« ثم ان عثمان باشا قام من دمشق وجاء بعساكره وعساكر حلب الى قرب جسر بنات يعقوب فوجد المكان يضيق بكثرة العساكر - أي لا يتسع لنزولهم فيه - فنزل على بركة الحولة من ورائها وجعل البركة بينه وبين ظاهر.

ثم وصل كذلك ظاهر برجاله ووقف أمام عثمان باشا بسرعة والبركة بينهما ، وفي تلك الليلة اجتمع ظاهر باولاده ورؤساء عساكره وامراء المتاولة ورتب كلا منهم على ما اقتضى رأيه ، وافتقد حينئذ ابنه عليا فلم يجده فاغتاظ منه وبات تلك الليلة غضبان عليه .

ثم انه في الفجر الغميق سمع ضجة عظيمة في عسكر عثمان باشا فقام ونظر البعض من عسكر الباشا يلقون أنفسهم في البركة والقتل وقضاء الله نازل فيهم ، فأرسل سأل عن ذلك فقيل له ابنك علي كبس عساكر الباشا بخيله وهو يذبح بهم ، فسر بذلك ظاهر ، وأرسل خيلاً نجدة الى علي فذبحهم علي ذبحاً ما سمع مثله ، فإنه على القول كان في نحو ستماية خيال وعسكر الباشا أكثر من خمسة عشر الف ، وما نفذ سالماً منهم في هذه الموقعة إلا بعض افراد حتى أن عثمان باشا قام وخرج من خيمته في ثياب النوم مضغوطاً وقد استولى عليه الخوف الشديد حتى القى نفسه في البحيرة ، فرآه حينئذ أحد عبيده وكان يجيد السباحة فنزع عنه ثيابه وأدركه واخرجه من الماء بعد أن أشرف على الهلاك ، وألبسه لباس الاسافل وجاءه بجواد وأركبه وأخذه في غير طريق ومضى به فائزاً بحياته وسلامته إلى الشام . ثم جمع ظاهر العمر الاسلاب والمغانم ووهب منها كثيراً لأبنه علي وأتباعه وأمراء المتاولة » (٦) .

٦ – لاحظ ص ٩٩ – ١٠٢ من تاريخ ظاهر العمر ، ثم لاحظ أن قول المؤلف الصباغ « بان عثمان باشا نزل بعساكره على بركة الحولة من ورائها وجعل البركة بينه وبين ظاهر » لا يقصد منه سوى أن الباشا قد نزل في سهل الخيط في الجنوب الغربي من بركة الحولة كما يتضح من قول الخوري ابريك .

ثم أن قول الصباغ « بأن ظاهر وقف برجاله أمام عسكر عثمان باشا والبركة بينهما » يقتضي بان يكون نزول ظاهر في سهل الخالصة أي في الشمال الغربي من بركة الحولة حيث تفصل بين سهل الخيط وسهل الخالصة زاوية عقبة يوشع الداخلة في عرض السهل ، أو تفصل بينهما زاوية البحيرة الممتدة إلى قرب عقبة يوشع .

ذلك بان الجهة الشرقية من البحيرة ليس لها من ساحل سوى حافة جبل الشيخ الشامخة في العلاء بحيث لا ترى منها – عند طلوع الشمس – سوى اخيلة قممها السابحة في قلب الماء بالوانها الطبيعية المختلفة بين ابيضاض الثلوج ، ولازوردية الصخور ، واخضرار الاعشاب في ابان الربيع .

ولكن نزول الشيخ ظاهر ومشايخ المتاولة بفرسانهم ورجالهم على شاطىء البحيرة وأمام عساكر البشوات أمر مشكوك في صحته ، لأن نزولهم هذا المنزل يتنافى مع ستراجية حرب المباغتة والهجوم في الظلام التي استعملوها – بدون شك في واقعة الحولة .

وعليه فلا يبعد أن يكون المتاولة قد عسكروا على عين قدس ، لغزارة مائها واتساع سهلها لفرسانهم ورجالهم وقد جرت العادة بان يعسكروا هنالك عندما يتوجهون بعساكرهم نحو الحولة أو نحو جسر بنات يعقوب كما عسكر حمد البك برجال المتاولة وفرسانهم هناك سنة ١٢٦٨ هـ يوم دعي للاشتراك مع عسكر الدولة في حرب دروز جبل حوران .

وكذلك لا يبعد أن يكون الشيخ ظاهر العمر قد عسكر مع الصفدية

على عين قدس أو عين ديشوم وما جاورها من القرى كرأس الأحمر ، وعلما الخيط الكائنة وراء الجبال المحيطة بسهل الخيط غرباً بحيث يتسنى لهم أن يشرفوا من قمم تلك الجبال على عسكر عدوهم في سهل الخيط ويراقبوا حركاته ومواقعه من حيث لا يستطيع أن يدركهم ، وبحيث يسهل على القادة من المتاولة والصفدية أن يتصلوا ببعضهم ويرسموا خططهم ويوزعوا رجالهم في الجهات الثلاث التي نفذوا منها على جيش عدوهم وباغتوه بالطعن والضرب وهو غافل عما حوله .

ثم لاحظ انه لو تسنى للمؤلف مخائيل الصباغ أن يراجع ص ٧٣ — ٧٤ من رحلة فولني تعريب جبيب السيوفي ، أو يراجع ص ٧٣٢ من تاريخ الأمير حيدر طبع مصر .. لعلم أن هناك من يشعر بان الشيخ علي الظاهر كان على جانب من بعد النظر وحسن التدبير والتخطيط للمعارك الحاسمة ، ومن يقول أنه لم يكن في زمانه من هو اشجع قلباً وأكرم يداً وافصح لساناً منه ، أو بأنه — على أقل افتراض — لم يكن احمقاً إلى هذا الحد الذي يجعله — بمقتضى قول الصباغ — لا يبالي بما يراه والده وحلفاء والده من تدابير وخطط توجب على من يشترك معهم في الحرب ، وعلى من يهمه ربح المعركة أن يصغي اليها فيناقشها أو يعمل بموجبها لئلا تتناقض خطط القوم وتلتبس اتجاهات المحاربين اثناء المعركة فيضرب بعضهم بعضا بغير علم من كليهما ويبقى العدو سالما ؟؟.

ثم لو ان هزيمة عسكر البشوات في الحولة كانت من جهة واحدة — كجهة علي الظاهر مثلا — لما اضطر اكثر افراده ان يرموا بنفوسهم في مياه البحيرة لينجوا من القتل ، ولكانوا اذا هزموا من جهة فروا الى جهة اخرى ليس فيها علي الظاهر ؟؟

واذن لا بد ان يكون الشيخ علي الظاهر قد اتفق مع بقية القادة سلفا على الخطط التي تحدد مكانه ومكانهم من المعركة ليهجم كل منهم في الجهه التي

خصصت له ، والا لما ضاقت الحال بجنود البشوات الثلاثة الى ان يلوذوا بماء البحيرة لينجوا من الهلاك لو كان لهم منجى في بقية الجهات الاخرى .

التنافس في العنعنات

هـــذا واني لم ار في اقوال المؤرخين ما هو اشبه بردة الفعل لقول المعلم مخائيل الصباغ من قول الاستاذ محمد جابر ص ١٢٣ – ١٢٤ من تاريخ جبل عامل ، « وعسكر الشيخ ناصيف النصار بجنوده في جوار مقام النبي يوشع الواقع في الشرق الجنوبي من جبل عامل ، وعقد مشايخ الشيعة ديوان مشورة ورتبوا خطة بالهجوم » .

« وانتدب ناصيف فرقة من ابسل جنوده واوفرها شجاعة لا تزيد عن خمسماية فارس فبيتت العدو وزحفت اليه ليلا فاحاطت به من جهات ثلاث واعملت فيه السيف،ولم ينج من القتل الا من القى نفسه فيالبحيرة ولم يقتل من المهاجمين جندي واحد ، وفر الوالي عثمان باشا منهزماً لا يلوي على شيء » .

ذلك بان المعاصرين لواقعة الحولة كالركيني لا يشيرون الى شيء من هذا الذي تميز به قول المعلم مخائيل الصباغ ، والذي تميز به قول الاستاذ جابر ، بل ان الركيني يحصر خيل المتاولة اجمع بواقعة الحولة في ٣٠٠ خيال ، ولا يأتي على ذكر المكان الذي تجمع به المتاولة ، ولا يشير الى عقد ديوان مشورة، وترتيب خطة بالهجوم ، ولا الى انتداب خمسماية خيال لتبييت العدو ، وانما يجمل اخبار الواقعة ومراحلها كما اجملها ابريك والشهابي ومـــن شاكلهما من المؤرخين القدماء ، ولكي تتحقق من حديث الركيني عن واقعة الحولة لاحظ البحث السابق (المتاولة في عهد ناصيف النصار وظاهر العمر) مع التعليقات الكافية لتوضيح موقف المتاولة واحتياطهم للظروف الخطرة التي كانت تهدد بلادهم اثناء تلك الواقعة .

ولاحظ ص ٥٤ من العرفان م ٢٨ لتتحقق مـــن مطابقة حديث الركيني

لجمل حديث الخوري ابريك وحديث الامير حيدر عن واقعة الحولة ، او لنتأكد من تجاهل الرواة الثلاثة ابريك ، وشهاب ، والركيني ، لما يزعمه الصباغ او جابر من انفراد الصفدية او انفراد المتاولـــة بخوض معركة الحولة – مع العلم بـــأن المؤرخ الحديث اليوم ليس له من مصادر قديمـة يمكنه أن يعول عليها في تمحيص حوادث هذه المعركة وكشف غوامضها مثـل هذه المصادر الثلاث ؟

ثم أن من يزحف برجاله ليلاً عن طريق مزرعة يوشع إلى جنوب بحيرة الحولة كما يقول الاستاذ جابر لا يستطيـع أن يطوق جيشاً يتجاوز عدده العشرة آلاف مقاتل منتشرين على ضفتها الغربية في سهل الخيط ، لأن ذلـك المكان محصور بين البحرة من الوجهة الشرقية ، والجبال الشاهقة من الوجهة الغربية بحيث لا يتسنى تطويق المنتشرين فيه إلا بأن يأتي عسكر المتاولة من شماله ، ويأتي عسكر الصفدية من جنوبه ثم يتسلل المشاة من القمم في الطرق المنحدرة إلى غربي السهل ويجعلوا العدو محصوراً بينهم وبـــين البحيرة من الوجهة الشرقيـة .

أما أن يزعم المتاولة بانهم وحدهم أو يزعم الصفدية بانهم وحدهم قـــد طوقوا عسكر البشوات في الحولة والجأوا أكثرهم إلى أن يرموا انفسهم بمـاء البحيرة .. فذلك زعم لا يستند إلى مبرر علمي أو نص تاريخي يسوغ لكل منهما أن يدعي من جهته بان المعركة لم تقم إلا على سواعد جماعته مـــن الصفدية وحدهم ، أو من المتاولة وحدهم .

ثم اني لا أدري كيف سوغ الاستاذ جابـــر لنفسه أن يتصرف بقصيدة الشيخ ابراهيم الحر التي تضمنت هذه الأبيات :

اكرم بالخيل إذا وفدت — اذ (ذاك) بناصيف البطل
أقسمت لعمري نعم فتى — ذو قدر فوق الشمس علي
ميمون الطلعة مقتدر — يغشا الهيجاء بقلب علي
فهنالك فر أميرهم — بالويل ينادي والثكل
وهناك بازات تطردهم — والقوم كأفراخ الحجل
وهناك شتت شملهم — ذو الطول فعادوا كالنمل

ثم يرويها على انها من شعر الشيخ ابراهيم الحاريصي ، وعلى انها مدح في واقعة الحولة وتصوير لبعض ملامحها وملابساتها مع ان الاستاذ - كما يظهر من محتوى كتابه تاريخ جبل عامل - قد اطلع على الجزء الاول من (لبنان في عهد الامراء الشهابيين) طبع بيروت ، واطلع على القصيدة كاملة ص ١٥٢ منه ، مع الكلمة التي قدمت بها القصيدة بهذا النص : « وكان - أي السيد أحمد دبوس - شاعراً فصيحاً وهو الذي رد على الشيخ ابراهيم الحر المتوالي من مدينة صور حين هجا الدروز ، ومدح بني متوال في وقعة النبطية الذي تقدم عنها الشرح وهي هذه قصيدة ابراهيم الحر » .

ثم أن الاستاذ جابر يعلم كذلك أن الأمير يوسف شهاب الذي عناه الشاعر بقوله :

فهناك فر أميرهم — بالويل ينادي والثكل

لم يكن له وجود في واقعة الحولة والبحرة لا هو ولا غيره من امراء لبنان ، وانما كان الامير يوسف في واقعة النبطية كفررمان وفر منها على النحو الذي تخيله الشاعر الصوري واقره على ذلك جميع مؤرخي لبنان اجمالاً وتفصيلاً .

أضف إلى هذا كله أن هنالك فرق كبير بين شعر الشيخ ابراهيم الحاريصي بوجه عام وشعر الشيخ ابراهيم الحر في هذه القصيدة لا يجوز أن يخفى على القارىء اللبيب مثل الاستاذ جابر ، مهما تكن الملابسات ، فان شعر الحاريصي

المعروف بسلاسة ألفاظه وصفاء معانيه ومتانة اسلوبه يختلف اختلافاً بيناً عن شعر الحر في تلك القصيدة التي نسبت للحاريصي ، فهي بما تمثله من الركاكة والضحالة ، وقلق العبائر ، والصور ، أبعـد ما يكون عن شعر الحاريصي الأصيل ، وخصوصاً حين نقارن بينها وبين هذا الذي يرويه الاستاذ جابر من شعر الحاريصي مدحاً لفرسان المتاولة مع ناصيف النصار في واقعة طربيخا حيث يقول ص ١١٨ من تاريخ جبل عامل :

شوس تمد من السيوف قصارها ... يوم الوغى ومن الرماح طوالها
وافى بها في يوم طربيخا وقد ... جاست خيول الدارعين خلالها
طافوا عليها بالصوارم والقنا ... فكأنهم قطع الغمام حيالها
فسطا ونادى لا فرار فأدبرت ... تلك الجموع ونالها ما نالها
عافت هنالك خيلها وسلاحها ... والرعب عن تلك السروج أمالها

. . .

هذا ولو ان الاستاذ جابر اقتصر من قصيدة الحر على هذه الأبيات :

أقسمت بنرجس أعينها ... وشقيق محياها الخضل
وبشامتها وبقامتها ... تلك الميالة بالعدل
ما أبطل حكم الجور سوى ... صمصام أبي حمد البطل
مقدام ذكر وقائعه ... في كل زمان لم تزل
سل يوم البحرة ما فعلت ... كفاه بفرسان الدول ؟

لكان اختياره أصح منطقاً وأوضح دلالة على مـا كان لفرسان المتاولة وقادتهم من مشاركة بالغة الأثر في هزيمة عسكر البشوات يوم واقعة الحولة والبحرة ...

ان واقعة النبطية – كفر رمان هذه لم تكن في الحقيقة معركة مستقلة بين المتاولة والدروز كما هو مشهور بين الناس ، وإنما كانت بينهم وبين الدولة العثمانية أولاً ثم بينهم وبين اللبنانيين جميعاً من دروز ونصارى ثانياً ، إذ لم يكن اللبنانيون فيها سوى (مخلب قط) تابعين لأوامر الدولة وبشواتها ، ذلك لأن تسلسل الحوادث التي اشترك بها المتاولة ومشايخهم مع الشيخ ظاهر العمر وأولاده كوقائع داريا ودمشق التي أدت الى انهزام بشوات الدولة الى حمص وحماه ، ثم واقعة الحولة التي أدت الى تلاشي عساكر عثمان باشا وانهزام البشوات جميعاً ، أضف الى هذا ما كان من فرار درويش باشا من ولاية صيدا – خوفاً من المتاولة – الى عند والده عثمان باشا في دمشق ، واضطرار والده الى أن يلح على حكام لبنان ويشجعهم على مهاجمة المتاولة في بلادهم عملاً بالشروط التي كانت تكتب عليهم لدى توليتهم حكم لبنان، كل هذه الاعتبارات والعوامل أدت الى وقوع ما حصل في معركة النبطية – كفر رمان على ما يلاحظه الأمير حيدر شهاب في قوله : « وكان في تلك الأيام درويش باشا ابن عثمان باشا الصادق والياً على ايالة صيدا فلما انكسر عسكر أبيه في الحولة انهزم هو من صيدا الى دمشق وأقام بها أياماً ثم رجع الى صيدا ، وبعد وصوله اليها عصت عليه مشايخ المتالة وأرسلوا يتهددونه كي يقوم من صيدا فأرسل درويش باشا وأعلم الأمير يوسف وفي الحال أرسل له عسكر يحافظ على المدينة ، فترك

له مطلوب بيروت والجبل (من ميرة) تلك السنة » .

ثم أنه رأى أن الشيخ ظاهر العمر ومشايخ المتاولة لم يزالوا متشددين في العصيان فخاف على نفسه لأنــه كان جباناً فأخلى صيدا ورجع الى دمشق ، وبعد وصوله الى هنــاك أرسل أبوه عثمان باشا يحمس الأمير يوسف على المسير لغزو المتاولة (١) .

الواقعة كما يرويها الأمير حيدر شهاب

... يقول الأمير حيدر « ولما تقوت المشايخ المتاولة على الدولة تطاولت على أطراف جبل الشوف ومرج عيون والحولة .. فاتفق الأمير يوسف وخاله الأمير اسماعيل حاكم وادي التيم الأدنى ، وجمــع الأمير يوسف عسكراً نحو عشرين ألف مقاتل وسار به في شهر ربيــع الأول الموافق لشهر تشرين الأول (اوكتوبر) (٢) وفي وصوله الى جسر صيدا أرسل عقال الدروز للمحافظة على صيدا مع الشيخ علي جنبلاط، وسار بالعسكر قاصداً قرية جباع الحلاوي وفي مروره أحرق قرى اقليم التفاح ، وكان الشيخ حيدر الفارس في جبــاع فهرب ، ووصل العسكر الى جباع فأحرقها وقطع أشجارها وهدم أبنيتهــا وبات هناك ليلتين وسار الى ينبوع المأذنة وبات هناك ، فحضر له كتاب من خاله الأمير اسماعيل أنه قادم اليه بعساكره ؛ وأنه أتاه من مشايخ المتاولة عن يد الشيخ علي الظاهر (بن ظاهر العمر) يسألون العفو عنهم وانهم يقدمون للأمير يوسف كل مـــا يريده (٣) وسأله الأمير اسماعيل أن يتأخر الى حين وصوله اليه فأبت مشايخ البلاد وفي الحال مشى العسكر وكان عسكر المتاولة مجتمعاً في قريـــة النبطية نحو ثلاثة آلاف وعندهم الشيخ علي الظاهر ، وفي وصول الأمير يوسف الى قريــة كفر رمان أحرقها وتوجه الى النبطية فالتقى بشرذمة من عسكر المتاولة نحو خمساية خيـــال ووقع بينهم القتال فانكسر عسكر الأمير يوسف كسرة هائلة لم يكن مثلها في عسكر آخر على عهد هذه

البلاد حتى أن كثيراً من العسكر مات تعباً وعطشاً ، ومنهم من اختلت عقولهم فلم ينتبهوا لأنفسهم ، ومنهم من ألقوا ثيابهم وأسلحتهم غنيمة للعدو يشتغل بها وقيل أن رجلاً علقت ثيابه بشجرة هناك فوقف الى أن وصلوا اليه وقتلوه .

ومات في تلك الموقعة من عسكر الأمير يوسف أكثر من ألف وخمساية قتيل ولو وصل اليهم باقي عسكر المتاولة لما سلم منهم أحد ، واتفق في ذلك الوقت وصول الشيخ كليب نكد ومعه جماعة من رجال المناصف فناوشهم في وعرة هناك واشغلهم عن العسكر المنهزم ، ثم وصل الأمير اسماعيل فأبعد المتاولة عن الشيخ كليب وارتفع القتال ولولا ذلك لم ترجع المتاولة عنهم حتى أفنتهم لأنهم كانوا كالغنم بين أيدي الذئاب ، وبعد ذلك رجع الامير اسماعيل الى حاصبيا والشيخ كليب معه ورجع الأمير يوسف ومن بقي من عسكره الى البلاد وضجت الأرض بالبكاء والعويل وتسربلت النساء باثواب الحداد حتى كنت ترى نساء البلاد كالغربان (٤) .

وأما الشيخ علي جنبلاط وعسكر العقال الذين معه فلما بلغتهم الكسرة تركوا مدينة صيدا ورجعوا الى البلاد ، وقيل أنه كان لا يخلو الشيخ علي والامير منصور من مداخلة بوسيلة مع المتاولة (٥) .

وقيل أن الشيخ عبد السلام العماد كان مع الامير يوسف وكان يميل الى الامير منصور ويريد حفظ شأن الامير يوسف فكان يمنعه عن التساهل مع المتاولة ويحثه على قتالهم ويراسلهم سراً ان يقدموا على الامير يوسف وانه متى وقعت الواقعة ينكسر قدامهم فيتبعه العسكر وهكذا كان (٦) .

وما صدّقت المتاولة حتى رأت الكسرة وغنموا ذلك اليوم من اسلاب العسكر وخيله وسلاحه ما لا يحصى ورجعوا سالمين غانمين (٧) .

١ – لاحظ ص ٨٠٨ – ٨٠٩ من نزهة الزمان في تاريخ لبنان ج٢ طبعة مصر ثم ص ٩٠ – ٩٢ من لبنـان في عهد الأمراء الشهابيين ج١ للمؤلف الامير حيدر احمد شهاب ، وهو من المعاصرين لواقعة النبطية – كفر رمان ، ومن المؤيدين لسياسة الامير يوسف بمقتضى الخصام على الحكم الذي جرى بين والده الامير احمد وعمه الامير منصور ، وكان الامير يوسف في هذا الخصام مؤيـداً للامير احمد والد المؤلف ، فروايـة الامير حيدر هنا هي أقرب الى واقع المعركة من رواية غيره ولو كان متواليا : لأن الامير حيدر لا يمكن أن يتهم بالتحامل على الامير يوسف وجيشه ولا بالتعصب لأعدائه من المتاولة

* * *

٢ – لاحظ ص ٨٠٩ من نزهـة الزمان ج٢ ، ثم لاحظ ان المعلم طنوس الشدياق يعزو هذه الواقعة الى « ان متاولة جبل عامل هاجوا ونبذوا طاعة درويش باشا وجعلوا يخرقون في قرى مرجعيون والحولانية وأظهروا الشحناء للامير يوسف بسبب توليه مكان عمه الامير منصور لانهم كانوا يميلون اليه وكان اكثرهم هياجاً الصغيريـة والصعبية ، فبلغ الامير خبرهم فداخله الغيظ منهم لتحرشهم بالديار المذكورة لأنهـا تحت ظل حمايته لوقوعها في ولاية خاله أمير حاصبيا » أخبار الأعيان ص٤٢ ج٢ ط٢ سنة ١٩٥٤ .

* * *

كما أن بعض مؤرخي المتاولة يعزون سبب هذه الحملة على بلادهم الى ... «انه مر في كروم نيحا سنة ١١٨٥هـ مكاريان عامليان من قرية كفر رمان وطلع عليهما بعض دروز القرية وسلبوهما ما معهما من المال واتلفوا العنب وضربوهما ضرباً مبرحـاً حتى تركوهما مثخنين بالجراح وبعد مدة انسحبا على بغليهما راجعين الى كفر رمان ولم يلبثـا ان ماتا متأثرين من الضرب . فشكا أهلهما

الأمر الى حاكم المقاطعة الشيخ علي الفارس المقيم في قلعة الشقيف وسموا لهم المعتدين لان المكاريين سيماهم لأهلها ، فكتب الشيخ علي الفارس الى الامير يوسف يسأله أن يرسل الجناة اليه ليحاكمهم ، فماطل الامير يوسف وسوف في الجواب .

ولما يئس الشيخ من عدل الامير ومن اجابة طلبه انصرف عن الاستعانة به وبعد ذلك بمدة قليلة وجد أربعة رجال قتلى من دروز نيحا في نفس المكان الذي سلب فيه المكاريان وضربا ، فرفع أهل نيحا أمرهم الى الامير يوسف واتهموا المتاولة بقتلهم ، فاستكبر الامير يوسف ذلك وثارت فيه نخوة الشباب واستشار شيوخ بلاده في غزو بلاد المتاولة وتأديبهم فأشاروا عليه بذلك وأعلن الحرب على جبل عامل » .

لاحظ « حملة الامير يوسف على النبطية وجبل عامل » للشيخ احمد رضا ص ٣٢٢ من العرفان م ٢٠ ، وأسماء قرى جبل عامل ، للشيخ سليمان ظاهر ، ص ٦٥٣ من العرفان م ٨ ، ثم ص ١٢٥ – ١٢٦ من تاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر .

على ان من يراجع تاريخ تلك الفترة من الزمن يرى أن المتاولة وحلفاءهم من الزيادنة والصفدية كانوا في حرب وخصام مع عثمان باشا والي الشام وابنه درويش باشا والي صيدا قبل ان يعزل الامير منصور شهاب من حكم الشوف وقبل ان يصبح الامير يوسف حاكماً مكانه على الشوف ولعله لم يكن بين المتاولة وبين الامير يوسف أي علاقة من خصومة أو صداقة أو معرفة قبل واقعة كفر رمان ليقال ان ذلك كله كان سبباً لغزوه بلادهم ؟؟

ثم ان مقاطعات الامير اسماعيل في وادي التيم وحاصبيا لم تكن داخلة في حكم الامير يوسف ليتولى الدفاع عنها وعن حدودها اذا صح ان المتاولة قد تعدوا عليها كما يزعم صاحب أخبار الأعيان ومن شاركه في تأليف كتابه وان معركة المتاولة في الحولة لم تكن ضد الامير اسماعيل أو غيره من الامراء الشهابيين ، وإنما كانت معركتهم في الحولة ضد عثمان باشا الصادق والي الشام

كما بينا ، ثم ان الامير اسماعيل لم يشترك فيها مع البشوات لا هو ولا غيره من الشهابيين ليعتبر انها كانت ضده أو ضد غيره منهم .

ثم ان صلة المتاولة بالامير منصور عم الامير يوسف لم تكن قائمة على التبعية أو العصبية والولاء وإنما كانت صلتهم بالامير منصور كصلتهم بكل حاكم مسالم لهم صلة سياسية تتطور بتطور الظروف والمصالح والأهداف .

كل هذه الاعتبارات تجعل تعليل حملة الامير يوسف على بلاد المتاولة بما علله المعلم طنوس الشدياق والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف .. تعليلاً سقيماً لا يستند الى حقيقة ثابتة أو منطق معقول .

كما ان تعليل مؤرخي المتاولة لا يثبت للنقد ، اذا لاحظنا أن عثمان باشا كان قد ارسل للامير يوسف يحرضه ويشجعه على قتال المتاولة ومعنى ذلك بمقتضى الشروط والتقاليد الاقطاعية انه كان يأمره أمراً صارماً بمهاجمة بلاد المتاولة وقتالهم لان من جملة الشروط التي كانت تفرض على حاكم لبنان يومئذ ان يلبي طلب الباشا العثماني حين ينتدبه لاي حرب بعدت أو قربت ، فكيف به حين يحمسه الباشا ويشجعه على حرب جيرانه وجيران الشوف من المتاولة اخصامهم التقليديين بحسب تاريخ الآباء والاجداد .

* * *

ثم اذا لاحظت بعد ذلك أن الافرنسيين وقناصلهم في ولايتي صيدا والشام كانوا قلقين متبرمين من نجاح ثورة ظاهر العمر ومشايخ المتاولة على ولاة الأتراك بدا لك من هذا ان الامير يوسف وجيشه الكبير كانوا يضربون بسيف الدولة – يوم شنوا الغارة على بلاد المتاولة – مطمئنين الى رضى الأسياد جميعاً من عثمانيين وافرنسيين ، ومطمئنين الى مصادر قوتهم على المدى البعيد والى أنهم – اذا نجحوا في تشتيت قوى المتاولة – سيطلق لهم العنان في حكم بلادهم ، وسيشفون صدر عثمان باشا وغيره من البشوات الذين هزموا في معارك داريا ، ودمشق ، والحولة من جراء اشتراك المتاولة مع ظاهر العمر في تلك المعارك .

واذا لوحظ أن عثمان باشا نفسه كان قـد تنازل للأمير يوسف عن أموال بيروت والجبل (من الميرة) لسنة كاملة كي يحمي له مدينة صيدا وحدها من سطوة المتاولة بعـــد معركة الحولة ... فكم يكون قد دفع للأمير كي يهاجم المتاولة في عقر دارهم وهو أمر أصعب وأشد خطراً على الامير من حمايـــة صيدا يومئذ ؟؟

. . .

اذن فلا تطاول المتاولة على اطراف بلاد الشوف كما يزعم مؤرخو لبنان ، ولا قتل عنابة كفر رمان في نيحا كما يزعم مؤرخو المتاولة كان سبباً لمعركة (النبطية - كفر رمان) وإنما كان السبب الحقيقي في ذلك هو الأوامر العليا التي ألحت على الامير يوسف وخاله الامير اسماعيل وفرضت عليهما قتـــال المتاولة وغزوهم في بلادهم بعـد أن تلكأ الدروز مع الامير يوسف عن تلبية أوامر الباشا في ابان معركة الحولة .

أمـــا قصة تعدي المتاولة على اطراف بلاد الشوف فيدحضها قول الامير حيدر نفسه « وبعد وصول درويش باشا الى صيدا عصت عليه مشايخ المتاولة وارسلوا يتهددونه كي يقوم من صيدا فأرسل درويش باشا وأعلم الامير يوسف وفي الحال ارسل له عسكراً يحافظ على المدينة فترك له مطلوب بيروت والجبل (من ميرة) تلك السنة » لاحظ ص ٨١٠ من نزهة الزمان ج ٢ .

ثم لاحظ ان من يستطيع ان يحمي الباشا ويحمي صيدا من اعتداء المتاولة كيف يتسنى للمتاولة ان يعتدوا على بلاده ؟؟

واما قصة التعدي على العنابة فانما كانت او زعم انها كانت سنة ١١٦٣ هـ يوم غزا الامير ملحم بلاد المتاولة بمثـل هذه الحجة ، ولو صح انها تكررت سنة ١١٨٥ هـ فإنمـــا يكون تكرارها عملية مصطنعة من قبل الامير يوسف وأعوانه لاثارة حمية الدروز الطائفية والاقليمية واستفزازهم لحرب المتاولة بعد ان تلكأوا عن ذلك ولم يستجيبوا لصوت الامير يوم دعاهم ابان معركة المتاولة

في الحولة مع البشوات .

. . .

٣ – ثم لو صح ان الامير اسماعيل حاكم حاصبيا كان مخيراً في اشتراكه مع الامير يوسف في الحملة على بـــلاد المتاولة ، أو كان من رأيه ان يتأخر الامير يوسف عن حرب المتاولة الى حين وصوله الى الميذنة ... لمـــا سير عساكره الى موطن القتال أو طمأن الامير يوسف انه قادم بعساكره اليه ؟؟ ولما تحرك من موضعه قط نحو المعركة بعد ان خالف الامير يوسف وأعوانه نصيحته لهم وأقدمو على ما أقدموا عليه من غارات فاشلة .

. . .

ثم لو صح ان المتاولة طلبوا من الامير يوسف العفو بواسطة الشيخ ظاهر العمر او بواسطة ابنه لطلبوه من الامير قبل ان يغادر صيدا ويوغل في بلادهم حرقاً ونهباً وتنكيلا ، وقبـل أن يجمعوا جوعهم ويستعدوا للحرب أو قبل أن يشعروا بسوء نية الامير ، أو بأنه كان مسيراً من قبـل البشوات والقناصل لا مخيراً بين الصلح مع المتاولة أو شن الغارة على بلادهم .

على أن المصادر العامليـــة لا تأتي على ذكر شيء من قصة مراسلة الشيخ ظاهر والامير اسماعيل والامير يوسف بشأن الصلح مع مشايخ المتاولة بـل ان في هذه المصادر مـــا يشير بوضوح الى ان قادة الدروز – وفي طليعتهم الامير يوسف – قد ارسلوا خداعاً ومكراً للشيخ علي الفارس قائد المتاولة في النبطية يخبرونـــه ويعلمونه باستعدادهم للصلح مع المتاولة والعودة – قبل بلادهم واوطانهم ، كما يبدو من قول الشاعر الزجلي المعاصر لحوادث المعركة :

« مثل مير الشوف يوسف يوم صال   لا عرب صاليم عالوادي نزل
في عساكر عـــدها تسعين الف   او تزيد أعداد خوفي من الزلل
جاهلين الحرب ما يدرو الزمان   آمنين الدهر وصروف العلل
شايلين المكر معهم في جـــراب   حيث انو العـلم دزّونه قبل
لاعلي تيروح لاعند الأمـــير   تايجيز الصلح ونعـــاود ُقبل

واعقبوا باجموع يبغون المراد عا كفر رمان فاتوا بالعجل
لا يحيط المكر الا (بعزوتو) مدفع الباغين قصّر بالعجل

لاحظ ص ١١٩ من جبل عامل في التاريخ ، ثم لاحظ قول الشاعر :

شايلين المكر معهم في جراب حيث انو العلم دزونه قبل
لاعلي تيروح لاعند الامير تايجيز الصلح ونعاود ُقبل

فانه قول صريح بأنهم قبل أن يهاجموا كفر رمان قد أرسلوا العلم والخبر للشيخ علي الفارس قائد المتاولة في النبطية حتى يروح لعند الأمير يوسف ويجري معه الصلح ويقره ليعود اللبنانيون عن موطن الحرب قِبل بلادهم ونحو اوطانهم .

وفي هذا ما ينقض زعم المؤرخ طنوس الشدياق : « بأن الأمير اسماعيل خال الأمير يوسف أرسل اليه يخبره بأنه حضر اليه رسل من عند متاولة جبل عامل بكتاب من الشيخ ظاهر العمر يطلب بـه الصلح ، على ان المتاولة يدفعون له مالاً ، وأنه هو الكفيل ، ملتمساً منه أن يتربص في مكانه الى ان يقدم اليه ويفهمه مشافهة ، وأرسل له كتاب الشيخ ظاهر ، فلما قرأه أبى المسالمة ونهض طالباً الحرب والقتال ولم ينتظر قدوم الامير اسماعيل فأدرك قرية كفر رمان فأحرقها » لاحظ أخبار الأعيان لطنوس الشدياق ص ٤٣ ج٢ طبعة ثانية .

ثم لو صح أن الشيخ ظاهر العمر كان قد سعى أو اقترح الصلح بين الطرفين كما يذهب اليه المعلم طنوس الشدياق . فقد يكون ذلك لأن الشيخ ظاهر كان يهمه توحيد قوى أهالي المنطقة ضد عثمان باشا وكان يتحاشى الحروب الجانبية التي تشغله وتشغل مشايخ المنطقة عن عثمان باشا وأولاده بشوات صيدا وطرابلس ودمشق ، فاذا صح أنه أرسل يطلب من الامير يوسف الصلح مع المتاولة تكن الغاية من ذلك حصر المعركة مع بشوات الدولة ، أو القاء الحجة على اللبنانيين وحكامهم فيما يترتب على نهاية الحرب ضد المتاولة .

• • •

٤ – لاحظ ٢٠٨ - ٢٠٩ من دواني القطوف اذ يقـول المؤلف عيسى اسكندر المعلوف « والمتناقل على ألسنة الشيوخ أنه قتل مائتا زوج أخوة في

تلـــك المعركة من اللبنانيين وكان بين القتلى من كفر عقاب وما يجاورها من عسكر اللمعيين ستة عشر زوج اخوة معظمهم من المعلوفيين، ثم يقول في مكان آخر « وانه لم يسلم علم من أعلام اللبنانيين في تلك الموقعة سوي البيرق الذي كان مع طنوس ابي عقل المعلوف » .

. . .

٥ – ثم لاحظ ص ٤٢ – ٤٣ من أخبار الأعيان ج٢ طبعة سنة ١٩٥٤ ، إذ يقول المؤلف « إن الشيخ علي جنبلاط أرسل رسله الى أحزابه في عسكر الدروز يسرون اليهم بالهزيمة عند حصول المصاف ، فلما التقى الجيشان وتصادمت الفرسان انفضت الرجال الجنبلاطية حسب ارادة زعيمهم ولما انفصلوا عن العسكر تقلقلت الصفوف وخافوا فهجمت المتاولة والزيادنة عليهم فانكسروا » .

مع انه إذا لاحظنا حوادث سنة ١١٧٧ هـ نرى أن الشيــخ علي جنبلاط كان من محبي الامير يوسف ومساعديه وأشد أنصاره حرصاً على توليــته حكم البلاد مكان عمه الامير منصور ، كما يبدو من مراجعة ص ٧٨٨ – ٧٨٩ مـــن نزهة الزمان ، وص ٥٩ – ٦٢ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين .

وعليه فكيف نصدق أن الشيخ انقلب على الامير يوسف في احرج الساعات خطراً عليه وعلى الدروز وحكامهم جميعاً ، ومع علمه بان الدولة تعضد الامير يوسف وتشد أزره .

ثم هل كان الشيخ علي يحب آل منكر أكثر من حبه للدروز ؟ لينتقم لهم من الدروز ، أو يرسل رسله إلى احزابه في العسكر يسرون اليهم في الهزيمــة عند حصول المصاف ؟ كما يزعم بعض المؤرخين من لبنان ؟؟

٦ – وكذلك نلاحظ من حوادث سنة ١١٧٧ هـ أن الشيخ عبــد السلام

عماد وجل مشايخ الدروز كانوا ضمناً مع الامير يوسف وضد عمه الامير منصور لدى الاختلاف بينه وبين اخيه الأمير أحمد .

فكيف نصدق بعد ذلك أن الشيخ عبد السلام كان في معركة النبطية كفررمان يميل إلى الامير منصور ويريد حط الامير يوسف ، وانه كان يمنعه من التساهل مع المتاولة ويحثه على قتالهم ، ثم يراسلهم سراً بأن يقدموا على قتال الامير يوسف وانه متى وقعت الواقعة ينكسر قدامهم فيتبعه العسكر وان الأمر هكذا كان » .

أو كيف نصدق أن الخصمين التقليديين عماد وجنبلاط اتفقا معاً في اتجاه واحد؟ وان تنافسهما على رئاسة الدروز حملها معاً على خيانة الدروز في احرج الاوقات خطراً ومسؤولية ؟ ومع علمها بأن الدولة كانت تعضد الأمير يوسف وتشد أزره ؟

كيف نصدق هذا كله مع علمنا وعلم جميع المؤرخين اللبنانيين بأن من شأن الدروز وقادتهم أنهم – ولو كان بينهم دم – يتحدون حالاً عندما يفاجأون بعدو من غير طائفتهم ويناصر بعضهم بعضاً .

وعليه فكيف نصدق أنهم خانوا بعضهم بعضاً في معركة النبطية – كفر رمان؟ التي كان يترتب عليها عز الدروز جميعاً او ذلهم جميعاً لنصدق ان انهزام عسكر الامير يوسف في تلك المعركة كان بسبب التآمر والخيانة لا لبسالة المتاولة وصدق موقفهم في الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ؟

• • •

٧ – لاحظ ص ٨٠٨ – ٨١٠ من نزهة الزمان في تاريخ لبنان ج ٢ طبعة مصر سنة ١٩٠٠ ثم ص ٨٩–٩٢ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ١ طبع سنة ١٩٣٣ للأمير حيدر أحمد شهاب ، ثم ص ٤٢–٤٣ من أخبار الأعيان ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٤ للمعلم طنوس الشدياق ، ثم أسماء قرى جبل عامل

للشيخ سليمان ظاهر ص ٦٥١ من العرفان مجلد ٨ ثم ص ٣٢١ من العرفان م ٢٠ ثم ص ٥٥ من العرفـــان م ٢٨ لتتضح لك تفـــاصيل المعركة وأسبابهـــا ونتائجها .

الواقعة كما يرويها رواة المتاولة

يقول الاستاذ البحاثة الشيخ سليمان ظاهر نقلا عـــن بعض المخطوطات العاملية « انـــه في سنة ١١٨٥ هـ ركبت الدروز وكان اميرهم الامير يوسف الشهابي فاخذ صيدا ؟؟ واحرق الغازية وطلع الى سربا وكان بها نحو اربعين نفساً فلم يقتحمهم وارتد الى جبع فاقام بها يومين وقطع منها اشجاراً كثيرة وتوجه الى النبطية فالتقاه الشيخ ناصيف النصار والشيخ علي الفارس بعسكرهما فكسروا عسكره وذبحوهم الى ان وصلوا الى جرجوع وكان القتلى من المتاولة اربعين رجلا ومن عسكر الامير يوسف ما ينيف على ثلاثة آلاف نفس »؟(١)

ويروي الاستاذ محمد جابر ص ١٢٩ من تاريخه « ان شيخة هرمة من آل الحاج علي تدعى الدرويشة ووالدة السيد موسى ابو خدود وكانت ممن شهد المعركة (والأصح ممن عاصروا الذين شهدوا المعركة) حدثت وقالت « بأنه كانت الفتيات تمد عسكر المتاولة بالماء والزاد وتسير زرافات من فرقـــة الى فرقة تثير نخوة المقاتلين وحميتهم بالزغاريد والهتافات الحماسية كقولهن: « وين راحوا أولاد أم علي – وين سيـــاج العذارى – وين بـــني متوال يا عز الرجال » ؟

وان فرسان الشيعة كانت تطلق طلقاً واحداً من بنادقها ثم يضع كل بندقيته (أي قربينته أو طبنجته) وراء ظهره ويهاجم العدو بالسلاح الأبيض .

وان جثث القتلى (بعد المعركة كادت) تغطي ضواحي النبطية وكفر رمان وسهل المأذنة ، وكن اذا ذهبن الى ينبوع الميذنة لغسل ملابسهن لا يستطعن البقاء طويلا لفظاعة تلك المناظر » .

١ ـ لاحظ اسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٦٥١ من العرفان م ٨ ، ثم لاحظ ان رواية الاستـاذ ظاهر عن بعض المخطوطات هي أقرب الروايات العاملية الى اسلوب مؤرخينا القدامى في اختصار الحوادث واجمال صورها وسلامة محتواها من التصنع ومن المبالغة إلا في العدد ، ومع هذا فإنا لا نشك بأ « قد لابس واقعة النبطية ـ كفر رمان أشياء كثيرة لم تفصح عنها مخطوطات العامليين ورواياتهم .

فلا نشك مثلا في انه عندما شعر مشايخ المتاولة بدخول عسكر الامير يوسف البلاد من جهة صيدا ، قد اخذوا يتراسلون فيما بينهم ويستنجد بعضهم بعضا ويتبادلون الرأي في رسم الخطط لمواجهة الغزاة .

ولا نشك بأن خيـل الشقيف بقيادة الشيخ حيدر الفارس قد ذهبت الى جباع نجدة لمشايخ المناكرة في اقليم التفاح .

ثم لا شك في انه عندما اجتاحت عساكر الامير يوسف جباع لجأ كثير من اهالي القرى ومن عسكر المناولة ومن فرسان الاقاليم المجاورة كالتقاح والشومر أو تسابقوا نجدة الى النبطية ، كما عاد اليها الشيخ حيدر بخيل الشقيف .

ولا شك في انه عندما انحدر الامير يوسف بعسكره من جباع الى الميذنة كانت جل قرى المتاولة التي هبت لقتاله من بشاريـه وساحليه في ضواحي النبطية او في طريقهم اليها ، وكذلك كان الصفدية بقيادة ابناء ظاهر .

ولا شك بأن جل عسكر المتاولة من خيالة ومشاة وقفوا لجيش الامير القادم من كفر رمان خارج النبطية وعند الطريق الفوقا بين كفر رمان والنبطية في المحل المعروف بعريض القهوة اذ كانت هذه الطريق الى عهد قريب هي الطريق الوحيدة الى النبطية للقادمين من جهة عرمتا ولريحان و كفررمان وجباع.

اما ان يقال « بان جيش الامير يوسف كان يسير الى النبطية في اربع فرق . وان الفرقة الثانية منها وهي الجناح الايمن كانت تسير في طريق جباع فحومين فحبوش فالنبطية ، وان الفرقة الثالثة وهي الجناح الايسر ، كانت تسير في طريق العرقوب ، فالميذنة ، فالجرمق فكفر تبنيت فالنبطية ،والفرقة الرابعة وهي القلب كانت تسير في طريق جرجوع فعرب صاليم فالنبطية » .

لاحظ ص ١٢٧ من تاريخ جبل عامل ، ثم لاحظ ان مثل هذا القول قد يقال ويصح قوله بالنسبة للجيوش النظامية ، لا بالنسبة للجيوش الاهلية والقبلية كجيش الامير يوسف وجيش المتاولة ، فانها كانت -- كما تقدم من قول الرحالة فولني – ابعد ما تكون عن النظام وعن التنظيم ، ثم لو صح ان الفرقة الثانية من جيش الامير قد مرت بقرية حبوش، وان الفرقة الثالثة منه قد مرت بكفر تبنيت لا صاب القريتين من الحريق والنهب ما اصاب كفر رمان وقرى التفاح حين مر بها جيش الامير ومع ذلك فلم نسمع من اي مؤرخ او محدث عن تلك الواقعة ما يؤيد مثل هذه المزاعم بل نرى ان الجميع يقرون بان الامير سار بعسكره من جسر صيدا الى قرى التفاح ومنها الى جباع ومنها الى الميذنة ومنها الى كفر رمان حيث احرقها وتوجه في نفس الوقت منها الى النبطية فالتقى بطليعة خيل المتاولة واصطدم بها قبل ان يصل بجيشه الى النبطية او يخيم بها .

او يقال : « بان قوى الشيخ علي الفارس واخيه الشيخ حيدر كانت مؤلفة من فرقتين فرقة الترسان وعددها خمسماية من الابطال المجربين وانها كانب تقيم معه في قلعة الشقيف ، وفرقة المشاة بقيادة الشيخ حيدر وعددها الف مقاتل جمعها من النبطية وضواحيها ، وان الشيخين عسكرا بجيشها في الجهة الشرقيه من البلدة في محل يدعى اليوم بعريض القهوة » .

* * *

لاحظ ص ١٢٧ من المصدر السابق ثم لاحظ أن من المعقول أن يكون مجموع فرقة المشاة من جيش المتاولة ألف مقاتل قد جمعت لدى الحرب من قرى مقاطعة الشقيف بقيادة الشيخ حيدر ، أما أن يكون عدد الفرسان الذين كانوا يقيمون في قلعة الشقيف مع حاكم المقاطعة خمسماية خيال ، فهو موضع شك ، لأن من يراجع تاريخ قلعة الشقيف في عنفوان عمرانها أيام الأمير فخر الدين المعني لا يشعر من ذلك التاريخ أن القلعة بكل طوابقها كانت تتسع لأكثر من ٤٠٠ جندي من المشاة فكيف أصبحت تتسع في أيام الشيخ علي الفارس لخمسماية خيال ؟ مع انك لو اتيت اليوم بخمسماية خيال لتحشر خيلهم بها كما تحشر العساكر في الثكنات لما اتسعت اطلالها لنصف هذا العدد من الخيل ؟

على أن من يقرأ مقدمة تاريخ الشيخ ظاهر العمر ، للأب قسطنطين الباشا .. يرى أن باشة ولاية صيدا بعظمته يومئذ وبامكانياته الوافرة لم يكن لديه في ولاية صيدا من الفرسان أكثر من ٢٥٠ فارساً ؟ فهل يمكن أن يكون لدى حكام مقاطعة الشقيف أكثر مما لدى الباشا من فرسان ومن امكانيات ؟ وهل كان يسمح الباشا لهم بأن يكونوا أكثر أبهة وعظمة منه ؟؟

أو يقال « بأن المؤتمرين من مشايخ المتاولة في النبطية أرسلوا كشافاً يستطلع ويراقب حركات الجيش المهاجم ويقدر قواه .. فعاد الكشاف يبالغ بكثرة المهاجمين ووفرة معداتهم ،فانتهره الشيخ علي الفارس وصاح به اسكت قطع الله لسانك وأمر بسجنه وأرسل كشافاً آخراً فرجع هذا – وقد تعلم الامثولة – يهوّن الخطب ويزري بالعدو ، وبسيره غير المنتظم وبان قسماً منه غير مسلح رافق الجيش للسلب والنهب فاثنى عليه الشيخ وأمر له بخلعه » .

لاحظ ص ١٢٧ من تاريخ جبل عامل وص ٣٢٣ من العرفان م ٢٠ مقال الشيخ أحمد رضا ثم لاحظ انه بعدما أحرق جيش الأمير قرى التفاح بين صيدا وجباع ثم عقب على ذلك باحراق جباع واقامته ليلتين بها ثم مبيته ليلة على ينبوع الميذنة وبعد تراجع الشيخ حيدر بخيل المتاولة من جباع إلى النبطية – أنه بعد هذا كله لم يبق من حاجة إلى مثل هذا الكشف وإلى اصطناع مثل هذه القصص التمثيلية ، لأن كل شيء كان واضحاً لدى الجميع وخصوصاً الشيخ حيدر وبقية الفارين من جيش المتاولة «ومن القرى الامامية» أولئك الذين رأوا بأم أعينهم مقدار القوى التي هاجمت جباع واضطرتهم إلى الفرار او التراجع نحو النبطية.

• • •

أو يقال « بأن الامير يوسف – بعد ان أحرق كفر رمان واحتلها – اتخذها مركزاً لجيشه وعساكره ، او بأن قسماً عظيماً من جيشه وصل مع الأمير يوسف الى النبطية ، وبأن الامير ضرب خيمته على بيادرها » .

• • •

لاحظ أسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٦٥٣ من العرفان م ٨ ، وحملة الامير يوسف على جبل عامل والنبطية للشيخ أحمد رضا ص ٣٢٣ من العرفان م ٢٠ ، وص ١٢٨ من تاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر . ثم لاحظ بعد ان رواية المؤرخين اللبنانيين وخصوصاً المعاصرين منهم للواقعة كالأمير حيدر شهاب لا تدل على ان الاميريوسف تمركز في كفررمان او عسكر في النبطية ، وانما تنص على انه تمركز في الميذنة ومنها سار الى كفر رمان فأحرقها ثم توجه الى النبطية فالتقى بخمسمائة خيال من خيل المتاولة ، وكان هذا اللقاء وحده سبباً لهزيمة الامير وهزيمة جيشه الهائلة جرياً على سنن الحرب في ذلك الزمن يوم كانت الحرب هوشة ثم تحدث الهزيمة على من يسبق القتل والجرح الى بعض جنوده وفرسانه وتنتهي الحرب في غالب الاحيان .

أضف الى هذا ان المحافظة على راحة العساكر الكثيرة كجيش الامير كانت تفرض عليهم أن يتمركزوا في المكان الذي يكثر فيه الماء وتنبسط السهول الفسيحة كسهل الميذنة وينابيعها ، ثم توجب ان لا يتمدونه – ما دام حربهم قريبة من تلك المنطقة – إلى حيث يقل الماء ويعسر الحصول عليه كما كانت الحال يومئذ في كفر رمان وفي النبطية

ولعل شهرة هذة المعركة – عند اللبنانيين – بمعركة الحرمق او الزهراني في جنوب الميذنة وشمالها – تفصح عن ان عساكر الامير تجمعت وتمركزت على نبع الميذنة وظلت متمركزة بهذا المكان الى نهاية المعركة او نهاية عنفها في جنوب الميذنة وشمالها .

ومما يرجح هذا القول حديث (الدرويشة) الذي رواه الاستاذ جابر عن فظاعة القتلى وتراكم الجثث هناك بحيث لا يستطيع المرء ان يصمد لمناظرها المزعجة وروائحها الكريهة .

ثم انه ليس من الطبيعي ان يعسكر الامير وطليعة جيشه في النبطية او يضرب خيمته على بيادرها او جبانتها قبل ان يشتت عساكر أعدائه منها ويطمئن الى سلامة الموقع وخلوه مما يهدد جيشه ويهدده بأخطر المفاجآت وأسوأ العواقب !

. . .

أو يقال : « بأن المؤتمرين من المتاولة في عريض القهوة شرقي النبطية قد قرروا أن لا يبدأوا القوم بالحرب » .

لاحظ حملة الامير يوسف على جبل عامل والنبطية للشيخ أحمد رضا ص ٣٢٣ من العرفان م ٢٠ ثم لاحظ ما يدعو لاستغراب هذا القول انه لأول بادرة يشعرك بأن قادة المتاولة في النبطية لم يكونوا معتبرين اجتياح عساكر الامير لبلادهم واحراق القرى ونهبها وقتل من يصادفونه من أهلها ابتداء من الغازية حتى جباع ومن جباع حتى كفر رمان ، لم يكن فيهم من يعتبر مثل

ذلك العمل من الامير ابتداء منه في حرب المتاولة . ولعلهم – بحسب هذه الرواية – كانوا ينتظرون مع هذه الفظائع أشياء أخرى تشعرهم باعتداء الامير وحربه لهم ، وفي هذا ما فيه من دواعي الشك بمثل هذه الروايات والافتراضات التي تسيء الى قادة المتاولة وتشوه سيرتهم في فهم الامور وتقدير المسؤوليات الملقاة على عاتقهم .

ثم كيف يقرر المؤتمرون ألا يبدأوا القوم بالقتال ، ثم يتعقبهم الشيخ علي الفارس بخيله الخمسمائة قبل أن تصل اليه نجدة البشارية بقيادة ناصيف ونجدة الفلسطينية بقيادة ظاهر العمر واولاده؟ فهل يكون في ذلك شيء من الحكمة والتدبير الحربي ؟

• • •

أو يقال « بأن الشيخ علي الفارس لما عول على الهجوم بفرسانه الخمسماية وخشي بادرة الحماسة من الشباب المشاة أمر بحجزهم في خان الميري بالنبطية وأمر قائدهم أن يوصد الأبواب ولا يدع أحداً يتحرك إلا باشارته لأنه لم يكن على ثقة بأن جيشه القليل يفوز على ذلك الجيش العرمرم » .

ثم يقال بعد ذلك بدون فاصل « بأن الشيخ علي عبأ خيله وأحاط بفرقة الامير من جهات ثلاث ، وبدأت المعركة في النبطية بالتحدي واطلاق الرصاص ، فذعر الامير يوسف والتجأ الى الفرار راكباً بغلته لا يلوي على شيء بعد ان فر أكثر من كان حوله » .

ثم يقال « بأن الشيخ علي الفارس أمر جيشه أن لا يقطعوا الطريق على الامير وحاشيته حتى يلحق بمعسكره المرابط في كفر رمان ، وبأن هذا الأمر كان من التدابير الحربية ، لأن المتاولة قبل وصول نجدة البشارية ونجدة الفلسطينية اليهم – لا يقدرون على الوقوف في وجه الجيوش اللبنانية المهاجمة لكثرتها وقلة المتاولة » .

• • •

لاحظ أسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ص ٦٥٣ من العرفان م ٨ ، وحملة الامير يوسف على جبل عامل والنبطية للشيخ أحمد رضا ص ٣٢٣ من العرفان م ٢٠ ، وص ١٢٨ من تاريخ جبل عامل للاستاذ جابر ، ثم لاحظ بعد ذلك هل في هذه الاقوال وفي هذه التدابير - لو صحت الرواية - شيء يدل على بعد النظر والحزم في مثل هذه الإحوال والمواقف المصيرية ؟ ذلك بأنه لو صادف ان باغتهم العدو وتغلب عليهم فجأة وأحاط بالنبطية واولئك الرجال المحجوزون داخل الخان لأصابهم ما أصاب أسلافهم من المتاولة سنة ١١٥٦ هـ في مسجد أنصار يوم غزاها الامير ملحم شهاب وغدر بمشايخهم وكان ضحية حصر الأهالي في مسجد القرية الف قتيل ونيف ؟

ثم كيف يقرر المؤتمرون في النبطية أن لايبدأوا القوم بالقتال أو أن يحجزوا الفاً من عسكر المتاولة داخل الخان ، ثم في نفس الوقت يتقدم الشيخ علي بفوارس المتاولة نحو خيمة الامير في النبطية بتعبئة حربية.. ويحيط بعسكر الامير من ثلاث جهات ويبدأ التحدي واطلاق الرصاص ؟؟ .

أليس في هذا التناقض - بين حجز عسكر المشاة من المتاولة في الخان وبين تحدي فرسانهم لجيش الامير يوسف - مايشكل خطراً على المحجوزين لو طوقهم العدو في حين ان تنظيم المشاة واستعراضهم في خارج البلدة مع الفرسان كان من شأنه ان يعزز معنويات المتاولة ، او يضعف من معنويات اعدائهم ويزيدهم خوفاً من مغبة القتال اكثر من خوفهم من رؤية الفرسان المتاولة وحدهم ؟؟ .

ثم اذا كان جيش الشيخ علي الفارس لقتله لا يقدر على الوقوف في وجه جيش الامير المهاجم لكثرته او اذا كان الشيخ علي لا يثق بان جيشة يفوز على جيش الامير يوسف العرمرم قبل وصول النجدة لمتاولة النبطية فكيف تعقب الشيخ علي بفوارسه فرقة الامير يوسف وناوشها القتال في النبطية او بين النبطية وكفررمان قبل ان تصل اليه نجدة البشارية بقيادة ناصيف ونجدة الصفدية بقيادة اولاد الشيخ ظاهر العمر ؟؟ .

او يقال «بان عسكر الامير يوسف - بعد ان فر من وجه المتاولة .. ثبت لقتالهم في كفر رمان الى ان تحاجز عند المساء» .

لاحظ حملة الامير يوسف على جبل عامل للشيخ احمد رضا ص ٣٢٤ من العرفان م ٢٠ وص ١٢٩ من تاريخ جبل عامل للاستاذ جابر ، ثم لاحظ بعد هل يتفق هذا القول مع ما يعرف من سنن القتال وعادة المتقاتلين في ذلك الزمن من انهم كانوا اذا انهزموا في معركة من المعارك ظلوا مندفعين في هزيمتهم الى النهاية بدون اي تراجع او انتقاض على اخصامهم ، فكيف بهم حين تكون كسرتهم هائلة مذهلة كما وصفها المعاصرون من مؤرخي لبنان او المنهزمون من جيش الامير يوسف ؟؟ .

او يقال «بان عسكر الامير بات في كفررمان يعد المتاريس للدفاع والصمود في وجه المتاولة» .

لاحظ ص ٣٢٤ من المصدر الاول ثم لاحظ ان المتاريس انما تبنى وتعد في حرب المدافع والبنادق المدمرة على المدى البعيد ، فهل كان المتحاربون في واقعة كفررمان يحاربون بغير السلاح الابيض من سيوف ورماح وخناجر ؟ واذا ما تعدوا هذا النوع من السلاح ، فهل كان لديهم من الاسلحة النارية يومئذ غير بنادق أم فتيل ، وغير الطبنجات والقربينات التي لا يصل مفعولها القاتل الى ابعد من رمية رمح او رمية سهم على اكثر الفروض؟ ليتخذ المحاربون المتاريس التي تحميهم من نارها ورصاصها ؟؟ .

على ان البنادق من هذه الانواع لم تكن تحمل في داخلها سوى طلق واحد لا يمكن تجديده ثانية في زحمة القتال وفي الغارات الخاطفة كغارة كفررمان ،

لان تجديده كان يحتاج الى مدة طويلة لكي يفرغ المحارب في داخل البندقية كمية مقدرة من البارود ويضع فوقها قطعة صغيرة من القماش البالي ثم يرصها فوق البارود رصاً محكماً بقضيب دقيق من خشب او حديد ، ثم يفرغ فوقها كمية مقدرة من قطع الرصاص الصغير ، ثم يغطيها بقطعة اخرى من القماش الرقيق ثم يرصها ايضا داخل البندقية على النحو الذي رص به البارود ، ثم يولعها حين يولعها بواسطة الفتيل والصوانة والقداحة ، ولعل الجندي قبل ان يتم مثل هذه العملية كان يفاجأ من عدوه بما يقضي على حياته ، ولذا كان الفرسان من الجنود يطلقون الطلق الاول من بنادقهم ثم يلقونها وراء ظهورهم ويهجمون بالسلاح الابيض وخصوصاً عند اشتداد الحرب كما كانت الحال لدى التقاء المتاولة بعسكر الامير يوسف بين النبطية وكترمان .

ثم هب ان المتحاربين كان لديهم من الاسلحة النارية ما يشبه اسلحة اليوم ، فهل كان عسكر اللبنانيين من نصارى ودروز بعد انكسار اميرهم مع طليعة جيشه امام وثبة المتاولة – في حال تساعدهم على التفكير بالوقوف في كفررمان ؟ وعلى بناء المتاريس في وجه الخطر المحدق بهم الذي فاجأهم بما اطار صوابهم واذهلهم عن انفسهم حتى اصبح الرجل منهم – على ما يروى من اساطير تلك المعركة – اذا علقت ثيابه بغصن من اغصان الشجر او بجب من الاحراش التي تسللوا بينها – في فرارهم من المتاولة – يظن ان ذلك الجب من جنود المتاولة فيصيح من فرط الخوف والهلع « دخلك يا شيخ جب ارخيني وخـــذ القبق والسكيني » .

او يقال « بانه لما اشتبك الجيشان في كفر رمان صبيحة اليوم الثاني من القتال حاول الامير يوسف الخروج بعسكره من المتاريس والفرار به» ولكنه لمـــا وصلت للمتاولة نجدة الشيخ ناصيف باحد عشر الف فارس وراجل ثم نجده الشيخ ظاهر العمر بخمسة الاف فارس وراجل.. بقيت جموع العدو في

في متاريسها وزاد القتال استفحالا الى ان حجز بينهم الظلام وفي صبيحةاليوم الثالث من القتال حاق بهم اليأس وتشتتوا منهزمين » .

لاحظ اسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٦٥٤ من العرفان مجلد ٨ ، ثم لاحظ قول الامير حيدر شهاب وهو من المعاصرين للواقعة وممن لا يتهمون بتعصبهم للمتاولة وتحاملهم على اللبنانيين ، لاحظ قوله :

« وفي وصول الامير يوسف إلى قرية كفررمان احرقها وتوجه الى النبطية فالتقى بشرذمة من عسكر المتاولة نحو خمسماية خيال ووقع بينهم القتال فانكسر عسكر الامير يوسف كسرة هائلة لم يكن مثلها في عسكر آخر على عهد هذه البلاد » .

ألا ترى من خلال هذا القول أن انهزام عسكر الأمير دروزاً ونصارى لهذه المفاجأة يتنافى مع القول باستمرار الحرب ثلاث ساعات فضلاً عن القول باستمرارها ثلاثة أيام كما يذهب إلى ذلك رواة المتاولة من أهل النبطية ؟

وهل كان من المعقول أن يرى عسكر الامير يوسف فرار اميرهم مع طليعة فرسانه أمام خيل المتاولة ويبقى واحد منهم ثابتاً في مكانه ، وفي ذلك ما يخالف سنن المقاتلين يومئذ وخصوصاً أولئك الذين كانوا يزجون قسراً إلى الميدان وما يخالف تقاليد الحروب الاهلية في ذلك الزمن يوم كانت الحرب هوشة ثم تنتهي بانكسار من يسقط منهم أولاً بعض القتلى والجرحى .

وعليه فكيف نصدق الرواية العاملية التي تقول « بان عسكر اللبنانيين – بعد فراره مع الأمير يوسف بين النبطية وكفررمان – تمترس في كفررمان وان المعركة استمرت يومين وثلاثة أيام .. »

أو كيف نصدق الرواية العاملية التي تقول « بان عسكر الامير يوسف كان يهم ويتحفز للفرار من وجه المتاولة ولكنه بعد وصول نجـــدة ناصيف ونجدة ظاهر العمر للمتاولة . ثبت وتجلد لقتال المتاولة ولم يفر من ميدان القتال حتى اليوم الثالث للمعركة »؟؟

أو كيف جزع الأمير وعساكره من المتاولة وهم قلة ولم يجزعوا من المتاولة وهم كثرة بل استبسلوا وزاد القتاو استفحالاً ..

ومن الغرابة في تاريخ هذه الواقعة أن نرى الذين هاجموا بلاد المتاولة من اللبنانيين.. يصرون على ان انكسارهم كان هائلاً عندما التقوا بطليـعة عسكر المتاولة بين النبطية وكفررمان، وعلى أنه لو وصل اليهم باقي عسكر المتاولة لما سلم منهم أحد ، وعلى انهم كانوا كالغنم بين أيدي الذئاب .

ومع هذا كله يبقى في مؤرخي متاولة النبطية مـــن يقول « أن عسكر الأمير يوسف ظل يحارب في أول يوم من هذه المعركة إلى أن انسدل الظلام وتحاجز المتحاربون ، وأن عسكر الأمير شرع بعد ذلك في بنـاء المتاريس ، وأن الحرب استمرت بينهم وبين المتاولة لليوم الثالث ..

* * *

أو يقال « بان الشيخ علي رضا روى « أن الشيخ ناصيف النصار تعقب بنفسه الامير يوسف الشهابي فادركه في عقبة جرجوع فقنّع رأسه بالرمـــح وانزله عن ظهر بغلته الى الأرض وألبسه الفرو مقلوباً ، وقال له عفوت عنك رأفة بشبابك وأحتراماً لأسرتك ، وأنا ابن نصار « فاجابه الأمـــير يوسف (قدها أولاد أم علي) أي انكم أهل للعفو ، وأولاد أم علي لقـــب كان يطلق على الشيعة وكانوا يفخرون به » .

* * *

لاحظ ص ١٣٠ من تاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر ثم لاحظ قول

الشيخ حيدر رضا وقول ابنه الشيخ علي رضا في المخطوطة التي نشرتها مجلة العرفان م ٢٧ – و ٢٨ – و٢٩ فلا تجد فيما قاله الأب والأبن عن واقعة النبطية – كفررمان سنة ١١٨٥ هـ شيئاً يتعدى هذا النص .

« وفي سنة ١١٨٥ هـ في يوم الاثنين ثاني عشر من رجب صارت وقعة النبطية مع المير يوسف (و) البشارية وكسروه وقتلوا من عسكره خلقاً كثيراً» العرفان ص ٥٥ م ٢٨ .

* * *

وهذا النص فضلاً عن انه يخالفه الرواية المتقدمة وينقض محتواها فانه بما تضمنه من معان قليلة يؤكد بان المعركة والهزيمة الكبرى لم تتجاوز مدتهما ضحى يوم واحد وهو يوم الثاني عشر من رجب سنة ١١٨٥ هـ .

أصح الروايات

١ -- وعلى كل فإن رواية الأمير حيدر أحمد شهاب ص ٨٠٨ – ٨١٠ من نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان هي من أقرب الروايات الى الصحة والصدق باستثناء قوله « بأن سبب حملة الأمير يوسف على بلاد المتاولة سنة ١١٨٥ هو تطاول المتاولة على حدود بلاد الشوف » .

٢ – ثم قوله « بأن المتاولة أرسلوا للامير يوسف بواسطة الشيخ علي الظاهر يطلبون العفو عنهم ، وانهم يقدمون للأمير كل ما يريده لقاء ذلك ، ولكن مشايخ البلاد أبوا إلا الحرب والهجوم على بلاد المتاولة » .

٣ – ثم قوله « ان انكسار الدروز في كفر رمان كان بسبب خيانة المشايخ الجنبلاطية واليزبكية في عنفوان المعركة » .

فان هذه الأقوال تتنافى مع ما أشرنا اليه في الهوامش والتعليقات . فالقول الاول منها يتنافى مع ما تتضمنه أقوال المؤرخين من « ان الامير يوسف لم يحمل على بلاد المتاولة إلا تلبية لأوامر بشوات الدولة ، ثم يتنافى

مع القول الصريح بأن رجاله كانوا في تلك الايام يحمون مدينة صيدا من تعدي المتاولة عليها ؛ فإن الذين يحمون مدينة الباشا من تعدي المتاولة كيف يتسنى للمتاولة أن يتطاولوا على بلادهم ؟؟

وان القول الثاني يتنافى مع علم مشايخ المتاولة بأن الأمير يوسف لم يحمل على بلادهم يومئذ مخـيراً بل كان مسيراً لأوامر عثمان باشا ؛ ومن يكن مسيراً لحربهم كيف يرجى عفوه او التفاهم معه ؟ ليحاولوا منه ذلك؟

وان القول الثالث يتنافى مع القول الثاني بأن مشايخ البلاد من جنبلاطية ويزبكية هم الذين أبوا على الأمير يوسف أن يصطلح مع المتـاولة بل دفعوه دفعـاً للهجوم على كفر رمان . ثم يتنافى مع ما يعرف من تضامن الدروز - ولو كان بينهم دم - عندما يصطدمون بعدو أجنبي عن طائفتهم .

وأما باقي روايات الامير حيدر عن واقعة كفر رمان فقد تكون أصح وأصدق ما قيل عن أسبابها وظروفها وملابساتها ونتائجها ، ذلك بأن الامير حيدر كان معاصراً لحوادثها وغير متهم بالتحامل على أبناء قومه أو بالتعصب لأعدائهم وأعدائه من المتاولة .

انقياد المتاولة لحليفهم ظاهر العمر

ان من يتتبع سير الحوادث بعد تحالف ظاهر العمر مع المتـاولة يرى أن الشيخ ظاهر العمر قد استغل ثمرة هذا التحالف الى حد بعيد في كل الميـادين التي خاضها لتحقيق أحلامه الكبار ، ويرى ان المتاولة قد وفوا له بالعهود التي قطعوها ، اذ اشتركوا معه - بعد ذلك التحالف - في ١٥ تجريدة للحرب كان النصر فيها دائماً حليفهم وحليف ظاهر العمر ، هذا فضـلاً عن الدعم السياسي والمعنوي .

اشتركوا في أربع وقائع منها داخل فلسطين يوم حاربوا معه ضد مشايخ نابلس ، ويوم حاربوا ضد عرب بني صخر في المعركة التي قتل فيهـا الشيخ جهجاه بن عثمان الظاهر ، ويوم حاربوا ضد عرب الوكر ، ثم يوم اشتركوا في حصار يافا .

ثم اشتركوا في اربع منهـا خارج فلسطين يوم حاربوا مع محمـد بك ابو الذهب ومع الشيخ ظاهر العمر في المعارك التي احتلوا بهـا دمشق سنة ١١٨٥ وهزموا عثمان باشا .

ثم اشتركوا مع ظاهر وحـده في معركة البشوات في الحولة ، ثم حاربوا – بسبب هذه المعارك المتقدمة – في معارك جبع وكفررمان والنبطية سنة ١١٨٥ ضد اللبنانيين جميعا ومن ورائهم بشوات صيدا ودمشق وطرابلس على ما سنفصله فيما بعد .

ثم حاربوا مع ظاهر العمر وعلي بك المصري في معارك صيدا والحارة والغازية سنة ١١٨٦ ضد الامير يوسف وضد اللبنانيين جميعا دروزا ونصارى وفي مقدمتهم عسكر الدولة ومن ورائهم بشواتها على ما سنمحصه من هـذه الوقائع الشهيرة في تاريخ البلاد .

ثم اشتركوا في سبع تجريدات ساروا بها للحرب معه ولكن تراجع الاخصام تهيبا لتضامن قوى المتاولة مع قواه كفى الجميع مغبة القتال كما يتضح كل ذلك من الاخبار التي يرويها الركيني مرتبة حسب الايام والشهور والاعوام اذ يقول : « وفي سنة ١١٨٣ هـ في شهر شوال ركب ظاهر العمر وولده علي وركب معه ناصيف وعباس وقبلان الى مرج الجش وتفرقوا » .

واذ يقول « وفيها تاسع شهر ذي القعدة غزا المشايخ المذكورون مـع الشيخ ظاهر العمر على النوابلسي وقتل من النوابلسي فوق المائة رجل وقتـل ابن عثمان الظاهر الشيخ جهجاه » (١) .

وإذ يقول « وهلّ شهر المحرم لسنة ١١٨٤ ليلة الجمعة وقيل الخميس وهو الأصح خامس شهر نيسان ، وفيهـا ثاني عشر شهر محرم حاصر الشيخ ظاهر ولده علي في مدينة صفد وركبت خيل البشارية مع ظاهر الى حصار المذكور» .

. . .

وإذ يقول « وفيهـــا في شهر رجب نهب الشيـخ ظاهر العمر وولده علي الظاهر جبخانة عثمان باشا واجتمع المشايـخ – ويقصد مشايـخ المتاولة – من نحوها ومن يم الركوب على جبل نابلس لأن عثمان باشا حاصر البرقـاوي ولم يقدر عليه » .

. . .

وإذ يقول « وفيها في يوم الاثنين ثاني عشر شهر شوال ركبوا مشايخ بلاد بشارة والشيخ ناصيف والشيـخ عباس والشيخ علي فارس هم والشيـخ ظاهر العمر مع السناجق غز مصر – ويقصد الجيش المرسل من مصر بقيادة اسماعيل بك – الى المزيريب على باشة الحاج وكان اسمه عثمان باشا ورجعوا ولم يقـــع بينهم شيء » (٢) .

وإذ يقول الركيني « وهل شهر المحرم من سنة ١١٨٥ ليلة الاربعاء وكان رفيعاً وفي يوم الثامن عشر من شهر صفر ركبت خيل ناصيف وخيـل حمزة وخيل علي فارس لملاقاة ابي الذهب وعسكر الغز (أي المماليك) إلى جسر بنات يعقوب وطلبوا الشام ودخلوها مع عسكر مصر بالأمن والأمان » (٣) .

واذن يقول « وفيها في أول جماد – أي بعد رجوع ابي الذهب الى مصر ركب الشيخ ناصيف والشيـخ حمزة والشيخ ظاهر العمر الى جبل نابلس » .

وإذ يقول « وفي سنة ١١٨٥ في عشرين من جماد أول – أي بعد شهرين ونصف من رجوع ابي الذهب الى مصر – ركب الشيخ ناصيف والشيـخ حمزة والشيخ حمد العباس والشيخ علي فارس والشيـخ ظاهر العمر واولاده إلى جسر بنات يعقوب (يعني انهم اتجهوا من بلادهم نحو جسر بنات يعقوب لا انهـــم عسكروا على الجسر) لمحاربة عثمان باشا باشة الشام ومعــه باشتين باشة باسة وباشة مرعش فكسروا الباشوات المذكورة كسرة عظيمة واحاطوا الدولة الذل والهوان لأنهم انخملوا خملة عظيمة ما صار مثلها بالزمـــان ورموا بأنفسهم وخيلهم وجميع ما معهم في بحيرة الحولة ، وقد شملهم اليـــأس والابلاس ،

وغنموا منهم من جميع الاجناس ولا سيما المدافع والجمال والخيل والبغال وما عليهم من السيوف المسقطة والفراء والاثاث وأما العمائم والقواقيق فقد طاشت على وجه الماء وأما الجبخانة والبارود فقد احترقــت وسطع منها إلى السماء عامود . وما سلم من عسكر الدولة إلا القليل ، وكانوا عشرة آلاف نفــر وعسكر البشارية ثلاثمائة خيال سلم أجمع مـا قتل منهم أحـد إلا رجل اسمه الشيخ جبر من الحمادية ، وأما ما كان من الدولة وعسكر العرب فقـد هربت كجمال احاط بها الجرب وشردوا في البراري ، ونظم حيـدر رضا صاحب هذا التاريخ قصيدة في هذه الواقعه مطلعها :

فاح الخزام بريحـه المتعطر والورد يتجلى بثوب احمـر

وهي طويلة قال في ختامها – والمقدمة والتعليق للناظم :

قد قلتها ستين بيتاً تامــة أيضاً وتتلى خمسة صه وانظر (٤)

. . .

وإذ يشير الركيني إشارة عابرة إلى معركة النبطية وكفررمـــان بقوله « وفي سنة ١١٨٥ في يوم الاثنين ثاني عشر من رجب صارت وقعة النبطية مع المير يوسف والبشارية وكسروه وقتلوا من عسكره خلقاً كثيراً (٥).

وإذ يقول « وفي خامس عشر شهر رجـــب من هذه السنة ١١٨٥ وصل الشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف الى صيدا ونهبوها وحرقوا اقلـيم الخروب اجمع وأمروا الغز ، ان يقيموا في صيدا » (٦) .

وإذ يقول « وفي سادس شعبان من هذه السنة ركب ظاهر العمر الى رأس العين بعسكره وجردوا مشايخ المتاولة على الدروز فلم يركبوا الدروز وكاتبوا الشيخ ظاهر والشيخ ناصيف وتفرقوا العساكر » .

وإذ يقول « وهل شهر المحرم في هذه السنة ١١٨٦ يوم الخامس والعشرين من اذار وكان أوله الخميس وفيما بين ذي الحجة وهـــلال شهر محرم سافر

ناصيف إلى جبل نابلس هو والشيخ ظاهر العمر ، وذكروا أنه صارت فيها بينهم وبين النابلسي وقعة » .

واذ يقول « وفي سنة ١١٨٦ في شهر صفر ، رقد الشيخ ظاهر العمر على عين الذهب ثم قطع جسر خردلة إلى بلاد الشقيف لملاقاة عسكر المتاولة إلى حرب الأمير يوسف إلى أرض صيدا ، وجاءت المراكب في البحر لملاقاتهم وفي يوم الخميس يوم تاسع ربيع أول من هذه السنة صار وقعة عظيمة بين الشيخ ظاهر العمر ومشايخ البشارية وبين الدروز والأمير يوسف بن ملحم شهاب ، وقتل من الدروز فوق الالف وخمسماية رجل وكان الوجه للبشارية والشيخ ظاهر العمر والغز (أي عسكر المماليك) واخذوا مدافع الدروز والدولة والدالي خليل باشا وغنموا منهم غنيمة عظيمة » (٧).

وإذ يقول « وفي هذه السنة ١١٨٦ خامس عشر ربيع آخر ركب الشيخ أحمد العباس والشيخ أبو حمد والشيخ ظاهر العمر مع علي بك الكبير إلى نحو مصر إلى حصار يافا واستقاموا في حصارها قرب شهر ونصف » (٨).

واذ يقول « وفي سنة ١١٨٦ في التاسع والعشرين من ذي الحجة ركب الشيخ ناصيف والشيخ حمد عباس الى جبل نابلس » .

واذ يقول « وفي سنة ١١٨٧ في يوم الاثنين يوم الخامس والعشرين من شهر جماد الآخر ركب الشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف النصار الى ارض صيدا ثم يوم السبت يوم ثاني رجب توجهت العساكر على مرجعيون قاصدين البقاع الى عساكر دولة الشام ، فلما اقبلت عساكر المتاولة على الدولة واخذوا خبر نقمة .. هربت عساكر الدولة في الليل وقاموا مدافعهم وخيامهم وجميع شيء لهم واصبحوا حصيدا خامدين وفات علي الظاهر على قرايا الشام ونهبها » (٩) .

واذ يقول « وفي سنة ١١٨٨ يوم السبت حادي عشر شهر صفر ركبت خيل بشارة والشومر والشقيف مع ظاهر العمر على بني عدوان عرب الوكر».

تخلف المتاولة عن نجدة ظاهر

يقول الركيني « وفي سنة ١١٨٩ في رابع عشر محرم وصل القبجي من اسطنبول المحروسة الى صيدا في طلب ميرة خمس سنين وجميع المشايخ القواطعجية لاقوه الى عكا الى عند الشيخ ظاهر العمر» « ثم ان ظاهر العمر ارسل الى المشايخ انهم يركبون خيلهم ورجالهم لملاقاة ابي الذهب الى غزة، وذلك في يوم السبت يوم الثلاثين من محرم » لاحظ ذلك ص ٢٥٥ من العرفان م ٢٨ ثم لاحظ ان الركيني بعد هذين القولين لم يأت في مذكراته على شيء يشعرنا بأن مشايخ المتاولة قد استجابوا لرغبة ظاهر العمر في الركوب الىغزة لملاقاة ابي الذهب اي لمقاومته ورده من حيث اتى بل تراه يصرح بعد ذلك بما نصه « انه في صفر سنة ١١٨٩ هـ ارسلوا المشايخ التقادم والذخيرة الى باشة الشام » . مما يشعر بان مشايخ المتاولة قد توقفوا عن الاسترسال مع ظاهر العمر في خوض المعارك ضد الدولة وضد انصارها من الحكام كأبي الذهب بعد انقلابه وغدره بسيده واخذوا يتقربون لممثليها من حكام الشام بارسال التقادم والذخيرة سلفاً .

عذرهم في التخلف

وعذرهم الوجيه في ذلك، انهم – بعد مقتل حليفهم وحليف ظاهر العمر علي بك الكبير، وانتهاء دولته في مصر وبعد ان بدت علائم صلح الدولة العثمانية مع الروس وانسحاب اسطولهم من المتوسط، وبعد انقلاب ابي الذهب مع الدولة على ظاهر وحلفائه، بعد كل هذه المفاجآت، شعروا بعجزهم وعجز ظاهر معا عن مجابهة الاحداث التي بدأوا يترقبونها والتي كان ظاهر نفسه يشعر بخطرها، ولهذا نراه قد فر لاول بادرة من بوادرها الى قلعة هونين كما يتضح من قول مؤرخه مخائيل الصباح : « واذ بلغ الشيخ ظاهر العمر ما

جرى في يافا (من عسف ابي الذهب) ورأى تراخي اولاده وكبار رجاله خاف على نفسه وترك عكا وجعل فيها الدنكزلي ومغاربته وسار بأهل بيته وبعض رجاله وفيهم وزيره ابراهيم الصباغ الى قلعة هونين عند الشيخ قبلان ليجتمع هناك بمشايخ المتاولة ويتدبر معهم فيما يجب عمله ليدفعوا عن نفوسهم وعــن البلاد (شر) ابي الذهب بالمال والمهادنة او بالحرب والقتال » .

ثم من قول يوسف بن ابراهيم الصباغ اثناء فراره من عكا الى هونين سنة ١١٨٩ بعد موت ابي الذهب « وعند الصباح ركبت من صور وركب معي وجهاء صور من النصارى واوصلوني الى هونين ودخلت على والدي وادخلني على الشيخ ظاهر فسلمت عليه ودعوت له واخبرته بجميع ما جرى لي مفصلا من اول الامر الى آخره فهناني بالسلامة وفرح بي وخلع علي لكنه حزن على ابن عمه كريم الايوب » .

لاحظ هذه الاقوال ص ١٣٤ ثم ص ١٤٣ من تاريخ ظاهر العمر لتدرك ان ثبات المتاوله في مثل هذه الاحوال ومقاومتهم لما كان يهدد الجميع من الطوارىء والاخطار لم يكن له من نتيجة سوى تلاشي نفوذهم ونفوذ ظاهر او انقراض الجميــــع ؟ .

لهذا لا نستغرب ان ينزل ألمع مشايخ المتاولة يومئذ الى عند ابي الذهب بعد ان احتل عكا كما يبـــدو من اقوال المؤرخين ومن اقوال الركيني بالذات كقولـــه :

« وفي سنة ١١٨٩ في يوم السبت رابع شهر ربيع آخر سافر الشيخ ناصيف أيده الله الى عكا لمواجهة محمد بك ابو الذهب فأكرمه اكراما زايدا وكانت شفاعته ماضية عند جنابه في كل شيء يريده » .

على ان المؤرخ جورج يني يذهب الى ان ابا الذهب منع ناصيف مـــن الرجوع الى ان يأتي جميع مشايخ المتاولة لعنده(١٠) ويبرر هذا القول : قول الركيني ايضا بعد الذي قاله عن نزول ناصيف « ثم ان الشيخ قبلان سافر الى

عكا لمواجهة محمد بك أبي الذهب وتعبت في سطونه جميع العجم والعرب وما أحد إلا ونزل به الهم والكرب وحل بالناس الويل والعطب . وكل يقول الهرب ثم الهرب ما دام ابو الذهب لنـــا بالطلب » . لاحظ هذه الأقوال ص ٢٥٥ و ٢٥٦ من العرفان م ٢٨ ثم لاحظ ما تنطوي عليه هذه الجمل التهويلية من اشعار بأن نزول مشايخ المتاولة لعند أبي الذهب انما كان اضطراراً ودفعاً لما هو أعظم خطراً عليهم من النزول لعكا ، ولم يكن نزولهم هذا تحدياً للشيخ ظاهر العمر او نكثاً لعهوده .

ويدعم هذا الزعم أن ممثل الشيخ ظاهر العمر أحمد آغا الدنكزلي رئيس فرقة المغاربة في صيدا قد خاف هو ومغاربته غائـــلة عصيان أبي الذهب ، فراسله ليسلمه صيدا ، فبعث اليها متسلماً من قبله ومعه مئتان الغز (أي المماليك) (١١) .

ثم يؤيد زعمنا هذا أن مشايخ المتاولة -بعد موت أبي الذهب- قد نهبوا معسكره وعادوا الى بلادهم ليخلوها من رجال أبي الذهب وممثليه في صيدا ، كما يتضح من قول الامير حيدر « ولما نهضت عساكر أبي الذهب للرجوع كان الشيخ ناصيف النصار لم يزل عنده ، فنهب من المعسكر أموالاً لا تحصى ورجع الى بلاده » (١٢) .

ثم من قول الركيني « فعند موت أبي الذهب تجمهر عسكره ونادوا فيما بينهم بالرحيل ورجع الشيخ قبلان والشيخ ناصيف من عندهم سالمين غانمين » .

ومن قوله بعد ذلك « ثم أرسلوا المشايخ سرية قليلة الى عند السنجق الى صيدا حتى يخرجوه منها طوعاً او كرهاً فحاصر فيها وقتل منهم خمسة رجال وقال لهم لم أخرج منها إلا بأمر السلطان » (١٣) .

وعليه فليس من المستغرب أن ينزل مشايخ المتاولة – في تلك الظروف – الى عند أبي الذهب؟ بل من المستغرب أن يعد نزولهم خيانة لظاهر العمر او

تحدياً له بنظر بعض المؤرخين ؟ مع ان ظاهر نفسه لم يعتبر نزولهم لعند أبي الذهب خيانة ولا خطر بباله مثل هذا الخاطر ، ولو ان ظاهر خالجه بعض الشك من اخلاص المتاولة له - بعد ذهابهم لعند أبي الذهب - لما صمم مرة ثانية على ان يذهب الى قلعة هونين عندما حاق خطر الدولة به وبعكا ، كما ينص على ذلك المؤرخ مخائيل الصباغ بقوله « واتفق الشيخ ظاهر وذووه على أن يرحل الشيخ ظاهر من عكا غداة غد مع عياله الى قلعة هونين عند الشيخ قبلان شيخ المتاولة كما فعل ذلك قبلاً ، حينما حضر محمد بك أبو الذهب مع غز مصر وعندما أسرع الناس بالخروج من عكا خوفاً على نفوسهم ، كذلك تجهز ظاهر وخرج بعياله قاصداً هونين ولكنه قتل غدراً بالطريق » (١٤) .

وكذلك كان موقف أبناء ظاهر العمر من المتاولة ، فانه لم يخطر ببالهم أن يشكوا باخلاص المتاولة من جراء نزولهم لعند ابي الذهب ولولا حسن ظنهم باخلاص المتاولة لهم لما لجأوا بعد مقتل أبيهم الى ربوع المتاولة فراراً من سيف الدولة ، كما يبدو من قول المؤرخ جورج يني « أما أولاد الشيخ ظاهر فكان قد أرسلهم أبوهم لحشد العساكر من البلاد فلما علموا بمقتله فروا الى جبل عامل ملتجئين الى الشيخ ناصيف النصار زعيم المتاولة » .

ومن قوله بعد ذلك « وأما أولاد ظاهر الذين التجأوا الى جبل عامل فقد راسلهم حسن باشا للرجوع اليه وأمنهم على أرواحهم وما يملكون وأوعز اليهم أن يقلدهم مناصب أبيهم تحت طاعة السلطان ، فأجابوه الى ذلك ونزلوا اليه وهم عثمان وسعيد وأحمد وصالح » (١٥) .

ثم من قول الامير حيدر في تاريخ الجزار تعليقاً على استجابتهم لحسن باشا « أما الشيخ ناصيف النصار فحذرهم أن لا يلقوا ذواتهم في هذه الاخطار وأن يتجنبوا أسباب الهلاك ، غير أنهم لم يمتثلوا كلامه بل قاموا بالأمان ودخلوا على حسن باشا القبودان » (١٦) .

فمراسلة حسن باشا لأولاد ظاهر وهم في حمى المتاولة وتطمينه لهم على أرواحهم وممتلكاتهم وبأن سيحلهم في مناصب أبيهم ، ثم تحذير ناصيف لهم

من الغدر بهم كل هذا مما يدل ويؤكد على أن المتاولة كانوا من الأوفياء لهم ولم يسلموهم الى الغدر وانتقام رجال الدولة منهم .

ما يؤخذ على المتاولة بعد ظاهر

أما ما يؤخذ على مشايخ المتاولة كحلفاء لظاعر العمر فذلك بأنهم – بعد مقتل الشيخ ظاهر وتشتيت آله واسناد الحكم في ولاية صيدا وعكا لاحمد باشا الجزار قد انصاعوا لارادة الجزار وساروا مع عسكره يطاردون الشيخ علي ظاهر ابن حليفهم السابق الشيخ ظاهر العمر ، كما يبدو من اقوال المؤرخين ومن أقوال الركيني بالذات ، كقوله « وفي سنة ١١٩٠ هـ في ليلة عشرين من صفر جاء الجزار إلى مدينة صور ونام ليلة فيها عند الشيخ حمد العباس » .

وقوله « وفيها في ثاني ربيع الأول ركب الشيخ ناصيف أبده الله الى صور لمواجهة أحمد باشا الجزار » .

وقوله « وفيها في اليوم السابع من شهر ربيع الأول صار بين علي الظاهر وبين دولة الجزار وقعة في أرض عكا وكان الوجه لعلي الظاهر » .

ثم قوله « وفيها في يوم السبت يوم الثاني والعشرين من ربيع الأول ركبت خيل المشايخ أجمع أعني البشارية والقواطعجية الى بلاد صفد مع أحمد باشا .

ثم قوله « وفيها في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني كبست خيل المشايخ أجمع أعني البشارية والقواطعجية إلى بلاد صفد مع أحمد باشا الجزار على علي الظاهر » .

لاحظ هذه الاقوال ص ٣٥٠ من العرفان م ٢٨ ، ثم لاحظ أن مجيء الجزار إلى مدينة المتاولة (صور) ونزوله عند شيخ المقاطعة حمد العباس فيه من المعاني ما يشف عن أن الجزار كان يحرص على تطمين المتاولة وتوثيق الصلة

بينه وبينهم كما أن مواجهة الشيخ ناصيف النصار له - بعد ذلك - في صور تنم عما تخلل هذه المواجهة من تصفية الجو بينهم وبينه ثم تعرب عن انسجامهم معه حسب الشروط والتقاليد المتبعة يومئذ ، ويزيد في توكيد هذه المعاني وتوضيحها - انهم اشتركوا مع الجزار في مطاردة الشيخ علي الظاهر كما بينا في أقوال الركيني .

الرد البسيط ..؟

وجوابنا الصريح على هذه المآخذ البينة أنه لو تسنى للذين يؤاخذون مشايخ المتاولة على انصياعهم لأوامر الجزار - بعد أن أصبح والياً وحاكماً مطلقاً على ولاية صيدا وعكا - لو تسنى لهؤلاء أن يدرسوا الظروف والملابسات وتقاليد الحكم الاقطاعي وشروطه المفروضة على حكام المقاطعات في حالي الحرب والسلم - لما آخذوا مشايخ المتاولة بشيء من هذه التصرفات المفروضة عليهم فرضاً شاؤوا أم أبوا ، ذلك بانه كان من الشروط الأولى على من كان يتولى حكم أي مقاطعة من المقاطعات كبيرة كانت أم صغيرة أن يلبي إرادة الباشا الحاكم حين ينتدبه لحرب من يشاء من الحكام أو الجماعات أو الدول ، وحسبنا وحسب القارىء دليلاً على ذلك أن يقرأ مواد هذه الانظمة والتقاليد ص (٢٩ - ٣٤) من كتاب البلاد العربية والدولة العثمانية ، أو يقرأ تاريخ الأمير بشير الثاني في عهد الجزار ، وخصوصاً تاريخ حربه للامير يوسف بعد أن تخلى له هذا عن الحكم ، أو يقرأ ص ١٤١ - ١٤٢ من تاريخ المعلم ابراهيم العورة رد سليمان باشا على الامير بشير - حينما حاول أن يمنّ على سليمان باشا بما كان من مشاركته له في حرب خصمه يوسف باشا الكنج حاكم الشام - إذ قال الباشا للامير ما خلاصته ، « أن حضورك بالجرود للحرب ليس هو فضل منك ولا منة بل فعلت ما يجب عليك أن تفعله ، لأن اول شرط مشروط عليك - حسب السند المحفوظ عليك في خزينتنا - أن تلبي في أي وقت كان وتحضر بدون تأخير انت وكامل رجال الجبل للحرب والقتال ، فتجمعها وتبقى فيها إلى حين النهاية بدون أن يتكلف الوالي

تقديم شيء مـــا يلزم لمصاريفها لا ماهيات ولا علايف ولا عليق خيل ، ولا مأكول ولا شيء ولأجل ذلك صرت مفوضاً بحكومة الجبل وتتناول كل ارادانه » .

أضف إلى هذا أن مشايخ المتاولة كانوا بنوع خاص يحرصون في انصياعهم لإرادة الجزار على أن يغطوا ماضيهم مع خصمه الالد علي بك الكبـــير ومشاركتهم لهذا الخصم في الحرب ضد الدولة ثم ضد الجزار نفسه في معركة صيدا والحارة التي اشترك بها الجزار مع عسكر الدولة وعسكر الامير يوسف ضد الثائرين على الدولة من الفلسطينيين والمصريـــين والمتاولة كما سنوضحه في حينه .

ثم أن ركوب المتاولة مع عسكر الجزار لمحاربة الشيخ علي الظـــاهر ليس معناه انهم حاربوه فعلاً ،فان هناك من القرائن ما يدل على أن مشايخ المتاولة لم يكونوا جادين في محاربتهم لعلي الظاهر ، وكأني بهم كانوا يفضون لعلي الظاهر سراً بمعدات الجزار لقتاله وبأوقات الهجوم عليه ليأخذ حذره منه ويستعد لما يجب عليه ، ومما يقرب هذا الظن إلى الواقع انهم لما قتـــل الشيخ علي الظاهر غدراً بمساعي محمد باشا العظم ذهب المتاولة – على خوفهم من نقمة الجزار – الى حيث قتل علي في قرية علما الجيري او قرية ديشوم وأتوا بجثته الى قرية عيناتا ودفنوه هناك داخل بلادهم كما تنص الروايات العاملية حيث يقول الشيخ علي سبيتي ما نصه « وبعد ذلك عسكر علي الظاهر في علما (الجيري) من بلاد صفد فركب عليهم عسكر الجزار وباتت الغلبة على العسكر ،ثم عسكر في ديشوم فأرسل اليه الجزار (والأصح محمد باشا العظم) عسكراً برسم أنهم قبسيس (أي من عسكر الدولة الفارين من وجه الدولة) ليخدموا عند علي الظاهر ، فقتلوه غدراً وأخذوا رأسه وهربت فرسه الى صلحا ، وبعد الواقعة أحضر ناصيف جثته ودفنه في عيناتا » (١٧) .

وحيث يقول الركيني « وفي سنة ١١٩٠ ﻫ في يوم السبت الثالث عشر من

شهر رمضان جاءت من الشام دولة قبسيس (عسكر عصاة) من ناحية محمد باشا العظم الى علمة (الخيط) بلاد صفد قتلوا علي الظاهر وأخذوا رأسه وأربعة رؤوس الى الشام وجثته نقلوها الى عيناثا دفنوها وكانوا قدر ثلثماية خيال وذكروا له أن مرادنا نتعين عندك فأمن لهم وقتلوه » (١٨) .

وطبعاً لم ينقل جثته الى عيناثا اولئك الذين تولوا قتله لأن هذا لا يتلائم مع وظيفتهم أو طباعهم وهو مما لا يهمهم أصلاً ، ثم لو أن الذين تولوا دفن الجثة كانوا من غير المتاولة لدفنوها حيث قتل ولم يأتوا بها الى عيناثا ، لذلك نرجح أو نحتم بأن الذين نقلوا الجثة من ديشوم أو من علما الى عيناثا ودفنوها داخل بلاد المتاولة هم المتاولة لا غيرهم .

ثم لو ان المتاولة كانوا مخلصين للجزار في حربهم لعلي الظاهر لاستطاعوا واستطاع الجزار معهم أن يطوقوه ويأسروه أو يقتلوه بأي وسيلة ، ولما ضاق الجزار به ذرعاً وجعل من عجزه عن قتله وسيلة للتشكي على محمد باشا العظم والي الشام بأنه يجير علي الظاهر في مناطق حكمه مما اضطر محمد باشا الى ان يرسل سرية من رجاله لتغدر بعلي الظاهر وتغتاله في منطقة حكم الجزار بالذات ، ليثبت للدولة كذب شكاية الجزار عليه ، كما يبدو من قول المؤرخ جورج ينى « وكتب الجزار الى باب الدولة يشكو والي الشام محمد باشا العظم بأنه أجار علي الظاهر في بلاده فلما علم محمد باشا بذلك بعث رجلاً من أخصائه اسمه علي آغا القيصرلي متظاهراً بعدائه للوالي فلما وصل اليه قتله اغتيالاً فبعث الباشا برأسه الى دار السعادة » (١٩) .

الهوامش والتعليقات

١ - لاحظ ص ٨١٤ من العرفان م ٢٧ ، ثم ص ٨٢ من تاريخ ظاهر العمر للمؤلف ميخائيل الصباغ .

* * *

٢ - لاحظ ص ٨١٥ من العرفان م ٢٧ ، ثم لاحظ بقية المصادر كتاريخ

الامير حيدر شهاب ص ٨٠١ — ٨٠٢ من طبعة مصر سنة ١٩٠٠ ، لتعرف أن قائد المماليك قد انحرف مع عثمان باشا وامتنع عن الحرب مع المتاولة وضاهر العمر .

. . .

٣ — لاحظ ص ٥٤ من العرفان م ٢٨ ، ثم لاحظ تفاصيل المعركة ص ٥٤ — ٥٧ من سلك الدرر للمرادي ، و ص ٩٦–٩٧ من رحلة فولني تعريب السيوفي ، ثم ص ٩٤–٩٥ من تاريخ الشام لخائيل أبريك (وثائق لبنانية) .

. . .

٤ — لاحظ ص ٥٤ من العرفان م ٢٨ ، وص ٨٩ من تاريخ الامير حيدر (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين) وص ٩٧ من تاريخ الخوري أبريك . وص ٧٦ من رحلة فولني تعريب السيوفي ، ثم لاحظ ان المؤرخ جورج ينى يقول ص ٢٢١ من المقتطف م ٢٨ « أن جيش المتاولة كان يبلغ عشرة آلاف فارس » وان الرحالة فولني يقول — اعتماداً على الذين عاصروا الحوادث ولاحظوها بدقة — يقول في رحلته سنة ١٧٨٢ ميلادية « ان خيل المتاولة في حملتهم مع ضاهر العمر وأبي الذهب على دمشق كانت تتراوح بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ فارس » .

وكلا القولين الصريحين يدلان على كثرة خيل المتاولة وانها كانت تزيد عن الألف وثلاثماية فارس ، فكيف جعلها الركيني لا تزيد عن ثلاثماية خيال ؟

الا ان تكون خيل المتاولة هذه لم تركب جميعها يومئذ تحسباً للمباغتات الغادرة التي كان يخشاها المتاولة من أمراء آل شهاب في الشوف ووادي التيم وخصوصاً بعد الذي لاحظوه من مسيرة الامير يوسف الى دمشق على أثر خيانة أبي الذهب ونكثه للعهود والمواثيق ، وبعد الذي لاحظوه من عزل الامير منصور وتعيين الامير يوسف حاكماً على لبنان .

فان اجتماع الامير يوسف بعثمان باشا في دمشق ، ثم عزل الامير منصور

بعد ذلك وتعيين الامير يوسف محله. أحداث لها دلالتها في مثل تلك الظروف التي عززت معنويات عثمان باشا ودعته للتفكير بوضع الخطط المحكمة للقضاء على ظاهر العمر وحلفائه من مشايخ المتاولة .

وبالطبع كان من أولى بواعث تلك الأحداث ان يفرض الباشا على المرشح الجديد لحكم لبنان تأليف حملة من اللبنانيين على بلاد المتاولة في الوقت الذي يحمل هو نفسه مع بشوات الدولة على حدود بلادهم من غرب الحولة وجنوبها.

فتحسب المتاولة لمثل هذه الاحتمالات الخطرة ربما جعلهم يتخلفون ببقية خيلهم عن الاشتراك في معركة الحولة ، اذ نلاحظ ان الشيخ قبلان حاكم مقاطعة جبل هونين على حدود مقاطعات الامير اسماعيل الشهابي في وادي التيم . وان مشايخ آل منقر حكام مقاطعات الشومر والتفاح على حدود مقاطعات الامير يوسف في جبال الشوف ، لم يشتركوا مع ناصيف النصار وظاهر العمر في واقعة الحولة او واقعة البشوات على ما يبدو من رواية الركيني الذي اهمل ذكر اولئك المشايخ من المتاولة حين عدد الذين اشتركوا مع ظاهر وناصيف في تلك الواقعة .

كما نلاحظ من تباطؤ الامير يوسف ومدبريه وتأخرهم عن الموعد المضروب لهم في حملتهم على بلاد المتاولة .. ان تباطؤهم وتأخرهم لم يكن الا ترقبا لنتائج معركة البشوات في الحولة تلك المعركة التي كان يطمع منها اللبنانيون ان تخفف من اعباء حملة اميرهم على بلاد المتاولة او تكفيهم شر هذه المغامرات وخطرها في مثل هذا الوقت المكتظ بالاحداث والمفاجآت .

وليتضح لك صدق ما نذهب اليه من هذه المزاعم راجع ص ٥٠ – ٥١ من رحلة فولني تعريب السيوفي ، ثم ص ١٠٣ وص ٩٩ – ١٠٢ من تاريخ ظاهر العمر لمؤلفه ميخائيل الصباغ .

* * *

٥ – لاحظ ص ٥٥ من العرفان م ٢٨ ، ثم ص ٦٥١ من العرفان مجلد ٨ ، ثم ص ٣٢١ من العرفان م ٢٠ ثم ص ٤٢ – ٤٣ من اخبار الاعيان للشدياق ج ٢ ط ١٩٥٤ ، ثم ص ٢٠٨ من دواني القطوف للمعلوف ثم ص ٨٩–٩٢ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين) ج ١ ، ثم ص ٨٠٨ – ٨١٠ من تاريخ الامير حيدر طبع مصر ، لتتضح لك تفاصيل المعركة واسبابها ونتائجها .

٦ – لاحظ ص ٥٦ من العرفان م ٢٨ ، ثم لاحظ ان الذي امر يومئذ بالاقامة في صيدا هو احمد آغا الدنكزلي ومغاربته ، لان الغز لم يكن لهم وجود مع المتاولة والصفدية في هذه الفترة بعد خيانة أبي الذهب ورجوعه الى مصر ، كما يتضح لمن يراجع ص ٦٥١ من العرفان م ٨ .

٧ – لاحظ ص ٥٦ من العرفان م ٢٨ ، ثم ص ٧٨ من رحلة فولني تعريب السوفي ، ثم ص ١٩٤ من مجلة الكلية البيروتية م ١٥ ثم ص ٧٦٥ – ٧٦٧ من العرفان م ٨ ثم لاحظ بقية المصادر التاريخية ، لتتضح لك التفاصيل والاسباب والنتائج .

٨ لاحظ ص ٥٦ من العرفان م ٢٨ ، ثم ص ٨١ من رحلة فولني تعريب السيوفي اذ يؤكد ان الحصار دام ثمانية اشهر .

٩ – لاحظ ص ١٥٩ من العرفان م ٢٨ ، ثم لاحظ التفاصيل ص ١٠٣ من تاريخ الامير حيدر (لبنان في عهد الامراء الشهابيين) ج ١ طبع بيروت ، ثم ص ٨١٩ من تاريخ الامير حيدر طبعة مصر سنة ١٩٠٠ ج ٢ ، حيث يقول المؤرخ ما نصه :

« وفي هذه السنة (١١٨٧ ﻫ) وقع الاختلاف بين عثمان باشا المصري والي دمشق والامير يوسف فجهز الباشا عسكرا وخرج بـــه الى البقاع وضرب خيامه في بر الياس وكان اكثر من خمسة عشر الف فجمع الامير يوسف عسكر البلاد وتوجه الى المغيثة .. وجرت جملة وقائع بين العسكرين فارسل الامير يوسف الى الشيخ ناصيف النصار ان يحضر لمساعدته ، وفي الحال حضر الشيخ ناصيف بخيل بني متوال وفي وصوله الى القرعون هرب عثمان باشا ليلا بعساكره الى دمشق وترك اكثر الميرة والذخيرة والمدامع ، وعند الصباح حضر عسكر الامير يوسف الى القرعون فاخذوا ما وجدوه واحضروا المدافع الى قلعة قب الياس ، وارسل الامير يوسف الى الشيخ ناصيف ان يحضروا للمواجهة والاكرام لاجل سعيه ، فاجاب بما انه لم تبق حاجة لا يمكنه المكث وانثنى راجعا الى بلاده ورجع الامير يوسف الى دير القمر ، وصفت له الايام وصار بينه وبين الشيخ ناصيف وبني متوال محبة عظيمة وزالت مـــن بينهم جميع الاحقاد القديمة واخذوا بعضهم على بعض العهود والمواثيق » .

١٠ – لاحظ ص ٤٦٣ من المقتطف م ٢٨ ، ثم ص ٨٢٣ من تاريخ الامير حيدر ج ٢ من طبعة مصر سنة ١٩٠٠ .

١١ – لاحظ ص ٤٦٣ من المقتطف م ٢٨ ، ثم ص ٨٢٣ من تاريخ الامير حيدر ج ٢ من طبعة مصر .

١٢ – لاحظ ص ٨٢٤ من تاريخ الامير حيدر طبع مصر ج ٢

١٣ – لاحظ ص ٢٥٦ من العرفان م ٢٨ .

١٤ – لاحظ ص ١٤٨ من تاريخ ظاهر العمر لمؤلفه مخائيل الصباغ .

١٥ ـ لاحظ ص ٤٦٥ من المقتطف م ٢٨ ، وص ٨٢٦ من تاريخ الامير حيدر (نزهة الزمان) ج ٢ طبعة مصر .

١٦ ـ لاحظ ص ٧٠ من تاريخ الجزار للامير حيدر ثم ص ٨٢٦ من تاريخه « نزهة الزمان » ج ٢ طبعة مصر .

١٧ ـ لاحظ ص ٢٢ من العرفان م ٥ .

١٨ ـ لاحظ ص ٣٥١ من العرفان م ٢٨ .

• • •

١٩ ـ لاحظ ص ٤٦٥ من المقتطف م ٢٨ ، ثم لاحظ ص ٨٣١ - ٨٣٢ من تاريخ الأمير حيدر (نزهة الزمان) ج ٢ حيث يقول المؤلف في تفصيل القصة ما نصه « وكان الجزار قد سعى ضد محمد باشا العظم عند الدولة العلية واتهمه بدسائس جرت بينه وبين الشيخ علي الظاهر ، فانحرف خاطر الدولة عليه ، وأراد أن يدفع الشبهة عن نفسه ويسترضي الدولة عنه فأمر علي آغا القيصرلي أن يراسل الشيخ علي سراً بأنه يريد أن يتعين عنده ويسعفه على قتال الجزار ، ولما وصلت رسالته إلى الشيخ علي استوثق به وقبله لأنه يعلم العداوة التي بينه وبين عبدالله آغا المتعين عند الجزار وقد ذكرنا أن ذلك كان هو السبب في انصراف القيصرلي عن أصحابه إلى دمشق وتجنده لمحمد باشا العظم وطلب الشيخ علي من علي آغا القيصرلي ميثاقاً على النصيحة فعاهده وحلف له بأعظم الأقسام وسار اليه حتى دخل عليه في خيمته فأكرمه الشيخ علي ورحب به وأمر له بالقهوة فحضرت وكان بين علي آغا وجماعته اتفاق على قتل الشيخ علي عند اعطاء الأشارة فلما شربوا القهوة لوح بها فوثبوا على الشيخ علي وقطعوا رأسه وانصرفوا به إلى دمشق فأرسله محمد باشا الى القسطنطينية ونال به العفو والقبول » .

صيدا في القرن الثامن عشر

يقول الرحالة فولني ص ٣٣ – ٣٤ من تعريب السيوفي « كانت صيدا فيما مضى مقر الباشا الحاكم ، وهي (اليوم) كسائر المدن الشرقيــة سيئة البناء وملأى انقاضاً وتشغل على شاطىء البحر بقعة من الأرض طولها نحو ستمئة قدم بعرض مئة وخمسين وفي طرفها إلى الجنوب حيث تعلو قليلاً ، أقــام (بل رمم) الدنكزلي الذي مر بنا ذكره حصنا يشرف على البحر والبر والمدينة » (١) .

وفي طرف المدينة الآخر شمالاً بغرب قلعــة مشيدة في وسط البحر تبعد ثمانين قدماً من البر المتصلة به باقواس ، والى جانبها غرباً صخرة بارزة فوق الماء طولها مئتا قدم ، فترسو السفن في المسافة التي ما بين الصخرة والقلعــة فذلك هو المرفأ .

وعلى الشاطىء بازاء المدينة حوض محوط برصيف خرب فذلك كان المرفأ فيما مضى... ولكن الأمير فخر الدين المعني أقدم على هدم جميع تلك المرافىء الصغيرة لأنه كان يخشى السفن التركية لأجل ذلك أغرق فيهــا مراكب وردمها بحجارة .

ما من سور يصون المدينة من جهة البحر ، ولا يكتنفها من جهــة البر إلا

حائط السجن .. ويأتيها الماء في مجار مكشوفة تردهـــا النساء ومنها ترتوي بساتين التوت وجنائن الليمون .

والتجارة هناك لا بأس فيها لأن المدينة هي البندر الأول لدمشق والبلاد الداخلية ، والاجانب المقيمون فيها جميعهم فرنسيون لهم فيها قنصل وخمس أو ست وكالات ، فيبتاعون الحرير والقطن المغزول وغـير المغزول ، وغزل القطن أهم الصنائع التي يتعاطاها سكان صيدا البالغ عددهم نحو خمسة آلاف .

واقعة صيدا والحارة سنة ١١٨٦ هـ

عندما انكسر الأمير يوسف والجيش اللبناني في واقعة النبطية - كفر رمان - خاف درويش باشا والي صيدا وفر الى دمشق وفر معه الشيخ علي جنبلاط برجالة الى البلاد (٢) .

وحين علم الشيخ ظاهر العمر وبني متوال ان مدينة صيدا خليت من الرجال أرسل الشيخ ظاهر متسلماً من قبله رجل مغربي يقال له أحمد آغا الدنكزلي كان له مدة في خدمته (٣) .

ولما بلغ عثمان باشا الكرجي والي الشام ما أظهره المتاولة من العصاوة أرسل اعرض الى الدولة العلية عن تملكهم الى مدينة صيدا ، فحضر خط شريف (أمر سلطاني) الى الامير يوسف في القيام الى الشيخ ظاهر العمر والمتاولة وان تكون ميري مدينة بيروت ومال ميري الجبل في تلك السنة له خرج عسكر (٤) .

وفي هذه السنة توفي عثمان باشا الكرجي في الشام فحضر الى الشام عثمان باشا المصري ساري عسكر على عرب بستان (٥) . وكتب الى الأمير يوسف يعرفه عن قدومه ، ثم أرسل يأمره أن يجمع العساكر على بني متوال وأرسل

اليه خليل باشا وزير كركوت سابقاً وكان يكنى الدالي خليل (أي المجنون خليل) لخفة في طبعه (٦) .

إلا أنه كان بطلاً في الحرب ، وحضر صحبته احمد بك الجزار وصحبتهم ألف خيال، ومعهم مدافع وزنبركات وذخيرة ، وفي وصولهم الى عين السوق التقاهم الامير يوسف بكل اكرام وجمع عساكر بلاده وساروا جميعاً الى حصار مدينة صيدا وكانت تنوف العساكر عن العشرين ألف فقاموا على حصار صيدا سبعة أيام وتضايق احمد آغا (الدنكزلي) من الحصار ، وفي أثناء ذلك رجع اكثر عسكر الدروز الى البلاد ، وكان عزم الدنكزلي أن يطلب الامان ويسلمهم مدينة صيدا ، فحضر في البحر خمسة غلايين (مراكب) مسكوب كبار وجملة قطع صغار الى مدينة عكا لأننا ذكرنا عن الكتابات التي أرسلوها علي بك والشيخ ظاهر العمر الى ملكة المسكوب فأرسلت لهم تلك المراكب (٧) .

وفي حال وصولهم الى مدينة صيدا ضربوا المحاصرين لها بالمدافع فرحلوا بالوطاق (العسكر) الى الحارة (حارة صيدا) وحضر الى الامير مراسلة من الشيخ ظاهر أن يرجع بعسكره الى جسر صيدا ليصير بينهما الاتفاق وان لم يقبل الامير نصحه تصل اليهم العساكر، فما قبل الامير يوسف الرجوع(٨).
ولما وصل الجواب الى الشيخ ظاهر سار بعسكره وعسكر المتاولة وجملة خيل من الغز الذين حضروا مع علي بك من مصر ، وكان عسكرهم ينوف عن العشرة آلاف (٩) .

وفي وصولهم الى براك التل الذي في أول سهل الغازية بالقرب من مدينة صيدا ، وعند الصباح في ٢٢ نوار تقابلوا العسكران في سهل الغازية (١٠) .

فضربت عساكر الدولة عساكر المتاولة والغز في المدافع والزنبركات وراح

منهم نحو ماية قتيل وهجم الدالي خليل والجزار على المتاولة فانكسر عسكر الدروز من خلف الدولة (١١) .

واقتحمت الغز على الدولة وفي أولهم علي بك الطنطاوي وهذا كان أشجع غز مصر ، ودام ضرب السيف مدة وجيزة فانكسر عسكر الدولة وقتل منهم نحو خمساية نفس (١٢) .

وكانت الدروز وهم راجعين يشلحون من الدولة الذي معهم ، وفي وصول الامير يوسف الى دير القمر جمع البعض من شلاح الدولة ورجعه لهم ، وتوجه الدالي خليل ومن معه الى الشام وكان قد فعل في تلك الواقعة أفعال تعجز عنها الشجعان ولولاه لم سلم من الدروز والدولة انسان، ووصل الى الشام وهو يذم الدروز على قبيح أعمالهم (١٣) .

. . .

أما صاحب أخبار الأعيان فيصف الواقعة في الطبعة الثانية من الكتاب بقوله « ولما وفد الشيخ ظاهر العمر الى سهل الصباغ فوق صيدا من جهة جبل عامل التقاه الامير بجيوشه وتقاتل الجيشان وثار القتال وانقسمت جيوش ظاهر العمر قسمين ، قسم رجّاله أتى على الجبل الذي ينفذ الى الحارة ، فالتقاهم قسم رجاله من عسكر الامير فزحف عليهم فأزاحهم من مواقفهم وقهقرهم » (١٤) .

وقسم فرسان اتى في السهل تحت ذلك الجبل فالتقاه فرسان الامير ، وخليل باشا وفرسانه فثار بينهم القتال وازدحمت الشجعان والابطال فتقدم خليل باشا وفرسانه وشددوا الحرب وتعاظم الطعن والضرب فأخذت الحمية علي بيك الطنطاوي مملوك علي بيك وغار على الوزير بفرسان الغز . واقتحم كتيبته وصال فيها حتى أدرك محل المدافع واختطف عمالها وفعلت باقي الفرسان الغز كفعاله وداروا في ذلك الجيش فمزقوه فانكسر حينئذ فرسان خليل باشا

وقهقروا من كان خلفهم من فرسان جبل لبنان (١٥) .

فانكسر الجميع ولحقهم الغز وأوسعوا فيهم القتل والسلب ، وعند كسرة الفرسان انكسرت الرجال ؟ ولم يزل الجميع منهزمين حتى ولجوا جبل لبنان ، وفر خليل باشا بمن معه الى دمشق وهلك من عسكره نحو خمسماية فارس ومن عسكر ظاهر العمر نحو ألف رجل (١٦) .

الهوامش والتعليقات

١ - وتبريراً للقول بان الدنكزلي رمم قلعة صيدا ولم ينشئها ، لاحظ ص١٠٣ من تاريخ صيدا للشيخ عارف الزين حيث يقول المؤلف نقلا عن رحلة كيران الفرنسي « وفي جنوب صيداء الحالية وعلى ذروة الربوة التي تعلو عن البلدة خمسة واربعين متراً .. قلعة تدعى (قلعة المعز) والمسيحيون يسمونها قلعة (القديس لويس) لأنهم ينسبون بناءها الأخير له » .

ثم لاحظ ص ٣٥٧ من (لبنان في التاريخ) قول الدكتور فيليب حتي « ولما أخذ لويس التاسع بترميم حصون (صيدا) وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التي كان الرومان والفنيقيون قد استعملوها في بناء تحصينات المدينة ، فاننا نجد مثلا اعمدة من حجر الغرانيت حمراء ورمادية اللون من مصر ، وفي الواقع أن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي أقامها الصليبيون لم تكن سوى ترميات أو اعادة بناء حصون وقلاع أقامها من سبقهم من الدول المتعاقبة » .

. . .

٢ - لاحظ أسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٧٦٥ من العرفان م ٨ ، و ص ٤٣ من اخبار الاعيان ج٢ من طبعة سنة ١٩٥٤ ثم ص٩٢ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ١ .

٣ - لاحظ أسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٧٦٦ من العرفان م ٨ ، ولبنان في عهد الامراء الشهابيين ص ٩٢ ونزهة الزمان في تاريخ لبنان ص ٨١١ ، ثم ص ٥٦ من العرفان م ٢٨ حيث يقول الركيني ما نصه «وفي خامس عشر شهر رجب من هذه السنة ١١٨٥ وصل الشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف الى صيدا ونهبوها وأحرقوا اقليم الخروب اجمع وأمروا الغز (بل المغاربة) أن يقيموا في صيدا » .

واذ يقول « وفي سادس شعبان من هذه السنة ١١٨٥ ركب ظاهر العمر الى رأس العين بعسكره وجردوا مشايخ المتاولة على الدروز فلم يركبوا الدروز وكاتبوا الشيخ ظاهر والشيخ ناصيف وتفرقوا العساكر » .

. . .

٤ - يلاحظ من أقوال المؤرخ الامير حيدر هنا ص ٩٢ - ٩٣ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين أن معركة النبطية - كفر رمان كانت هي العامل المباشر لاحتلال مدينة صيدا ، ولهذا كان غيظ الباشا عظيماً من عصيان المتاولة حين أرسل يعرض للدولة ما حصل بسببهم ، لترسل لامير لبنان « خطاً شريفاً » للقيام لحربهم وحرب حلفائهم ، وتجعل له لقاء ذلك مال ميري بيروت والجبل نفقة لعسكره .

وحين أرسل الباشا للامير يوسف يأمره يجمع العساكر على بني متوال ، ثم حين أرسل اليه خليل باشا واحمد الجزار مع ألف خيال ومدافع وزنبركات وذخيرة .

. . .

٥ - لاحظ هامش ص ١١٤ من تاريخ ظاهر العمر لمؤلفه مخائيل نقولا الصباغ حيث يقول الخوري قسطنطين الباشا في رده على القول بان الدالي خليل باشا قتل في واقعة صيدا اننا وجدنا في بعض المخطوطات والمراسلات ان عثمان باشا الوكيل أو الصادق قتل في ٢٣ جماد الأولى سنة ١١٨٥هـ و ١٧٧٢م ،

وجعل مكانه محمد باشا العظم حفيد ابراهيم باشا وابن اخت اسعد باشا » .

ثم لاحظ ص ٣٧٩ من المقتطف م٢٨ حيث يقول المؤرخ جرجي يني في رده على القول بان عثمان باشا المصري كان قد تعين والياً على الشام « يظهر من اسماء ولاة الشام المدرجة في سلنامة ولاية سورية أن صادق عثمان باشا تولى من سنة ١١٧٤ ، الى سنة ١١٨٤ هـ وخلفه محمد باشا العظم وليس عثمان باشا المصري» .

. . .

٦ – لعل اطلاق لقب المجنون على خليل باشا هذا لبراعته في الحرب والفروسية بحيث كان يغلب ولا يغلب أو لا يترك أخصامه يدرون من أين ينالونه، وفي ذلك ما فيه من مهارة وبراعة في لعب الجريد وتصريف السلاح واعنة الخيل ، ولم يكن اطلاق لقب مجنون عليه لانه مجنون ، ومثل ذلك كان يقال لعلي بيك الكبير (الجن علي) فلاحظ ص ١٩ من تاريخ علي بيك لمحمد رفعت رمضان .

٧ – لاحظ قول المؤلف ص ٩١ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين « بعد (فرار علي بيك من مصر) وحضوره الى مدينة عكا ، أرسل كتابات منه ومن الشيخ ظاهر العمر الى ملكة المسكوب ، وطلبوا منها الاسعاف على الدولة العثمانية ، وان ترسل لهم العساكر بالمراكب البحرية ليسلموها الاقطار المصرية » .

ثم لاحظ بعد ذلك قوله ص ٩٣ من الكتاب « وحضر الى الأمير طلب من الشيخ ظاهر أن يرجع بعسكره الى جسر صيدا ليصير بينهما الاتفاق ، فان طلب الشيخ ظاهر من الامير يوسف أن يتفقا ويصطلحا بعد أن جاءت المراكب المسكوبية وساعدتة على عسكر الدولة .. يتنافى مع القول بان ظاهر (وعلي بيك) طلبا من ملكة المسكوب أن ترسل لهما العساكر ليسلموها الاقطار المصرية أو مدن السواحل على ما أشاع الاخصام .

ثم اننا اذا لاحظنا قول الرحالة الفرنسي فولني ص٧٨ من تعريب السيوفي « ولما وصل علي بيك – في فراره من مصر – الى يافا جاء به ظاهر العمر الى عكا وانزله في قصره ، ثم سارا كلاهما لمحاربة الاتراك والدروز الذين كانوا ضاربين الحصار على صيدا » .

ثم قوله حرفياً « وكانت سفن روسية راسية في عكا للتموين ، منتهزة فرصة انتفاض الشيخ على الدولة ، فاتفق الشيخ مع ربابنتها على مؤازرته بدل مبلغ من المال قدره ست مئة كيس » .

فان في هذا القول – من رجل كفولني ينقل أخباره عن رواة لابسوا الحوادث وعاصروا معارك ظاهر مع الدولة – له دلالته الواضحة على أن مساعدة المراكب الروسية لظاهر إنما كانت بالاجرة لا بواسطة التحالف والعمالة مع الدولة المسكوبية ، وإلا لما أخذ منه قائد الاسطول اجرة مساعدته على الدولة العثمانية وحلفائها لانه حينئذ يكون يعمل لمصلحة دولته وعلى حسابها لا لمصلحة الشيخ ظاهر وحده وعلى حسابه .

على ان اتصال ظاهر العمر بقائد الاسطول الروسي لا يختلف في اهدافه ووسائله عن اتصال الامير يوسف شهاب به للاستعانة على اعدائه واعداء الروس ، فكل من ظاهر والامير يوسف كان يدفع لقائد الاسطول اجرة مساعداته له .

فكيف نعد ظاهر العمر حليفاً أو عميلاً للروس لانه استأجر اسطولهم ، ولا نعد الامير يوسف شهاب حليفاً أو عميلاً لروسيا يوم استأجر اسطولها لضرب مدينة بيروت وعسكر الجزار المعتصم بها ؟؟ مع أن مظاهر الصلة والوسائل والاهداف كانت واحدة ومتماثلة ؟؟

٨– ثم ان امتناع الامير يوسف عن تلبية طلب ظاهر العمر للصلح بينهم جميعاً يدل دلالة قاطعة على أن الامير اللبناني كان مسيراً لا مخيراً في سياسته

وحروبه مع المتاولة وظاهر العمر ، يتلقى الاوامر العليا من فوق وينفذها .

. . .

٩ - يقول فولني ص ٧٨ من تعريب السيوفي « وكان عدد جيش ظاهر العمر في واقعة صيدا سنة ١١٨٦ هـ يناهز ستة آلاف من صفديين ومتاولة وجميعهم فرسان ؟ وقد انضوى اليهم مماليك علي بيك الثاني مئة (فارس) ونحو ألف مغربي » .

وعليه فكم يكون عدد المجموع اذا ضممنا الى الفرسان المشاة من عسكر المتاولة وعسكر الشيخ ضاهر ؟؟

. . .

١٠ - لاحظ اسماء قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ص ٨٦٦ من العرفان م ٨ ، ثم ص ٤٥ من أخبار الاعيان ج٢ من طبعة سنة ١٩٥٤ حيث يجعل المؤرخان مكان المعركة في سهل الصباغ جنوب الطريق الواقعة بين قلعة صيدا البرية وقرية الحارة ، والارجح أن يكون عسكر ظاهر وعسكر المتاولة في هذه الواقعة قد اصطفا في السهل الواقع بين نهر سينيء ونهر البرغوث جنوب سهل الصباغ ، وان يكون عسكر الدولة وعسكر الدروز قد اصطفا في سهل الصباغ شمال نهر البرغوث وجنوب نهر القملة .

١١ - يلاحظ من قول المؤرخ الشهابي « ولما بلغ عثمان باشا والي الشام ما اظهره المتاولة من العصاوة ارسل اعرض الى الدولة العلية عن تملكهم الى مدينة صيدا فحضر خط شريف الى الامير يوسف في القيام الى الشيخ ظاهر العمر والمتاولة » ومن قوله « ثم ارسل باشا الشام يأمر الامير يوسف ان يجمع العساكر على بني متوال » .

ومن قوله « ولما وصل جواب الامير يوسف للشيخ ظاهر سار بعسكره وعسكر المتاولة وجملة خيل من الفز تقابل العسكران في سهل الغازية » .

ومن قوله « وضربت عساكر الدولة عساكر المناولة والغز في المدافع والزنبركات وراح منهم مابة قتيل » .

ومن قوله « وهجم الدالي خليل والجزار على المناولة فانكسر عسكر الدروز من خلف (عسكر) الدولة » .

يلاحظ من هذه الأقوال جملة وتفصيلا .. أن المناولة كانوا دائماً مدار المعركة وانهم كانوا أول المقصودين في هجوم عسكو الدولة وضرباته .

وعليه فكيف انكسر عسكر الدروز لا عسكر المناولة لذلك الهجوم ؟ مع ان الدروز كانوا مع عسكر الدالي خليل ومن خلفه لا في مقدمته ، وكان يجب أن تكون الكسرة والهزيمة – في مثل هذه الحال – للمناولة دون غيرهم لو أنهم كانوا من المقصرين عما يفرضه واجب الحرب والقتال ؟

ومع ذلك فان المؤرخ اللبناني يكاد يصر على أن الغز وحدهم هم الذين هجموا مع علي بيك الطنطاوي وأن عسكر الدولة إنما تضعضع وانكسر لذلك الهجوم؟ كأن المتاولة – وهم أكثر عدداً في هذه المعركة – لم يكونوا شركاء للغز في هجومهم على عسكر الدولة وكأن لم يكن للمتاولة وللصفدية أثر يذكر في ذلك الهجوم ؟؟

وليت شعري كيف يقال هجم الغز وحدهم على الدولة بقيادة علي بك الطنطاوي مع أن هجوم الدالي والجزار كان موجهاً على المتاولة حسب تعبير المؤرخ .

ثم لا أدري كيف يدوم ضرب السيف والحرب مدة طويلة أو قصيرة في المعركة ولا يكون للمتاولة موقف معلوم يذكرون فيه بالحمد أو بالذم ؟ وقد كانوا هم المقصودون في هجمات الدالي والجزار وعسكر الدولة .

وهل يمكن أن يكون المتاولة قد فروا من المعركة أو قصروا بما يفرضه عليهم واجب النخوة والحمية ثم يكون موقف مؤرخي لبنان والترك منهم

السكوت التام عن جبنهم وفرارهم في مثل هذه الحال ؟؟

على أن مؤرخي المتاولة اذا اعتمدنا على رواياتهم المشوبة بالجهل أحياناً والتحيز احياناً والاختزال دائماً – يقولون بقول السبيتي ص ٢٢ من العرفان م ٥ ، « وفي سنة ١١٨٦ هـ صارت الوقعة في صيدا بين المتاولة والدروز ، وقتل من الدروز ثلاثة آلاف ومن المتاولة خمسة عشر رجلاً وكان مع الدروز الدالي خليل والجزار » .

أو يقولون بقول حيدر رضا الركيني ص ٥٦ من العرفان م ٢٨ : « وفي سنة ١١٨٦ في شهر صفر رقد الشيخ ظاهر العمر على عين الذهب ثم قطع جسر خردلة الى بلاد الشقيف لملاقاة عسكر المتاولة الى حرب الأمير يوسف الى ارض صيدا ، وجاءت المراكب في البحر لملاقاتهم . وفي يوم الخميس يوم تاسع ربيع أول من هذه السنة صارت وقعة عظيمة بين الشيخ ظاهر العمر ومشايخ البشارية وبين الدروز والامير يوسف بن ملحم شهاب ، وقتل من الدروز فوق الألف وخمسماية رجل وكان الوجه للبشارية والشيخ ظاهر العمر والغز ، (عسكر المماليك) وأخذوا مدافع الدروز والدولة والدالي خليل باشا وغنموا منهم غنيمة عظيمة » .

. . .

ومما يلفت النظر هنا أن ترى المؤرخين اللبنانيين دائماً – حين يروون أو يترجمون هزائم اللبنانيين – يحاولون أن يبهموا صورة تلك الهزائم ويطمسوا معالمها أو يخلقوا لها الأسباب المهونة والمبررات التي يتلاشى ازاءها عار الهزيمة ومسؤولية المحاربين والقادة عن الخسائر المادية والمعنوية ، ثم أن تراهم دائماً لا يشيرون في أي هزيمة لغير الدروز من عسكر الأمير كان لم يكن غير الدروز مع الامير في تلك المعارك ليحملوهم وحدهم عار الهزيمة وذل الانكسار ؟؟

. . .

١٢ – لاحظ ص ٩٣ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، و ص ٨١٢ من نزهة الزمان في تاريخ لبنان حيث يقول المؤلف « ان عدد القتلى من المتاولة ، والغز نحو ماية قتيل ، ومن عسكر الدولة نحو خمساية نفس » في حين أن الشدياق يقول ص ٤٥ من أخبار الأعيان « بان عدد القتلى من عسكر ظاهر (بما فيهم المتاولة) نحو ألف رجل ، ومن عسكر خليل باشا نحو خمساية فارس » فبأي القولين نأخذ ؟؟

. . .

١٣ – لاحظ ص٩٢ من لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ج١ ، ثم ص٨١١ من نزهة الزمان ج٢ من تأليف الامير حيدر .

. . .

١٤ – لاحظ ص ٤٥ من أخبار الأعيان ج٢ من الطبعة الثانية سنة ١٩٥٤ حيث يظهر هنا أن في الكلام تلاعباً مقصوداً ، وذلك للفرق بين نص قولهم في هذه الطبعة ، ونص ما يرويه المؤرخ الثقة الشيخ سليمان ظاهر في مجلة العرفان لسنة ١٩٢٣ على النحو التالي :

« وانقسمت جيوش ظاهر قسمين قسم الرجالة صعد الجبل الذي ينفذ الى الحارة ، فالتقاه رجالة الامير فزحف عليهم فأزاحهم عن مواقفهم وقهرهم » .

لاحظ اسماء قرى جبل عامل ص ٧٦٦ من العرفان م ٨ . ثم لاحظ أن نص العبارة الاولى التي ضبطها الخازن سنة ١٩٥٤ يدل على أن رجالة الامير يوسف هم الذين أزاحوا رجالة ظاهر العمر والمتاولة عن مواقفهم وقهقروهم ، مع ان رجالة ظاهر العمر والمتاولة كانوا مهاجمين والمهاجمون لا مواقف لهم ليتقهقروا عنها؟ وان نص العبارة الثانية التي رواها الشيخ سليمان ظاهر في العرفان سنة ١٩٢٣ تدل على عكس ذلك وتوضح أن قسم رجالة ظاهر العمر (من المتاولة والمغاربة) هم الذين أزاحوا رجالة الأمير يوسف عن مواقفهم

وقهروهم ، وهذا المعنى أقرب الى الواقع ذلك بأن رجالة ظاهر والمتاولـة كانوا هم المهاجمون والمهاجمون لا يكون لهم مواقف ليزاحوا عنها، وإنما تكون المواقف للمدافعين وهم رجالة الأمير الذين وقفوا عند مرتفعات جبل الحارة، وعليه فـــان مدى الفرق واضح فيما ورد في طبعة سنة ١٨٥٩ وطبعة سنة ١٩٥٤ ، وبين ما رواه الشيخ سليمان ظاهر ص ٧٦٦ من العرفان م ٨ .

. . .

١٥ ـ لاحظ ص٤٥ من اخبار الاعيان ج٢ من الطبعة التي ضبطها الاستاذ منير وهيبة الخازن سنة ١٩٥٤ ثم ص ٩٣ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين، ولاحظ ان من المعروف لدى المؤرخين ان صاحب اخبـار الاعيان كان ينقل أخبار الحوادث التي سبقت عصره عن تاريخ الامير حيدر احمد شهاب، ثم لاحظ بعد ذلك مدى الاختلاف بين عبارة الشدياق وعبارة الامير حيدر ، أو بين الصورتين ، حيث يقول الشدياق « ان انكسار فرسان خليــل باشا هو الذي سبب انكسار فرسان لبنــان الذين كانوا خلفهم » ؟ بينما يقول الامير حيدر « ان انكسار فرسان لبنان انمـــا حصل عند هجوم الدالي خليل ، وقبل اقتحام الفز وعلي بك الطنطاوي على عسكر الدولة وتشريده » .

. . .

١٦ ـ لاحظ ص ٤٤ ـ ٤٥ من اخبار الأعيان من طبعة سنة ١٩٥٤ ثم لاحظ ص ٨٠ من رحلة فولني ج٢ من تعريب السيوفي حيث يقول عن المعركة « ففي أقل من ساعة من الزمن خلا السهل من المحاربين ، وقد اكتفى الحلفاء بهذا النصر المبين فلم يجدوا في أثر المنهزمين » .

أو لاحظ قول الأمير حيدر ص ٨١١ من نزهة الزمان عمـا فعله الدروز بالجيش المنهزم « وكانت الدروز وهم راجعين ؟ يشلحون من عسكر الدولـة الذي معهم » ثم قوله « ورجع خليـــل باشا الى الشام وهو يذم الدروز على قبيح أعمالهم » .

لاحظ هذه الأقوال المتناقضة ثم ابحث عما هو أقرب الى الصحة والصدق.

-٢-

واقعة صيدا والحارة كما وصفها الرحالة فولني

يقول فولني ص ٧٨ من الرحلة تعريب السيوفي ما مضمونه « ولما حاول مشايخ نابلس قطع الطريق على علي بك - لدى فراره من مصر الى فلسطين - سار الشيخ ظاهر الى نابلس وأنزل العقاب بالعصاة والمتمردين (١) ولما وصل علي بك الى يافا جاء به ظاهر الى عكا فأنزله في قصره ثم سارا لمحاربة الأتراك الذين كانوا ضاربين الحصار على صيدا » (٢).

ثم يقول بعد هذا بدون فاصل وبالنص الحرفي « وكانت ست سفن روسية راسية في عكا للتموين منتهزة فرصة انتفاض الشيخ على الدولة فاتفق الشيخ مع ربابنتها على مؤازرته بدل مبلغ من المال قدره ست مئة كيس. وكان عدد رجال جيشه آنئذ يناهز ستة آلاف من صفديين ومتاولة وجميعهم فرسان، وقد انضوى اليهم مماليك علي بك الثاني مئة ونحو الف رجل مغربي.

واما الأتراك والدروز فعددهم كان عشرة آلاف فارس، فهؤلاء ما ان علموا باقتراب العدو حتى فكوا الحصار عن صيدا، ورحلوا الى مكان واقع شمالي المدينة، وانتظروا هناك قدوم الشيخ لمنازلته في معركة فاصلة (٣).

فالمعركة المنتظرة جرت في اليوم التالي، وقد اتبع فيها أسلوب حرب لم يكن مألوفاً من قبل في تلك البلاد، فالجيش المصري اصطف صفاً واحداً من شاطىء البحر حتى سفح الجبل (٤).

وأما العقال فانهم اتخذوا موقعاً ما بين سياج الصبار والخنادق التي كانوا حفروها ليمنعوا بها خروج السكان من المدينة.

وكان الفرسان متجمعين في السهل من غير أن يتقيدوا بنظام، وقد نصب

الاتراك في السهل عدة مدافع ، قطر بعضها اثنتا عشرة اصبعاً وقطر البعض الآخر اربع وعشرون ، وكانت المرة الوحيدة التي استعملت فيها المدافع في الاراضي المنبسطة في تلك الانحاء .

ووقف الدروز عند أسفل المرتفعات وعلى منحدراتها لا متاريس أمامهم ولا مدافع معهم ، وسلاحهم البنادق فقط (٥) .

وأما رجال الشيخ ظاهر فانهم ألفوا جبهة مستطيلة ، وحاولوا ان يشغلوا من ذلك السهل بقعة لا تقل اتساعاً عن المكان الذي وقف فيه الأتراك ، فجناحهم الأيمن كان مؤلفاً من رجال ناصيف والمغاربة ، وكان عليهم صد الدروز ، وجعل الجناح الأيسر الذي بقيادة علي ابن الشيخ ظاهر (٦) مقابل العقال من غير ان يستند الى شيء ، لكنه اعتمد على السفن الروسية التي كانت تمخر في اتجاه ذلك الميدان مقتربة من الشاطىء .

وكان في الوسط العثماني مئة مملوك ووراءهم علي بك والشيخ ظاهر البطل الصنديد الذي كان يشحذ بحديثه حماس رجاله !

وقد ابتدأت المعركة عندما أطلقت السفن الروسية بعض القنابل على العقال الذين بادروا في الحال الى الانسحاب من موقعهم ، فجماعة الفرسان التي أخذت تتقدم ، بلغت مكاناً يبعد نحو غلوة من المدافع التركية ، فالمماليك الذين كانوا يتقدمون شوقاً لاظهار ما اشتهر عنهم من الشجاعة والاقدام هجموا كالليوث على العدو ، فجرأتهم ألقت الرعب في قلوب المدفعيين الذين عندما رأوا أنفسهم وهم على الاقدام بين صفين من الجياد ، لا متاريس تحميهم ، ولا جنود مشاة يسندونهم أطلقوا بسرعة بعض القنابل ثم تركوا مواقعهم ولاذوا بالفرار (٧) .

فالمماليك الذين لم يصبهم ضرر كبير من تلك القنابل ، اجتازوا بسرعة البرق بالمكان المنصوبة فيه المدافع، وهجموا هجوماً صادقاً على فرق العدو فلم تطل المقاومة ، بل سادت الفوضى ودب الاضطراب في صفوف العدو ، ولم

يعد أحد منهم يعرف ما يجب عمله ، او يلتفت الى ما يجري حوله ، فلأجل ذلك كان الميل فيهم الى الفرار أقوى منه الى القتـال . وكان أول من انهزم الوزراء معطين المثل ، وفي الحال اقتدى بهم الآخرون (٨) .

فالدروز الذين لم يكن تأييدهم للاتراك عن رغبة كبيرة او نفس طيبة ما ان رأوا فرار هؤلاء حتى ارتدوا على أعقابهم متغلغلين في الجبال (٩) .

ففي أقل من ساعـــة من الزمن خلا السهل من المحاربين . وقد اكتفى الحلفاء بهذا النصر المبين فلم يجدّوا في أثر المنهزمين (١٠ .

الهوامش والتعليقات

١ – لاحظ ص ٧٨ من الرحلة ج ١ من تعريب السيوفي ثم لاحظ ص ٥٦ من العرفان م ٢٨ حيث يقول الركيني: «وهلّ شهر المحرم في هذه السنة ١١٨٦هـ يوم الخامس والعشرين من آذار وكان أوله الخميس وفيما بين ذي الحجة وهلال شهر محرم سافر الشيخ ناصيف الى جبـــل نابلس هو والشيخ ظاهر العمر ، وذكروا أنه صارت فيها بينهم وبين النابلسي وقعة ، مما يشعر بأن المتاولة كانوا مع الشيخ ظاهر في معركة نابلس ، هذه

• • •

٢ – لاحظ ص ١٨٧ من تاريخ علي بك الكبير لمحمد رفعت رمضان حيث يقول « عندما علم (علي بك) بتهديد العثمانيين لصيدا بادر هو وحليفـه الى ارسال جيش مشترك من المماليـــك وعلى رأسهم علي بك الطنطاوي ، والصفديين والمتاولة وعلى رأسهم صليبي بن ظاهر العمر والشيخ كريم (الأيوب) صهره ، ممـــا يشعر بأن علي بك والشيخ ظاهر لم يحضرا بنفسهما الى معركة صيدا ، او انه لحق بهذا الجيش بعد ذلك مع جيش آخر كما يبدو من اشارة الركيني الى ان ظاهر مر بطريقه الى صيـــدا على عين الذهب وجسر خردلة ، يومئذ .

٣ – لاحظ هنا ما رويناه من قول الامير حيدر حيث يجعل عدد مجموع جيش الدولة والدروز ينوف عن العشرين الف ، لا عشرة آلاف ! وحيث يقول بأن المحاصرين لصيدا لم ينفكوا عن حصارها إلا عند ضرب الاسطول الروسي لمواقعهم لا لمجرد علمهم باقتراب جيش الحلفاء منها ، وحيث يقول انهم إنما رحلوا عن مواقعهم الى قرية الحارة شرقي صيدا لا الى شمالها .

• • •

٤ – ولكنه لا يدري أي جبل يقصده فولني هنا أراد الجبل الذي تقوم عليه قلعة صيدا البرية التي كان الدنكزلي ومغاربته متحصناً بها أم الجبل الذي يعلو قرية الحارة ؟

• • •

٥ – هل هناك فرق بين العقال وبين الدروز ليجعل لهم في كلامه موقفين موقفاً حول قلعة صيدا وموقفاً عند مرتفعات قرية الحارة ، ثم هل كان لدى أخصام الدروز مدافع أو متاريس تحميهم؟ ليعلل بها سبب تغلبهم على الدروز أو ليخفف بها عن الدروز عار الهزيمة ؟

• • •

٦ – ويلاحظ ان المؤلف او المترجم هنا قد جعل الصفدية جيشاً بقيادة الشيخ علي الظاهر ، في حين جعل المتاولة في جملة رجال الشيخ ظاهر العمر دون ان يسمي لهم قائداً يقودهم من المتاولة ، فهل يعتبر هذا منه تجاهلاً لشأن المتاولة كحلفاء او تجاهلاً لأثرهم في المعركة كأخصام للدولة لا كأتباع لظاهر لعمر ؟ مع أن الدوافع التي دفعت الامير يوسف ورجال الدولة تدل على أن المتاولة كانوا أول المقصودين بتلك الحملة من عسكر الدولة ومن حكامها ؟؟

• • •

٧ – يلاحظ أن المؤرخين الشهابي والشدياق يقدران للدالي خليل وفرسانه

موقفاً جريئاً لامعاً في المعركة وانه لولاه لم يسلم أحد من الجيش اللبناني في حين نرى المؤلف او المترجم هنا يتجاهل موقف الدالي وأثره في المعركة كما تجاهل أثر المتاولة والصفدية في هذه الحملة

ثم ان المؤرخين يصرحان بأنه وقع ماية قتيل من المتاولة والفز في حين انك ترى المؤلف او المترجم هنا ينفي أن يكون قد أصاب المماليك ضرر من المدافع التي أطلقها الاتراك على أخصامهم .

. . .

٨ – كيف تلائم هنا بين قول المؤلف « بأن الوزراء كانوا أول من انهزم في معركة صيدا ثم اقتدى بهم الآخرون » وبين قول بقية المؤرخين عن موقف الدالي خليل باشا « وانه لولاه لم يسلم أحد من جيش اللبنانيين ومن جيش الدولة » .

. . .

٩ – ثم كيف تلائم بين قول الرحالة فولني هذا وبين قول المؤرخ المعاصر الذي يقول « وهجم الدالي خليل والجزار على المتاولة فانكسر عسكر الدروز من خلف الدولة .

. . .

١٠ – لاحظ ص ٧٨ – ٨٠ من رحلة فولني تعريب حبيب السيوفي .

مع أقوال شاهد عيان

يقول العلامة الشيخ أحمد رضا « كنت مذ انا يافع اسمع بعض الشيوخ الطاعنين في السن يذكرون شاعراً صفدياً يسمى شناعة ويذكرون له قصيدتين من الشعر الزجلي نظمها في الحرب التى اثارها الأمير يوسف الشهابي على الشيعة (المتاولة) في جبل عامل وكان شاهد عيان وكثيراً ما كانوا يتلون على مسمعي قليلاً من ابياتها » .

وقد عثرت في هذه المدة القريبة على مخطوط قديم فيـــه هاتان القصيدتان وصاحب هذا المخطوط ضنين به فعملت على استنساخهما خدمة للتاريـــخ ، وكانت القصيدة الثانية منهما في معركة صيدا التي استقرت بعدهـــا وبسببها قدم الشيخ ظاهر في صيدا ، فعرضت ما تدل عليه القصيدة من اخبـــار حرية بالذكر .

ما يستفاد من قصيدة شناعة المريحي

يقول الشيخ أحمد « أن شناعة المريحي الصفدي – وكان من شعراء الشيخ ظاهر العمر في اواخر القرن الثاني عشر الهجري – يذكر في قصيدته الحرب التي وقعت بين الشيخ ظاهر العمر وحلفائه الشيخ ناصيف النصار والشيخ علي الفارس من ابناء جبل عامل (؟) من جهة ، والأمير يوسف الشهابي وجنـــد الحكومة التركية من الجهة الثانية في سهل صيدا وبسببها استولى الشيخ ظاهر على صيدا سنة ١١٨٦ هـ .

« كان العسكر المحارب مع أمير الشوف والدالي خليل والجزار ، مؤلفاً من شوفيين وبعلبكيين وغز وأكراد وكان الغز والاكراد مـــع الدالي خليل والجزار وأمير العسكر كله الأمير يوسف وكانت الغاية من هذه الحرب أن يملكوا صيدا وبلاد بشارة (جبل عامل)ويستفاد هذا من قوله » :

يقول المريحي من ضمـــيرو ... بيوت من الذكا فيها نباها (١)
على ما صار في بيوت القوافي ... معاني يطرب الفاهم نباها (٢)
ويذكر وقعةً صارت بصيدا ... جموع ومالهـــا حدٌ تراهـــا
من الشوف العريض ومن بعلبك ... جراد قد غشا البيدا تراها (٣)
لفـــا الجزار والدالي معـــاهم ... كراد وغز ما نفهم لغاها (٤)
ولا نعرف كواخي من أمارا ... ولا نعرف توابع من لقاهـــا
دروز وغز والباقي معـــاهم ... كراد رجال ما يدرو الوجاها

(١) نباهة ، (٢) خبرها ، (٣) تراها ، (٤) الدالي خليل واحمد بك الجزار .

عقيد الكل مير الشوف يوسف   بقومو سار للحارا وجاهـــا
وقال اليوم نملك باب صيدا   ونملـــك ديرة بشارا معاهـا

« وكان العسكر المحارب في جانب الشيـخ ظاهر في أول الأمر مشايخ المتاولة وحدهم تحت قيادة الشيخ ناصيف النصار ويستفاد هـــذا من قوله » :

حتم ناصيف (١) بالجيري وزمزم   برب البيت والمختار طاهـــا
مزالي (٢) جاذب السرعين بيدي   بلادي ما أحد غيري يطاهـا
ونبه عارجالو مـــع ابطالو   أسود الحرب يا مصعب لقاها

« وإن امراء العسكر هم محمود النصار اخو ناصيف وعباس المحمد وعباس العلي وقاسم المراد ابناء عمه وأبناء واكد من اسرته والشيخ علي الفارس الصعبي زعيم العشيرة الصعبية وفي ذلك يقول » :

حلف محمود (٣) بالدين المعظم   ورب العرش وآل ياسين طاهـا
مزالي ناقلاً للرمـــح بيدي   بـــني متوال في عز وجاها
علي الفارس (٤) تفرّس بالفضائل   بلادو من العدى دوما حماهـــا
علي الفـــارس مقدم بالفوارس   ونار الحرب مضطرمي لظاها
وقاسم (٥) سِترها يوم الهيازع   إذا شح الندى قاسم نداهـــا
وعباس المحمد (٦) كان حاضر ؟   برمحو جال في الهيجا وجاها
وعباس العلي (٧) ذيب المثـالي   اخـــو شيري بنيرانو حماهـا
مشاعيل الطراد ولاد واكد (٨)   على خيل غدت عنهـــا فِلاها

---

(١) ناصيف بن نصار النصار الجد الثالث لكامل بك الاسعد والجيري ما في جوار الكعبة من المقامات المقدسة ، (٢) ما زلت ، (٣) محمود النصار اخو ناصيف (٤) علي الفارس الجد الثالث لحسين بك الدرويش ، (٥) قاسم المراد من عشيرة ناصيف (٦) حاكم صور ، (٧) الجد الرابع لمحمدبك الثامر (؟) (٨) من عشيرة ناصيف .

« وكانت مهاجمة هذه الحملة على غير علم سابق عند الشيخ ظاهر وحلفائه فلما زحفت على البلاد تلقاها هؤلاء القواد وعلى رأسهم ناصيف النصار وارسلوا صوتاً الى الشيخ ظاهر فجاء هذا بعسكره يقوده ولداه علي وعثمان ثم اسعد واحد ، والظاهر انهما ولداه ايضا او هما من ابناء عمه ؟؟ » ويقول شناعة :

عفـــا يوم لفا الصوات صايح	أتو من كل فج مـــن فلاها
فتـــاهم كل داحول* غشمشم	حماة الصور بو محمد فتاهـــا
لفوا وخيولهم ترعـد براشم	ضياغم بالوغى ترعف قناهـــا
ودزوا صايحا للشيخ ظاهر (١)	ابو فـــراج كم شدي جلاهـــا
رقى بالسيف عـــاتخت المعالي	بجاهو ارخصت عليـــا جلاهـــا
لفا في عزوتو تتبـــع جنابو	اسود ومن ظهر ظاهر نشاها (٢)
بواب البخـــل سكرها وفتّح	بواب الجود والزخرة نشاها (٣)
علي الضيغمي (٤) والليث الادرع	تراه عالعدي يزعق ورهـــا
علي هزبر الخيلين سيـــدي	على قلب العدى زنادو وراهـــا
وعثمان (٥) السخي واسعد واحد	سيوف الحرب ما تحمل صداها

« وكان في القواد كريم الايوب وابو ناصر صليبي وهما من العامليين (؟) وصالح نصر » ، ويقول شناعة :

ابا ناصر صليبي لا عـــدمتو	عند الموزمي وحدو دحاها (٦)
كريّم مثـــل بو زيد الهلالي	وصالح نصر والحايم عشاها (٧)

« ثم ان الزعامة كانت للشيخ ظاهر وانه فاوض العدو في الصلح فلم يقبل فثار للحرب » (؟) :

---

* الداحول شديد القوة ،

(١) الشيخ ظاهر العمر الزيداني حليفهم .

(٢) عزوته جماعته واتباعه ونشأها نشأتها ، (٣) الزخرة طعام العسكر وعتاده ، (٤) علي ابن الشيخ ظاهر ، (٥) عثمان ابن الشيخ ظاهر (٦) صليبي من عشيرة الشيخ ناصيف النصار (؟) والموزمة الشدة ، (٧) كريم الايوب من كواخي الشيخ ناصيف (؟) والحايم عشاها اي انها من السباع آكلة اللحوم ويريد باللحايم جمع لحمة .

قروم يركبوا عوج النواصي		وصاحوا عالعدى فاتت عشاها
وضرغام الجميع الكل ظاهر		صبر عالامر حتى ان تناها
ودز العلم لا ابنـــاء عمو		اتونـــا بالمحارب والمهاها (١)

« وبعد ان توافق العسكر ان للحرب وكان عسكر الامير اكثر عـــددا وعدة عمل العامليون على المكيدة لالقاء الرعب في قلوب عدوهم » .

قيل ان احد الفدائيين منهم دخل عسكر الامير بصورة سائل غريب وفي الليل غافل الحراس ودخل خيمة الامير من ظهرها ووضع الخنجر فوق رأس الامير ثم خرج من حيث دخل فاحس بعض الحراس بالحركة فكفأ الفدائي على نفسه احدى القدور الكبيرة المطروحة الى جانب الخيمة ولمـــا خف الطلب تسلل الفدائي الى معسكره فبلغه سالما وارتاع الامير وحاشيته لذلك (؟) .

(وقيل ايضا) :

ان الشيخ عليا الفارس سار في ظلمة الليل بفرسانه متسللين حتى اجتمعوا في نقطة معينة اتفقوا عليها واتخذوا لهم علامة يتعارفون بها ثم تفرقوا مـــن وراء عسكر الامير في نقط مخصوصة واطلق كل واحد منهم طلقا واحدا من بندقيته وضرب ضربة واحدة من كان امامه بسيفه وانسلوا راجعين واختبط العسكر في الظلام ظانا ان هجوما مدبراً باغتهم في الليل فاخذ بعضهم يضرب بعضا وسرى الفشـــل في صفوفهم ، وفي الصبـــاح اشتـــدت المعركة وثارت الثائرة وعلت النائرة وكانت النصرة للعامليين وحليفهم الشيخ ظاهر وانهزم الدالي ورجع الامير الى قصره ، اما شناعة فيقول :

فـكانت خيلنا خيلين صارت		على المصباح جمهور عفاها (٢)
عليق الخيل بايت بالمخـالي		ولا تقطع من المسرى عشاهـا
على المصباح صفّوهـــا صفوفاً		وعجّين الحروبي (٣) والمهاها

(١) دز ارسل والمهاها اصوات النخوة والحرب ، (٢) عفاهـا من قول العـامة عفا عليك اي عافاك الله . (٣) الحروبي نشيد الحرب .

« ولعل في هذا إشارة إلى حملة الشيخ علي الفارس إلى ما وراء عسكر الأمير » (؟):

فهونيك انتدب محمود ربعو — عيال الصور* يا اخوان هاها (١)
حرام ان العدو يبات فيها — ولا الجزار بعينو يراها
وعاد الجنك من ذولي وذولي — غراب البين قوتهم سفاها (٢)
وعاد الزنبرك للجو ثائر — وضرب الطبل يرعد من حذاها (٣)
فها ذي عاودت راحت جنيبه — واخرى قوطرت حملت حذاها (٤)
وهذي صابها سهم المنايا — وذيك الرمح نافذ في حشاها
عليهم حامت طيور المنايا — من العقبان تبغي لا كلاها (٥)
وداليهم غدا والغز راحوا — وكلمن قال نفسي لا سواها (٦)
ومير الشوف قوطر عا السرايا — وخلى الدار تنعى من بناها (٧)
جموع البغي ولوا في هزايم — كالأغنام لو ذيب اتاها
وبعد القول صلوا عا محمد — نبي الله عزوا قد تناها (٨)

الهوامش والتعليقات

- ١ -

يقول العلامة الشيخ أحمد رضا « ويستفاد من الأبيات التالية لهذا البيت »:

حتم ناصيف بالجيري وزمزم — برب البيت والمختار طاها

أن العسكر المحارب في جانب الشيخ ظاهر كان في أول الأمر مشايخ المتاولة وحدهم تحت قيادة الشيخ ناصيف » .

*حماة الحريم (١) هاها اقدموا، (٢) الجنك الحروب وسفاها فرقها واطارها، (٣) حذاها جانبها، (٤) حذاها نعلها وقوطرت رجعت، (٥) لأكلها، (٦) داليهم الدالي خليل قائد عسكر الدولة، (٧) قوطر رجع، (٨) هي اما تناها اي بلغ شأواً بعيدا من الرفعة الى النهاية . او ثناها بأبدال التاء من الثاء اي جعلها ثانية لانها النصرة الثانية في بحر سنة واحدة بعد واقعة النبطية كفررمان . والى هنا ينتهي قول الشيخ وتعليقاته ضمنا وطل الهامش .

مع انه إذا لاحظنا أقوال المؤرخين الذين تعرضوا لواقعة صيدا نرام جميعاً يصرحون بان حصار عسكر الدولة وعسكر الامير يوسف لصيدا ظل أسبوعاً كاملاً قبل أن يأتي أحد من المتاولة أو من الصفدية أو الغز للدفاع عنها وعن المحاصرين فيها من رجال ظاهر والدنكزلي ، وبان عسكر المتاولة والصفدية والغز (المماليك) انما جاءوا معاً وفي وقت واحد ، ولهـذا استطاعوا أن ينظموا صفوفهم ويحددوا لكل منهم مكانه من المعركة على ما يصورها الرحالة فولني ، والمعلم طنوس الشدياق ، وغيرهما .

فالقول بان المتاولة وحدهم هم أول من حارب في صيدا مع ظاهر العمر ، قول فيه نظر وخصوصاً حين يكون من وحي شاعر زجلي كشناعة المريحي ؟؟

-٢-

ثم يقول الشيخ « بان عباس العلي هو ابن عم الشيخ ناصيف النصار ، ثم بانه هو الجد الرابع لمحمد بك الثامر ؟؟ مع أن الشيخ عباس العلي - كما يتضح من النصوص التاريخية - هو من اعلام آل منكر (أو منقر) ومن حكام اقليم الشومر وصاحب قلعة ميس ، وأن كلا من ناصيف النصار أو محمد بك الثامر ، هما من آل الصغير ، وليس بين الاسرتين روابط قبليـة » ، فآل منكر ينتمون إلى قيس بن عاصم المنقري التميمي سيد أهـل الوبر - وآل الصغير ينتمون إلى بكر وائل التغلبي ؟؟ والصواب المؤيد بالنصوص أن الشيخ عباس المحمد حاكم صور ، هو ابن عم الشيخ ناصيف النصار ، وهو كذلك الجد الرابع لمحمد بك الثامر .

-٣-

ثم يقول الشيخ .. « ويستفاد من الابيات التي تلي هذين البيتين :

عفا يوم لفا الصوات صايح   أتوا من كل فج من فلاها
ودزوا صايحاً للشيخ ظاهر ..   ابو فراج كم شدي جلاها

ان مهاجمة حملة الامير يوسف كانت على غير علم سابق عند ظاهر وحلفائه فلما زحفت تلقاها قواد المتاولة وارسلوا صواتا للشيخ ظاهر .. »

وملاحظتنا على هـــذا القول بانه لا يجوز الشك بان قادة الحلفاء كانوا يتراسلون ويتبادلون الرأي في هذه الحوادث والظروف ، ولكن اجتماع قوى الاعداء في صيدا فجأة كان يضطر كل من المتاولة والصفدية والمماليك ان لا يتقدم احد منهم على الآخر او ينفرد في مهاجمة عسكر الاعداء ومقابلتهم وذلك لعدم تكافؤ القوى .

لهذا نستغرب ان يسترسل الشخ في تبرير كل ما توهمه الشاعر والمح اليه ، او ان يعتقد بان شناعة المريحي كان فيما نظمه من الشعر يهمه ان يصور المعركة على حقيقتها ، او ان يرسم انطباعاته الخاصة عنها ويسلسل حوادثها ومراحلها بالدقة العلمية بقـدر ما كان يهمه من النظم ان يمدح اولئك القادة وان يصور الحوادث ويعرضها كما يجري بـه الخيال وسياق الكلام او كما تفرضه المناسبة والزلفى الى من يطمع بنوالهم وعطفهم من سادة القوم وقادتهم ، ولو كان فيما صوره ورسمه مخالفا للواقع او مشوشا لتسلسل حوادثه ومراحله ، كما يبـدو للقارىء من الابيات التي اطمأن الشيخ الى فحواها حين قال في تفسيرها «وكانت مهاجمة هذه الحملة على غير علم سابق عند الشيخ ظاهر وحلفائه فلما زحفت على البلاد تلقاها هؤلاء القواد وارسلوا صواتا للشيخ ظاهر » .

- ٤ -

ثم يقول الشيخ في التعقيب على هذه الابيات :

وعثمان السخي واسعد واحمـد ... سيوف الحرب ما تحمل صداها
ابا ناصر صليبي لا عـــد متو ... عند الموزمي وحدو دحاهـا
كرّيم مثل بو زيـــد الهلالي ... وصالح نصر ، ولحايم عشاهـا

يقول .. « والظاهر ان اسعد واحمد هما من اولاد الشيخ ظاهر العمر ،

او هما من ابناء عمه ، وان صليبي من عشيرة الشيخ ناصيف النصار ، وان كريم الايوب من كواخي الشيخ ناصيف ، وانهما – صليبي وكريم – من العــــامليين » .

مع ان المؤرخين لظاهر العمر ولحليفه علي بك الكبير يصرحون بان صليبي هو ابن الشيخ ظاهر العمر . وكان قائــد جيشه في معركة الصالحية سنة ١١٨٧ هـ وقد قتل فيها كما يبد من ملاحظة ص ١٩٣ – ١٩٦ من تاريخ علي بك ، ومن قول المؤرخ حيدر رضا الركيني ص ١٥٨ من العرفان م ٢٨ « وفي شهر صفر من سنة ١١٨٧ هـ ركبت العساكر من مصر مع محمد بك أبي الذهب الى علي بك الى الصالحية وقتلوه وقتلوا صليبة بن الشيخ ظاهر العمر » ثم ان كريم الايوب هو ابن عم الشيخ ظاهر وصهره وقائد جيشه في معركة يافا يوم حاصرها ابو الذهب سنة ١١٨٩ وقــد قتل او مات بسببها كما ينص على ذلك مؤلف تاريخ ظاهر ص ١٤٣ من مؤلفه .

ثم يصرح المؤرخون كذلك بانــه كان للشيخ ظاهر العمر ثمانية اولاد من الذكور هم صليبي ، وعثمان ، واحمد ، وعلي ، وسعيد ، وصالح ، وسعد الدين ، وعباس كما يبدو من ملاحظة ص ١٥٢ من تاريخ علي بك الكبير لمحمــد رفعت رمضان .

ثم ان شارح القصيدة ليعلم ان الشاعر لدى الضرورة وخصوصا الشاعر الزجلي قد يتصرف بصيغة اللفظ في شعره كما يشاء او كما توجبه المحافظة على الوزن والقافية .

وعليه فاستبدال لفظ سعد او سعيد ، بأسعد كما قد يكون فعل شناعة في هذه القصيدة ليس ببعيد عن الافتراض والتقدير .

- ٥ -

ان من يراجع تاريخ معركة صيدا سنة ١١٨٦ يعرف ان الزعامة على جيش

الحلفاء كانت للشيخ ظاهر العمر ، وانه هو الذي دعا الامير يوسف شهاب للصلح ولما لم يقبل الامير سار ظاهر لحربه ، اما ان يشعر القاريء ويعرف هذا المعنى من نص قصيدة شناعة هـذه - كما تصور الشيخ - فذلك فوق طاقة الالفاظ والمعاني التي تألفت منها القصيدة او تألف منها هـذا البيت مصدر الالتباس والوهم :

وضرغام الجميع الكل ظاهر صبر عالامر حتى ان تناها

- ٦ -

اما هذه المكيدة التي عزاها الشيخ لبعض الفدائيين من المتاولة فلا يكاد الفكر يدرك محلها من الفاظ القصيدة التي اهتم الشيخ في شرحها وتوضيح مميزاتها التاريخية عن بقية ما نص عليه التاريخ والمؤرخون من خصائص الواقعة ، بل لا يكاد المرء يفهم ما معنـاها كمكيدة ؟ وما اثرهـا في الحرب الا اذا تصور ان رجال الامير يوسف كانوا على غـاية من الغفـلة او البله ؟ وان خيمة الامير كانت من ملحقات المطبخ ومستودعات القدور والاطعمة ؟؟ او ان وضع الخنجر فوق رأس الامير وهو نائم كان من شأنه ان يشل حركة جيشه وقادته ويرهق اعصابهم جزعا وخوفا ؟؟ .

واما المكيدة الثانية « التي انسل فيها الشيخ علي الفارس برجاله ليلا الى ما وراء عسكر الامير وضرب كل منهم ضربته في العسكر ثم عادوا في جنح الظلام فاختبط عسكر الاعداء واخذ بعضهم يضرب بعضا » .

فقد قرأنا في تاريخ ظاهر العمر ما ينسبه المؤلف من امثالها للشيخ علي بن الشيخ ظاهر العمر في معاركه مع عثمان باشا وخصوصا في معركة الحولة. وطالما سمعنا في النجف عن حذق (المشاهدة) في الحرب واستعمالهم مثل هذه المكيدة التي تنسب للشيخ علي الفارس ، فاطمئنان شارح القصيدة الى روايتها عطفا على رواية المكيدة الاولى .. لا يتفق مع علمه بما رواه الشيخ سليمان ظاهر ص٧٦٦

من العرفان م ٨ ، والمعلم طنوس الشدياق ش ٤٥ من اخبار الاعيان من « ان رجال المتاولة صعدوا نهارا الى الجبل المطل على حارة صيدا وازاحوا رجّالة الامير يوسف عن مواقفهم وقهروهم » .

ثم أن الشاعر يقول في الابيات التي استشهد فيها الشيخ على واقـــع هذه الاسطورة :

« فكانت خيلنا خيلين صارت على المصباح جمهور عفاهـــا
على المصباح صفوها صفوفـــاً وعجّين الحروبي والمهاهـــا »

فان قول الشاعر أن خيل المتاولة صفوها على المصباح وسارت كذلك على المصباح وهي تنشد الاناشيد الحربية والحماسية بملء أصواتها يتنافى مع القول بتسلل عسكر الشيخ علي الفارس في ظلمة الليل إلى معسكر الاعداء وهم على غفلة ؟؟ كما تنص الاسطورة ، ثم اني لا أدري أي الاسطورتـــين أطرف خيالاً . أهذه الاسطورة أم تلك التي تروي ص ١٣٣ من تاريخ جبل عامل على هذا النحو :

« واجتمع في النبطية قواد الشيعة وحكام المقاطعات وعزموا على مداهمـة العدو ليلاً والفتك به فاختاروا من رجالهم خمسماية فارس ولفوا حوافـــر خيولهم باللبـــاد لكي لا يسمع لسنابكها صوت عنـد المسير ، ودهموا عسكر العدو في ضاحية صيدا قرب قرية الحارة ، وكانوا يحاصرون المدينة . فاحاطت خيل الشيعة بهم في ليلة حالكة السواد وهم نيـــام فاصلوهم ناراً حامية فهبوا مذعورين يفتك بعضهم ببعض واختلط الحابـل بالنابل لشدة الظلام » .

وليت شعري لماذا نلجأ إلى الاحلام والاخيـلة في اظهار بطولاتنا ما دام في المؤرخين اللامعـــين من يقول « بان جيوش ظاهر العمر – وفي طليعتهم المتاولة – انقسمت قسمين : قسم الرجالة صعد – نهار الثلاثاء – الجبـــل

الذي ينفذ الى الحارة فالتقاه رجالة الامير يوسف فزحف عليهم فازاحهم عن مواقفهم وقهرهم ، . وهـل يبعد عن الظن بان يكون هذا القسم من الرجالة هو من المتاولة ؟ وبان يكون قائده هو الشيخ علي الفارس الذي حيكت الاسطورة لأجله ؟؟ ذلك بأن المتاولة أعرف بطرق بلادهم ومنافذها الستراتيجية من غيرهم ثم أولى بأن يقودوا رجالهم اليها في مثل هذه الأحوال .؟

-٧-

ثم يلاحظ بعد – انه كان لعلي بك الطنطاوي وعسكره من الفز أثر بالغ في ربح المعركة على ما يقول المؤرخون فلماذا تجاهل الشاعر ذلك في قصيدته كما تجاهل موقف خليل باشا والجزار وعساكر الدولة وأثرهم في المعركة أيضاً ؟؟ واقتصر فيما نظمه على مدح مشايخ المتاولة ومشايخ آل الظاهر ، فلو كان من هم الشاعر أن يصور ملابسات الواقعة وفصولها على نحو يقربها من منهج التاريخ لما تجاهل مكان أولئك وهؤلاء من هذه المعركة التاريخية التي اختتمت بها حروب الدروز ضد المتاولة ..

- ٨ -

ثم أن المتمعن في قراءة هذه القصيدة لا بد له من أن يلاحظ انها لم تسلم بمجموعها من تلاعب النساخ وفضول الزجالين بعد وفاة الناظم ، لهذا أهملنا من أبياتها ما تكرر معناه وما ظهر فيه اللغو والفضول وخلا من المعاني التي يحسن السكوت عليها ، فعلى من يرغب في الاطلاع على مجموع القصيدة كما رواها العلامة رضا أن يراجعها ص ١٩٤ – ٢٠١ من مجلة الكلية البيروتية لسنة ١٩٢٩ في المجلد الخامس عشر .

خلاصة القول

من خلال القرائن والنصوص يبدو للباحث عن واقعة صيدا أن عثمان باشا والي الشام – بعد انكسار عسكر الامير يوسف في واقعة كفررمان واحتلال

الشيخ ظاهر العمر والمتاولة لمدينة صيدا.. أرسل تقريراً للدولة يشعرها بخطر الموقف ، فأرسلت أمراً سلطانياً للامير يوسف بجمع العساكر والحملة على بلاد المتاولة والشيخ ظاهر ،ثم أرسلت له جيشاً من الفرسان بقيادة الدالي خليل باشا ومعه الجزار وكمية من المدافع والزنبركات والذخيرة وسار الجميع إلى جسر صيدا ثم أرسلوا عسكراً من الدروز لحصار صيدا من جنوب قلعة المعز الفاطمي البرية إلى شرقي بوابة الشاكرية ، وظل الحصار سبعة أيام وفي اثنائها تراسل مشايخ المتاولة وأرسلوا إعلاماً للشيخ ظاهر العمر بما يجري في بلادهم ،وجمعوا رجالهم والتقى الجميع ظاهر والمتاولة في اليوم السابع عند براك التل جنوب نهر الزهراني وكان مع عسكر الشيخ ظاهر العمر ثمانماية خيال من مماليك علي بك الكبير بقيادة علي بك الطنطاوي ومعهم الف راجل من المغاربة ،وقبل شن الهجوم أرسل ظاهر للأمير يوسف أن يرجع بعسكره عن حصار صيدا إلى جسر الأولي ليتفاوضوا معه في الصلح فلم يقبل الأمير ،وكانت المراكب الروسية التي استأجرها ظاهر العمر قد أحاطت بصيدا من الجنوب والشمال وضربت المحاصرين لهـــا فتقهقروا عنها الى مرتفعات الحارة والنبي يحيى .

وفي صباح اليوم الثامن او التاسع من الحصار تقدمت جيوش الحلفــاء نحو السهل الواقع جنوب نهر البرغوث واصطفوا من البحر حتى الجبل المشرف على سهل صيدا ، والتف قسم من عسكر المشاة – وطبعاً كانوا من المتاولة لأنهم أعرف من غيرهم بطرق بلادهم ومخارجها – الى خلف جبل قريــة الحارة ثم انحدروا نحو عسكر الدروز فأزاحوهم عن مواقفهم وشردوا جموعهم، والتقت الفرسان في السهل وأطلقت مدافع الدولة على المتــاولة والغز فقتل منهم نحو ماية قتيل،وهجم الدالي خليل والجزار بفرسان الدولة فالتقتهم خيل الحلفاء وفي طليعتهم علي بك الطنطاوي ، فانكسرت خيـــل الدولة وعسكر اللبنانيين وانهزموا شر هزيمة ، بحيث لم نسمع بعدها ان الدروز او اللبنانيين قد هاجموا بلاد المتاولة الى يومنا هــــذا ، إلا ما كان من تعدي العصابات الدرزية التي تسللت الى نصارى جباع وما جاورها من القرى سنة ١٨٦٠ .

ملاحظات وأخبار متفرقة من يوميات الركيني وغيره

من حوادث سنة ١١٣٦ هـ

يقول الركيني: في شهر المحرم من هذه السنة توفي باشة صيدا، وفي يوم اسبوعه قتل أحمد لطفه في مدينة صيدا، وقاتله الدروز .

ومن حوادث سنة ١١٦٣

يروي الشيخ سليمان ظاهر ص ٥٢٦ من العرفان م ٨ : ان الشيخ ظاهر بن نصار النصار من آل الصغير جدد بناء قلعة دوَبيه ، ولما تم بناءها وصعد الى أعلاها ليشرف على مناظرها سقط الى الارض فقضى نحبه ، وكان ذلك في سنة ١١٦٣ هـ .

بينما يروي الركيني عن هذه الحادثة ما نصه : « وفي سنة (١١٦٤) نزل القضاء والقدر من الواحد القهار بوقعة الشيخ ظاهر وذلك في قلعة دوَبيه ، وكانت وفاته ليلة الأحد الرابع عشر من ربيع الأول وفي التاسع من شباط ، وفي هذه السنة شرعوا في عمارة الصور وبناء القلع » .

* * *

ثم يقول بعد ذلك « وفي سنة ١١٦٥ هـ كانت بداة الشيخ عباس في عمارة الصور في شهر جمادى الاول » .

مع ان السبيتي يقول : « وسنة ١١٦٣ شرعوا في عمارة القلع في تبنين ، وهونين ، ودوبيه ، وشمع ؛ واقتسموا البلاد فكانت لعباس صور ، ولناصيف تبنين ، ولقبلان هونين » ثم يسكت عن شمع ودوبيه .

من حوادث سنة ١١٦٦ هـ

وفي هذه السنة ركبت خيل واكد [حاكم مقاطعة شمع] وناصيف على عرب القنيطرة ، وبعد يومين من هذا الركوب أعني يوم الثلاثاء خامس عشر جماد الاول ركب الشيخ قبلان الى حاصبيا لمواجهة الامير ملحم بن شهاب ، وفي هذه السنة حسبنا مقدار عمري (عمر المؤلف) فوجدناه (٤٣ سنة) وأنا العبد الفقير الى الله الغني حيدر رضا بن علي رضا الركيني » .

* * *

« وفي هذه السنة (١١٦٦) يوم السبت ٢٤ من جماد الآخر ركب الشيخ قبلان والشيخ عباس على عرب مرج رميش ونهبوهم نهبة عظيمة وصادف ذلك في ١٦ نيسان وخربت البلاد » .

وهذا الحادث يشعرنا بأن مرج رميش كان ارضاً مشاعاً وان قرية رميش لم تكن عامرة حتى ذلك الوقت .

من حوادث سنة ١١٦٨

في هذه السنة يوم الجمعة ثامن عشرة من شعبان ركب الشيخ عباس والشيخ ناصيف الى شريعة مندور فغنموا (من) اهلها وقتلوا منهم قدر عشرين رجلاً .

من حوادث سنة ١١٦٩

وفي هذه السنة في شهر ربيع آخر ركب اخو الشيخ ناصيف وأخو الشيخ قبلان الى الشام ، وفيها عزلت العظام - ويقصد الولاة من آل العظم - من

صيدا والشام ، وجاءت الباشوية الى كواخيهم حسين بك بن مكي الى الشام ، وموسى كاخيا الى صيدا ، وفيها رفع الامير ملحم بن الشهاب من حكم الشوف وحكم موضعه اخوته الامير أحمد والأمير منصور .

من حوادث سنة ١١٧١ هـ

وفي هذه السنة في ليلة الجمعة ثاني شهر المحرم توفي الشيخ حسين [و] يحيى ولدا الشيخ قبلان في يوم واحد .

ثم يقول السبيتي : وفيها جاء اسعد باشا العظم الى رأس العين فنهب وحرق قرايا الساحل .

من حوادث سنة ١١٧٢ هـ

وفي هذه السنة سجنوا الحاج حيدر أبي بشير وولديه محمد وحسين في البئر ، ومات الحاج حيدر وولده محمد ، وقلعوا عيني حسين في قلعة الشقيف . وفي شهر ذي القعدة توفي الحاج محمد عيسى منكر [1] .

من حوادث سنة ١١٧٣ هـ

وفي هذه السنة (١١٧٣) في الرابع عشر من محرم ركب العسكر من بلاد بشارة الى بلاد صفد على النوابلسي ، وفيها توفي الشيخ محمد العلي قدس الله روحه ونور ضريحه ، (ولعله اخو عباس العلي) ؟ ونشعر من هذه العبارة انه كان من العلماء والفضلاء الاتقياء .

من حوادث سنة ١١٧٤ هـ

وفي هذه السنة في سادس عشر ربيع آخر توفي الشيخ نصرالله بن بن حسن نصار (ولعله اخو الشيخ قبلان الحسن صاحب مقاطعة هونين) ، وفيها يوم الاحد سادس عشر ذي الحجة توفي الشيخ حيدر بن حسن حرب رحمه الله .

---

(٢) لاحظ ص ٥٢٥ - ٥٢٧ من العرفان م ٢٧ في كل ما تقدم من حوادث .

من حوادث سنة ١١٧٥ ﻫ

وفي هذه السنة توفي الحاج علي سليمان بن ابي صعب عاشر جماد اول

من حوادث سنة ١١٧٦ ﻫ

وفي هذه السنة توفي الامير احمد بن صبيح (ولكن المؤرخ لم يذكر في أي مكان توفي وفي أي مكان نشأ) . وفيها توفي الشيخ واكد (صاحب قلعة شمع) في الرابع والعشرين من شهر رمضان [١] .

اشتراك الأدب في حوادث سنة ١١٨٠ ﻫ

يقول العلامة صاحب أعيان الشيعة – لدى عرضه لشعر الشيخ ابراهيم الحاريصي وللقصيدة التي تضمنت هذه الأبيات في مدح ناصيف ورجاله :

وافى بها في يوم تربيخا وقد … جاست خيول الدارعين خلالها
طافوا عليها بالصوارم والقنا … فكأنهم قطع الغمام حيالها
فسطا ونادى لا فرار فأدبرت … تلك الجموع ونالها ما نالها

يقول «ومن شعر الحاريصي الذي عارض فيه معاصره الشيخ عبد الحليم النابلسي قصيدة في ممدوحه الشيخ ناصيف النصار يصف بها ايقاعه باعراب مرج ابن عامر من الصقر والحوارث ، لما استنجد به الشيخ ظاهر العمر عليهما بعد ما هزموه في سخنين فأنجده عليهم فبددوهم وقاتلوهم قتالاً عظيماً حتى شردوهم ونفوهم الى خارج فلسطين .

واستنجد به يوم (قاقون) فأنجده ، ثم جرى خلاف بين ظاهر العمر وناصيف على قرية البصّة التي كانت تابعة لجبل عامل فاعتدى عليها ظاهر وجرت لاجلها وقعة (دولاب) (١) فانتصر ناصيف على ظاهر وأسره بعد ما

---

(١) لاحظ ص ٦٢٦ من العرفان م ٢٧ .

أمكن الرمح من صدره ، وعفا عنه وأنزله عن فرسه المعروفة بالبريصة - تصغير برصاء - ثم أعادها له وقال : لا حاجة لنا بالبريصه بعد ما رجعت لنا البصيصه »

الهوامش والتعليقات

(١) لاحظ ص ٩٠ من أعيان الشيعة ج ٥ ، ثم لاحظ ص ١٣١ - ١٣٢ من مخطوطة خنجر بك الصعبي حفيد الشيخ علي الفارس حيث يسجل في آخرها تاريخ القصيدة بسنة ١١٨٠ للهجرة ، وحيث يقول على الهامش ما نصه : « الدولاب مكان في ارض تربيخا » . هذا ولدى مراجعة الاستاذ محمد فقيه - وهو من شباب تربيخا المثقفين - وسؤاله عن مكان الدولاب من أرض قريته التي نشأ فيها قال : « في الجنوب الشرقي من تربيخا منبسط في رأس الجبل يسمّى (محلة شقيف الدولاب) يحده من الجنوب قطعة ارض تسمى الجروّي ومن الشمال خربة صروح الفوقا ، ومن الغرب الكسار ، ومن الشرق طريق عام .

أما القول بأن الشيخ ناصيف قد أسر الشيخ ظاهر العمر في واقعة تربيخا والدولاب ، وأنه أمكن الرمح من صدره ، وأنه قال - حين رد لظاهر العمر فرسه البرصاء - « لا حاجة لنا بالبريصه بعد ما رجعت لنا البصيصه » ، فموضع للشك إذ لا دليل تاريخي صريح يبرر هذه المزاعم ويقربها من الواقع سوى مبالغة المتأخرين في إرسال الكلام على هواهنه رداً على مبالغات مثلها يدعيها غيرهم فيذهبون الى ان الشيخ ظاهر العمر قد تغلّب على الشيخ ناصيف النصار في واقعة الدولاب وتربيخا وأسر أبناءه وألجأه الى ان يصالحه في عكا ، كما يزعم المؤرخ مخائيل نقولا الصباغ في تاريخ ظاهر العمر .

ومما يزيدنا شكاً بهذه المزاعم ... أن انتصار المتاولة في واقعة الدولاب وتربيخا كما يعزى للشيخ ناصيف النصار يعزى كذلك للشيخ علي الفارس الصعبي ، وذلك حيث يقول الشيخ ابراهيم يحيى في مدح الشيخ علي الفارس :

وما أنسى لا أنساه في موقف الردى فريداً ينادي من يجيب المناديا[1]
فثار اليه الجيش من كل جانب فلست ترى إلا سيوفاً عواريا
فحكّم فيهم سمهرياً تخاله شهاباً على جمع الشياطين هاويا
فلست ترى إلا قتيلاً وهارباً ومنجدلاً يشكو الجراح وعانيا
وأقلقهم وقع الحسام فأسلموا عتاق المذاكي والرماح العواليا
وأرسل كلٌّ نفسه في تنوفة يجوب الفيافي وادياً ثم واديا
رأوا من سيوف الهند بحراً وأصبحوا يدورون في الدولاب شعثاً ظواميا
وأعجب شيء انهم بعد ما غفت عيون المنايا يطلبون المذاكيا
أقول لهم هلاّ صبرتم على الردى ونحّيتمُ عنها ليوثاً ضواريا ؟
ألا فاحبسوا ريح العناء فإنه زناد اذا ما ثار ينصاع واريا
ومن سل سيف البغي راح بحدّه قتيلاً وشر الناس من كان باغيا
فلو نطق العدل الذي تدّعونه لكان بكم عن ذلك العدل ناهيا
ألا يا عليّ القدر والهمة التي رأينا بها السبع الطباق ثمانيا
ليهنك عيد الفطر ان هلاله أنار من الأفراح ما كان داجيا[2]

أو حيث يقول الشيخ ابراهيم الحاريصي من قصيدته في مدح الشيخ علي الفارس الصعبي وفي تمجيد مواقفه الباسلة في معركة الدولاب وتربيخا :

له يوم تربيخا على الخصم غارة تكاد بها شم الجبال تفطّر
أحاط بها الأقوام من كل جانب وللحقد أبدوا والضغائن اظهروا
وداروا بها شرقاً وغرباً وأقبلوا بعسكر بغي لا يباريه عسكر
فلما دنا أن يأخذوها ولم يكن لكانها شيء سوى الله ينصر
أتاهم عليٌّ في كماة أعدّها ليوم الوغى كلٌّ على الموت يجسر

---

(١) يبدو من هذا القول ان الشيخ علي الفارس كان أول من توسط الميدان ودعا البراز ، وأن جموع ظاهر العمر هبوا هبة واحدة للقتال وكان ما كان من انتصاره عليهم .
(٢) لاحظ ص ١٣١ – ١٣٢ من مخطوطة خنجر بك الصعبي حفيد الممدوح .

سباع الى كسب المعالي تسابقوا … محجّلة أيامهم ليس تنكر..
فمذ أبصر الأعدا بريق صفاحه … تولّوا على أعقابهم ثم أدبروا
وعافوا هناك الخيل والبيض والقنا … ولم يطلبوا إلا النجاة فقصّروا
وحاق بهم سوء العذاب فأصبحوا … على الارض صرعى منهم الدم يقطر
هم جرّدوا سيفاً من البغي قاطعاً … فلم ينجهم منه دلاص ومغفر
سل الوعر عنهم كيف سالت دماءهم … عليه وفي أكنافه كيف بعثروا
وكيف انثنوا والسيف يفري رقابهم
وكيف عرتهم دهشة فتحيروا
فيا لك يوماً ظلت الخيل طوله … صياماً تلوك اللجم والسيف مفطر
بدولاب غادرت الكماة على الثرى … ومنهم جريح هارب ومعفّر
وأيتمت أطفالاً وأيّمت نسوة … هناك ولولا الوعر لم ينج مخبر
وإبتَ بحمد الله للحي سالماً … تقود المذاكي هكذا كان عنتر
فلا برحت أيامك الغرّ ما همى … سحاب وما جنّ الدجى وهو مقمر[1]

* * *

ثم حيث يقول بعد ذلك في مدحه وتهنئته :

أسد تعرفه أسد الشرى … حين نار الحرب ترمي بالشرار
أربط الفرسان جأشاً إن سطى … ما ابن قيس عنده ما ذو الخمار
كم تلقى لليالي حادثاً … أنسيتم يوم من تبنين غار ؟
فوق طِرفٍ ذي نشاط أمه … من بنات الريح مأمون العثار
أعوجيُّ ليس ينجو سالماً … هاربٌ منه ولو في الجو طار
وبيمناه صقيل مرهف … في طلا أقرانه ماضي الغرار
عاين الموت عياناً قد دنا … فتلقاه ونادى : لا فرار

(١) لاحظ ص ص ٣١٢ - ٣١٤ من مخطوطة خنجر بك الصعبي حفيد الممدوح الشيخ علي الفارس ، ثم ص ٩٩ ج ٥ من أعيان الشيعة ط ٢ .

أخذته هــزّة صعبيــة غــيرةً منه على تلك الديار
أبصر الدولاب منه وقفـة يومها في جنح ليــل من غبار
والمذاكي بالروابي أقبلت شزّباً تعــدو وللأقوام ثار
والقضا ألقى مناجيق الردى للفريقين وما نادى حــذار
والعلى بالنفس في سوق الوغى سلعــة ليس لشاريهــا خيار
لو ترى كيف علياً عندها سلّ هنــدياً أبوه ذو الفقار
والتقى الحتف بثغر باسم وبروعٍ ثابتٍ في الرّوع فــار
ومشى مشية زيد الخيل لا وانياً ، يطربه وقع الشفــار
أوقف الخيل ونادى ها هنا منتهى الفخر لمن رام الفخــار
يا لها من وقفــةٍ ما مثلها وقفــة تنمي لمروان الحمار
خالس الارواح فيها فانثنى كاسب الحمد وللخصم البوار (١)

من حوادث سنة ١١٨١

وفي هذه السنة ؛ في السادس من شهر ربيع الأول صار بين الكاخيــة وخيل الشيخ عباس وقعة قتل فيها من الفريقين نحو عشر رجــال ، منهم الحاج علي عجمي ، وعلي حسين ، وعلي نصار ، وفي شهر صفر نزل الكاخية ابراك التل يطلب الميره ، وفي شهر ربيع آخر نقل الامير حيدر الحرفوش من بلاد بعلبك إلى بلاد بشارة وسكن في عيــناثا ، وفي هذه السنه توفي الشيخ جابر العلي في قلعة ميس، وفيها توفي الشيخ ابراهيم الجابر في ٢٣ رمضان وفيها عمرت قرية مرج أرميش (٢) .

---

(١) لاحظ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ من المخطوطة ، ثم لاحظ ان ما تضمنته هذه القصائد الثلاث يوضح ويؤكد انه كان لغارة الشيخ علي الفارس وصموده وشجاعته الاثر البالغ في انتصار المتاولة على فرسان ظاهر ورجاله وانه هو الذي ربح المعركة وكان السبب لانهزام الصفدية لا الشيخ ناصيف النصار كما يبدو من القصيدة الهائية في مدحه ومدح مواقفه في تربيخا والدولاب وما شاكلها ؟!

(٢) لاحظ ص ٧٣٥ - ٧٣٦ من العرفان م ٢٧ .

على أن صاحب أخبار الاعيـان يقول « أن منصور الشدياق مدبر الأمير قاسم شهاب قد أخذ رسالة توصية منه إلى شيخ مقاطعـات بلاد بشارة في سنة ١٧٥٩ م و ١١٧٣ هـ ورحل إلى عين إبل وسكن مع أقاربه مدة فيها ثم انتقل إلى قرية رميش واستأجر هنـاك أرضاً للزرع ؛ ثم في سنة ١٧٦٣ م و ١١٧٧ هـ كتب اليه الأمير قاسم كتاباً يستدعيه إلى خدمتـه وأرسل له أربع عشرة خلعة ليخلعها على وجوه تلك القرية عند عودتـه إلى خدمة الامير » . لاحظ ص ٢٣٣ من اخبار الاعيان طبعة سنة ١٩٥٤ م ثم لاحظ أن هذه الرواية تدل على أن تعمير قرية رميش كان قبـل المدة التي حددها الركيني .

من حوادث سنة ١١٨٢ هـ

وفيها في ١٧ جماد أول صار عرس أولاد حيدر الفارس في قلعـة بلاد الشقيف ؛ وفي شهر رجب كان عرس أولاد واكد ؛ والشيخ عبـاس وأولاد حمد وحسين ؛ وفي هذه السنة تزوج الشيخ عمر الحمد ، وحمزه المحمد ، والشيخ ابراهيم الحسن (أخو الشيخ قبلان) وفيها سادس شهر رجب قتـل موسى شقير في الميدان في صور ، وقاتله فارس حمية ؛

وفي ٢٧ شوال توفي الشيخ حسين بن اسماعيل فارس ؛ وتوفي الحاج موسى نصار في ذي القعدة ؛

من حوادث سنة ١١٨٣

وفي هذه السنة نزل أهل (قلعـة) مارون إلى صور أجمع ؛ وفي ١٢ من شهر محرم توفي الشيخ حسن حلاوة نور الله ضريحة ؛ وفيه رحل الشيخ حمزة من صور إلى حاريص ؛ وفيها تزوج عقيل ولد الشيخ ناصيف وقاسم المراد ؛ وفيها يوم الاثنين الثاني عشر من شعبان صار بين حمزة بن علي منصور وبـين الدروز هوشه وقوّسوه وقتل من الدروز اثنين ، وهو سلم من القواسة ؛ وفيها توفي الحاج حسين جابر والشيخ ابراهيم الحمادي في شهر واحد .

من حوادث سنة ١١٨٤هـ

وفيها توفي العالم الفاضل المؤمن الاجل الشيخ حسن سليمان قدس الله روحه ونور ضريحه [١] وفيها سافر الحاج سليمان جابر الى زيارة الحسين عليه السلام .

من حوادث سنة ١١٨٥ هـ

وفيها ركب الشيخ ناصيف والشيخ حمزة وخيل علي الفارس وخيل قبلان إلى عكا حين سافر الشيخ مقبل إلى مكة في ربيع آخر ،

وفيها رابع رجب ركب ظاهر العمر إلى رأس العين وجاءوا الغز في البحر عشرون مركباً وصلوا إلى حد صور وضربوا المدافع ؟؟

وفيها في يوم الخميس رابع عشر شعبان توفي الشيخ ابراهيم الحاريصي ؛ وتوفي الشيخ عبدالله سليمان قدس الله روحه ،

وفي ص ٩٢ من لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، يقول المؤلف « وفي هذه السنة (١١٨٥) حضر الشيخ كليب نكد (بعد وقعة كفررمان) إلى قرية برجي وصار بينه وبين المتاولة شرّ (حرب) في قرية علمان (شمال نهر الاولي) فهزمهم ومنعهم عن الحضور إلى اقليم الخروب .

ولكن المؤلف لم يذكر لنا شيئاً عن أحوال أولئك المتاولة الذين هزمهم الشيخ كليب ولا عن مستوى قوتهم وعددهم وعلاقتهم بمشايخ المتاولة يومئذ؟؟ فان اهمال هذا التحديد يدعو إلى الشك بقيمة هذه المعركة الجانبية إذا صح انها معركة ، وإلى الشك باثرها على صمود المتاولة في هذه الفترة لكل عدوان على بلادهم مهما يكن مصدره .

---

(١) لاحظ ص ٨١٤ - ٨١٥ من العرفان م ٢٧ ؛

من حوادث سنة ١١٨٦

وفيها في ١٦ جماد ثاني كبس الشيخ فارس قرية ابل واخذ عجالها وقتل فيها ١٥ رجلاً ، وقتل عبد من عبيده اسمه زيتون ، وقتل الحاج حسين علّيق ، وفي ليلة ٢٥ من رجب صار صوت فاجتمع العسكر في ثغرة عديسة ، ثم تفرق برواح الامير اسماعيل شهاب الى عند الشيخ ظاهر العمر [1] .

من حوادث سنة ١١٨٧ ھ

وفيها قتلوا صليبه بن الشيخ ظاهر العمر وعلي بك الكبير في الصالحية وما سلم من عسكرهم إلا الشريد طويـــل العمر ؛ وفي ٢٦ من صفر توفي الشيخ عباس بن الشيخ محمد نصار تغمده الله برحمتــه ، وفي ٢٠ من شهر ربيع الأول توفي المرحوم المبرور الشيخ علي منصور ، وفي ٢٢ من رجب ركب الشيـخ صيف إلى جمعية الدروز بواد من صيدا ،

من حوادث سنة ١١٨٨ ھ

وفيها توفي محمد البدوي بن عباس العـــلي في ٦ محرم وفي سنة ٦ ربيـع الثاني سافر الزوار مع الشيخ مقبل (اخو الشيخ قبلان) : وفي ٢٤ من ذي الحجة توفي الشيخ ابراهيم بن حسن حرب [2] .

من حوادث سنة ١١٨٩ ھ

وفيها – قبل أن يحتل حسن باشا مدينة عكا – سافر الشيخ قبلان في ٨ من شهر جماد ثاني الى الشام لمواجهة محمد باشا العظم باشة الشام ، ووصل الى

---

(١) لاحظ ص ٥٤ – ٥٦ من العرفان م ٢٨ :

(٢) لاحظ ص ١٥٨ – ١٥٩ من العرفان م ٢٨ .

جسر بنات يعقوب ووقع الجنك (الحرب) وقواس المدافع من البحر على من في عكا ، وفي ٢٥ من جماد ثاني بلغنا خبر قتل الشيخ ظاهر العمر وهو خارج من المدينة ، ودخل باشة الشام الى عكا ، وفي ٢٥ من شهر رجب توفي الشيخ علي فارس بن أحمد فارس الى رحمة الله وانه توفي في قلعة تبنين ، لانه كان في مواجهة محمد باشا العظم في بلاد صفد باشة الشام المحروسة وباشة صيـــدا ، لأنها كانت خطرة معكوسة ومنحوسة . وفي يوم عـــلي فارس توفي الشيخ ابراهيم بن محمد حرب . وفي ذي الحجة توفي الشيـخ فارس بن علي فارس[1] .



صورة المؤلف

(١) لاحظ ص ٢٥٥ – ١٥٦ من العرفان م ٢٨ يوميات الركيني .

الفهرس

الموضوع	صفحة
متى حكم المعنيون في جبل عامل ؟	١٨٢
فخر الدين المعني وأثره في بعث القومية	١٩٩
مظاهر السياسة العاملية في عهد المعنيين	٢١٢
قصة علي الصغير مع الشكرية	٢٢٤
حصار قلعة الشقيف سنة ١٠٢٢ هـ	٢٥٨
أخبار متفرقة	٢٦٥
واقعة أنصار سنة ١٠٤٨ هـ	٢٦٩
مقتل علي بن علي الصغير واولاده سنة ١٠٧٢ هـ	٢٧٣
واقعة النبطية سنة ١٠٧٧ هـ	٢٧٤
واقعة وادي الحبيس بقيادة الحاج زين	٢٧٨
همسة لا بد منها	٢٨١
أخبار متفرقة	٢٨٣
مظاهر الادب العاملي في العهد المعني	٢٨٨
التحريف آفة الوثائق التاريخية	٣٠٦
المكابرة آفة العلم والتاريخ	٣٠٩
المتاولة في عهد الشهابيين	
الأسر الاقطاعية في جبل عامل	٣١٩
قصة مشرف بن علي الصغير والامير بشير الاول	٣٢٢
التاريخ لا يهمه سوى الحقيقة	٣٤٧
المتسلم أبو هرموش قبل واقعة النبطية وبعدها	٣٥٢
من الحوادث العاملية	٣٥٩
اعتقال الشيخ نصار بن علي الصغير سنة ١٠٤٤ هـ	٣٦٣
مقتل الشيخ أحمد الفارس وأولاده سنة ١٠٥٢ هـ	٣٦٩

الحق لا يعرف صداقة ولا عداوة. ولذا كان على الباحث النزيه أن يتحلل في أبحاثه وأحكامه من أثر العواطف على نفسه، ليخلص في ذلك للحق والجمال الذي ينشده، وينصف صديقه وعدوه، وإلا كان مغرضاً في أحكامه، شاكاً في مثله العليا. وإنني بوازع من هذه النية، وبدافع من هذا الاعتقاد أتوجه للبحث متحمساً لإبداء رأيي، لا أخاف في إطراء ما يستحق الاطراء أن أتهم في إنصافي وتجردي من عواطف الصداقة والمودة، ولا أخشى في نقد ما يستحق النقد أن يشك في إخلاصي ونزاهتي من شوائب الجهل والضغينة، كما أنني لا أدعي العصمة في أحكامي ولا الإحاطة في علمي واختباري.

من مقال للمؤلف نشر في مجلة المشرق في بيروت وكانت تصدر عن الجامعة اليسوعية بإدارة الآباء اليسوعيين.
عام ١٩٤٣ - المجلد ٤٠ صفحة ٢٩

دار الفكر الحديث

منطقة الصنائع - شارع ماري عدي - تلفاكس: ٠١/٧٣٦٨٣١
ص.ب.: ١١/٨٤١١ - رمز: ١١٠٧٢٢٦٠ - بيروت - لبنان